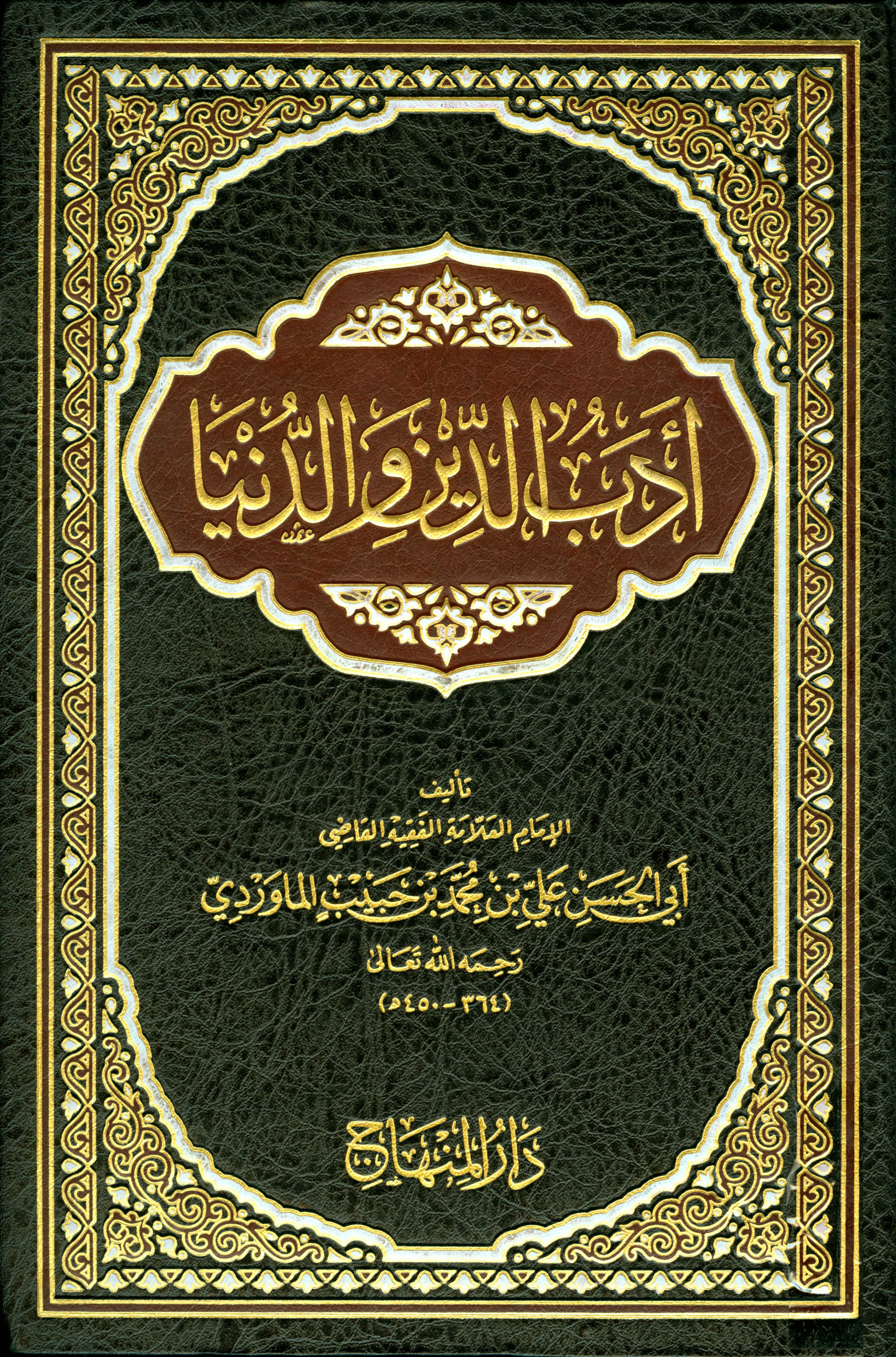
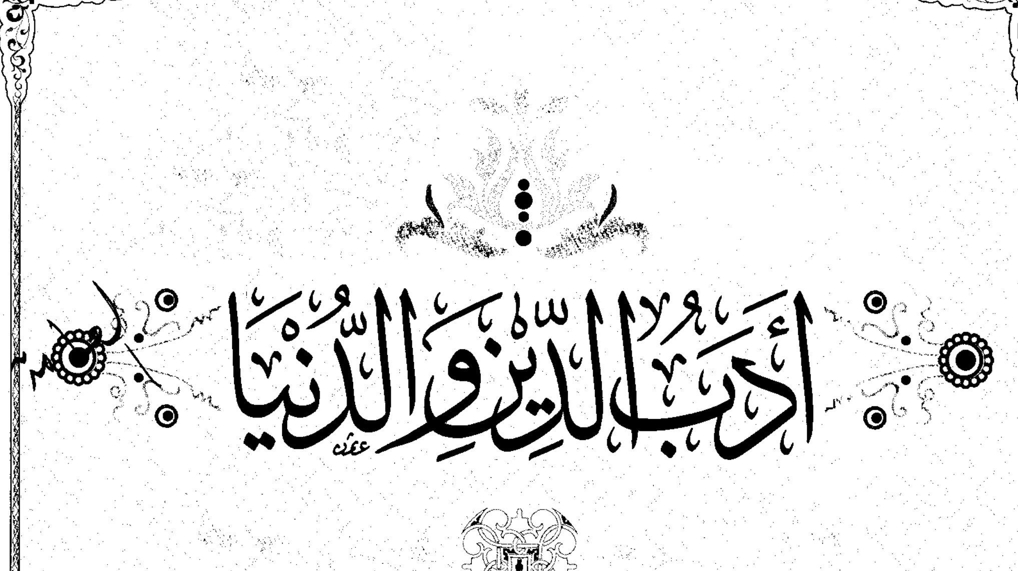
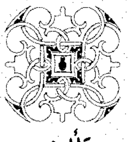

أدب الدين والدنيا
تأليف
الإمام العلامة الفقيه القاضي
أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي
رحمه الله تعالى
(٣٦٤-٤٥٠هـ)
دار المنهاج





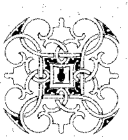
تأليف

الإمام العلّامة الفقيه القاضي

أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي

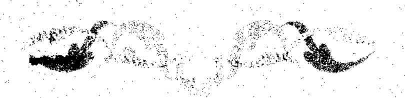
رحمه الله تعالى

(٣٦٤ - ٤٥٠هـ)



تشرفت بخدمته والعناية به

اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي



دار المنهاج

الطّبْعَة الأولى

١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م

جميع الحقوق محفوظة للناشر

اسم الكتاب : أدب الدين والدنيا

المؤلف : الإمام الماوردي (ت ٤٥٠ هـ)

الإعداد : مركز دار المنهاج للدراسات

موضوع الكتاب : أخلاق وأدب

مقاس الكتاب : (٢٤ سم)

تصنيف ديوي الموضوعي : (٢١٢)

عدد الأجزاء : (١)

عدد المجلَّدات : (١)

نوع الورق : شاموا فاخر

نوع التجليد : مجلَّد فني

عدد الصفحات : (٧٦٨ صفحة)

عدد ألوان الطباعة : لونان

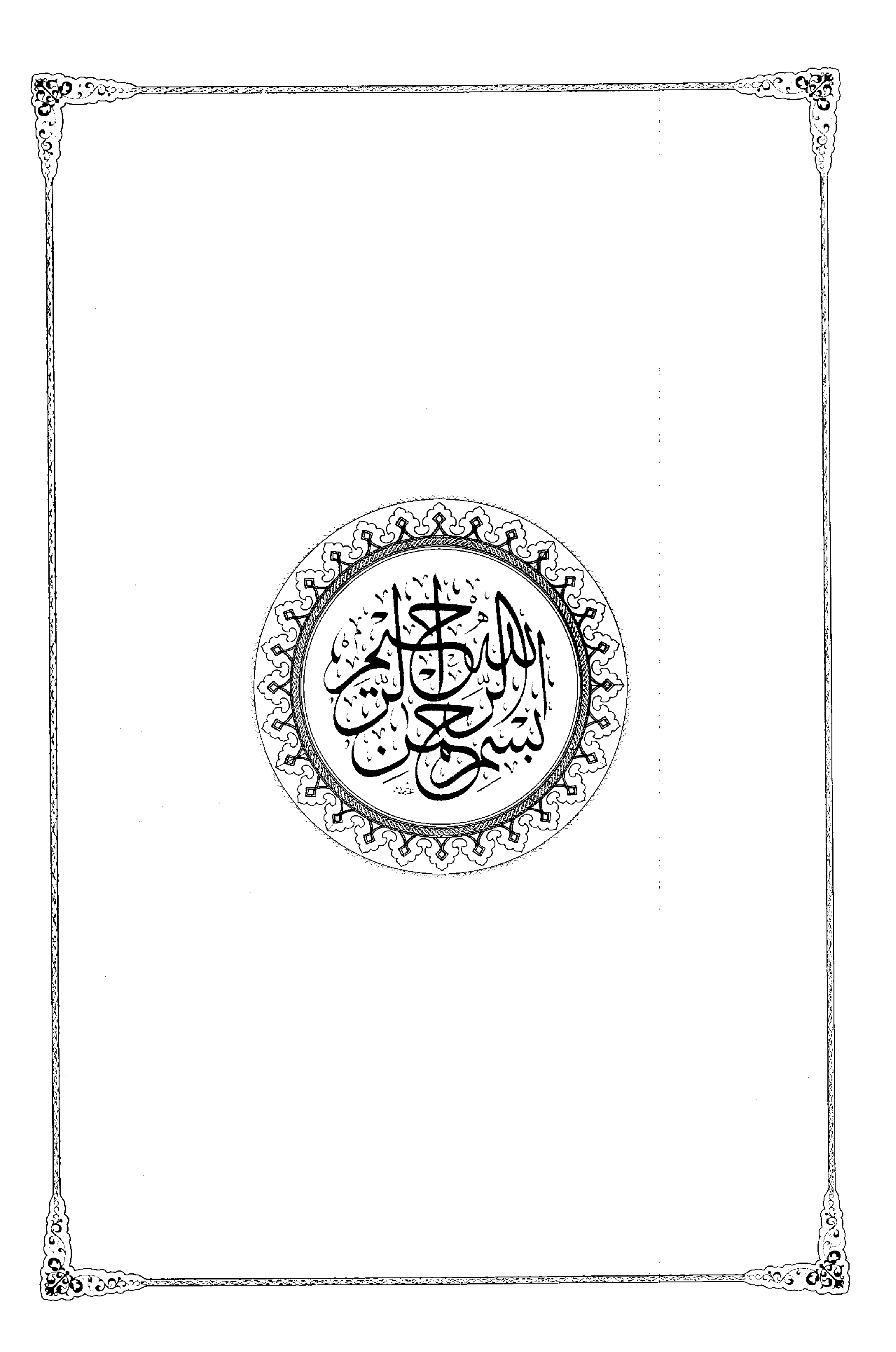
التصميم والإخراج : مركز المنهاج للصف والإخراج الفني

لا يسمح بإعادة نشر هـذا الكتـاب أو أي جـزءٍ منـه بـأيِّ شكـلٍ مـن الأشكـال ، أو نسخه ، أو حفظـه في أي نظـام إلـكتروني أو ميكـانيكي يمكّـن مـن استرجـاع الكتـاب أو أي جـزءٍ منـه ، وكذلك لا يسمح بترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصـول على إذن خطي مسبقاً من الناشر .



الرقم المعياري الدولي

ISBN: 978 - 9953 - 541 - 14 - 3


بسم الله الرحمن الرحيم





دار المنهاج
لبنان ـ بيروت
هاتف : 806906 05 ـ فاكس : 813906 05

دار المنهاج للنشر والتوزيع
لصاحبها عمر سالم باجخيف
وفقه الله تعالى

المملكة العربية السعودية ـ جدة
حي الكندرة ـ شارع أبها تقاطع شارع ابن زيدون
هاتف رئيسي 6326666 ـ الإدارة 6300655
المكتبة 6322471 ـ فاكس 6320392
ص . ب 22943 ـ جدة 21416

عضو في الاتحاد العام للناشرين العرب
عضو في إدارة جمعية الناشرين السعوديين
عضو في نقابة الناشرين في لبنان

www.alminhaj.com
E-mail: info@alminhaj.com

الموزّعون المعتمدون داخل المملكة العربيّة السّعوديّة

جدة

مكتبة دار كنوز المعرفة

هاتف 6570628 ـ 6510421

مكة المكرمة

مكتبة الأسدي

هاتف 5570506 ـ 5273037

مكة المكرمة

مكتبة نزار الباز

هاتف 5473838 ـ فاكس 5473939

المدينة المنورة

دار البدوي

هاتف 0503000240

المدينة المنورة

مكتبة الزمان

هاتف 8366666 ـ فاكس 8383226

الطائف

مكتبة المزيني

هاتف 7365852

الدمام

مكتبة المتنبي

هاتف 8344946 ـ فاكس 8432794

الرياض

دار التدمرية

هاتف 4924706 ـ فاكس 4937130

الرياض

مكتبة الرشد

هاتف 2051500 ـ فاكس 2253864

الرياض

مكتبة جرير

وجميع فروعها داخل المملكة وخارجها

هاتف 4626000 ـ فاكس 4656363

الرياض

مكتبة العبيكان

وجميع فروعها داخل المملكة

هاتف 4654424 ـ فاكس 2011913

الموزعون المعتمدون خارج المملكة العربية السعودية



فيرجن وفروعها في العالم العربي

الجمهورية اليمنية

مكتبة تريم الحديثة ـ حضرموت
هاتف 417130 ـ فاكس 418130

مملكة البحرين

مكتبة الفاروق ـ المنامة
هاتف 17272204 ـ فاكس 17256936

الإمارات العربية المتحدة

حروف للنشر والتوزيع ـ أبو ظبي
هاتف 5593007 ـ فاكس 5593027

مكتبة الإمام البخاري ـ دبي
هاتف 2977766 ـ فاكس 2975556

مكتبة دبي للتوزيع ـ دبي
هاتف 3339998 ـ فاكس 3337800

دولة الكويت

مكتبة دار البيان ـ حَوَلي
تلفكس 22616490 ـ جوال 9952001

دار الضياء للنشر والتوزيع ـ حَوَلي
هاتف 22658180 ـ فاكس 22658180

جمهورية مصر العربية

دار السلام ـ القاهرة
هاتف 22741578 ـ فاكس 22741750

مكتبة نزار الباز ـ القاهرة
هاتف 25060822 ـ جوال 0122107253

الجمهورية اللبنانية

الدار العربية للعلوم ـ بيروت
هاتف 785107 ـ فاكس 786230

مكتبة التمام ـ بيروت
هاتف 707039 ـ جوال 03662783

المملكة المغربية

مكتبة التراث العربي ـ الدار البيضاء
هاتف 0522853562 ـ فاكس 0522854003

دار الأمان ـ الرباط
هاتف 0537723276 ـ فاكس 0537200055

دولة قطر

مكتبة الثقافة ـ الدوحة

هاتف 44421132 ـ فاكس 44421131

المملكة الأردنية الهاشمية

دار محمد دنديس ـ عمّان

هاتف 4653390 ـ فاكس 4653380

الجمهورية العربية السورية

مكتبة المنهاج القويم ـ دمشق

هاتف 2235402 ـ فاكس 2242340

جمهورية الجزائر

دار البصائر ـ الجزائر

هاتف 021773627 ـ فاكس 021773625

جمهورية الصومال

مكتبة دار الزاهر ـ مقديشو

هاتف 002525911310

الجمهورية التركية

مكتبة الإرشاد ـ إستانبول

هاتف 02126381633 ـ فاكس 02126381700

جمهورية أندونيسيا

دار العلوم الإسلامية ـ سوروبايا

هاتف 0062313522971

جوال 00623160222020

الهند

مكتبة الشباب العلمية ـ لكناؤ

هاتف 00919198621671

جمهورية فرنسا

مكتبة سنا ـ باريس

هاتف 0148052928 ـ فاكس 0148052997

انكلترا

دار مكة العالمية ـ برمنجهام

هاتف 01217739309 ـ جوال 07533177345

فاكس 01217723600

جميع منشوراتنا متوافرة على

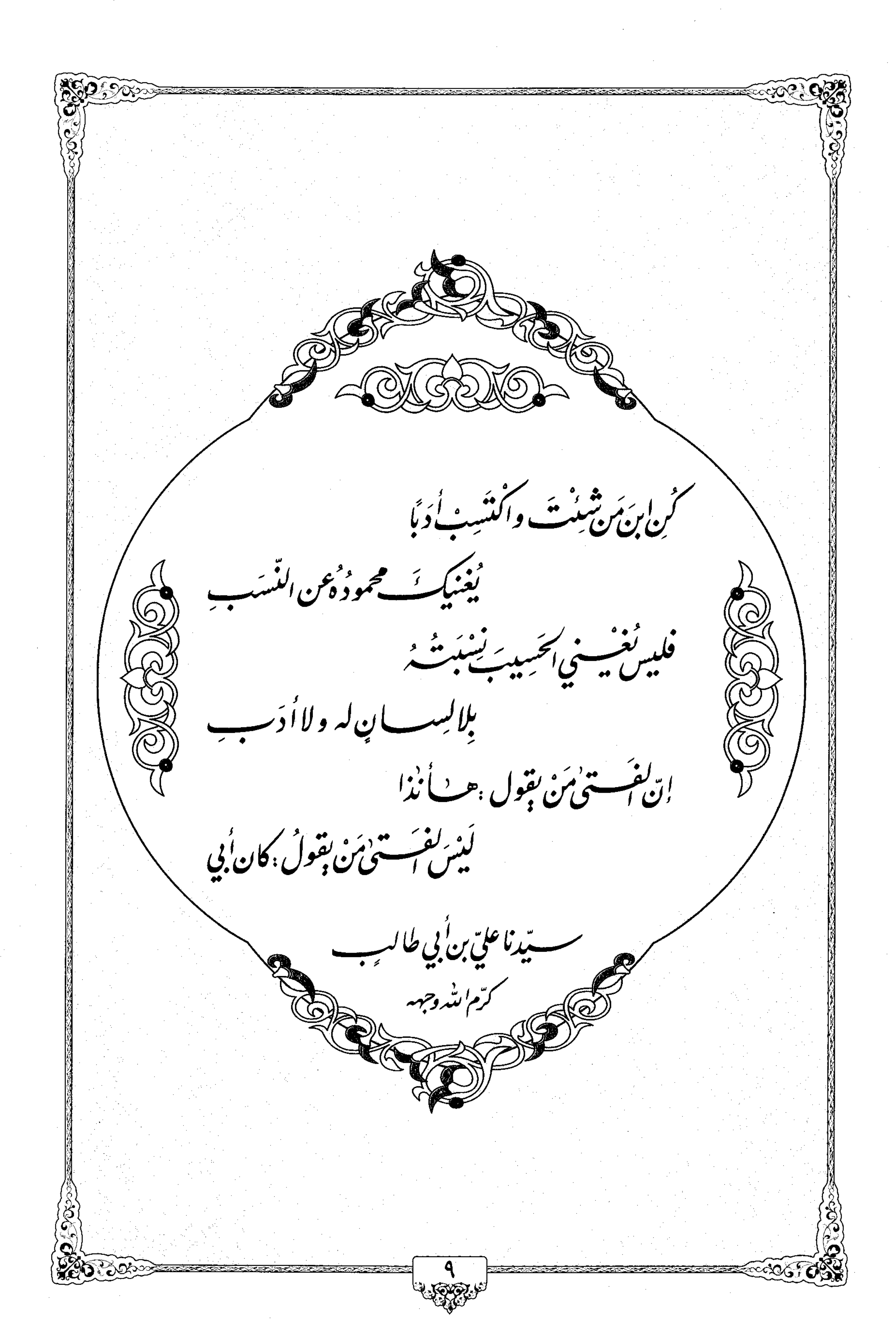
موقع مكتبة نيل وفرات . كوم لتجارة الكتب

www.nwf.com



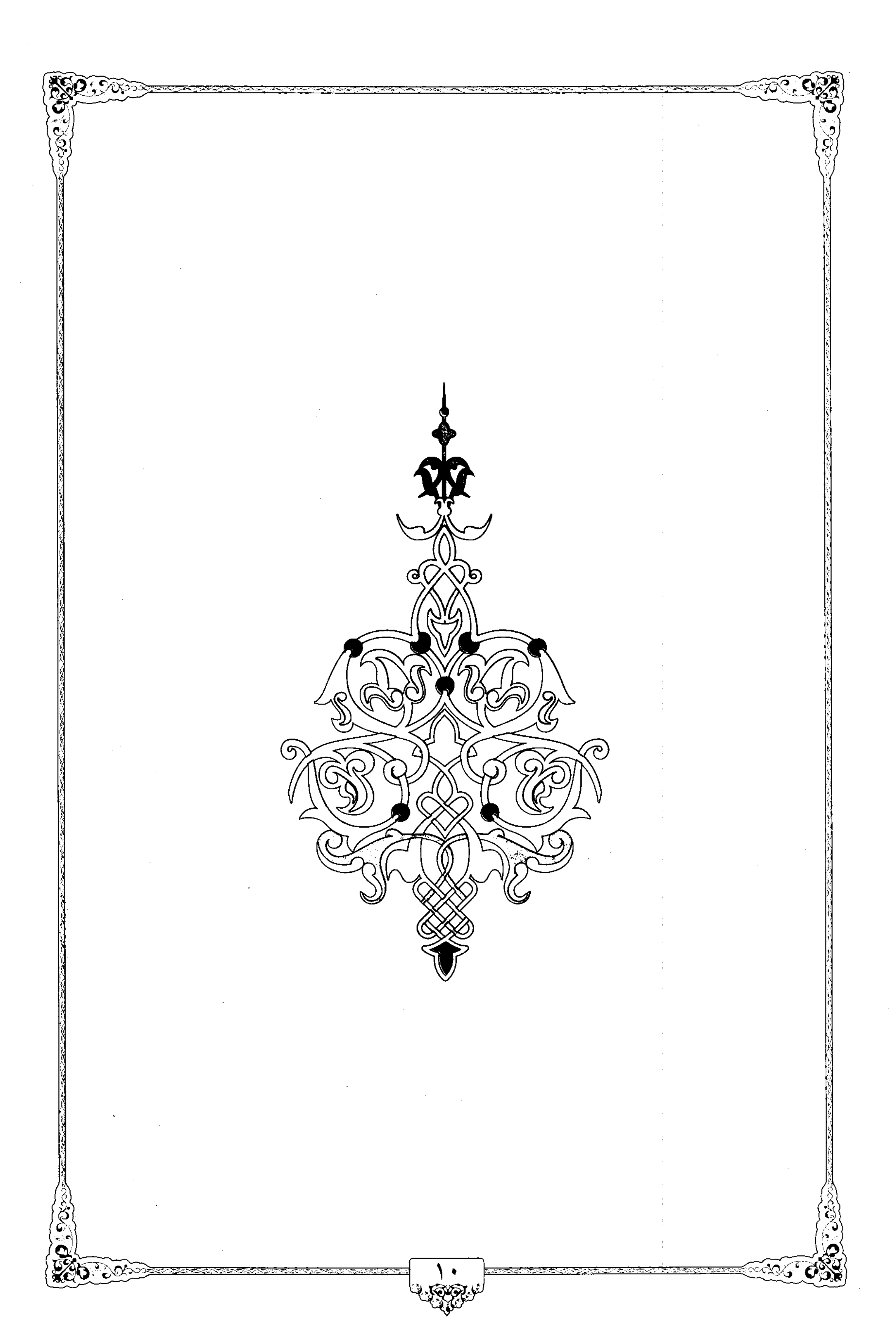
موقع رائد لتجارة الكتب والبرمجيات العربية

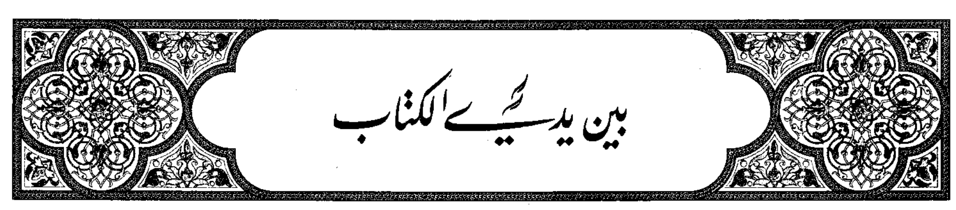
www.furat.com



كُن ابنَ مَن شئتَ واكتسِبْ أدبًا
يُغنيكَ محمودُهُ عن النّسبِ
فليس يُغني الحسيبَ نسبتُهُ
بلا لسانٍ له ولا أدبِ
إنّ الفتى مَن يقول: ها أنذا
ليسَ الفتى مَن يقولُ: كان أبي

سيّدنا عليّ بن أبي طالب
كرّم الله وجهه





بين يدي الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، حمد الذاكرين الشاكرين ، **والصلاة والسلام علىٰ** سيدنا محمد خاتم النبيين ، وعلىٰ آله وصحبه الطيبين .

وبعد : فقد قيل قديماً : **لم يترك الأول للآخر** ؛ ائتساءً بقول عنترة :

هـل غـادر الشعـراءُ مـن متـردَّمِ أم هل عرفت الدار بعد توهمِ

فكان هٰذا القيل ذريعةً لمحبِّي الدَّعة والتقليد إلى العكوف علىٰ مصنفات السلف وتحفّظها وتدريسها .

لٰكن أوجد الله تعالىٰ في كل قرنٍ من هٰذه الأمة مَن يحمل راية الاجتهاد والتجديد ؛ لإحياء النظر ، وإعمال الفكر .

ولله درُّ الجاحظ إذ قال : (**ليس ممَّا يستعمل الناس كلمةٌ أضرُّ بالعلم والعلماء** ، ولا أضرُّ بالخاصة والعامة من قولهم : « ما ترك الأول للآخر شيئاً »)[1] .

وهٰذا أمير البيان أبو تمام يقول :

كم ترك الأولُ للآخرِ

ويقول بعض الفضلاء : (**التصنيف علىٰ سبعة أقسام ، لا يصنف عالم عاقل إلا فيها** ؛ وهي : إما شيءٌ لم يُسبَقْ إليه فيخترعه ، أو شيءٌ ناقص فيتمُّه ، أو شيءٌ مغلقٌ يشرحه ويُبيِّنه ، أو شيءٌ طويل يختصره ، أو شيءٌ متفرقٌ يجمعه ، أو شيءٌ مختلطٌ يرتِّبه ، أو شيءٌ أخطأ فيه مؤلفه فيصلحه)[2] .

---

(١) انظر « الخصائص » للإمام ابن جني (١/ ١٩١ـ ١٩٢) .
(٢) انظر « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب » للإمام المقَّري (٣/ ١٧٦) .

ونحن إذ نقف علىٰ ساحل « أدب الدين والدنيا ».. نرى الإمام أبا الحسن رحمه الله داخلاً في القسم الخامس من أقسام التصنيف ، لـٰكنه أبدع فيه إذ جمع ـ كما قال في مقدمته ـ بين تحقيق الفقهاء ، وترقيق الأدباء ، وأورد فيه شواهد من الكتاب والسنة ، والأمثال والحكم والأشعار .

ولقد قصد إلىٰ تنويع أبوابه وفصوله ؛ دفعاً للملال ، وحثاً على التمسك بمحاسن الخصال :

فمن الحديث عن العقل وفضله دخل إلىٰ بيان أدب العلم والعالم والمتعلِّم ، ثم ثلَّث بأدب الدين ذاكراً فيه المأمورات والمنهيَّات ، ورياضة النفس .

ثم توسَّع في بيان قواعد صلاح الدنيا ، وقواعد صلاح الإنسان فيها .

ويحتلُّ أدب النفس القسم الأكبر من الكتاب ، فهو يعرضه في أدبين :

ـ أدب الرياضة والاستصلاح : ذكر فيه محاسن الأخلاق ومذامَّها ، وبيَّن وسائل محاسبة النفس ومعالجتها للتخلّص من أدوائها .

ـ وأدب المواضعة والاصطلاح : ذكر فيه أحوال النفس من إلقاء الكلام وفهمه ، والبلاغة فيه ، والمشورة وحفظ السرِّ وغيرها ، وأطال في ذكر المروءة وشروطها .

وختم كتابه بآداب منثورة ونصائح جليلة .

فلا جرمَ أتىٰ هـٰذا الكتاب الجليل مستكملاً متنوعاً ، فحاز القَبول لدىٰ أهل العلم علىٰ توالي الأعصار ، فقُرِىء في المجالس ، وأكثر العلماء من الاستشهاد بشواهده وأخباره ؛ كالطُرْطُوشيّ (ت ٥٢٠هـ) في « سراج الملوك » ، والوطواط (ت ٧١٨هـ) في « غرر الخصائص الواضحة » ، والمُناويّ (ت ١٠٣١هـ) في « فيض القدير » و« التيسير » .

وعكف على اختصاره ابن ليون التجيبيُّ (ت ٧٥٠هـ) في « النخبة العليا من أدب الدين والدنيا » .

وشرحه أويس وفا بن محمد بن أحمد بن خليل بن داوود الأرزنجانيّ الشهير بـ(خان زاده) المتوفىٰ بعد سنة (١٣٢٧هـ) .

ويبدو للمطَّلع أن مصادر المؤلف رحمه الله في الأعم الأغلب . . هي أمهات دواوين العرب ، وأبرزها كتب الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) ، وابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) ، وابن عبد ربه (ت ٣٢٨هـ) ، وأبي عبيد القاسم بن سلاّم (ت ٣٣٨هـ) ، وأبي هلال العسكريّ (ت ٣٩٥هـ) ، وأبي حيان التوحيديّ (ت ٤١٤هـ) ، وأبي منصور الثعالبي (ت ٤٢٩هـ) .

والمسطور يدلُّ على المستور ، وينمُّ عن مكنون العلم ، ومخزون المعرفة ؛ ففي هـٰذا الكتاب تبرز شخصية المؤلف ، فتراه يفصل تباين وجهات النظر في مسائل عقلية كلامية ؛ كتعريف العقل وصفته ومحله ، وأخرىٰ فقهية ؛ كأحوال النهي عن المنكر ، وموجِب نصب الإمام ، وجواز تعدّده ، وأخلاقية تربوية ؛ كالاستكثار من الإخوان ، وغير ذلك كثير من المواضيع المبثوثة في ثنايا الكتاب .

فإذا عرض آيةً وأراد بيان الأقوال في تفسيرها . . كان له ذلك مع الإتقان والاختصار ، وكيف لا وهو صاحب « النكت والعيون » ؟!

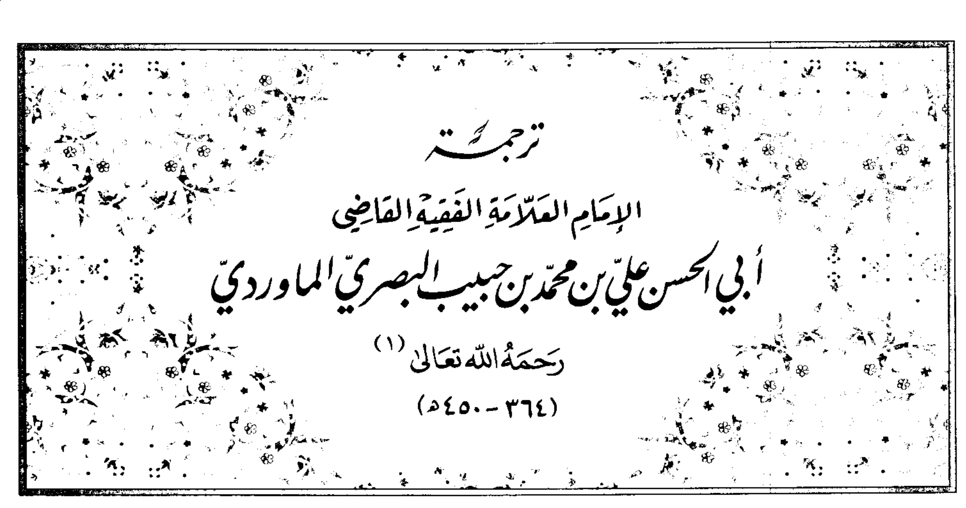
ويبدو جليّاً حبُّه للشعر والأدب من خلال كثرة الشواهد وتواردها على المعنى الواحد من الشعر والأمثال والحكم .

فهو إذاً منطقيٌّ فقيهٌ زاهدٌ مفسِّرٌ أديب .

وليس على الله بمستنكرٍ أن يجمعَ العالَمَ في واحدِ

جعلنا الله تعالىٰ علىٰ سننه في العلم والإخلاص ، وتقبَّل منّا أعمالنا بفضله وكرمه ، وستر عيوبنا ، إنه علىٰ ما يشاء قدير ، وبالإجابة جدير .

النّاشر



اسمه ولقبه وأسرته

هو أقضى القضاة ، أبو الحسن ، **علي بن محمد بن حبيب البصريُّ الماورديُّ** ، وهي نسبة إلىٰ عمل الماوَرد ؛ لأن بعض أجداده كان يعمله أو يبيعه .

تذكر المصادر : أن له ابناً اسمه **أبو الفائز** عبد الوهاب الشاهد ، **سمع الحديث بالبصرة** علىٰ أبي الحسن علي بن القاسم بن الحسن النجاد ، **وقدم بغداد مع والده واستوطنها** ، وقبِلَ قاضي القضاة ابن ماكولا شهادته في بيت النوبة احتراماً لأبيه ، **توفي في العاشر من محرم** ، سنة (٤٤١هـ) في حياة والده .

سيرته العلميّة

ولد الإمام أبو الحسن الماورديُّ بالبصرة سنة (٣٦٤هـ) ، ونشأ بها محبّاً للعلم ، وَلُوعاً به ، **وتفقّه بها علىٰ أبي القاسم** عبد الواحد بن الحسين

---

(١) أهم مصادر الترجمة : تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (١٢/ ١٠١ـ ١٠٢) ، معجم الأدباء لياقوت الحموي (٥/ ٣٦٦ـ ٣٦٨) ، الأنساب للسمعاني (٥/ ١٨٢) ، طبقات الفقهاء الشافعية لابن الصلاح (٢/ ٦٣٦ـ ٦٤٢) ، وَفَيات الأعيان لابن خلكان (٣/ ٢٨٢ـ ٢٨٤) ، تاريخ الإسلام (٣٠/ ٢٥٢ـ ٢٥٦) ، سير أعلام النبلاء كلاهما للذهبي (١٨/ ٦٤ـ ٦٨) ، الوافي بالوَفَيات للصفدي (٢١/ ٤٥١ـ ٤٥٣) ، مختصر طبقات الفقهاء للنووي (ص ٥٣٠ـ ٥٣٥) ، مرآة الجنان لليافعي (٣/ ٧٢ـ ٧٣) ، المهمات للإسنوي (١/ ٣١٤ـ ٣١٥) ، طبقات الفقهاء الشافعيين لابن كثير (١/ ٤١٨ـ ٤١٩) ، طبقات الشافعية الكبرىٰ للسبكي (٥/ ٢٦٧ـ ٢٨٥) ، لسان الميزان لابن حجر (٦/ ٢٤ـ ٢٥) ، شذرات الذهب لابن العماد (٥/ ٢١٨ـ٢١٩) .

الصَّيمريّ[1] ، المتوفىٰ بعد سنة (٣٨٦هـ) ، من أصحاب الوجوه .

وأخذ الحديث بها عن الإمام المحدث محمد بن عدي بن زَحْر **المنقريّ** ، والإمام المحدث محمد بن المعلى **الأزديّ** .

ثم رحل إلىٰ **بغداد** ، وسكن درب الزعفرانيّ[2] ، **وأخذ الفقه بها على الشيخ أبي حامد** أحمد بن محمد **الإسفراييني** (ت٤٠٦هـ) .

وأخذ الحديث ببغداد عن أبي علي الحسن بن علي بن محمد **الجبَليّ** ؛ صاحب أبي خليفة الجمحيّ ، **وجعفر بن محمد** بن الفضل **البغدادي** .

تلاميذه

روىٰ عنه : أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت **الخطيب البغدادي** (ت ٤٦٣هـ) ، وأبو بكر أحمد بن علي بن بدران **الحلواني البغدادي** ؛ المعروف بـ(خالوه) (ت ٥٠٧هـ) .

وآخر مَن **روىٰ عنه** : أبو العز أحمد بن عبيد الله **ابن كادش السلميّ العكبريّ** (ت ٥٢٥هـ) .

منزلته العلميّة

تصدَّر الإمام أبو الحسن الماوردي مجالس التدريس ، وأخذ في التأليف في شتى الفنون ؛ **حتىٰ طبقت شهرته الآفاق** ، وضُربت إليه أكباد الإبل .

ثم استُقضي فنال لقب (أقضى القضاة) سنة (٤٢٩هـ) ، وهـٰذه الرتبة دون (قاضي القضاة) علىٰ سبيل الاصطلاح ، وإلا . . فالأَولىٰ أن يكون أقضى القضاة أعلىٰ منزلةً .

وكان ذا منزلةٍ من ملوك بني بُوَيه ، يرسلونه في التوسطات بينهم وبين من يناوئهم ، ويرتضون بوساطته ، ويقفون بتقريراته .

---

(١) منسوب إلىٰ صَيْمرة ؛ كورة من أعمال البصرة .

(٢) من أحياء بغداد ، منسوب لأبي علي الحسن بن محمد بن الصباح الزعفراني (ت ٢٦٠هـ) .

مؤلفاته

للعلامة أبي الحسن فهم ثاقب ، وقلم سيَّال ، متوَّجان بتوفيق الله سبحانه ، فأثمر ذلك تصانيف حساناً في كل فن ؛ منها :

تفسير القرآن المسمى : « النكت والعيون » جعله مقصوراً علىٰ تأويل ما خفي علمه ، جامعاً بين أقاويل السلف والخلف .

و« الحاوي الكبير » في الفقه ، شرح به « مختصر المزنيّ » ، مع استيفاء اختلاف الفقهاء .

و« الإقناع » في الفروع .

و« أعلام النبوة » .

و« أمثال القرآن » .

و« الأحكام السلطانية » وهو فريد في بابه ، جرَّده من كتب الفقه ؛ ليرجع إليه ولاة الأمور فيما لهم وعليهم .

و« قوانين الوزارة وسياسة الملك » .

و« تسهيل النصر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك » .

وله كتاب في النحو بحجم « الإيضاح » للفارسي ، رآه ياقوت الحموي[1] .

اجتهاده في الأصول والفروع

تفرّد العلامة أبو الحسن الماوردي في فقه الشافعية وأصولهم بمسائل تدل على اجتهاده وسعة باعه في العلم والنظر .

فمن غرائبه : عدم تصحيح التحمل والرواية بالإجازة ، وذكر أنه مذهب الشافعي ، وقال : (ولو جازت الإجازة . . لبطلت الرحلة)[2] .

---

(١) انظر « معجم الأدباء » (٥/ ٣٦٨) .

(٢) انظر « الحاوي الكبير » (١/ ١٩) .

ونراه **متحرِّراً عن التقليد** في ردّه قول شيخه الصَّيمريّ : (إن كل مجتهد مصيبٌ في أنه أدىٰ ما كُلِّف من الاجتهاد ، مخطىءٌ للحكم الذي أراده الله تعالىٰ إلا واحداً) بقوله : (**وليس بصحيح** ؛ لأنه كُلِّف الاجتهاد المؤدِّيَ إلى الصواب ، لا المؤدي إلى الخطأ)[1] .

وسلك طريقة في ذوي الأرحام يُورِّث فيها القريب والبعيد بالسوية ؛ وهو مذهب بعض المتقدّمين .

الإمام الماورديّ والاعتزال

رماه تقي الدين ابن الصلاح بالاعتزال ، وقال : (**إن تفسيره عظيم الضرر** ؛ لأنه حُشي بالتدسيسات وأقوالٍ تنبني علىٰ أصول المعتزلة ، مع أنه لا يتظاهر بالانتساب إليهم حتىٰ يحذر)[2] .

لـٰكن قال الذهبي : (**وبكل حال هو** ـ مع بدعة فيه ـ **من كبار العلماء** ؛ فلو أننا أهدرنا كل عالم زلَّ . . لَمَا سلم معنا إلا القليل .

فلا تحطَّ ـ يا أخي ـ **على العلماء مطلقاً** ، ولا تبالغ في تقريظهم مطلقاً ، **واسأل الله أن يتوفاك على التوحيد**)[3] .

وحاول ابن كثير الاعتذار للماوردي فقال : (**اتهمه ابن الصلاح بالاعتزال بحسب ما فهمه منه في « تفسيره »**)[4] .

لـٰكن خاتمة المحققين ابن حجر العسقلاني أنصفه فقال : (**لا ينبغي أن يطلق عليه اسم الاعتزال** . . . والمسائل التي وافق فيها المعتزلة معروفة ؛ **منها** : وجوب الأحكام والعمل بها مستفادٌ من العقل لا الشرع)[5] .

---

(١) انظر « الحاوي الكبير » (٢٠/ ١٩٢) .
(٢) طبقات ابن الصلاح (٢/ ٦٣٨) .
(٣) تاريخ الإسلام (٣٠/ ٢٥٦) .
(٤) طبقات الفقهاء الشافعيين (١/ ٤١٩) .
(٥) لسان الميزان (٦/ ٢٤ـ٢٥) .

زهده وورعه

كان العلامة أبو الحسن الماورديُّ رحمه الله مثلاً للزهد التطبيقيّ ؛ فهو أقضى القضاة ، ذو التآليف والشهرة ، **صاحب الهيئة والسمت الحسن** ، وكلُّ ذلك لم يسلبه تواضع العلماء ، ونصح المخلصين .

فلقد أنكر بعض الفقهاء تلقيبه بأقضى القضاة بعد أن كتبوا خطوطهم بجواز تلقيب جلال الدولة بملك الملوك الأعظم ، **فلم يلتفت إليهم** ، واستمر له اللقب ، **لٰكنه أفتىٰ بمنع التسمية بملك الملوك الأعظم** ، وقد كان من خواص جلال الدولة ، **فدلَّ ذلك علىٰ أنه صَدَّاعٌ بالحق** ، لا يخشىٰ فيه لومة لائم .

وبعد صدور هٰذه الفتوىٰ منه انقطع عن جلال الدولة ، فطلبه وقال له : (**أنا أتحقق أنك لو حابيت أحداً . . لحابيتني** ؛ لما بيني وبينك ، **وما حملك إلا الدِّين** ، فزاد بذلك محلُّك عندي)[1] .

قال التاج السبكي : (**ولم تمكث دولة بني بويه بعد هٰذا اللقب إلا قليلاً** ، ثم زالت كأن لم تكن سنة « ٤٤٧هـ »)[2] .

ويدل لزهده أيضاً ما قيل : إنه لم يظهر كتبه ؛ لأنه لم يجد نيةً خالصةً لله تعالىٰ لم يشبها كدر ، **وأوصىٰ مَن حضره** : أن يضع يده في يده ؛ فإن قبضها . . فليلقها في دجلة ، وإلا . . فلتنشر ، **فأُظهرت كتبه بعده**[3] .

أقول : لقد قُرِىء كتاب « أدب الدين والدنيا » في المجالس سنة (٤٢١هـ) كما في مقدمته ، وكذلك انتشر كتاب « الإقناع » حتىٰ أثنىٰ عليه الخليفة القادر بالله (٤٢٢هـ) ؛ ولذلك قال ابن السبكي : (**لعل المراد بذلك « الحاوي »** ؛ وإلا . . فقد رأيت من مصنفاته غيرَه كثيراً وعليه خطُّه ، ومنه ما أُكملتْ قراءته عليه في حياته)[4] .

---

(١) انظر « تاريخ الإسلام » (٢٩/ ٤١) .
(٢) طبقات الشافعية الكبرىٰ (٥/ ٢٧٢) .
(٣) انظر « تاريخ الإسلام » (٣٠/ ٢٥٤) ، و« طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٥/ ٢٦٨) .
(٤) انظر « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٥/ ٢٦٩) .

سمت وأدب

قال عبد الملك بن إبراهيم الهمذاني : (**لم أرَ أوقرَ منه** ، ولم أسمع منه مضحكةً قط ، **ولا رأيت ذراعه منذ صحبته إلىٰ أن فارق الدنيا**)[1] .

ولقد أُولع الإمام الماوردي بالشعر والأدب ؛ فهو ينشده في خروجه من بغداد إلى البصرة ، يقول[2] :

خرجنا كارهين لها فلما ... ألفناها خرجنا مكرهينا
وما حبُّ البلاد بنا ولكن ... أَمَرُّ العيشِ فرقةُ مَنْ هوينا
خرجتُ أقرَّ ما كانت لعيني ... وخلَّفتُ الفؤادَ بها رهينا

ولما كان الشعر ديوان العرب ، وقاموس لغتهم . . **فقد أكثر من إنشاده في « الحاوي » لبيان المعاني اللغوية** ، وزيادة جلاء المسائل الفقهية ؛ كقوله في **مسألة من القراض** : (قال ربُّ المال للعامل : **لك ثلث الربح** ، **وما بقي . . فلي ثلثه** ، **وثلثاه لك . . .**)[3] فبيَّن الجواب فيها ، ثم أورد قول الشاعر :

لك الثُّلُثانِ من قلبي ... وثُلُثَا ثُلْثِهِ الباقي
وثُلْثَا ثُلْثِ ما يبقىٰ ... وثُلْثُ الثُّلْثُ للسَّاقي
وتبقىٰ أسهمٌ سِتٌّ ... تُفَرَّقُ بين عُشَّاقي

قال التاج السبكي : (**وقد أورثه حب الأدب إدخال هٰذه الأبيات الغزلية في الفقه**)[4] .

ثناء العلماء عليه

ـ لما صنف « الإقناع » . . قال له الخليفة القادر بالله : (**حفظ الله عليك دينك كما حفظت علينا ديننا**)[5] .

---

(١) انظر « معجم الأدباء » (٥/٣٦٧) .
(٢) انظر « شذرات الذهب » (٥/٢١٩) .
(٣) انظر « الحاوي الكبير » (٩/١٤٨) .
(٤) طبقات الشافعية الكبرىٰ (٥/٢٧٦) .
(٥) انظر « معجم الأدباء » (٥/٣٦٨) .

ـ ويقول عنه تلميذه الخطيب البغدادي : (من وجوه الفقهاء الشافعيين ، كتبتُ عنه ، وكان ثقة)[1] .

ـ ويقول ياقوت الحمَوي : (كان عالماً بارعاً متفنناً) ، وروىٰ عنه قوله : (بسطت الفقه في أربعة آلاف ورقة ، واختصرته في أربعين) يريد « الحاوي » و« الإقناع »[2] .

ـ ويقول ابن خيرون : (كان رجلاً جليلاً عظيم القدر ، متقدماً عند السلطان ، أحد الأئمة ، له التصانيف الحسان في كل فن من العلوم)[3] .

ـ ويقول ابن خلِّكان : (من طالع كتاب « الحاوي » . . شهد له بالتبحُّر ومعرفة المذهب)[4] .

ـ ويقول اليافعيّ : (الإمام النحرير الكبير ، مصنف « الحاوي الكبير » ، النفيس الشهير) .

ـ ويقول التاج السبكيّ : (الإمام الجليل القدر ، الرفيع الشأن ، كان إماماً جليلاً رفيع الشأن ، له اليد الباسطة في المذهب ، والتفنن التام في سائر العلوم)[5] .

وفاته

توفي رحمه الله تعالىٰ يوم الثلاثاء ، سلخ شهر ربيع الأول ، سنة (٤٥٠هـ) وله من العمر ست وثمانون سنة .

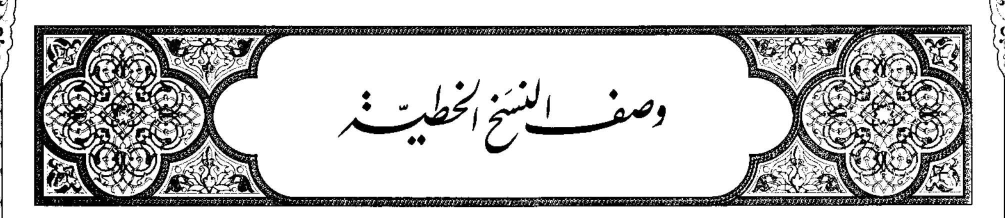
وصلىٰ عليه الخطيب البغدادي في جامع المدينة ، ودُفن من الغد مستهلَّ ربيع الآخر في مقبرة باب حرب ببغداد .

---

(١) تاريخ بغداد (١٢/ ١٠١) .
(٢) معجم الأدباء (٥/ ٣٦٧) .
(٣) انظر « لسان الميزان » (٥/ ٢٥) .
(٤) وفيَات الأعيان (٣/ ٢٨٢) .
(٥) طبقات الشافعية الكبرىٰ (٥/ ٢٦٨) .

وكان بين وفاته ووفاة القاضي أبي الطيب الطبريّ أحد عشر يوماً ، وحضر جنازته من حضر أبا الطيب من العلماء وأرباب الدولة .

سقى الله ثراه شآبيب الرّحمة والغفران
وأسكنه بفضله بحبوحة الجنان



وصف النسخ الخطية

النسخة الأولىٰ : من محفوظات **المكتبة السليمانية** بإستنبول ، تحمل الرقم (٧٤٠) ، **وقف مصطفىٰ رئيس الكتَّاب** ، **كتب بطرّتها** : (كتاب أدب الدين والدنيا للماوردي رحمه الله تعالىٰ) .

وعليها تملكات عدة : (من كتب الفقير خليل بن محمد غفر لهما) ، (ثم صار بحمد الله سبحانه في ملك الفقير . . . محمد بن إبراهيم بن محمد . . . عفا الله عنه ، آمين) ، **وعليها تملك** آخر بتاريخ (٦١٣هـ) .

تقع هـٰذه النسخة في (٢٥٨) ورقة ، **وعدد الأسطر في كل صفحة** (١٦) سطراً ، وعدد الكلمات في كل سطر (٩) كلمات تقريباً ، **وتاريخ نسخها** : (٥٠٣هـ) ، **وقد مُيِّزت أبيات الشعر فيها** بأن كُتبت بخط كبير ، **خطها** نسخي جميل ، **وبُثَّت في هوامشها فوائد** متفرّقة ، وتصحيحات ، ومطالب تظهر العناية بها .

انفردت هـٰذه النسخة بذكر إسناد الكتاب ؛ فبين المؤلف والناسخ رجل واحد ؛ هو **أبو شجاع** فارس بن **الحسين** الذي تلقَّى الكتاب علىٰ مؤلفه سنة (٤٢١هـ) بواسط ، **وأقرأه في بغداد** سنة (٤٨٦هـ) ، فيكون بذلك **قد ألحق الأصاغر بالأكابر ، وجعل إسناده عالياً** .

وإذا ضممنا إلىٰ علو الإسناد عناية الناسخ بترقيم الكتاب وضبطه ومقابلته . . **علمنا فضل هـٰذه النسخة علىٰ غيرها** .

ولقد ازدانت طرّتها وخواتيمها بفوائد منثورات ، ونفائس مستجادات ، آثرنا **إيرادها آخر الكتاب للفائدة** .

وقد رمزنا لها بـ(أ) .

النسخة الثانية : من **محفوظات المكتبة الأزهرية** ، **تحمل** الرقم (١٤١٢) عمومي أدب ، (١٩١٣) خصوصي ، **مخرومة الأول والآخر** .

كتبت فيها الفصول والعناوين والتقسيمات بالحمرة ، وكذلك ميّزت الأشعار بالحمرة ، وفيها شيء من الضبط .

تقع هـٰذه النسخة في (١٥٥) ورقة ، **وعدد الأسطر في كل صفحة** (٢٢) سطراً ، وعدد الكلمات في كل سطر (٩) كلمات تقريباً .

وقد رمزنا لها بـ (ب) .

❁ ❁ ❁

النسخة الثالثة : من محفوظات مكتبة **جامعة الملك سعود** بالرياض ، **تحمل** الرقم (١٠٩٤) .

فيها خرم في مواضع متفرقة ، أكملت في الترميم بصور من النسخة الرابعة أدرجت فيها ، **وهي مضطربة الترتيب** .

وقد ميزت الأشعار بنقاط حمراء إلىٰ جوارها ، والفصول والأبواب كتبت بالحمرة ، **وخطها نسخي نفيس** .

تقع هـٰذه النسخة في (١٧٠) ورقة ، منها نحو (٣٠) ورقة منسوخة من غيرها لإكمالها ، **وعدد الأسطر في كل صفحة** (٢٥) سطراً ، وعدد الكلمات في كل سطر (٩) كلمات ، **وتاريخ النسخ** : (٨٠١هـ) .

وقد رمزنا لها بـ (ج) .

❁ ❁ ❁

النسخة الرابعة : من محفوظات مكتبة **جامعة الملك سعود** بالرياض ، تحمل الرقم (٩٠٦) ، **وهي مخرومة الأول** نحو ورقة ، **خطها نسخيّ** حسن الفصول والأبواب ، مميزة بخط أسود عريض ، ورؤوس الفقر ونحو (قال ، وروي ، ومنها ، . . .) بالحمرة ، والتعدادات والشعر مميزة بنقاط حمراء .

في هامشها مطالب تشير إلىٰ مباحث الكتاب .

وهي مقابلة ، وبآخرها : (بلغ مقابلة علىٰ حسب الطاقة) ، ويلاحظ أن فيها تحريفاً كثيراً .

تقع هـٰذه النسخة في (١٦٠) ورقة ، عدد الأسطر في كل صفحة (٢٣) سطراً ، وعدد الكلمات في كل سطر (١٠) كلمات تقريباً .

تاريخ نسخها : (١١٠٠هـ) .

وقد رمزنا لها بـ (د) .

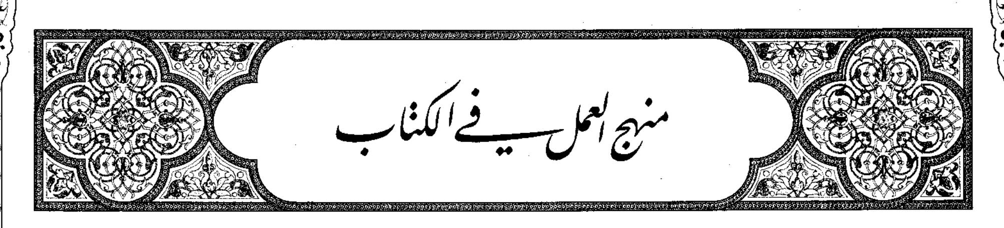
النسخة الخامسة : نسخة مطبوعة ، وهي شرح للكتاب ، للعلامة : أويس وفا بن محمد الأرزنجاني الحنفي رحمه الله تعالى ، وسماه : « منهاج اليقين شرح أدب الدنيا والدين » .

تتألف هـٰذه النسخة من (٥٧١) صفحة من القطع الكبير ، وقد طبع في حياة مؤلفه ؛ كما نص علىٰ ذلك آخر الكتاب فقال : (يقول مؤلفه : قد طبع هـٰذا الكتاب في المرة الأولىٰ في زمن السلطان الأعظم : محمد رشاد خان المعظم . . . وقد قابلت المتن بنسخ خمسٍ من مطبوع وغير مطبوع سوىٰ ما صححت من الأصول والمآخذ من كتب التفاسير والأحاديث والأخلاق والدواوين . وقد تم طبعه : يوم الأحد ، التاسع من ذي الحجة ، لسنة ثمان وعشرين وثلاث مئة وألف) .

وقد جعل المؤلف المتن بين قوسين ، وذكر بعض فروق النسخ ، ووجه كثيراً من العبارات .

هـٰذا وقد استفدنا من هـٰذه النسخة كثيراً ، رحم الله مؤلفها .

وقد رمزنا لهـٰذه النسخة بـ (هـ) .



منهج العمل في الكتاب

اعتمدنا في إخراج هـٰذا الكتاب المبارك علىٰ أربع نسخ خطية ، ونسخة مطبوعة لـ« منهاج اليقين شرح أدب الدنيا والدين » للأرزنجاني رحمه الله تعالى ، متبعين الخطوات التالية :

ـ نسخ الكتاب ، ومعارضته علىٰ أصوله الخطية ، وإثبات بعض فروق النسخ مما له فائدة ، أو يعطي معنىً آخر .

ـ كتابة الآيات القرآنية بالرسم العثماني ؛ تحاشياً لوقوع الخطأ في رسمها وضبطها ، وهي من رواية حفص عن عاصم رحمهما الله تعالىٰ ، ووضعها بين مزهرين ﴿ ﴾ .

ـ تخريج الأقوال والروايات في تفسير الآيات من كتب التفسير المشهورة .

ـ تخريج الأحاديث النبوية والآثار من مظانها المتوفرة .

ـ تخريج الحكم والأمثال والأقوال .

ـ تخريج الأبيات الشعرية ، بردِّها إلى دواوين الشعر وكتب الأدب واللغة .

ـ ترجمة المؤلف ترجمة موجزة .

ـ الاستئناس بـ« منهاج اليقين » للأرزنجاني (ت بعد ١٣٢٧هـ) في حلّ بعض فروق النسخ ، وشرح المشكل وغريب اللفظ .

ـ صنع فهارس جامعة للكتاب ؛ تتكون من : فهرس الآيات القرآنية ، وفهرس الأحاديث النبوية ، وفهرس الآثار والأقوال والأخبار ، وفهرس الأمثال والحكم ، وفهرس الكتب الواردة في المتن ، وفهرس الأبيات الشعرية ، وفهرس الأعلام ، وفهرس الأماكن والبلدان والمواضع ، وفهرس القبائل والجماعات والأمم ، وقد تمت فهرسة الأشعار وفق حرف الرويِّ مرتباً ترتيباً هجائياً ، ثم وفق حركة الرويِّ (ـُـ ، ـَـ ، ـِـ ، ـْـ) ضمن الحرف الواحد ، ثم وفق البحور الخليلية ضمن

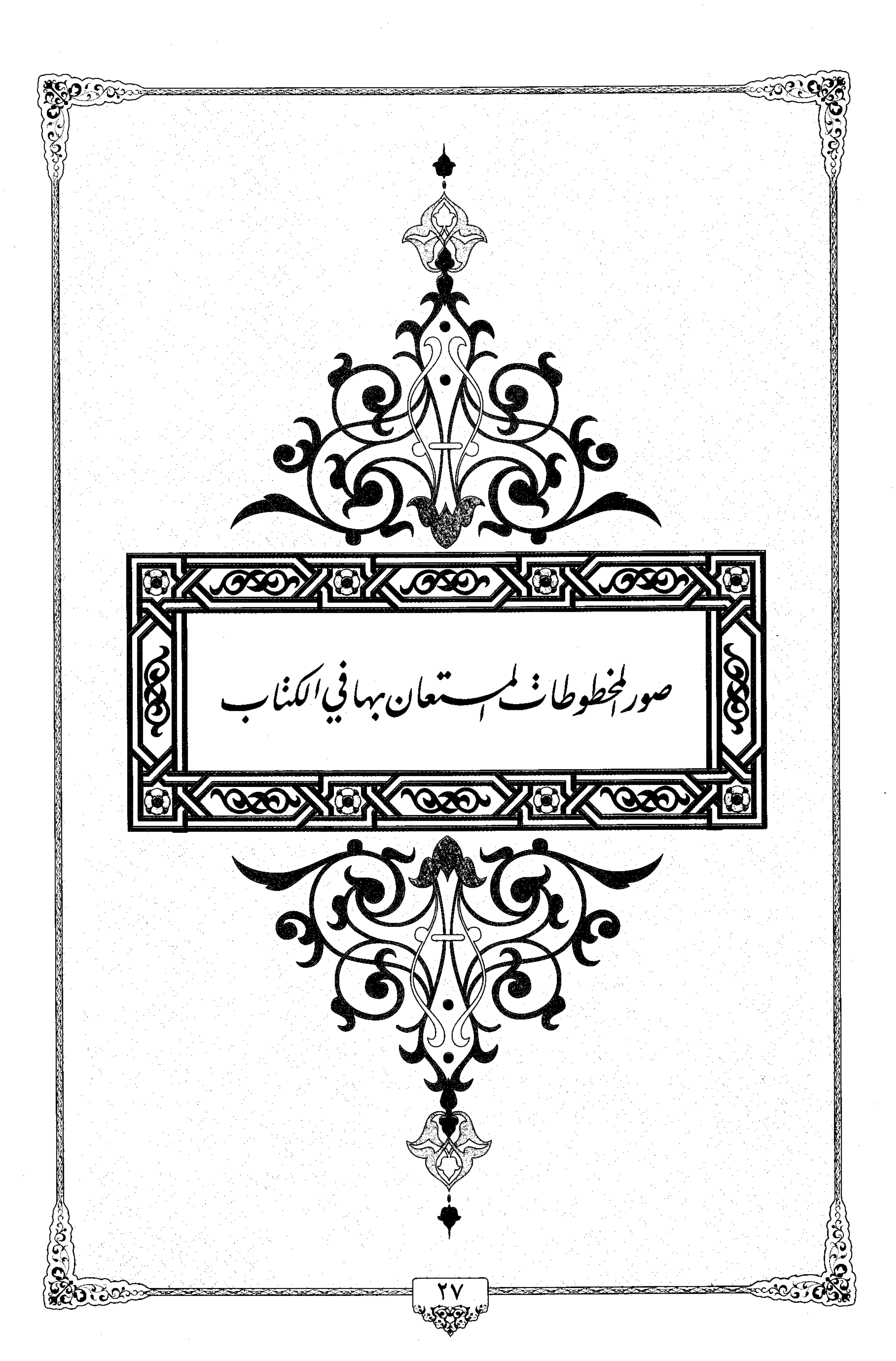
الحركة الواحدة ، ثم وفق الحرف الأول هجائياً من كلمة القافية ضمن البحر الواحد .

وقد اعتُمِدَتْ الرموز التالية في ذكر البحر : (خ) للمخلع ، (ج) للمجزوء ، (ش) للمشطور .

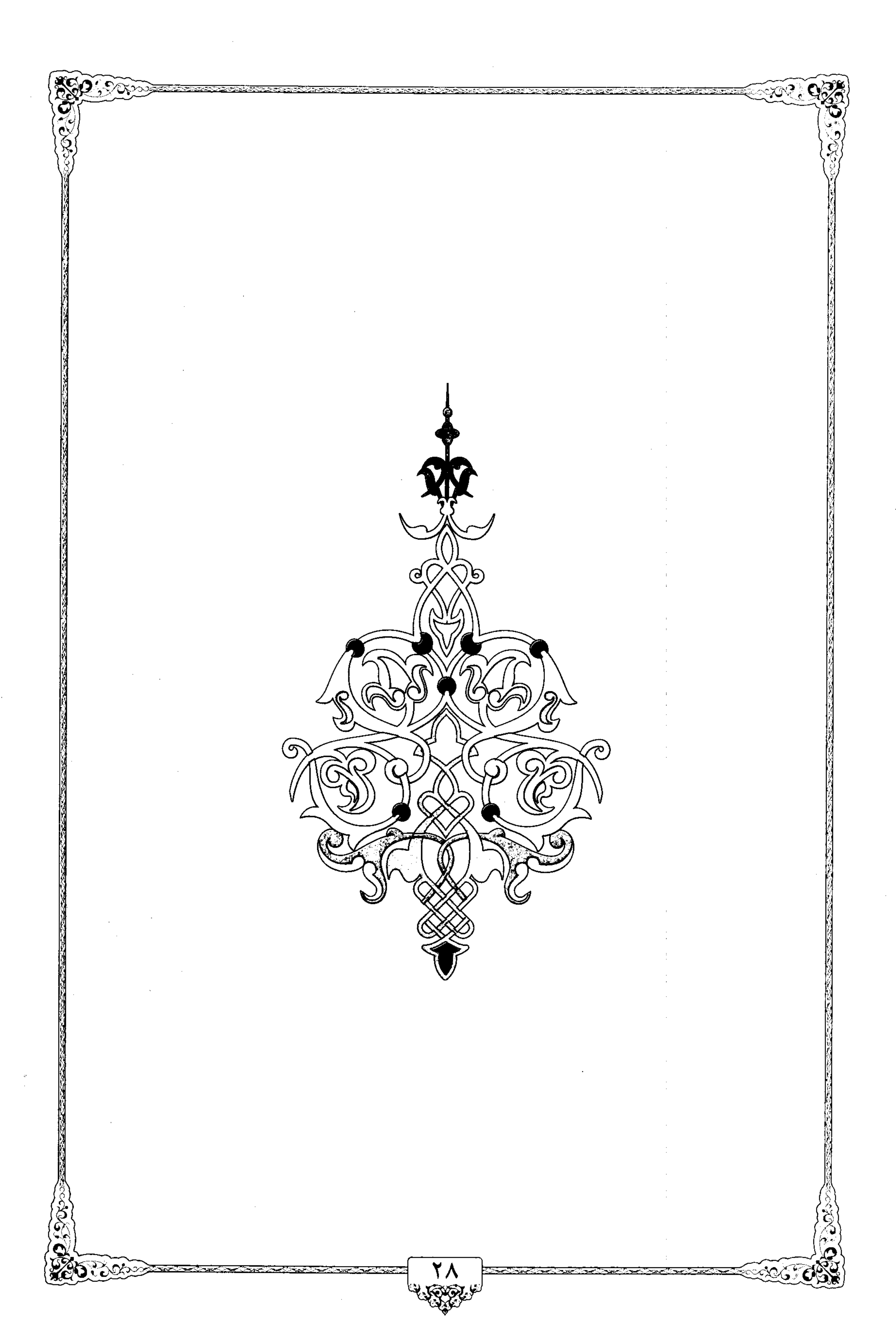
وفي الختام : نسأل الله أن يجزي بالخير كل من ساهم أو شارك في إعداد هٰذا الكتاب ، وأن يتقبله منا ، وأن يعم نفعه سائر العباد ، إنه ولي التوفيق .

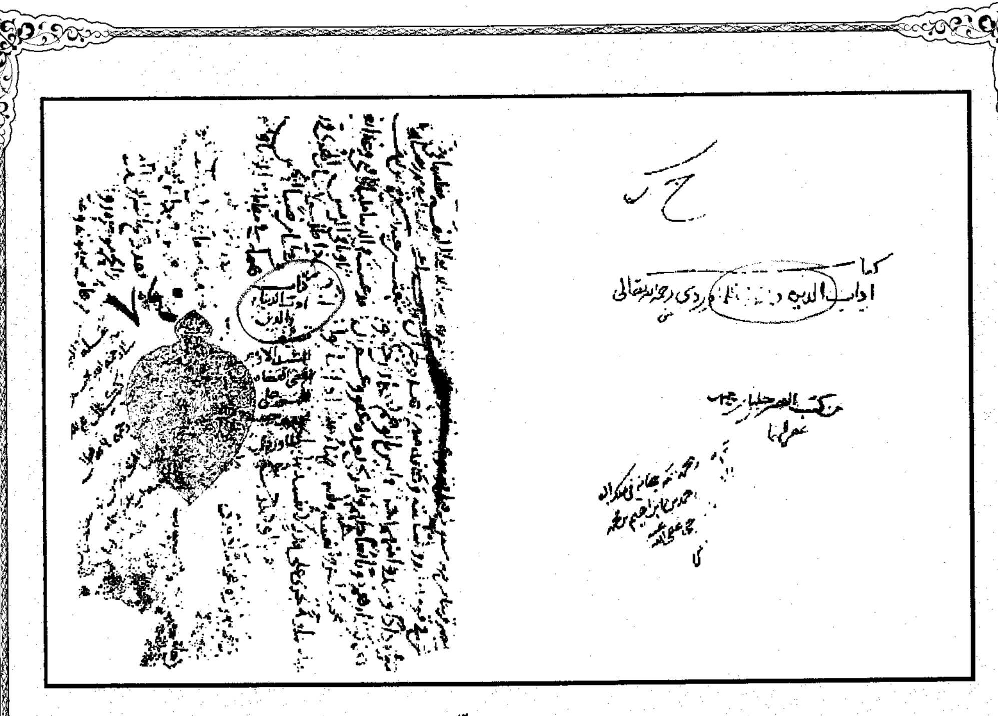
والحمد لله رب العالمين
وصلى الله على سيدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه وسلم

اللجنة العلمية
بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي



صور المخطوطات المستعان بها في الكتاب





راموز ورقة العنوان للنسخة (أ)

بسم الله الرحمن الرحيم
أخبرنا الشيخ الأديب الفاضل أبو شجاع فارس بن الحسين السهروردي
رضي الله عنه بقراءتي عليه بمسجد ... من دار الخلافة
في آخر سنة ست وثمانين وأربعمائة قال قرئ هذا الكتاب
على أقضى القضاة أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي رحمه
الله في المسجد الجامع بواسط وأنا حاضر أسمع في شهور سنة اثنتين
وعشرين وأربعمائة قيل الحمد لله ذي الطول والآلاء وصلى
الله على محمد خاتم الرسل والأنبياء وعلى آله وصحابته الأتقياء
أما بعد فإن شرف المطلوب بشرف نتائجه وعظم خطره بكثرة
منافعه وبحسب منافعه تجب العناية به وعلى قدر العناية به
يكون اجتناء ثمرته وأعظم الأمور خطرا وقدرا وأعمها نفعا
ورفدا ما استقام به الدين والدنيا وانتظم به صلاح الآخرة
والأولى لأن باستقامة الدين تصح العبادة وبصلاح الدنيا تتم
السعادة وقد توخيت بهذا الكتاب الإشارة إلى آدابهما وتفصيل
ما أجمل من أحوالهما على أعدل الأمرين من إيجاز وبسط أجمع
فيه بين تحقيق الفقهاء وترقيق الأدباء فلا ينبو عن فهم ولا يدق في

وهم مستشهدا من كتاب الله جل اسمه بما يقتضيه ومن سنن
رسول الله صلى الله عليه بما يضاهيه ثم متبعا ذلك بأمثال
الحكماء وآداب البلغاء وأقوال الشعراء لأن القلوب ترتاح
إلى الفنون المختلفة وتسأم من الفن الواحد وقد قال علي بن أبي طالب
عليه السلام إن القلوب تمل كما تمل الأبدان فاهدوا إليها
طرائف الحكمة وكان المأمون يتمثل كثيرا إذا دارت من مكان إلى
مكان وينشد قول أبي العتاهية

لا يصلح النفس إذ كانت مدبرة إلا التنقل من حال إلى حال

وجعلت ما تضمنه من ذلك خمسة أبواب فالباب الأول
في فضل العقل وذم الهوى والباب الثاني في أدب العلم
والباب الثالث في أدب الدين والباب الرابع في أدب الدنيا
والباب الخامس في أدب النفس وأنا أستمد الله حسن توفيقه
ومعونته وأستودعه حفظ موهبته بطوله ومشيئته وهو حسبي
من معين وحفيظ باب فضل العقل وذم الهوى
اعلم أن لكل فضيلة أسا ولكل أدب ينبوعا وأس الفضائل
وينبوع الآداب هو العقل الذي جعله الله سبحانه للدين أصلا

راموز الورقة الأولى للنسخة (أ)

راموز الورقة الأخيرة للنسخة (أ)

راموز الورقة الأولى للنسخة (ب)

راموز الورقة الثانية للنسخة (ب)

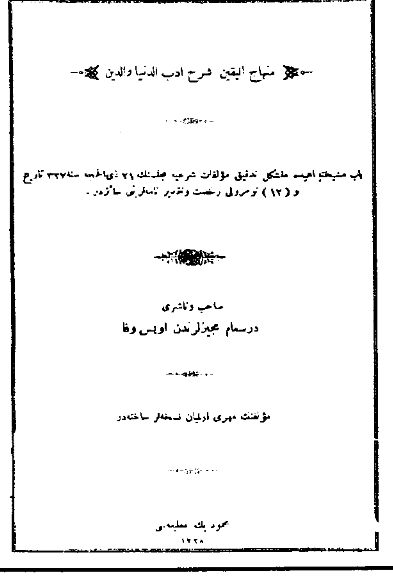
راموز الورقة الأخيرة للنسخة (ب)

راموز الورقة الأولى للنسخة (ج)

راموز الورقة الأخيرة للنسخة (ج)

راموز الورقة الأولى للنّسخة (د)

راموز الورقة الأخيرة للنّسخة (د)



منهاج اليقين شرح ادب الدنيا والدين

باب مشيخت اعيسه ملشكل تدقيق مؤلفات شرعيه مجلسنك ٢١ ذي الحجه سنه ٣٢٧ تاريخ و (١٢) نومرولي رخصت وتقدير نامه لرينى حائزدر.

صاحب وناشرى

درسعام مدرسلرندن اويس وفا

مؤلفنك مهرى اولميان نسخه لر ساخته در

محمود بك مطبعه سى

١٣٢٨

راموز ورقة العنوان للنسخة (هـ)

منهاج اليقين على ادب الدنيا والدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي ارسل رسوله رحمة للعالمين فأنار مناهج الحق وسبل اليقين واظهر الدين ببدائع بيانه * وبين مكارم الاخلاق بآيات فرقانه فاهتدى الانام بحسب استعداداتهم المختلفة في العلميات والعمليات وكمل النفوس البشرية باشخاصهم وسياساتهم العائدة الى الغايات * والصلاة والسلام على سيدنا محمد المؤيد ببينات ومعجز قرآنا عربيا غير ذي عوج * وعلى آله واصحابه المستمسكين بالعروة الوثقى * والمتأدبين بآداب الدين والدنيا * وبعد فيقول الفقير اويس وفا بن محمد بن احمد بن خليل بن داود الارزنجاني الشريف بعثمان زاده * اكرمهم الله تعالى بالحسنى وزيادة لما كان كتاب ادب الدنيا والدين للامام الهمام اقضى القضاة ابي الحسن علي بن حبيب البصري الماوردي جامعا لآداب الدنيا والدين ببيان شاف واختصار كاف ومتن سديد لم يزل فقيرا اليه كل مفيد ومستفيد * الا انه كان كما قيل * كم من رياض لا انيس بها * تركت لان طريقها وعر * لم يكن له بد من شرح يوضح صعابه * ويكشف عن وجهه نقابه * سرحت طرفي في كتب المتقدمين واتعبت خاطري في استنباط نتائج افكار المتأخرين من التفسير والحديث والاخلاق والسياسة والبلاغة والكتابة والمحاضرات والعروض وسائر العلوم العربية من الفروع والاصول فجاء بحمد الله تعالى ما يشفي الغليل ويروي العليل ويكون تبصرة للمبتدي وتذكرة للمنتهي وانا اسأل الله تعالى ان يثيبني به جميل الذكر في الدنيا وجزيل الاجر في الآخرة متضرعا الى من ينظر ان يستر عثرتي وزللي ويسد بسداد فضله خللي ويصلح ما طغى به القلم وزاغ عنه البصر وقصر عنه الفهم وغفل عنه الخاطر فان الانسان محل النسيان وان اول ناس هو اول الناس . وقد انشد الاصمعي . [illegible] كما قال ابو تمام * [illegible] الايام [illegible] ونعم الوكيل قال المصنف رحمه الله تعالى اقتداء بالكتاب الكريم ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ بحث البسملة مشهور الا ان الشارحين اولعوا بقولهم ان وصفه تعالى بالرحمة مجاز عن الانعام او ارادته لانها من الاعراض النفسانية المستحيلة عليه تعالى قال الامام الرازي اذا وصف الله

(تعالى)

﴿٢﴾

تعالى بأمر ولم يصح وصفه به حمل على غاية ذلك وملائمه وهذه قاعدة في كل مقام ايضا فهو صفة فعل من اطلاق اسم السبب او الملزوم على مسبب او لازمه ما يفيد والتحقيق ان وصفه تعالى بها حقيقة ولا يجوز فيه وبيانه كما قال العارف المحقق الملا ابراهيم الكوراني في كتابه قصد السبيل وللقائل ان يقول الرحمة التي هي من الاعراض النفسانية هي القائمة بنا ولا يلزم من ذلك ان يكون مطلق الرحمة كذلك حتى يلزم كون الرحمة في حقه تعالى مجازا الا ترى ان العلم القائم بنا من الاعراض النفسانية وقد وصف الحق تعالى بالعلم ولم يقل احد انه في حقه مجاز وكذا القدرة القائمة بنا من الاعراض النفسانية وقد وصف الحق تعالى بها ولم يقل احد انه مجاز في حقه وعلى هذا القياس الارادة وغيرها من الصفات فلم لا يجوز ان تكون الرحمة حقيقة واحدة هي العطف وتختلف انواعه بحسب اختلاف الموصوفين به فما نسب الينا كان كيفية نفسانية وما نسب اليه تعالى كان حقيقة لما يليق بجلال ذاته من الانعام او الارادة ويؤيد ما ذكرنا ان الاصل في الاطلاق الحقيقة ولا يصار الى المجاز الا اذا تعذرت الحقيقة ولا تعذر ههنا وكون الرحمة منحصرة وضعا في الكيفية النفسانية دونه خرط القتاد وكونها فينا كيفية نفسانية لا يدل على كونها مجازا في حقه تعالى والا كان وصفه تعالى بالعلم والقدرة وغيرها مجازا لانها فينا اعراض نفسانية ولا قائل به انتهى قلت ووقع نظير هذا البحث [illegible] لابن هشام حيث تكلم على آية ان الله وملائكته يصلون على النبي فقال الصواب عندي ان الصلوة لغة بمعنى واحد وهو العطف ثم العطف بالنسبة اليه تعالى الرحمة والى الملائكة الاستغفار والى الآدميين دعاء بعضهم لبعض انتهى فيجعل العطف حقيقة واحدة والانواع مختلفة بحسب اختلاف من استعماله وهذا يؤيد كلام هذا المحقق وفي القاموس رحمه رحمة اذا رق له وتعطف وغفر وقال ابن القيم في البدائع اسماؤه تعالى التي تطلق عليه وعلى غيره كحي وسميع هل هي حقيقة فيه تعالى مجاز في غيره او مجاز فيه حقيقة في غيره او حقيقة فيهما القول الظهر هو الاخير [illegible] بان الاوصاف التي تطلق عليه تعالى وعلى غيره انها حقيقة فيهما القول بان الوصف الذي لا يطلق الا عليه تعالى كالرحمن انه مجاز فيه ﴿الحمد لله ذي الطول والآلاء﴾ الطول بفتح الطاء وسكون الواو القدرة او الغنى او الفضل والزيادة والآلاء بالمد بمعنى النعم جمع الى بكسر الهمزة او فتحها وسكون اللام او الى كحلو او الى كرمى ﴿وصلى الله على سيدنا محمد خاتم الرسل والانبياء﴾ الخاتم بفتح التاء وبكسرها اي آخرهم الذي ختموا به والرسول الانسان بعثه الله الى الخلق لتبليغ الاحكام وكذا النبي فلا فرق بينهما وقد خاطب الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم مرة بالنبي وبالرسول مرة اخرى وقيل بعض الرسول من له شريعة وكتاب انزل عليه او امر بالعمل بما فيه لنسخ بعض شريعة متقدمة على بعثته [illegible] كل رسول نبي من غير عكس [illegible] ﴿وعلى آله واصحابه الاتقياء﴾ جمع تقي على وزن غني ﴿اما بعد فان شرف المطلوب بشرف نتائجه﴾ المترتبة على ذلك المطلوب ﴿وعظم خطره بكثرة منافعه﴾ وبحسب منافعه تجب العناية به ﴿والاهتمام اليه﴾ وعلى قدر العناية به يكون اجتناء ثمرته﴾ اي التقاطها ﴿واعظم الامور خطرا وقدرا﴾ الخطر

راموز الورقة الأولى للنسخة (هـ)





أدب الدين والدنيا

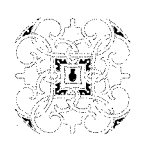
تأليف

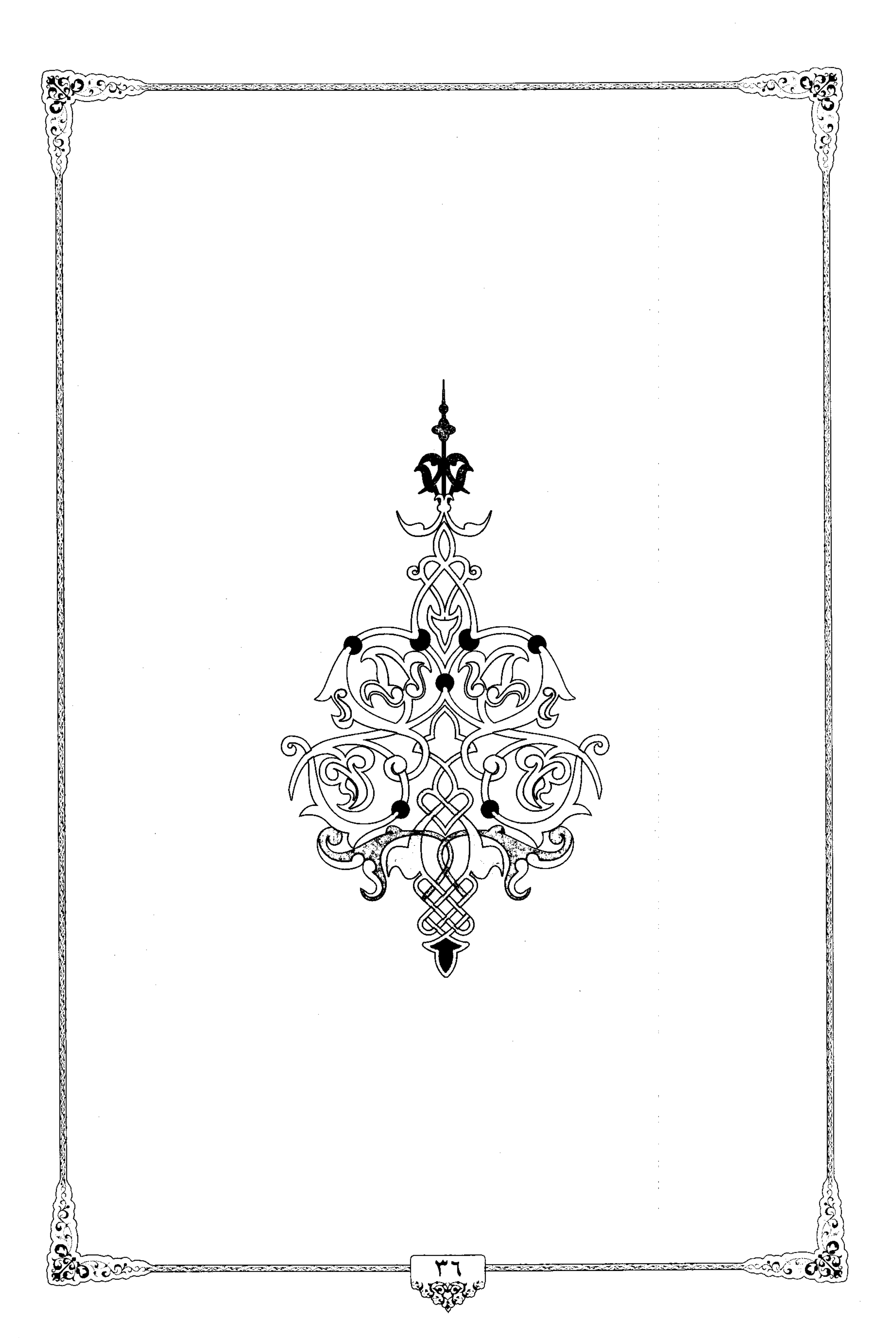
الإمام العلامة الفقيه القاضي

أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي

رحمه الله تعالى

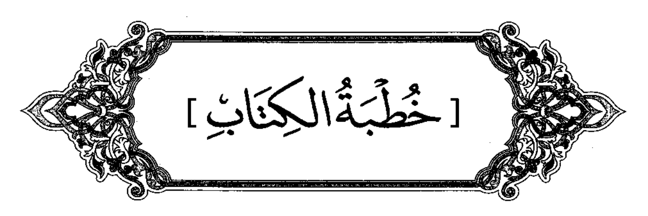
(٣٦٤ - ٤٥٠هـ)





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أخبرنا الشيخ الأديب الفاضل **أبو شجاع فارس بن الحسين السُّهْرَوَرْديُّ** رضي الله عنه **بقراءتي عليه** بمسجد رئيس الرؤساء من دار الخلافة ، **في أواخر سنة ست وثمانين وأربع مئة** ، قال : قرىء هٰذا الكتاب علىٰ أقضى القضاة **أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوَرْديِّ** رحمه الله تعالىٰ في المسجد الجامع بواسط وأنا حاضر أسمع ، **في شهور سنة إحدىٰ وعشرين وأربع مئة** ، قيل له : قلتَ[1] :



[خُطْبَةُ الكِتَابِ]

الحمد لله ذي الطَّوْل والآلاء ، **وصلى الله علىٰ سيدنا محمد** خاتَم الرسل والأنبياء ، **وعلىٰ آله وصحابته الأتقياء** .

أما بعد : فإن شرفَ المطلوب بشرف نتائجه ، وعِظَمَ خطره بكثرة منافعه ، **وبحسَب منافعه تجب العناية به** ، وعلىٰ قدر العناية به يكون اجتناء ثمره ، **وأعظم الأمور خَطَراً وقَدْراً** ، وأعمُّها نفعاً ورِفْداً[2] . . **ما استقام به الدين والدنيا** ، وانتظم به صلاح الآخرة والأولىٰ ؛ **لأن باستقامة الدِّين** تصحُّ العبادة ، **وبصلاح الدنيا** تتمُّ السعادة .

وقد توخَّيتُ بهٰذا الكتاب الإشارةَ إلىٰ آدابهما ، وتفصيلَ ما أُجمِل من أحوالهما ، علىٰ أعدل الأمرين من إيجازٍ وبسط ، **أجمع فيه بين تحقيق الفقهاء** ، وترقيق الأُدباء ، فلا ينبو عن فَهْم ، ولا يدِقُّ في وَهْم ، **مستشهداً** من **كتاب الله** ـ جل اسمه ـ بما يقتضيه ، **ومن سنن رسول الله** صلى الله عليه وسلم بما يُضاهيه ، **ثم مُتْبِعاً ذلك بأمثال الحكماء** ، وآداب البلغاء ، وأقوال الشعراء ؛ لأن القلوب ترتاحُ إلى الفنون المختلفة ، وتسأمُ الفنَّ الواحد .

---

(١) هٰذه الديباجة زيادة من (أ) .

(٢) **الرفد** : العطاء والصلة .

وقد قال علي بن أبي طالب عليه السلام : (**إنَّ القلوبَ تَمَلُّ كما تَمَلُّ الأبدانُ ؛ فأَهدوا إليها طرائفَ الحكمة**)[1] .

وكان المأمون يتنقَّل كثيراً في داره من مكانٍ إلىٰ مكان ، ويُنشد قول أبي العتاهية : [من البسيط]

لا يُصلِحُ النفسَ إذ كانت مُدبَّرةً إلا التنقُّلُ من حالٍ إلىٰ حالِ[2]

وجعلتُ ما تضمنه هـٰذا الكتاب من ذلك خمسة أبواب :

فالباب الأول : في فضل العقل ، وذم الهوىٰ .

والباب الثاني : في أدب العلم .

والباب الثالث : في أدب الدين .

والباب الرابع : في أدب الدنيا .

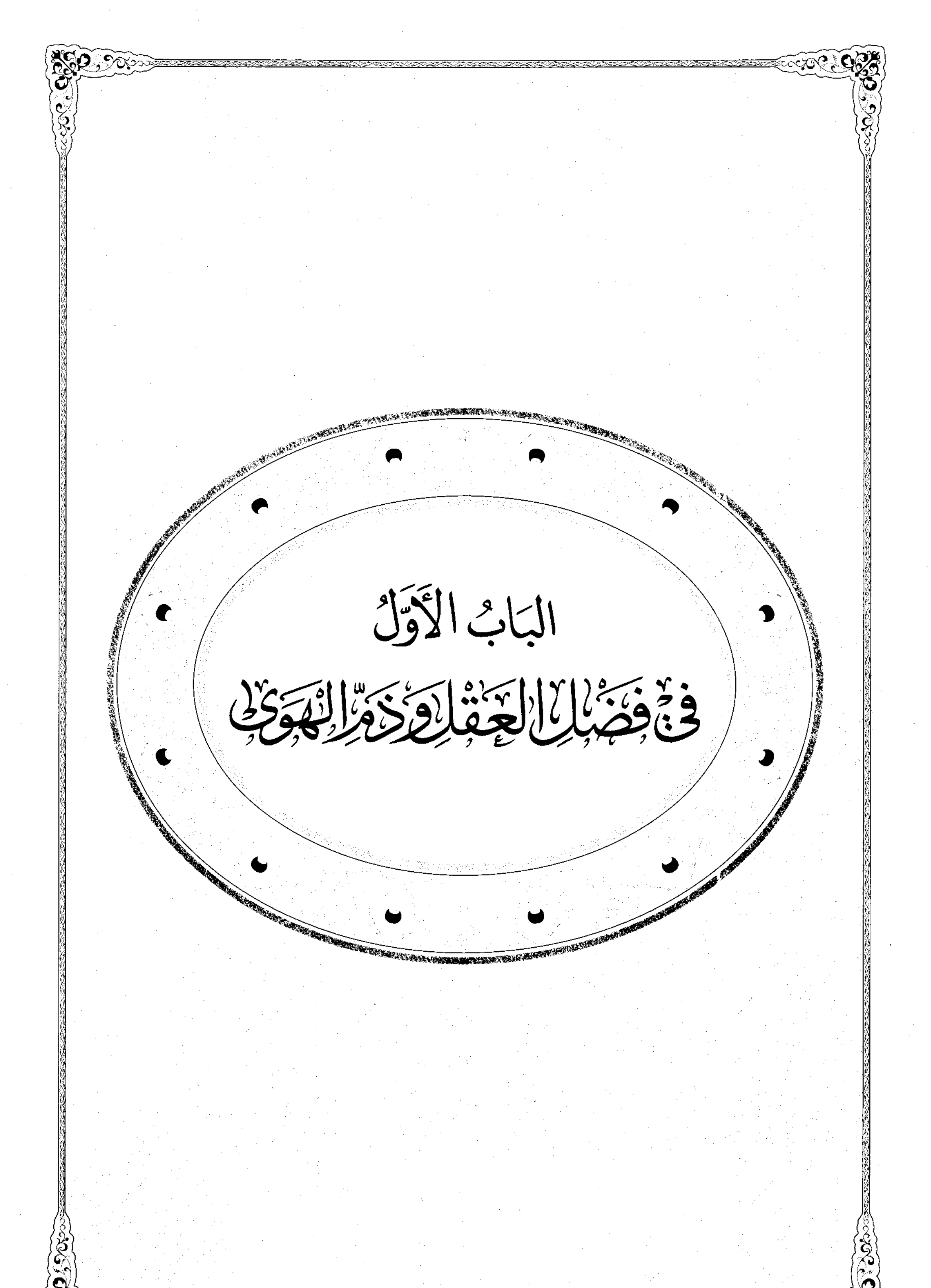
والباب الخامس : في أدب النفس .

وأنا أستمد اللهَ تعالىٰ حُسنَ توفيقه ومعونته ، وأستودعه حفظ موهبته بطَوْله ومشيئته ، وهو حسبي من معينٍ حفيظ .

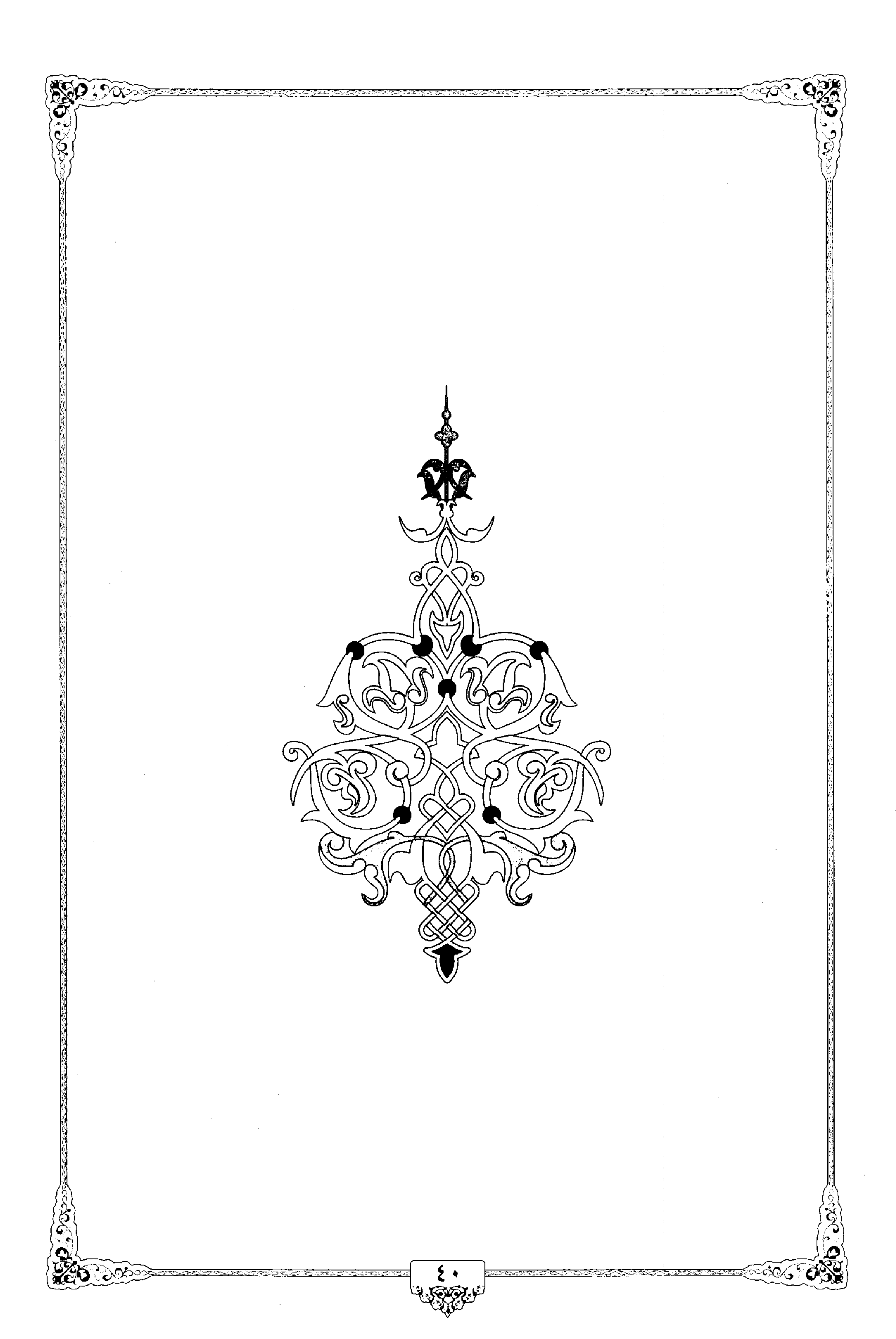
---

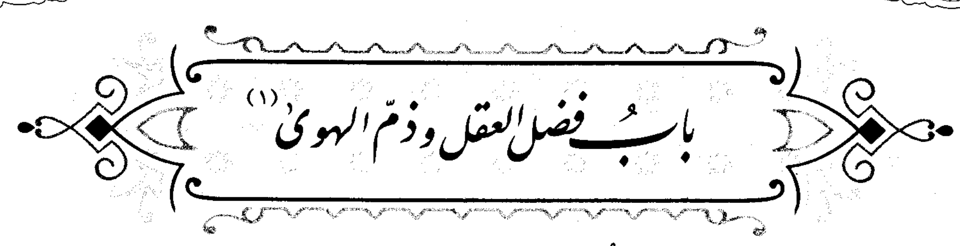
(١) رواه الخطيب في « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » (١٤٢٨) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٦٥٩) .

(٢) البيت في « ديوانه » (ص ٣٢١) ، والخبر أورده الراغب الأصفهاني في « محاضرات الأدباء » (٢/ ٦٩٠) .



البَابُ الأَوَّلُ
في فَضْلِ العَقْلِ وذَمِّ الهَوَى





بابُ فضل العقل وذمّ الهوىٰ [1]

اعلم : أن لكل فضيلةٍ أُسّاً ، ولكل أدبٍ يَنبوعاً ، **وأسُّ الفضائل وينبوع الآداب هو العقل** ؛ الذي جعله الله سبحانه للدين أصلاً ، وللدنيا عماداً ، **فأوجب التكليفَ بكماله** [2] ، وجعل الدنيا مدبَّرة بأحكامه ، **وألَّف به بين خلقه مع اختلاف** هِمَمهم ومآربهم ، وتبايُن أغراضهم ومقاصدهم ، **وجعل ما تعبَّدهم به قسمين** :

قسماً وجب بالعقل ، فوكَّده الشرع .

وقسماً جاز في العقل ، فأوجبه الشرع ، وكان **العقل** عليهما عياراً .

ورُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **ما اكتسبَ المرءُ مثلَ عقلٍ** : يَهدي صاحبَه إلىٰ هُدىً ، أو يردُّه عن ردىً » [3] .

وروي عن النبي عليه السلام أنه قال : « **إن لكلِّ شيءٍ دعامةً ، ودعامةُ عمل المرءِ عَقْلُه** ؛ فبقَدْر عَقْلِه تكونُ عبادتُه لربِّه ، **أَما سمعتم إخبار الله تعالىٰ عن قول الفاجر** : ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ ؟ » [4] .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (**أصلُ الرجل عَقْلُه** ، وحَسَبُه دينُه ، ومروءتُه خُلقُه) [5] .

وقال الحسن البصري رحمه الله : (**ما استودعَ اللهُ أحداً عقلاً إلا استنقذَه به يوماً ما**) [6] .

---

(١) جمعهما في بابٍ واحد لمناسبة الضدية بينهما ؛ ولأن الأشياء تنكشف بأضدادها ، فمدحُ العقل يستلزم ذم ضده وبالعكس .

(٢) أي : بإدراك كماله الأول وهو البلوغ ؛ إقامة للسبب الظاهر مقام حكمه .

(٣) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٤٣٣٨) عن سيدنا عمر رضي الله عنه .

(٤) رواه الهيثمي في « بغية الباحث » (٨٤٠) ، وأورده الديلمي في « الفردوس » (٤٩٩٩) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٥) رواه البيهقي في « الكبرىٰ » (١٠/ ١٩٥) ، وأخرج نحوه مرفوعاً عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « العقل وفضله » (٩٢) ، وأورده الديلمي في « الفردوس » (٦٢٧٩) مرفوعاً عن سيدنا أنس رضي الله عنه .

وقال بعض الحكماء : (**العقلُ أفضلُ مرجوٍّ ، والجهلُ أنكَىٰ عدوٍّ**) .

وقال بعض الأدباء : (**صديقُ كلِّ امرئٍ عقلُه ، وعدوُّه جهلُه**) .

وقال بعض البلغاء : (**خيرُ المواهب العقلُ ، وشرُّ المصائب الجهلُ**)[1] .

وقال بعض الشعراء وهو إبراهيم بن حسان[2] : [من الطويل]

يَزينُ الفتىٰ في الناسِ صحَّةُ عَقْلِهِ ... وإنْ كان محظوراً عليه مكاسبُهْ

يَشينُ الفتىٰ في الناسِ قِلَّةُ عَقْلِهِ ... وإنْ كرُمتْ أعراقُه ومَناسبُهْ

يعيشُ الفتىٰ بالعقل في الناس إنه ... على العقل يجري علمُه وتجاربُهْ

وأفضلُ قَسْمِ اللهِ للمرء عَقْلُهُ ... فليسَ مِنَ الأشياءِ شيءٌ يقاربُهْ

إذا أكملَ الرحمـٰنُ للمرء عَقْلَهُ ... فقد كمَلَتْ أخلاقُه ومآربُهْ

واعلم : أن بالعقل تُعرَف حقائق الأمور ، ويُفصَل بين الحسنات والسيئات ؛ **وقد ينقسم قسمين** : غريزيّ ، ومكتسَب .

فالغريزي : هو العقل الحقيقي ، وله حدٌّ يتعلَّق به التكليف ، لا يتجاوزه إلىٰ زيادة ، ولا يَقصُر عنه إلىٰ نقصان ، **وبه يمتاز الإنسان من سائر الحيوان** ، فإذا تم في الإنسان . . **سُمِّي عاقلاً ، وخرج به إلىٰ حد الكمال** ؛ كما قال صالح بن عبد القدوس[3] : [من الطويل]

إذا تَمَّ عَقْلُ المرءِ تمَّتْ أُمورُهُ ... وتمَّتْ أياديه وتمَّ ثناؤُهُ

ورُوي عن الضحّاك في قوله تعالىٰ : (﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾ أي : **مَن كان عاقلاً**)[4] .

---

(١) أورده الخطيب في « الزهد والرقائق » (ص ٨٨) عن أبي الحسن بن كنجك .

(٢) الأبيات في « نهاية الأرب » (٣/ ٢٣٦) منسوبة لابن دريد ، وهي في « ديوانه » (ص ٤١) ، وفي « العقد الفريد » (٢/ ٢٥٢) منسوبة لمحمد بن يزيد .

(٣) نسبه في « روضة العقلاء » (١/ ٩٧) لعبد العزيز بن سليمان الأبرش .

(٤) رواه الطبري في « تفسيره » (١٢/ ٢٣/ ٢٧) .

واختلف الناس فيه وفي صفته علىٰ مذاهبَ شتّىٰ :

فقال قوم : **هو جوهرٌ لطيفٌ يُفصَل به بين حقائق المعلومات** .

ومن قال بهـٰذا القول اختلفوا في محله ؛ فقالت طائفة منهم : **محله الدماغ** ؛ لأن الدماغ محل الحِسِّ ، وقالت طائفة أخرىٰ منهم : **محله القلب** ؛ لأن القلب مَعدِن الحياة ، ومادة الحواسّ .

وهـٰذا القولُ في العقل بأنه (جوهر لطيف) **فاسدٌ من وجهين** :

ـ **أحدهما** : أن الجواهر متماثلة ، فلا يصح أن يوجب بعضُها ما لا يوجبه سائرُها ، ولو أوجب سائرُها ما يوجبه بعضها . . لاستغنى العاقل بوجود نفسه عن وجود عقله .

ـ **والثاني** : أن الجوهر يصح قيامه بذاته ، فلو كان **العقل** جوهراً . . لجاز أن يكون عقلٌ بغير عاقل ؛ كما جاز أن يكون جسمٌ بغير عقل ، فامتنع بهـٰذين أن يكون العقل جوهراً .

وقال آخرون : **العقل هو المدرِكُ للأشياء علىٰ ما هي عليه من حقائق المعنىٰ** .

وهـٰذا القول وإن كان أقربَ مما قبله . . **فيبعد من الصواب من وجهٍ واحد** ؛ وهو أن الإدراك من صفات الحي ، والعقل عَرَضٌ يستحيل ذلك منه ؛ كما يستحيل منه أن يكون ملتذّاً أو أَلِماً أو مشتهياً[(١)] .

وقال آخرون من المتكلِّمين : **العقل هو جملةُ العلوم الضرورية** ، وهـٰذا الحدُّ غير محصور ؛ لما تضمَّنه من الإجمال ، وتناوله من الاحتمال ، **والحدُّ إنما هو** : بيان المحدود بما ينفي عنه الإجمال والاحتمال .

وقال آخرون ـ وهو القول الصحيح ـ : **إن العقل هو العلمُ بالمُدرَكات الضرورية** .

وذلك نوعان : **أحدهما** : ما وقع عن درك الحواس ، **والثاني** : ما كان مبتدأً في النفوس .

---

(١) أو فرِحاً أو محزوناً ، ونحو ذلك مما هو من صفات الحي ؛ لاستلزامه قيام العَرَض بِعَرَض .

فأما ما كان واقعاً عن درك الحواس.. فمثل المَرئيّات المدركة بالنظر، والأصوات المدرَكة **بالسمع**، والطُّعوم المدرَكة **بالذوق**، والروائح المدرَكة **بالشم**، والأجسام المدرَكة **باللمس**.

فإذا كان الإنسان ممَّن **لو أدرك بحواسه هٰذه الأشياء لعلم.. ثبت له هٰذا النوع من العلم**؛ لأن خروجه في حال تغميض عينيه من أن يُدرك بهما ويَعلم.. لا يُخرجه من أن يكون كاملَ العقل من حيث عُلِمَ من حاله: **أنه لو أدرك.. لعَلم**.

وأما ما كان مبتدأً في النفوس.. فكالعلم بأن الشيء لا يخلو من وجودٍ أو عدم، وأن الموجود لا يخلو من حدوثٍ أو قِدَم، **وأن من المُحال اجتماعَ الضدَّين**، وأن الواحد أقلُّ من الاثنين، **وهٰذا النوع من العلم لا يجوز أن ينتفي عن العاقل** مع سلامة حاله وكمال عقله، وإذا صار عالماً بالمُدرَكات الضرورية من هٰذين النوعين.. فهو كامل العقل.

وسُمِّي بذلك تشبيهاً بعَقْل الناقة؛ لأن العقل يمنع الإنسان من الإقدام علىٰ شهواته إذا قبُحَت، كما يمنع العِقالُ الناقة من الشُّرود إذا نفرت؛ ولذلك قال عامر بن عبد قيس: (**إذا عقَلَك عَقْلُك عما لا ينبغي.. فأنت عاقل**)[1].

وقد جاءت السنة بما يؤيد هٰذا القول في العقل؛ وهو ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « **العقلُ نورٌ في القلب؛ يُفرِّقُ** به بين الحقِّ والباطل »[2].

وكل مَن نفىٰ أن يكون العقل جوهراً أثبت محلَّه في القلب؛ **لأن القلب محلُّ العلوم كلِّها**، قال الله تعالىٰ: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾، فدلت هٰذه الآية علىٰ أمرين: **أحدهما**: أن العقل علم، **والثاني**: أن محلَّه القلب.

---

(١) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٤٣٧٢)، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٦/٢٧).
(٢) أورده في « العقد الفريد » (٢/٢٤٨).

وفي قول الله عز وجل : ﴿ يَعۡقِلُونَ بِهَا ﴾ تأويلان :

أحدهما : يعلمون بها .

والثاني : يعتبرون بها ، فهٰذا جملة القول في العقل الغريزي .

* * *

وأما العقل المكتسَب . . فهو نتيجة العقل الغريزيّ ، وهو ثَقابة المعرفة ، وصحة السياسة ، وإصابة الفكر ، وليس لهٰذا حدٌّ ؛ **لأنه يَنمِي إن استُعمِل ، ويَنقُص إن أُهمِل ، ونماؤه يكون بأحد وجهين** :

إما بكثرة الاستعمال إذا لم يعارضه مانعٌ من هوىً ، ولا صادٌّ عن شهوة ؛ كالذي يحصل لذوي الأسنان من الحُنْكة وصحة الرَّوِيَّة ، بكثرة التجارب وممارسة الأمور ؛ ولذاك حَمِدت العرب آراء الشيوخ ، حتىٰ قالوا : (**المشايخ أشجار الوَقار ، ومنابع الأخبار** ، لا يطيش لهم سَهْم ، ولا يسقط لهم وَهْم ؛ **إن رأوك في قبيح** . . صدُّوك ، **وإن أبصروك علىٰ جميل** . . أمدُّوك)[1] .

وقالوا : (**عليكم بآراء الشيوخ** ؛ فإنهم إن فقدوا ذكاءَ الطبع . . **فقد مرَّت علىٰ عيونهم وجوهُ العِبَر** ، وتصدَّت لأسماعهم آثار الغِيَر)[2] .

وقيل في منثور الحِكَم : (**مَن طال عُمرُه** . . **نقَصَت قوّةُ بدنه** ، وزادت قوّةُ عقله) .

وقيل فيه : (**لا تدَعُ الأيامُ جاهلاً إلا أدَّبته**) .

وقال بعض الحكماء : (**كفىٰ بالتَّجارِب تأدُّباً** ، **وبتقلُّب الأيام عِظةً**)[3] .

وقال بعض البلغاء : (**التجربةُ مرآةُ العقل ، والغِرّةُ ثمرةُ الجهل**)[4] .

---

(١) أورده في « ربيع الأبرار » (٣/ ١٣٤) .

(٢) أورده في « محاضرات الأدباء » (١/ ٥٤) .

(٣) أورده في « لباب الآداب » (ص ٢٣٥) ونسبه لأرسطاطاليس .

(٤) أورده في « لباب الآداب » (ص ٦٨) ونسبه للصغاني في « الفرائد والقلائد » ، **والغرة** : الغفلة والانخداع بالأماني الباطلة .

وقال بعض الأدباء : (كفىٰ مُخبِراً عمَّا بقي ما مضىٰ ، **وكفىٰ عِبَراً لأولي الألباب ما جرَّبوا**)[1] .

وقال بعض الشعراء[2] : [من الطويل]

أَلَـمْ تَـرَ أنّ العَقْـلَ زَيـنٌ لأهلِـهِ ... ولٰكنْ تمامُ العقلِ طُولُ التَّجارِبِ

وقال آخر[3] : [من الطويل]

إذا طالَ عُمْرُ المرءِ في غيرِ آفةٍ ... أفادَتْ له الأيّامُ في كَرِّها عَقْلا

وأما الوجه الثاني[4] . . فقد يكون بفَرْط الذكاء وحُسن الفِطْنة ، وذلك جُودة الحَدْس في زمانٍ غير مُمهِل للحَدْس[5] .

فإذا امتزج هٰذا بالعقل الغريزي . . صارت نتيجتهما نموَّ العقل المكتسب ؛ كالذي يكون في الأحداث من وُفور العقل ، وجُودة الرأي ؛ حتىٰ قال هَرِم بن قُطْبة حين تنافر إليه عامر بن الطُّفَيل وعلقمةُ بن عُلاَثَةَ : (**عليكم بالحديثِ السِّنِّ ، الحديدِ الذِّهْن**) ، ولعل هَرِماً أراد أن يدفعهما عن نفسه فاعتذر بما قال ، لٰكنْ لم ينكرا قوله ؛ إذعاناً للحق ، فصارا إلىٰ أبي جهل ؛ لحداثة سنِّه ، وحِدَّة ذهنه ، فأبىٰ أن يحكم بينهما ، فرجعا إلىٰ هَرِم فحكم .

وفيه يقول لبيد[6] : [من مشطور الرجز]

يـا هَـرِمُ ابـنَ الأكـرمِيـنَ مَنصِبَـا
إنَّـكَ قَـد أُوتيـتَ حُكْمـاً مُعجِبَـا

---

(1) أورده في « العقد الفريد » (٢/ ٤٤٢) .

(2) نسبه في « روضة العقلاء » (١/ ١٠٨) للمنتصر بن بلال الأنصاري .

(3) أورده في « سراج الملوك » (١/ ٢٧٨) ، و« المستطرف » (ص ٥٣) دون نسبة .

(4) أي : من الوجهين اللذين بهما نماء العقل المكتسب .

(5) **الحدس** : الظن والتخمين ، وتوقع الأمور ، فتكون كما قال .

(6) البيتان في « ديوانه » (ص ٥٢) ، والخبر في « الديباج » (ص ٨٨) .

وقد قالت العرب : (**عليكم بمشاورة الأحداث** ؛ فإنهم يَنتِجون رأياً لم يَفُلَّهُ طولُ القِدَم ، ولا استولت عليه رطوبة الهَرَم)[1] .

وقال الشاعر[2] : [من الوافر]

رأيتُ العَقْلَ لم يكنِ انتهاباً ... ولم يُقسَمْ علىٰ عدَد السِّنينَا
ولو أنَّ السِّنينَ تقاسمَتْهُ ... حوى الآباءُ أَنصِبةَ البَنينَا

* * *

حكى الأصمعيُّ قال : (قلت لغلام حَدَثٍ من أولاد العرب كان يحادثني فأَمتعني بفصاحته وملاحته : **أيسرُّكَ أن يكون لك مئةُ ألف درهم وأنّك أحمقُ ؟** قال : لا والله .

قلت : ولِمَ ؟ قال : **أخاف أن يجنيَ عليَّ حُمْقي جنايةً تذهب بمالي ، ويبقىٰ عليَّ حُمْقي**)[3] .

فانظر إلىٰ هٰذا الصبي كيف استخرج بفَرْط ذكائه ، واستنبط بجُودة قريحته ما لعلّه يدِقُّ علىٰ مَن هو أكبر منه سنّاً ، وأكثر تجربةً .

وأحسنُ من هٰذا الذكاءِ والفطنة : ما حكى ابنُ قتيبة : (أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرَّ بصبيان يلعبون وفيهم عبد الله بن الزبير ، فهربوا منه إلا عبدَ الله ، فقال له عمر رضي الله عنه : **ما لكَ لم تهرب مع أصحابك ؟!** فقال : يا أميرَ المؤمنين ؛ **لم أجْنِ فأخافَكَ ، ولم يكنْ بالطريق ضِيقٌ فأُوسعَ لك**)[4] .

فانظر إلىٰ ما تضمنه هٰذا الجواب من الفِطْنة ، وقوّة المُنّة ، وحُسن البديهة ، كيف نفىٰ عنه اللوم ، وأثبت له الحجّة ، **وليس للذكاء غايةٌ ، ولا لجُودة القريحة نهايةٌ** .

* * *

---

(١) انظر « سراج الملوك » (١/ ٢٩٧) .
(٢) البيتان في « معجم الأدباء » (٤/ ٨٧) ونسبهما للحسين بن محمد الرافقي .
(٣) أورده النويري في « نهاية الأرب » (٣/ ٣٥٧) .
(٤) عيون الأخبار (٢/ ١٩٧) .

حُكي : أن سليمان بن عبد الملك أمر الفرزدقَ بضرب أعناق أُسارىٰ من الروم ، فاستعفاه الفرزدقُ فلم يفعل ، وأعطاه سيفاً لا يقطع شيئاً ، فقال الفرزدق : بل أضرِبُهم بسيف أبي ؛ رَغْوَان مُجاشعٍ ؛ يعني : سيفَ نفسه[1] ، فقام فاستلَّ سيفه فضرب به عنقَ روميٍّ منهم ، فنَبا السيفُ عنه ، فضحك سليمانُ ومَن حوله ، فقال الفرزدق[2] : [من البسيط]

أَيَعجبُ الناسُ أنْ أضحَكْتُ سيِّدَهُمْ   خليفةَ الله يُستسقَىٰ به المَطَرُ
لم يَنْبُ سيفيَ من رُعْبٍ ولا دَهَشٍ   عن الأسيرِ ولٰكنْ أُخِّرَ القَدَرُ
ولن يُقدِّمَ نفساً قبل مِيْتَتِها   جمعُ اليدين ولا الصَّمْصامةُ الذَّكَرُ

ثم غَمَدَ سيفَه وهو يقول : [من مشطور الرجز]

ما إنْ يُعابُ سيِّدٌ إذا صَبَا
ولا يُعابُ صارمٌ إذا نَبَا
ولا يُعابُ شاعرٌ إذا كَبَا

ثم جلس وهو يقول : كأني بابن المراغة قد هجاني فقال[3] : [من الطويل]

بسيفِ أبي رَغْوانَ سيفِ مُجاشعٍ   ضربْتَ ولم تضرِبْ بسيفِ ابنِ ظالمِ

وقام وانصرف .

وحضر جرير ، فخُبِّر الخبرَ ولم يُنشَدِ الشعرَ ، فأنشأ يقول[4] : [من الطويل]

بسيفِ أبي رَغْوانَ سيفِ مُجاشعٍ   ضربْتَ ولم تضرِبْ بسيفِ ابنِ ظالمِ

ثم قال : يا أميرَ المؤمنين ؛ كأني بابن القين قد أجابني فقال[5] :

---

(١) بسيف أبي : الياء ضمير المتكلم ، رَغْوان : عطف بيان ؛ لأنه من آبائه ، وهو : لقب لمجاشع بن دارم ، لُقب به لفصاحته وجهارة صوته .
(٢) الأبيات في « ديوانه » (١/ ٣٢٢) .
(٣) ابن المراغة : لقبٌ لجرير ، وفيه إهانة وشتم له .
(٤) البيت في « ديوان جرير » (٢/ ١٠٠٥) ، وابن ظالم : هو يزيد بن المهلب بن أبي صفرة ، وأبو صفرة : هو ظالم بن سراقة الكندي .
(٥) ابن القين : الفرزدق ، والقين : الحداد ، وهو إيماء إلىٰ أنه كاذب في تلقيبه لجرير بابن المراغة .

ولا نقتُلُ الأَسرىٰ ولٰكنْ نفكُّهُمْ إذا أثقَلَ الأعناقَ حَمْلُ المَغارمِ

فاستحسن سليمانُ حَدْسَ الفرزدق علىٰ جرير .

ثم أُخبر الفرزدق بشعر جرير ولم يُخبَر بحدسه ، فقال الفرزدق[1] : [من الطويل]

كذاكَ سُيوفُ الهِنْدِ تَنْبُو ظُباتُها وتقطَعُ أحياناً مَناطَ التمائمِ

ولا نقتُلُ الأَسرىٰ ولٰكنْ نفكُّهُمْ إذا أثقَلَ الأعناقَ حَمْلُ المَغارمِ

وهل ضَربةُ الرُّوميِّ جاعلةٌ لكُمْ أباً عن كُلَيبٍ أو أخاً مثلَ دارمِ[2]

فشاع حديث الفرزدق بهٰذا ، حتىٰ حُكي أن المهديَّ أُتي بأسرىٰ من الروم فأمر بقتلهم ، وكان عنده شَبيبُ بن شيبةَ فقال له : **اضربْ عنقَ هٰذا العِلْج** .

فقال : يا أميرَ المؤمنين ؛ قد عرفتَ ما ابتُلي به الفرزدق فعُيِّر به قومُه إلى اليوم ، فقال : **إنما أردتُ تشريفَك** ، **وقد أعفيتُك** ، وكان أبو الهول الشاعرُ حاضراً فقال : [من الطويل]

جَزِعتَ مِنَ الرُّوميِّ وهْوَ مُقيَّدٌ فكيف ولو لاقَيتَهُ وَهْوَ مُطلَقُ

دعاكَ أميرُ المؤمنين لقتلهِ فكاد شَبيبٌ عند ذلك يَفْرَقُ

فنَحِّ شَبيباً عن قِراعِ كتيبةٍ وأَدْنِ شَبيباً مِن كلامٍ يُلفَّقُ[3]

وليس العجبُ من خبر الفرزدق ـ إن صح ـ **من جودة القريحتين** ؛ ولٰكنْ من اتفاق الخاطرين ، ولمثل ذلك قالت الحكماء : (**آيةُ العقل** : سرعةُ الفَهْم ، **وغايتُه** : إصابةُ الوَهْم) .

❊ ❊ ❊

وليس لمن مُنِح جُودةَ القريحة وسرعةَ الخاطر عَجْزٌ عن جوابٍ وإن أَعضلَ ؛ كما قيل لعلي عليه السلام : كيف يحاسبُ اللهُ العبادَ علىٰ كثرة عَدَدهم ؟ فقال : (**كما يرزقُهم علىٰ كثرة عَدَدهم**)[4] .

---

(١) الأبيات في « ديوانه » (٢/ ٣٨٦) ، **والظُّبات** ـ جمع ظُبة ـ : وهو حد السيف الذي يُضرب به .

(٢) الخبر في « الشعر والشعراء » (١/ ٤٧٩) ، و« مفتاح العلوم » (ص ٧٠١) .

(٣) الخبر في « معاهد التنصيص » (٤/ ٩٩) وما بعدها .

(٤) أورده ابن عبد البر في « بهجة المجالس » (١/ ١٣٩) .

وقيل لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما : أين تذهب الأرواح إذا فارقتِ الأجسادَ ؟ فقال : (**أين تذهب نار المصابيح عند فناء الأَدْهان ؟**)[1] .

وهٰذان الجوابان جوابا إسكاتٍ ، تضمّنا دليلَي إذعان ، وحجّتَي قهر .

ومن غير هٰذا الفن وإن كان مُسكتاً . . **ما حُكي** : أن إبليس ـ لعنه الله ـ حين ظهر لعيسى ابن مريم عليه السلام قال له : ألست تقول : (**إنه لن يصيبَكَ إلا ما كتب الله عليك ؟**) قال : نعم .

قال : **فارمِ بنفسك من ذُرْوة هٰذا الجبل** ؛ فإنه إن يقدَّر لك السلامةُ . . تسلمْ ! !

فقال له : (**يا ملعون ؛ إن لله أن يختبر عبادَه ، وليس للعبد أن يختبر ربه**)[2] .

ومثل هٰذا الجواب لا يُستغرب من أنبياء الله تعالى الذين أمدَّهم بوحيه ، وأيدهم بنصره ، **وإنما يُستغرَب ممَّن يلجأ إلىٰ خاطره** ، ويعوِّل علىٰ بديهته .

وروىٰ قُثَمُ بن العبّاس رضي الله عنهما قال : قيل لعلي بن أبي طالب عليه السلام : **كم بين السماء والأرض ؟** فقال : (**دعوةٌ مستجابة**) ، قيل : فكم بين المشرق والمغرب ؟ قال : (**مسيرةُ يومٍ للشمس**)[3] .

فكان هٰذا السؤالُ من سائله : **إما اختباراً وإما استبصاراً** ، فصدر عنه من الجواب ما أسكته .

فأمّا إذا اجتمع هٰذان الوجهان في العقل المكتسَب ، وهو ما يَنميه فَرْطُ الذكاء بجُودة الحَدْس ، وصحةُ القريحة بحُسْن البديهة ؛ مع ما يَنمِيه الاستعمالُ بطول التجارب ، ومرورُ الزمان بكثرة الاختبار . . **فهو العقلُ الكاملُ على الإطلاق** ، في الرجل الفاضل بالاستحقاق .

---

(١) أورده في « الحور العين » (ص ٢٣٤) .

(٢) الخبر في « الأذكياء » (ص ٢٥) ، و« الكشكول » (٢/ ٢٧٨) .

(٣) الخبر في « البيان والتبيين » (٣/ ٢٧٤) ، و« عيون الأخبار » (٢/ ٢٠٨) .

رویٰ أنس بن مالك رضي الله عنه قال : أُثنِيَ علىٰ رجلٍ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بخيرٍ ، فقال : « **كيف عَقْلُه ؟** » قالوا : يا رسولَ الله ؛ إنّ من عبادته . . . ، إنّ من خُلقه . . . ، إنّ من فَضله . . . ، إنّ من أدبه . . . ، فقال : « **كيف عقلُه ؟** » قالوا : يا رسولَ الله ؛ نُثني عليه بالعبادة وأصناف الخير وتسألُنا عن عَقْله ؟! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **إنّ الأحمقَ العابدَ** يُصيبُ بجَهْله أعظمَ مِن فُجور الفاجرِ ، **وإنّما يُقرَّبُ الناسُ من ربِّهم بالزُّلَف علىٰ قَدْر عُقولِهم** »[1] .

* * *

واختلفَ الناسُ في العقل المكتسَب إذا تناهىٰ وزاد في الإنسان : **هل يكون فضيلةً ، أم لا ؟**

فقال قوم : **لا يكون فضيلةً** ؛ لأن الفضائل هيئاتٌ متوسّطة بين فضيلتين ناقصتين ؛ كما أن الخير متوسِّطٌ بين رذيلتين ، **فما جاوز التوسُّطَ . . خرج عن حد الفضيلة** .

وقد قالت الحكماء للإسكندر : (**أيها الملك ؛ عليكَ بالاعتدال في كل الأمور** ؛ فإنّ الزيادة عيب ، والنقصان عجز)[2] .

هـٰذا مع ما وردت به السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **خيرُ الأُمورِ أَوساطُها** »[3] .

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام : (**خيرُ الأمورِ النَّمَطُ الأوسطُ** ؛ إليه يرجع العالي ، وبه يلحق التالي)[4] .

---

(١) رواه الهيثمي في « بغية الباحث » (٨١٤) .

(٢) أورده في « لباب الآداب » (ص ٥٧) .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٢٧٦) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٦١٧٦) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٨/ ٣٠٤) عن سيدنا مطرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير رضي الله عنه موقوفاً .

(٤) أورده في « جمهرة الأمثال » (١/ ٣٣٩) ، و« عيون الأخبار » (١/ ٣٢٦) ، وانظر « غريب الحديث » لأبي عبيد (٣/ ٤٨٣) .

وقال الشاعر[1] : [من مشطور الرجز]

لا تَذهبَنَّ في الأمورِ فَرَطَا
لا تسألَنَّ إنْ سألتَ شطَطَا
وكنْ منَ النّاسِ جميعاً وسَطَا

قالوا : **لأن زيادة العقل تُفضي بصاحبها إلى الدَّهاء والمكر** ، وذلك مذموم ، وصاحبه مَلُوم ، وقد أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبا موسى الأشعريَّ أن يعزلَ زياداً عن ولايته ، فقال زياد : يا أميرَ المؤمنين ؛ **أعَنْ مَوجِدةٍ أم خيانة ؟!** فقال : (**لا عن واحدةٍ منهما** ؛ ولٰكنْ خِفتُ أن أَحملَ على الناس فَضْلَ عقلكَ)[2] .

ومن أجل هٰذا المحكيِّ عن عمر رضي الله عنه ما قيل قديماً : (**إفراطُ العقل مُضرٌّ بالجِدِّ**)[3] .

وقال بعض الحكماء : (**كفاك من عقلك ما دلَّكَ علىٰ سبيل رشدك**)[4] .

وقال بعض البلغاء : (**قليلٌ يكفي خيرٌ من كثير يُطغي**)[5] .

وقال آخرون ـ وهو أصح القولين ـ : **زيادةُ العقلِ فضيلةٌ** ؛ لأن المكتسَبَ غيرُ محدود ، وإنّما تكون زيادة الفضائل المحمودة نقصاً مذموماً ؛ **لأن ما جاوز الحدَّ لا يُسمّىٰ فضيلةً** ؛ كالشجاع إذا زاد علىٰ حد الشجاعة . . نُسِب إلى التهوُّر ، والسخيّ إذا زاد علىٰ حد السخاء . . نُسِب إلى التبذير ، **وليس كذلك حال العقل المكتسَب** ؛ **لأن الزيادة فيه زيادةُ علم بالأمور** ، وحسنُ إصابةٍ بالظنون ، ومعرفةُ ما لم يكن إلىٰ ما يكون ، وذلك فضيلةٌ لا نقصٌ .

---

(١) أورد الأبيات في « البيان والتبيين » (١/ ٢٥٥) ، **فَرَطاً** : من يتقدم قومه للماء ، والمراد هنا : المتقدم مطلقاً ، **وفُرُطاً** : المجاوز حده .

(٢) الخبر في « البيان والتبيين » (١/ ٢٦٠) ، و« العقد الفريد » (٥/ ١١) .

(٣) أورده في « عيون الأخبار » (١/ ٣٢٩) ، و« المجالسة وجواهر العلم » (٢١٦٧) .

(٤) أورده في « الإمتاع والمؤانسة » (ص ٣٦٦) .

(٥) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (١٠١٨٢) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٧٢٢) من كلام سيدنا أبي الدرداء رضي الله عنه .

وقد رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **أفضلُ الناسِ أعقلُ الناسِ** »[1] .

وروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **العقلُ حيثُ كان إلْفٌ مألوفٌ** »[2] .

وقد قيل في تأويل قوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ ﴾ أي : بحسَب عقله .

وقال القاسم بن محمد : (**كانت العرب تقول** : مَن لم يكن عقلُه أغلبَ خصال الخير عليه . . كان حَتْفُه في أغلب خصال الخير عليه)[3] .

وقيل في منثور الحكم : (**كلُّ شيء إذا كثُرَ . . رخُصَ إلا العقل** ؛ فإنه إذا كثُرَ . . غلا)[4] .

وقال بعض البلغاء : (**إن العاقلَ مَن عقلُه في إرشاد ، ومَن رأيُه في إمداد** ؛ فقولُه سديدٌ ، وفعلُه حميدٌ ، **والجاهلَ مَن جهلُه في إغواء ، ومَن هواه في إغراء** ؛ فقولُه سقيمٌ ، وفعلُه ذميمٌ)[5] .

وأنشدني ابنُ لَنْكَكَ لأبيه[6] : [من السريع]

مَـن لـم يكـنْ أكثـرُه عقلَـهُ أهلكَـه أكثـرُ مـا فيـهِ

فأما الدهاءُ والمكر . . فهو مذموم ؛ لأن صاحبه صرف فَضْلَ عقلِه إلى الشرّ ،

---

(١) رواه الهيثمي في « بغية الباحث » (٨٣٧/أ) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، وزاد بعده : (قال ابن عباس : وذلكم نبيكم صلى الله عليه وسلم) ، وأورده في « الفردوس » (٣٤٧٦) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما موقوفاً .

(٢) أورده في « مسند الشهاب » (١٢٩) ، ورواه في « تاريخ دمشق » (٤٠٤/٨) عن سيدنا جابر رضي الله عنه : « المؤمن إلفٌ مألوفٌ » .

(٣) الخبر في « المصون في الأدب » (ص ١٣٨) وسمّى القائل محمد بن القاسم بن يوسف .

(٤) الخبر في « المصون في الأدب » (ص ١٣٨) ، ونسبه في « الإعجاز والإيجاز » (ص ٨٠) لنصر بن سَيّار .

(٥) الخبر في « المستطرف » (٥٦/١) .

(٦) **ابن لنكك** : هو محمد بن محمد البصري ، توفي (٣٦٠هـ) ، **ولنكك** : الأُعَيرج . انظر « يتيمة الدهر » (٤٠٧/٢) .

ولو صرفه إلى الخير . . لكان محموداً ، وقد ذكر المغيرةُ بن شعبة عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه فقال : (**كان ـ والله ـ أفضلَ مِن أن يَخدعَ** ، وأعقلَ مِن أن يُخدَع)[1] .

وقال عمر رضي الله عنه : (**لستُ بالخَبِّ ، ولا يخدعُني الخَبُّ**)[2] .

واختلف الناس فيمن صرف فضل عقله إلى الشرّ ؛ كزيادٍ وأشباهِه من الدُّهاة : **هل يُسمَّى الداهيةُ منهم عاقلاً ، أم لا ؟**

فقال بعضهم : **أُسمِّيه عاقلاً ؛ لوجود العقل منه** .

وقال آخرون : **لا أُسمِّيه عاقلاً حتىٰ يكونَ خيِّراً ديِّناً** ؛ لأن الخير والدِّين من موجَبات العقل ، **فأما الشرّيرُ . . فلا أسمّيه عاقلاً** ، وإنما أسمّيه صاحبَ رويّة وفكر .

وقد قيل : (**العاقلُ** : مَن عقل عن الله عز وجل أمرَه ونهيَه)[3] ، حتىٰ قال أصحاب الشافعي رضي الله عنه فيمن أوصىٰ بثُلث مالِه لأعقل الناس : (**إنه يكون مصروفاً إلى الزهَّاد**)[4] ؛ لأنهم انقادوا للعقل ولم يغترُّوا بالأمَل .

ورویٰ لقمان بن عامر ، عن أبي الدرداء رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « **يا عُوَيمرُ ؛ ازدَدْ عقلاً . . تزدَدْ من ربِّك قُرْباً** » قلتُ : بأبي أنتَ وأمّي ؛ **ومَن لي بالعقل ؟!** قال : « **اجتنِبْ محارمَ الله ، وأدِّ فرائضَ الله . . تكنْ عاقلاً** ، ثم تنفَّلْ بصالحات الأعمال . . تزدَدْ في الدنيا عَقلاً ، وتزدَدْ من ربّك قُرباً ، وبه عزّاً »[5] .

---

(١) الخبر في « البيان والتبيين » (١/ ٨٦) ، و« العقد الفريد » (٢/ ٢٤١) .

(٢) الخبر في « العقد الفريد » (٢/ ٢٤١) ، **والخَبُّ** : هو المكار المخادع ، **والخِبُّ** : مصدر يوصف به مبالغة .

(٣) أورده في « حلية الأولياء » (٨/ ٣٧٠) من قول وكيع بن الجراح رحمه الله .

(٤) انظر « الحاوي الكبير » (١٠/ ٢١٤) .

(٥) رواه الهيثمي في « بغية الحارث » (٨٢٩) ، والحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص ٢٤٢) .

وأنشدني بعضُ أهل الأدب هٰذه الأبيات ، وذكر أنها لعلي بن أبي طالب عليه السلام[١] : [من البسيط]

إنَّ المكــارمَ أخــلاقٌ مطهَّــرةٌ ... فـالعقـلُ أوّلُها والـدِّيـن ثـانيهـا
والعلـمُ ثـالثُهـا والحِلْـمُ رابعُهـا ... والجُودُ خامسُها والعُرْفُ ساديها
والبِـرُّ سـابعُهـا والصبـرُ ثـامنُهـا ... والشكرُ تاسعُها واللينُ عاشيها
والنفـسُ تعلـمُ أنـي لا أُصـدِّقُهـا ... ولسـتُ أَرشُـدُ إلا حيـنَ أَعصيهـا
والعينُ تعرفُ في عينَيْ مُحدِّثها ... إن كان من حِزبها أو من أعاديها
عينـاكَ قـد دَلَّتـا عينـيَّ منكَ علىٰ ... أشيـاءَ لـولاهمـا مـا كنـتَ تبـديهـا

واعلم : أن العقل المكتسَب لا ينفكُّ عن العقل الغريزيّ ؛ لأنه نتيجةٌ منه ، **وقد ينفكُّ العقلُ الغريزيُّ عن العقل المكتسَب** ، فيكون صاحبُه مسلوبَ الفضائل ، موفورَ الرذائل ؛ كالأَنوَكِ الذي لا تجد له فضيلةً ، والأحمقِ الذي قلَّما يخلو من رذيلة[٢] .

وقد رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **الأحمقُ أبغضُ خَلْقِ الله إليه** ؛ إذ حرمَه أعزَّ الأشياء عليه »[٣] .

وروي عن النبي عليه السلام أنه قال : « **الأحمقُ كالفخَّار لا يُرقَعُ ولا يُشعَبُ** »[٤] .

وقال بعض الحكماء : (**الحاجةُ إلى العقل أقبحُ من الحاجة إلى المال**)[٥] .

وقال بعض البلغاء : (دولةُ الجاهل عبرةُ العاقل)[٦] .

---

(١) الأبيات في « ديوانه » (ص ٢٦٥) .
(٢) **الأنوك** : العاجز الجاهل العيي في كلامه ، **وأول درجات الجاهل** : المائق ، ثم الرقيع ، ثم الأنوك ، ثم الأحمق ، نسأل الله العافية .
(٣) ذكره النويري في « نهاية الأرب » (٣/ ٣٥٣) .
(٤) رواه في « روضة العقلاء » (١/ ٤٩٣ـ ٤٩٤) من قول وهب بن منبه رحمه الله .
(٥) أورده في « ديوان المعاني » (٢/ ٩٢) ونسبه لأرسطاطاليس .
(٦) أورده في « الكشكول » (٢/ ١٣١) .

وقال أنوشَرْوان لبُزُرْجُمِهْرَ : (أيُّ الأشياء خيرٌ للمرء ؟ قال : **عقلٌ يعيش به** ، قال : فإن لم يكن ؟ قال : **فإخوانٌ يسترون عيبه** ، قال : فإن لم يكن ؟ قال : **فمالٌ يتحبَّبُ به إلى الناس** ، قال : فإن لم يكن ؟ قال : **فعِيٌّ صامتٌ** ، قال : فإن لم يكن ؟ قال : **فموتٌ جارفٌ**)[1] .

وقال سابورُ بن أردشِيرَ : (**العقل نوعان** : أحدهما مطبوعٌ ، والآخر مسموعٌ ، ولا يصلح واحدٌ منهما إلا بصاحبه) ، فأخذ ذلك بعض الشعراء فقال[2] : [من الهزج]

رأيتُ العقلَ نوعين فمسموعٌ ومطبوعُ
فلا ينفعُ مطبوعٌ إذا لم يكُ مسموعُ
كما لا تنفعُ الشمسُ وضوءُ العينِ ممنوعُ

وقد وصف بعضُ الأدباء العاقلَ بما فيه من الفضائل ، والأحمقَ بما فيه من الرذائل ، فقال : (**العاقلُ إذا والىٰ** . . بذل في المودَّة نَصْرَه ، **وإذا عادىٰ** . . رفعَ عن الظلم قَدْرَه ، فيَسعدُ مُواليه بعقله ، ويعتصم مُعاديه بعدله ، **إن أحسن إلىٰ أحد** . . ترك المطالبةَ بالشُّكْر ، **وإن أساء إليه مسيءٌ** . . تطلَّب له أسبابَ العُذْر ، أو منحه الصفحَ والعفو .

والأحمقُ ضالٌّ مضِلٌّ ؛ **إن أُونِس** . . تكبَّر ، **وإن أُوحِش** . . تكدَّر ، **وإن استُنطِق** . . تخلَّف ، **وإن تُرِك** . . تكلَّف ، مجالستُه مهنة ، ومعاتبتُه محنة ، ومحاورتُه تغُرّ ، وموالاتُه تضُرّ ، ومقاربتُه عمىً ، ومقارنته شقاً) .

وكانت ملوكُ الفرس **إذا غضبت علىٰ عاقل** . . **حبسته مع جاهل** .

والأحمقُ يسيءُ إلىٰ غيره ويظنُّ أنه قد أحسن إليه ، فيطالبُه بالشُّكر ، **ويُحسَنُ إليه** فيظن أنه قد أساء إليه ، فيطالبُه بالوِتْر[3] ؛ **فمساوىءُ الأحمق لا تنقضي** ،

---

(١) الخبر في « البيان والتبيين » (١/ ٢٢١) .

(٢) الأبيات في « ديوان المعاني » (١/ ١٢٥) ، و« روضة العقلاء » (١/ ٩٠) ، وهي في « ديوان الإمام علي » رضي الله عنه (ص ١٦١) .

(٣) **الوِتْر** : الثأر ، **والمعنىٰ** : أن الأحمق يظن أن المحسِن قد أساء إليه ، فيطالبه بالوتر .

وعيوبُه لا تتناهىٰ ، ولا يقف النظر منها إلىٰ غاية إلا لوَّحت مما وراءها بما هو أدنىٰ منها وأردىٰ ، وأمرُّ وأدهىٰ ، **فما أكثرَ العِبرَ لمن نظر ، وأنفعَها لمن اعتبر !!**

وقال الأحنف بن قيس : (**من كلِّ شيءٍ يُحفَظ الأحمقُ إلا من نفسه**)[1] .

وقال بعض البلغاء : (**إن الدنيا ربما أقبلتْ على الجاهل بالاتِّفاق ، وأدبرتْ عن العاقل بالاستحقاق** ؛ فإن أتتكَ منها سُهْمةٌ مع جهل[2] ، أو فاتتكَ فيها بُغيةٌ مع عقلٍ . . **فلا يحملَنَّكَ ذلك على الرغبة في الجهل ، والزهد في العقل** ، فدولةُ الجاهل من الممكنات ، ودولةُ العاقل من الواجبات ، وليس مَن أمكنه شيءٌ من ذاته كمن استوجبه بآلته وأدواته) .

وبعدُ : فدولةُ الجاهل كالغريب الذي يَحِنُّ إلى النُّقْلة ، ودولةُ العاقل كالنَّسيب الذي يَحِنُّ إلى الوُصْلة ، **فلا يفرحِ المرءُ بحالةٍ جليلةٍ نالها بغير عقلٍ** ، أو منزلةٍ رفيعةٍ حَلَّها بغير فضل ؛ **فإن الجهلَ يُزِلُّه منها ، ويزيله عنها** ، ويحطُّه إلىٰ رتبته ، ويردُّه إلىٰ قيمته ، بعد أن تظهر عيوبُه ، وتكثر ذنوبُه ، **ويصير مادحُه هاجياً ، ووليُّه مُعادياً** .

واعلم : أنه بحسَب ما يُنشَر من فضائل العاقل . . **كذلك يظهر من رذائل الجاهل** ؛ حتىٰ يصيرَ مَثَلاً في الغابرين ، وحديثاً في الآخِرين ، مع هتكته في عصره ، وقبح ذكره في دهره ؛ كالذي رواه عطاء ، عن جابر رضي الله عنه قال : (**كان في بني إسرائيل رجلٌ له حمار** ، فقال : **يا رب ؛ لو كان لك حمارٌ . . لَعلفتُه مع حماري** ، فهمَّ به نبيٌّ من أنبياء الله ، فأوحى الله تعالىٰ إليه : **إنما أُثيب كلَّ إنسانٍ علىٰ قَدْر عقله**)[3] .

واستعمل معاويةُ رضي الله عنه رجلاً من كلب ، فذُكِر المجوسُ يوماً عنده ، فقال : لعن الله المجوس ينكحون أمهاتهم ، **والله ؛ لو أُعطيتُ عشرة آلاف**

---

(١) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٣٣) .
(٢) **سُهمة** ـ علىٰ وزن غُرفة ـ : النصيب .
(٣) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٤٣١٨ ، ٤٣١٩) موقوفاً ومرفوعاً .

درهم . . ما نكحتُ أمي ، فبلغ ذلك معاويةَ رضي الله عنه ، فقال : (**قبَّحه الله ، أترونه لو زادوه . . فعل ؟!**) وعزله[1] .

ووَلِيَ الربيعُ العامريُّ ـ وكان من النَّوكىٰ ـ بعضَ منابر اليمامة ، **فأقاد كلباً بكلب** ، فقال فيه الشاعر : [من الطويل]

شهدتُ بأنّ اللهَ حقّاً لقاؤُه ... وأنّ الربيعَ العامريَّ رَقيعُ
أَقادَ لنا كَلْباً بكلبٍ ولم يدَعْ ... دماءَ كلابِ المسلمين تضيعُ[2]

وليس **لمَعارِّ الجهل غايةٌ ، ولا لمَضارِّ الحُمق نهايةٌ** ، وقد قال الشاعر[3] : [من البسيط]

لكلِّ داءٍ دواءٌ يُستطَبُّ بهِ ... إلا الحماقةَ أعيَتْ مَنْ يُداويها

---

(1) الخبر في « عيون الأخبار » (٢/ ٤٥) ، و« البيان والتبيين » (٢/ ٢٥٩) .

(2) الخبر في « البيان والتبيين » (٢/ ٢٥٩) ، والبيتان لحميد بن ثور الهلالي في « ديوانه » (ص ١٤٤) ، وقوله : (حقاً) كذا في النسخ بالنصب إلا (د) ، وانظر توجيهها في « منهاج اليقين » (ص٣٤) ، ورقيع : أحمق .

(3) البيت في « العقد الفريد » (٢/ ٣٥٧) ، و« الكشكول » (٢/ ٣٥٣) .

فَصْلٌ
[في ذمّ الهوىٰ]

فأما الهوىٰ . . فهو عن الخير صادٌّ ، وللعقل مُضادٌّ ؛ لأنه ينتج من الأخلاق قبائحَها ، ويظهر من الأفعال فضائحها ، ويجعل سترَ المروءة مهتوكاً ، ومدخلَ الشرِّ مسلوكاً .

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : (**الهوىٰ : إلـٰهٌ يُعبَدُ من دون الله** ، ثم تلا قوله تعالىٰ : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾)[1] .

وقال عكرمة في قوله تعالىٰ : (﴿ وَلَـٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ يعني : **بالشهوات** ، ﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ ﴾ يعني : **بالتوبة** ، ﴿ وَٱرْتَبْتُمْ ﴾ يعني : **في أمر الله** ، ﴿ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ ﴾ يعني : **بالتسويف** ، ﴿ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ يعني : **الموت** ، ﴿ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ يعني : **الشيطان**)[2] .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **طاعةُ الشهوة داءٌ ، وعصيانُها دواءٌ** » .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (**اقدَعوا هـٰذه النفوسَ عن شهواتها ؛ فإنها طلاّعة تنزِعُ إلىٰ شرِّ غايةٍ ، إن هـٰذا الحقَّ ثقيل مُرِّي ، وإنّ الباطلَ خفيفٌ وَبي** ، وتركُ الخطيئة خيرٌ من معالجة التوبة ، وربَّ نظرةٍ زرعَتْ شهوةً ، وشهوةِ ساعةٍ أورثَتْ حزناً طويلاً)[3] .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : (**أخاف عليكم اثنتين : اتِّباعَ الهوىٰ ، وطولَ الأمل ؛ فإنَّ اتِّباعَ الهوىٰ يصدُّ عن الحق ، وطولَ الأمل يُنسي الآخرةَ**)[4] .

---

(١) أورده في « عيون الأخبار » (١/ ٣٧) ، و« البيان والتبيين » (١/ ٢٣٥) .

(٢) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٦٩١٢) عن عكرمة عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

(٣) أورده في « البيان والتبيين » (٣/١٣٨) ، و« صبح الأعشىٰ » (١/ ٢١٤) ، واقدعوا : امنعوا ، وطلاعة : تكثر التطلع والميل إلىٰ ما تشتهيه ، والمُرِّي ـ علىٰ وزن (دُرِّي) ـ : دواء معروف بين الأطباء ؛ والمعنىٰ : منع النفس عن شهواتها وإن كان ثقيلاً ؛ فإنه يحفظ صحة الأبدان .

(٤) أورده في « البيان والتبيين » (٢/ ٥٣) .

وقال الشعبيُّ : (**إنَّما سُمِّي الهوىٰ هوىً ؛ لأنَّه يَهوي بصاحبه**)[1] .

وقال أعرابي : (**الهوىٰ هَوانٌ** ؛ ولـٰكن غُلط باسمه) ، فأخذه الشاعر فقال[2] : [من الكامل]

إنَّ الهوانَ هو الهوىٰ قُلِبَ اسمُهُ ... فـإذا هَـوِيـتَ فقـد لَقِيـتَ هَـوانَـا

وقيل في منثور الحكم : (**مَن أطاع هَواه .. أعطىٰ عدوَّه مُناه**)[3] .

وقـال لقمـانُ الحكيـم : (**العقـلُ** : صـديـقٌ مقطـوعٌ ، **والهـوىٰ** : عـدوٌّ متبوعٌ)[4] .

وقال بعض البلغاء : (**أفضلُ الناس** : **مَن** عصىٰ هواه ، **وأفضلُ منه** : **مَن** رفض دنياه) .

وقال هشام بن عبد الملك بن مروان[5] : [من الطويل]

إذا أنتَ لم تعصِ الهوىٰ قادكَ الهوىٰ ... إلـىٰ كـلِّ مـا فيـه عليـكَ مَقـالُ

قال ابن المعتز : (لم يقل هشام بن عبد الملك غير هـٰذا البيت) .

وقال الشاعر[6] : [من الطويل]

إذا ما رأيتَ المرءَ يَقتادُهُ الهوىٰ ... فقـد ثكِلَتْـه عنـد ذاكَ ثَـواكِلُـهْ

وقد أشمَتَ الأعداءَ جهلاً بنفسهِ ... وقـد وجَـدَتْ فيـه مَقـالاً عـواذِلُـهْ

وما يَزَعُ النفسَ اللَّجوجَ عنِ الهوىٰ ... منَ الناسِ إلا حازمُ الرأيِ كامِلُهْ

---

(١) أورده أبو عبيد في « الأمثال » (ص ٢٢٤) .
(٢) البيت في « الموشىٰ » (ص ٨٨) ، و« محاضرات الأدباء » (١/ ٣٠) .
(٣) أورده في « الإمتاع والمؤانسة » (ص ٣٦٣) ، و« التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٥٣) .
(٤) أورده في « محاضرات الأدباء » (١/ ٢٨) .
(٥) البيت في « عيون الأخبار » (١/ ٣٧) .
(٦) أورد الأبيات في « حلية الأولياء » (٧/ ٢٧٦) .

فلما كان الهوىٰ غالباً ، وإلىٰ سبيل المَهالك مُورِداً . . **جُعِل العقلُ عليه رقيباً مجاهداً** ، يلاحظ عَثْرةَ غفلته ، ويدفع سَطوة بادرته ، ويوضح خداع حيلته ؛ **لأن سلطان الهوىٰ قويٌّ** ، **ومدخل مَكْره خفيٌّ** ، ومن هٰذين الوجهين يؤتى العاقل حتىٰ تنفذَ أحكام الهوىٰ عليه ؛ أعني **بأحد الوجهين** : قوة سلطانه ، **وبالآخر** : خفاء مَكْره .

❁ ❁ ❁

فأما الوجه الأول . . فهو أن يَقوىٰ سلطانُ الهوىٰ بكثرة دواعيه ؛ حتىٰ تستوليَ عليه مغالبة الشهوات ، **فيَكلَّ العقل عن دفعها** ، **ويضعفَ عن منعها** ، مع وضوح قبحها ؛ في العقل المقهور بها .

وهٰذا يكون في الأحداث أكثر ، **وعلى الشباب أغلب** ؛ لقوة شهواتهم ، وكثرة دواعي الهوى المتسلِّط عليهم ، وأنهم ربما جعلوا الشباب عذراً لهم ؛ كما قال محمد بن بشير[1] : [من الكامل]

كلٌّ يَرىٰ أنَّ الشبابَ لَهُ ... في كلِّ مَبلغِ لذَّةٍ عُذْرُ

ولذلك قال بعض الحكماء : (**الهوىٰ مِلكٌ غَشُومٌ** ، **ومُتَسلِّطٌ ظَلُومٌ**)[2] .

وقال بعض الأدباء : (**الهوىٰ عَسُوفٌ** ، **والعدلُ مألوفٌ**) .

وقال بعض الشعراء : [من السريع]

يا عاقلاً أَردى الهوىٰ عقلَهُ ... ما لَكَ قد سُدَّتْ عليكَ الأمورْ

أَتجعلُ العقلَ أسيرَ الهوىٰ ... وإنما العقلُ عليه أميرْ

وحسمُ ذلك : أن يستعين بالعقل على النفس النَّفُور ، فيشعرَها ما في عواقب الهوىٰ من شدَّة الضَّرَر ، وقُبح الأثَر ، وكثرة الإجرام ، وتراكم الآثام ؛ فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « **حُفَّتِ الجنّةُ بالمكاره، وحُفَّتِ النارُ بالشَّهَوات** »[3] ،

---

(١) أورد البيت في « المحب والمحبوب » (٤/ ٣٨١) ، وهو في « ديوان الأحوص » (ص ١٤١) .

(٢) أورده في « روضة المحبين » (ص ١٢٩) .

(٣) رواه مسلم (٢٨٢٢) ، والترمذي (٢٥٥٩) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه .

أخبر : **أن الطريقَ إلى الجنة** احتمالُ المكاره ، **والطريقَ إلى النار** اتِّباعُ الشهوات .

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام : (**إياكم وتحكيمَ الشَّهَوات علىٰ أنفسكم** ؛ فإن عاجلَها ذميمٌ ، وآجلَها وخيمٌ ، **فإن لم ترَها تنقادُ بالتخويف والإرهاب** . . فسوِّفها بالتأميل والإرغاب ؛ فإن الرغبةَ والرهبةَ إذا اجتمعا على النفس . . ذلَّت لهما وانقادت) .

وقد قال ابن السماك : (**كن لهواكَ مُسوِّفاً ، ولعقلكَ مُسعِفاً** ، وانظر ما تسوء عاقبتُه . . فوطِّنْ نفسكَ علىٰ مُجانبته ؛ **فإنَّ ترك النفس وما تهوىٰ داؤها ، وترك ما تهوىٰ دواؤها** ، فاصبرْ على الدواء لما تخاف من الداء) .

وقال الشاعر[1] : [من الطويل]

صبرتُ على الأيام حتىٰ تولَّتِ ... وألزمتُ نفسي صَبْرَها فاستمرَّتِ

وما النفسُ إلا حيثُ يجعلُها الفتىٰ ... فإنْ أُطمِعت تاقَتْ وإلا تسلَّتِ

فإذا انقادتِ النفسُ للعقل بما قد أُشعِرتْ من عواقب الهوىٰ . . **لم يلبثِ الهوىٰ أن يصيرَ بالعقل مزجوراً ، وبالنفس مقهوراً** ، ثم له الحظُّ الأوفر في ثواب الخالق وثناء المخلوقين ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ .

وقال الحسن البصري : (**أفضلُ الجهاد** : جهادُ الهوىٰ)[2] .

وقال بعض الحكماء : (**أعزُّ العِزِّ** : الامتناعُ من مَلِكِ الهوىٰ) .

وقال بعض البلغاء : (**خيرُ الناس** : مَن أخرج الشهوةَ من قلبه ، وعصىٰ هواه في طاعة ربِّه)[3] .

وقال بعض الأدباء : (من أماتَ شهوتَه . . **أحيا مروءتَه**)[4] .

وقال بعض العلماء : (ركَّب اللهُ الملائكةَ من عقلٍ بلا شهوة ، وركَّب البهائمَ

---

(١) البيتان لعمرو بن معدي كرب في « ديوانه » (ص ١٩٨) .

(٢) أورده في « بهجة المجالس » (٢/ ٨١٠) من كلام عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالىٰ .

(٣) أورده في « المستطرف » (١/ ٨٧) .

(٤) أورده في « المستطرف » (١/ ٩٠) .

من شهوةٍ بلا عقل ، وركَّب ابنَ آدمَ من كليهما ، **فمَن غلب عقلُه شهوتَه** . . فهو خيرٌ من الملائكة ، **ومن غلبت شهوتُه عقلَه** . . فهو شرٌّ من البهائم)[1] .

وقيل لبعض الحكماء : (**من أشجعُ الناس وأحراهم بالظَّفَر في مجاهدته ؟** قال : مَن جاهد الهوىٰ طاعةً لربِّه ، واحترس من ورود خواطر الهوىٰ علىٰ قلبه)[2] .

وقال بعض الشعراء : [من الرجز]

قد يُدركُ الحازمُ ذو الرأي المُنىٰ   بطاعة الحَزْم وعصيان الهَوىٰ

وأما الوجه الثاني . . فهو أن يخفيَ الهوىٰ مكرَه ؛ حتىٰ تتموَّهَ أفعالُه على العقل ، **فيتصوَّرَ القبيحُ حسناً** ، **والضررُ نفعاً** ، وهـٰذا يدعو إليه أحدُ شيئين :

إما أن يكون للنفس ميلٌ إلىٰ ذلك الشيء ، فيخفىٰ عنها القبيحُ بحسن ظنها ، وتتصوَّره حسناً لشدة ميلها ؛ ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : « **حبُّكَ الشيءَ يُعمي ويُصِمُّ** »[3] أي : يُعمي عن الرشد ، ويُصِمُّ عن قبول الموعظة .

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام : (**الهوىٰ عمىً**) .

وقال الشاعر[4] : [من الرمل]

. . . .   حَسَنٌ في كلِّ عينٍ مَن تَوَدّْ

وقال عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين[5] : [من الطويل]

ولستُ بِراءٍ عيبَ ذي الوُدِّ كلَّه   ولا بعضَ ما فيه إذا كنتُ راضيَا

---

(١) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ١٧٢) ، و« الكشكول » (٢/٤٢٦) .

(٢) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٥٣) .

(٣) رواه أبو داوود (٥١٣٠) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٤٠٧) عن سيدنا أبي الدرداء رضي الله عنه .

(٤) البيت لعمر بن أبي ربيعة في « ديوانه » (ص ١٠٦) ، وصدره : (فتضاحكْنَ وقد قُلن لها) .

(٥) البيت في « ديوانه » (ص ٩٠) .

فعينُ الرِّضا عن كل عيبٍ كليلةٌ ولكنَّ عين السُّخْطِ تُبدي المَساويَا

وأما السبب الثاني[1] . . فهو استثقالُ الفكر في تمييز ما اشتبه ، وطلبُ الراحة في اتّباع ما يَسهُل ؛ **حتىٰ يظنَّ أن ذلك أوفقُ أمرَيه ، وأحمدُ حالَيه** ؛ اغتراراً بأن الأسهلَ محمودٌ ، والأعسرَ مذمومٌ ، فلن يعدم أن يتورَّط بخُدَع الهوىٰ وزينة المكر ، في كلِّ مَخُوفٍ حذِر ، ومكروهٍ عسِر ؛ ولذلك قال عامر بن الظَّرِب : (**الهوىٰ يقظانُ ، والعقلُ راقدٌ ، فمن ثَمَّ غُلِب**)[2] .

وقال سليمان بن وهب : (**الهوىٰ أمتعُ ، والرأي أنفعُ**)[3] .

وقيل في المثل : (**العقلُ وزيرٌ ناصحٌ ، والهوىٰ وكيلٌ فاضحٌ**)[4] .

وقال الشاعر[5] : [من الطويل]

إذا المرءُ أعطىٰ نفسَه كلَّ ما اشتهَتْ ولم ينهَهَا تاقَتْ إلىٰ كلِّ باطلِ
وساقَتْ إليه الإثمَ والعارَ بالذي دعتْهُ إليه من حلاوةِ عاجلِ

وحسم السبب الأول : أن يجعل فكر قلبه حَكَماً علىٰ نظر عينه ؛ **فإن العين رائدُ الشهوة** ، والشهوة من دواعي الهوىٰ ، **والقلب رائد الحق** ، والحق من دواعي **العقل** .

وقد قال بعض الحكماء : (**نظرُ الجاهل** بعينه وناظره ، **ونظرُ العاقل** بقلبه وخاطره) .

ثم يتَّهمَ نفسه في صواب ما أحبَّتْ ، وتحسين ما اشتهت ؛ ليصحَّ له الصواب ، ويستبينَ له الحقُّ ؛ **فإن الحقَّ أثقلُ محمَلاً** ، وأصعبُ مركباً .

فإن أشكل عليه أمران . . اجتنب أحبَّهما إليه ، وترك أسهلَهما عليه ؛ فإن

---

(١) أي : الداعي إلىٰ إخفاء الهوىٰ مكره .

(٢) أورده في « عيون الأخبار » (١/ ٣٧) .

(٣) أورده في « التذكرة الحمدونية » (٦/ ١١٣) ، و« محاضرات الأدباء » (٣/ ١٩٤) .

(٤) أورده في « البصائر والذخائر » (١/ ١٣١) .

(٥) أوردهما في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٣٨٢) بلا نسبة ، وفي « معجم الأدباء » (٤/ ٨٥) للحسين بن محمد النحوي المعروف بالبارع .

النفس عن الحق أنفرُ ، وللهوىٰ آثَرُ ، وقد قال العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه : (**إذا اشتبه عليك أمران . . فدَعْ أحبَّهما إليك ، وخذ أثقلَهما عليك**)[1] .

وعلة هٰذا القول : هو أن الثقيل تبطىء النفس عن التسرُّع إليه ، فيتضح مع الإبطاء وتطاول الزمان صوابُ ما استعجم ، وظهورُ ما استبهم ، وقد قال علي بن أبي طالب عليه السلام : (**مَن تفكَّر . . أبصَر**)[2] .

والمحبوبُ السهل تُسرع النفس إليه ، وتعجل بالإقدام عليه ، فيقصُر الزمان عن تصفُّحه ، ويفوت استدراكه لتقضّي فعله ، فلا ينفع التصفحُ بعد العمل ، ولا الاستبانةُ بعد الفَوْت ، وقد قال بعض الحكماء : (**ما كان عنك مُعرِضاً . . فلا تكن به متعرِّضاً**) .

وقال الشاعر[3] : [من الوافر]

أليسَ طِلابُ ما قد فات جَهْلاً ... وذِكْرُ المرءِ ما لا يستطيعُ

ولقد وصف بعض البلغاء حال الهوىٰ وما يقارنه من مِحَن الدنيا فقال : (**الهوىٰ مطيّة الفتنة ، والدنيا دار المِحنة** ، فانزل عن الهوىٰ . . تسلَمْ ، وأعرِضْ عن الدنيا . . تغنَمْ ، **ولا يغرنَّكَ هواك بطيب الملاهي ، ولا تفتننَّكَ دنياك بحُسن العَواري** ؛ فمدة اللهو تنقطع ، وعارية الدهر تُرتجَع ، **ويبقىٰ عليك ما ترتكبه من المحارم ، وتكتسبه من المآثم**) .

وقال علي بن عبد الله الجعفري : (سمعتني امرأةٌ بالطواف وأنا أنشد : [من البسيط]

أهوىٰ هوى الدِّين واللَّذّاتُ تُعجبني ... فكيف لي بهوى اللَّذّاتِ والدِّينِ

فقالت : **هما ضَرّتان ، فذَرْ أيتَهما شئتَ ، وخذِ الأخرىٰ**)[4] .

---

(١) أورده في « عيون الأخبار » (١/ ٣٧) ونسبه لبزرجمهر ، وفي « الأمثال » (ص ٢٢٤) .

(٢) أورده في « العقد الفريد » (٢/ ١٠٧) ، و« التذكرة الحمدونية » (٥/ ١٨٥) من كلام الزرقاء بنت عدي الهمدانية .

(٣) البيت في « جمهرة الأمثال » (١/ ٣٣٨) بلا نسبة .

(٤) أورده في « الأغاني » (٢٦/ ٨٩٤٧) ، و« الوافي بالوفيات » (٢١/ ١٨٩) ، وهو علي بن المديني رحمه الله تعالىٰ .

فأما فرقُ ما بين الهوىٰ والشهوة مع اجتماعهما في العلة والمعلول واتفاقهما في الدلالة والمدلول. . فهو أن الهوىٰ مختص بالآراء والاعتقادات ، والشهوة تختص بنيل المستلَذّات ، فصارت الشهوةُ من نتائج الهوىٰ وهي أخصُّ ، والهوىٰ أصلٌ وهو أعمُّ .

ونحن نسأل الله تعالىٰ أن يكفيَنا دواعيَ الهوىٰ ، ويصرفَ عنا سُبل الرَّدىٰ ، ويجعل التوفيق لنا قائداً ، والعقلَ لنا مرشداً ؛ فقد حُكي : أن الله تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام : « عِظْ نفسَكَ ، فإنِ اتعظَتْ . . فعِظِ الناسَ ، وإلا . . فاستحْيِ مني »[1] .

وقال محمد بن كُناسة[2] : [من الكامل]

ما مَن روىٰ أدباً فلم يعملْ بهِ ... ويكفَّ عن زيغِ الهوىٰ بأديبِ
حتىٰ يكونَ بما تعلَّمَ عاملاً ... من صالحٍ فيكونَ غيرَ مَعيبِ
ولقلَّما تُغني إصابةُ قائلٍ ... أفعالُه أفعالُ غيرِ مُصيبِ

وقال آخر[3] : [من الكامل]

يا أيُّها الرجلُ المعلِّمُ غيْرَهُ ... هلاّ لنفسِكَ كانَ ذَا التعليمُ
تَصفُ الدواءَ لِذي السَّقامِ وَذِي الضَّنىٰ ... كيمَا يَصِحَّ بِهِ وَأنتَ سَقيمُ
ابدأْ بنفسكَ فانهَهَا عن غيِّها ... فإذا انتهَتْ عنه فأنتَ حكيمُ
فهناكَ تُعذَرُ إن وَعظتَ ويُقتدىٰ ... بالقول منكَ ويُقبَلُ التعليمُ
لا تنهَ عن خُلقٍ وتأتيَ مثلَهُ ... عارٌ عليكَ إذا فعلتَ عظيمُ

حكىٰ أبو فروةَ : (أن طارقاً صاحبَ شُرْطة خالد بن عبد الله القَسْري مرَّ بابن شُبْرُمةَ وطارقٌ في موكبه ، فقال ابنُ شُبْرُمةَ : [من الطويل]

أراها وإنْ كانت تُحَبُّ كأنَّها ... سحابةُ صيفٍ عن قليلٍ تَقشَّعُ

---

(١) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٢/ ٣٨٢) عن مالك بن دينار رحمه الله .
(٢) الأبيات في « الأغاني » (١٣/ ٤٨٥٦) ، و« معجم الشعراء » (٢/ ٢٤٣) لأحمد بن يحيى البلاذريّ .
(٣) الأبيات لأبي الأسود الدؤلي في « ديوانه » (ص ٤٠٤) ، و« خزانة الأدب » (٨/ ٥٦٧) .

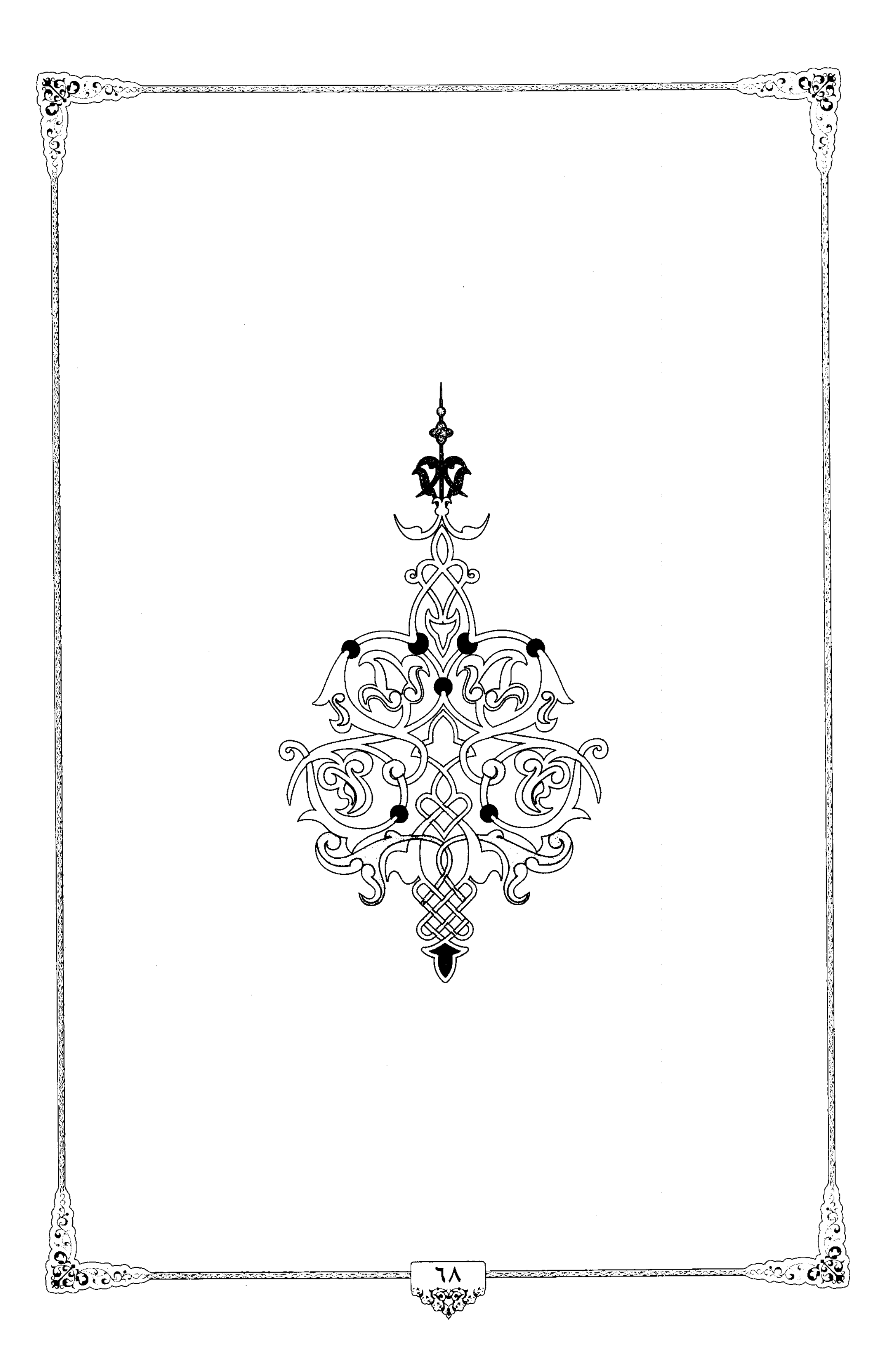
اللهم ؛ لي ديني ، ولهم دنياهم ، فاستُعمِلَ ابنُ شُبْرُمةَ بعد ذلك على القضاء ، فقال له ابنه : أتذكر قولَك يومَ كذا إذ مر بك طارق في موكبه ؟ فقال : يا بني ؛ إنهم يجدون مثلَ أبيك ، ولا يجد أبوك مثلَهم ، إنَّ أباك أكل من حَلْوائهم ، فحطَّ في أهوائهم)[1] .

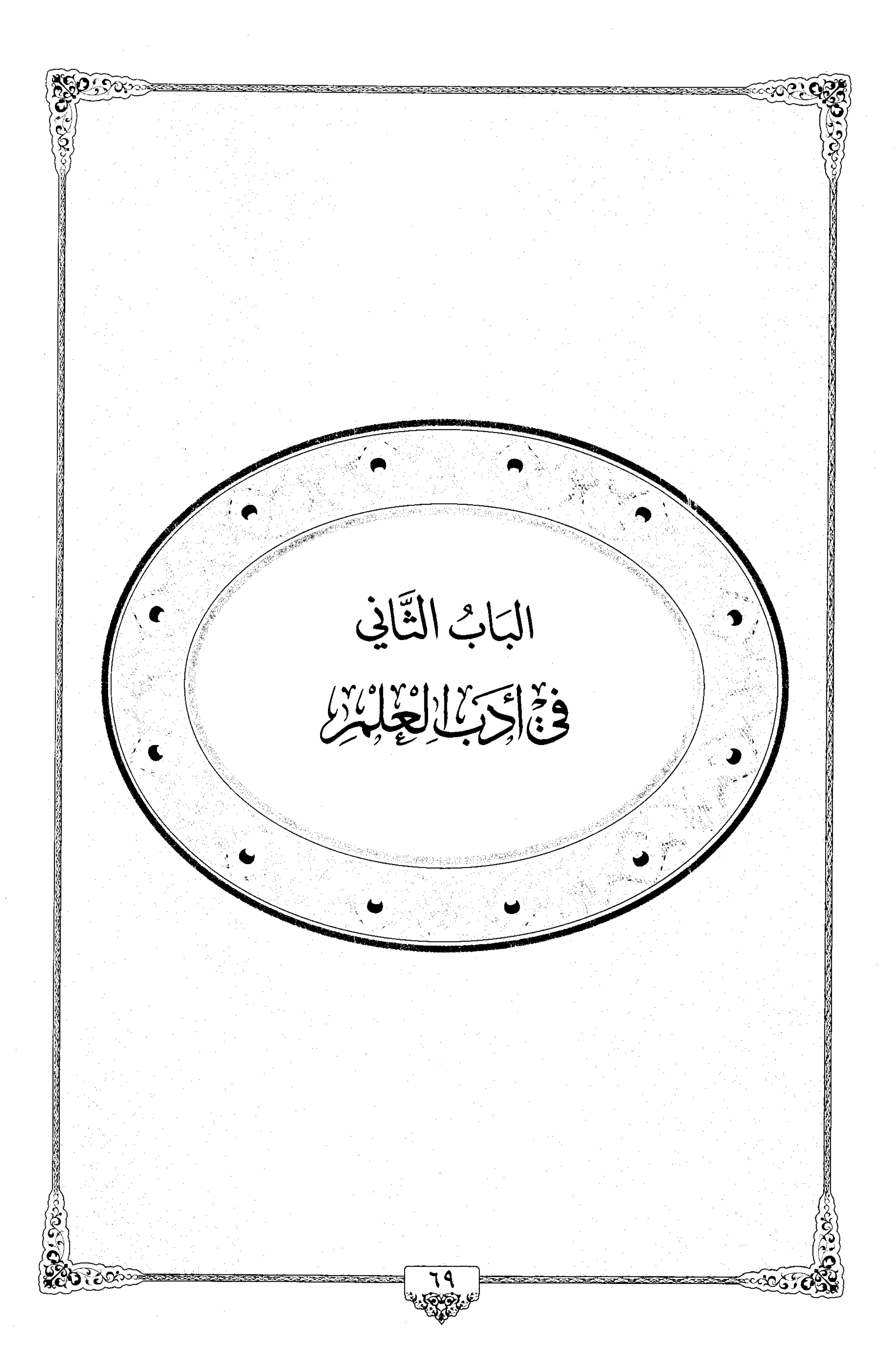
أما ترىٰ هٰذا الدَّيِّنَ الفاضلَ كيف عُوجِل بالتقريع ، وقُوبِل بالتوبيخ من أخصِّ ذَويه ، ولعله من أبرِّ بنيه ؟!

فكيف بنا ونحن أطلقُ منه عِناناً ، وأنطقُ منه جَناناً إذا رمقَتْنا أعينُ المتتبِّعين ، وتناولَتْنا ألسنُ المتعنِّتين . . هل نجد غيرَ توفيق الله تعالىٰ مَلاذاً ، أو سوىٰ عصمته مَعاذاً ؟!

---

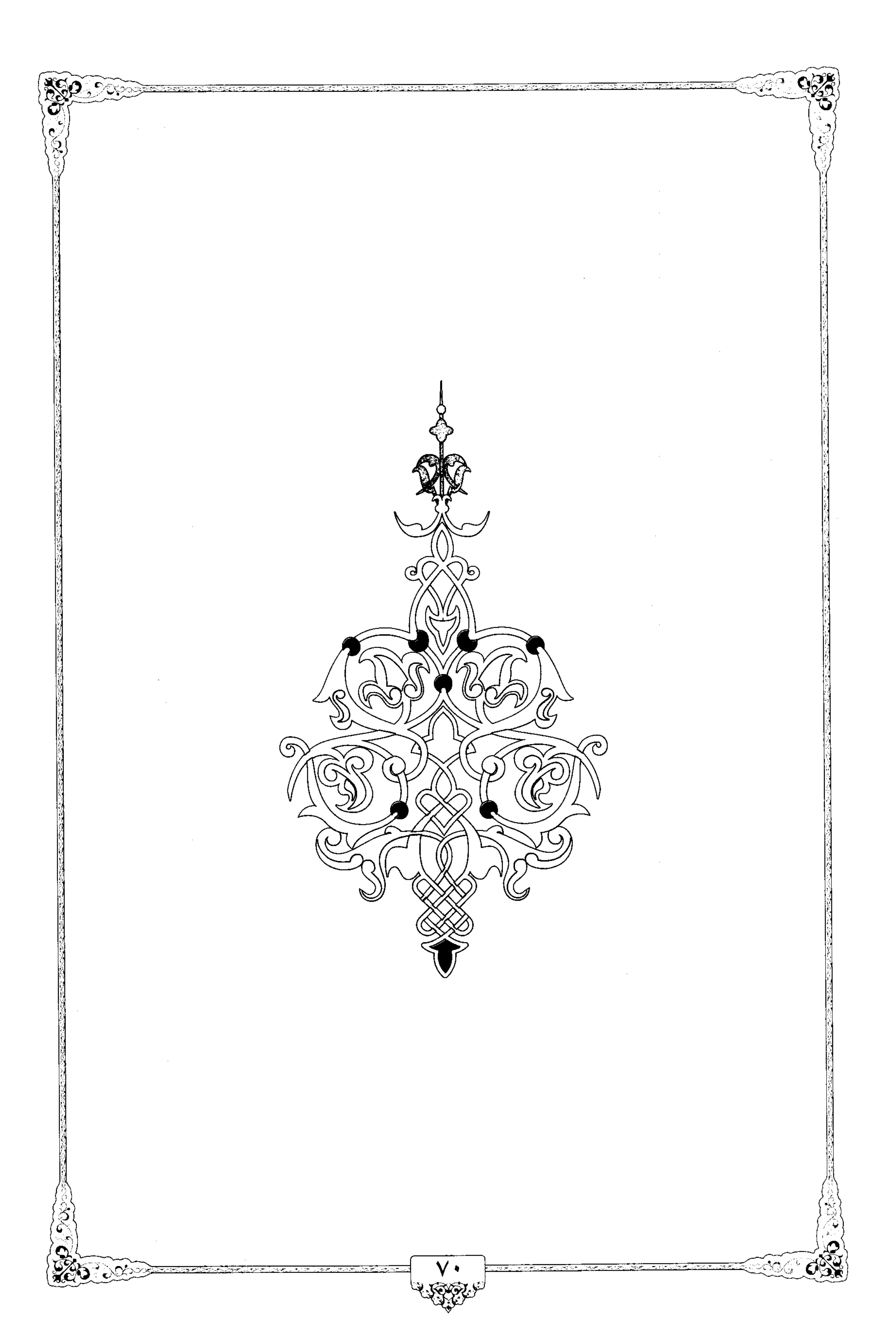
(١) أورده في « البيان والتبيين » (٣/١٤٦) ، و« عيون الأخبار » (١/٥٦) .

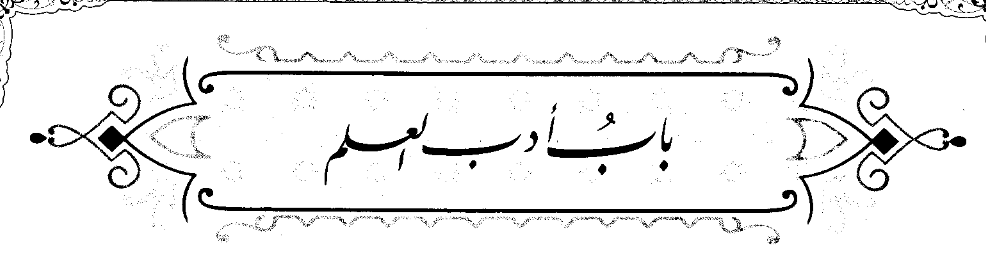




البَابُ الثَّاني

في أدبِ العِلْمِ





باب أدب العلم

اعلم : أن العلم أشرفُ ما رغب فيه الراغبُ ، **وأفضلُ ما طلبه وجدَّ فيه الطالبُ** ، وأنفعُ ما كسبه واقتناه الكاسبُ ؛ لأن شرفه ينُمُّ علىٰ صاحبه ، وفضله يَنمي عند طالبه .

قال الله تعالىٰ : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ **فمنع من المساواة بين العالم والجاهل** ؛ لما قد خصَّ به العالم من فضيلة العلم .

وقال الله تعالىٰ : ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ **فنفىٰ أن يكون غيرُ العالم يعقل عنه أمراً ، أو يفهم عنه زجراً** .

ورُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أوحى الله تعالىٰ إلىٰ إبراهيمَ عليه السلام : **إني عليمٌ ، أحبُّ كلَّ عليمٍ** »[(١)] .

وروىٰ أبو أمامةَ رضي الله عنه قال : سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رجلين ؛ أحدُهما عالمٌ ، والآخرُ عابدٌ ، فقال صلى الله عليه وسلم : « **فضلُ العالمِ على العابدِ كفَضْلي علىٰ أدناكم** »[(٢)] .

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام : (**الناس أبناء ما يحسنون**)[(٣)] .

وقال مصعب بن الزبير لابنه : (**تعلَّم العلمَ ؛ فإن يكن لك مالٌ** . . كان لك جمالاً ، **وإن لم يكن لك مالٌ** . . كان لك مَالاً)[(٤)] .

وقال عبد الملك بن مروان لبنيه : (**يا بَنِيَّ ؛ تعلَّموا العلم** ، فإن كنتم سادةً . . فُقْتم ، وإن كنتم وسطاً . . سُدتم ، وإن كنتم سُوقةً . . عِشْتم)[(٥)] .

---

(١) أورده ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢٣٦) .

(٢) رواه الترمذي (٢٦٨٥) .

(٣) أورده ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٦٠٨) من طريق ابن عائشة .

(٤) رواه البيهقي في « المدخل إلى السنن الكبرىٰ » (٣٩٩) ، ونحوه في « الطيوريات » (٥٠٨) .

(٥) الخبر في « البصائر والذخائر » (٧/ ٣٣) من قول ابن المقفع .

وقال بعض الحكماء : (**العلمُ** : شرفٌ لا قديمَ له ، **والأدبُ** : مالٌ لا خوفَ عليه) .

وقال بعض الأدباء : (**العلمُ أفضلُ خَلَفٍ ، والعملُ به أكملُ شرفٍ**) .

وقال بعض البلغاء : (**تعلَّم العلمَ** ؛ فإنه يقوِّمُكَ ويسدِّدُكَ صغيراً ، ويقدِّمك ويسوِّدكَ كبيراً ، ويُصلح زيغكَ وفاسدَك ، ويُرغم عدوَّك وحاسدَك ، ويُقيم عِوَجَك وميلَك ، ويصحح همّتَك وأملَك)[1] .

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام : (**قيمةُ كلِّ امرىءٍ ما يُحسِنُ**)[2] .

فأخذه الخليل فنظمه شعراً فقال[3] : [من الخفيف]

لا يكــونُ العلِــيُّ مثــلَ الــدَّنــيِّ ... لا ولا ذو الــذَّكــاء مثــلَ الغبــيِّ

قيمةُ المرءِ قدرُ ما يحسنُ المَرْ ... ءُ قضــاءً مــنَ الإمــامِ علــيِّ

وليس يجهل فضلَ العلم إلا أهل الجهل ؛ لأن فضل العلم إنما يُعرَف بالعلم ، **وهـٰذا أبلغ في فضله** ؛ لأن فضله لا يُعلَم إلا به ، **فلما عَدِمَ الجُهَّالُ العلمَ** الذي به يتوصَّلون إلىٰ فضل العلم . . **جهلوا فضلَه** ، **واسترذلوا أهلَه** ، وتوهَّموا أن ما تميل إليه نفوسهم من الأموال المُقتناة ، والطُّرَف المُشتهاة . . أَولىٰ أن يكون إقبالُهم عليها ، وأَحرىٰ أن يكون اشتغالُهم بها .

وقد قال ابن المعتز في منثور الحكم : (**العالمُ يعرفُ الجاهلَ** ؛ لأنه كان جاهلاً ، **والجاهلُ لا يعرفُ العالمَ** ؛ لأنه لم يكن عالماً)[4] .

وهـٰذا صحيحٌ ، ولأجله انصرفوا عن العلم وأهله انصرافَ الزاهدين ، وانحرفوا عنه وعنهم انحرافَ المعاندين ؛ **لأن مَن جهل شيئاً . . عاداه** .

---

(١) انظر « نشر طي التعريف » (ص٢٣٥) .
(٢) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٥/٢٣٨) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٦٠٨) .
(٣) البيتان في « ديوانه » (ص ٥٢) .
(٤) أورده في « أخلاق الوزيرين » (ص ٣٩٠) .

وأنشدني ابنُ لَنْكَكَ لأبي بكر بن دريد[1] : [من الطويل]

جهلتَ فعاديتَ العلومَ وأَهلَهَا ... كذاكَ يُعادي العلمَ مَن هو جاهلُهْ
ومَن كان يهوىٰ أَن يُرىٰ متصدِّراً ... ويكره (لا أدري) أُصيبَتْ مَقاتلُهْ

وقيل لبُزُرْجُمِهْرَ : (**العلمُ أفضلُ أم المالُ** ؟ فقال : بل العلم ، قيل : فما بالنا نرى العلماء علىٰ أبواب الأغنياء ، ولا نكاد نرى الأغنياء علىٰ أبواب العلماء ؟ فقال : **ذلك لمعرفة العلماء بمنفعة المال ، وجهل الأغنياء بفضل العلم**)[2] .

وقيل لبعض الحكماء : (**لم لا يجتمعُ العلمُ والمالُ** ؟ فقال : لعزِّ الكمال)[3] .

وأُنشدتُ لبعض أهل العصر : [من الطويل]

وفي الجهلِ قبلَ الموتِ موتٌ لأهلِهِ ... فأجسامُهم قبلَ القبورِ قبورُ
وإنَّ امرأً لم يَحْيَ بالعلم ميِّتٌ ... فليس له حتى النشورِ نُشورُ

ووقف بعض المتعلِّمين بباب عالم ، ثم نادىٰ : (**تصدَّقوا علينا بما لا يُتعب ضرساً ، ولا يُسقم نفساً**) فأُخرِج له طعامٌ ونفقة .

فقال : (**فاقتي إلىٰ كلامكم أشدُّ من حاجتي إلىٰ طعامكم** ؛ إني طالبُ هدىً ، لا سائلُ ندىً) فأذن له العالم وأفاده من كل ما سأل عنه ، فخرج جَذْلانَ فرِحاً وهو يقول : (**علمٌ أوضحَ لَبْساً خيرٌ من مال أغنىٰ نَفْساً**)[4] .

واعلم : أن كلَّ العلوم شريفةٌ ، ولكل علم منها فضيلةٌ ، والإحاطة بجميعها مُحالٌ .

قيل لبعض الحكماء : (**مَن يعرف كلَّ العلم** ؟ فقال : كلُّ الناس) .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **مَن ظنَّ أن للعلم غاية . . فقد**

---

(١) البيتان في « ديوانه » (ص ١٠٥) .
(٢) أورده في « جامع بيان العلم وفضله » (٣١٢) .
(٣) أورده في « الإعجاز والإيجاز » (ص ١٥٤) ، و« الكشكول » (٢/ ٣٦٤) .
(٤) الخبر في « البصائر والذخائر » (٥/ ٨) .

بخَسه حقَّه ، ووضعه في غير منزلته التي وضعه الله بها حيث يقول : ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ » .

وقال بعض الحكماء : (**لو كنا نطلب العلمَ لنبلغَ غايتَه** . . كنَّا قد بدأنا العلمَ بالنَّقيصة ؛ ولـٰكنّا نطلبه لننقصَ في كل يوم من الجهل ، ونزدادَ في كل يوم من العلم)[1] .

وقال بعضُ العلماء : (**المتعمِّقُ في العلم كالسابح في البحر** ، ليس يرىٰ أرضاً ، ولا يعرف طولاً ولا عرضاً) .

وقيل لحماد الراوية : أما تشبعُ من هـٰذه العلوم ؟ فقال : **استفرغنا فيها المجهودَ ، فلم نبلغ منها المحدود** ، فنحن كما قال الشاعر : [من مشطور الرجز]

إذا قطَعْنا عَلَماً بدا عَلَمْ[2]

وأنشد الرشيد عن المهدي بيتين ، وقال : أراهما له[3] : [من البسيط]

يا نفسُ خُوضي بُحورَ العلم أو غُوصي فالناسُ ما بين معمومٍ ومخصوصِ
لا شيءَ في هـٰذه الدنيا نحيطُ به إلا إحـاطـةَ منقـوصٍ بمنقـوصِ

وإذا لم يكن إلىٰ معرفة جميع العلوم سبيل . . وجب صرف الاهتمام إلىٰ معرفة أهمها ، والعناية بأَولاها وأفضلها ، **وأولى العلوم وأفضلها علم الدِّين** ؛ لأن الناس بمعرفته يَرشُدون ، وبجهله يَضلُّون ؛ إذ لا يصحُّ أداء عبادةٍ جَهِل فاعلُها صفاتِ أدائها ، ولم يعلم شروطَ إجزائها ؛ ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : « **فضلُ العلمِ خيرٌ من فضل العبادة** »[4] .

---

(١) أورده في « الإمتاع والمؤانسة » (ص ٥٠٢) من كلام أرسطاطاليس .

(٢) الخبر في « البصائر والذخائر » (٩/١٣٧) ، وهو ضمن أبيات لجرير في « ديوانه » (ص ٤٢٤) ، وبعده : (فهنَّ بحثاً كمضلات الخدمْ) ، وعَلَماً : الجبل .

(٣) البيتان في « الحيوان » (٣/٥٢) بلا نسبة .

(٤) رواه الحاكم في « المستدرك » (١/٩٣) ، والبيهقي في « المدخل إلى السنن الكبرىٰ » (٤٥٥) عن سيدنا حذيفة رضي الله عنه .

وإنما كان كذلك ؛ لأن العلم يبعث علىٰ فضل العبادة ، والعبادة مع خلو فاعلها من العلم بها قد لا تكون عبادةً ، فلزم علمُ الدِّين كلَّ مكلَّف .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **طلب العلم فريضة علىٰ كل مسلم** »[1] ، وفيه تأويلان :

أحدهما : علم ما لا يسع المكلَّفَ جهلُه من العبادات .

والثاني : جملة العلم إذا لم يقم بطلبه مَن فيه كفاية .

وإذا كان علم الدين قد أوجب الله تعالىٰ فَرْضَ بعضِه على الأعيان ، وفَرْضَ جميعِهِ على الكافة . . **كان أولىٰ مما لم يجب فرضه على الأعيان ولا على الكافة** ، قال الله تعالىٰ : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ .

وروىٰ عبد الله بن عمرو[2] رضي الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد فإذا هو بمجلسين : **أحدهما** يذكرون الله تعالىٰ ، **والآخر** يتفقَّهون ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **كِلا المَجلِسَين علىٰ خيرٍ** ، **وأحدُهما** أحبُّ إليَّ من صاحبه ، **أما هـٰؤلاء** . . فيذكرون الله تعالىٰ ويسألونه ، فإن شاء . . أعطاهم ، وإن شاء . . منعهم ، **وأما المجلسُ الآخر** . . فيتعلَّمون الفقهَ ، ويُعلِّمون الجاهلَ ، وإنما بُعِثتُ معلِّماً » ، فجلس إلىٰ أصحاب الفقه[3] .

وروىٰ مروان بن جناح ، عن يونس بن ميسرة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الخير عادةٌ ، والشرُّ لَجاجةٌ ، **ومَن يُرِدِ اللهُ به خيراً . . يفقِّهْهُ في الدِّين** »[4] .

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٢٤) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (١٥٤٥) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٢) في النسخ : (عمر) .

(٣) رواه ابن ماجه (٢٢٩) ، والهيثمي في « بغية الباحث » (٤٠) .

(٤) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٣١٠) ، وابن ماجه (٢٢١) عن سيدنا معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **خيارُ أمّتي علماؤُها ، وخيارُ علمائها فقهاؤُها** »[1] .

وروىٰ معاذ بن رفاعة ، عن إبراهيم بن عبد الرحمـٰن العذري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **يحملُ هـٰذا العلمَ من كل خَلَفٍ عدولُه ، يَنفُون عنه تحريفَ الغالِينَ ، وانتحالَ المُبطِلينَ ، وتأويلَ الجاهلينَ** »[2] .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **عليكم بخلفائي** » قالوا : ومَن خلفاؤُك ؟ قال : « **الذين يُحيُون سنّتي ، ويُعلِّمونها عبادَ الله** »[3] .

وروىٰ حميد ، عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « **الفقهُ في الدِّين حقٌّ علىٰ كلِّ مسلمٍ ، ألا فتعلَّمُوا ، وعلِّمُوا ، وتفقَّهُوا ، ولا تموتوا جُهّالاً** »[4] .

وروىٰ سليمان بن يسار ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « **ما عُبِدَ اللهُ بشيءٍ أفضلَ من فقهٍ في الدِّين ، ولَفَقيهٌ واحدٌ أشدُّ على الشيطان من ألفِ عابدٍ ، ولكلِّ شيءٍ عمادٌ ، وعمادُ الدِّين الفقهُ** »[5] .

وربما مالَ بعضُ المتهاونين بالدِّين إلى العلوم العقلية ، ورأىٰ أنها أحقُّ بالفضيلة ، وأولىٰ بالتَّقدِمة ؛ استثقالاً لما تضمَّنه الدِّينُ من التكليف ، واسترذالاً لما جاء به الشرعُ من التعبُّد والتوقيف ، **والكلام مع مثل هـٰذا في أصل لا يتسع له هـٰذا الفصل** ، ولن ترىٰ ذلك فيمَن سلمت فطرتُه ، وصحت رَويّتُه ؛ **لأن العقل يمنع من أن يكون الناسُ هَمَلاً أو سُدىً** ، يعتمدون علىٰ آرائهم المختلفة ، وينقادون لأهوائهم المتشعِّبة ؛ لما تَؤُول إليه أمورُهم من الاختلاف والتنازع ،

---

(١) رواه الشهاب القضاعي في « مسنده » (١٢٧٦) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، والديلمي في « الفردوس » (٢٨٦٥) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٠/ ٢٠٩) .

(٣) رواه في « جامع بيان العلم وفضله » (٢٢٠) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥١/ ٦١) بلفظ : (رحمة الله علىٰ خلفائي) .

(٤) رواه أبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (٢/ ١٤٤) ، والخطيب في « الفقيه والمتفقه » (١٥٩) إلىٰ قوله : « علىٰ كل مسلم » ، وأورد باقيه الديلمي في « الفردوس » (٤٥٩٠) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

(٥) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (١٥٨٤) ، والدارقطني (٣/ ٧٩) .

وتُفضي إليه أحوالُهم من التباين والتقاطع ، **فلم يستغنوا عن دِينٍ يأتلفون به ، ويتفقون عليه** ، ثم العقل مُوجِبٌ له أو متابعٌ عليه .

ولو تصوَّر هـٰذا المختلُّ التصوُّرِ **أن الدِّينَ ضرورةٌ في العقل ، وأن العقل للدِّين أصلٌ . . لقصَّر عن التقصير** ، وأذعن للحق ، ولـٰكن أهمل نفسه فضلَّ وأضلَّ .

وقد يتعلَّق بالدِّين علومٌ قد بيَّن الشافعيُّ رحمه الله تعالىٰ فضيلةَ كلِّ واحدٍ منها ، فقال : (**مَن تعلَّم القرآنَ . . عظُمَت قيمتُه ، ومَن تعلَّم الفقهَ . . نبُل مقدارُه ، ومَن كتب الحديثَ . . قوِيَت حجّتُه ، ومَن تعلَّم الحساب . . جَزُلَ رأيُه ، ومَن تعلَّم العربيةَ . . رقَّ طبعُه ، ومَن لم يصُنْ نفسَه . . لم ينفعه علمُه**)[1] .

ولعمري ؛ **إن صيانة النفس أصلُ الفضائل ؛ لأن مَن أهملَ صيانةَ نفسِه ثقةً** بما منحه العلم من فضيلته ، وتوكُّلاً علىٰ ما يلزم الناس من صيانته . . سلبوه فضيلة علمه ، ووسموه بقبيح تبذُّله ، **فلم يفِ ما أعطاه العلمُ بما سلبه التبذُّلُ** ؛ لأن القبيح أنمُّ من الجميل ، والرذيلة أشهرُ من الفضيلة ؛ إذِ الناسُ لما في طباعهم من بِغْضة الحسد ونزاع المنافسة . . **تنصرف عيونهم عن المحاسن إلى المساوئ** ، فلا يُنصِفون محسناً ، ولا يحابون مسيئاً ، لا سيما مَن كان بالعلم موسوماً ، وإليه منسوباً ؛ **فإن زلته لا تُقال ، وهفوته لا تُعذَر** :

إما لقبح أثرها واغترار كثير من الناس بها ؛ فقد قيل في منثور الحكم : (**زَلّةُ العالِم كالسفينة ، تغرق ويغرق معها خلق كثير**)[2] .

وقيل لعيسى ابن مريم عليه السلام : مَن أشدُّ الناس فتنةً ؟ قال : (**زلَّة العالم ؛ إذا زلَّ . . زلَّ بزلَّته عالَمٌ كثير**)[3] ، فهـٰذا وجه .

وإما لأن أهل الجهل بذَمِّه أَغرىٰ ، وعلىٰ تنقُّصه أحرىٰ ؛ ليسلبوه فضيلة

---

(١) « الرسالة » (ص ٧١) في السماعات .

(٢) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ١٦٦) ، و« زهر الآداب » (١/ ٣٧٤) من قول ابن المعتز .

(٣) أورده في « زهر الآداب » (١/ ٣٧٤) بلا نسبة .

التقدُّم ، ويمنعوه مباينة التخصُّص ؛ عناداً لما جهلوه ، ومقتاً لما باينوه ؛ **فإن الجاهل يرى العلم تكلُّفاً ولوماً ، كما أن العالم يرى الجهل تخلُّفاً وذماً .**

وأُنشِدتُ عن الربيع للشافعي رحمه الله ورضي عنه[1] : [من الوافر]

ومنــزلــةُ السَّفيــهِ مــنَ الفقيــهِ كمنــزلــةِ الفقيــهِ مــنَ السَّفيــهِ
فهٰــذا زاهــدٌ فــي قُــرب هٰــذا وهٰــذا فيــه أزهَــدُ مِنــه فيــهِ
إذا غلــبَ الشقــاءُ علــىٰ سفيــهٍ تنطَّــعَ فــي مخــالفــة الفقيــهِ

وقال يحيى بن خالد لابنه : (عليكَ بكل نوع منَ العلم فخذ منه ؛ **فإن المرء عدوُّ ما جهل ، وأنا أكرهُ أن تكونَ عدوَّ شيءٍ من العلم**) ، ثم أنشد : [من الطويل]

تفنَّــنْ وخُــذْ مــن كــلِّ علــمٍ فــإنَّمــا يفوقُ امرؤٌ في كلِّ فنٍّ له علمُ
فــأنــت عــدوٌّ للــذي أنــت جــاهــلٌ بــه ولعلــمٍ أنــت تتقنُــهُ سِلْــمُ

وإذا صان ذو العلم نفسَه حقَّ صيانتها ، ولازم فِعْلَ ما يلزمها . . **أمِنَ تعيير المُوالي ، وتنقُّصَ المُعادي** ، وجمع إلىٰ فضيلة العلم جمالَ الصيانة ، وعزَّ النَّزاهة ، فصار بالمنزلة التي يستحقُّها بفضائله .

وروىٰ أبو الدرداء رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « **العلماءُ ورَثةُ الأنبياء** ، إن الأنبياءَ لم يُورِّثوا ديناراً ولا درهماً ، وإنما ورَّثوا العلمَ »[2] .

وروىٰ أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « للأنبياء على العلماء فضلُ درجتين ، **وللعلماء على الشهداء فضلُ درجةٍ** »[3] .

وقال بعض البلغاء : (**إن من الشريعة** : أن تُجِلَّ أهلَ الشريعة ، **ومن الصَّنيعة** : أن تَرُبَّ حَسَنَ الصَّنيعةِ)[4] .

(١) الأبيات في « ديوانه » (ص ١٤٨) ، و« مناقب الشافعي » للبيهقي (٢/ ٩٧) .
(٢) رواه أبو داوود (٣٦٤١) ، والترمذي (٢٦٨٢) .
(٣) رواه في « جامع بيان العلم وفضله » (١٥٤) مرسلاً .
(٤) يربُّ : يحفظ الشيء ويراعيه .

فينبغي لمن استدلَّ بفطرته على استحسان الفضائل واستقباح الرذائل : أن ينفي عن نفسه رذائلَ الجهل بفضائل العلم ، وغفلةَ الإهمال باستيقاظ المعاناة ، ويرغبَ في العلم رغبةَ متحقِّقٍ لفضائله واثقٍ بمنافعه ، **ولا يلهيه عن طلبه كثرةُ مالٍ وجِدَةٌ** ، ولا نفوذُ أمرٍ وعلوُّ منزلة ؛ **فإن مَن نفذ أمرُه** . . فهو إلى العلم أحوجُ ، **ومَنْ علَتْ منزلتُه** . . فهو بالعلم أحقُّ .

روىٰ أنس بن مالك رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **إن الحكمةَ تزيدُ الشَّريفَ شرَفاً** ، وترفع العبدَ المملوكَ حتىٰ تُجلِسَه مجالسَ المُلوكِ »[1] .

وقال بعض الأدباء : (**كلُّ عزٍّ لا يوطِّده علمٌ فهو مَذَلّةٌ ، وكلُّ علمٍ لا يؤيِّده عقلٌ** فهو مَضَلَّةٌ)[2] .

وقال بعض علماء السَّلف : (**إذا أراد الله تعالىٰ بالناس خيراً . . جعل العلمَ في ملوكهم ، والمُلكَ في علمائهم**) .

وقال بعض البلغاء : (**العلمُ عِصمةُ الملوك** ؛ لأنه يمنعهم من الظلم ، ويردُّهم إلى الحكمة ، ويصدُّهم عن الأذيّة ، ويعطِّفُهم على الرَّعيّة ، **فمن حقهم** : أن يعرفوا حقه ، ويستبطنوا أهله)[3] .

* * *

فأما المالُ . . فظلٌّ زائل ، وعاريةٌ مسترجَعة ، وليس في كثرته فضيلة ، **ولو كانت فيه فضيلةٌ . . لخصَّ الله تعالىٰ به مَنِ اصطفاه لرسالته** ، واجتباه لنبوته ، **وقد كان أكثرُ أنبياء الله تعالىٰ** مع ما خصَّهم الله به من كرامته ، وفضَّلهم علىٰ سائر خلقه . . **فقراءَ لا يجدون بُلْغةً** ، ولا يقدرون علىٰ شيء ، حتىٰ صاروا في الفقر

---

(١) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٦/١٧٣) ، والشهاب القضاعي في « مسنده » (٢/١٠٥) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٧١) .
(٢) أورده في « سراج الملوك » (١/٢٦٦) .
(٣) أورده في « سراج الملوك » (١/١٢) .

مثلاً ، فقال البُحْتُري[1] : [من الكامل]

فقــرٌ كفقــر الأنبيــاءِ وغُــربــةٌ   وصَبابــةٌ ليــس البــلاءُ بــواحـدِ

ولعدم الفضيلة في المال منحه الله تعالى الكافرَ ، وحرمه المؤمنَ ، قال الشاعر[2] : [من السريع]

كــم كــافــرٍ بــالله أمــوالُــهُ   تــزدادُ أضعــافــاً علــىٰ كُفــرِهِ
ومــؤمــنٍ ليــس لــه درهــمٌ   يــزدادُ إيمــانــاً علــىٰ فقــرِهِ
يــا لائــمَ الــدَّهــرِ وأفعــالِــهِ   مشتغــلاً يُــزري علــىٰ دهــرِهِ
الــدَّهــرُ مــأمــورٌ لــه آمــرٌ   ينصــرفُ الــدَّهــرُ علــىٰ أمــرِهِ

وقد بيَّن علي بن أبي طالب عليه السلام فضلَ ما بين العلم والمال ، فقال : (**العلمُ خيرٌ من المال ، العلمُ يحرُسُك** ، وأنت تحرُسُ المالَ ، **العلم حاكمٌ** ، والمال محكومٌ عليه ، مات خُزَّانُ الأموال ، **وبقي خُزّانُ العلم** ، أعيانُهم مفقودةٌ ، وأشخاصُهم في القلوب موجودةٌ)[3] .

وسُئل بعضُ الحكماء : (**أيُّما أفضلُ المال أم العلم ؟** فقال : الجواب عن هـٰذا : **أيُّما أفضلُ المالُ أم العقلُ ؟!**) .

وقال صالح بن عبد القدوس : [من الكامل]

لا خيــرَ فيمَــن كــان خيــرُ ثنــائِـهِ   فــي النــاس قــولَهــم غنــيٌّ واجِـدُ

وربما امتنع الإنسانُ من طلب العلم لكِبَره وعلو سِنِّه ، واستحيا من تقصيره في صِغَره أن يتعلَّمَ في كِبَره ، فرضي بالجهل أن يكون موسوماً به ، وآثره على العلم أن يصير مبتدئاً به ، **وهـٰذا من خدع الجهل** ، **وغرور الكسل** ؛ لأن العلمَ إذا كان فضيلةً . . فرغبةُ ذوي الأسنان فيه أولىٰ ، والابتداءُ بالفضيلة فضيلةٌ ، **ولأَنْ يكون**

---

(١) البيت في « ديوانه » (١/ ٥٠٧) .

(٢) الأبيات لأحمد بن عبيد الله الدارمي كما في « شعب الإيمان » (٢٤٦) ، وأوردها في « روضة العقلاء » (٢/ ٩٧٤) .

(٣) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٠/ ٢٥٥) ، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (١/ ٨٠) .

شيخاً متعلِّماً . . أولىٰ من أن يكون شيخاً جاهلاً .

حكي : أن بعض الحكماء رأىٰ شيخاً يحبُّ النظرَ في العلم ويستحِي ، فقال له : (يا هٰذا ؛ أتستحِي أن تكونَ في آخر عُمرك أفضلَ ممَّا كنت في أوله ؟!)[(١)] .

وذكر أن إبراهيم بن المهدي دخل على المأمون وعنده جماعةٌ يتكلَّمون في الفقه ، فقال : (يا عمِّ ؛ ما عندك فيما يقول هٰؤلاء ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ؛ شغلُونا في الصِّغَر ، واشتغلنا في الكِبَر ، فقال : لِمَ لا تتعلمه اليوم ؟ قال : أوَيَحسُنُ بمثلي طلبُ العلم ؟ قال : نعم والله ؛ لأن تموتَ طالباً للعلم . . خيرٌ من أن تعيشَ قانعاً بالجهل ، قال : وإلىٰ متىٰ يحسُنُ بي طلب العلم ؟ قال : ما حسُنَتْ بك الحياةُ)[(٢)] .

ولأنَّ الصغيرَ أعذَرُ وإن لم يكن في الجهل عذرٌ ؛ لأنه لم تطل به مدّةُ التفريط ، ولا استمرت عليه أيامُ الإهمال ، وقد قيل في منثور الحكم : (جهلُ الشباب معذورٌ ، وعلمُه محقورٌ)[(٣)] .

فأما الكبيرُ . . فالجهلُ به أقبحُ ، ونقصُه عليه أفضحُ ؛ لأن علوَّ السِّنِّ إذا لم يَكسبه فضلاً ، ولم يُفده علماً ، وكانت أيامُه في الجهل ماضية ، ومن الفضل خالية . . كان الصغيرُ أفضلَ منه ؛ لأن الرجاء له أكثر ، والأمل فيه أظهر ، وحسبُكَ نقصاً في رجلٍ يكون الصغيرُ المُساوي له في الجهل أفضلَ منه !! .

وأُنشِدتُ لبعض أهل الأدب : [من الطويل]

إذا لم يكن مَرُّ السِّنينَ مُترجِماً ... عن الفضلِ في الإنسانِ سمَّيته طِفلا

وما تنفعُ الأعوامُ حين تعدُّها ... ولم تستفدْ فيهنَّ عِلماً ولا فَضلا

أرى الدهرَ من سوء التصرُّف مائلاً ... إلىٰ كل ذي جهلٍ كأنَّ به جَهلا

---

(١) رواه الخطيب في « الفقيه والمتفقه » (٨٠٢) من قول سقراط .

(٢) أورده في « سراج الملوك » (١/ ٢٦٥) ، ورواه في « تاريخ دمشق » (٦٠/ ٣٥٠) في ترجمة منصور بن محمد المهدي رحمه الله تعالىٰ .

(٣) رواه الخطيب في « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » (٧٢١) ، وأورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٣٨٢) من كلام ابن المعتز رحمه الله تعالىٰ .

وربما امتنع من طلب العلم لتعذُّر الكفاية ، وشغله اكتسابها عن التماس العلم ، وهٰذا وإن كان أعذرَ من غيره مع أنه قلَّما يكون ذلك إلا عند ذي شَرَهٍ رغيب ، وشهوةٍ مستعبدة . . فينبغي أن يصرفَ إلى العلم حظّاً من زمانه ؛ فليس كلُّ الزمان زمانَ اكتساب ، ولا بدَّ للمكتسب من أوقات راحةٍ واستراحةٍ وأيام عطلة ، ومَن صرف كلَّ نفسه إلى الكسب حتىٰ لم يترك لها فراغاً إلىٰ غيره . . فهو من عبيد الدنيا ، وأُسَراء الحرص ، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لكلِّ شيءٍ فترةٌ ، فمَن كانت فترتُه إلى العلم . . فقد نجا »[1] .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « كونوا علماءَ صالحين ؛ فإن لم تكونوا علماء . . فجالسوا العلماءَ ، واسمعوا علماً يدلُّكم على الهُدىٰ ، أو يردُّكم عن الرَّدىٰ » .

وقال بعض العلماء : (مَن أحبَّ العلمَ . . أحاطَتْ به فضائلُه) .

وقال بعض الحكماء : (مَن صاحَبَ العلماءَ . . وُقِّر ، ومَن جالس السفهاءَ . . حُقِّر)[2] .

وربما منعه من طلب العلم ما يظنُّه من صعوبته وبُعد غايته ، ويخشىٰ من قلَّة ذهنه وبُعد فطنته ، وهٰذا الظنُّ اعتذارُ ذوي النقص ، وخِيفةُ أولي العجز ؛ لأن الإخبار قبل الاختبار جهلٌ ، والخشيةَ قبل الابتلاء عجزٌ ، وقد قال الشاعر[3] : [من الخفيف]

لا تكونَنَّ للأمورِ هَيُوباً ... فإلىٰ خَيبةٍ يصيرُ الهَيُوبُ

وقال رجلٌ لأبي هريرة : (أريد أن أتعلَّم العلم وأخاف أن أُضِيعَه ، فقال : كفىٰ بترك العلم إضاعةً)[4] .

---

(١) رواه الإمام أحمد في « المسند » (٢/١٥٨) عن سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، وبنحوه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (١/٢٨٦) .
(٢) أورده في « التذكرة الحمدونية » (١/٢٧٣) من كلام سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .
(٣) أورده في « ربيع الأبرار » (٥/٣٥٣) بدون نسبة ، والهيوب : الجبان ضعيف النفس ، ويكون دائماً علىٰ حذرٍ وخوف .
(٤) البيان والتبيين (١/٢٥٧) عن أبي هريرة النحويّ .

وليس ـ وإن تفاضلت الأفهام وتفاوتتِ الفِطَن ـ ينبغي **لمن قلَّ منهما حظُّه** : أن ييئسَ من نيل القليل أو إدراك اليسير الذي يخرج به من حَدّ الجهالة إلىٰ أدنىٰ مراتب التخصيص ؛ **فإن الماء مع لينه يؤثِّر في صُمِّ الصخور** .

وكيف لا يؤثِّر العلم الزكي في نفس راغبٍ شهيٍّ ، وطالبٍ خليٍّ ؟! **لا سيما وطالبُ العلم مُعانٌ** ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « **إنَّ الملائكةَ لتضعُ أجنحتَها لطالب العلم** ؛ رضاً بما يطلب »[1] .

وربما منع ذا السفاهة من طلب العلم أن يصوِّرَ في نفسه حُرْفَةَ أهله[2] ، وتضايُقَ الأمور عليهم مع الاشتغال به ، حتىٰ يسِمُهم بالإدبار ، ويتوسَّمُهم بالحرمان ؛ **فإن رأىٰ مَحبرةً** . . تطيَّر منها ، **وإن وجد كتاباً** . . أعرض عنه ، **وإن رأىٰ متحلِّياً بالعلم** . . هرب منه ، كأنه لم ير عالماً مقبلاً ، ولا جاهلاً مدبراً .

ولقد رأيت من هٰذه الطبقة جماعةً ذوي منازلَ وأحوال **كنت أخفي عنهم ما يصحبني من مَحبرة أو كتاب** ؛ لئلا أكون عندهم مستثقَلاً وإن كان البعد منهم مؤنِساً ومصلحاً ، والقربُ منهم موحِشاً ومفسداً ؛ فقد قال بُزرجُمِهر : (**الجهلُ في القلب كالنَّزِّ في الأرض** ، يُفسدُ ما حوله) .

لٰكني اتبعت فيهم الحديث المروي عن أبي الأشعث ، عن أبي عثمان ، عن ثوبان ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **خالقوا الناس بأخلاقهم ، وخالفوهم في أعمالهم** »[3] .

ولذلك قال بعض البلغاء : (**ربَّ جهلٍ وقَيتَ به علماً ، وسفَهٍ حمَيتَ به حِلماً**) .

وهٰذه الطبقة ممَّن لا يُرجىٰ لها صلاحٌ ، ولا يُؤمل لها فلاحٌ ؛ **لأن مَن اعتقد أن**

---

(١) رواه ابن حبان في « صحيحه » (١٣٢١) عن سيدنا صفوان بن عَسّال المرادي رضي الله عنه موقوفاً ، ورفعه الإمام أحمد في « المسند » (٤/ ٢٣٩) .

(٢) **الحرفة** : المحرومية عن الحظّ والبخت .

(٣) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣/ ٣٤٣) عن سيدنا أبي ذر الغفاري رضي الله عنه ، وفي (أ) : (خالطوا الناس) وقد رواها عبد الرزاق في « المصنف » (٢٠١٥٢) عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه من قوله .

العلم شينٌ ، وأن تركَه زينٌ ، وأن للجهل إقبالاً مُجدياً ، وللعلم إدباراً مُكدياً . . كان ضلالُه مستحكِماً ، ورشادُه مستبعَداً ، وكان هو الخامسَ الهالكَ ؛ الذي قال فيه علي بن أبي طالب عليه السلام : (اغدُ عالماً ، أو متعلِّماً ، أو مستمعاً ، أو محبّاً ، ولا تكن الخامسَ . . فتهلِكَ) وقد رواه خالد الحذاء ، عن عبد الرحمٰن بن أبي بكرة ، عن أبي بكرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم مسنداً[(١)] .

وليس لمن هٰذه حالُه في العَذْل نفعٌ ، ولا في الاستصلاح مطمعٌ ، وقد قيل لبُزُرْجُمِهْرَ : (ما لكم لا تعاتبون الجُهّال ؟ فقال : إنا لا نكلِّفُ العُمْيَ أن يبصروا ، ولا الصمَّ أن يسمعوا)[(٢)] .

وهٰذه الطائفةُ التي تنفرُ من العلم هٰذا النفورَ ، وتعاندُ أهله هٰذا العنادَ ، وترى العقلَ بهٰذه المثابة ، وتنفر من العقلاء هٰذا النفورَ ، وتعتقد أن العاقل محارَفٌ[(٣)] ، وأن الأحمق محظوظ ، وناهيك بضلالِ مَنْ هٰذا اعتقاده في العقل والعلم . . هل تكون لخيرٍ أهلاً ، أو لفضيلةٍ موضعاً ؟ !

وقد قال بعض البلغاء : (أخبثُ الناس : المُساوي بين المحاسن والمَساوي) .

وعلةُ هٰذا : أنهم ربما رأوا عاقلاً غيرَ محظوظ ، وعالماً غيرَ مرزوق ، فظنوا أن العلم والعقل هما السبب في قلة حظه ورزقه ، وقد انصرفت عيونهم عن حرمان أكثر النَّوْكىٰ ، وإدبار أكثر الجهال ؛ لأن في العقلاء والعلماء قلةً ، وعليهم من فضلهم سمةٌ ؛ ولذلك قيل : (العلماء غرباء لكثرة الجهال)[(٤)] .

فإذا ظهرت سمةُ فضلهم ، وصادف ذلك قلة حظ بعضهم . . تنوَّهوا بالتمييز ،

---

(١) رواه البزار في « مسنده » (٣٦٢٦) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (١٥٨١) مرفوعاً ، وذكر الوقف (١٥٨٢) عن أبي الدرداء وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما .

(٢) أورده في « التذكرة الحمدونية » (٣/ ٢٦٧) .

(٣) المحارَف : المحروم الذي لا يتيسَّر له مكسبه ، وهو خلاف قولك : مبارك .

(٤) أورده الثعالبي في « التمثيل والمحاضرة » (ص ١٦٤) ، والقيرواني في « زهر الآداب » (١/ ٣٧٥) من قول ابن المعتز .

واشتهروا بالتعيين ، فصاروا مقصودين بإشارة المتعيِّبين ، ملحوظين بإيماء الشامتين ، **والجهالُ والحمقىٰ لما كثروا ولم يتخصَّصوا. . انصرفت عنهم النفوس** ؛ فلم يُلحَظ المحرومُ منهم بطَرْفِ شامتٍ ، ولا قُصد المجدودُ منهم بإشارة عائب[1] .

فلذلك ظنَّ الجاهل المرزوق : أن الفقر والضيق مختصٌّ بالعلم والعقل ، دون الجهل والحمق ، **ولو فتشْتَ أحوالَ العلماء والعقلاء مع قلَّتهم**. . لوجدتَ الإقبال في أكثرهم ، **ولو خبرت أمور الجهال والحمقىٰ مع كثرتهم**. . لوجدت الحرمان في أكثرهم ، وإنما يصير ذو الحال الواسعة منهم ملحوظاً مشتهراً ؛ لأن حظَّه عجب ، وإقباله مستغرب ؛ كما أن حرمان العاقل العالم غريب ، وإقلاله عجيب .

ولم يزل الناس علىٰ سالف الدهور في مثل ذلك متعجِّبين ، وبه معتبرين ؛ حتىٰ قيل لبُزُرْجُمِهْرَ : (ما أعجبُ الأشياء ؟ قال : **نُجْحُ الجاهل ، وإكداءُ العاقل**)[2] .

لـٰكن الرزق بالجِدِّ والحظِّ ، لا بالعلم والعقل. . حكمةٌ منه تعالىٰ ، يدلُّ بها علىٰ قدرته ، وإجراء الأمور علىٰ مشيئته .

وقد قالت الحكماء : (**لو جرت الأقسامُ علىٰ قدر العقول. . لم تعشِ البهائمُ**)[3] .

فنظمه أبو تمام الطائي فقال[4] : [من الطويل]

ينالُ الفتىٰ من عيشه وهْوَ جاهلٌ ويُكدي الفتىٰ في دهره وهْوَ عالمُ

ولو كانتِ الأرزاقُ تجري على الحِجا هلكْـنَ إذاً مـن جهلهـنَّ البهـائـمُ

---

(١) **المجدود** : هو المحظوظ ، وهو مقابل للمحروم ، وفي (ج ، د ، هـ) : (المحدود) بالمهملة .

(٢) أورده في « البصائر والذخائر » (١/ ٣٣) من قول الضحاك بن قيس الفهري ، **وإكداء العاقل** : خيبته .

(٣) ذكره المناوي في « فيض القدير » (١/ ١٢٤) ، **والأقسام** ـ جمع قِسْم ـ : وهو الحظ والنصيب .

(٤) البيتان في « ديوانه » (٣/ ١٧٨) .

وقال كعب بن زهير بن أبي سلمىٰ[1] : [من البسيط]

لو كنتُ أعجبُ من شيءٍ لأعجبني سعيُ الفتىٰ وهْوَ مخبوءٌ له القدَرُ
يسعى الفتىٰ لأمورٍ ليس يُدركها والنفسُ واحدةٌ والهمُّ منتشرُ

علىٰ أن العلم والعقل سعادةٌ وإقبال وإن قلَّ معهما المال ، وضاقت عنهما الحال ، والجهل والحمق حرمانٌ وإدبار وإن كثر معهما المال ، واتسعت فيهما الحال ؛ لأن السعادة ليست بكثرة المال ، فكم من مُكثرٍ شقي ، ومُقِلٍّ سعيد !!

وكيف يكون الجاهل الغني سعيداً والجهل يضعه ؟! أم كيف يكون العالم الفقير شقياً والعلم يرفعه ؟!

وقد قيل في منثور الحكم : (كم من ذليلٍ أعزَّه علمه ، وكم من عزيزٍ أذلَّه جهله !!) .

وقال عبد الله بن المعتز : (نعمةُ الجاهل كروضةٍ علىٰ مزبلة)[2] .

وقال بعض الحكماء : (كلَّما حسنت نعمة الجاهل . . ازداد فيها قبحاً)[3] .

وقال بعض العلماء لبنيه : (يا بَنِيَّ ؛ تعلَّموا العلمَ وإن لم تنالوا به من الدنيا حظّاً ؛ فلأنْ يذمَّ الزمان لكم . . أحبُّ إليَّ من أن يذمَّ الزمانُ بكم)[4] .

وقال بعض الأدباء : (من لم يفد بالعلم مالاً . . كسب به جمالاً)[5] .

وأنشد بعض أهل الأدب لابن طباطبا[6] : [من الطويل]

حسودٌ مريضُ القلبِ يُخفي أنينَهُ ويُضحي كئيبَ البالِ عندي حزينَهُ
يلومُ علىٰ أنْ رحتُ للعلمِ طالباً أجمِّعُ من عند الرُّواة فنونَهُ
وأعرف أبكارَ الكلامِ وعُوْنَهُ وأحفظ مما أستفيدُ عيونَهُ

---

(١) البيتان في « ديوانه » (ص ١٥٧) .
(٢) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٣٩) .
(٣) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٣٩) من قول ابن المعتز أيضاً .
(٤) أورده الزمخشري في « ربيع الأبرار » (٤/ ٨٨) .
(٥) أورده الأبشيهي في « المستطرف » (١/ ٨٠) .
(٦) أورد الأبيات في « العقد الفريد » (٢/ ٢١٦) .

ويزعمُ أنَّ العلمَ لا يجلبُ الغنىٰ ... ويُحسنُ بالجهل الذميم ظنونَهُ
فيا لائمي دَعْني أُغالي بقيمتي ... فقيمةُ كلِّ الناس ما يُحسنونَهُ

وأنا أستعيذ باللهِ من خدع الجهل المُذِلَّة ، وبوادر الحمق المُضِلَّة ، **وأسأله السعادةَ بعقلٍ رادعٍ يستقيم به مَن زلَّ** ، وعلمٍ نافعٍ يستهدي به مَن ضلَّ ؛ فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **إذاً استرذلَ اللهُ عبداً . . حظَّرَ عليه العلمَ** »[1] .

فينبغي **لمن زهد في العلم** : **أن يكون فيه راغباً** ، ولمن رغب فيه : **أن يكون له طالباً** ، ولمن طلبه : **أن يكون منه مستكثراً** ، ولمن استكثر منه : **أن يكون به عاملاً** ، ولا يطلب لتركه احتجاجاً ، ولا للتقصير فيه عذراً ، وقد قال الشاعر[2] : [من الطويل]

فلا تَعذِراني في الإساءةِ إنَّهُ ... شرارُ الرجالِ مَن يسيءُ فيُعذَرُ

ولا يُسوِّف نفسَه بالمواعيد الكاذبة ، ويُمنِّيها بانقطاع الأشغال المتصلة ؛ **فإنَّ لكلِّ وقتٍ شغلاً ، وفي كلِّ زمانٍ عذراً** .

وقال الشاعر[3] : [من المتقارب]

نروحُ ونغدُو لحاجاتنا ... وحاجةُ مَن عاشَ لا تنقضِي
تموتُ معَ المرء حاجاتُهُ ... وتبقىٰ له حاجةٌ ما بقِي

ويقصد طلب العلم واثقاً بتيسير الله ، قاصداً وجه الله ، بنيةٍ خالصة ، وعزيمةٍ صادقة ؛ فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **مَن تعلَّمَ علماً لغير الله ، أو أراد به غيرَ الله . . فليتبوَّأْ مقعدَه من النارِ** »[4] .

---

(١) رواه الشهاب القضاعي في « مسنده » (٧٩٥) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .
(٢) البيت في « البيان والتبيين » (١/ ١٩٨) ، و« عيون الأخبار » (٣/ ١٠١) .
(٣) البيتان في « العقد الفريد » (٣/ ١٨٨) للصَّلَتان العبدي .
(٤) رواه الترمذي (٢٦٥٥) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

وروىٰ أبو هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « **تعلَّموا العلمَ قبلَ أنْ يُرفَعَ ، ورفعُهُ ذهابُ أهلِهِ ؛ فإنَّ أحدَكم لا يدري متىٰ يُحتاجُ** إليه ، أو متىٰ يُحتاجُ إلىٰ ما عنده ؟ »[١] .

وليحذر أن يطلبه لمِراء أو رياء ؛ فإن المماريَ به مهجورٌ لا ينتفع ، والمرائيَ به **محقورٌ لا يرتفع** ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **لا تَعلَّمُوا العلمَ** ؛ لتُماروا به السفهاءَ ، **ولا تَعلَّمُوا العلمَ** ؛ لتُجادلوا به العلماءَ ، **فمَن فعل ذلك منكم . . فالنارَ النارَ** »[٢] .

واعلم : أنه ليس المُماري به هو المُناظرَ فيه طلباً للصواب منه ، **ولـٰكنه القاصدُ لدفع ما يرد عليه من فاسدٍ أو صحيح** ، وفيهم جاءت السُّنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **لا يجادلُ إلا منافقٌ أو مُرتابٌ** » .

وقال الأوزاعي : (**إذا أراد الله بقومٍ شرّاً . . أعطاهم الجدَلَ ، ومنعهم العمَلَ**)[٣] .

وأنشد الرِّياشيُّ لمصعب بن عبد الله[٤] : [من الوافر]

أُجـادلُ كـلَّ معتـرضٍ ضنيـنٍ ... وأجعـلُ دينَـهُ غـرضـاً لـديني
وأتـركُ مـا علمـتُ لـرأيِ غيـري ... وليـس الـرأيُ كـالعلـم اليقيـنِ
ومـا أنـا والخصـومـةُ وهْـيَ لَبْسٌ ... يصرِّفُ في الشمال وفي اليمينِ
فـأمّـا مـا علمـتُ فقـد كفـانـي ... وأمّـا مـا جهلـتُ فجنِّبُـونـي

وقد بيَّن ذلك بعضُ العلماء فقال لصاحبه : (**لا يمنعَنكَ حذَرُ المِراء من حسن المناظرة** ؛ فإنَّ المُماريَ هو الذي لا يريد أن يتعلَّمَ منه أحدٌ ، ولا يرجو أن يتعلَّمَ من أحدٍ)[٥] .

---

(١) أورده الديلمي في « مسند الفردوس » (٢٢٣٦) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .
(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (١/ ٨٦) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (١٦٣٥) عن سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما .
(٣) رواه الخطيب البغدادي في « الفقيه والمتفقه » (١/ ٥٥٤) .
(٤) الأبيات ضمن قصيدة أوردها ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٧٨٥) ، وفي (أ) : (شين) ، وفي (ج ، د) : (شيء) .
(٥) الأدب الكبير (ص ٢٧٢) ضمن « آثار ابن المقفع » .

واعلم : أن لكلِّ مطلوبٍ باعثاً ، **والباعث على المطالب شيئان** : رغبةٌ أو رهبةٌ ، فليكنْ طالبُ العلم راغباً راهباً .

أما الرغبةُ : ففي ثواب الله تعالىٰ لطالبي مرضاته ، وحافظي مفترَضاته .

وأما الرهبةُ : فمن عقاب الله تعالىٰ لتاركي أوامره ، ومهملي زواجره .

فإذا اجتمعت الرغبة والرهبة . . أدَّتا إلىٰ كُنْهِ العلم ، وحقيقة الزهد ؛ لأنَّ الرغبةَ أقوى الباعثَينِ على العلم ، والرهبةَ أقوى السببين في الزهد .

وقد قالت الحكماء : (**أصلُ العلم** : الرغبةُ ، **وثمرتُه** : السعادةُ ، **وأصلُ الزهدِ** : الرهبةُ ، **وثمرتُه** : العبادةُ ، **فإذا اقترن الزهد والعلم . . فقد تمَّت السعادةُ** ، وعمَّت الفضيلةُ ، **وإن افترقا . . فيا ويحَ مفترقَينِ ، ما أضرَّ افتراقَهما ، وأقبحَ انفرادَهما !!**) .

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **مَن ازدادَ في العلم رُشْداً ، ولم يزدَدْ في الدنيا زُهْداً . . لم يزدَدْ من الله إلا بُعْداً** »[1] .

وقال مالك بن دينار : (**مَن لم يؤتَ من العلم ما يقمعُه ؛ فما أُوتيَ من العلم . . لا ينفعُه**)[2] .

وقال بعض الحكماء : (**الفقيهُ بغير ورعٍ** ؛ كالسراج يضيءُ البيتَ ، ويُحرقُ نفسَه)[3] .

(١) أورده الديلمي في « الفردوس » (٥٨٨٧) من قول سيدنا علي كرم الله وجهه .
(٢) ذكره المناوي في « فيض القدير » (٦/ ٥٢) .
(٣) بمعناه رواه الطبراني مرفوعاً في « المعجم الكبير » (٢/ ١٦٥ـ١٦٦) .

فَصْلٌ
[في أسباب التقصير في العلم]

واعلم : أن للعلوم أوائلَ تؤدِّي إلىٰ أواخرها ، ومداخلَ تفضي إلىٰ حقائقها ، **فليبتدئ طالبُ العلم بأوائلها** ؛ لينتهيَ إلىٰ أواخرِها ، **وبمداخلها** ؛ ليفضيَ إلىٰ حقائقها ، **ولا يطلبِ الآخِرَ قبل الأول** ، ولا الحقيقةَ قبل المدخل . . فلا يدركَ الآخِرَ ، ولا يعرفَ الحقيقةَ ؛ **لأنَّ البناءَ علىٰ غير أسٍّ لا يُبنَىٰ** ، والثمرَ من غير غرسٍ لا يُجنَىٰ .

ولذلك أسبابٌ فاسدةٌ ، ودواعٍ واهيةٌ :

فمنها : أن يكونَ في النفس أغراضٌ تختصُّ بنوعٍ من العلم ، فيدعو الغرضُ إلىٰ قصد ذلك النوع ، ويعدل عن مقدّماته ؛ **كرجل يؤثر القضاء ويتصدَّىٰ للحكم** ، فيقصد من علم الفقه أدبَ القاضي وما يتعلق عليه من الدعوىٰ والبينات ، **أو يحبُّ الارتسامَ بالشهادة** ، فيتعلَّمُ كتاب الشهادات ؛ لئلا يصير موسوماً بجهل ما يعاني ، **فإذا أدرك ذلك** . . **ظنَّ أنه قد حاز من العلم جمهورَه** ، وأدرك منه مشهورَه ، ولم يرَ ما بقي منه إلا غامضاً **طلبُه عناءٌ** ، وعويصاً **استخراجُه فناءٌ** ؛ لقصور همته علىٰ ما أدرك ، وانصرافها عما ترك .

ولو نصحَ نفسَه . . **لعلم أنَّ ما ترك أهمُّ مما أدرك** ؛ لأنَّ بعض العلم مرتبطٌ ببعض ، ولكلِّ باب منه تعلُّقٌ بما قبله ، **فلا تقوم الأواخر إلا بالأوائل** وقد يصحُّ قيام الأوائل بأنفسها ، **فيصير طلب الأواخر بترك الأوائل تركاً للأواخر والأوائل** ، فإذاً ليس يَعرَىٰ من لَوْم وإنْ كان تاركُ الكلِّ ألوَمَ .

ومنها : أن يحبَّ الاشتهار بالعلم ؛ إما لتكسُّبٍ أو لتجمُّل ، **فيقصد من العلم ما يشتهر به** من مسائل الجدل وطريق النظر ، **ويتعاطىٰ علم ما اختُلِف فيه دون ما اتُّفِق عليه** ؛ ليناظرَ على الخلاف وهو لا يعرف الوِفاق ، **ومَن يجادلُ الخصومَ وهو لا يعرف مذهبه** . . **فذاك مخصومٌ** .

ولقد رأيتُ من هٰذه الطبقة عدداً قد تحقَّقوا بالعلم تحقُّقَ المتكلفين[1] ، واشتهروا به اشتهارَ المتبحِّرين[2] ، إذا أخذوا في مناظرة الخصوم.. ظهر كلامُهم ، وإذا سُئلوا عن واضح مذهبهم.. ضلَّت أفهامُهم ، حتىٰ إنهم ليخبطون في الجواب خبطَ عشواءَ ، فلا يظهر لهم صوابٌ ، ولا يتقرَّر لهم جوابٌ ، ثم لا يرون ذلك نقصاً إذا نمَّقوا في المجالس كلاماً مرصوفاً ، ولفَّقوا على المخالف حِجاجاً مألوفاً ، وقد جهلوا من المذهب ما يعلمه المبتدىء ، ويتداوله الناشىء ، فهم دائماً في لغَطٍ مُضِلٍّ ، أو غلطٍ مُذِلٍّ .

ورأيت قوماً منهم يرون الاشتغالَ بالمذهبِ تكلُّفاً ، والاستكثارَ منه تخلُّفاً ، وحاجَّني بعضهم عليه[3] ؛ فقال : لأنَّ علمَ حافظ المذهب مستورٌ ، وعلمَ المُناظر عليه مشهورٌ .

فقلت : كيف يكونُ علمُ حافظ المذهب مستوراً وهو سريعُ الجواب ، كثيرُ الصواب ؟

فقال : لأنَّه إنْ لم يُسأل.. سكت فلم يُعرَف ، والمُناظرُ إن لم يُسأل.. سأل فعُرِف .

فقلت : أليس إذا سُئل الحافظُ فأصاب.. بان فضلُه ؟ قال : نعم .

قلت : أوليس إذا سُئل المُناظرُ فأخطأ.. بان نقصه ؟ وقد قيل : (عند الامتحان يُكرَم الرجلُ أو يُهان ؟!)[4] .

فأمسك عن جوابي ؛ لأنه إنْ أنكر.. كابر المعقولَ ، ولو اعترف.. لزمته الحجة ، والإمساك إذعان ، والسكوت رضاً ، ولأنْ ينقادَ إلى الحقِّ.. أَولىٰ من أن يستفزَّه الباطل .

---

(١) في النسخ عدا (أ) : (تحقق المتكلمين) ، وقال في « منهاج اليقين » (ص٧٣) : (أي : مثل رسوخهم وتمهرهم في إيراد الحجج العقلية والبراهين النقلية) .
(٢) في (أ) : (المتحزبين) ، وفي هامشها : (المجربين) ، وفي (ج) : (المتحدثين) .
(٣) عليه : علىٰ كون ذلك الاشتغال تكلفاً .
(٤) ذكره الميداني في « مجمع الأمثال » (٢/ ٤٣٥) .

وهـٰذه طريقةُ مَنْ يقول : (**اعرفوني**) **وهو غير عَروفٍ ولا معروف** ، **وبعيدٌ** **ممَّن لا يعرف العلمَ أن يُعرَف به** .

وقد قال زهير[1] : [من الطويل]

ومهما تكنْ عند امرئٍ من خَليقةٍ وإنْ خالها تَخفَىٰ على الناس تُعلَمِ

ومن أسباب التقصير أيضاً : أنْ يغفلَ عن التعلُّم في الصِّغر ، ثم يشتغل به في الكبر ، **فيستحي أن يبتدىء بما يبتدىء به الصغير** ، ويستنكف عن أنْ يساويَه الحدَثُ الغَرير ، **فيبدأ بأواخر العلوم وأطرافها** ، ويهتمُّ بحواشيها وأكنافها ؛ ليتقدَّمَ على الصغير المبتدي ، ويساويَ الكبيرَ المنتهي .

وهـٰذا ممَّن قد رضي بخداع نفسه ، وقنع بمُداهنة حسِّه ؛ لأنَّ معقولَه ـ إن أحسَّ ـ ومعقولَ كلِّ ذي حسٍّ . . يشهد بفساد هـٰذا التصوُّر ، وينطق باختلال هـٰذا التخيُّل ؛ لأنه شيءٌ لا يقوم في وهم ، **ولَجهلُ ما يبتدىءُ به المتعلِّمُ . . أقبحُ من جهل ما ينتهي إليه العالمُ** .

وقد قال الشاعر : [من الوافر]

تَـرَقَّ إلـىٰ صغيـرِ الأمـرِ حتَّـىٰ يُـرَقِّيَـكَ الصغيـرُ إلـى الكبيـرِ

فتعـرِفَ بـالتفكُّـرِ فـي صغيـرٍ كبيـراً بعـدَ معـرفـةِ الصغيـرِ

ولهـٰذا المعنىٰ وأشباهه كان التعلُّمُ في الصغر أحمدَ .

رویٰ مروان بن سالم ، عن إسماعيل ، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **مثَلُ الذي يتعلَّمُ في صغره كالنقشِ على الحجر ، والذي يتعلمُ في كبره كالذي يكتبُ على الماء** »[2] .

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام : (**قلبُ الحدَثِ كالأراضي الخالية ، ما أُلقِيَ فيها من شيء . . قبلتْهُ**)[3] .

---

(١) البيت في « ديوانه » (ص ٣٧) بشرح ثعلب .

(٢) أورده الديلمي في « مسند الفردوس » (٦٤٢٠) ، وعزاه الهيثمي في « مجمع الزوائد » (١/ ١٣٠) إلىٰ « المعجم الكبير » للطبراني .

(٣) أورده في « كنز العمال » (٤٤٢١٥) ضمن وصية طويلة لابنه الحسن .

وإنما كان كذلك . . لأنَّ الصغيرَ أفرغُ قلباً ، وأقلُّ شغلاً ، وأيسرُ تبذُّلاً ، وأكثرُ تواضعاً .

وقد قيل في منثور الحكم : (**المتواضع من طلاب العلم أكثرُهم علماً** ؛ كما أن المكان المنخفض أكثرُ البقاع ماءً)[1] .

فأما أن يكون الصغيرُ أضبطَ من الكبير إذا عري من هـٰذه الموانع ، وأوعىٰ منه إذا خلا من هـٰذه القواطع . . فلا .

حُكي : أن الأحنف بن قيس سمع رجلاً يقول : (التعلُّمُ في الصغر كالنقش في الحجر ، فقال الأحنف : **الكبير أكثر عقلاً ، ولـٰكنه أشغل قلباً**)[2] .

ولعمري ؛ لقد فحص الأحنف عن المعنىٰ ، ونبَّه على العلة ؛ **لأن قواطع الكبير كثيرةٌ** :

فمنها : ما ذكرنا من **الاستحياء** ، وقد قيل في منثور الحكم : (**مَن رقَّ وجههُ . . رقَّ علمُه**)[3] .

وقال الخليل بن أحمد : (**يرتعُ الجهل بين الحياء والكبر في العلم**)[4] .

ومنها : **وُفورُ شهواته وتقسُّمُ أفكاره** ، وقد قال الشاعر : [من مشطور الرجز]

صرفُ الهوىٰ عن ذي الهوىٰ عزيزُ
إنَّ الهـوىٰ ليـس لـه تمييـزُ

وقال بعض البلغاء : (**القلبُ إذا علِقَ كالرَّهن إذا غَلِقَ**)[5] .

ومنها : **الطوارق المزعجة** ، **والهموم المذهلة** ، وقد قيل في منثور الحكم : (**الهمُّ قيدُ الحواسِّ**) .

---

(١) أورده الثعالبي في « التمثيل والمحاضرة » (ص ١٦٦) ، والقيرواني في « زهر الآداب » (١/ ٣٧٥) من قول ابن المعتز .

(٢) أورده في « البيان والتبيين » (١/ ٢٥٧) .

(٣) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ١٦٥) ، و« مجمع الأمثال » (٣/ ٤٢٥) .

(٤) أورده في « ربيع الأبرار » (٤/ ٩٣) .

(٥) يقال : غَلِقَ الرهنُ غُلوقاً : إذا بقي في يد المرتهن لا يقدر علىٰ تخليصه .

وقال بعض البلغاء : (مَن بلغ أشُدَّه . . لاقىٰ من العيش أشَدَّه) .

ومنها : كثرة أشغاله ، وترادف خلاله ؛ حتىٰ إنَّها لتستوعب زمانَه ، وتستنفد أيامَه ؛ فإنْ كان ذا رئاسة . . ألهَتْه ، وإنْ كان ذا معيشة . . قطعَتْه ؛ ولذلك قيل : « تفقَّهُوا قبلَ أنْ تُسَوَّدُوا »[١] .

وقال بُزُرْجُمِهْرَ : (الشغلُ مَجهَدةٌ ، والفراغُ مَفسَدةٌ)[٢] .

فينبغي لطالب العلم : ألاَّ يَنِيَ في طلبه[٣] ، وينتهزَ الفرصة به ، فربَّما شحَّ الزمانُ بما سمح ، وضنَّ بما منح ، ويبتدىء من العلم بأوله ، ويأتيه من مدخله ، ولا يتشاغل بطلب ما لا يضرُّ جهلُه . . فيمنعَه ذلك من إدراك ما لا يسع جهلُه ؛ فإنَّ لكل علم فُضولاً مُذهِلة ، وشذوراً مُشغِلة ، إنْ صرف إليها نفسَه . . قطعته عمَّا هو أهمُّ منهاً .

وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما : (العلمُ أكثرُ من أن يُحصَىٰ ، فخُذُوا من كلِّ شيءٍ أحسنَهُ)[٤] .

وقال المأمون بن الرشيد رحمهما الله : (ما لم يكن من العلم بارعاً . . فبطونُ الصحف أولىٰ به من قلوب الرجال) .

وقال بعض الحكماء : (بترك ما لا يعنيك يتمُّ لكَ ما يعنيك)[٥] .

ولا ينبغي أن يدعوَه ذلك إلىٰ ترك ما استصعب عليه إشعاراً لنفسه أن ذلك من فضول علمه ، وإعذاراً لها في ترك الاشتغال به ؛ فإن ذلك مطيّةُ النَّوْكىٰ ، وعذرُ المقصِّرين .

---

(١) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (١٥٤٩) من قول سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وعلَّقه عنه البخاري في « صحيحه » (كتاب العلم ، باب الاغتباط في العلم والحكمة) .
(٢) أورده النويري في « نهاية الأرب » (٦/ ١٣٤) ، وفي « التذكرة الحمدونية » (١/ ٢٤٨) من قول سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه .
(٣) ألاَّ يني : ألاَّ يَفْتُرَ .
(٤) أورده في « جامع بيان العلم وفضله » (٦٦٩) .
(٥) روىٰ نحوه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٩/ ٣٨٥) .

ومن أخذ من العلم ما تسهَّل ، وترك منه ما تعذَّر . . كان كالقنَّاص ؛ إذا تعذَّر عليه الصيدُ . . تركه فلا يرجعُ إلا خائباً ؛ إذ ليس يرى الصيد إلا ممتنعاً ، **كذلك العلم كلُّه صعب علىٰ من جهله** ، سهل علىٰ من علمه ؛ لأنَّ معانيَه التي يُتوصَّل إليها مستودَعةٌ في كلام مترجِم عنها ، **وكلُّ كلامٍ مستعملٍ فهو يجمع لفظاً** مسموعاً ، ومعنىً مفهوماً ، **فاللفظ** كلام يُعقَل بالسَّمع ، **والمعنىٰ** تحت اللفظ يُفهَم بالقلب .

وقد قال بعض الحكماء : (**العلومُ مطالعُها من ثلاثة أوجهٍ** : قلب مفكِّر ، ولسان معبِّر ، وبيان مصوِّر)[1] .

فإذا عقل الكلامَ بسمعه . . فهِمَ معانيَه بقلبه ، وإذا فهِمَ المعانيَ . . سقط عنه كلفة استخراجها ، وبقي عليه معاناةُ حفظها واستقرارها ؛ **لأنَّ المعانيَ شواردُ تضلُّ بالإغفال** ، والعلومَ وحشيّةٌ تنفرُ بالإرسال ، **فإذا حفظها بعد الفهم . . أنِسَتْ** ، وإذا ذاكر بها بعد الأنس . . رسَتْ .

وقد قال بعض الحكماء : (**مَن أكثرَ المذاكرةَ بالعلم . . لم ينسَ ما علم ، واستفاد ما لم يعلمْ**)[2] .

وقال الشاعر[3] : [من الطويل]

إذا لـم يُـذاكِـرْ ذو العلـوم بعلمِـهِ ولم يستفِدْ علماً نسِيْ ما تعلَّما
فكم جامعٍ للكُتْبِ في كلِّ مذهبٍ يزيدُ على الأيام في جَمْعه عمىٰ

وإنْ لم يفهم معانيَ ما سمع . . كشف عن السبب المانع منها ؛ ليعلم العلّة في

---

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٤/ ١١٨) من قول عبد الرحمـٰن بن أحمد المقرىء .
(٢) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ١٦٦) ، و« الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » (٢/ ٤١٥) من قول ابن المعتز .
(٣) أورد البيتين في « جامع بيان العلم وفضله » (١/ ٤٣٠) .

تعذُّر فهمها ؛ فإنَّ بمعرفة أسباب الأشياء وعللها يصلُ إلىٰ تلافي ما شذَّ ، وصلاح ما فسد ، **وليس يخلو السبب المانع من ذلك من ثلاثة أقسام** :

إمّا أن يكون لعلَّةٍ في الكلام المترجَم عنها .

وإمَّا أن يكون لعلَّةٍ في المعنى المستودَع فيها .

وإما أن يكون لعلَّةٍ في السامع المستخرِج .

فإن كان السببُ المانعُ من فهمها لعلّة في الكلام المترجِم عنها . . لم يخلُ ذلك **من ثلاثة أحوال** :

أحدها : أن يكون لتقصيرِ اللفظ عن المعنىٰ ، فيصير تقصير اللفظ عن ذلك المعنىٰ سبباً مانعاً من فهم ذلك المعنىٰ ، **وهـٰذا قد يكون من أحد وجهين** : إمّا من حَصَرِ المتكلِّم وعِيِّه ، وإمَّا من بلادته وقلَّة فهمه .

والحال الثانية : أن يكون لزيادة اللفظ على المعنىٰ ، فتصير الزيادة علّةً مانعةً من فهم المقصود منه ، **وهـٰذا قد يكون من أحد وجهين** : إمّا من هذر المتكلِّم وإكثاره ، وإمّا لسوء ظنِّه بفهم سامعه .

والحال الثالثة : أن يكون لمُواضَعةٍ يقصدها المتكلِّم بكلامه ، فإذا لم يعرفها السامع . . لم يفهم معانيَها .

فأما تقصير اللفظ وزيادته : فمن الأسباب الخاصة دون العامة ؛ **لأنَّك لستَ تجد ذلك عاماً في كل كلام** ، وإنَّما تجده في بعضه .

فإن عدلت عن الكلام **المقصِّر إلى المستوفي** ، وعن الزائد إلى الكافي . . **أرحْتَ نفسك من تكلُّف ما يُكِدُّ خاطرك** .

وإن أقمت على استخراجه : إما لضرورة دعتك إليه عند إعواز غيره ، أو لحميّة داخلتك عند تعذُّر فهمه . . **فانظر في سبب الزيادة والتقصير** :

فإن كان التقصيرُ لحصَر ، والزيادةُ لهذر . . **سهل عليك استخراجُ المعنىٰ**

منه[1] ؛ لأنَّ ما له من الكلام محصولٌ . . لا يجوز أن يكون المختلُّ منه أكثرَ من الصحيح ، وفي الأكثر على الأقل دليلٌ .

وإن كانت زيادة اللفظ على المعنىٰ لسوء ظنِّ المتكلِّم بفهم السامع . . كان استخراجُه أسهلَ .

وإن كان تقصير اللفظ عن المعنىٰ لسوء فهم المتكلِّم . . فهو أصعب الأمور حالاً ، وأبعدُها استخراجاً ؛ لأن ما لم يفهمه مكلِّمُك . . فأنت مِن فهمه أبعدُ ، إلا أن يكون لفرط ذكائك وجودة خاطرك تتنبَّه بإشارته على استنباط ما عجز عنه ، واستخراج ما قصَّر فيه ، فتكون فضيلةُ الاستيفاء لك ، وحقُّ التقدُّم له .

وأمّا المُواضعة فضربان : عامة وخاصة[2] :

فأمّا العامة : فهي مُواضعة العلماء فيما جعلوه ألقاباً تواضعوها لمعانٍ اتفقوا عليها[3] ، ولا يستغني المتعلِّم عنها ، ولا يقف علىٰ معنىٰ كلامهم إلا بها ؛ كما جعل المتكلِّمون الجواهر والأعراض والأجسام ألقاباً تواضعوها لمعانٍ اتفقوا عليها ، ولست تجد من العلوم علماً يخلو من هـٰذا ، وهـٰذه المواضعة العامة تُسمَّىٰ عُرْفاً .

وأمّا الخاصة : فمواضعةُ الواحد يقصد بباطن كلامه غيرَ ظاهره ، فإنْ كانت في الكلام . . كانت رمزاً ، وإن كانت في الشعر . . كانت لغزاً .

فأمّا الرمز : فلستَ تجده في علمٍ معنويٍّ ، ولا في كلامٍ لغويٍّ ، وإنما يختص غالباً بأحد شيئين :

إمّا بمذهبٍ شنيعٍ يُخفيه معتقِدُه ، ويجعل الرمز به سبباً لتطلُّع النفوس إليه ،

---

(١) الحصر : العي في الكلام ، والعجز عن التعبير ، والهذر : كثرة الخطأ في الكلام ، وكلام هذر ؛ أي : كثير رديء ، أو ساقط .

(٢) المواضعة : هي عبارة عن اتفاق قومٍ علىٰ تسمية الشيء باسمٍ ما ، ينقل عن موضوعه الأول .

(٣) وقد جمع السيد الشريف الجرجاني رحمه الله تعالىٰ مقداراً يسيراً منها ، وسماه « التعريفات » .

واحتمالَ التأويل فيه سبباً لدفع التهمة عنه .

وإمّا لما يدَّعي أربابُه أنه علم معوِزٌ ، وأن إدراكه بديعٌ معجزٌ ؛ كالصنعة التي وضعها أربابها اسماً لعلم الكيمياء ، **فرمزوا بأوصافه** ، **وأخفَوا معانيَه ليوهموا الشحَّ به** ، والأسفَ عليه ؛ خديعةً للعقول الواهية ، والآراء الفاسدة ، وقد قال الشاعر : [من البسيط]

مُنِعْتَ شيئاً فأكثرْتَ الوَلُوعَ به ... وحَبُّ شيءٍ إلى الإنسانِ ما مُنِعا

ثمَّ ليكونوا بُرَآء من عُهدة ما قالوه إذا جُرِّب .

ولو كان ما تضمَّن هـٰذينِ النوعينِ وأشباههما من الرموز معنىً صحيحاً ، وعلماً مستفاداً . . **لخرج من الرمز الخفيّ إلى اللفظ الجليّ** ؛ لأنَّ أغراض الناس مع اختلاف أهوائهم لا تتفقُ علىٰ سترِ سليم ، وإخفاءِ مفيد ، وقد قال زهير[1] : [من السريع]

السِّتْـرُ دونَ الفـاحشـاتِ ولا ... يلقـاكَ دونَ الخيـرِ مـن سِتْـرِ

وربُّما استُعمِل الرمزُ من الكلام فيما يُراد تفخيمُه من المعاني ، وتعظيمُه من الألفاظ ؛ ليكون أحلىٰ في القلوب موقعاً ، وأجلَّ في النفوس موضعاً ، **فيصير بالرمز سائراً** ، **وفي الصحف مخلَّداً** ؛ كالذي حُكي عن فيثاغورس في وصاياه المرموزة أنه قال : (**احفظ ميزانك من الندىٰ** ، **وأوزانك من الصدا**) .

يريد بحفظ الميزان من الندىٰ : حفظَ اللسان من الخنا ، **وبحفظ الأوزان من الصدا** : حفظَ العقل من الهوىٰ ، **فصار بهـٰذا الرمزِ مستحسَناً ومدوَّناً** ، ولو قاله باللفظ الصريح ، والمعنى الفصيح . . لما سار عنه ، ولا استُحسِن منه .

وعلّةُ ذلك : أنَّ المحجوبَ عن الأفهام كالمحجوب عن الأبصار فيما يحصل له في النفوس من التعظيم ، وفي القلوب من التفخيم ؛ ولذلك استُحلي واستُحسن ، **وما ظهر منها ولم يحتجب** . . هان واستُرذِل ، وهـٰذا إنَّما يصحُّ استحلاؤه فيما قلَّ ، وهو باللفظ الصريح مستقلٌّ .

---

(١) البيت في « ديوانه » (ص ٨٢) بشرح ثعلب .

فأمّا العلومُ المنتشرة التي تتطلَّعُ النفوس إليها . . فقد استغنت بقوة الباعث عليها ، وشدَّة الداعي إليها عن الاستدعاء لها برمزٍ مستحلىً ، ولفظٍ مستغرَب ، بل ذلك منفِّرٌ عنها ؛ لما في التشاغل باستخراج رموزها من الإبطاء عن دَرْكها وتصوُّر معانيها ، فهٰذا حال الرمز .

وأمّا اللغز : فهو تحدِّي أهلِ الفراغ ، وشغلُ ذوي البطالة ؛ ليتنافسوا في تباين قرائحهم ، ويتفاخروا في سرعة خواطرهم ، فيستكدُّوا خواطرَ قد مُنِحوا صحَّتَها فيما لا يُجدي نفعاً ، ولا يفيد علماً ، فهم كأهل الصِّراع الذين قد صرفوا ما مُنِحوه من صحة أجسادهم إلىٰ صراعٍ كَدُودٍ يصرع عقولهم ، ويهدُّ أجسامهم ، لا يكسبهم حمداً ، ولا يُجدي عليهم نفعاً .

انظر إلىٰ قول الشاعر : [من الرمل]

رجـلٌ مـات وخلَّـفْ رجـلاً ... ابـنَ أمِّ ابـنِ أبـي أختِ أبيـهِ
معَــهُ أمُّ بَنِـي أولادِهِ ... وأبـا أُخـتِ بَنِـي عـمِّ أخيـهِ[1]

أخبرني عن هٰذين البيتين وقد روَّعك صعوبةُ ما تضمَّنهما من السؤال إذا استكدَّك الفكرُ في استخراجه ، فعلمت أنه أراد ميتاً خلَّفَ أباً وزوجةً وعمّاً ، ما الذي أفادك من العلم ، ونفىٰ عنك من الجهل ؟ ألستَ بعد علمك تجهل ما كنت جاهلاً من قبله ؟

ولو أنَّ السائل قلب لك السؤال ، فأخَّر ما قدَّم ، وقدَّم ما أخَّر . . لكنت في الجهل به قبل استخراجه كما كنت في الجهل بالأول ، وقد كددت فكرك ، وأتعبت خاطرك ، ثم لا تعدَم أن يرِدَ عليك مثلُ هٰذا مما تجهله ، فتكون فيه كما كنت فيما قبله .

---

(١) قال في « منهاج اليقين » (ص ٨٣) : (وحله ـ أي : قوله : « ابنَ أمِّ ابن أبي أخت أبيه » ـ : بتعيين أسماء لكل واحدٍ ، فنقول : الرجل الذي مات هو : زيد بن عمرو بن بشر مثلاً ، وأخت أبي الميت هي : هند بنت بشر المذكور وعمة الميت ، فابن أبي هند هو الرجل الذي تركه الميت ؛ وهو أبوه المسمىٰ بعمرو ، وعمرو بن أبي هند ـ أعني : ابن بشر ـ هو ابن أم هند ؛ لكونهما لأبوين ، « معه أمُّ بني أولاده » الضميران للرجل الثاني ، وإذا ثبت أنه أبو الميت . . فأم بني ذلك الرجل هي زوجة الميت ، « وأبا أخت بني عم أخيه » الضمير راجع إلى الرجل الميت ، وعم الأخ عم سواء كان أباً لابنه أو لأخت ابنه ، أو لم يكن أباً أصلاً) .

فاصرف نفسك ـ تولَّى اللهُ رشدَك ـ عن علوم النَّوْكىٰ ، وتكلُّفِ البطّالين ؛ فقد رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من حُسْنِ إسلامِ المرءِ تَرْكُهُ ما لا يَعنيهِ »[1] .

ثم اجعل ما مَنَّ اللهُ به عليك من صحة القريحة ، وسرعة الخاطر مصروفاً إلىٰ علم ما يكون إنفاقُ خاطرك فيه لك مذخوراً ، وكَدُّ فكرك فيه مشكوراً ؛ فقد روىٰ سعيد بن أبي هند ، عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نعمتانِ مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناسِ : الصحةُ والفراغُ »[2] .

ونحن نستعيذ بالله تعالىٰ من أن نغبنَ فضلَ نعمته علينا ، ونجهلَ نفعَ إحسانه إلينا ، وقد قيل في منثور الحكم : (من الفراغ تكون الصَّبوة)[3] .

وقال بعض البلغاء : (مَن أمضىٰ يومه في غير حقٍّ قضاه ، أو فرضٍ أدّاه ، أو مجدٍ أثَّله ، أو حمدٍ حصَّله ، أو خيرٍ أسَّسه ، أو علمٍ اقتبسه . . فقد عقَّ يومه ، وظلم نفسه)[4] .

وقال بعض الشعراء[5] : [من الوافر]

لقد هاجَ الفراغُ عليكَ شُغْلاً ... وأسبابُ البَلاءِ مِنَ الفراغِ

فهٰذا تعليلُ ما في الكلام من الأسباب المانعة من فهم معانيه حتىٰ خرج بنا الاستيفاءُ إلى الإطالة ، والكشفُ إلى الإغماض .

وأما القسم الثاني : وهو أن يكون السبب المانع من فهم السامع لعلةٍ في

---

(١) رواه الترمذي (٢٣١٧) ، وابن ماجه (٣٩٧٦) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .
(٢) رواه البخاري (٦٤١٢) ، والترمذي (٢٣٠٤) .
(٣) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٣٩٨) ، و« الإمتاع والمؤانسة » (ص ٣٦٥) ، والصبوة : جهلة الفتوة .
(٤) أورده في « الكشكول » (١/٢٢٦) منسوباً لسيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وغرض المؤلف أن الإلغاز ليس من أحد هٰذه الأمور ؛ فالاشتغال به ظلم .
(٥) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص٣٩٩) .

المعنى المستودَع . . **فلا يخلو حال المعنىٰ من ثلاثة أقسام** : إمّا أن يكون مستقلاً بنفسه ، أو يكون مقدِّمةً لغيره ، أو يكون نتيجةً من غيره .

ـ **فأما ما يكون مستقلاً بنفسه** . . فضربان : جليّ وخفيّ .

فأمّا الجليُّ : فهو يسبق إلىٰ فهم متصوِّره من أول وهلة ، وليس هو من أقسام ما يُشكل علىٰ ذي تصوُّرٍ .

وأمّا الخفيُّ : فيحتاج في إدراكه إلىٰ زيادةِ تأمل ، وفضلِ معاناة ؛ لينجليَ عمّا أُخفي ، وينكشفَ عمّا أغمض ، **وباستعمال الفكر فيه يكون الارتياضُ به ، وبالارتياض به يسهل منه ما استصعب ، ويقرب منه ما بعُد ؛ فإنَّ للرياضة جراءةً ، وللدُّرْبةِ تأثيراً** .

ـ **وأمّا ما كان مقدِّمةً لغيره** . . فضربان :

أحدهما : أن تقوم المقدِّمة بنفسها ، وإن تعدَّتْ إلىٰ غيرها . . فيكون الكلام كالمستقل بنفسه في تصوُّره وفهمه وإن كان مستدعياً لنتيجته .

والثاني : أن يكون مفتقراً إلىٰ نتيجته[1] ، فيتعذَّر فهم المقدِّمة إلا بما يتعقبها من النتيجة ؛ لأنها تكون بعضاً منه ، **وتبعيضُ المعنىٰ أشكلُ له** ، وبعضه لا يُغني عن كلِّه .

ـ **وأمّا ما كان نتيجةً لغيره** : فهو لا يُدرَكُ إلا بأوله ، ولا يُتصوَّر علىٰ حقيقته إلا بمقدِّمته ، والاشتغالُ به قبل المقدِّمة عناءٌ ، وإتعابُ الفكر في استنباطه قبل قاعدته أذاءٌ[2] .

فهـٰذا يوضح تعليل ما في المعاني من الأسباب المانعة من فهمها .

* * *

وأمّا القسم الثالث : وهو أن يكون السبب المانع لعلة في المستمع . . **فذلك ضربان** : **أحدهما** : من ذاته ، **والثاني** : من طارىء طرأ عليه .

---

(١) قوله : (والثاني : أن يكون) أي : فهم المعنىٰ (مفتقراً إلىٰ نتيجة) .

(٢) أي : فلا فائدة ؛ كترغيب الضرير في تعليم الكتابة ، والأخرس على الخطابة .

فأمّا ما كان من ذاته . . فيتنوع نوعين : أحدهما : ما كان مانعاً من تصوّر المعنىٰ وفهمه ، والثاني : ما كان مانعاً من حفظه بعد تصوُّره وفهمه .

فأمّا المانعُ من تصوُّر المعنىٰ وفهمه . . فهو البلادة وقلّة الفطنة ، وهو الداءُ العَياءُ ، وقد قال بعض الحكماء : (إذا فَقَدَ العالمُ الذهنَ . . قلَّ على الأضداد احتجاجُه ، وكثر إلى الكتب احتياجُه)[1] .

وليس لمن بُلي بهـٰذا إلا الصبر والإقلال ؛ لأنَّه على القليل أقدرُ ، وبالصبر أحرىٰ أن ينالَ ويظفر ، وقد قال بعض الحكماء : (قدِّمْ لحاجتك بعضَ لَجاجتك) .

وليس يقدر على الصبر مَنْ هـٰذه حالُه إلا أن يكون غالبَ الشهوة ، بعيدَ الهمة ، فيُشعرُ قلبَه الصبرَ لقوّة شهوته ، ويكلِّف جسدَه احتمالَ التعب لبُعد همّته ، فإذا تلوَّح له المعنىٰ بمساعدة الشهوة . . أعقبه ذلك إلحاحَ الآملين ، ونشاطَ المدرِكين ، فقلَّ عنده كلُّ كثير ، وسهل عليه كلُّ عسير .

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنَّكم لا تنالونَ ما تحبُّونَ إلا بالصبرِ علىٰ ما تكرهونَ ، ولا تبلغونَ ما تهوونَ إلا بترك ما تشتهونَ »[2] .

وقيل في منثور الحكم : (أتعِبْ قدمَكَ ، فكمْ تعبٍ قدَّمكَ)[3] .

وقال بعض البلغاء : (إذا اشتدَّ الكَلَفُ . . هانت الكُلَفُ)[4] .

وأنشد بعض أهل الأدب ما ذكر أنه لعليِّ بن أبي طالب عليه السلام[5] : [من البسيط]

لا تعجـزَنَّ ولا تـدخُـلْـكَ مَضْجَـرةٌ ... فالنُّجْحُ يَهلِكُ بينَ العجزِ والضَّجَرِ

(١) أورده الراغب في « محاضرات الأدباء » (١/ ٩٨) .

(٢) رواه ابن قتيبة في « عيون الأخبار » (٢/ ٢٦٨) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٧/ ٤٥٢) من قول سيدنا عيسىٰ عليه السلام .

(٣) أورده النويري في « نهاية الأرب » (٦/ ١٢٩) من قول عبد الحميد .

(٤) الكَلَف : العشق والمحبة ، والكُلَف ـ جمع كُلْفة ـ : المشقة .

(٥) البيت في « ديوانه » (ص١١٨) ؛ وفيه : (لا تعجزن ولا يعجزك مطلبها) أي : الحاجات .

وأمّا المانعُ من حفظه بعد تصوُّره وفهمه . . فهو النسيان الحادث عن غفلة التقصير والإهمال والتواني ، فينبغي لمن بُلي به أن يستدرك تقصيره بكثرة الدرس ، ويوقظ غفلته بإدامة النظر ، فقد قيل : (**لن يدرك العلمَ مَن لا يُطيل درسَه ، ويُكدُّ نفسَه**)[1] .

وكثرةُ الدرس كَدُودٌ ، لا يصبر عليه إلا مَن يرى العلمَ مَغنماً ، والجهالةَ مَغرماً ، **فيحتمل تعب الدرس ؛ ليدرك راحةَ العلم** ، وتنتفي عنه مَعرَّةُ الجهل ، فإنَّ نيلَ العظيم بأمر عظيم ، وعلىٰ قدر الرغبة يكون الطلب ، وبحسَب الراحة يكون التعب .

وقد قيل : (**علّةُ الراحةِ قلّةُ الاستراحةِ**)[2] .

وقال بعض الحكماء : (**أكملُ الراحة** : ما كانت عن كدِّ التعب ، **وأعزُّ العلم** : ما كان عن ذلِّ الطلب) .

وربَّما استثقل المتعلِّم الدرس والحفظ ، واتَّكل بعد فهم المعاني على الرجوع إلى الكتب والمطالعة فيها عند الحاجة إليها ، **فلا يكون إلا كَمن أطلق ما صاده** ؛ ثقةً بالقدرة عليه بعد الامتناع منه ، فلا تُعقِبُه الثقةُ إلا خجلاً ، والتفريطُ إلا ندماً .

وهـٰذه حالٌ قد يدعو إليها أحدُ ثلاثة أشياء : إمَّا الضجرُ من معاناة الحفظ ومراعاته ، أو طولُ الأمل في التوفُّر عليه عند نشاطه ، أو فسادُ الرأي في عزيمته ، **وليس يعلم أن الضَّجُورَ خائبٌ** ، وأنَّ الطويلَ الأملِ مغرورٌ ، **وأنَّ الفاسدَ الرأيِ مصابٌ** ، والعربُ تقول في أمثالها : (**حرفٌ في قلبك خيرٌ من ألفٍ في كتبك**)[3] .

وقالوا : (**لا خيرَ في علمٍ لا يعبرُ معك الواديَ ، ولا يعمرُ بك الناديَ**)[4] .

---

(١) أورده الراغب في « محاضرات الأدباء » (١/ ١٠٢) .

(٢) أورده النويري في « نهاية الأرب » (٦/ ١٢٩) .

(٣) أورد نحوه في « البيان والتبيين » (١/ ٢٥٨) من قول أعرابي : (حرف في قلبك خير من عشرة في طومارك) ، والطومار : الصحيفة .

(٤) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص١٦٠) ، و« محاضرات الأدباء » (١/ ٩٩) .

وأُنشِدتُ عن الربيع للشافعي رحمهما الله تعالىٰ[1] : [من البسيط]

عِلْمي معي حيثُما يمَّمتُ يتبعُني ... قلبـي وعـاءٌ لـه لا بطـنُ صُنـدوقِ
إنْ كنتُ في البيت كان العلْمُ فيه معي ... أو كنتُ في السُّوقِ كان العلْمُ في السُّوقِ

وربَّما عُنِي المتعلِّمُ بالحفظ من غير تصوُّر ولا فهم ؛ حتىٰ يصيرَ حافظاً لألفاظ المعاني قيِّماً بتلاوتها وهو لا يتصوَّرها ، ولا يفهم ما تضمَّنها ، يروي بغير رَوِيّة ، ويُخبر عن غير خِبرة ، فهو كالكتاب الذي لا يدفع شبهةً ، ولا يؤيِّد حجةً .

وقد رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « هِمّةُ السُّفَهاءِ الروايةُ ، وهِمّةُ العُلَماءِ الرعايةُ »[2] .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : (كونوا للعلم رُعاةً ، ولا تكونوا له رُواةً ؛ فقد يَرعَوِي مَن لا يَروي ، ويَروي مَن لا يَرعَوِي)[3] .

وحدَّث الحسنُ البصريُّ بحديثٍ ، فقال له رجلٌ : (يا أبا سعيد ؛ عمَّن ؟ فقال : ما تصنعُ بـ« عمَّن ؟ » أمّا أنت.. فقد نالتك عظتُه ، وقامت عليك حجّتُه)[4] .

وربَّما اعتمد علىٰ حفظه وتصوُّره ، وأغفل تقييدَ العلم في كتبه ؛ ثقةً بما استقرَّ في نفسه ، وهـٰذا خطأ منه ؛ لأن التشكُّكَ معترض ، والنسيان طارىء ، وقد روىٰ أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « قَيِّدوا العلْمَ بالكتاب »[5] .

وروي أنَّ رجلاً شكا إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم النسيانَ ، فقال :

---

(١) البيتان في « ديوانه » (ص١٠٣) .
(٢) رواه الخطيب في « اقتضاء العلم العمل » (٣٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٧/ ١٨٣) من قول الحسن رحمه الله .
(٣) أورده ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١/ ٦٩٨) .
(٤) أورده ابن قتيبة في « عيون الأخبار » (٢/ ١٣٧) .
(٥) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٧/ ٣٥٣) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١/ ٣٠٦) .

« استعمِلْ يدَكَ »[1] أي : اكتبْ حتىٰ ترجعَ إذا نسيتَ إلىٰ ما كتبتَ .

وقد قال الخليل بن أحمد : (**اجعلْ ما في الكتب رأسَ المال ، وما في القلب النفقةَ**)[2] .

وقال مهبوذ : (لولا ما عقدَتْه الكتبُ من تجارب الأوَّلين . . لانحلَّ مع النسيان عقودُ الآخرين)[3] .

وقال بعض البلغاء : (**إنَّ هٰذه الآدابَ نوافرُ تنِدُّ عن عقل الأذهان ، فاجعلوا** الكتبَ عليها حُماةً ، والأقلامَ لها رُعاة)[4] .

وأمّا طارىءُ النسيانِ . . فنوعان[5] :

أحدهما : شُبَهٌ تعترض المعنىٰ فتمنع من تصوُّره ، وتدفع عن إدراك حقيقته ، فينبغي أن يزيل تلك الشُّبَهَ عن نفسه بالسؤال والنظر ؛ ليصلَ إلىٰ تصور المعنىٰ وإدراك حقيقته ؛ ولذلك قال بعض العلماء : (**لا تُخلِ قلبك من المذاكرة فيعودَ عقيماً ، ولا تُعفِ طبعَك عن المناظرة فيصيرَ سقيماً**)[6] .

وقال بشار بن برد[7] : [من الطويل]

شفاءُ العمىٰ طولُ السؤالِ وإنّما   دوامُ العمىٰ طولُ السكوتِ على الجهلِ
فكُنْ سائلاً عمّا عَناكَ فإنّما   دُعيتَ أخا عقْلٍ لتبحثَ بالعقلِ

والثاني : أفكار تُعارض الخاطر ، فيذهل عن تصوُّر المعنىٰ ، وهٰذا سببٌ قلَّما يَعرىٰ منه أحد ، لا سيَّما فيمَن انبسطت آمالُه ، واتَّسعت أمانيه ، وقد يقلُّ فيمَن لم يكن له في غير العلم أَرَبٌ ، ولا فيما سواه همّةٌ .

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٦٦) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أورده الثعالبي في « ثمار القلوب » (١/ ٤٩٣) .

(٣) أورده ابن النديم في « الفهرست » (ص١٣) .

(٤) أورده في « ربيع الأبرار » (٤/ ١٤٧) ، و« محاضرات الأدباء » (١/ ٩٩) .

(٥) قوله : (وأما طارىء النسيان) معطوف علىٰ قوله : (فأما ما كان مانعاً من تصور المعنىٰ . . فهو البلادة) وهٰذا هو القسم الثاني من السبب المانع في المستمع .

(٦) أورده الراغب في « محاضرات الأدباء » (١/ ١٥٠) من قول ابن المقفع .

(٧) البيت في ملحقات « ديوانه » (٤/ ١٦٣) ، ونسبه ياقوت في « معجم الأدباء » (٦/ ٦٢٤) لمحمد بن الحسين الطبري المعروف بابن نجدة ، وأراد بالعمى الجهل ؛ لأنه عمىً بصيرة .

فإنْ طرأت على الإنسان . . لم يقدر علىٰ مكابرة نفسه على الفهم ، وغلبة قلبه على التصوُّر ؛ **لأنَّ القلب مع الإكراه أشدُّ نفوراً** ، وأبعدُ قبولاً ، وقد جاء في الأثر : (**أنَّ القلبَ إذا أُكرِهَ . . عَمِيَ**)[1] .

ولٰكن يعملُ علىٰ دفع ما طرأ عليه من همٍّ مذهل ، أو فكر قاطع ؛ ليستجيبَ له القلبُ مطيعاً ، وقد قال الشاعر[2] : [من الطويل]

وليس بمُغنٍ في المودّةِ شافعٌ إذا لم يكنْ بين الضُّلوعِ شفيعُ

وقال بعض الحكماء : (**إنَّ لهٰذه القلوب تنافراً كتنافر الوحش ، فتألَّفُوها بالاقتصاد في التعليم ، والتوسُّط في التقويم** ؛ لتحسنَ طاعتُها ، ويدومَ نشاطُها) .

فهٰذا تعليلُ ما في المستمع من الأسباب المانعة من فهم المعاني .

وهٰهنا قسمٌ رابع يمنع من معرفة الكلام وفهم معانيه ، ولٰكنَّه قد يَعرىٰ من بعض الكلام ؛ فلذلك لم نُدخله في جملة أقسامه ، ولم نستجز الإخلالَ بذكره **وهو الخطُّ** ؛ فإنَّ من الكلام **ما كان مسموعاً** لا يُحتاج في فهمه إلىٰ تأمُّل الخطّ به ، **والمانع من فهمه هو علىٰ ما ذكرناه من أقسامه** .

ومنه ما كان مستودعاً بالخطِّ ، محفوظاً بالكتابة ، مأخوذاً بالاستخراج ، **فكان الخطُّ حافظاً له** ، ومعبِّراً عنه ، وقد رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالىٰ : ﴿أَوۡ أَثَـٰرَةٍ مِّنۡ عِلۡمٍ﴾ قال : (يعني : الخطَّ)[3] .

ورُوي عن مجاهد في قوله تعالىٰ : ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُ﴾ قال : (**الخطّ** ، ﴿وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ يعني : **الخط**)[4] .

---

(١) عزاه في « كنز العمال » (١/ ٣٩٨) إلىٰ محمد بن عثمان الأذرعي في كتاب « الوسوسة » من قول سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٢) أورده التوحيدي في « الصداقة والصديق » (ص٣٢٥) بدون نسبة .

(٣) رواه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٤٥٤) .

(٤) رواه الطبري في « تفسيره » (٣/ ٣/ ١١٧) ، والدارمي في « مسنده » (٣٣٧٧) .

والعرب تقول : (**الخطُّ أحدُ اللسانَين**[1] ، وحسنُه إحدى الفصاحتَين)[2] .

وقال جعفر بن يحيىٰ : (**الخطُّ سِمْطُ الحكمة ، به تفصل شذورُها ، وينظم منثورُها**)[3] .

وقال ابن المقفَّع : (**اللسانُ مقصورٌ على القريب الحاضر ، والعلمُ بالخطِّ على الشاهد والغائب ، وهو للغابر الكائن مثلُه للقائم الراهن**)[4] .

وقال حكيم الروم : (**الخطُّ هندسةٌ رُوحانية وإنْ ظهر بآلة جسدانية**)[5] .

وقال حكيم العرب : (**الخطُّ أصيلٌ في الروح وإنْ ظهر بحواسِّ الجسد**)[6] .

* * *

واختُلف في أول مَن كتب الخطَّ :

فذكر كعب الأحبار : (**أنَّ أولَ مَن كتب : آدم عليه السلام ، كتب سائر الكتب قبل موته بثلاث مئة سنة في طين ثم طبخه ، فلمَّا غرقت الأرض في زمن نوح عليه السلام . . بقيت الكتابةُ ، فأصاب كلّ قوم كتابهم ، وبقي الكتاب العربي إلىٰ أن خصَّ الله تعالىٰ به إسماعيلَ عليه السلام ، فأصابه وتعلَّم العربيةَ**)[7] .

وحكى ابن قتيبة : (**أنَّ أول مَن كتب : إدريسُ عليه السلام**)[8] .

وكانت العرب تعظِّم قدرَ الخطِّ ، وتعدُّه من أجلِّ نفع ، حتىٰ قال عكرمة : (بلغ فداء أهل بدر أربعة آلاف درهم ، **حتىٰ إنَّ الرجلَ ليُفادىٰ به علىٰ أن يعلِّمَ الخطَّ**)[9] لما هو مستقر في نفوسهم من عِظَم خطره ، وجلالة قدره ، وظهور نفعه وأثره .

---

(١) أورده في « البيان والتبيين » (١/ ٧٩) ، و« التمثيل والمحاضرة » (ص١٥٥) .
(٢) أورده في « نهاية الأرب » (٧/ ١٤) من قول سيدنا علي كرم الله وجهه .
(٣) أورده في « زهر الآداب » (١/ ٣٦٦) ، و« نهاية الأرب » (٧/ ١٤) .
(٤) أورده في « البيان والتبيين » (١/ ٨٠) .
(٥) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص١٥٥) من قول إقليدس ، و« محاضرات الأدباء » (١/ ١٩٩) .
(٦) أورده في « صبح الأعشىٰ » (٣/ ٢) من قول النَّظَّام .
(٧) أورده ابن فارس في « الصاحبيّ » (ص١٠) .
(٨) عيون الأخبار (١/ ٤٣) .
(٩) رواه ابن سعد في « الطبقات » (٢/ ٢٣) .

وقد قال الله تعالىٰ لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴾ فوصف نفسه بأنه علَّم بالقلم ؛ كما وصف نفسه بالكرم ، واعتدَّ بذلك في نِعَمه العِظام ، ومن أياديه الجِسام ؛ حتىٰ أقسم به في كتابه فقال تعالىٰ : ﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ فأقسم بالقلم كما أقسم بما يُخَطُّ بالقلم .

واختُلف في أول مَن كتب بالعربية :

فذكر كعب الأحبار : (أن أول من كتب بها : آدم عليه السلام ، ثم وجدها بعد الطوفان إسماعيل عليه السلام)[1] .

وحكى ابن عباس رضي الله عنهما : (أنَّ أولَ مَن كتب بها ووضعها : إسماعيلُ عليه السلام علىٰ لفظه ومنطقه)[2] .

وحكىٰ عروةُ بن الزبير رضي الله عنه : (أنَّ أولَ مَن كتب بها : قومٌ من الأزد الأوائل ، أسماؤهم : أبجد وهوّز وحطّي وكلمن وسعفص وقرشت ، وكانوا ملوكَ مدين)[3] .

وحكى ابن قتيبة في « المعارف » : (أنَّ أول مَن كتب بالعربية : مُرامرُ بن مروة من أهل الأنبار ، ومن الأنبار انتشرت)[4] .

وحكى المدائني : (أنَّ أولَ من كتب بها : مُرامر بن مروة ، وأسلم بن سدرة ، وعامر بن جدرة ؛ فمُرامرٌ وضع الصُّوَرَ ، وأسلمُ فصل ووصل ، وعامرٌ وضع الإعجامَ)[5] .

ولمّا كان الخطُّ بهـٰذه الحال . . وجب علىٰ مَن أراد حفظَ العلم به أن يُعنىٰ بأمرين :

أحدهما : حفظُ تقويم الحروف علىٰ أشكالها الموضوعة لها .

---

(١) أورده في « الصاحبيّ » (ص١٠) .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٥٥٢) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (١٥٠٣) .

(٣) أورده في « محاضرات الأدباء » (١/ ١٩٧) .

(٤) المعارف (ص٥٥٢) ؛ وفيه وفي (هـ) : (مرامر بن مرة) .

(٥) أورده في « صبح الأعشىٰ » (٣/ ١٢) ، و« محاضرات الأدباء » (١/ ١٩٧) ، وفي (د ، هـ) : (وعامر بن خدرة) .

والثاني : ضبطُ ما اشتبه منها بالنقط والأشكال المميِّزة لها .

ثم ما زاد علىٰ هـٰذين من تحسين الخطِّ ومَلاحةٍ تظهر . . فإنَّما هو زيادة حِذْقٍ بصنعته ، وليس بشرط في صحته .

وقال علي بن عبيدة : (**حسنُ الخطِّ لسانُ اليد ، وبهجةُ الضمير**)[1] .

وقال أبو العباس المبرِّد : (**رداءةُ الخطِّ زمانةُ الأدب**)[2] .

وقال عبد الحميد : (**البيانُ في اللسان والبَنان**) .

وأنشدني بعض أهل الأدب لأحد شعراء البصرة[3] : [من الكامل]

اعــذرْ أخــاكَ علــىٰ رداءةِ خطِّــهِ ... واغفــرْ رداءتَــهُ لجُــودةِ ضبطِــهِ

واعلمْ بأنَّ الخطَّ ليس يُرادُ مِن ... تــركيبــهِ إلاّ تبيُّــنُ سِمْطــهِ

فإذا أبانَ عن المعاني لم يكنْ ... تحسينُــه إلا زيــادةَ شــرطــهِ

ومحلُّ ما زاد على الخطِّ المفهوم من تصحيح الحروف وحُسن الصورة. . محلُّ ما زاد على الكلام المفهوم من فصاحة الألفاظ وصحّة الإعراب ؛ ولذلك قالت العرب : (حسنُ الخط إحدى الفصاحتين)[4] .

وكما أنَّه لا يُعذَر مَن أراد التقدُّمَ في الكلام أن يطَّرحَ الفصاحة والإعراب وإنْ فهم وأفهم. . كذلك لا يُعذَر مَن أراد التقدُّمَ في الخطِّ أن يطَّرحَ تصحيح الحروف وتحسين الصور وإن فهم وأفهم .

وربَّما تقدَّم بالخطِّ مَن كان الخطُّ أجلَّ فضائله ، وأشرفَ خصائله ، حتىٰ صار علَماً مشهوراً ، وسيداً مذكوراً ، **غير أن العلماء اطَّرحوا صرفَ الهمَّة إلىٰ تحسين الخط** ؛ لأنَّه يشغلهم عن العلم ، ويقطعهم عن التوفُّر عليه ؛ **ولذلك تجد خطوط العلماء في الأغلب رديئةً لا تُلحَظ إلا مَن أسعده القضاء .**

---

(١) أورده في « صبح الأعشىٰ » (٣/ ٢) و« العقد الفريد » (٤/ ١٧٢) من قول إبراهيم بن محمد الشيباني .

(٢) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص١٥٥) .

(٣) أورد الأبيات الثعالبي في « يتيمة الدهر » (١/ ٥٢٢) لأبي بكر الموسوس .

(٤) أورده في « نهاية الأرب » (٧/ ١٤) من قول سيدنا علي كرم الله وجهه .

وقد قال الفضل بن سهل : (من سعادة المرء : أن يكون رديء الخط ؛ ليكون الزمان الذي يفنيه بالكتابة يشغله بالحفظ والنظر) .

وليست رداءةُ الخطِّ هي السعادةَ ، وإنَّما السعادةُ ألا يكون له صارفٌ عن العلم ، وعادةُ ذي الخطِّ الحسن : أن يتشاغل بتحسين خطه عن العلم ، فمن هٰذا الوجه صار برداءة خطِّه سعيداً وإنْ لم تكن رداءةُ الخطِّ سعادةً .

وإذا كان ذلك كذلك . . فقد يعرض للخطِّ أسبابٌ تمنع من قراءته ومعرفته ؛ كما يعرض للكلام أسبابٌ تمنع من فهمه وصحّته .

والأسباب المانعة من قراءة الخط وفهم ما تضمَّنه قد تكون من ثمانية أوجه :

أحدها : إسقاط ألفاظٍ من أثناء الكلام يصيرُ الباقي بها مبتوراً ؛ لا يُعرَف استخراجه ، ولا يُفهَم معناه ، وهٰذا يكون إمَّا من سهو الكاتب ، وإمَّا من فساد نقله .

وهٰذا يسهل استنباطه علىٰ مَن كان مُرتاضاً بذلك النوع ، فيستدلُّ بحواشي الكلام وما سلم منه علىٰ ما سقط أو فسد ، لا سيَّما إذا قلَّ ؛ لأنَّ الكلمةَ تستدعي ما يليها ، ومعرفةُ المعنىٰ توضح عن الكلام المترجِم عنه ما شذَّ من ألفاظه .

فأمّا مَن كان قليلَ الارتياض بذلك النوع . . فإنَّه يصعب عليه استنباط المعنىٰ منه ، لا سيَّما إذا كان كثيراً ؛ لأنَّه يحتاج في فهم المعاني إلى الفكر والروِيّة فيما قد أهمله في الكِتْبةِ ، وإذا هو لم يعرف تمام الكلام المترجِم عن المعنىٰ . . قصر فهمه عن إدراكه ، وضلَّ فكره عن استنباطه .

والوجه الثاني : زيادة ألفاظ في أثناء الكلام يُشكل بها معرفةُ الصحيح غير الزائد وتمييزه من السقيم الزائد ، فيصير الكلُّ مشكلاً ، وهٰذا لا يكاد يوجد كثيراً ، إلا أن يقصدَ الكاتب تعميةَ كلامه ، فيدخلَ في أثنائه ما يمنع من فهمه ، فيصيرُ ذلك رمزاً يُعرف بالمواضعة .

فأمّا وقوعُه سهواً . . **فقد يكون بالكلمة والكلمتين** ، وذلك **لا يمنع من فهمه** على المُرتاض وغيره .

والوجه الثالث : إسقاط حروف من أثناء الكلمة **تمنع من استخراجها على الصحّة** ، وقد يكون هـٰذا **تارةً من السهو** فيقلُّ ، **وتارةً من ضعف الهجاء فيكثرُ** ، والقول فيه كالقول في الوجه الأول .

والوجه الرابع : زيادة حروف في أثناء الكلمة **يشكل بها معرفةُ الصحيح من حروفها** ، وهـٰذا يكون **تارةً من سهو الكاتب** فيقلُّ ، ولا يمنع من استخراج الصحيح ، ويكون **تارةً لتعميةٍ ومُواضعةٍ** يقصد بها الكاتبُ إخفاءَ غرضه فيكثرُ كالتراجم ، ويكون القول فيه كالقول في الوجه الثاني .

والوجه الخامس : وصل الحروف المفصولة وفصل الحروف الموصولة ؛ **فيدعو ذلك إلى الإشكال** ؛ لأنَّ الكلمة ينبِّه عليها وصلُ حروفها ، ويمنع فصلُها من مشاركة غيرها .

فإنْ كان ذلك من سهو . . قلَّ وسهل استخراجُه ، **وإنْ كان ذلك من قلَّةِ معرفةٍ بالخطِّ أو مَشْقاً تسبق به اليدُ** . . كثر فصعب استخراجه ، **إلا على المُرتاض به** ؛ ولذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (**شرُّ الكتابة المَشْقُ ؛ كما شرُّ القراءة الهَذْرَمةُ**)[1] .

وإن كان للتعمية والرمز . . لم يُعرَف إلا بالمُواضعة .

والوجه السادس : تغيير الحروف عن أشكالها ، وإبدالها بأغيارها ، حتىٰ يكتب الحاء علىٰ شكل الباء ، والصاد علىٰ شكل الراء ، **وهـٰذا يكون في رموز التراجم** ، لا يوقف عليه إلا بالمُواضعة ، إلا لمَن زاد فيه الذكاء فقدر على استخراج المُعمَّىٰ .

والوجه السابع : ضعف الخطِّ عن تقويم الحروف على الأشكال الصحيحة ، وإثباتُها على الأوصاف الخفيّة ، **حتىٰ لا تكادُ الحروفُ تمتاز عن أغيارها** ، فتصير

---

(١) رواه الخطيب في « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » (١/ ٤٠٣) ، **والمشق** : سرعة الكتابة .

العين الموصولة كالفاء ، والمفصولة كالحاء ، وهٰذا يكون من رداءة الخط ، وضعف اليد .

واستخراجُ ذلك ممكنٌ بفضل المُعاناة وشدّة التأمُّل وإنْ كان ربما أضجرَ قارئه ، وأوهىٰ مُعانيَه ؛ ولذلك قيل : (إن الخطَّ الحسنَ ليزيد الحقَّ وضوحاً)[1] .

والوجه الثامن : إغفال النَّقْط والشَّكْل اللذين تتميز بهما الحروف المشتبهة ، وهٰذا أيسرُ أمراً ، وأخفُّ حالاً ؛ لأنَّ مَن كان متميِّزاً بصحّة الاستخراج ومعرفة الخطِّ . . لم تخفَ عليه معرفةُ الخطِّ وفهمُ ما تضمَّنه مع إغفال النَّقط والشَّكل .

بل قد استقبح ذلك الكُتَّابُ في المكاتبات ، ورأَوه من تقصير فهم الكاتب ، أو سوء ظنِّه بفهم المكاتَب ، وكان استقباحُهم له في مكاتَبة الرؤساء أكثرَ .

وقد حكىٰ قدامة بن جعفر : أنَّ بعض كتَّاب الدواوين حاسب عاملاً ، فشكا العامل منه إلىٰ عبيد الله بن سليمان ، وكتب رقعةً يذكر فيها احتجاجاً لصحّة دعواه ، ووضوح شكواه ، فوقَّع فيها عبيد الله بن سليمان : (هٰذا هذا) ، فأخذها العامل وقرأها ، فظنَّ أنَّ عبيدَ الله أراد : (هٰذا هٰذا) إثباتاً لصحّة دعواه وصدق قوله ؛ كما يقال في إثبات الشيء : (هو هو) ، فحمل الرُّقعةَ إلىٰ كاتب الديوان وأراه خط عبيد الله ، وقال : إنَّ عبيد الله قد صدَّق قولي ، وصحَّح ما ذكرتُ ، فخفي على الكاتب ذلك ، وأُطيف به علىٰ كتَّاب الدواوين ، فلم يقفوا علىٰ مراد عبيد الله ، فرُدَّ إليه ليُسأَلَ عن مراده ، فشدَّد عبيد الله الكلمة الثانية ، وكتب تحتها : (واللهُ المستعانُ) استعظاماً منه لتقصيرهم في استخراج مراده حتى احتاج إلىٰ إبانته بالشكل[2] .

فهٰذه حال الكتَّاب في استقباحهم إعجام المكاتبات بالنَّقط والشَّكل .

---

(١) أورده في « نهاية الأرب » (٧/ ١٤) ، و« صبح الأعشىٰ » (٣/ ٢٠) من قول سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

(٢) القصة في « زهر الأكم » (٢/ ٢١٥) ، وهذا ـ الثانية ـ بالقصر : أي : هذَّاءٌ ؛ بالمد .

فأمّا غيرُ المكاتبات من سائر العلوم . . فلم يرَوه قبيحاً ، بل استحسنوه ، لا سيَّما في كتب الأدب التي يُقصد بها معرفة صيغة الألفاظ وكيفية مخارجها ؛ مثل كتب النحو واللغة والشعر الغريب ، فإنَّ الحاجةَ إلىٰ ضبطها بالشكل والإعجام أكثرُ ، وهي فيما سواه من العلوم أيسرُ ، وقد قال الثوريُّ : (الخُطوطُ المُعجَمة كالبُرود المُعلَمة)[1] .

وقال بعض البلغاء : (إعجام الخطِّ يمنع من استعجامه ، وشكلُه يؤمِن من إشكاله)[2] .

وقال بعض الأدباء : (ربَّ علمٍ لم تُعجَم فصوله ، فاستعجم محصولُه)[3] .

وكما استقبح الكتّابُ الشَّكْلَ والإعجامَ في المكاتَبات وإنْ كان في كتب العلوم مستحسناً . . فكذلك استحسنوا مَشْقَ الخطِّ في المكاتَبات وإنْ كان في كتب العلوم مستقبحاً .

وسببُ ذلك : أنَّهم لفرط إدلالهم بالصنعة وتقدُّمهم في الكتابة يكتفون بالإشارة ، ويقتصرون على التلويح ، ويرَون الحاجة إلى استيفاء شروط الإبانة تقصيراً ، ولفضل ما يعتقدونه من التقدُّم بهـٰذه الحال رأَوا ما نبَّه عليه سوادُ المداد أثراً جميلاً ، وعلى الفضل والتخصُّص دليلاً .

حُكي : أنَّ عبيد الله بن سليمان رأىٰ علىٰ بعض ثيابه أثرَ صُفْرة ، فأخذ من مِداد الدَّواة فطلاه به ، ثم قال : (المِدادُ بنا أحسنُ من الزَّعفران) ، وأنشد : [من الخفيف]

إنَّمـا الـزعفـرانُ عِطْـرُ العَـذارىٰ   ومِـدادُ الـدُّوِيِّ عِطْـرُ الـرِّجـالِ[4]

فهـٰذه جملة كافية في الإبانة عن الأسباب المانعة من فهم الكلام ومعرفة

---

(١) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص١٥٩) ، و« صبح الأعشىٰ » (٣/١٤٩) دون نسبة .
(٢) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص١٥٩) ، و« زهر الآداب » (١/١٤٤) .
(٣) أورده في « صبح الأعشىٰ » (٣/١٤٩) ، من قول أبي مالك الحضرمي ، و« زهر الأكم » (٢/٢١٦) .
(٤) أورده في « زهر الأكم » (٢/٢٢٣) .

معانيه ؛ لفظاً كان أو خطّاً ، والله وليُّ التوفيق لما يحبُّه ويرضاه .

فينبغي لطالب العلم أن يكشف عن الأسباب المانعة إنْ تعذَّر عليه فهم المعنىٰ ؛ ليسهلَ عليه الوصول إليه ، **ثم يكون من بعد ذلك سائساً لنفسه** ، مدبِّراً لها في حال تعلُّمه ؛ **فإنَّ للنفس نُفوراً يفضي إلىٰ تقصير** ، ووفُوراً يؤول إلىٰ سَرَف ، وقيادُها عسِرٌ ، **ولها أحوال ثلاث** : فحال عدلٍ وإنصاف ، وحال غلوٍّ وإسراف ، وحال تقصيرٍ وإجحاف .

فأمّا حالُ العدل والإنصاف : فهي أن تختلف قوى النفس من جهتين متقابلتين ؛ طاعةٍ مُسعِدة ، وشفقةٍ كافّة ، **فطاعتها تمنع من التقصير ، وشفقتها تصدُّ عن السَّرَف** ، وهـٰذه أحمدُ الأحوال ؛ لأنَّ ما مُنع من التقصير نامٍ ، وما صُدَّ عن السَّرَف مستديم ، **والنموُّ إذا استدام** . . **فأَخلِقْ به أن يستكملَ** !!

وقال بعض الحكماء : (**إيّاك ومفارقةَ الاعتدال** ؛ فإنَّ المسرفَ مثلُ المقصِّر في الخروج عن الحدّ) .

وأمّا حالُ الغُلوِّ والإسراف : فهي أن تختصَّ النفس بقوى الطاعة ، وتعدمَ قوى الشفقة ، **فيبعثها اختصاص الطاعة** علىٰ إفراغ الجهد ، **ويفضي بها إفراغ الجهد** إلىٰ عجز الكَلال ، **ويؤدِّيها عجز الكَلال** إلى التَّرك والإهمال ، **فتصير الزيادة نقصاناً ، والربح خسراناً** .

وقد قالت الحكماء : (**طالبُ العلم وعاملُ البِرِّ كآكل الطعام** ؛ إنْ أخذ منه قُوتاً . . عصمه ، وإنْ أسرف فيه . . أبشمه ؛ وربَّما كان فيه منيّتُه[1] ، **وكآخذ الأدوية التي القصدُ فيها شفاءٌ** ، ومجاوزة الحدِّ فيها السمُّ المُمِيتُ)[2] .

وأمّا حالُ التقصير والإجحاف : فهي أن تختصَّ النفس بقوى الشفقة ، وتعدم قوى الطاعة ، **فيدعوها الإشفاق إلى المعصية** ، **وتمنعها المعصية** من الإجابة ،

---

(١) **أبشمه الطعام** : أتخمه ، وقد يقتله من شدة الانتفاخ .
(٢) أورده في « عيون الأخبار » (١/ ٣٢٧) .

فلا تطلب شارداً ، ولا تقبل عائداً ، ولا تحفظ مستودَعاً ، ومَن لم يطلب الشاردَ ، ويقبل العائدَ ، ويحفظ المستودَعَ . فقد الموجودَ ، ولم يجد المفقودَ ، ومَن فقد ما وجد . . فهو مصابٌ محزون ، ومَن لم يجد ما فقد . . فهو خائبٌ مغبون .

وقد قال بعض الحكماء : (العجزُ مع الواني ، والفوتُ مع التواني)(١) .

وقد يكون للنفس مع الأحوال الثلاث حالتان مشتركتان بغلبة إحدى القوتين ، فيكون للنفس طاعةٌ وإشفاقٌ ، وأحدهما أغلبُ من الآخر ؛ فإنْ كانت الطاعةُ أغلبَ . . كانت إلى الوُفور المجاوِز أميَلَ ، وإن كان الإشفاقُ أغلبَ . . كانت إلى التقصير المقصِّر به أقربَ .

فإذا عرف من نفسه قدرَ طاعتها ، وخَبِرَ منها كُنْهَ شفقتها . . راضَ نفسه لتثبتَ علىٰ أحمدِ حالاتها .

وقد أشار إلىٰ ما وصفناه من حال النفس الفرزدقُ في قوله(٢) : [من الطويل]

لكلِّ امرىءٍ نفسانِ نفسٌ كريمةٌ ... وأخرىٰ يُعاصِيها الفتىٰ ويُطِيعُها
ونفسُكَ من نفسَيكَ تشفَعُ للنَّدىٰ ... إذا قلَّ من أحرارِهِنَّ شفيعُها

فإنْ أهمل سياستَها ، وأغفل رياضتَها ، ورام أن يأخذَها بالعنف ، ويقهرها بالعَسف . . استشاطت نافرةً ، ولَجَّت معانِدةً ، فلم تنقَدْ إلىٰ طاعة ، ولم تنكفَّ عن معصية .

وقد قال سابق البربريّ : [من البسيط]

إذا زجرتَ لَجوجاً زدتَه علَقاً ... ولجَّتِ النفسُ منه في تماديها
فعُدْ عليه إذا ما نفسُهُ جمحَتْ ... باللِّينِ منكَ فإن اللِّينَ يثنيها

فإنِ استصعب عليه قِيادُ نفسه ، ودام منه نفورُ قلبه مع سياستهما ومعاناة رياضتهما . . تركهما تركَ إراحةٍ ، ثم عاودهما بعد الاستراحة ، فإنَّ إجابتَهما

---

(١) الواني : اسم فاعل من ونى الرجل : إذا فتر ولم يجِدَّ في العمل ، والتواني : الكسل .
(٢) البيتان في « ديوانه » (٢/ ٣٨) .

تسرع ، وطاعتهما ترجع ، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « إن القلبَ يموتُ ويحيا ولو بعدَ حينٍ » .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : (للقلوب شهوةٌ وإقبالٌ ، وفترةٌ وإدبارٌ ؛ فأتُوها من قِبَل شهوتها ، ولا تأتوها من قِبَل فترتها)[1] .

وقد قال الشاعر[2] : [من الطويل]

وما سُمِّيَ الإنسانُ إلا لأُنْسِهِ ولا القلبُ إلا أنَّه يتقلَّبُ

فأمّا الشروطُ التي يتوفَّر بها علم الطالب ، وينتهي معها كمال الراغب ، مع ما يُلاحظ به من التوفيق ، ويُمدُّ به من المعونة . . فتسعة شروط :

أحدها : العقل الذي يدرك به حقائقَ الأمور .

والثاني : الفطنة التي يتصوَّر بها غوامضَ العلوم .

والثالث : الذكاء الذي يستقرُّ به حفظُ ما تصوَّره ، وفهمُ ما علمه .

والرابع : الشهوة التي يدوم بها الطلب ، ولا يسرع إليه المللُ .

والخامس : الاكتفاء بمادة تغنيه عن كُلَف الطلب .

والسادس : الفراغ الذي يكون معه التوفُّر ، ويحصل به الاستكثار .

والسابع : عدم القواطع المذهلة ؛ من همومٍ وأشغال وأمراض .

والثامن : طول العمر واتساع المدّة ؛ لينتهي بالاستكثار إلىٰ مراتب الكمال .

والتاسع : الظفر بعالم[3] سمح بعلمه ، متأتٍّ في تعليمه[4] .

---

(١) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (١/ ١٣٤) ، والخطيب في « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » (١/ ٥١٩) .

(٢) أورد البيت في « سراج الملوك » (٢/ ٧٢٣) .

(٣) هنا تبدأ النسخة (ب) .

(٤) متأتٍّ : مترفق ، وفي (د) : (متأنٍّ) .

وإذا استكمل هـٰذه الشروطَ التسعةَ . . فهو أسعدُ طالبٍ ، وأنجحُ متعلِّمٍ .

وقد قال الإسكندر : (يحتاج طالب العلم إلىٰ أربع : مدّة ، وجِدَة ، وقريحة ، وشهوة) ، وتمامها في الخامسة : معلِّمٌ ناصحٌ .

فَصْلٌ
[في آداب المتعلِّم]

وسأذكر طرفاً مما يتأدَّب به المتعلِّم ، ويكون عليه العالم :

اعلم : أن للمتعلم في زمان تعلُّمه ملَقاً وتذلُّلاً[1] ، إن استعملهما.. غنم ، وإن تركهما.. ندم وحُرم ؛ لأنَّ التملُّقَ للعالم يُظهر مكنونَ علمه ، والتذلُّلَ له سببٌ لإدامة صبره ، وبإظهار مكنونه تكون الفائدة ، وباستدامة صبره يكون الإكثار .

وقد روىٰ معاذ بن جبل ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « ليس من أخلاقِ المؤمنِ الملَقُ إلاّ في طلَبِ العلمِ »[2] .

وقد قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : (ذللتُ طالباً ، فعززتُ مطلوباً)[3] .

وقال بعض الحكماء : (مَن لم يحتمل ذلَّ التعلُّم ساعةً.. بقي في ذلِّ الجهل أبداً)[4] .

وقال بعض حكماء الفرس : (إذا قعدتَ وأنت صغيرٌ حيثُ تحبُّ.. قعدتَ وأنت كبيرٌ حيثُ لا تحبُّ)[5] .

ثم ليعرف له فضل علمه ، وليشكر له جميل فعله ؛ فقد روت عائشة رضي الله تعالىٰ عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « من وقَّرَ عالماً.. فقد وقَّرَ ربَّه عز وجل »[6] .

---

(١) المَلَق : الزيادة في التودد ؛ ليستخرج من الإنسان مراده .
(٢) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٤٥٢٢) .
(٣) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (١٦٣٥) .
(٤) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص١٦٥) ، و« زهر الآداب » (١/ ٣٧٤) .
(٥) أورده ابن أبي الحديد في « شرح نهج البلاغة » (٢٠/ ٣٠٠) .
(٦) أورده الديلمي في « الفردوس » (٥٦٢٧) .

وقال عليُّ بن أبي طالب رضي الله تعالىٰ عنه : (**لا يعرفُ فضلَ أهل الفضلِ إلا أهلُ الفضلِ**)[1] .

وقال بعض الشعراء[2] : [من الكامل]

أكــــرمْ طبيبَـــكَ إنْ أردتَ دواءَهُ ... وكـــذا المعلِّـــمَ إنْ أردتَ تعلُّمـــا
إنَّ المعلِّــمَ والطبيــبَ كــلاهمــا ... لا يَنصحـانِ إذا همـا لـم يُكـرَمـا
فاصبرْ لدائكَ إنْ جفَوتَ طبيبَهُ ... واصبرْ لجهلكَ إنْ جفَوتَ معلِّما

ولا يمنعْه من ذلك علوُّ منزلةٍ ـ إنْ كانت له ـ وإن كان العالم خاملاً ؛ فإنَّ العلماء بعلمهم استحقُّوا التعظيمَ ، لا بالقدرة والمال .

وأنشدني بعض أهل الأدب لأبي بكر بن دريد[3] : [من المنسرح]

لا تَحقـرَنْ عـالمـاً وإنْ خلَقَـتْ ... أثـــوابُـــهُ فـــي عُيـــونِ رامقِـــهِ
وانظـر إليـهِ بعيـنِ ذي خطَـرٍ ... مُهَـذَّبِ الـرأيِ فـي طـرائقِـهِ
فـالمِسْـكُ بَيْنـا تـراهُ ممتَهَنـاً ... بفِهْـرِ عَطّـارِهِ وسـاحِقِـهِ
حتـىٰ تـراه بعـارِضَـي مَلِـكٍ ... أو مَـوضـعِ التـاجِ مـن مَفـارِقِـهِ

وليكنْ مقتدياً بهم في رضيِّ أخلاقهم ، متشبِّهاً بهم في جميل أفعالهم ؛ ليصير لها آلفاً ، وعليها ناشئاً ، ولِمَا خالفها مُجانباً ؛ فقد قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « **خيارُ شبابكم المتشبِّهون بشيوخكم** ، وشرُّ شيوخكم المتشبِّهون بشبابكم »[4] .

---

(١) أورده في « شرح نهج البلاغة » (٢٠/ ٢٧٧) ، وقال بديع الزمان : (من المتقارب)

مـــدحـــت الأميـــر وأيـــامـــه ... فضـــاءت وجـــوهٌ وسيئـــت وجـــوه
وهـــل يجحـــد الشمـــس إلا العمـــيُّ ... وهـــل يعـــرف الفضـــل إلا ذووه

(٢) البيتان الأخيران في « التمثيل والمحاضرة » (ص١٦٤) ، و« محاضرات الأدباء » (١/ ١٠٨) ، والبيت الأول زيادة من (ج ، د) .

(٣) الأبيات في « ديوانه » (ص٩٨) ، والفِهْر : الحجر قدر ما يدقّ به الجوز ونحوه .

(٤) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٧٤١٩) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه .

وروى ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « مَن تشبَّهَ بقومٍ . . فهو منهم »[1] .

وأنشدني بعض أهل الأدب لأبي بكر بن دريد[2] : [من الرجز]

العالمُ العاقلُ ابنُ نفسهِ أغناهُ جنسُ علمهِ عن جنسِهِ
كُنِ ابنَ مَن شئتَ وكنْ مُؤدَّباً فإنَّما المرءُ بفضلِ كَيْسِهِ
وليس مَن تكرمُهُ لغيرِهِ مثلَ الذي تكرمُهُ لنفسِهِ

وليحذرِ المتعلِّمُ التبسُّطَ علىٰ مَن يُعلِّمه وإنْ آنسَه ، والإدلالَ عليه وإنْ تقدَّمت صحبتُه ، فقد قيل لبعض الحكماء : (مَن أذلُّ الناسِ ؟ فقال : عالمٌ يجري عليه حكمُ جاهلٍ)[3] .

وكلَّمتْ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم جاريةٌ من السَّبْي ، فقال لها : « مَن أنتِ ؟ » فقالت : بنتُ الرجل الجواد حاتم ، فقال صلى الله عليه وسلم : « ارحَمُوا عزيزَ قومٍ ذلَّ ، ارحَمُوا غنياً افتقر ، ارحَمُوا عالماً ضاع بين الجُهّال »[4] .

ولا يُظهرْ له الاستكفاءَ منه والاستغناءَ عنه ؛ فإنَّ في ذلك كفراً لنعمته ، واستخفافاً بحقِّه .

وربَّما وجد بعض المتعلِّمين قوّةً في نفسه ؛ لجُودة ذكائه وحِدَّة خاطره ، فقصد مَن يعلِّمه بالإعنات له ، والاعتراض عليه ؛ إزراءً به ، وتبكيتاً له ، فيكون كمَن تقدَّم فيه المثل السائر لأبي البطحاء[5] : [من الوافر]

فيا عجَبًا لمَن ربَّيتُ طفلاً أُلقِّمُهُ بأطرافِ البَنانِ

---

(١) رواه أبو داوود (٤٠٣١) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (١١٥٤) .
(٢) الأبيات في « ديوانه » (ص٧٠) .
(٣) أورده في « البيان والتبيين » (١/ ٢٥٣) ، و« ثمار القلوب » (٢/ ٩٤٦) من قول ثمامة بن الأشرس .
(٤) أورده في « المستطرف » (١/ ٥١٤) ، والمرفوع رواه الخطيب في « الفقيه والمتفقه » (١/ ١٦٦) ، والشهاب القضاعي في « مسنده » (٧٣٤) .
(٥) الأبيات أوردها الجاحظ في « المحاسن والأضداد » (ص٤١) ، وفي (د) : (فلما اشتدَّ) .

أُعلِّمُهُ الرمايةَ كلَّ يومٍ ... فلمّا استدَّ ساعدُهُ رماني
وكم علَّمتُهُ نَظْمَ القَوافي ... فلمّا قال قافيةً هجاني
أُعلِّمُهُ الفتوَّةَ كلَّ يومٍ ... فلمّا طال شاربُهُ جفاني

وهٰذا من مصائب العلماء وانعكاس حظوظهم أنْ يصيروا عند مَن علَّموه مستجهَلين ، وعند مَن قدَّموه مسترذَلين ، وقد قال صالح بن عبد القدوس[1] : [من الطويل]

وإنَّ عناءً أنْ تُعلِّمَ جاهلاً ... فيحسبَ جهلاً أنَّه منكَ أفهمُ
متىٰ يبلغُ البنيانُ يوماً تمامَهُ ... إذا كنتَ تبنيهِ وغيرُكَ يهدِمُ
متىٰ ينتهي عن سيِّئٍ مَن أتىٰ به ... إذا لم يكنْ منهُ عليهِ تندُّمُ

وقد رجَّحَ كثيرٌ من الحكماء حقَّ العالم علىٰ حقِّ الوالد ، حتىٰ قال بعض شعرائهم : [من المنسرح]

يا فاخراً للسَّفاهِ بالسَّلَفِ ... وتاركاً للعَلاءِ والشَّرَفِ
آباءُ أجسادنا هُمُ سَبَبٌ ... لأنْ جُعِلْنا عَوارضَ التَّلَفِ
مَن علَّمَ الناسَ كانَ خيرَ أبٍ ... ذاكَ أبو الرُّوحِ لا أبو النُّطَفِ

ولا ينبغي له : أنْ يبعثَه معرفةُ الحقِّ له علىٰ قبول الشُّبَه منه ، ولا يدعوه تركُ الإعنات له على التقليد فيما أخذ عنه ؛ فإنَّه ربَّما غلا بعضُ الأتباع في عالِمهم حتىٰ يروا أنَّ قوله دليلٌ وإن لم يستدلَّ ، وأنَّ اعتقاده حجّةٌ وإن لم يحتجَّ ، فيفضي بهم الأمر إلى التسليم له فيما أخذوا عنه ، ويؤول به ذلك إلى التقصير فيما يصدر منه ؛ لأنَّه يجتهد بحسَب اجتهاد مَن يأخذ عنه ؛ فلا يبعد أن تبطل تلك المقالةُ إن انفردت ، أو تُخرج أهلَها من عداد العلماء فيما شاركت ؛ لأنَّه قد لا يرىٰ لهم مَن يأخذ عنهم ما كانوا يرونه لمن أخذوا عنه ، فيطالبَهم بما قصَّروا فيه ، فيضعفوا عن إثباته ، ويعجزوا عن نصرته ، فيذهبوا ضائعين ، ويصيروا عجزةً مضعوفين .

ولقد رأيتُ من هٰذه الطبقة رجلاً يناظر في مجلسٍ حَفْلٍ وقد استدلَّ الخصمُ

---

(١) الأبيات في « ديوانه » (ص١١٧) .

عليه بدلالةٍ صحيحة ، فكان جوابه عنها أنْ قال : **هٰذه دلالةٌ فاسدة ، ووجه فسادها** : أنَّ شيخي لم يذكرها ، وما لم يذكره الشيخ . . فلا خير فيه ، فأمسك عنه المستدِلُّ تعجُّباً ؛ **لأنَّ شيخه كان محتشماً وقد حضرت طائفةٌ يرون فيه مثلَ رأي هٰذا الجاهل** ، ثم أقبل المستدِلُّ عليَّ وقال لي : **والله ؛ لقد أفحمني بجهله** .

وصار سائر الناس المبرَّئين من هٰذه الجهالة من بين مستهزِئٍ ومتعجب ، ومستعيذٍ بالله من جهلٍ مُغربٍ ، **فهل رأيت كذلك علماً أدخلَ في الجهلِ ، أو أدلَّ علىٰ قلّة العقل ؟!**

وإذا كان المتعلِّم معتدلَ الرأي فيمَن يأخذ عنه ، متوسِّطَ الاعتقاد فيمَن يتعلَّم منه ، حتىٰ لا يحملُه الإعنات على اعتراض المبكِّتين ، ولا يبعثُه الغلوُّ علىٰ تسليم المقلِّدين . . **برىء المتعلِّم من المَذمَّتَين** ، وسلم العالم من الهُجْنَتَين .

وليس كثرة السؤال فيما ألبس إعناتاً ، ولا قبول ما صحَّ في النفس تقليداً ، وقد روي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « **العلمُ خزائنُ ، ومفاتيحُه المسألةُ** ، فاسألوا رحمَكم الله ، **فإنَّما يُؤجَرُ في العلم ثلاثة** : القائلُ ، والمستمعُ ، والآخذُ »[1] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « **هلاّ سألُوا إذْ لم يعلموا ؛ فإنَّما شِفاءُ العِيِّ السؤالُ ؟!** »[2] فأمر صلى الله عليه وسلم بالسؤال ، وحثَّ عليه .

ونهىٰ آخرين عن السؤال وزجر عنه ، فقال صلى الله عليه وسلم : « **أنهاكم عن قيلَ وقالَ ، وكثرةِ السؤالِ** ، وإضاعةِ المالِ »[3] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « **إياكم وكثرةَ السؤال** ؛ فإنَّما هلك مَنْ قبلَكم بكثرة السُّؤالِ »[4] .

---

(١) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٣/ ١٩٢) ، والخطيب في « الفقيه والمتفقه » (٢/ ٦١) عن سيدنا علي كرم الله وجهه .

(٢) رواه أبو داوود (٣٣٧) ، وابن ماجه (٥٧٢) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

(٣) رواه البخاري (٦٤٧٣) ، ومسلم (٥٩٣) عن سيدنا المغيرة بن شعبة رضي الله عنه .

(٤) رواه مسلم (١٣٣٧) ، والترمذي (٢٦٧٩) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه بنحوه .

وليس هٰذا مخالفاً للأول ؛ وإنَّما أمر بالسؤال مَن قَصد به عِلْمَ ما جَهِل ، ونهىٰ عنه مَن قصدَ به إعناتَ ما سمِع ، وإذا كان السؤال في موضعه . . أزال الشكوكَ ، ونفى الشُّبَهَ .

وقد قيل لابن عباسٍ رضي الله عنهما : بمَ نلتَ هٰذا العلمَ ؟ فقال : (بلسانٍ سَؤُولٍ ، وقلب عَقُولٍ)[١] .

وروىٰ نافع ، عن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « حُسنُ السؤالِ نصفُ العلم »[٢] .

وأنشد المبرّد عن أبي سليمان الغَنَويّ : [من الكامل]

فسَلِ الفقيهَ تكنْ فقيهاً مثلَهُ ... لا خيرَ في علمٍ بغير تدبُّرِ
وَإذا تعسَّرَتِ الأمورُ فأَرْجِها ... وعليكَ بالأمر الذي لم يَعسُرِ

وليأخذ المتعلِّمُ حظَّه ممَّن وجد طَلِبتَه عنده من نبيهٍ وخامل ، ولا يطلب الصِّيتَ وبُعدَ الذِّكر باتِّباع أهل المنازل من العلماء إذا كان النفعُ بغيرهم أعمَّ ، إلاَّ أن يستويَ النفعان ، فيكون الأخذُ عمَّن اشتهر ذكرُه وارتفع قدرُه أَولىٰ ؛ لأنَّ الانتساب إليه أجمل ، والأخذ عنه أشهر .

وقد قال الشاعر[٣] : [من الطويل]

إذا أنتَ لم يشهَرْكَ علمُكَ لم تجِدْ ... لعلمِكَ إنساناً منَ الناسِ يقبَلُهْ
وإنْ صانَكَ العلمُ الذي قد حملتَهُ ... أتاكَ له مَن يجتنيه ويحمِلُهْ

وإذا قرُبَ منك العلمُ . . فلا تطلبْ ما بعُدَ ، وإذا تسهَّل عليك من وجهٍ . . فلا تطلبْ ما صعُبَ ، وإذا حمدت مَن خبرتَه . . فلا تطلب مَن لم تخبره ؛ فإنَّ العدول عن القريب إلى البعيد عناء ، وترك الأسهل بالأصعب بلاء ، والانتقال عن المخبور إلىٰ غيره خطر .

---

(١) رواه الإمام أحمد ابن حنبل في « فضائل الصحابة » (١٩٠٣) ، والجريري في « الجليس الصالح » (٣/ ٣٤٨) .
(٢) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٦١٤٨) ، والخطيب في « الفقيه والمتفقه » (٢/ ٦٤) .
(٣) البيتان لمحمود الورّاق في « ديوانه » (ص١٧٥) .

وقد قال علي بن أبي طالب عليه السلام : (عُقبى الأخرق مَضرَّة ، والمتعسِّف لا تدوم له مَسرّة)[1] .

وقال بعض الحكماء : (القصدُ أسهلُ من التعسُّف ، والكفُّ أودعُ من التكلُّف)[2] .

وربَّما تتبَّعتْ نفسُ الإنسان مَنْ بعد عنه استهانةً بمَن قرب منه ، وطلبَ ما صعب احتقاراً لما سهل عليه ، وانتقل إلىٰ مَن لم يخبره ملَلاً لمَن خبره ، فلا يدرك محبوباً ، ولا يظفر بطائل .

وقد قالت العرب في أمثالها : (إنَّ العالمَ كالحَمَّةِ ؛ يأتيها البُعَداءُ ، ويزهد فيها القُرَباءُ)[3] .

وأنشدني بعض شيوخنا لمسبِّح بن حاتم : [من الخفيف]

لا تـرىٰ عـالمـاً يحُـلُّ بقـومٍ ... فيُحلُّـوه غيـرَ دارِ الهَـوانِ
قلَّما تُـوجَـدُ السلامـةُ والصحّـ ... ـةُ مجمـوعتَيـنِ فـي إنسـانِ
فـإذا حَلَّتـا مكـانـاً سحيقـاً ... فهُمـا فـي النُّفـوسِ معشُـوقتـانِ
هـٰذهِ مكّـةُ المَنيعـةُ بيـتُ اللـ ... ـهِ يَسعـىٰ لحَجِّهـا الثَّقَـلانِ
وتـرىٰ أزهـدَ البَـريّـةِ فـي الحَـجِّ ... لهـا أهلَهـا لقُـرْبِ المَكـانِ

---

(1) ذكره المناوي في « فيض القدير » (٢/ ٥٤٥) .
(2) أورده في « الموشىٰ » (ص٢١٤) .
(3) أورده القاسم بن سلام في « الأمثال » (ص٢٠٧) ، والحمّة : العين الحارّة يستشفي بها الأعلاّء والمرضىٰ .

فَصْلٌ
[في آداب العالم]

فأمَّا ما يجب أن يكون عليه العلماء من الأخلاق التي هي بهم أليقُ ، ولهم ألزمُ . . فالتواضعُ ، ومجانبة العُجْب ؛ لأنَّ التواضعَ عَطوفٌ ، والعُجْبَ منفِّرٌ ، **وهو بكلِّ أحدٍ قبيحٌ ، وبالعلماء أقبحُ** ؛ لأنَّ الناس بهم يقتدون .

وكثيراً ما يتداخلهم الإعجاب ؛ لتوحُّدهم بفضيلة العلم ، **ولو أنهم نظروا حقَّ النظر** ، وعملوا بموجَب العلم . . **لكان التواضعُ بهم أَولىٰ** ، ومُجانبةُ العُجْبِ بهم أَحرىٰ ؛ **لأنَّ العُجْبَ نقصٌ ينافي الفضلَ** ، لا سيَّما مع قول النبيِّ صلى الله عليه وسلم : « **إنَّ العُجْبَ لَيأكُلُ الحسناتِ كما تأكُلُ النارُ الحطَبَ** »[1] ، **فلا يفي** ما أدركوا من فضيلة العلم بما لحقهم من نقص العُجْب .

وقد روىٰ عبد الله بن عمرٍو رضي الله تعالىٰ عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **قليلُ الفقهِ خيرٌ من كثير العبادةِ ، وكفىٰ بالمرء علماً إذا** عبدَ اللهَ تعالىٰ ، **وكفىٰ بالمرء جهلاً إذا أُعجِب برأيه** »[2] .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالىٰ عنه : (**تعلَّموا العلمَ ، وتعلَّموا للعلم السكينةَ والحلمَ** ، وتواضعوا لمَن تتعلَّمون منه ، ولْيتواضَعْ لكم مَن تعلِّمونه ، **ولا تكونوا من جبابرة العلماء فلا يقومَ علمُكم بجهلكم**)[3] .

وقال بعض السلف : (**مَن تكبَّر بعلمه وترفَّعَ . . وضعه الله به** ، ومَن تواضع بعلمه . . رفعه الله تعالىٰ)[4] .

وعلّةُ إعجابهم : انصرافُ نظرهم إلىٰ كثرة مَنْ دونهم من الجهَّال ، وانحرافُ

---

(١) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٦٨٦١) من قول يحيى بن معاذ رحمه الله .

(٢) رواه الطبراني في « الأوسط » (٨٦٩٣) ، والبيهقي في « المدخل » (٤٥٣) .

(٣) رواه أحمد في « الزهد » (٦٣٠) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (١٦٥١) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (١١٩٧) .

(٤) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ١٦٦) من قول ابن المعتز .

نظرهم عمَّن فوقهم من العلماء ؛ فإنَّه ليس مُتناهٍ في العلم إلا وسيجد مَن هو أعلمُ منه بشيء ؛ إذ العلم أكثرُ من أن يحيط به بشرٌ ، قال الله تعالىٰ : ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾ يعني : في العلم ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ قال أهل التأويل : (يعني : فوق كلِّ عالمٍ مَن هو أعلمُ منه ، حتىٰ ينتهي ذلك إلى الله تعالىٰ)[1] .

وقيل لبعض الحكماء : (مَن يعرف كلَّ العلمِ ؟ قال : كلُّ الناس)[2] .

وقال الشعبي : (ما رأيتُ مثلي ، وما أشاءُ أن أَلقىٰ رجلاً أعلمَ منِّي إلا لقيتُه)[3] ، ولم يذكر الشعبيُّ هـٰذا القول تفضيلاً لنفسه فيُستقبحَ منه ، وإنَّما ذكره تعظيماً للعلم عن أن يُحاط به .

فينبغي لمَن علم : أن ينظر إلىٰ نفسه بنقص ما قصَّر فيه ؛ ليسلم من عُجْب ما أدرك منه ، فقد قيل في منثور الحكم : (إذا علمتَ . . فلا تفكِّرْ في كثرةِ مَنْ دونَك من الجهَّال ؛ ولـٰكن انظر مَن فوقك من العلماء)[4] .

وأُنشِدتُ لابن العميد[5] : [من البسيط]

مَن شاء عَيشاً حميداً يستفيدُ به ... في دينـهِ ثـمَّ فـي دنيـاه إقبـالا
فلْينظـرَنَّ إلـىٰ مَـن فـوقَـه أدبـاً ... ولْينظـرَنَّ إلـىٰ مَـن دونَـه مـالا

وقلَّما تجد بالعلم معجَباً ، وبما أدركه منه مفتخراً إلا مَن كان فيه مُقِلاًّ ومقصِّراً ؛ لأنَّه يجهل قدره ، ويحسب أنَّه قد نال بالدخول فيه أكثرَه ، فأمّا مَن كان فيه متوجِّهاً ، ومنه مستكثراً . . فهو يعلم من بُعد غايته ، والعجز عن إدراك نهايته ما يصدُّه عن العُجب به .

وقد قال الشعبيُّ : (العلمُ ثلاثة أشبار : فمَن نال منه شبراً . . شمخ بأنفه ،

---

(١) رواه الطبري في « تفسيره » (٨/١٣/٣٥) .
(٢) ذكره المناوي في « فيض القدير » (٤/٣٨٧) .
(٣) أورده في « عيون الأخبار » (١/٢٧٥) ، و« جامع بيان العلم وفضله » (١/٥٣٤) .
(٤) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص١٦٧) ، و« زهر الآداب » (١/٣٧٥) من قول ابن المعتز .
(٥) أورد البيتين في « التكملة لكتاب الصلة » (١/٧٩) من شعر ابن العميد ، وهما في « ديوان أبي الفتح البستي » (ص٢٨٤) ، وانظر « يتيمة الدهر » (٤/٣٧٨) .

وظنَّ أنَّه ناله ، ومَن نال **الشبرَ الثانيَ** . . صغرت إليه نفسه ، وعلم أنّه ما ناله ، **وأمّا الشبرُ الثالث** . . فهيهات ، لا يناله أحد أبداً)[1] .

* * *

وممّا أُنذرك به من حالي : أنني صنَّفتُ في البيوع كتاباً ، **جمعتُ فيه ما استطعتُ** من كتب الناس ، وأجهدت فيه نفسي ، وكددت فيه خاطري ، **حتىٰ إذا تهذَّب واستكمل** ، وكدت أُعجَب به ، وتصوَّرت أنني أشدُّ الناس اضطلاعاً بعلمه . . **حضرني وأنا في مجلسي أعرابيّان** ، فسألاني عن بيعٍ عقداه في البادية علىٰ شروطٍ تضمَّنت أربع مسائل ، لم أعرف لشيءٍ منها جواباً ، **فأطرقتُ مفكِّراً ، وبحالي وحالهما معتبِراً** .

فقالا : **ما عندك فيما سألناك جوابٌ وأنت زعيمُ هٰذه الجماعة ؟!**

فقلت : لا .

فقالا : **إيهاً لك** . وانصرفا .

ثم أتيا مَن قد يتقدَّمه في العلم كثيرٌ من أصحابي ، فسألاه فأجابهما مسرعاً بما أقنعهما ، وانصرفا عنه راضيَين بجوابه ، مادحَينِ لعلمه ، **فبقيت مرتبكاً وبحالهما وحالي معتبِراً** ، وإنِّي لَعلىٰ ما كنت عليه في تلك المسائل إلىٰ وقتي .

فكان ذلك زاجر نصيحة ، ونذير عظة ، تذلَّل لهما قيادُ النفس ، **وانخفض بهما جناح العُجب** ؛ توفيقاً مُنحته ، ورشداً أُوتيته ، **وحقٌّ علىٰ مَن ترك العُجب بما يُحسن أنْ يدع التكلُّفَ لما لا يحسن** ، فقديماً نُهي الناس عنهما ، واستعاذوا باللهِ منهما .

ومن أوضح ذلك بياناً : استعاذةُ الجاحظ في كتاب « البيان » حيث يقول : **(اللهمَّ ؛ إنّا نعوذ بك من فتنة القول** ؛ كما نعوذ بك من فتنة العمل ، **ونعوذ بك من التكلُّف لما لا نحسن** ؛ كما نعوذ بك من العجب بما نُحسن ، **ونعوذ بك من شرِّ السَّلاطة والهذَر** ؛ كما نعوذ بك من شرِّ العِيِّ والحَصَر)[2] .

---

(١) ذكره المناوي في « فيض القدير » (٤/ ٣٨٧) .
(٢) البيان والتبيين (١/ ٣) ، **والسلاطة** : حدة اللسان ، **والهذر** : كثرة الكلام من غير فائدة .

ونحن نستعيذ اللهَ مثلَ استعاذته ؛ فليس لمَن تكلَّف ما لا يُحسن غايةٌ ينتهي إليها ، ولا حدٌّ يقفُ عنده ، ومَن كان تكلُّفه غير محدود . . فأخلِقْ به أنْ يَضلَّ وأنْ يُضلَّ !!

وقد روي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « مَن سُئل فأفتىٰ بغير علم . . فقد ضلَّ وأضلَّ »[1] .

وقال بعض الحكماء : (من العلم ألاَّ تتكلَّمَ فيما لا تعلم بكلامِ مَن يعلم ، فحسبُكَ خجلاً من عقلك أنْ تنطقَ بما لا تفهم) .

ولقد أحسن زيادة بن زيد حيث يقول[2] : [من الطويل]

إذا ما انتهىٰ عِلْمي تناهيتُ عندَهُ ... أطالَ فأملَىٰ أو تناهَىٰ فأقصرَا

ويُخبِرُني عن غائبِ المرءِ فعلُهُ ... كفَى الفعلُ عمّا غيَّبَ المرءُ مُخبِرَا

وإذا لم يكن إلى الإحاطة بالعلم كلِّه سبيلٌ . . فلا عارَ أن يجهل بعضه ، وإذا لم يكن في جهل بعضه عارٌ . . لم يقبح به أن يقول : (لا أعلمُ) فيما ليس يعلم .

وقد روي أنَّ رجلاً قال : يا رسول الله ؛ أيُّ البقاعِ خيرٌ ، وأيُّ البقاعِ شرٌّ ؟ فقال : « لا أدري حتىٰ أسألَ جبريلَ »[3] .

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام : (وا بَرْدَها على القلب !! إذا سُئل أحدكم عمّا لا يعلم أن يقول : الله أعلم)[4] فإنَّ العالمَ مَن عرف أنَّ ما يعلم فيما لا يعلم قليلٌ .

---

(١) رواه البخاري (١٠٠) ، ومسلم (٢٦٧٣) عن سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاصي رضي الله عنهما .

(٢) البيتان في « خزانة الأدب » (١١/ ١٧٤) ، والأول في « كتاب سيبويه » (٣/ ١٨٥) ، وفي النسخ : (زرارة بن زيد) .

(٣) رواه ابن حبان في « صحيحه » (١٥٩٩) ، والحاكم في « المستدرك » (٢/ ٨) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

(٤) رواه الدارمي في « مسنده » (١٨١) ، والخطيب في « الفقيه والمتفقه » (٢/ ٣٦٢) .

وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : (**إذا ترك العالم قولَ : « لا أدري » . . أُصِيبَت مَقاتلُه**)[1] .

وقال بعض العلماء : (**هلَك مَن « لا أدري » ترَك**) .

وقال بعض الحكماء : (**ليس لي من فضيلة العلم إلا علمي بأنْ لستُ أعلمُ**)[2] .

وقال آخر : (لولا أنَّ [في] قولي : « لا أعلمُ » تثبيتاً لأنْ أعلمَ . . لقلتُ : « لا أعلمُ »)[3] .

وقال بعض البلغاء : (**مَن قال : « لا أدري » . . عُلِّم فدرىٰ ، ومَن انتحل ما لا يدري . . أُهمِلَ فهوىٰ**) .

ولا ينبغي ـ وإن صار في طبقة العلماء الأفاضل ـ أن يستنكف من تعلُّم ما ليس عنده ؛ ليسلمَ من التكلُّف له ، فقد قال عيسى ابن مريم عليه السلام : (**يا صاحبَ العلم ؛ تعلَّمْ من العلم ما جهلت ، وعلِّم الجهّالَ ما علمت**)[4] .

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام : (**خمسٌ خُذوهنَّ عنِّي ، فلو ركبتم فيهن الفُلْكَ . . ما وجدتموهنَّ إلا عندي : ألا لا يرجُوَنَّ أحدٌ إلا ربَّه ، ولا يخافَنَّ إلا ذنبَه ، ولا يستنكفْ أن يتعلَّمَ ما ليس عنده ، وإذا سُئل عمَّا لا يعلم . . فليقل : « لا أعلمُ » ، ومنزلةُ الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد**)[5] .

وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : (**لو كان أحدٌ مكتفياً من العلم . .**

---

(١) رواه البيهقي في « المدخل إلى السنن الكبرىٰ » (٨١٣) ، والخطيب في « الفقيه والمتفقه » (٢/٣٦٦) .

(٢) أورده في « عيون الأخبار » (٢/١٢٦) ، و« المجالسة وجواهر العلم » (١٨٨٠) .

(٣) أورده في « عيون الأخبار » (٢/١٢٦) ، و« البصائر والذخائر » (٩/٨٧) من قول أفلاطون .

(٤) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٨/٦٨) .

(٥) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٦٤٥) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٢/٥١٠) ، ولا يستنكف : لا يستكبر .

لاكتفىٰ منه موسىٰ عليه السلام لمَّا قال : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾)[1] .

وقيل للخليل بن أحمد رحمه الله تعالىٰ : (بِمَ أدركتَ هٰذا العلمَ ؟ قال : كنت إذا لقيتُ عالماً . . أخذتُ منه ، وأعطيتُه)[2] .

وقال بُزُرْجُمِهْرَ : (من العلم : ألا تحقر شيئاً من العلم ، ومن العلم : تفضيل جميع العلم) .

وقال المنصور لشريكٍ : (أنَّىٰ لك هٰذا العلمُ ؟ قال : لم أرغب عن قليلٍ أستفيده ، ولم أبخل بكثير أُفيده)[3] .

علىٰ أنَّ العلم يقتضي ما بقي منه ، ويستدعي ما تأخَّر عنه ، وليس للراغب فيه قناعةٌ ببعضه .

وروىٰ عون بن عبد الله ، عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالىٰ عنه أنَّه قال : (منهومانِ لا يشبعان : طالبُ علم ، وطالبُ دنيا ؛ أمّا طالب العلم . . فإنَّه يزداد للرحمـٰن رضاً ، ثمَّ قرأ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ ، وأمّا طالب الدنيا . . فإنَّه يزداد طغياناً ، ثمَّ قرأ : ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾)[4] .

وليكنْ مستقلاً للفضيلة منه ليزداد منها ، ومستكثراً للنقيصة فيه لينتهي عنها ، ولا يقنعْ في العلم بما أدرك منه ؛ لأنَّ القناعة فيه زهد ، والزهد فيه ترك ، والترك له جهل .

وقد قال بعض الحكماء : (عليك بالعلم والإكثار منه ؛ فإنَّ قليله أشبهُ شيءٍ بقليل الخير ، وكثيره أشبهُ شيءٍ بكثيره ، ولن يعيب الخيرَ إلا القلّةُ ، فأمّا كثرتُه . . فإنَّها أُمنيةٌ) .

---

(١) أورده ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١/ ٤١٩) من قول قتادة .

(٢) أورده في « الموشىٰ » (ص١٢) ، و« ربيع الأبرار » (٤/ ١٠٣) .

(٣) أورده في « البصائر والذخائر » (٥/ ٣٠) .

(٤) رواه الدارمي في « مسنده » (٣٤٤) ، والآجري في « أخلاق العلماء » (ص٦٨) ، وقوله : (منهومان لا يشبعان . . . دنيا) رواه الحاكم في « المستدرك » (١/ ٩٢) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٩٧٩٨) عن أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعاً .

وقال بعض البلغاء : (من فضل علمك استقلالُك لعلمك ، ومن كمال عقلك استظهارُك علىٰ عقلك) .

ولا ينبغي أن يجهل من نفسه مبلغ علمها ، ولا أن يتجاوز بها قدر حقها ، ولأنْ يكون بها مقصِّراً فيذعنَ بالانقياد . . أَولىٰ من أن يكون بها مُجاوزاً فيكفَّ عن الازدياد ؛ لأنَّ مَن جهل حال نفسه . . كان لغيرها أجهلَ .

وقد قالت عائشة رضي الله تعالىٰ عنها : يا رسولَ الله ؛ متىٰ يعرف الإنسانُ ربَّه ؟ فقال : « إذا عرفَ نفسَه »[1] .

❁ ❁ ❁

وقد قسم الخليل بن أحمد أحوالَ الناس فيما علموه وجهلوه أربعةَ أقسامٍ متقابلة لا يخلو حال الإنسان منها ، فقال : (الرجال أربعةٌ : رجلٌ يدري ويدري أنَّه يدري ، فذاك عالمٌ فاسألوه ، ورجلٌ يدري ولا يدري أنَّه يدري ، فذاك ناسٍ فذكِّروه ، ورجلٌ لا يدري ويدري أنَّه لا يدري ، فذاك مسترشدٌ فعلِّموه - وفي رواية أخرىٰ : فذلك لا عالم يُسأل ، ولا جاهل يُرفض - ورجلٌ لا يدري ولا يدري أنَّه لا يدري ، فذاك جاهلٌ فارفضوه)[2] .

وأنشد أبو القاسم الآمديّ[3] : [من الطويل]

إذا كنتَ لا تدري ولم تكُ بالذي	تسائلُ مَن يدري فكيفَ إذاً تدري
جهِلْتَ ولم تعلَمْ بأنَّكَ جاهلٌ	فمَن لي بأنْ تدري بأنَّكَ لا تدري
إذا جئتَ في كلِّ الأمور بغُمّةٍ	فكن هٰكذا أرضاً يطأْكَ الذي يدري
ومِن أعجبِ الأشياءِ أنَّكَ لا تدري	وأنَّكَ لا تدري بأنَّكَ لا تدري

(١) ليس بحديث ؛ وإنما هو لفظ محكي عن يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله تعالى . انظر « قواطع الأدلة » (٢/ ٦٠) ، « المسائل المنثورة » (ص٢٤٨) .

(٢) أورده في « عيون الأخبار » (٢/ ١٢٦) ، و« الجليس الصالح » (٣/ ١٥٠) ، وأخرجه بسنده في « تهذيب الكمال » (٨/ ٣٢٨) .

(٣) هو الحسن بن بشر بن يحيى المتوفىٰ (٣٧٠هـ) ، صاحب « المؤتلف والمختلف » ، والبيتان الأولان للخليل بن أحمد في « ديوانه » (ص١٠) .

وليكنْ من شيمته العملُ بعلمه ، وحثُّ النفس علىٰ أن تأتمر بما يأمر به ، ولا يكنْ ممَّن قال الله تعالىٰ فيه : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ ، وقد قال قتادة في قول الله تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ ﴾ : (يعني : إنّه لعاملٌ بما علم)[١] .

وروي أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « ويلٌ لأقماع القول ، ويلٌ للمُصرِّين »[٢] يريد : الذين يستمعون القولَ ولا يعملون به .

وروىٰ عبد الله بن وهب عن سفيان : أنَّ الخضر قال لموسىٰ عليهما السلام : (يا بنَ عمرانَ ؛ تعلَّم العلمَ لتعملَ به ، ولا تتعلَّمه لتحدِّثَ به ؛ فيكونَ عليك بُورُه ، ولغيرك نورُه)[٣] .

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام : (إنَّما زهد الناسُ في طلب العلم ؛ لما يرَون من قلّة انتفاع مَن علم بما علم)[٤] .

وقال أبو الدرداء رضي الله تعالىٰ عنه : (أخوَفُ ما أخاف إذا وقفتُ بين يدي الله تعالىٰ أن يقول : قد علمتَ ، فماذا عملتَ إذ علمتَ ؟)[٥] .

---

(١) رواه الطبري في « تفسيره » (٨/١٣/٢١) ، والبخاري في « صحيحه » (كتاب تفسير القرآن ـ سورة يوسف ٦/٧٦) معلقاً .

(٢) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٦٨٤٤) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٣٨٠) عن سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، وأقماع القول ـ جمع قِمع ـ : الإناء الذي يُجعل في رأس الظرف ليملأ بالمائع ؛ فقد شبَّه استماع من لا يعي ولا يعمل به بالأقماع التي لا تعي شيئاً مما يفرغ فيها .

(٣) رواه الخطيب في « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » (١/١٤١) ، والطبراني في « المعجم الأوسط » (٦٩٠٨) من حديث سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، عليك بوره ـ بضم الباء ـ مصدر يستوي فيه الجمع والمفرد ، والمذكر والمؤنث ، ومعناه : الهلاك والفساد ، والأرض البور : الأرض الميتة التي لا شيء فيها .

(٤) أورده الخطيب في « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » (١/٦٣٠) ، ورواه في « الجامع » (١/٤٠٢) ، والطبراني في « المعجم الأوسط » (٢٤٩٢) عن سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما مرفوعاً .

(٥) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٧٤١) ، والبيهقي في « المدخل إلى السنن الكبرىٰ » (٢/٥٧) .

وكان يقال : (خيرٌ من القول فاعلُه ، وخيرٌ من الصواب قائلُه ، وخيرٌ من العلم حاملُه)[1] .

وقيل في منثور الحكم : (لم ينتفعْ بعلمه مَن ترك العملَ به) .

وقال بعض العلماء : (ثمرةُ العلم العملُ به ، وثمرةُ العمل به أن يُؤجَرَ عليه)[2] .

وقال بعض الصلحاء : (العلمُ يهتف بالعمل ؛ فإنْ أجابه ، وإلا . . ارتحلَ)[3] .

وقال بعض الحكماء : (خيرُ العلم ما نفع ، وخيرُ القول ما ردع)[4] .

وقال بعض الأدباء : (ثمرةُ العلوم العملُ بالمعلوم)[5] .

وقال بعض البلغاء : (من تمام العلم استعمالُه ، ومن تمام العمل استقلالُه ، فمَن استعمل علمَه . . لم يخلُ من رشاد ، ومَن استقلَّ عملَه . . لم يقصر عن مراد) .

وقال أبو تمام الطائي[6] : [من الطويل]

ولم يَحمدوا من عالم غيرِ عاملٍ خلاقاً ولا من عاملٍ غيرِ عالمِ
رأَوا طُرُقاتِ المجد عُوجاً قطيعةً وأقطعُ عجزٍ عندهم عجزُ حازمِ

ولأنَّه لمَّا كان علمُه حجّةً علىٰ مَن أخذه عنه واقتبسه منه ، حتىٰ يلزمُه العملُ به والمصيرُ إليه . . كان عليه أحجَّ ، وله ألزمَ ؛ لأنَّ مرتبة العمل قبل مرتبة القول ، كما أنَّ مرتبة العلم قبل مرتبة العمل .

---

(١) أورده في « التذكرة الحمدونية » (١/ ٢٧٦) من قول محمد بن علي بن موسىٰ بنحوه .
(٢) أورده في « يتيمة الدهر » (٤/ ٢٢٦) من قول أبي بكر الخوارزمي بنحوه .
(٣) أورده في « عيون الأخبار » (٢/ ١٢٥) من قول سفيان الثوري رحمه الله .
(٤) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٤٤٥٢) من قول سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بنحوه .
(٥) أورده في « المستطرف » (١/ ٨٦) .
(٦) البيتان في « ديوانه » بشرح التبريزي (٣/ ٢٥٩) .

وقد قال أبو العتاهية[1] : [من مجزوء الكامل]

اسمَـعْ إلـى الأحكـام تحـ ـمِلُهـا الـرُّواةُ إليـكَ عنكـا
واعلَـمْ هُـدِيـتَ بـأنَّهـا حُجَـجٌ تكـرُّ إليـكَ منكـا

ثم ليجتنبْ أن يقول ما لا يفعل ، أو يأمر بما لا يأتمر ، وأن يُسِرَّ غير ما يظهر ، ولا يجعلْ قولَ الشاعر[2] : [من البسيط]

اعمَلْ بقولي وإنْ قصَّرتُ في عمَلي ينفعْكَ قولي ولا يضرُرْكَ تقصيري

عذراً له في تقصيرٍ يضرُّه وإنْ لم يضرَّ غيرَه ؛ فإنَّ أعذار النفس تغريها ، وتحسِّن لها مَساويها ، وإنَّ مَن قال ما لا يفعل.. فقد مَكَر ، ومَن أمر بما لا يأتمر.. فقد خَدَع ، ومَن أسرَّ غير ما يُظهر.. فقد نافق .

وقد روي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « المكرُ والخديعةُ وصاحباهما في النار »[3] .

علىٰ أنَّ أمره بما لا يأتمر به مُطَّرِحٌ ، وإنكاره ما لا ينكره من نفسه مُستقبَح ، بل ربَّما كان ذلك سبباً لإغراء المأمور بترك ما أُمر به عناداً ، وارتكابِ ما نُهي عنه كياداً .

حكي : أنَّ أعرابياً أتى ابنَ أبي ذئبٍ فسأله عن مسألة طلاق ، فأفتاه بطلاق زوجته ، فقال : انظر حسناً ، قال : قد نظرتُ ، وقد بانت منك ، فولَّى الأعرابيُّ وهو يقول[4] : [من الطويل]

أتيتُ ابنَ ذئبٍ أبتغي الفقهَ عندَهُ فطلَّـق حِبِّـي البَـتَّ بُتَّـتْ أنـاملُـهْ
أُطلِّقُ في فتيا ابنِ ذئبٍ حَليلتي وعنـدَ ابـنِ ذئـبٍ أهلُـهُ وحَـلائلُـهْ

فظنَّ بجهله : أنَّه لا يلزمُه الطلاق بقول مَن لم يلتزم الطلاق ، فما ظنُّك بقولٍ

---

(١) البيتان في « ديوانه » (ص٥٩٣) .

(٢) البيت للخليل بن أحمد في « ديوانه » (ص١١) .

(٣) رواه بنحوه الحاكم في « المستدرك » (٦٠٧/٤) عن سيدنا أنس رضي الله عنه ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٤٨٨٧) عن سيدنا قيس بن سعد رضي الله عنه .

(٤) أورد القصة مع البيتين في « محاضرات الأدباء » (٤٣٨/٣) .

يجب اشتراك الآمر والمأمور فيه ، كيف يكون مقبولاً منه وهو غير عاملٍ به ، ولا قابلٍ له ؟ كلا .

وقد قال أحمد بن يوسف[1] : [من المنسرح]

وعـامـلٍ بـالفُجـور يـأمُرُ بـالْـ ... ـبـرِّ كهـادٍ يخـوضُ فـي الظُّلَـمِ
أو كطبيـبٍ قـد شفَّـهُ سَقَـمٌ ... وَهْـوَ يُـداوي مـن ذلـكَ السَّقَـمِ
يـا واعـظَ النـاسِ غيـرَ مُتَّعـظٍ ... ثـوبَـكَ طَهِّـرْ أوْ لا فَـلا تَلُـمِ

وقال آخر : [من الكامل]

عَـوِّدْ لسـانَـكَ قلَّـةَ اللفـظِ ... واحفـظْ كـلامَـكَ أيَّمـا حفـظِ
إيّـاكَ أن تعـظَ الـرجـالَ وقـدْ ... أصبحـتَ مُحتـاجـاً إلـى الـوعـظِ

فأمّا الانقطاعُ عن العلم إلى العمل ، أو الانقطاعُ عن العملِ إلى العلم إذا عمل بموجَب العلم . . فقد حُكي عن الزهري فيه ما يغني عن تكلُّف غيره ؛ وهو أنَّه قال : (العلم أفضل من العمل به لمَن جهل ، والعمل أفضل من العلم لمن علم)[2] .

فأمّا فضلُ ما بين العلم والعبادة إذا لم يخلَّ بواجب ، ولم يقصِّر في فرضٍ . . فقد روىٰ جابر بن عبد الله عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « يُبعَثُ العالمُ والعابدُ ، فيقال للعابد : ادخلِ الجنةَ ، ويقال للعالم : اتَّئدْ حتىٰ تشفعَ للناس »[3] .

ومن آداب العلماء : ألا يبخلوا بتعليم ما يُحسنون ، ولا يمتنعوا من إفادة ما يعلمون ؛ فإنَّ البخل به لؤمٌ وظلم ، والمنع منه حسدٌ وإثم ، وكيف يسوغ لهم

---

(١) الأبيات في « الأغاني » (٢٧/ ٩٢٦٧) ، و« زهر الآداب » (١/ ٤٣٩) .

(٢) رواه البيهقي في « المدخل إلى السنن الكبرىٰ » (٢/ ٤٣) ، والعلم فرض عين وفرض كفاية ، ومستحب وفضيلة ، وكذلك الأعمال ، فالعلم الذي هو فرض عين أفضل من العمل الذي هو فرض عين ، وذلك العمل أفضل لمن علم مما هو فرضٌ على الكفاية من العلم ؛ وإلا . . لزم تفضيل الشيء علىٰ نفسه ، وهٰكذا ؛ أي : ما هو كفاية من العلم أفضل من كفاية العمل ، ومستحبه من مستحبه .

(٣) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (١٥٨٨) ، واتَّئدْ : تأنَّ واثبتْ .

البخل بما مُنحوه جوداً من غير بخل ، وأُوتوه عفواً من غير بذل ؟

أم كيف يجوز لهم الشحُّ بما إن بذلوه.. زاد ونما ، وإن كتموه.. تناقص ووهىٰ ؟ ولو استنَّ بذلك مَن تقدَّمهم.. لما وصل العلم إليهم ، ولانقرض عنهم بانقراضهم ، ولصاروا علىٰ مرور الأيام جهّالاً ، وبتقلُّب الأحوال وتناقصها أرذالاً ؛ وقد قال الله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴾ .

وروي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « لا تمنعوا العلمَ أهلَه ؛ فإنَّ في ذلك فساد دينكم ، والتباس بصائركم » ، ثم قرأ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾ .

وروي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « مَن كتم علماً يُحسنه.. ألجمه الله يومَ القيامة بلجامٍ من نارٍ »[1] .

ورُوي عن علي بن أبي طالب عليه السلام أنَّه قال : (ما أخذ الله تعالى العهدَ علىٰ أهل الجهل أن يتعلَّموا ؛ حتىٰ أخذ العهدَ علىٰ أهل العلم أن يُعلِّموا)[2] .

وقال بعض الحكماء : (إذا كان من قواعد الحكمة : بذلُ ما ينقصه البذلُ.. فأَحرىٰ أن يكون من قواعدها : بذلُ ما يزيده البذلُ) .

وقال بعض العلماء : (كما أنَّ الاستفادة نافلةٌ للمتعلِّم ؛ كذلك الإفادةُ فريضةٌ على المعلِّم) .

وقد قيل في منثور الحكم : (مَن كتم علماً.. فكأنَّه جاهلٌ به)[3] .

وقال خالد بن صفوان : (إنِّي لأفرحُ بإفادتي المتعلِّمَ أكثرَ من فرحي باستفادتي من المعلِّم) .

---

(١) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٩٥) ، وأبو داوود (٣٦٥٨) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .
(٢) رواه الجريري في « الجليس الصالح » (٢/ ٨٠) ، وانظر « شرح نهج البلاغة » (٢٠/ ٢٤٧) .
(٣) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص١٦٦) ، و« زهر الآداب » (١/ ٣٧٤) .

ثمَّ له بالتعليم نفعان :

أحدهما : ما يرجوه من ثواب الله تعالىٰ ؛ فقد جعل النبيُّ صلى الله عليه وسلم التعليمَ صدقةً فقال صلى الله عليه وسلم : « **تصدَّقوا علىٰ أخيكم بعلمٍ يُرشدُه ، ورأيٍ يسدِّدُه** » .

وروى ابن مسعود رضي الله عنه ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « **تعلَّموا وعلِّموا ؛ فإنَّ أجرَ العالم والمتعلِّم سواءٌ** » قيل : وما أجرُهما ؟ قال : « **مئةُ مغفرةٍ ، ومئةُ درجةٍ في الجنّة** » .

والنفع الثاني : زيادة العلم ، وإتقان الحفظ ؛ فقد قال الخليل بن أحمد : (**اجعل تعليمَك دراسةً لعلمك** ، واجعل مناظرة المتعلِّم تنبيهاً علىٰ ما ليس عندك)[1] .

وقال ابن المعتز في منثور الحكم : (**النار لا ينقصها ما أُخذ منها** ، ولٰكن يخمدها ألا تجدَ حطباً ؛ **كذلك العلم لا يفنيه الاقتباسُ** ، ولٰكنْ فقدُ الحاملين له سببُ عُدمه)[2] .

فإياك والبخلَ بما تعلمه ، وقال بعض العلماء : (**علِّمْ علمَك ، وتعلَّمْ علمَ غيرك** ؛ فإذا أنت قد علمت ما جهلت ، وحفظت ما علمت)[3] .

***

واعلم أنَّ المتعلِّمين ضربان : مستدعىً ، وطالبٌ .

فأمّا المستدعىٰ إلى العلم : فهو مَنِ استدعاه العالم إلى التعليم ؛ لما ظهر له من جودة ذكائه ، وبان له من قوة خاطره ، **فإذا وافق استدعاءُ العالم شهوة المتعلِّم . كانت نتيجتُها دَرْكَ النُّجَباء ، وظفر السُّعَداء** ؛ لأنَّ العالم باستدعائه متوفِّر ، والمتعلِّم بشهوته مستكثر .

---

(١) أورده في « البيان والتبيين » (١/ ٢٧٤) .
(٢) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص١٦٧) ، و« زهر الآداب » (١/ ٣٧٥) .
(٣) أورده في « البيان والتبيين » (١/ ٢٧٤) ، و« العقد الفريد » (٢/ ٢١٧) .

وأمّا الطالب للعلم : لداعٍ يدعوه وباعث يحدوه :

فإنْ كان الداعي دينياً ، وكان المتعلِّم فطناً ذكياً . . وجب على العالم أن يكون عليه مُقبلاً ، وعلىٰ تعليمه متوفِّراً ، لا يخفي عليه مكنوناً ، ولا يطوي عنه مخزوناً .

وإن كان بليداً بعيد الفطنة . . فينبغي ألا يُمنعَ من اليسير فيُحرمَ ، ولا يُحملَ عليه بالكثير فيُظلمَ ، ولا تُجعلَ بلادتُه ذريعةً لحرمانه ؛ **فإنَّ الشهوةَ باعثةٌ ، والصبر مؤثِّرٌ** ، وقد روي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « **لا تمنعوا العلمَ أهلَه فتَظلِموا ، ولا تضعُوه في غير أهله فتأثَموا** »[1] .

وقال بعض الحكماء : (**لا تمنعوا العلمَ أحداً ؛ فإنَّ العلمَ أمنعُ لجانبه**) .

فأمّا إن لم يكن الداعي دينياً . . نُظر فيه :

فإن كان مباحاً ؛ كرجلٍ دعاه إلىٰ طلب العلم حبُّ النباهة ، وطلبُ الرياسة . . فالقولُ فيه يقارب القول في تعليم مَن قبل ؛ **لأنَّ العلم يعطفه إلى الدين في ثاني الحال وإنْ لم يكن مبتدئاً به في أول حال** .

وقد حكي عن سفيان الثوري أنَّه قال : (**تعلَّمنا العلمَ لغير الله ، فأبىٰ أن يكونَ إلا لله**)[2] .

وقال عبد الله بن المبارك : (**طلبنا العلمَ للدنيا ، فدلَّنا علىٰ ترك الدنيا**)[3] .

وإن كان الداعي محظوراً ؛ كرجلٍ دعاه إلىٰ طلب العلم شرٌّ كامن ، ومكرٌ باطن ، يريد أن يستعملهما في شُبَهٍ دينية ، وحِيَلٍ فقهية ، لا يجد أهلُ السلامة منهما مَخلصاً ، ولا عنهما مَدفعاً ؛ كما قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « **أهلكُ**

---

(١) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (١٦٣٠) ، والدارمي في « مسنده » (٣٩٠) من قول كثير بن مرّة الحضرميّ رحمه الله تعالىٰ .

(٢) رواه في « جامع بيان العلم وفضله » (١/ ٧٥٠) بلفظ : (كنّا نطلب العلم للدنيا ، فجرَّنا إلى الآخرة) . ولفظ المصنف رواه البيهقي في « المدخل إلى السنن الكبرىٰ » (٢/ ٧٦) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٩/ ٤١٧) من قول معمر بن راشد رحمه الله تعالىٰ .

(٣) ذكره ابن خلكان في « وفيات الأعيان » (٣/ ٣٤) .

أمَّتي رجلان : عالمٌ فاجر ، وجاهلٌ متعبِّد »[1] ، وقيل : يا رسولَ الله ؛ أيُّ الناسِ شرٌّ ؟ فقال : « العلماءُ إذا فسدوا »[2] . . فينبغي للعالم : إذا رأىٰ مَن هـٰذه حالُه . . أن يمنعه من طَلِبته ، ويصرفه عن بغيته ، ولا يعينه علىٰ إمضاء مكره ، وإعمال شرِّه ؛ فقد روىٰ أنس بن مالك رضي الله عنه ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « واضعُ العلمِ في غيرِ أهلِهِ كمُقلِّدِ الخنازيرِ اللؤلؤَ والجوهرَ والذهبَ »[3] .

وقال عيسى ابن مريم عليه السلام : (لا تقلِّدوا اللؤلؤَ للخنزير ؛ فالعلمُ أفضل من اللؤلؤ ، ومَن لا يستحقُّه شرٌّ من الخنزير)[4] .

وحكي : أن تلميذاً سأل عالماً عن بعض العلوم فلم يُفِدْه ، فقيل له : (لمَ منعتَه ؟ فقال : لكلِّ تربةٍ غرسٌ ، ولكلِّ بناءٍ أُسٌّ)[5] .

وقال بعض البلغاء : (لكلِّ ثوبٍ لابسٌ ، ولكلِّ علمٍ قابسٌ)[6] .

وقال بعض الأدباء : (ارْثِ لروضةٍ توسَّطها خنزيرٌ ، وابْكِ لعلمٍ حَواه شرِّيرٌ)[7] .

وينبغي أن تكون للعالم فراسةٌ يتوسَّم بها المتعلِّمَ ؛ ليعرف بها مبلغَ طاقته ، وقدرَ استحقاقه ؛ ليعطيه قدرَ ما يحتملُه بذكائه ، أو لا يضعفُ عنه ببلادته ؛ فإنَّه أروحُ للعالم ، وأنجح للمتعلِّم .

وقد روىٰ ثابت ، عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنَّ لله عباداً يعرفون الناسَ بالتوسُّم »[8] .

---

(١) أورده ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١/ ٦٦٦) .
(٢) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٧/ ٦) من قول سفيان الثوري رحمه الله تعالىٰ ، و« جامع بيان العلم وفضله » (١/ ٦٦٩) مرفوعاً مرسلاً .
(٣) رواه ابن ماجه (٢٢٤) .
(٤) رواه الإمام أحمد ابن حنبل في « الزهد » (٤٧٩) .
(٥) أورده في « محاضرات الأدباء » (١/ ٩٢) من قول أفلاطون .
(٦) أورد أوّله الدميري في « حياة الحيوان الكبرىٰ » (٣/ ٦٧٢) من كلام الجاحظ .
(٧) ذكره في « فتح المغيث » (٣/ ٢٢٧) ، لـٰكن بلفظ : (ارث لرومية) .
(٨) رواه الشهاب القضاعي في « مسنده » (١٠٠٥) ، والطبراني في « المعجم الأوسط » (٢٩٣٥) .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (**إذا أنا لم أعلم ما لم أرَ . . فلا علمتُ ما رأيتُ !!**)[1] .

وقال عبد الله بن الزبير رضي الله تعالىٰ عنه : (**لا عاش بخيرٍ مَن لم يرَ برأيه ما لم يرَ بعينه**)[2] .

وقال ابن الرومي[3] : [من الخفيف]

أَلْمَعِيٌّ يرىٰ بأوَّلِ رأيٍ ... آخِرَ الأمرِ من وراء المَغيبِ
لَوْذَعِيٌّ له فؤادٌ ذكيٌّ ... ما لَهُ في ذكائه من ضَريبِ
لا يُروِّي ولا يُقلِّبُ طَرْفاً ... وأكفُّ الرجالِ في تقليبِ

وإذا كان العالم في توسُّم المتعلِّمين بهٰذه الصفة ، وكان بقدر استحقاقهم خبيراً . . لم يضِعْ له عناءٌ ، ولم يخِبْ علىٰ يده صاحبٌ ، وإن لم يتوسَّمهم وخفيت عليه أحوالهم ومبلغ استحقاقهم . . كانوا وإياه في عناءٍ مُكْدٍ ، وتعبٍ غير مُجْدٍ ؛ لأنَّه لا يعدم أن يكون فيهم ذكيٌّ يحتاج إلى الزيادة ، وبليدٌ يحتاج إلى القليل ، فيضجر الذكيُّ ، ويعجز البليدُ ، ومَن تردَّدَ أصحابُه بين ضجرٍ وعجزٍ . . ملُّوه وملَّهم .

وقد روىٰ عبد الله بن وهب ، عن سفيان ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « قال الخضر لموسىٰ عليهما السلام : **يا طالبَ العلم ؛ إنَّ القائل أقلُّ مَلالةً من المستمع ، فلا تُملَّ جُلَساءَك إذا حدَّثتهم ، يا موسىٰ ؛ واعلم أنَّ قلبك وعاء ، فانظر ما تحشو في وعائك** »[4] .

وقال بعض الحكماء : (**خيرُ العلماء : مَن لا يُقِلُّ ولا يُمِلُّ**) .

وقال بعض العلماء : (**كلُّ علمٍ كثر على السمع ولم يطاوعه الفهمُ . . ازداد به**

---

(١) أورده ابن المعتز في « البديع » (ص٣٧) .
(٢) رواه أبو بكر الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (٦٠٠) ، و« عيون الأخبار » (١/ ٣٤) .
(٣) الأبيات في « ديوانه » (١/ ١٤٢) .
(٤) رواه الطبراني في « المعجم الأوسط » (٦٩٠٨) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٦/ ٤١٤) ؛ لٰكن الحديث فيهما عن سيدنا عمر رضي الله عنه .

القلب عمىً ، وإنَّما ينفع السمع في الآذان . . إذا قوي فهمُ القلوب في الأبدان) .

* * *

وربَّما كان لبعض السلاطين رغبةٌ في العلم ؛ لفضيلة نفسه ، وكرم طبعه ، **فلا يجعلْ ذلك ذريعةً في الانبساط عنده والإدلال عليه** ، بل يعطيه ما يستحقُّه بسلطانه وعلوّ يده ؛ **فإنَّ للسلطان حقَّ الطاعة والإعظام** ، وللعالم حقَّ القَبول والإكرام .

ثم لا ينبغي أن يبتدئه إلا بعد الاستدعاء ، ولا يزيده علىٰ قدر الاكتفاء ؛ فربَّما أحبَّ بعضُ العلماء إظهارَ علمه للسلطان فأكثر ، فصار ذلك ذريعةً إلىٰ ملله ، ومفضياً إلىٰ بُعده ؛ **لأنَّ السلطان متقسِّم الأفكار ، مستوعَب الزمان** ، وليس له في العلم فراغُ المنقطعين إليه ، ولا صبرُ المنفردين به .

وقد حكي عن الأصمعي قال : (قال لي الرشيد : يا عبد الملك ؛ **أنت أعلمُ منّا ، ونحن أعقلُ منك ؛ لا تعلِّمنا في ملأ** ، ولا تسرع إلىٰ تذكيرنا في خلاء ، **واتركنا حتىٰ نبتدئك بالسؤال** ، فإذا بلغت من الجواب حَسْبَ الاستحقاقِ . . **فلا تزدْ إلا أن نستدعي ذلك منك**)[1] .

انظر إلىٰ ما ألطفَ في التأديب ، وأنصفَ في التعليم ، وبلَغ بأوجز لفظٍ غايةَ التقويم !!

وليخرجْ تعليمَه مُخرَجَ المذاكرة والمحاضرة ، لا مُخرَجَ التعليم والإفادة ؛ لأنَّ لتأخير التعلُّم خَجلةَ تقصيرٍ يجلُّ السلطان عنها ؛ فإن ظهر منه خطأٌ أو زللٌ في قولٍ أو عملٍ . . لم يجاهره بالردِّ عليه ، **وعرَّض باستدراك زلله ، وإصلاح خلله** .

حكي : أنَّ عبد الملك بن مروان قال للشعبي : (**كم عطاءَك** ؟ قال : ألفين ، قال : **لحنتَ** !! قال : **لمَّا ترك أمير المؤمنين الإعراب . . كرهتُ أن أُعرب كلامي عليه**)[2] .

ثم ليحذر اتباعَه فيما يجانب الدِّينَ ، ويضادُّ الحقَّ ؛ موافقةً لرأيه ، ومتابعةً

---

(١) أورده في « التذكرة الحمدونية » (١/ ٣٥٣) ، و« نثر الدر » (٣/ ١٠٣) .
(٢) أورده في « العقد الفريد » (٢/ ١٢٥) ، و« مرآة الجنان » (١/ ٢١٦) بين الشعبي والحجاج .

لهواه ، فربَّما زلَّت أقدام العلماء في ذلك ؛ رغبةً أو رهبةً ، فضلُّوا وأضلُّوا .

وقد روى الحسن البصري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تزالُ هٰذه الأمةُ تحتَ يد الله تعالىٰ وفي كَنَفه : ما لم يُمالِ قرّاؤُها أمراءَها ، ولم يُزكِّ صُلَحاؤها فجّارَها ، وما لم يمالِ أخيارُها أشرارَها ، فإذا فعلوا ذلك. . رفع عنهم يدَه ، ثم سلَّط عليهم جبابرتَهم ، فساموهم سوءَ العذاب ، وضربهم بالفاقة والفقر ، وملأ قلوبهم رعباً »[1] .

ومن آدابهم : نزاهة النفس عن شُبَه المكاسب ، والقناعة بالميسور عن كدِّ المطالب ؛ فإنَّ شُبَه المَكسب إثمٌ ، وكدَّ المطلب ذلٌّ ، والأجر أجدرُ به من الإثم ، والعزُّ أحقُّ به من الذلِّ .

أنشدني بعض أهل الأدب لعلي بن عبد العزيز القاضي الجرجاني[2] : [من الطويل]

يقولونَ لي فيكَ انقباضٌ وإنَّما ... رأَوا رجلاً عن مَوقف الذُّلِّ أحجَما
أرى الناسَ مَن داناهُمُ هانَ عندهُمْ ... ومَن أكرمتْهُ عزّةُ النفسِ أُكرِما
ولم أقضِ حقَّ العلمِ إنْ كان كلَّما ... بدا طمعٌ صيَّرْتُهُ ليَ سُلَّما
وما كلُّ برقٍ لاحَ لي يستفزُّني ... ولا كلُّ مَنْ في الأرضِ أرضاهُ مُنعِما
إذا قيلَ هٰذا مَنهلٌ قلتُ قد أَرىٰ ... ولٰكنَّ نفسَ الحرِّ تحتملُ الظَّما
أُنَهنِهُها عن بعضِ ما لا يَشينُها ... مخافةَ أقوالِ العِدا فيمَ أو لِما
ولم أبتذلْ في خدمة العلمِ مُهجتي ... لأَخْدِمَ مَن لاقيتُ لٰكنْ لأُخْدَما
أأشقىٰ به غرساً وأجنيه ذِلّةً ... إذاً فاتِّباعُ الجهلِ قد كان أَحزَما
ولو أنَّ أهلَ العلمِ صانُوه صانَهُمْ ... ولو عظَّموه في النُّفوس لَعُظِّما
ولٰكنْ أهانوه فهانَ ودنَّسُوا ... مُحيّاه بالأطماعِ حتىٰ تجهَّما

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٨٢١) ، وابن أبي الدنيا في « العقوبات » (٤) . وما لم يمالِ : ما لم يوافق ، وفي (هـ) : (ما لم يمارِ) .
(٢) الأبيات في « ديوانه » (ص ١٣٩) .

علىٰ أنَّ العلم عِوضٌ من كلِّ لذَّة ، ومُغنٍ عن كلِّ شهوة ، ومَن كان صادقَ النيّة فيه . . لم يكن له همّةٌ فيما يجد بدّاً منه .

وقد قال بعض الحكماء : (مَن تفرَّد بالعلم . . لم توحشه خَلْوة ، ومَن تسلَّىٰ بالكتب . . لم تفُتْه سَلْوة ، ومَن آنسته قراءة القرآن . . لم توحشه مفارقة الإخوان)[1] .

وقال بعض الحكماء : (لا سميرَ كالعلم ، ولا ظهيرَ كالحلم) .

ومن آدابهم : أن يقصدوا وجهَ الله تعالىٰ بتعليم مَن علَّموا ، ويطلبوا ثوابه بإرشاد مَن أرشدوا ، من غير أن يعتاضوا عنه عِوضاً ، ولا يلتمسوا عليه رزقاً ؛ فقد قال الله تعالىٰ : ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ قال أبو العالية : (لا تأخذوا عليه أجراً ، وهو مكتوب عندهم في الكتاب الأول : يا بنَ آدمَ ؛ علِّم مَجّاناً كما عُلِّمتَ مَجّاناً)[2] .

وروي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « أجرُ المعلِّم كأجر الصائم القائم »[3] ، وحسبُ مَن كان هـٰذا أجرَه أن يلتمس عليه أجراً .

ومن آدابهم : نُصحُ مَن علَّموا ، والرفقُ بهم ، وتسهيلُ السبيل عليهم ، وبذلُ المجهود في رِفْدهم ومعونتهم ؛ فإنَّ ذلك أعظمُ لأجرهم ، وأسنىٰ لذكرهم ، وأنشرُ لمعلومهم ، وأرسخ لعلومهم ، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم : أنَّه قال لعلي بن أبي طالب عليه السلام : « يا عليُّ ؛ لأنْ يهديَ اللهُ بكَ رجلاً . . خيرٌ لكَ مما طلعَتْ عليه الشمسُ »[4] .

---

(١) أورده في « محاضرات الأدباء » (١/ ٦٦) .
(٢) رواه الطبري في « تفسيره » (١/ ١/ ٣٣٣) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١/ ٦٥٨) .
(٣) رواه الخطيب في « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » (١/ ٣٠١) من قول سيدنا علي رضي الله عنه.
(٤) رواه البخاري (٣٠٠٩) ، ومسلم (٢٤٠٦) بنحوه .

ومن آدابهم : ألاَّ يعنِّفوا متعلِّماً ، ولا يحتقروا ناشئاً ، ولا يستصغروا مبتدئاً ؛ فإنَّ ذلك أدعىٰ إليهم ، وأعطفُ عليهم ، وأحثُّ على الرغبة فيما لديهم ، وقد روي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « علِّموا ولا تعنِّفوا ؛ فإنَّ المعلِّمَ خيرٌ من المعنِّف »[1] .

وروي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « وقِّروا مَن تتعلَّمون منه ، ووقِّروا مَن تعلِّمونه »[2] .

ومن آدابهم : ألا يمنعوا طالباً ، ولا ينفِّروا راغباً ، ولا يؤيسوا متعلِّماً ؛ لما في ذلك من قطع الرغبة فيهم ، والزهد فيما لديهم ، واستمرارُ ذلك مفضٍ إلى انقراض العلم بانقراضهم ؛ فقد روي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ألا أنبِّئكم بالفقيه كلِّ الفقيه ؟ » قالوا : بلىٰ يا رسول الله ، قال : « مَن لم يُقنط الناسَ من رحمة الله تعالىٰ ، ولم يُؤيِسْهم من رَوْح الله ، ولا يدَعُ القرآنَ رغبةً إلىٰ ما سواه ، ألا لا خيرَ في عبادةٍ ليس فيها تفقُّهٌ ، ولا علمٍ ليس فيه تفهُّمٌ ، ولا قراءةٍ ليس فيها تدبُّرٌ »[3] .

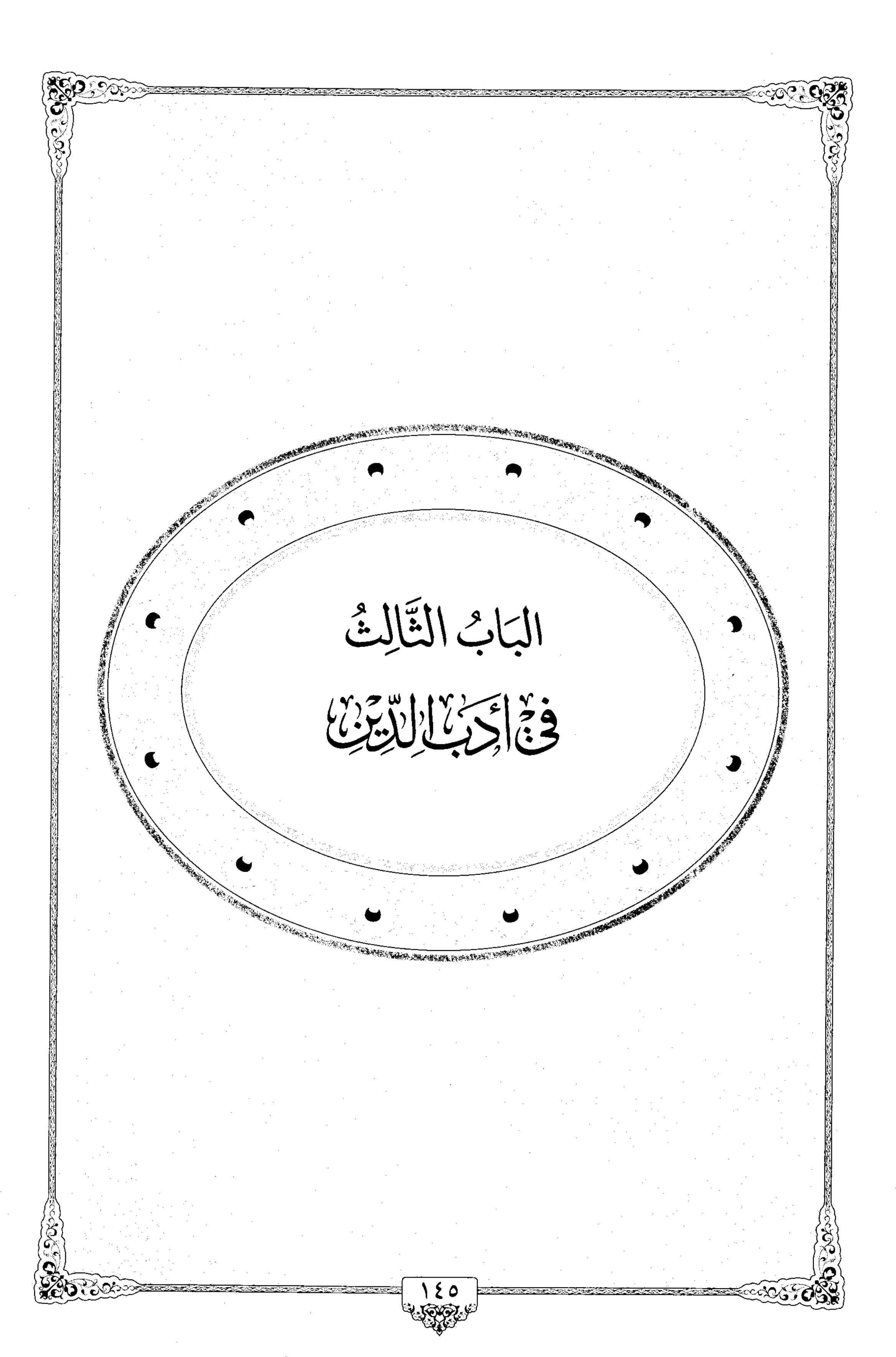
فهـٰذه جملة كافية ، والله وليُّ التوفيق .

---

(١) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (١٦١٤) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

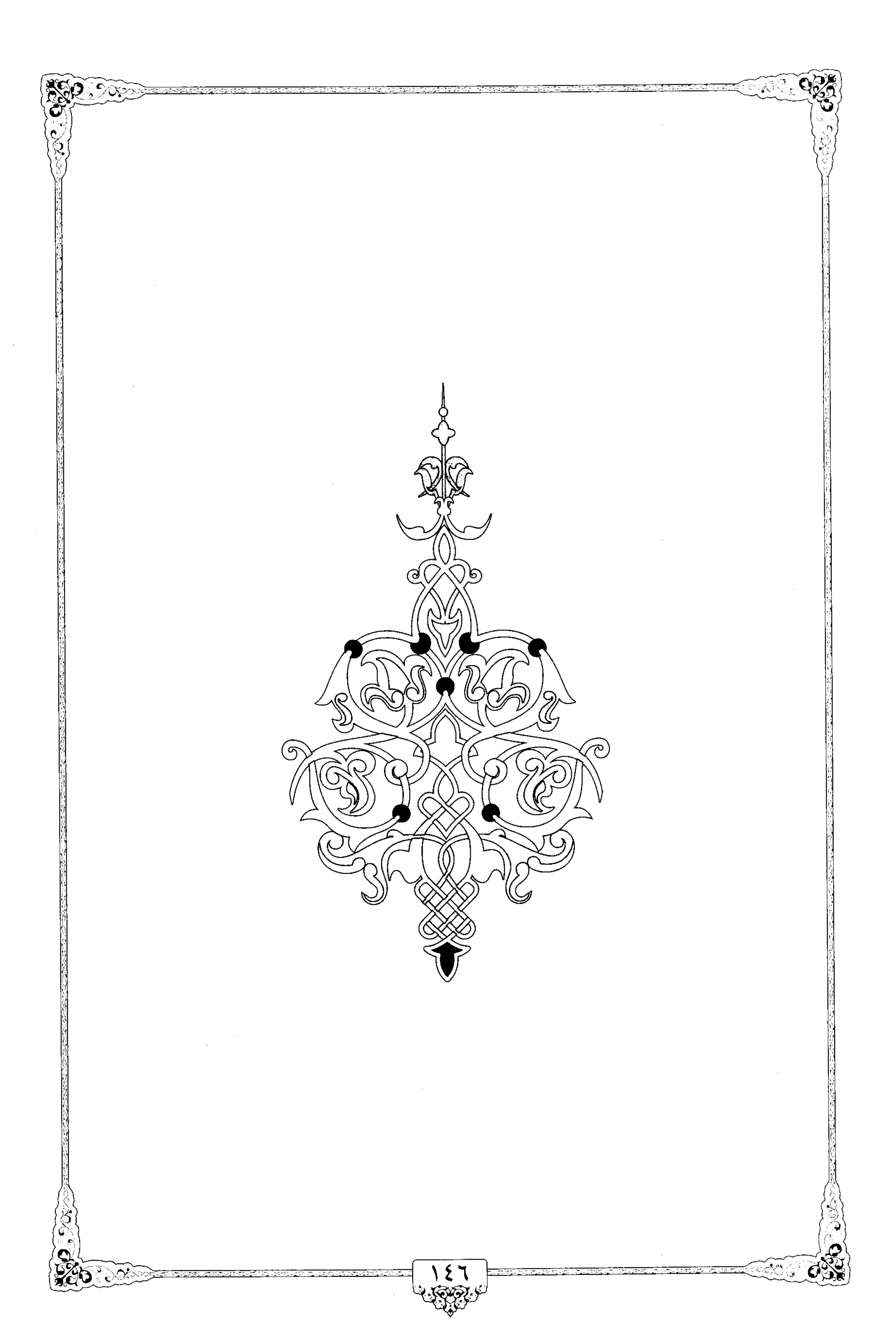
(٢) رواه في « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » (٧٩٢) ، وأورده الديلمي في « الفردوس » (٧١٢٥) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

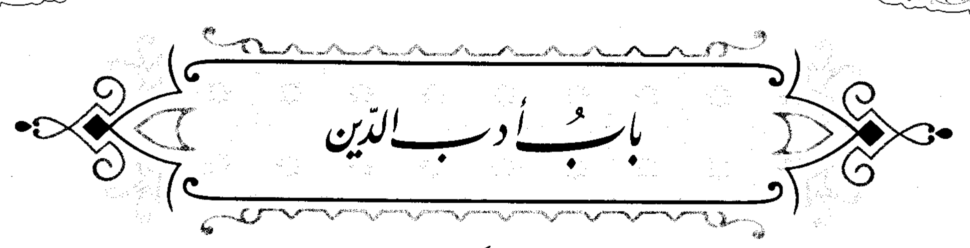
(٣) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢/ ٨١١) مرفوعاً ، والدارمي في « مسنده » (٣٠٥) موقوفاً علىٰ سيدنا عليّ رضي الله عنه .



البَابُ الثَّالِثُ

في أدبِ الدِّين





باب أدب الدين

اعلم : أنَّ الله سبحانه وتعالىٰ إنَّما كلَّف خلقه مُتعبَّداتهِ ، وألزمهم مُفترضاتِه ، وابتعث إليهم رسله ، وشرع لهم دينه . . لغير حاجةٍ دعته إلىٰ تكليفهم ، ولا من ضرورةٍ قادته إلىٰ تعبُّدهم ؛ وإنَّما قصد نفعهم تفضُّلاً منه عليهم ، كما تفضَّل بما لا يُحصىٰ عدداً من نعمه ، بل النعمة فيما تعبَّدهم به أعظمُ ؛ لأنَّ نفع ما سوى المتعبَّدات مختصٌّ بالدنيا العاجلة ، ونفع المتعبَّدات يشتمل علىٰ نفع الدنيا والآخرة ، وما جمع نفعَي الدنيا والآخرة . . كان أعظم نعمةً ، وأكثرَ تفضُّلاً .

وجعل ما تعبَّدهم به مأخوذاً من عقلٍ متبوع ، وشرعٍ مسموع ؛ فالعقل متبوعٌ فيما لا يمنع منه الشرع ، والشرع مسموعٌ فيما لا يمنعُ منه العقل ؛ لأنَّ الشرع لا يرِد بما يمنع منه العقل ، والعقل لا يُتبَع فيما يمنع منه الشرع .

ولذلك توجَّه التكليفُ إلىٰ مَن كمل عقله ، فأرسل رسولَه بالهدىٰ ودين الحقِّ ؛ ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، فبلَّغهم رسالته ، وألزمهم حجَّته ، وبيَّن لهم شريعته ، وتلا عليهم كتابه فيما أحلَّه وحرَّمه ، وأباحه وحظره ، واستحبَّه وكرهه ، وأمر به ونهىٰ عنه ، وما وعد به من الثواب لمن أطاعه ، وأوعد به من العقاب لمن عصاه ، قال الله تعالىٰ : ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ .

وكان وعده ترغيباً ، ووعيده ترهيباً ؛ لأنَّ الرغبة تبعث على الطاعة ، والرهبة تكفُّ عن المعصية ، والتكليف يجمع أمراً بطاعة ، ونهياً عن معصية ؛ ولذلك كان التكليف مقروناً بالرغبة والرهبة ، وكان ما تخلَّل كتابه من قصص الأمم السالفة وأخبار القرون الخالية عظةً واعتباراً ، تقوىٰ معهما الرغبةُ ، وتزداد بهما الرهبةُ ، فكان ذلك من لطفه بنا ، وتفضُّله علينا ؛ فالحمد لله الذي نعمُه لا تُحصىٰ ، وشكرُه لا يُؤدَّىٰ .

ثم جعل إلىٰ رسوله صلى الله عليه وسلم بيانَ ما كان مُجمَلاً ، وتفسيرَ ما كان مُشكِلاً ، وتحقيقَ ما كان محتمِلاً ؛ ليكون له مع تبليغ الرسالة ظهورُ الاختصاص به ، ومنزلةُ التفويض إليه ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

ثم جعل إلى العلماء بعد رسوله صلى الله عليه وسلم استنباطَ ما نبَّه علىٰ معانيه ، وأشار إلىٰ أصوله ؛ ليتوصَّلوا بالاجتهاد فيه إلىٰ علم المراد به ؛ فيمتازوا بذلك عن غيرهم ، ويختصوا بثواب اجتهادهم ، قال الله تعالىٰ : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾ .

فصار الكتاب أصلاً ، والسنة فرعاً ، واستنباط العلماء إيضاحاً وكشفاً ، وروي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « القرآنُ : أصلُ علم الشريعة ، نصُّه ودليلُه ، والحكمةُ : بيانُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والأمّةُ المجتمعةُ : حجّةٌ علىٰ مَن شذَّ عنها »[1] .

وكان من رأفته بخلقه وتفضُّله علىٰ عباده : أنْ أقدرَهم علىٰ ما كلَّفهم ، ورفع الحرجَ عنهم فيما تعبَّدهم ؛ ليكونوا مع ما قد أعدَّه لهم ناهضين بفعل الطاعات ، ومجانبة المعاصي ، قال الله تعالىٰ : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ ، وقال سبحانه : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ .

وجعل ما كلَّفهم ثلاثة أقسام : قسماً أمرهم باعتقاده ، وقسماً أمرهم بفعله ، وقسماً أمرهم بالكفِّ عنه ؛ ليكون اختلافُ جهات التكليف أبعثَ علىٰ قَبوله ، وأعونَ علىٰ فعله ؛ حكمةً منه ولطفاً[2] .

---

(١) ذكره أبو حيان التوحيدي في « البصائر والذخائر » (٢/٢٠٩) وسمعه من أبي عبد الله الطبري غلام أبي إسحاق المروزي من قوله .

(٢) إن التكليف بالأقسام الثلاثة أحكم وأمتن من التكليف بأحدها أو بقسميها ؛ لأن للمكلف سراً وعلانية ، ولكل منهما فعلاً وتركاً ؛ فالأقسام أربعة ، إلا أن الترك القلبي لما كان عبارة عن اعتقاد العدم أزلاً وأبداً.. دخل في قسم الاعتقاد ، فبقي ثلاثة أقسام .

وجعل ما أمرهم باعتقاده قسمين : قسماً إثباتاً ، وقسماً نفياً ؛ **فأمّا الإثباتُ** . . فإثباتُ توحيده وصفاته ، وبعثِه رسلَه ، وتصديقِ محمد صلى الله عليه وسلم فيما جاء به .

وأمّا النفيُ . . فنفيُ الصاحبة والولد ، والحاجة ، والقبائح أجمعَ ، **وهـٰذان القسمان هما أول ما كُلِّفه العاقلُ**(١) .

وجعل ما أمرهم بفعله ثلاثة أقسام : قسماً علىٰ أبدانهم ؛ كالصلاة والصيام .

وقسماً في أموالهم ؛ كالزكوات والكفّارات .

وقسماً علىٰ أبدانهم وفي أموالهم ؛ كالحجّ والجهاد ؛ ليسهل عليهم فعله ، ويخفَّ عنهم أداؤه ؛ نظراً منه لهم ، وتفضُّلاً منه عليهم .

وجعل ما أمرهم بالكف عنه ثلاثة أقسام : قسماً لإحياء نفوسهم وصلاح أبدانهم ؛ كنهيه عن القتل وأكل الخبائث والسُّموم وشرب الخمور المؤدِّية إلىٰ فساد العقل وزواله .

وقسماً لائتلافهم وصلاح ذات بينهم ؛ كنهيه عن الغصب والغلَبة والظلم والسَّرَف المُفضي إلى القطيعة والبغضاء(٢) .

وقسماً لحفظ أنسابهم وتعظيم محارمهم ؛ كنهيه عن الزنا ونكاح ذوات المحارم .

فكانت نعمتُه فيما حظره علينا كنعمته فيما أباحه لنا ، **وتفضُّله فيما كفَّنا عنه** كتفضُّله فيما أمرنا به ، **فهل يجد العاقل في رَويّته مَساغاً أن يقصِّر فيما أُمر به وهو نعمةٌ عليه ، أو يرىٰ فسحةً في ارتكاب ما نُهي عنه وهو تفضُّل عليه ؟!**

وهل يكون مَن أُنعم عليه بنعمةٍ فأهملها مع شدة فاقته إليها إلا مذموماً في العقل مع ما جاء من وعيد السمع ؟!

---

(١) لأنه لا يتأتّى الإتيان بشيءٍ علىٰ قصد الامتثال ولا الانكفاف عن شيءٍ علىٰ قصد الانزجار إلا بعد معرفة الآمر الناهي .

(٢) في (ب ، د ، هـ) : (كنهيه عن الغصب . . .) .

ثم من لطفه بخلقه وتفضُّله علىٰ عباده : أنْ جعل لهم من جنس كل فريضة نفلاً ، وجعل لها من الثواب قسطاً ، وندبهم إليه ندباً ، وجعل لهم بالحسنة عشراً ؛ ليضاعف ثواب فاعله ، ويضع العقاب عن تاركه .

ومن لطيف حكمته : أنْ جعل لكل عبادةٍ حالتين : حالةَ كمال ، وحالةَ جواز ؛ رفقاً منه بخلقه لما سبق في علمه : أنَّ فيهم العَجِلَ المُبادِرَ ، والبطيء المُتثاقِلَ ، ومَن لا صبرَ له علىٰ أداء الأكمل ؛ ليكون ما أخلَّ به من هيئات عبادته غيرَ قادحٍ في فرض ، ولا مانعٍ من أجرٍ ؛ فكان ذلك من نعمه علينا ، وحسن نظره لنا .

وكان أول ما فرض بعد تصديق نبيِّه صلى الله عليه وسلم : عبادات الأبدان ، وقدَّمها علىٰ ما يتعلَّق بالأموال ؛ لأنَّ النفوس على الأموال أشحُّ ، وبما يتعلق بالأبدان أسمحُ ؛ وذلك الصلاة والصيام .

فقدَّم فرضَ الصلاة على الصيام ؛ لأنَّ الصلاة أسهلُ فعلاً ، وأيسرُ عملاً ، وجعلها مشتملة علىٰ خضوع له ، وابتهال إليه ، فالخضوع له رهبة منه ، والابتهال إليه رغبة فيه ؛ ولذلك قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « إذا قام أحدُكم إلىٰ صلاته . . فإنَّما يُناجي ربَّه ، فلينظُرْ أحدُكم بمَ يناجيه ؟ »[1] .

وروي عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام : أنَّه كان كلَّما دخل عليه وقت الصلاة . . اصفرَّ مرة ، واحمرَّ أخرىٰ ، فقيل له في ذلك ، فقال : (أتتني الأمانة التي عُرضت على السماوات والأرض والجبال ؛ فأبينَ أن يحملْنَها ، وأشفقنَ منها ، وحملتُها أنا ، ولا أدري أأُسيءُ فيها أم أُحسنُ ؟) .

ثم جعل لها شروطاً لازمة : من رفع حدَث ، وإزالة نجَس ؛ ليستديم النظافة للقاء ربه ، والطهارة لأداء فرضه .

---

(١) رواه الإمام أحمد في « مسنده » (٢/ ٦٧) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٨٥٤٩) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

ثم **ضمَّنها تلاوة كتابه المنزل** ؛ ليتدبّر ما فيه من أوامره ونواهيه ، ويعتبر إعجاز ألفاظه ومعانيه .

ثم علَّقها بأوقات راتبة ، وأزمان مترادفة ؛ ليكون ترادفُ أزمانها وتتابعُ أوقاتها سبباً لاستدامة الخضوع له ، والابتهال إليه ، **فلا تنقطع الرهبة منه ، ولا الرغبة فيه** .

وإذا لم تنقطع الرغبة والرهبة . . استدام صلاح الخلق ، وبحسَب قوة الرغبة والرهبة يكون استيفاؤُها على الكمال ، أو التقصيرُ فيها عن حال الجواز .

وقد روي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « **الصلاةُ مِكيالٌ ؛ فمَن وفَّىٰ . . وُفِّي له ، ومَن طفَّف** . . فقد علمتم ما قال الله تعالىٰ في المُطفِّفينَ »[1] .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **مَن هانت عليه صلاته . . كانت على الله أهونَ** »[2] .

وأُنشدت عن بعض صلحاء الشعراء : [من الكامل]

أقبِلْ علىٰ صلَواتكَ الخَمْسِ ... كم مُصبِحٍ وعَساهُ لا يُمْسِي

واستقبلِ اليومَ الجديدَ بتوبةٍ ... تمحو ذُنوبَ صبيحةِ الأمسِ

فلَيَفعلَنَّ بوجهِكَ الغَضِّ البِلَىٰ ... فعلَ الظلامِ بصورةِ الشمسِ

ثم فرض الله تعالى الصيام ، وقدَّمه علىٰ زكوات الأموال ؛ لتعلُّق الصيام بالأبدان ، **فكان في إيجابه حثٌّ علىٰ رحمة الفقراء** ، وإطعامهم وسدِّ جَوعَاتهم ؛ لما قد عانَوه من شدة المجاعة في صومهم ، وقد قيل ليوسف عليه الصلاة والسلام : (**لِمَ تجوعُ وأنت علىٰ خزائن الأرض ؟** فقال : **أخاف أن أشبعَ فأنسى الجائعَ**)[3] .

---

(1) رواه البيهقي في السنن الكبرىٰ (٢/ ٢٩١) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٩٩٦) موقوفاً علىٰ سيدنا سلمان الفارسي رضي الله عنه .

(2) رواه الإمام أحمد ابن حنبل في « الزهد » (١٦٣٠) من قول الحسن البصري رحمه الله .

(3) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٥٢٩١) ، وأبو بكر الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (١٩٢) .

ثم لِما في الصوم من قهر النفس وإذلالها ، وكسر الشهوة المستولية عليها ، وإشعار النفس ما هي عليه من الحاجة إلىٰ يسير الطعام والشراب ، والمحتاجُ إلى الشيء ذليلٌ به ، وبهـٰذا احتج الله تعالىٰ علىٰ مَن اتخذ عيسىٰ وأمَّه إلـٰهين من دونه فقال : ﴿ مَا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾ ، فجعل حاجتَهما إلى الطعام نقصاً فيهما عن أن يكونا إلـٰهين .

وقد وصف الحسن البصري رحمه الله في قصصه نقص الإنسان بالطعام وغيره فقال : (مسكينٌ ابنُ آدم ؛ مكتوم الأمل ، محتوم الأجل ، مكنون العلل ، محفوظ العمل ، يتكلَّم بلحم ، وينظر بشحم ، ويسمع بعظم ، أسير جَوعة ، وصريع شبعة ، تؤذيه البقَّة ، وتُنتنه العرقة ، وتقتله الشَّرْقة ، لا يملك لنفسه ضرّاً ولا نفعاً ، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً)[1] .

فانظر إلىٰ لطفه بنا فيما أوجبه من الصيام علينا ؛ كيف أيقظ العقول له وقد كانت عنه غافلة أو متغافلة ، ونفع النفوس به ولم تكن لولاه منتفعة ولا نافعة !!

ثم فرض زكوات الأموال ، وقدَّمها علىٰ فرض الحجّ ؛ لأنَّ في الحجّ مع إنفاق المال سفراً شاقاً ، فكانت النفس إلى الزكاة أسرع إجابة منها إلى الحجّ ، فكان في إيجابها مواساة للفقراء ، ومعونة لذوي الحاجات ، تكفُّهم عن البغضاء ، وتمنعهم عن التقاطع ، وتبعثهم على التواصل ؛ لأنَّ الآمل وَصولٌ ، والراجيَ هائبٌ .

وإذا زال الأمل ، وانقطع الرجاء ، واشتدَّت الحاجة . . وقعت البغضاء ، واشتدَّ الحسد ، فحدث التقاطع بين أرباب الأموال والفقراء ، ووقعت العداوة بين ذوي الحاجات والأغنياء ؛ حتىٰ تفضيَ إلى التغالب على الأموال ، والتغرير بالنفوس .

هـٰذا مع ما في أداء الزكاة من تمرين النفس على السماحة المحمودة ، ومجانبة

---

(١) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص٣٣) .

الشحّ المذموم ؛ لأنَّ السماحة تبعث علىٰ أداء الحقوق ، والشحَّ يصدُّ عنها ، وما بعث علىٰ أداء الحقوق . . فأجدِرْ به حمداً ! ! وما صدَّ عنها . . فأخلِقْ به ذمّاً ! !

وقد روىٰ أبو هريرة رضي الله عنه أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « شرُّ ما أُعطِيَ العبدُ شحٌّ هالعٌ ، وجبنٌ خالعٌ »(١) .

فسبحان مَن دبَّرنا بلطيف حكمته ، وأخفىٰ عن فطننا جزيل نعمته ؛ حتى استوجب من الشكر بإخفائها أعظمَ مما استوجبه بإبدائها .

ثم فرض الحجَّ ، فكان آخرَ فروضه ؛ لأنَّه يجمع عملاً علىٰ بدن ، وحقاً في مال ، فجعل فرضه بعد استقرار فروض الأبدان وفروض الأموال ؛ ليكون استئناسهم بكل واحد من النوعين ذريعة إلىٰ تسهيل ما جمع النوعين ، فكان في إيجابه تذكيرٌ ليوم الحشر في مفارقة المال والأهل ، وخضوعِ العزيز والذليل في الوقوف بين يديه ، واجتماعِ المطيع والعاصي في الرهبة منه والرغبة إليه ، وإقلاعِ أهل المعاصي عمّا اجترحوه ، وندمِ المذنبين علىٰ ما أسلفوه .

فقلَّ مَن حجَّ إلا وأحدث توبةً من ذنب ، وإقلاعاً عن معصية ؛ ولذلك قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « من علامة الحَجّة المبرورة : أنْ يكونَ صاحبُها بعدَها خيراً منه قبلَها »(٢) .

وهـٰذا صحيح ؛ لأنَّ الندم على الذنوب مانع من الإقدام عليها ، والتوبة عنها مكفِّرة لما سلف منها ؛ فإذا كفَّ عمَّا كان يُقدم عليه . . أنبأ عن صحَّة توبته ، وصحَّةُ التوبة تقتضي قبولَ حجِّه .

ثم نبَّه بما يُعانَىٰ فيه من مشاقِّ السفر المؤدِّي إليه علىٰ موضع النعمة برَفاهة الإقامة ، وأَنَسة الأوطان ؛ ليُحنَىٰ علىٰ مَن سُلب هـٰذه النعمةَ من أبناء السبيل .

ثم أعلمَ بمشاهدة حرمه ؛ الذي أنشأ منه دينَه ، وبعث فيه رسولَه ، ثم بمشاهدة دار الهجرة ؛ التي أعزَّ الله تعالىٰ بها أهلَ طاعته ، وأذلَّ بنصرة نبيِّه

---

(١) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٣٢٥٠) ، وأبو داوود (٢٥١١) .
(٢) أورده في « محاضرات الأدباء »(٤/ ٢٣٢) .

صلى الله عليه وسلم أهلَ معصيته ؛ حتىٰ خضع له عظماءُ المتجبِّرين ، وتذلَّل له زعماءُ المتكبِّرين . . أنَّه لم ينتشر عن ذلك المكان المنقطع ، ولا قوي بعد الضعف البيِّن حتىٰ صار به طبَقَ الأرضِ شرقاً وغرباً إلا بمعجزةٍ ظاهرة ، ونصرٍ عزيز .

فاعتبِرْ ـ ألهمك الله تعالى الشكرَ ، ووفَّقك للتقوىٰ ـ إنعامَه عليك فيما كلَّفك ، وإحسانَه إليك فيما تعبَّدك ؛ فقد وكَلتُكَ إلىٰ فطرتك ، وأحلتُكَ علىٰ بصيرتك ، بعدَ أن كنتُ لك رائداً صدوقاً ، وناصحاً شفيقاً : هل تُحسن نهوضاً بشكره إذا فعلتَ ما أمرك ، وتقبَّلتَ ما كلَّفك ؟

كلا ؛ لأنَّه لا يُوليك نعمةً توجب الشكر إلا وصلها قبل شكر ما سلف بنعمةٍ توجب الشكرَ في المؤتنَف[1] ؛ ولذلك قال الحسن بن علي عليهما السلام : (نِعَمُ الله أكثرُ من أن تُشكَرَ إلا ما أعان عليه ، وذنوبُ ابن آدم أكثرُ من أن تُغفَرَ إلا ما عفا عنه)[2] .

وأُنشدت لمنصور بن إسماعيل الفقيه المصري رحمه الله تعالىٰ[3] : [من مجزوء الرجز]

شُكْـرُ الإلٰـهِ نعمـةٌ مُـوجِبـةٌ لشكـرِهِ
فكيـفَ شكـري بِـرَّهُ وشكـرُهُ مِـن بِـرِّهِ

وإذا كنتَ عن شكر نعمه عاجزاً . . فكيف بك إذا قصَّرتَ فيما أمرك ، أو فرَّطتَ فيما كلَّفك ؟! ونفعُه أعوَدُ عليك لو فعلته . . هل تكون لسوابغ نعمه إلا كفوراً ، وببدائِهِ العقول إلا مزجوراً ؟ وقد قال الله تعالىٰ : ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ قال مجاهد : (أي : يعرفون ما عدَّد الله عليهم من نِعَمه وينكرونها بقولهم : إنَّهم ورثوا ذلك عن آبائهم ، أو اكتسبوها بأفعالهم)[4] .

وروي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « يقول الله تعالىٰ : يا بنَ آدمَ ؛

---

(١) المؤتنف : الجديد المستأنف .

(٢) أورده في « عيون الأخبار » (٢/ ٣٧٠) ، وفي « الكامل » (١/ ١٥١) ونسبه للإمام الحسن البصري رحمه الله تعالىٰ .

(٣) البيتان منسوبان لمحمود الوراق في « ديوانه » (ص٢٢٤) .

(٤) رواه الطبري في « تفسيره » (٨/ ١٤/ ١٩٣) .

ما أنصفتني ، أتحبَّبُ إليك بالنعم ، وتتمقَّت إليَّ بالمعاصي ، خيري إليك نازل ، وشرُّك إليَّ صاعد ، كم من ملك كريم يصعد إليَّ منك بعمل قبيح ؟! »[١] .

وقال بعض صلحاء السلف : (قد أصبح بنا من نعم الله تعالىٰ ما لا نحصيه مع كثرة ما نعصيه !! فلا ندري أيَّهما نشكر ؛ أجميلَ ما نشر ، أم قبيحَ ما ستر ؟)[٢] .

فحقٌّ علىٰ مَن عرف موقع النعمة أن يقبلها ممتثلاً لما كُلِّف منها ، وقَبولها يكون بأدائها ، ثم يشكر الله تعالىٰ علىٰ ما أنعم من إسدائها ؛ فإنَّ بنا من الحاجة إلىٰ نعمه أكثرَ ممَّا كُلِّفنا من شكرِ نعمه .

فإنْ نحن أدَّينا حقَّ النعمة في التكليف . . تفضَّل بإسداء النعمة من غير جهة التكليف ، فلزمت النعمتان ، ومَن لزمته النعمتان . . فقد أوتي حظَّ الدنيا والآخرة ، وهـٰذا هو السعيد بالإطلاق .

وإن قصَّرنا في أداء ما كُلِّفنا من نعمه . . قصَّر عنا ما لا تكليف فيه من نعمه ، فنفرَتِ النعمتان ، ومَن نفرت عنه النعمتان . . فقد سُلب حظَّ الدنيا والآخرة ، فلم يكن له في الحياة حظٌّ ، ولا في الموت راحةٌ ، وهـٰذا هو الشقي بالاستحقاق .

وليس يختار الشِّقوةَ على السعادة ذو لبٍّ صحيح ، ولا عقل سليم ، وقد قال الله تعالىٰ : ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ .

وقد روى الأعمش ، عن مسلم قال : قال أبو بكر : يا رسولَ الله ؛ ما أشدَّ هـٰذه الآية : ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ !! فقال : « يا أبا بكر ؛ إنَّ المصيبة في الدنيا جزاءٌ »[٣] .

واختلف المفسِّرون في تأويل قوله تعالىٰ : ﴿ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾ :

فقال بعضهم : (أحد العذابين : الفضيحة في الدنيا ، والثاني : عذاب القبر) .

---

(١) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٤/ ٢٧) ، وابن عبد البر في « بهجة المجالس » (١/ ٣٩٣) .
(٢) رواه في « تاريخ دمشق » (٣٠/ ٣٣٩) مما كتب منصور بن عمار إلىٰ بشر الحافي رحمهما الله تعالىٰ .
(٣) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٢٩١٠) ، وسعيد بن منصور في « سننه » (٧٠٠) .

وقال عبد الرحمـٰن بن زيد : (أحد العذابين : مصائبهم في الدنيا في أموالهم وأولادهم ، والثاني : عذاب الآخرة في النار)[1] .

وليس وإن نال أهلُ المعاصي لذّةً من عيشٍ أو أدركوا أمنيةً من دنيا . . كانت عليهم نعمةً ، بل قد يكون ذلك استدراجاً ونقمة ، وروى ابن لهيعة ، عن عقبة بن مسلم ، عن عقبة بن عامر أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا رأيتَ اللهَ تعالىٰ يُعطي العبادَ ما يشاؤون علىٰ معاصيهم إيَّاه . . فإنَّما ذلك استدراجٌ منه لهم » ، ثم تلا قوله تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾[2] .

فأمّا سائر المحرَّمات التي يمنعُ الشرعُ منها ؛ واستقرَّ التكليف عقلاً أو سمعاً بالنهي عنها . . فتنقسم قسمين :

منها : ما تكون النفوس داعيةً إليها ، والشهوات باعثةً عليها ؛ كالسِّفاح وشرب الخمر ، فقد زجر الله تعالىٰ عنها ؛ لقوة الباعث عليها ، وشدة الميل إليها بنوعين من الزجر : أحدهما : حدٌّ عاجلٌ يرتدع به الجريّ[3] ، والثاني : وعيدٌ آجلٌ يزدجرُ به التقيّ .

ومنها : ما تكون النفوس نافرة منها ، والشهوات مصروفة عنها ؛ كأكل الخبائث والمستقذَرات ، وشرب السموم المتلِفات ، فاقتصر الله سبحانه في الزجر عنها بالوعيد وحده دون الحدِّ ؛ لأنَّ النفوس مسعَدة في الزجر عنها ، والشهوات مصروفة عن ركوب المحظور منها .

ثم أكّد الله تعالىٰ زواجره بإنكار المنكِرين لها ، فأوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ ليكون الأمر بالمعروف تأكيداً لأوامره ، والنهي عن المنكر تأييداً لزواجره ؛ لأنَّ النفوس الأَشِرة قد ألهَتْها الصَّبْوةُ عن اتباع الأوامر ، وأذهلتها

---

(١) انظر « تفسير الطبري » (٧/ ١١/ ١٥ـ١٧) .

(٢) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٤٢٢٠) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٢/ ٧٧) .

(٣) الجري : الجسور المقدام ؛ وهو هـٰهنا بمعنى : الفاسق بقرينة المقابلة .

الشهوةُ عن تذكار الزواجر ، فكان إنكار المجانسين أزجرَ لها ، وتوبيخ المخالطين أبلغَ فيها ؛ ولذلك قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « ما أقرَّ قومٌ المنكرَ بين أظهُرِهِم إلا عمَّهمُ الله تعالىٰ بعذابٍ محتضر »[1] .

* * *

وإذا كان ذلك كذلك . . فلا يخلو حال فاعلي المنكَر من أحد أمرين :

أحدهما : أن يكونوا آحاداً متفرِّقين ، وأفراداً متبدِّدين ، لم يتحزَّبوا فيه ، ولم يتضافروا عليه ، وهم رعيّةٌ مقهورون ، وأشذاذ مستضعفون ، فلا خلاف بين الناس أنَّ أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر مع المَكِنة وظهور القدرة واجبٌ علىٰ مَن شاهد ذلك من فاعليه ، أو سمعه من قائليه ، وإنَّما اختلفوا في وجوب ذلك علىٰ منكريه : هل وجب عليهم بالعقل أو بالشرع ؟

فذهب بعض المتكلِّمين إلىٰ وجوب ذلك بالعقل ؛ لأنَّه لمَّا وجب بالعقل أن يمتنع من القبيح . . وجب أيضاً بالعقل أن يمنع غيرَه منه ؛ لأنَّ ذلك أدعىٰ إلىٰ مجانبته ، وأبلغُ في مفارقته .

وقد روىٰ عبد الله بن المبارك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنَّ قوماً ركبوا سفينةً في البحر ، فاقتسموا ، فأخذ كلُّ واحدٍ منهم موضعاً ، فنقر رجلٌ منهم موضعَه بفأس ، فقالوا : ما تصنع ؟ قال : هو مكاني أصنع به ما شئتُ ، فلم يأخذوا علىٰ يدَيه ، فهلك وهلكوا »[2] .

وذهب آخرون إلىٰ وجوب ذلك بالشرع دون العقل ؛ لأنَّ العقل لو أوجب النهي عن المنكر ومنْعَ غيرِه من القبيح . . لوجب مثلُه على الله تعالىٰ ، ولما جاز ورودُ الشرع بإقرار أهل الذمة على الكفر وتركِ النكير عليهم ؛ لأنَّ واجبات العقول لا يجوز إبطالها بالشرع ، وفي ورود الشرع بذلك دليلٌ علىٰ أن العقل غير موجِبٍ لإنكاره .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » (٨٥) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٣٤٩) عن سيدنا النعمان بن بشير رضي الله عنهما ، والبخاري (٢٦٨٦) من طريق الأعمش .

فأمّا إذا كان في ترك إنكاره مضرّةٌ لاحقة بمنكِره . . وجب إنكاره بالعقل على القولين معاً .

وأمّا إن لحق المنكِرَ مضرّةٌ من إنكاره ، ولم تلحقه مضرّةٌ من كفِّه وإقراره . . لم يجب عليه الإنكار لا بالعقل ولا بالشرع .

أمّا العقل : فلأنّه يمنع من اجتلاب المضارِّ التي لا يوازيها نفعٌ .

وأمّا الشرع : فقد روىٰ أبو سعيد الخدريُّ رضي الله عنه ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « أنكِرِ المُنكَرَ بيدِك ؛ فإنْ لم تستطِعْ . . فبلسانِكَ ، فإنْ لم تستطِعْ . . فبقلبِكَ ؛ وذلك أضعفُ الإيمانِ »[١] .

فإن أراد الإقدام على الإنكار مع لُحوق المضرّة به . . نظر :

فإن لم يكن إظهار النكير ممّا يتعلق بإعزاز دين الله تعالىٰ ، ولا إظهار كلمة الحقّ . . لم يجب عليه النكير إذا خشي بغالب الظن تلفاً أو ضرراً ، ولم يحسن منه النكير أيضاً .

وإن كان في إظهار النكير إعزازُ دين الله تعالىٰ ، وإظهارُ كلمة الحقّ . . حسُنَ منه النكير مع خشية الإضرار والتلف ـ وإن لم يجب عليه ـ إذا كان الغرض قد يحصل له بالنكير وإن استضرَّ أو قُتل ، وعلىٰ هـٰذا الوجه قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « إنَّ أفضلَ الأعمالِ كلمة حقٍّ عند سلطانٍ جائرٍ »[٢] .

فأمّا إذا كان يُقتَل قبل حصول الغرض . . قبُحَ في العقل أن يتعرَّض لإنكاره ، وكذلك لو كان الإنكارُ يزيد المنهيَّ إغراءً بفعل المنكر ، ولجاجاً في الاستكثار منه . . قبح في العقل إنكارهُ .

والحال الثانية : أن يكون فعلُ المنكر من جماعة قد تضافرت عليه ، وعصبةٍ قد تحزَّبت ودعت إليه ؛ فقد اختلف الناس في وجوب إنكاره علىٰ مذاهب شتّىٰ :

---

(١) رواه مسلم (٤٩) ، والترمذي (٢١٧٢) ، وأبو داوود (١١٤٠) .
(٢) رواه النسائي (٧/ ١٦١) ، والترمذي (٢١٧٤) .

فقالت **طائفة من أصحاب الحديث** وأهل الآثار : **لا يجب إنكاره**[1] ، والأولىٰ بالإنسان أن يكون كافّاً ممسِكاً ، وملازماً لبيته وادعاً ، غيرَ منكر ولا مستنفر .

وقالت **طائفة أخرىٰ ممَّن يقول بظهور المنتظر** : لا يجب إنكاره ولا التعرُّض لإزالته **إلا أن يظهر المنتظَر** ، فيتولىٰ إنكاره بنفسه ، ويكونوا حينئذٍ أعوانه[2] .

وقالت **طائفة أخرىٰ منهم الأصمُّ** : لا يجوز للناس إنكاره **إلا أن يجتمعوا علىٰ إمام عدل** ، فيجب عليهم الإنكارُ معه[3] .

وقال **جمهور المتكلمين** : **إنكار ذلك واجب** ، والدفع عنه لازم علىٰ شروطه في وجود أعوان يصلحون له ، **فأمّا مع فقد الأعوان** . . **فعلى الإنسان الكفُّ** ؛ لأن الواحد قد يُقتل قبل بلوغ الغرض فيه ، وذلك قبيح في العقل أن يتعرَّض له .

فهٰذا حكم ما أكَّد الله سبحانه به أوامره ، وأيَّد به زواجره من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وما يختلف من أحوال الآمرين به والناهين عنه .

* * *

ثم ليس يخلو أحوال الناس فيما أُمروا به ونُهوا عنه من فعل الطاعات واجتناب المعاصي من أربعة أحوال :

فمنهم : مَن يستجيب إلىٰ فعل الطاعات ، ويكفُّ عن ارتكاب المعاصي ، **وهي أكمل أحوال أهل الدين** ، وأفضل صفات المتقين ، **فهٰذا يستحقُّ جزاء العاملين** ، وثواب المطيعين ، روىٰ محمد بن عبد الملك المدَنيُّ ، عن نافع ، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **الذنبُ لا يُنسىٰ** ، والبِرُّ لا يبلىٰ ، **والدَّيّانُ لا يموتُ** ، فكنْ كما شئتَ ؛ **فكما تَدينُ . . تُدانُ** »[4] .

---

(١) لأن الإنكار يفضي إلىٰ أحد الأمرين : إما إلى القتل قبل حصول الغرض إن لم يكن له أعوان ، أو إلى الفتنة إن كان له أعوان ، والفتنة أشد من القتل .

(٢) وهٰذه الطائفة هم الروافض .

(٣) وهٰؤلاء من المعتزلة .

(٤) رواه عبد الرزاق (٢٠٢٦٢) ، وابن عدي في « الكامل » (٦/ ١٥٨) ، والبيهقي في « الزهد » (٧١٠) مرسلاً عن أبي قلابة رحمه الله تعالىٰ .

وقال المسيح عليه السلام : (بالمكيال الذي تكيلون يُكالُ لكم)[1] .

وقديماً قيل : (كلٌّ يحصد ما يزرع ، ويُجزىٰ بما يصنع) ، بل قالوا : (زرعُ يومِك حصادُ غدِك) .

ومنهم : مَن يمتنع من فعل الطاعات ، ويُقدم على ارتكاب المعاصي ؛ وهي أخبث أحوال المكلَّفين ، وشرُّ صفات المتعبِّدين ؛ فهٰذا يستحق عقاب اللاهي عن فعل ما أُمر به من طاعاته ، وعذاب المجترىء علىٰ ما أقدم عليه من معاصيه ، وقد قال ابن شُبْرُمةَ : (عجبتُ لمَن يحتمي من الطيّبات مخافةَ الداء ، كيف لا يحتمي من المعاصي مخافةَ النار ؟!)[2] .

فأخذ ذلك بعض الشعراء فقال[3] : [من السريع]

جسمُك قد أفنيتَه بالحِمىٰ ... دهراً من البارِدِ والحارِ
وكان أولىٰ بكَ أنْ تحتمي ... منَ المعاصي حذَرَ النارِ[4]

وقال ابن ضَبارة : (إنَّا نظرنا فوجدنا الصبرَ علىٰ طاعة الله تعالىٰ أهونَ من الصبر علىٰ عذاب الله تعالىٰ)[5] .

وقال آخر : (اصبروا ـ عبادَ الله ـ علىٰ عمل لا غناءَ بكم عن ثوابه ، واصبروا عن عمل لا صبرَ لكم علىٰ عقابه)[6] .

---

(١) هٰذا القول زيادة من (أ) ، وأورده في « عيون الأخبار » (٢/ ٢٧١) .

(٢) رواه أبو بكر الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (١٧٥) .

(٣) البيتان لمحمود الوراق في « ديوانه » (ص١٢٦) .

(٤) وفي (ب) بعد هٰذين البيتين :

وقال بعضهم وقد وجدها بحاشية الأصل : (من الطويل)

إذا المرءُ أحمىٰ نفسَه كلَّ شهوةٍ ... لصحَّةِ أيّامٍ تبيدُ وتُفقَدُ
فما بالُهُ أنْ يحتمي عن حَرامِها ... لصحَّةِ ما يبقىٰ له ويُخلَّدُ

والبيتان للناشىء الأكبر . انظر « بهجة المجالس » (١/ ١٤٤) .

(٥) أورده في « البيان والتبيين » (٣/ ١٢٦) ، و« المجالسة وجواهر العلم » (١٥٥٩) .

(٦) أورده في « البصائر والذخائر » (٧/ ١٢) ، و« التذكرة الحمدونية » (١/ ٧٨) من قول سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

وقيل للفضيل بن عياض : (رضي الله عنكَ ، فقال : **كيف يرضىٰ عنِّي ولم أُرضِه ؟!)** .

ومنهم : مَن يستجيب إلىٰ فعل الطاعات ، ويُقدم على ارتكاب المعاصي ؛ **فهٰذا يستحقُّ عقاب المجترىء** ؛ لأنَّه تورَّط بغلبة الشهوة على الإقدام على المعصية وإن سلم من التقصير في فعل الطاعة ، وقد روي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « **أقلِعُوا عن المعاصي** قبلَ أن يأخذَكم الله تعالىٰ **فيدَعَكم هتّاً بتّاً** » . **الهَتُّ** : الكسرُ ، **والبَتُّ** : القطع[1] .

ولذلك قال بعض العلماء : (**أفضلُ الناس** : مَن لم تُفسد الشهوةُ دينَه ، ولم تُزلِ الشبهةُ يقينَه)[2] .

وقال حمَّاد بن زيد : (**عجبتُ لمَن يحتمي الأطعمةَ لمضرَّتها ، كيف لا يجتنب الذنوبَ لمعرَّتها ؟!)**[3] .

وقال بعض الصلحاء : (**أهل الذنوب مرضى القلوب**) .

وقيل للفضيل بن عياض : (ما أعجبُ الأشياء ؟ فقال : **قلبٌ عرفَ الله تعالىٰ ثمَّ عصاه**)[4] .

وقال بعض الأولياء : (**يُدِلُّ بالطاعة العاصي ، وينسىٰ عظيم المعاصي**) .

وقال رجلٌ لابن عباسٍ رضي الله عنهما : **أيُّما أحبُّ إليكَ** ؛ رجلٌ قليل الذنوب قليل العمل ، أو رجلٌ كثير الذنوب كثير العمل ؟ فقال : ابن عباس رضي الله عنهما : (**لا أعدلُ بالسلامة شيئاً**)[5] .

وقيل لبعض الزهاد : (ما تقول في صلاة الليل ؟ فقال : **خَفِ اللهَ تعالىٰ بالنهار ، ونَمْ بالليل**) .

---

(١) أورده الزمخشري في « الفائق » (٤/ ٩٢) .

(٢) أورد أوله في « المستطرف » (١/ ٨٦) .

(٣) أورده في « محاضرات الأدباء » (٤/ ١٠٥) من قول علي بن الحسين رحمهما الله تعالىٰ .

(٤) أورده في « شرح نهج البلاغة » (٦/ ٢٣٦) .

(٥) رواه النسائي في « الكبرىٰ » (١١٨٣٩) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٩١٦) .

وسمع بعضُ الزهَّاد رجلاً يقول لقوم : (أهلككم النومُ ، فقال : **بل أهلكَتْكم اليقظةُ**) .

وقيل لأبي هريرة رضي الله عنه : (**ما التقوىٰ ؟** فقال : **أجتزتَ في أرض فيها شوك ؟** فقال : نعم ، فقال : **فكيف كنت تصنع ؟** قال : **كنت أتوقَّىٰ** ، قال : **فتوقَّ الخطايا**)[1] .

وقال عبد الله بن المبارك[2] : [من الوافر]

أيضمنُ لي فتىً تَرْكَ المَعاصي ... وأرهنه الكفالةَ بالخَلاصِ
أطاعَ اللهَ قومٌ فاستراحُوا ... ولم يتجرَّعوا غُصَصَ المَعاصِي

ومنهم : مَن يمتنع من فعل الطاعات ، ويكفُّ عن ارتكاب المعاصي ، **فهـٰذا يستحقُّ عقاب اللاهي عن دينه** ، المنذر بقلَّة يقينه[3] ، روىٰ أبو إدريس الخولانيُّ ، عن أبي ذرٍّ الغفاري رضي الله عنه ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « كانت صُحفُ موسىٰ عليه السلام كلُّها عِبَراً : **عجبتُ لمَن أيقن بالنار ثم هو يضحكُ** ، **وعجبتُ لمَن أيقن بالموت ثم هو يفرح** ، **وعجبتُ لمن أيقن بالقدر ثم هو ينصَب** ، **وعجبتُ لمَن رأى الدنيا وتقلُّبها بأهلها ثم يطمئنُّ إليها** ، **وعجبتُ لمَن أيقن بالحساب غداً ثم لا يعمل** »[4] .

وروي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « **اجتهِدُوا في العمل** ؛ فإن قصَّرَ بكم ضعفٌ . **فكُفُّوا عن المعاصي** »[5] ، وهـٰذا واضح المعنىٰ ؛ **لأنَّ الكفَّ عن المعاصي تركٌ** ، وهو أسهلُ ، **وعمل الطاعات فعلٌ** ، وهو أثقلُ ؛ **ولذلك لم يُبِحِ الله تعالى ارتكابَ معصيةٍ قطُّ لعذرٍ** ، ولا غير عذر ؛ لأنه تركٌ ، والتركُ

---

(١) رواه البيهقي في « الزهد » (٩٦٣) .

(٢) أورد البيتين في « المجالسة وجواهر العلم » (٢٤٤٥) ، وابن أبي الدنيا في « القبور » (٢١١) بدون نسبة .

(٣) في (أ ، ب) : (المُبذِّر بقلة يقينه) .

(٤) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٣٦١) ، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (١/١٨) .

(٥) أورده في « عيون الأخبار » (٢/٣٦٩) ، ورواه في « المجالسة وجواهر العلم » (١١٩٠) من قول بكر بن عبد الله المزنيّ رحمه الله تعالىٰ .

لا يعجز المعذور عنه ، وأباح ترك الأعمال بالأعذار ؛ لأنَّ العمل قد يعجز المعذورُ عنه .

وقال بكر بن عبد الله : (رحم الله امرأً كان قوياً **فأعمل قوّتَه في طاعة الله تعالىٰ ، أو كان ضعيفاً فكفَّ عن معصية الله تعالىٰ**)[1] .

قال عبد الأعلى بن عبد الله الشاميُّ : [من الكامل]

العُمْـرُ ينقُـصُ والـذنـوبُ تـزيـدُ ويُقـالُ عثـرتَـهُ الفتـىٰ فيعـودُ
هـل يستطيـعُ جحـودَ ذنـبٍ واحـدٍ رجـلٌ جـوارحُـه عليـه شُهـودُ
والمـرءُ يُسـأَلُ عـن سِنِيـهِ فيشتهـي تنقيصَهـا ومـن المَمـاتِ يحيـدُ

واعلم : أنَّ لأعمال الطاعات ومجانبة المعاصي آفتين : **إحداهما** : تكسب الوزرَ ، **والأخرىٰ** : تذهب الأجرَ .

فأمّا المكسبة للوزر : فالإعجاب بما أسلف من عمله ، وقدَّم من طاعته ؛ **لأن الإعجاب به يفضي إلىٰ حالتين مذمومتين** :

إحداهما : أن المُعجَب بعمله ممتنٌّ به ، **والممتنُّ على الله تعالىٰ جاحدٌ لنِعَمه** ، قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما : (أوحى الله تعالىٰ إلىٰ نبيٍّ من أنبيائه : **أمّا زهدُكَ في الدنيا** . . فقد استعجلتَ به الراحة ، **وأمّا انقطاعُكَ إليَّ** . . فهو عزٌّ لكَ ، فهـٰذان لكَ ، **وبقيتُ أنا**)[2] .

والثانية : أنَّ المُعجَب بعمله مُدِلٌّ به ، والمدلُّ مجترىءٌ ، **والمجترىء على الله تعالىٰ عاصٍ** ، وقد قال مُوَرِّق العجليُّ : (**خيرٌ من العُجْب بالطاعة ألا تأتي بطاعة**)[3] .

وقال بعض السلف : (**ضاحكٌ معترف بذنبه** . . خيرٌ من باكٍ مُدِلٍّ علىٰ ربه ،

---

(1) رواه الإمام أحمد في « الزهد » (١٨٣٣) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (٢٨٢٤) .
(2) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٩٦٢) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٣/ ٤٢٠) .
(3) أورده في « البيان والتبيين » (٢/ ١٩٨) ، و« شرح نهج البلاغة » (٢/ ٩٥) .

وباكٍ نادمٌ علىٰ ذنبه . . خيرٌ من ضاحك مغترٍّ بلهوه)[1] .

وأمّا المذهبةُ للأجر : فالثقة بما أسلف ، والركونُ إلىٰ ما قدَّم ؛ لأن الثقة تؤول إلىٰ أمرين سيئين :

ـ أحدهما : يحدث اتكالاً علىٰ ما مضىٰ ، وتقصيراً فيما يستقبل ، ومَن قصَّر واتّكل . . لم يرجُ أجراً ، ولم يؤدِّ شكراً .

ـ والثاني : أن الواثق آمِنٌ ، والآمِن من الله تعالىٰ غير خائف ، ومَن لم يخَفِ الله تعالىٰ . . هانت عليه أوامره ، وسهلت عليه زواجره ، وقد قال الفضيل بن عياض : (رهبةُ المرء من الله تعالىٰ علىٰ قدْر علمه بالله تعالىٰ)[2] .

وقال مورِّق العجليُّ : (لأَنْ أبيتَ نائماً وأصبحَ نادماً . . أحبُّ إليَّ من أن أبيتَ قائماً وأصبحَ ناعماً)[3] .

وقالت الحكماء : (ما بينك وبين ألا يكون فيك خيرٌ إلا أن ترىٰ أنَّ فيك خيراً)[4] .

وقيل لرابعة العدويّة : (هل عملتِ عملاً قطُّ ترَينَ أنه يُقبَل منكِ ؟ قالت : إن كان شيءٌ . . فخوفي من أن يُرَدَّ عليَّ عملي)[5] .

وقال ابن السمّاك : (إنّا لله فيما مضىٰ ، ما أعظمَ فيه الخطرَ !! وإنّا لله فيما بقي ، ما أقلَّ منه الحذر !!) .

وحكي : أن بعض الزهّاد وقف علىٰ جمعٍ ، فنادىٰ بأعلىٰ صوته : (يا معشرَ الأغنياء ؛ لكم أقول : استكثروا من الحسنات ؛ فإنَّ ذنوبكم كثيرة ، ويا معشر

---

(١) أورد شطره الأول في « البيان والتبيين » (٢/١٩٨) ، و« التذكرة الحمدونية » (١/٢٠٥) من قول مورّق العجلي .

(٢) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٨٥٦) ، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (٨/٨٩) .

(٣) رواه الإمام أحمد في « الزهد » (١٣٤٢) ، وأبو بكر الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (٢١٦١) عن مطرّف بن عبد الله بن الشخّير رحمه الله ، وفيه وفي (ج) : (معجباً) بدل (ناعماً) ، وفي هامش (ب) : (لعله : زاعماً) .

(٤) في هامش (د) : (فعلىٰ هـٰذا يكون غايةُ ما تطلب هو غايةَ ما تترك) .

(٥) أورده في « ربيع الأبرار » (٤/٢٩٨) ، و« بهجة المجالس » (٢/٣٤٥) .

الفقراء ؛ لكم أقول : **أقلُّوا من الذنوب ؛ فإنَّ حسناتِكم قليلة**) .

فينبغي ـ أحسنَ الله لك التوفيقَ ـ **ألا تضيع صحّةَ جسمك وفراغَ وقتك** بالتقصير في طاعة ربِّك ، والثقة بسالف عملك ، **واجعل الاجتهاد غنيمة صحّتك** ، والعمل فرصة فراغك ؛ **فليس كلُّ الزمان مسعِداً** ، ولا ما فات مستدركاً ، **وللفراغ زيغٌ أو ندم** ، وللخلوة ميلٌ أو أسف .

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالىٰ عنه : (**الراحة للرجال غفلة ، وللنساء غُلْمة**)[1] .

وقال بُزُرْجُمِهْرَ : (**إن يكنِ الشغلُ مَجهدةً . . فإنَّ الفراغَ مَفسدةٌ**)[2] .

وقال بعض الحكماء : (**إياكم والخلَوات** ؛ فإنَّها تفسد العقول ، وتعقد المحلول) .

وقال بعض البلغاء : (**لا يمضي يومُك في غير منفعة ، ولا يضيعُ مالك في غير صنيعة** ؛ **فالعمر أقصر** من أن ينفد في غير المنافع ، **والمال أقلُّ** من أن ينصرف في غير الصنائع ، **والعاقل أجلُّ** من أن يفنيَ أيّامَه فيما لا يعود عليه نفعه وخيره ، وينفقَ أموالَه فيما لا يحصل له ثوابه وأجره) .

وأبلغُ من ذلك قول عيسى ابن مريم عليه السلام : (**البرُّ ثلاثة** : المنطقُ والنظرُ والصمتُ ؛ **فمَن كان منطقُه في غير ذكرٍ** . . فقد لغا ، **ومَن كان نظره في غير اعتبارٍ** . . فقد سها ، **ومَن كان صمتُه في غير فكرٍ** . . فقد لها)[3] .

* * *

واعلم : أن للإنسان فيما كُلِّف من عباداته **ثلاثة أحوال** : **إحداها** : أن يستوفيها من غير تقصيرٍ فيها ولا زيادةٍ عليها ، **والثانية** : أن يقصِّر فيها ، **والثالثة** : أن يزيد عليها .

---

(١) أورده في « البصائر والذخائر » (٨/ ١٩٠) ، و« محاضرات الأدباء » (٢/ ٢٥٧) غير منسوب ، **والغلمة** : هي غلبة شهوة الجماع .

(٢) أورده في « نهاية الأرب » (٦/ ١٣٤) ، و« التذكرة الحمدونية » (١/ ٢٤٨) من قول سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(٣) أورده في « البيان والتبيين » (١/ ٢٩٧) ، و« التذكرة الحمدونية » (١/ ٦٠) .

فأمّا الحالُ الأولىٰ : وهو أن يأتي بها علىٰ حال الكمال من غير تقصيرٍ فيها ، ولا زيادة تطوّع علىٰ راتبها . . **فهي أوسطُ الأحوال وأعدلُها** ؛ لأنه لم يكن منه تقصيرٌ فيذمَّ ، ولا تكثيرٌ فيعجزَ .

وقد روىٰ سعيد بن أبي سعيد ، عن أبي هريرة رضي الله عنه : أنَّ النبيَّ صلى الله تعالىٰ عليه وسلم قال : « **سدِّدُوا وقارِبُوا ، ويسِّروا** ، واستعينُوا بالغَدْوةِ والرَّوْحةِ وشيءٍ من الدُّلْجةِ »[1] .

وقال الشاعر[2] : [من الطويل]

عليكَ بأوساطِ الأمورِ فإنَّها نجاةٌ ولا تركَبْ ذَلولاً ولا صَعْبَا

وأمّا الحالُ الثانية : وهو أن يقصِّر فيها . . **فلا يخلو حال تقصيره من أربعة أحوال** :

إحداهنَّ : أن يكون تقصيره لعذرٍ أعجزه عنه ، أو مرضٍ أضعفه عن أداء ما كُلِّف منه ؛ **فهٰذا يخرج عن حكم المقصِّرين ، ويلحق بأحوال العاملين** ؛ لاستقرار الشرع علىٰ سقوط ما دخل تحت العجز ، وقد جاء الحديث عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « **ما مِن عاملٍ كان يعملُ عمَلاً فيقطعُه عن ذلك العملِ مرضٌ إلا وكَّل الله تعالىٰ به مَن يكتبُ له ثوابَ عمَلِه** »[3] .

والحال الثانية : أن يكون تقصيرُه اغتراراً بالمسامحة فيه ، ورجاءً للعفو عنه ؛ **فهٰذا مخدوع العقل ، مغرورٌ بالجهل** ، قد جعل الظنَّ ذُخراً ، والرجاءَ عدّة ، فهو كمن قطع سفراً بعيداً بغير زاد ؛ ظنّاً بأنه سيجده في المفاوز الجدبة ، **فيفضي به الظنُّ إلى الهَلَكة** ، وهلاّ كان الحذرُ أغلبَ عليه وقد ندب الله تعالىٰ إليه ؟!

حكي عن إسرائيل بن محمد القاضي قال : (لقيني مجنونٌ كان يكون في الخَرِبات ، فقال : يا إسرائيلُ ؛ **خَفِ اللهَ تعالىٰ خوفاً يشغلُك عن الرجاء** ؛ فإنَّ

---

(١) رواه النسائي (٨/ ١٢٢) .

(٢) أورده في « البيان والتبيين » (١/ ٢٥٥) ، و« التمثيل والمحاضرة » (ص٤٢٩) .

(٣) رواه البخاري (٢٩٩٦) ، وأبو داوود (٣٠٩١) بنحوه عن سيدنا أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

الرجاءَ يشغلُك عن الخوف ، وفِرَّ إلى الله تعالىٰ ، ولا تفرَّ منه)[1] .

وقيل لمحمد بن واسع : (ألا تتكىءُ ؟ فقال : تلك جِلسةُ الآمنين)[2] .

وحكي : أن أبا حازم الأعرج أخبر سليمان بن عبد الملك بوعيد الله عز وجل المذنبين، فقال سليمان: (فأين رحمة الله تعالىٰ؟ قال: قريبٌ من المحسنين)[3] .

وقال عبد الله بن عباس رضي الله تعالىٰ عنهما : (ما انتفعتُ ولا اتعظتُ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل كتابٍ كتبه إليَّ عليُّ بن أبي طالب عليه السلام ، قال : « أمّا بعدُ : فإنَّ الإنسان يسرُّه دَرْكُ ما لم يكن ليفوتَه ، ويسوءُه فَوْتُ ما لم يكن ليدركَه ، فلا تكن بما نلتَ من دنياك فرِحاً ، ولا بما فاتك منها ترِحاً ، ولا تكن ممَّن يرجو الآخرة بغير عمل ، ويؤخِّر التوبة بطول الأمل ، فكأنْ قدِ ، والسلام »)[4] .

وقال محمود الورّاق[5] : [من المتقارب]

أخافُ على المحسِنِ المُتَّقي ... وأرجو لذي الهفَواتِ المُسِيْ

فذلكَ خوفي علىٰ مُحسنٍ ... فكيف على الظالم المُعتدِيْ

---

(١) أورده ابن المعتز في « البديع » (ص٤٠) ، وابن حبيب في « عقلاء المجانين » (ص٩٧) ، واسم المجنون : (سابق) .

(٢) أورده في « عيون الأخبار » (١/ ٣٠٧) ، و« المجالسة وجواهر العلم » (١١٧٧) .

(٣) رواه الدارمي في « مسنده » (٦٧٣) ، و« المجالسة وجواهر العلم » (١٥٠٧) .
وزاد في (ب) : (وأما قصة أبي حازم . . ففيها طول ؛ وذلك أن سليمان بن عبد الملك قال لأبي حازم : عظني ، فقال : ما أعظك بأجل من آية في كتاب الله تعالىٰ ، قال : وما هي ؟ قال : قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ ، قال : فمن أيّهم أنا ؟ قال : أبصر ، قال : يا هٰذا ؛ فأين صلاتنا وصيامنا وحجنا وجهادنا ؟ قال : ارجع إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ ، قال : يا هٰذا ؛ فأين قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : ارجع إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ ، قال : يا هٰذا ؛ فأين الشفاعة ؟ قال : ارجع إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ ، قال : يا هٰذا ؛ فأين الرحمة ؟ فوثب قائماً فقال : انتهت المسألة ، في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾) .

(٤) رواه في « تاريخ دمشق » (٤٢/ ٥٠٣) بنحوه ، وعبد الحق الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (ص ٦٧) ؛ وفيه : (فكأن قد نزل بك الأجل ، والسلام) .

(٥) الأبيات في « ديوانه » (ص ٢٠٥) .

عليٰ أنَّ ذا الزيغِ قد يستفيقُ ويستأنفُ الزيغَ قلبُ التَّقِيْ

والحال الثالثة : أن يكون تقصيره فيه ليستوفي ما أخلَّ به من بعد ، فيبدأ بالسيئة في التقصير قبل الحسنة في الاستيفاء ؛ اغتراراً بالأمل في إمهاله ، ورجاءً لتلافي ما أسلف من تقصيره وإخلاله ، فلا ينتهي به الأمل إلىٰ غاية ، ولا يفضي به إلىٰ نهاية ؛ لأن الأمل في ثاني حال كهو في أول حال[1] ، وقد روي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من كان يأمل أن يعيش غداً . . فإنه يأمل أن يعيش أبداً »[2] .

ولعَمري ؛ إنَّ هٰذا صحيح ؛ لأن لكل يومٍ غداً ، فإذاً يفضي به الأمل إلى الفَوْت من غير دَرْك ، ويؤدِّيه الرجاء إلى الإهمال من غير تلافٍ ، فيصير الأمل خيبةً ، والرجاء إياساً .

وقد روىٰ عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « أَوَّلُ صلاحِ هٰذه الأمة : باليقين والزُّهد، وفسادِها : بالبخل والأمل »[3] .

وقال الحسن البصريُّ رضي الله تعالىٰ عنه : (ما أطال عبدٌ الأملَ إلا أساء العملَ)[4] .

وقال رجل لبعض الزهَّاد بالبصرة : (أَلكَ حاجةٌ ببغداذ ؟ قال : ما أحبُّ أن أبسطَ أملي بمن يذهب إلىٰ بغداذ ويجيء)[5] .

وقال بعض الحكماء : (الجاهل يعتمد علىٰ أمله ، والعاقل يعتمد علىٰ عمله)[6] .

---

(١) كهو : كالأمل الموجود في أول حال ، واستعير المرفوع المنفصل من المجرور المتصل ؛ لتعذر الاتصال ، إذ لا يقال : (كه) كما يقال : (به) و(منه) .

(٢) أورده الديلمي في « الفردوس » (٤٧٠٩) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٣) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (١٠٣٥٠) .

(٤) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (١٠٢٩٩) ، وابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٠٥) .

(٥) أورده عبد الحق الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (ص ٦٥) ؛ وفيه : (. . . أملي حتىٰ تمضي إلىٰ بغداد وتجيء) .

(٦) أورده في « العاقبة في ذكر الموت » (ص ٦٨) ، وفي (ج) زيادة : (والعارف يعتمد علىٰ ربه وجلاله) .

وقال بعض البلغاء : (**الأمل كالسَّراب** ، غرَّ مَن رآه ، وخاب مَن رجاه)[1] .

وقال محمد بن يزداد : دخلتُ على المأمون ـ وكان يومئذٍ وزيرَه ـ فرأيتُه قائماً وبيده رقعةٌ ، فقال : يا محمد ؛ أقرأتَ ما فيها ؟ فقلت : هي في يد أمير المؤمنين !! قال : فرمىٰ بها إليَّ ؛ فإذا فيها مكتوبٌ : [من السريع]

إنَّـــكَ فـــي دارٍ لهـــا مـــدّةٌ ... يُقبَـــلُ فيهـــا عمَـــلُ العـــامِـــلِ

أمَـا تـرى المـوتَ محيطـاً بهـا ... يقطَـــعُ فيهـــا أمَـــلَ الآمِـــلِ

تُعجِّـلُ الـذنـبَ لمـا تشتهـي ... وتـأمُـلُ التـوبـةَ مـن قـابِـلِ

والمـوتُ يـأتـي بعـدَ ذا غفلـةً ... مـا ذا بفعـلِ الحـازمِ العـاقِـلِ

فلمّا قرأتُها . . قال المأمون : هٰذا من أحكم شعرٍ قرأتُه)[2] .

وقال أبو حازم الأعرج : (نحن لا نريد أن نموت حتىٰ نتوب ، ونحن لا نتوب حتىٰ نموت)[3] .

وقال بعض البلغاء : (**الإمهالُ رائدُ الإهمالِ**)[4] .

* * *

والحال الرابعة : أن يكون تقصيره فيها استثقالاً للاستيفاء ، وزهداً في التمام ، واقتصاراً علىٰ ما سنح ، وقلةَ اكتراثٍ فيما بقي ؛ **فهٰذا علىٰ ثلاثة أضرب** :

ـ **أحدها** : أن يكون ما أخلَّ به وقصَّر فيه غيرَ قادحٍ في فرض ، ولا مانعٍ من إجزاء عبادة ؛ كمَن اقتصر من العبادة علىٰ فعل واجباتها ومفروضاتها ، وأخلَّ بمسنوناتها وهيئاتها ؛ فهٰذا مسيء فيما ترك إساءةَ مَن لا يستحقُّ وعيداً ، ولا يستوجب عقاباً ؛ لأن أداء الواجب يُسقط عنه العقاب ، وإخلاله بالمسنون يمنع من إكمال الثواب .

---

(١) أورده في « البصائر والذخائر » (٥/ ١٠٢) ، و« زهر الآداب » (١/ ٤٠٥) مما رواه الأصمعي عن أعرابيّ .

(٢) أورده في « تاريخ دمشق » (٥٦/ ٢٣٨) ، وذكر فيه (٣٣/ ٣٣٣) : أن الأبيات كتبها علي بن موسى الرضا إلى المأمون .

(٣) رواه في « حلية الأولياء » (٣/ ٢٣٢) ، و« المجالسة وجواهر العلم » (١٢٦٥) .

(٤) انظر « فيض القدير » (٣/ ١٩٤) ، والمراد : أنه جاسوسه الذي يتقدمه ويهيىء له مرعىً ومنزلاً .

وقد قال بعض الحكماء : (**مَن تهاون بالدِّين . . هان ، ومَن غالب الحقَّ . . لان**) .

وقال الشاعر : [من مجزوء الكامل]

ويصـــونُ ثـــوبَيـــهِ ويتـــــرُكُ غيـرَ ذلـك لا يَصـونُـهْ
وأَحـــقُّ مـــا صـــانَ الفتـــىٰ ورعـــىٰ أمـــانتُـــهُ ودِينُـــهْ

ـ **والضرب الثاني** : أن يكون ما أخلَّ به من مفروض عباداته ، **لٰكن لا يقدح تركُ ما بقي فيما مضىٰ** ؛ كمَن أكمل عبادة ، وأخلَّ بغيرها ، **فهٰذا أسوأ حالاً ممَّا** تقدمه ؛ لما استحقَّه من الوعيد ، واستوجبه من العقاب .

ـ **والضرب الثالث** : أن يكون ما أخلَّ به من مفروض عباداته ، **وهو قادح فيما عمل منها** ؛ كالعبادة التي يرتبط بعضها ببعض ، **فيكون المقصِّر في بعضها تاركاً لجميعها** ، فلا يحتسب له بما عمل ؛ لإخلاله بما بقي ، **وهٰذه أسوأ أحوال المقصِّرين** ، ولاحقةٌ بأحوال التاركين ، **بل قد تكلَّف ما لا يُسقط فرضاً** ، ولا يؤدِّي حقّاً ، **فقد ساوى التاركين في استحقاق الوعيد** ، وزاد عليهم في تكلُّف ما لا يفيد ، **فصار من الأخسرين أعمالاً** الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، **ثم لعلَّه لا يفطن لشانه ، ولا يشعر بخسرانه** ، وقد خسر الدنيا والآخرة ، **ويفطن** لليسير من ماله إن وهىٰ واختلّ .

وأنشدني بعض أهل العلم[1] : [من الكامل]

أبُنَـيَّ إنَّ مـنَ الـرجـالِ بهيمـةً في صورة الرجلِ السَّميعِ المُبصرِ
فطنـاً بكـلِّ مصيبـةٍ فـي مـالِـهِ فـإذا يُصـابُ بـدينـه لـم يشعـرِ

وأمّا الحالُ الثالثة : وهو أن يزيد فيما كُلِّف . . **فهٰذا علىٰ ثلاثة أقسام** :

ـ **أحدها** : أن تكون الزيادة رياءً للناظرين ، وتصنُّعاً للمخلوقين ، حتىٰ

(١) البيتان منسوبان لسيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه في « ديوانه » (ص ١٣٧) ، ولعبد الله بن المبارك رحمه الله تعالىٰ في « ديوانه » (ص ٨١) .

يستعطف به القلوب النافرة ، ويخدع به العقول الواهية ، فيتبهرج بالصلحاء وليس منهم ، ويتدلَّس بالأخيار وهو ضدهم .

وقد ضرب النبيُّ صلى الله عليه وسلم للمُرائي بعمله مثلاً فقال : « **المُتشبِّعُ بما لا يملكُ كلابس ثوبَي زُورٍ** »[1] ، يريد بالمتشبِّع بما لا يملك : المتزيِّن بما ليس فيه ، وقوله : (**كلابس ثوبَي زُورٍ**) هو الذي يلبس ثياب الصُّلَحاء ، ويفعل فعل الطُّلَحاء ، فهو بريائه محروم الأجر ، مذموم الذِّكر ؛ لأنه لم يقصد به وجه الله تعالىٰ **فيؤجَرَ عليه** ، ولا يخفىٰ رياؤه على الناس **فيُحمَدَ** به .

وقال الله تعالىٰ : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴾ قال جميع أهل التأويل : (**معنىٰ قوله** : ﴿ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴾ أي : لا يُرائي بعمله أحداً)[2] .

فجعل الرياء شركاً ؛ لأنَّه جعل ما يُقصَد به وجهُ الله تعالىٰ مقصوداً به غيرُ الله تعالىٰ .

وقال الحسن البصري في قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ قال : (**لا تجهر بها رياءً ، ولا تُخافت بها حياءً**)[3] .

وكان سفيان بن عيينة يتأوَّل قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ﴾ : (**أن العدل** : استواء السَّريرة والعلانية في العمل لله تعالىٰ ، **والإحسان** : أن تكون سريرته أحسنَ من علانيته ، **والفحشاء والمنكر** : أن تكون علانيته أحسنَ من سريرته)[4] .

وكان غيره يقول : (**العدل** : شهادةُ أنْ لا إلـٰهَ إلا الله ، **والإحسان** : الصبر علىٰ أمره ونهيه ، وطاعة الله تعالىٰ في سرِّه وجهره ، **وإيتاء ذي القربىٰ** : صلة الأرحام ،

---

(١) رواه البخاري (٥٢١٩) ، ومسلم (٢١٣٠) عن السيدة أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما .

(٢) رواه هناد في « الزهد » (٨٥٣) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٦٤٣٩) عن سعيد بن جبير رحمه الله تعالىٰ .

(٣) رواه في « تاريخ دمشق » (٨/٧) .

(٤) رواه الخطيب البغدادي في « موضح أوهام الجمع والتفريق » (١/ ٤٣٥) .

وينهىٰ عن الفحشاء : يعني : الزنا ، والمنكر : القبائح ، والبغي : الكبر والظلم)[1] .

وليس يخرج الرياء بالأعمال من هٰذا التأويل أيضاً ؛ لأنَّه من جملة القبائح .

وقد روي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أخوَفُ ما أخافُ علىٰ أمّتي : الرياءُ الظاهرُ ، والشهوةُ الخفيّةُ »[2] .

وروي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أشدُّ الناس عذاباً يومَ القيامةِ : مَن يرىٰ أنَّ فيه خيراً ولا خيرَ فيه »[3] .

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام : (لا تعملْ شيئاً من الخير رياءً ، ولا تتركْه حياءً)[4] .

وقال بعض البلغاء : (كلُّ حسنة لم يُرَد بها وجه الله تعالىٰ . . فعلّتُها قبحُ الرياء ، وثمرتُها سوءُ الجزاء) .

وقد يفضي الرياء بصاحبه إلى استهزاء الناس به ؛ كما حكي أن طاهر بن الحسين قال لأبي عبد الله المروزيِّ : (منذ كم صرت إلى العراق يا أبا عبد الله ؟ قال : دخلت العراق منذ عشرين سنة ، وأنا منذ ثلاثين سنة صائم ، فقال : يا أبا عبد الله ؛ سألناك عن مسألة ، فأجبتنا عن مسألتين ؟!)[5] .

وحكى الأصمعيُّ : أن أعرابياً صلَّىٰ فأطال وإلىٰ جانبه قومٌ ، فقالوا : ما أحسنَ صلاتَكَ !! فقال : وأنا مع ذلك صائم ، فقال أعرابيٌّ كان فيهم يستهزِئُ به : [من الكامل]

صلَّىٰ فأعجَبَني وصامَ فرابَني ... نَحِّ القَلُوصَ عن المُصلِّي الصائمِ[6]

---

(١) رواه الطبري في « تفسيره » (٨/ ١٤/ ١٩٨) ، والطبراني في « الدعاء » (١٥٨٣) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

(٢) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٦٤٠٥) ، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (٧/ ١٢٢) .

(٣) رواه أبو عبد الرحمٰن السلمي في « الأربعين في التصوف » (١١) ، والديلمي في « الفردوس » (١٤٥٨) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

(٤) أورده في « محاضرات الأدباء » (٤/ ١٢٥) ، و« ربيع الأبرار » (٢/ ٢٣٧) .

(٥) أورده في « البيان والتبيين » (٢/ ٣١٩) ، و« العقد الفريد » (٣/ ٢١٦) .

(٦) أورده في « البيان والتبيين » (٢/ ٣١٩) .

فانظر إلىٰ هـٰذا الرياء مع قبحه ، ما أدلَّه علىٰ سخف عقل صاحبه !!

وربّما ساعد الناسَ بظهور ريائه على الاستهزاء بنفسه ؛ كالذي حكي أن زاهداً نظر إلىٰ رجلٍ في وجهه سجادة كبيرة واقفاً علىٰ باب السلطان ، فقال : (مثلُ هـٰذا الدرهم بين عينيك وأنت هـٰهنا ؟! فقال : إنَّه ضُرب علىٰ غير السكة)[1] ، وهـٰذا من أجوبة الخَلاعة التي يدفع بها تهجين المَذمّة .

ولقد استحسن الناس من الأشعث بن قيس قوله وقد خفَّف صلاته مرةً ، فقال له بعض أهل المسجد : خفَّفت صلاتك جداً !! فقال : (إنه لم يخالطها رياءٌ)[2] .

فخلص من تنقُّصهم وسلم من تعيُّبهم بنفي الرياء عن نفسه ، ورفع التصنُّع من صلاته ، وقد كان الإنكار لولا ذلك متوجِّهاً عليه ، واللوم لاحقاً به .

ومرَّ أبو أمامة ببعض المساجد ؛ فإذا رجلٌ يصلي وهو يبكي ، فقال : (أنت أنت ؛ لو كان هـٰذا في بيتك ؟)[3] ، فلمْ يرَ ذلك منه حسناً ؛ لأنه اتهمه بالرياء ولعلّه كان بريئاً منه ، فكيف بمَن صار الرياء أغلب صفاته ، وأشهر سماته ، مع أنه آثمٌ فيما عمل ، أنمُّ من هبوب النسيم بما حمل ، ولذلك قال عبد الله بن المبارك : (أفضلُ الزهد إخفاءُ الزهد)[4] .

وربّما أحسَّ ذو الفضل من نفسه ميلاً إلى المراءاة ، فبعثه الفضلُ علىٰ هتك ما نازعته النفس في المراءاة به ، وكان ذلك أبلغَ في فضله ؛ كالذي حكي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أنه أحسَّ على المنبر بريحٍ خرجت منه ، فقال : (أيُّها الناس ؛ إني قد ميَّلتُ بين أن أخافكم في الله تعالىٰ وبين أن أخاف الله تعالىٰ فيكم ، فكان أنْ أخافَ الله تعالىٰ فيكم أحبَّ إليَّ ، ألا وإني قد فسوتُ ، وها أنا

---

(١) أورده في « الكشكول » (٢/ ٢٠١) ، و« شرح نهج البلاغة » (١٨/ ١٣٩) من قول الربيع وزير المنصور .

(٢) أورده البلاذري في « أنساب الأشراف » (١٠/ ٤٥٢) ، و« البيان والتبيين » (٢/ ٣٣٤) ، و« التذكرة الحمدونية » (٧/ ٢١٨) من قول أشعب .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٥٦) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٤/ ٦٧) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (١٠٣) ، و« المجالسة وجواهر العلم » (٧١) .

إذاً أنزلُ لأعيدَ الوضوء)[1] ، فكان ذلك منه زجراً لنفسه ؛ لتكفَّ عن نزاعها إلىٰ مثله .

وقال عمر بن عبد العزيز لمحمد بن كعب القرظي : (عظني ، فقال : **لا أرضىٰ نفسي لكَ** ؛ لأنِّي أجلس بين الفقير والغني ، **فأميلُ على الفقير** ، **وأوسعُ للغني**)[2] .

ولأن طاعة الله تعالىٰ في العمل لوجهه لا لغيره .

حكي : أن قوماً أرادوا سفراً ، فحادوا عن الطريق ، فانتهَوا إلىٰ راهبٍ فقالوا : (**قد ضللنا** ، **فكيف الطريق** ؟ فقال : هٰهنا ، **وأومأ إلى السماء**)[3] .

ـ **والقسم الثاني** : أن يفعل الزيادة اقتداءً بغيره ، **وهٰذا قد تثمره مجالسة الأخيار الأفاضل** ، وتحدثه مكاثرة الأتقياء الأماثل ، ولذلك قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « **المرءُ علىٰ دينِ خَليلِه ؛ فلينظُرْ أحدُكُم مَن يُخالِلُ** »[4] .

فإذا كاثرهم **المُجالسُ** ، وطاولَهم المؤانسُ . . أحبَّ **أن يقتدي بهم في أفعالهم** ، ويتأسَّىٰ بهم في أعمالهم ، **ولا يرتضي لنفسه أن يقصِّر عنهم** ، ولا أن يكون في الخير دونهم ، **فتبعثه المنافسة علىٰ مساواتهم** ، وربَّما دعته الحميّة إلى الزيادة عليهم ، والمكاثرة لهم ، **فيصيروا سبباً لسعادته** ، وباعثاً على استزادته .

والعرب تقول : (**لولا الوئامُ . . هلك الأنامُ**)[5] أي : لولا أنَّ الناس يرىٰ بعضهم بعضاً فيقتدي به في الخير . . لهلكوا .

ولذلك قال بعض البلغاء : (**إنَّ من خير الاختيار** صحبةَ الأخيار ، **ومن شرِّ الاختيار** مودّةَ الأشرار) **وهٰذا صحيح** ؛ لأن للمصاحبة تأثيراً في اكتساب

(١) أورده في « عيون الأخبار » (١/٢٦٧) ، وميَّل بين الأمرين : تردَّد أيَّهما يأتي .
(٢) أورده في « عيون الأخبار » (٢/٣٧٠) ، و« البيان والتبيين » (٣/١٤٣) .
(٣) أورده في « عيون الأخبار » (٢/٣٦٨) ، و« المجالسة وجواهر العلم » (٧٣٥) .
(٤) رواه أبو داوود (٤٨٣٣) ، والترمذي (٢٣٧٨) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .
(٥) أورده أبو عبيد في « الأمثال » (ص ١٥٦) .

الأخلاق ، **فتصلح أخلاق المرء** بمصاحبة أهل الصلاح ، **وتفسد** بمصاحبة أهل الفساد .

وقال الشاعر(١) : [من الطويل]

رأيتُ صلاحَ المرءِ يُصلِحُ أهلَهُ ويُعـديهـم عنـد الفسـادِ إذا فسَـدْ
يُعظَّمُ في الدنيا بفضلِ صلاحِهِ ويُحفَظُ بعدَ الموتِ في الأهلِ والولَدْ

وأنشدني بعض أهل الأدب لأبي بكر الخوارزميّ(٢) : [من الكامل]

لا تصحبِ الكسلانَ في حاجاته كـم صـالـحٍ بفسـادِ آخـرَ يفسـدُ
عَدْوى البليدِ إلى الجليدِ سريعةٌ والجمرُ يُوضَعُ في الرَّمادِ فيخمدُ

- **والقسم الثالث** : أن يفعل الزيادة ابتداءً من نفسه ؛ **التماساً لثوابها** ، ورغبةً في الزُّلْفة بها ، **فهٰذا من نتائج النفس الزاكية** ، ودواعي الرغبة الوافية ، **الدالِّين علىٰ خُلوص الدين** ، وصحّة اليقين ؛ **وذلك أفضل أحوال العاملين** ، وأعلىٰ معاقل منازل العابدين .

وقد قيل : (**الناس في الخير أربعة** : **منهم مَن** يفعله ابتداءً ، **ومنهم مَن** يفعله اقتداءً ، **ومنهم** مَن يتركه استحساناً ، **ومنهم** مَن يتركه حرماناً ؛ **فمَن فعله ابتداءً** . . فهو كريم ، **ومَن فعله اقتداءً** . . فهو حكيم ، **ومَن تركه استحساناً** . . فهو ردي ، **ومَن تركه حرماناً** . . فهو شقيّ)(٣) .

ثم لما يفعله من الزيادة حالتان :

إحداهما : أن يكون مقتصداً فيها ، وقادراً على الدوام عليها ؛ **فهي أفضل**

---

(١) البيتان لمحمود الورّاق في « ديوانه » (ص ٩٧) .
(٢) أورد البيتين في « يتيمة الدهر » (٤/ ٢٧٥) ، و« بهجة المجالس » (١/ ٧٠٥) .
(٣) أورده في « المستطرف » (١/ ٩٠) .

الحالتين ، وأعلى المنزلتين ، وعليها انقرض أخيار السلَف ، وتبعهم فيها فضلاءُ الخلَف .

وقد روت عائشة رضي الله تعالىٰ عنها أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « **أيُّها الناسُ ؛ اكلَفُوا من الأعمال ما تُطيقُون ، فإنَّ الله تعالىٰ لا يمَلُّ من الثواب حتىٰ تمَلُّوا من العمل ، وخيرُ الأعمالِ ما دِيمَ عليه** »[1] .

والعرب تقول : (القصدَ والدوامَ وأنت السابقُ الجوادُ)[2] .

ولأنَّ مَن كان صحيح الرغبة في ثواب الله تعالىٰ . . لم تكن له مسرّةٌ إلا في طاعته ، قال عبد الله بن المبارك رحمه الله : (قلت لراهب : متىٰ عيدُكم ؟ قال : **كلُّ يوم لا أعصي الله تعالىٰ فيه . . فهو يوم عيد**)[3] .

انظر إلىٰ هـٰذا القول منه وإن لم يكن من مقاصد الطاعة ، **ما أبلغَه في حب الطاعة ، وأحثَّه علىٰ بذل الاستطاعة ! !**

وخرج بعض الزهَّاد في يوم عيدٍ في هيئةٍ رثّة ، فقيل له : (أتخرج في مثل هـٰذا اليوم في مثل هـٰذه الهيئة والناس يتزيَّنون ؟! فقال : ما يُتزيَّن لله تعالىٰ بمثل طاعته)[4] .

والحال الثانية : أن يستكثر منها استكثارَ مَن لا ينهض بدوامها ، ولا يقدر على اتصالها ، فهـٰذا ربما كان بالمقصِّر أشبهَ ؛ لأن الاستكثار من الزيادة :

إمّا أن يمنع من أداء اللازم ، فلا يكون إلا تقصيراً ؛ **لأنه تطوُّعٌ بزيادةٍ أحدثت نقصاً** ، وبنفلٍ منع فرضاً .

---

(١) رواه البخاري (٤٣) ، ومسلم (٧٨٢) ، وأبو داوود (١٣٦٨) ، وقوله : (من الثواب) و(من العمل) مدرجٌ في الحديث .

(٢) أورده في « عيون الأخبار » (١/ ٣٢٧) من قول سيدنا سلمان رضي الله عنه ، وقوله : (**القصدَ والدوامَ**) منصوبان على الإغراء ؛ أي : الزمهما .

(٣) أورده في « الكشكول » (١/ ٢١٨) ، و« البصائر والذخائر » (١/ ١٩٨) .

(٤) روىٰ نحوه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (١٠/ ٣٧٣) عن أبي بكر الشبلي رحمه الله تعالىٰ .

وإمّا أن يعجز عن استدامة الزيادة ، ويمنع من ملازمة الاستكثار من غير إخلالٍ بلازم ، ولا تقصير في فرض ؛ فهي إذاً قصيرة المدىٰ ، قليلة اللَّبْث .

ولَقليلُ العمل في طويل الزمان أفضلُ عند الله من كثير العمل في قصير الزمان ؛ لأنَّ المستكثر من العمل في الزمان القصير قد يعمل زماناً ويترك زماناً ، فربَّما صار في زمانٍ تركه لاهياً أو ساهياً ، والمقلِّل في الزمان الطويل مستيقظ الأفكار ، مستديم التَّذْكار .

وقد روىٰ أبو صالح ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنَّ للإسلام شِرّةً ، وللشِّرّةِ فترةً ، فمَن سدَّد وقاربَ . . فارجُوه ، ومَن أشير إليه بالأصابع . . فلا تعدُّوه »[1] ، فجعل للإسلام شِرّة ؛ وهي : الإيغال في الاستكثار ، وجعل للشِّرّة فترة ؛ وهي : الإهمال بعد الاستكثار ، فلم يخلُ بما أثبت من أن تكون هـٰذه الزيادة تقصيراً أو إخلالاً ، ولا خيرَ في واحد منهما .

واعلم ـ جعل الله تعالى العلمَ حاكماً لك وعليك ، والحقَّ قائداً لك وإليك ـ : أن للدنيا إذا وصلت تبعاتٍ موبقةً[2] ، وإذا فارقت فجعاتٍ محرقةً ، وليس لوصلها دوامٌ ، ولا من فراقها بدٌّ ، فرُضْ نفسك علىٰ قطيعتها لتسلم من تبعاتها ، وعلىٰ فراقها لتأمن من فجعاتها ، فقد قيل : (المرء مقترِض من عمره المنقرِض ؛ مع أن العمر وإن طال قصير ، والفراغ وإن تمَّ يسير) .

أُنشدتُ لعلي بن محمد[3] : [من الطويل]

إذا كَمَلَتْ للمرءِ ستُّونَ حِجَّةً	فلم يَحْظَ من ستِّينَ إلا بسُدْسِها
ألم ترَ أنَّ النصفَ لليلِ حاصلٌ	وتذهبُ أوقاتُ المَقيلِ بخُمْسِها
وتأخذُ أوقاتُ الهمومِ بحصَّةٍ	وأوقاتُ أوجاعٍ تميتُ بمَسِّها

---

(١) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٣٤٩) ، والترمذي (٢٤٥٣) ، وتمّام في « فوائده » (١٦٦٩) ، والشِّرّة : النشاط والرغبة في الخير أو الشر .

(٢) التبعة : ما بقي في الذمة واجباً أداؤه كالمظلمة ، وموبقة : مهلكة .

(٣) أورد الأبيات الذهبي في « تاريخه » (٢١/ ١١٥) لأبي سليمان الضرير .

فحاصلُ ما يبقىٰ له سُدْسُ عُمْرِهِ إذا صدقته النفسُ عن علم حَدْسِها

ورياضة نفسك لذلك تترتَّب علىٰ أحوال ثلاث ، وكلُّ حالٍ منها تتشعَّب ، وهي لتسهيل ما يليها سبب .

فالحال الأولىٰ : أن تصرف حبَّ الدنيا عن قلبك ؛ فإنها تلهيك عن آخرتك ، **ولا تجعلْ سعيَك لها** . . فتمنعَك حظَّك منها ، **وتوقَّ الركونَ إليها** ، ولا تكنْ آمناً لها ؛ فقد روي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **مَن أُشرِبَ قلبُه حبَّ الدنيا** وركن إليها . . **ٱلْتاطَ منها** بشغلٍ لا يبلغ عَناه ، وأملٍ لا يبلغ منتهاه ، وحرصٍ لا يُدركُ مداه »[1] .

وقال عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام : (**الدنيا لإبليس مزرعةٌ** ، وأهلُها له حُرّاثٌ)[2] .

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام : (**مثَلُ الدنيا مثَلُ الحيّة** ؛ لَيِّنٌ مسُّها ، قاتلٌ سمُّها ، **فأعرِضْ عمَّا أعجبك منها** ؛ لقلَّة ما يصحبك منها ، **وضعْ عنك همومَها** ؛ لما أيقنت من فراقها ، وكن أحذرَ ما تكون لها آنسَ ما تكون بها ؛ فإنَّ صاحبها كلَّما اطمأنَّ منها إلىٰ سرور . . أشخصه عنها مكروه ، وإلىٰ إيناسٍ . . أزاله عنها إيحاشٌ)[3] .

وقال بعض البلغاء : (**إنَّ الدنيا لا تصفو لشارب** ، ولا تفي لصاحب ، **ولا تخلو من فتنة**، ولا تُخلي من محنة، **فأعرض عنها قبل أن تعرض عنك** ، واستبدل

---

(١) رواه الشهاب في « مسنده » (٥٤١) ، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (٨/ ١٢٠) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وركن إليها : تفسير للإشراب ومدرج في الحديث ، والتاط : لصق بقلبه ؛ ومنه نكاح الجاهلية يقال : **التاط به الولد** ؛ أي : التصق به وليس له .

(٢) رواه البيهقي في « الزهد » (٢٦٧) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٧/ ٤١٦) .

(٣) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (١٠١٤٢) ، وابن أبي الدنيا في « الزهد » (١٦٤) ممّا كتبه إلىٰ سلمان رضي الله عنه .

بها قبل أن تستبدل بك ؛ **فإن نعيمها يتنقَّل** ، وأحوالها تتبدَّل ، **ولذاتِها تفنىٰ** ، وتبعاتِها تبقىٰ) .

وقال بعض الحكماء : (**انظر إلى الدنيا نظرَ الزاهدِ المفارِقِ** ، ولا تتأمَّلها تأمُّلَ العاشق الوامق)[1] .

وقال بعض الشعراء[2] : [من الطويل]

ألا إنَّما الدنيا كأحلامِ نائمٍ ... وما خيرُ عيشٍ لا يكون بدائمِ

تأمَّلْ إذا ما نِلْتَ بالأمسِ لذَّةً ... فأفنيتَها هل أنتَ إلا كحالمِ

فمِن غافلٍ عنه وليس بغافلٍ ... ومِن نائمٍ عنه وليس بنائمِ

روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **مِن هَوانِ الدنيا على الله تعالىٰ** : ألا يُعصَىٰ إلا فيها ، ولا يُنالَ ما عنده إلا بتركها »[3] .

وروىٰ سفيان : أن الخضرَ قال لموسىٰ عليهما السلام : (**يا موسى ؛ اعزفْ عن الدنيا ، وانبذها وراءك** ؛ فإنَّها ليست لك بدار ، ولا لك فيها محلُّ قرار ، **وإنَّما جُعِلت الدنيا للعباد ؛ ليتزوَّدوا منها للمَعاد**)[4] .

وقال عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام : (**الدنيا قنطرة ، فاعبُروها ولا تعمُروها**)[5] .

وقال علي عليه السلام يصف الدنيا : (**أولُها** عناء ، **وآخرُها** فناء ، **حلالُها** حساب ، **وحرامُها** عقاب ، **مَن صحَّ فيها** . . أمن ، **ومَن مرض فيها** . . ندم ، **ومَن استغنىٰ فيها** . . فُتن ، **ومَن افتقر فيها** . . حزن ، **مَن ساعاها** . . فاتته ، **ومَن قعد**

---

(١) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٢/ ١٢٦) ممّا كتبه الحسن البصري إلىٰ عمر بن عبد العزيز ، وأورده في « البصائر والذخائر » (٣/ ٢٤) ، والوامق : هو المحب المفرط .

(٢) البيتان الأولان لابن عبد ربه الأندلسي في « ديوانه » (ص ٢٢٩) .

(٣) أورده في « المحاسن والأضداد » (ص ١١٦) ، و« بهجة المجالس » (٢/ ٢٨١) من قول أبي الدرداء رضي الله عنه .

(٤) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٦/ ٤١٤) ، والطبراني في « المعجم الأوسط » (٦٩٠٨) .

(٥) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ١٥) ، و« تاريخ دمشق » (٤٧/ ٤٣٠) .

عنها . . أتته ، ومَن نظر إليها . . أعمَتْه ، ومَن نظر بها . . بصَّرته)[1] .

وقال بعض البلغاء : (**الدنيا تُقبل إقبالَ الطالب** ، وتُدبر إدبارَ الهارب ، **وتصل وصالَ المَلُول** ، وتفارق فراقَ العَجُول ؛ **فخيرُها يسير** ، وعيشُها قصيرٌ ، **وإقبالُها خديعة** ، وإدبارُها فجيعة ، **ولذاتها فانية** ، وتبعاتها باقية ، **فاغتنم غفوة الزمان** ، وانتهز فرصة الإمكان ، **وخذ من نفسك لنفسك** ، وتزوَّد من يومك لغدك)[2] .

وقال وهب بن منبِّه : (**مثلُ الدنيا والآخرة مثلُ ضَرَّتين** ؛ إن أرضيتَ إحداهما . . أسخطتَ الأخرىٰ)[3] .

وقال عبد الحميد : (**الدنيا منازلُ ؛ فراحلٌ ونازلٌ**) .

وقال بعض الحكماء : (**الدنيا إمَّا نِقمة نازلة ، وإمَّا نعمةٌ زائلة**) .

وقيل في منثور الحكم : (**منَ الدنيا على الدنيا دليلٌ**)[4] .

وقال بعض الشعراء[5] : [من الطويل]

تسمَّعْ من الأيام إنْ كنتَ حازماً ... فـإنَّـكَ منهـا بيـنَ نـاهٍ وآمـرِ
إذا أبقتِ الدنيا على المرء دينَهُ ... فما فات من شيءٍ فليس بضائرِ
فلن تعدلَ الدنيا جناحَ بعوضةٍ ... ولا وزنَ رَفٍّ مـن جنـاحٍ لطـائـرِ
فمـا رضـيَ الـدنيـا ثـواباً لمؤمـنٍ ... ولا رضـيَ الـدنيـا جـزاءً لكـافـرِ

روي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **الدنيا يومان** : يوم فرَح ، ويوم همّ ، **وكلاهما زائلٌ عنك** ، فدَعُوا ما يزولُ ، وأتعِبُوا أنفسَكم في العمل لما لا يزولُ » .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (١٨) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (٥٣٩) .
(٢) أورده في « سراج الملوك » (١/ ٧١ـ ٧٢) ، و« شرح نهج البلاغة » (١٨/ ٢٨) .
(٣) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٤/ ٥١) .
(٤) أورده في « شرح نهج البلاغة » (١٦/ ٩١) .
(٥) الأبيات لأبي العتاهية في « ديوانه » (ص ١٤٨ـ ١٥٠) ، وعجز البيت الثالث فيه : (لدى الله أو مقدارَ زغبة طائر) ، وفي (ج) : (وزن تفٍّ) .

وقال عيسى ابن مريم عليه السلام : (**لا تُنازعوا أهلَ الدنيا في دنياهم فينازعوكم في دينكم ؛ فلا دنياهم أصبتم ، ولا علىٰ دينكم أبقيتم**)[1] .

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام : (**لا تكن ممَّن يقول في الدنيا بقول الزاهدين** ، ويعمل فيها عملَ الراغبين ؛ **إن أُعطي منها** . . لم يشبع ، **وإن مُنع منها** . . لم يقنع ، **يعجز عن شكر ما أُوتي** ، ويبتغي الزيادة فيما بقي ، **ينهىٰ ولا ينتهي** ، ويأمر بما لا يأتي ، **يحبُّ الصالحين ولا يعمل بعملهم** ، **ويبغض الطالحين** وهو منهم)[2] .

وقال الحسن البصري رحمه الله : (**الدنيا كلُّها غمٌّ** ؛ فما كان منها من سرورٍ . . فهو ربحٌ)[3] .

وقال بعض العلماء : (**الدنيا كثيرة التغيير** ، سريعة التنكير ، **شديدة المكر** ، دائمة الغدر ، **فاقطع أسباب الهوىٰ عن قلبك** ، واجعل أبعد أملك بقيّةَ يومك ، **وكن كأنَّك ترىٰ ثواب عملك**) .

وقال بعض الحكماء : (**الدنيا** : إمَّا مصيبةٌ موجعة ، وإمَّا منيّةٌ مفجعة) .

وأُنشد : [من مجزوء الخفيف]

كلُّ دنيا فإنَّها	يُعقِبُ الخيرَ شرُّها
هي أمٌّ تعُقُّ مِن	نسلِها مَن يبرُّها
كلُّ نفسٍ فإنَّها	تبتغي ما يضرُّها
والمنايا تسوقُها	والأماني تغرُّها
وإذا استحْلَتِ الجَنىٰ	أعقبَ الحلوَ مرُّها
يستوي في ضَريحهِ	عبدُ أرضٍ وحرُّها

---

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٨/ ٦٢) .

(٢) أورد نحوه في « البيان والتبيين » (٢/ ١٠١) ، و« شرح نهج البلاغة » (١٨/ ٣٥٦) .

(٣) أورده في « البصائر والذخائر » (٤/ ٦٢) ، ورواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٣٣٩٦) ، و« عيون الأخبار » (٢/ ٣٣٠) من قول سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

فإذا رضتَ نفسك من هٰذه الحال بما وصفتُ . . اعتضتَ منها ثلاثَ خِلال :

ـ إحداهن : أن تُكفىٰ إشفاقَ المحبِّ ، وحذرَ الوامق ؛ فليس لمشفق ثقة ، ولا لحاذر راحة .

ـ والثانية : أن تأمن الاغترار بملاهيها ، فتسلم من عادية دواهيها ؛ فإنَّ اللاهيَ بها مغرور ، والمغرور فيها مدهوٌّ[1] .

ـ والثالثة : أن تستريح من تعب السعي لها ، ووصَب الكدِّ فيها ؛ فإنَّ مَن أحبَّ شيئاً . . طلبه ، ومَن طلب شيئاً . . كدَّ له ، والمكدود فيها شقيٌّ إن ظفر ، ومحرومٌ إن خاب .

وقد روي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال لكعب : « **يا كعبُ ؛ الناسُ غاديان : ففادٍ نفسَه فمُعتِقُها ، وموثِقٌ نفسَه فمُوبِقُها** »[2] .

وقال عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام : (**تعملون للدنيا وأنتم تُرزَقون فيها بغير عمل ، ولا تعملون للآخرة وأنتم لا ترزقون فيها إلا بعمل !!**)[3] .

وقال بعض البلغاء : (**من نكَد الدنيا** : ألا تبقىٰ علىٰ حالة ، ولا تخلو من استحالة ، **تصلح جانباً بإفساد جانب** ، وتسرُّ صاحباً بمَساءة صاحب ، **فالركون إليها خطَر** ، والثقة بها غرَر)[4] .

وقال بعض الحكماء : (**الدنيا مرتجَعة الهبة** ، والدهر حَسود ، **لا يأتي علىٰ شيءٍ إلا غيَّره** ، ولمَن عاش حاجةٌ لا تنقضي)[5] .

ولما بلغ مَزْدَك من الدنيا أفضلَ ما سمَت إليه نفسه . . نبذها[6] ،

---

(١) **الدواهي** : جمع (داهية) وهي النائبة والنازلة العظيمة ، ومدهو : مصاب بداهية عظيمة .

(٢) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٤٥١٤) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٥٣٧٨) بنحوه .

(٣) رواه أبو داوود في « الزهد » (١) ، والدارمي في « مسنده » (٣٨٠) .

(٤) أورده في « الكشكول » (٢/ ١٨٩) ، و« شرح نهج البلاغة » (١٨/ ٢٩) دون نسبة .

(٥) روى الجملة الأولىٰ منه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٤٤٨) عن عامر بن عبد قيس .

(٦) **مَزْدك** : هو مؤسس الزندقة الإباحية ، ظهر في أيام قباذ والد أنوشروان في بلاد فارس ، وكثر أتباعه ، =

وقال : (هٰذا سرورٌ لولا أنه غرور ، ونعيمٌ لولا أنه عديم ، ومُلكٌ لولا أنه هُلك ، وغَناءٌ لولا أنه فَناء ، وجسيمٌ لولا أنه ذميم ، ومحمودٌ لولا أنه مفقود ، وغنىً لولا أنه منىً ، وارتفاعٌ لولا أنه اتّضاع ، وعلاءٌ لولا أنه بلاء ، وحَسَنٌ لولا أنه حزَن ، وهو يومٌ لو وُثِق له بغدٍ)[1] .

وقال بعض الحكماء : (قد ملك الدنيا غيرُ واحد ؛ من راغبٍ وزاهد ، فلا الراغبَ فيها استبقَتْ ، ولا الزاهدَ فيها كفَّتْ) .

وقال أبو العتاهية[2] : [من المتقارب]

هــي الــدارُ دارُ الأذىٰ والقــذىٰ	ودارُ الفَنـــاءِ ودارُ الغِيَـــرْ
فلــو نِلْتَهــا بحَــذافيــرِهــا	لمــتَّ ولــم تقـضِ منهـا الـوطَـرْ
أيــا مَــن يــؤمِّــلُ طُـولَ الحياةِ	وطُــولُ الحيــاةِ عليــه ضــرَرْ
إذا مــا كبــرْتَ وبــانَ الشبــابُ	فــلا خيــرَ فــي العيش بعدَ الكِبَرْ

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اللهمَّ ؛ إني أعوذُ بكَ من علمٍ لا ينفعُ ، ونفسٍ لا تشبعُ ، وقلبٍ لا يخشعُ ، وعينٍ لا تدمعُ ، هل يتوقَّعُ أحدُكم إلا غنىً مُطغياً ، أو فقراً مُنسياً ، أو مرضاً مُفسداً ، أو هرَماً مُفنِداً ، أو الدجّالَ فهو شرُّ غائب يُنتظَر ، أو الساعةَ والساعةُ أدهىٰ وأمرُّ ؟! »[3] .

وحكي : أن الله تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام : (أنْ هَبْ لي من قلبك الخشوعَ ، ومن بدنك الخضوعَ ، ومن عينك الدموعَ ، وادعُني فإنِّي قريبٌ)[4] .

= ويسمون المزدكية ، دعا إلىٰ إباحة الحُرَم كلها ، وألا يمنع أحدٌ أخاه ما يريده ، فلما تسلم أنوشروان الحكم . . قتله ونكل بأتباعه . ولزيادة الاطلاع انظر « منهاج اليقين » (ص١٩٠ـ ١٩١) .

(١) أورده في « سراج الملوك » (١/ ٣٠) .

(٢) الأبيات في « ديوانه » (ص ١٦١ـ ١٦٢) .

(٣) رواه أبو داوود (١٥٤٨) ، والترمذي (٢٣٠٦) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وهو مركّب من حديثين .

(٤) أورده في « عيون الأخبار » (٢/ ٢٩٨) ، و« المجالسة وجواهر العلم » (١٧١) ، و« بهجة المجالس » (٢/ ٢٧١) .

وقال عيسى ابن مريم عليه السلام : (أوحى الله تعالىٰ إلى الدنيا : مَن خدمني . . فاخدميه ، ومَن خدمكِ . . فاستخدِميه)[1] .

وقال بعض البلغاء : (زد من طول أملك في قصور عملك ؛ فإنَّ الدنيا ظلُّ الغَمام ، وحُلم النِّيام[2] ؛ فمَن عرفها ثم طلبها . . فقد أخطأ الطريق ، وحُرِم التوفيق) .

وقال بعض الحكماء : (لا يؤمنْك إقبالُ الدنيا عليك من إدبارها عنك ، ولا دولةٌ لك من إدالتها منك)[3] .

وقال آخر : (ما مضىٰ من الدنيا كما لم يكن ، وما بقي منها كما قد مضىٰ)[4] .

وقيل لزاهد : (قد خلعتَ الدنيا ؛ فكيف سخَتْ نفسُك عنها ؟! فقال : أيقنتُ أني أُخْرَجُ منها كارهاً ، فرأيتُ أن أدعَها طائعاً)[5] .

وقيل لحُرْقةَ بنت النعمان : (ما لكِ تبكين ؟! فقالت : رأيت لأهلي غَضارةً ، ولن تمتلىءَ دارٌ فرَحاً إلا امتلأت ترَحاً)[6] .

وقال ابن السمّاك : (مَن جرَّعته الدنيا حلاوتَها بميله إليها . . جرَّعته الآخرةُ مرارتَها لتجافيه عنها)[7] .

وقال صاحب « كليلة ودمنة » : (طالب الدنيا كشارب ماء البحر ؛ كلَّما ازداد شرباً . . ازداد عطشاً)[8] .

---

(١) رواه البيهقي في « الزهد » (١٤) ، وأورده في « البيان والتبيين » (٣/ ١٦٦) ، و« المستطرف » (٣/ ٣٦٤) .

(٢) أورده في « الإمتاع والمؤانسة » (ص ٢٧٩) ، و« الإعجاز والإيجاز » (ص ٤٦) مفرَّقاً .

(٣) أورده المرزوقي في « شرح ديوان الحماسة » (٣/ ١٢٠٠) .

(٤) أورده في « التذكرة الحمدونية » (٦/ ٢٩٠) في خطبة لزيد بن علي رحمهما الله .

(٥) أورده في « البصائر والذخائر » (١/ ٢٠٢) ، و« ربيع الأبرار » (١/ ٩٣) .

(٦) أورده في « البيان والتبيين » (٣/ ١٤٥) ، و« التذكرة الحمدونية » (١/ ١٨٣) ، **والغضارة** : النعمة والسعة في العيش .

(٧) رواه البيهقي في « الزهد » (٢٦١) ، وابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٧٨) .

(٨) كليلة ودمنة (ص ٩٢) ، ورواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٤٢) من كلام السيد المسيح عليه السلام .

وكان عمر بن عبد العزيز يتمثَّل بهٰذه الأبيات كثيراً[1] : [من الطويل]

نهـارُكَ يـا مغـرورُ سهـوٌ وغفلـةٌ ... وليلُـكَ نـومٌ والأسـىٰ لـكَ لازمُ
تُسَـرُّ بمـا يفنـىٰ وتفـرحُ بـالمُنـىٰ ... كما سُرَّ باللذّاتِ في النوم حالمُ
وتُشغَـلُ فيمـا سـوفَ تكـرهُ غِبَّـهُ ... كذلكَ في الدنيا تعيشُ البهائمُ

وسمع رجل رجلاً يقول لصاحبه : (**لا أراك اللهُ مكروهاً !!** فقال : **كأنَّك دعوت علىٰ صاحبك بالموت** ؛ إن صاحبك ما صاحب الدنيا . . فلا بدَّ أن يرىٰ مكروهاً)[2] .

وقال أبو العتاهية[3] : [من مجزوء الكامل]

إنَّ الـــــزمـــــانَ وإنْ ألا ... نَ لأهلِـــهِ لَمُخـــاشِـــنُ
بخُطـــوبـــه المتحـــرِّكـــا ... تِ كـــأنَّهـــنَّ سَـــواكِـــنُ

ثم الحال الثانية من أحوال رياضتك لها : أن تصدق نفسك فيما منحتك من رغائبها ، وأنالتك من غرائبها ، **فتعلم أن العطية فيها مرتجَعة** ، والمنحة فيها مستَرَدَّة ، **بعد أن يبقىٰ عليك** ما احتقبتَ من أوزارِ وصولِها إليك ، **وحسَراتِ خروجِها عنك** ؛ فقد روي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **لا تزولُ قدَما ابنِ آدمَ** من بين يدي الله تعالىٰ **حتىٰ يُسألَ عن ثلاث** : **شبابِهِ فيم أبلاه** ؟ **وعُمرِه فيم أفناه** ؟ **ومالِه** من أين اكتسبه ، **وفيمَ أنفقه** ؟ »[4] .

وروي عن عيسى ابن مريم عليه السلام أنه قال : (**في المال ثلاثُ خصالٍ** ، قالوا : وما هنَّ يا رُوحَ الله ؟ قال : **يكسبُه من غير حِلِّه** ، قالوا : فإنْ كسبه من

---

(١) الأبيات لعبد الله بن عبد الأعلى الشيباني ، انظر « سيرة عمر بن عبد العزيز » لابن الجوزي (ص ٢٧٨) .
(٢) أورده في « المستطرف » (٢/ ٣٥٠) ، و« ربيع الأبرار » (٤/ ٢٩٢) .
(٣) البيتان في « ديوانه » (ص ٢٤٦ ـ دار صادر) .
(٤) كذا أورده في « البيان والتبيين » (٣/ ١٢٥) من قول الحسن ، والمشهور كما في « سنن الترمذي » (٢٤١٧) : أنه يُسأل عن أربع بزيادة (علمه) .

حِلِّه ؟ قال : **يضعه في غير حقِّه** ، قالوا : فإنْ وضعه في حقِّه ؟ قال : **يشغله عن عبادة ربِّه**)[1] .

ودخل أبو حازم علىٰ بشر بن مروان ، فقال له : (يا أبا حازم ؛ **ما المَخرجُ ممَّا نحن فيه** ؟ قال : تنظرُ ما عندك ، **فلا تضعُه إلا في حقِّه** ، وما ليس عندك ، **فلا تأخذُه إلا بحقِّه** .

قال : ومَن يطيقُ هـٰذا يا أبا حازم ؟ قال : **فمِن أجل ذلك مُلِئت جهنَّم من الجِنَّة والناس أجمعين**)[2] .

وعيَّرتِ اليهودُ عيسى ابنَ مريم عليه الصلاة والسلام بالفقر ، فقال : (**مِن الغنىٰ دُهِيتم**)[3] .

ودخل قوم منزل عابد ، فلم يجدوا شيئاً يقعدون عليه ، فقال لهم : (**لو كانت الدنيا دار مُقام . . لاتَّخذنا لها أثاثاً**)[4] .

وقيل لبعض الزهاد : (**ألا توصي** ؟ قال : **بماذا أوصي ؟! واللهِ ؛ ما لنا شيءٌ ، وما لنا عند أحدٍ شيءٌ ، ولا لأحد عندنا شيءٌ**)[5] ، انظر إلىٰ هـٰذه الراحة كيف تعجَّلها ، وإلى السلامةِ كيف صار إليها !! ولذلك قيل : (**الفقرُ ملكٌ ليس فيه محاسبةٌ**)[6] .

وقيل لعيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام : (**ألا تتزوَّجُ** ؟ فقال : **إنَّما نحبُّ التكثُّرَ في دار البقاء**)[7] .

---

(١) أورده في « عيون الأخبار » (١/ ٢٤٦) ، و« البيان والتبيين » (٣/ ١٩١) .

(٢) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (١٨١٠) ، و« تاريخ دمشق » (٢٢/ ٢٩) .

(٣) أورده في « عيون الأخبار » (١/ ٢٤٧) ، ورواه في « المجالسة وجواهر العلم » (١٥٨٠) ، ودُهيتم : أُصبتم بالداهية وهي المصيبة العظيمة .

(٤) أورده في « التذكرة الحمدونية » (١/ ٢٢٧) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « القبور » (٢١٨) ضمن خبر طويل .

(٦) أورده في « محاضرات الأدباء » (٢/ ٣٠٤) ، و« التذكرة الحمدونية » (٨/ ٨٤) .

(٧) أورده في « البصائر والذخائر » (٩/ ٢٢٤) بنحوه .

وقيل له : (لو دعوتَ الله تعالىٰ أن يرزقَك حماراً ؟ فقال : **أنا أكرَمُ على الله تعالىٰ من أن يجعلَني خادمَ حمار**)[1] .

وقيل لأبي حازم : (**ما مالُكَ ؟** فقال : **شيئان** ؛ الرضا عن الله تعالىٰ ، والغنىٰ عن الناس)[2] .

وقيل له : (**إنك لمسكين** ، فقال : **كيف أكون مسكيناً** ومولاي له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثَّرىٰ ؟!)[3] .

وقال بعض الحكماء : (**ربَّ مغبوطٍ بمَسرّةٍ هي داؤه ، ومرحومٍ من سقَمٍ هو شفاؤه**)[4] .

وقال بعض الأدباء : (الناس أشتات ، ولكلٍّ جمعٍ شَتات)[5] .

وقال بعض البلغاء : (**الزهد** بصحَّة اليقين ، **وصحَّة اليقين** بنور الدِّين ؛ **فمَن صحَّ يقينُه** . . زهد في الثراء ، **ومَن قوي دينُه** . . أيقن بالجزاء ؛ **فلا تغرَّنك صحّةُ نفسك** ، وسلامةُ أمسك ، **فمدّة العمر قليلة** ، وصحّة النفس مستحيلة)[6] .

وقال بعض الشعراء[7] : [من المديد]

رُبَّ مغـروسٍ يُعـاشُ بـهِ عـدِمَتـهُ كـفُّ مُغتـرِسـهْ
وكـذاكَ الـدهـرُ مـأتمُـهُ أقـربُ الأشيـاءِ مـن عَـرَسِـهْ

---

(١) رواه الإمام أحمد في « الزهد » (٣٠٩) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٣٧٦) .

(٢) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (١٢٤٠) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (٩٦٣) .

(٣) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (٢٧٤٣) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٩/٢٢) .

(٤) أورده في « المحاسن والمساوىء » (ص ٢٧٣) ، و« الفرج بعد الشدة » (١٥٨/١) .

(٥) **أشتات** : فِرق ، **وشتات** : تفرق بعد اجتماع .

(٦) أورد بعضه في « الإمتاع والمؤانسة » (ص ٢٧٩) ، و« المستطرف » (٨٦/١) .

(٧) البيتان لسليمان الأعمىٰ كما في « معجم الأدباء » (٣١٧/٤) ، و« عيون الأخبار » (٦١/٣) ، و« البيان والتبيين » (٢٠٢/٣) ، **والمأتم** : كل مجمع في حزنٍ أو فرح ، أو هو خاص بالنساء ، وغلب على اجتماع الناس في حزن ، **وعَرَسه** : شدة السرور ، **والمعنىٰ** : أن مجمع حزن الدهر أقرب من مجمع سروره وفرحه .

فإذا رُضتَ نفسك من هـٰذه الحال بما وصفتُ . . **اعتضتَ منها ثلاث خلال** :

ـ **إحداهنَّ** : نصحُ نفسك وقد استسلمتْ إليك ، والنظرُ لها وقد اعتمدَتْ عليك ، **فانظر لها ، ولا تنحرف عنها ؛ فإن غاشَّ نفسه مغبون** ، والمنحرف عنها مأفون[1] .

ـ **والثانية** : الزهد فيما ليس لك ؛ **لتُكفىٰ تكلُّفَ طلبه ، وتسلم من تبعات كسبه** .

ـ **والثالثة** : انتهاز الفرصة في مالك ؛ **أن تضعه في حقه** ، وأن تؤتيه لمستحقه ؛ **ليكون لك ذخراً ، ولا يكون عليك وزراً** ؛ فقد روي أن رجلاً قال : يا رسولَ الله ؛ إني أكرهُ الموتَ ، قال : « **ألكَ مالٌ ؟** » قال : نعم ، قال : « **قدِّمْ مالكَ ؛ فإنَّ قلبَ كلِّ امرئٍ عندَ مالِهِ** »[2] .

وقالت عائشة رضي الله تعالىٰ عنها : ذبحنا شاةً فتصدَّقنا بها ، فقلت : يا رسولَ الله ؛ ما بقيَ إلا كَتِفُها ، فقال : « **كلُّها بقيَ إلا كَتِفَها** »[3] .

وحكي : أنَّ عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود باع داراً بثمانين ألف درهم ، فقيل له : (لو اتخذتَ لولدك من هـٰذا المال ذخراً ؟ فقال : **أنا أجعلُ هـٰذا المالَ ذخراً لي عند الله تعالىٰ ، وأجعلُ اللهَ تعالىٰ ذخراً لولدي** ، وتصدَّقَ بها)[4] .

وعُوتب سهل بن عبد الله المروزيُّ في كثرة الصدقة ، فقال : (**لو أنَّ رجلاً أراد أن ينتقل من دار إلىٰ دار . . هل كان يُبقي في الأُولىٰ شيئاً ؟**)[5] .

وقال سليمان بن عبد الملك لأبي حازم : (**ما لنا نكره الموت ؟** قال : **لأنكم**

---

(١) المأفون : هو ناقص العقل ، وهو الذي يعجبك ولا خير فيه .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٣٤) .

(٣) رواه الإمام أحمد في « المسند » (٤٠/ ٢٨٦) ، وأبو عبيد في « الأموال » (٨٨٦) .

(٤) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (٧٨٦) ، وابن قتيبة في « عيون الأخبار » (١/ ٣٣٤) .

(٥) أورده في « البصائر والذخائر » (٨/ ١٣٠) عن سهيل بن علي .

أخربتم آخرتكم ، وعمرتم دنياكم ؛ فكرهتم أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب)[١] .

وقيل لعبد الله بن عمر : تركَ زيدُ بن حارثة مئة ألف درهم ، قال : (**لٰكنَّها لا تتركُه**)[٢] .

وقال الحسن البصريّ : (**ما أنعمَ اللهُ تعالىٰ علىٰ عبدٍ نعمةً إلا وعليه فيها تبِعة إلا سليمانَ عليه السلام ؛ فإنَّ الله تعالىٰ قال** : ﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾)[٣] .

وقال أبو حازم : (**إن عُوفينا من شرِّ ما أُعطينا** . . لم يضرَّنا فقدُ ما زُوي عنّا)[٤] .

وقال بعض السلف : (**قدِّموا بعضاً** ليكونَ لكم قرضاً ، **ولا تخلِّفوا كُلاًّ** فيكونَ عليكم كَلاًّ)[٥] .

وقال إبراهيم : (**نِعْمَ القومُ السؤَّالُ** ؛ يدقُّون أبوابكم يقولون : **توجِّهون إلى الآخرة شيئاً ؟**)[٦] .

وقال سعيد بن المسيب : (مرَّ بي صلةُ بن أَشْيمَ ، فما تمالكتُ أنْ نهضتُ إليه فقلت : يا أبا الصهباء ؛ ادعُ لي ، فقال : **رغَّبك اللهُ فيما يبقىٰ** ، وزهَّدك فيما يفنىٰ ، **ووهب لك اليقينَ** الذي لا تسكن النفوسُ إلا إليه ، ولا يُعوَّل في الدِّين إلا عليه)[٧] .

---

(١) رواه الدارمي في « مسنده » (٦٧٣) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (٢٧١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٢٣٤) .

(٢) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (١٠١٩٦) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٧٩١) ، وفي النسخ ما عدا (أ) : (زيد بن خارجة) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢١١) من زيادات نعيم بن حماد .

(٤) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (١٥٥٧) ، و« تاريخ دمشق » (٢٢/ ٦٨) .

(٥) أورده في « الكشكول » (١/ ١٨٨) من كلام سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وأبو علي القالي في « الأمالي » (١/ ٢٥٤) من خطبة لبعض الأعراب .

(٦) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٨/ ٣٢) ، وإبراهيم : هو ابن أدهم رحمه الله .

(٧) أورده في « البيان والتبيين » (٣/ ٢٨١) ، ورواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٢/ ٢٤١) .

ولمّا ثقل عبد الملك بن مروان.. رأىٰ غَسَّالاً يلوي بيده ثوباً ، فقال : (وددتُ أنِّي كنت غسَّالاً ؛ لا أعيش إلا بما أكسبه يوماً فيوماً ، فبلغ ذلك أبا حازم ، فقال : الحمدُ لله الذي جعلهم يتمنَّون عند الموت ما نحن فيه ، ولا نتمنَّىٰ عنده ما هم فيه)[1] .

وروي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « يقولُ ابنُ آدمَ : مالي مالي ، ما لكَ من مالِكَ إلا ما أكلتَ فأفنيتَ ، أو لبستَ فأبليتَ ، أو أعطيتَ فأمضيتَ »[2] .

وقال الشاعر[3] : [من الطويل]

وما المالُ والأهلونَ إلا وَديعةٌ ... ولا بدَّ يوماً أنْ تُردَّ الوَدائعُ

وقال خالد بن صفوان : (بتُّ ليلةً أتمنَّىٰ ، فكبستُ البحر الأخضر بالذهب الأحمر ؛ فإذا الذي يكفيني من ذلك رغيفان وكوزان وطِمْران)[4] .

وقال مورِّق العجلي : (يا بنَ آدمَ ؛ في كلِّ يومٍ تؤتىٰ رزقَك وأنت تحزنُ ، وينقص عمرُك وأنت لا تحزنُ ، تطلب ما يطغيك وعندك ما يكفيك !!)[5] .

وقال أبو حازم : (إنَّما بيني وبين الملوك يومٌ واحدٌ ؛ أمَّا أمسِ . . فلا يجدون لذَّته ، وأنا وهم من غدٍ علىٰ وجَل ؛ وإنَّما هو اليومُ ، فما عسىٰ أن يكون ؟!)[6] .

وقال بعض السلف : (تعزَّ عن الشيء إذا مُنعتَه ؛ لقلَّة ما يصحبك إذا أُعطيتَه)[7] .

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٧٥) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٧/ ١٥٧) .
(٢) رواه مسلم (٢٩٥٨) ، والترمذي (٢٣٤٢) عن سيدنا عبد الله بن الشِّخِّير رضي الله عنه .
(٣) البيت للبيد في « ديوانه » (ص ١٧٠) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٣٤٩) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (١٨٢٩) ، وأورده ابن قتيبة في « عيون الأخبار » (٢/ ٣٦٧) ، والطِّمران : ثوبان خلقان للارتداء والاتزار .
(٥) أورده في « سراج الملوك » (١/ ٩٤) ، ورواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٥٩) ، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (٣/ ١٢٩) من كلام شميط بن عجلان رحمه الله تعالىٰ .
(٦) أورده في « زهر الآداب » (١/ ١٦٩) ، و« محاضرات الأدباء » (٤/ ٤٨) ، والاستفهام للإنكار التقليلي أو التحقيري ، و(يكون) تامة ؛ أي : فما عسىٰ أن يكون يوم واحد ؟!
(٧) أورده في « البيان والتبيين » (٢/ ١٤٠) ، و« البصائر والذخائر » (٧/ ١٣١) .

وقال بعض الحكماء : (مَن ترك نصيبه من الدنيا . . استوفىٰ حظَّه من الآخرة) .

وقال آخر : (تركُ التلبُّس بالدنيا قبل التشبُّث بها . . أهونُ من رفضها بعد ملابستها) .

وقال آخر : (ليكنْ طلبُك للدنيا اضطراراً ، وفكرتُك في الأمور اعتباراً ، وسعيُك لمعادك ابتداراً)[1] .

وقال آخر : (الزاهد : مَن لا يطلب المفقود ؛ حتىٰ يفقد الموجود)[2] .

وقال آخر : (مَن آمن بالآخرة . . لم يحرص على الدنيا ، ومَن أيقن بالمُجازاة . . لم يؤثر على الحسنىٰ) .

وقال آخر : (مَن حاسب نفسَه . . ربح ، ومَن غفل عنها . . خسر)[3] .

وقال أبو العتاهية[4] : [من الوافر]

أرى الدنيا لمَن هي في يدَيهِ ... عذاباً كلَّما كثرَت لدَيهِ
تُهينُ المُكرِمينَ لها بصُغْرٍ ... وتُكرِمُ كلَّ مَن هانَت علَيهِ
إذا استغنَيتَ عن شيءٍ فدَعْهُ ... وخذْ ما أنتَ مُحتاجٌ إليهِ

وحكى الأصمعيُّ قال : (دخلتُ على الرشيد يوماً وهو ينظر في كتابٍ ودموعُه تسيل علىٰ خدِّه ، فلمّا بصُرَ بي . . قال : أرأيتَ ما كان منِّي ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين ؛ لا أبكى اللهُ عينَك ، قال : أما إنه لو كان لِأمرِ الدنيا . . ما رأيتَ هٰذا ، ثم رمىٰ بالقرطاس ؛ فإذا فيه شعرُ أبي العتاهية : [من الكامل]

هل أنتَ معتبِرٌ بمَن خربَتْ ... منهُ غَداةَ قضىٰ دَساكِرُهُ
وبمَن أذلَّ الدهرُ مصرعَهُ ... فتبرّأتْ منهُ عساكِرُهُ

---

(١) أورده في « نهاية الأرب » (٦/ ١٤٠) .

(٢) رواه البيهقي في « الزهد » (٦٤) من كلام ذي النون رحمه الله تعالىٰ ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٦/ ١١٩) من كلام الخليل بن أحمد رحمه الله تعالىٰ .

(٣) أورده في « العقد الفريد » (٣/ ١٥٢) ممّا كتب الحسن إلىٰ عمر بن عبد العزيز رحمهما الله تعالىٰ ، و« التذكرة الحمدونية » (١/ ٣٦٠) من كلام سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

(٤) الأبيات في « ديوانه » (ص ٤١٠) .

وبمَــن خلَــت منــه أَســرَّتُــهُ　　وبمَــن خَلَــتْ عنــهُ منــابِــرُهُ
أيــنَ الملــوكُ وأيــنَ عِــزُّهُــمُ　　صــاروا مَصيــراً أنــتَ صــائِــرُهُ
يــا مُــؤثِــرَ الــدنيــا للــذَّتِــهِ　　والمستعــدَّ لمَــن يُفــاخِــرُهُ
نَــلْ مــا بــدا لــكَ أن تنــال مــن الــد　　نيــا فــإنَّ المــوتَ آخِــرُهُ

فقال الرشيد : والله ؛ لكأنِّي أُطالَب بهٰذا الشعر دون الناس ، فلم يلبث بعده إلا يسيراً حتىٰ مات)[١] .

ثم الحال الثالثة من أحوال رياضتك لها : أن تكشف لنفسك حالَ أجلك ، وتصرفها عن غرور أملك ؛ حتىٰ لا يطيلَ لك الأمل أجلاً قصيراً ، ولا ينسيَك موتاً ولا نشوراً .

روي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال في بعض خُطَبه : « أيُّها الناسُ ؛ إنَّ الأيّامَ تُطوَىٰ ، والأعمارَ تفنىٰ ، والأبدانَ في الثرىٰ تبلىٰ ، وإنَّ الليلَ والنهارَ يَتراكضانِ تراكضَ البريدِ ؛ يُقرِّبانِ كلَّ بعيدٍ ، ويُخلِقانِ كلَّ جديدٍ ، وفي ذلك ـ عبادَ اللهِ ـ ما ألهىٰ عن الشَّهواتِ ، ورغَّبَ في الباقياتِ الصالحاتِ »[٢] .

وقال مسعر : (كم من مستقبلٍ يوماً وليس بمستكمله ، ومنتظرٍ غداً وليس من أجَله ؟! ولو رأيتم الأجلَ ومسيره . . لأبغضتم الأملَ وغروره)[٣] .

وقال رجلٌ من الأنصار للنبيِّ صلى الله عليه وسلم : مَن أكيَسُ الناسِ ؟ قال : « أكثرُهم ذِكْراً للموت ، وأشدُّهم استعداداً له ، أولئكَ الأكياسُ ؛ ذهبوا بشرَفِ الدنيا ، وكرامة الآخرة »[٤] .

---

(١) أورده في « مروج الذهب » (٢٣١/٤) ، والأبيات في « ديوان أبي العتاهية » (ص ١٧٩) ، والدَّسْكَرة : بناء يشبه القصر حوله بيوت للخدم والحشم .
(٢) أورده في « العاقبة في ذكر الموت » (ص ٨٧) ، و« سراج الملوك » (٩٥/١) .
(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٠) ، وابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٠٨) عن مسعر بن كدام ، عن معن ، عن عون بن عبد الله رحمهم الله تعالىٰ .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (٣) ، والطبراني في « المعجم الأوسط » (٦٤٨٨) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

وقال عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام : (كما تنامون . . كذلك تموتون ، وكما تستيقظون . . كذلك تُبعَثون)[1] .

وقال عليٌّ بن أبي طالب عليه السلام : (أيُّها الناسُ ؛ اتقوا الله الذي إنْ قلتم . . سمع ، وإنْ أضمرتم . . علم ، وبادروا الموتَ الذي إنْ هربتم . . أدرككم ، وإنْ أقمتم . . أخذكم)[2] .

وقال العلاء بن المسيِّب : (ليس قبل الموت شيءٌ إلا والموتُ أشدُّ منه ، وليس بعد الموت شيءٌ إلا والموتُ أيسرُ منه)[3] .

وقال بعض الحكماء : (إن للباقي بالماضي معتبَراً ، وللآخِر بالأول مزدَجراً ، والسعيدُ لا يركنُ إلى الخدع ، ولا يغترُّ بالطمع)[4] .

وقال بعض الصلحاء : (إنَّ بقاءك إلىٰ فناء ، وفناءك إلىٰ بقاء ، فخُذْ من فنائك الذي لا يبقىٰ لبقائك الذي لا يفنىٰ)[5] .

وقال بعض العلماء : (أيُّ عيش يطيب ، وليس للموت طبيبٌ ؟)[6] .

وقال بعض البلغاء : (كلُّ امرىءٍ يجري من عمره إلىٰ غايةٍ تنتهي إليها مدّةُ أجَله ، وتنطوي عليها صحيفة عمله ، فخذْ من نفسك لنفسك ، وقسْ يومك بأمسك ، وكفَّ عن سيئاتك ، وزدْ في حسناتك ، قبل أن تستوفيَ مدّة الأجل ، وتقصر عن الزيادة في السعي والعمل)[7] .

وقيل في منثور الحكم : (مَن لم يتعرَّض للنوائب . . تعرَّضت له)[8] .

---

(١) أورد ابن الأثير نحوه في « الكامل » (١/ ٦٥٩) عن سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام إذ أُمر بإظهار دعوته .

(٢) أورده المبرّد في « الكامل » (٢/ ٤٩٣) ، و« البصائر والذخائر » (١/ ٦٥) .

(٣) أورده في « الكشكول » (٢/ ٢٧٨) دون نسبة .

(٤) أورده في « العاقبة في ذكر الموت » (ص ٨٧) .

(٥) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٥/ ٣١٧) ممّا كتب الحسن إلىٰ عمر بن عبد العزيز رحمهما الله تعالىٰ .

(٦) أورده في « العاقبة في ذكر الموت » (ص ٤٣) .

(٧) أورده في « العاقبة في ذكر الموت » (ص ٨٨) .

(٨) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٣٢٩) ، و« الأوائل » (ص ٢٦٦) من كلام ابن المعتز .

وقال أبو العتاهية[1] : [من مجزوء الكامل]

مـــا للمقـــابـــرِ لا تُجيـ ـــبُ إذا دَعـــاهُـــنَّ الكئيـــبُ
حُفَـــرٌ مُشقَّقـــةٌ علَيْـ ـهِـــنَّ الجَنـــادِلُ والكَثيـــبُ
فيهِـــنَّ وِلْـــدانٌ وأطْـ ـفـــالٌ وشُبّـــانٌ وشِيـــبُ
كَـــمْ مِـــن حَبيـــبٍ لـــم تكـــنْ نفســـي بفُـــرْقتِـــهِ تَطيـــبُ
غـــادرتُـــهُ فـــي بعضهـــنَّ مُجنـــدَلاً وهُـــوَ الحبيـــبُ
وسلَـــوتُ عنـــهُ كـــأنَّمـــا عَهـــدي بـــرؤيتـــه قـــريـــبُ

وعظ النبيُّ صلى الله عليه وسلم رجلاً فقال له : « **أقلِلْ منَ الدنيا. . تعِشْ حُرّاً ، وأقلِلْ منَ الذَّنْبِ. . يهُنْ عليكَ الموتُ ، وانظُرْ حيثُ تضعُ ولدَكَ ؛ فإنَّ العِرْقَ دَسّاسٌ** »[2] .

وقال الرشيد لابن السمّاك : (عظني وأوجز ، فقال : **اعلم أنَّك أوّلُ خليفةٍ يموت**)[3] .

وعزَّىٰ أعرابيٌّ رجلاً في ابنٍ له صغير ، فقال له : (**الحمد لله الذي نجّاه ممّا هٰهنا من الكدَر** ، وخلَّصه ممّا بين يدَيه من الخطَر)[4] .

وقال بعض السلف : (**مَن عمل للآخرة. . أحرزها والدنيا ، ومَن آثر الدنيا. . حُرِمها والآخرةَ**) .

وقال بعض الصلحاء : (**استغنم تنفُّسَ الأجل** ، وإمكانَ العمل ، **واقطع ذكر المعاذير والعلل** ؛ فإنَّك في أجلٍ محدود ، ونَفَسٍ معدود ، وعُمرٍ غير ممدود)[5] .

---

(١) الأبيات في « ديوانه » (ص ٣٥) .

(٢) رواه الشهاب القضاعي في « مسنده » (٦٣٨) ، وابن الأعرابي في « معجمه » (٩٧٣) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ؛ وفيه وفي (هـ) : (أقلَّ من الدَّين . . .) ، ومعنى (العرق دسّاس) : أن الولد يشبه أصل الزوجة في الأخلاق والأعمال ؛ فإنها تسري إليه في خفاءٍ ولطفٍ .

(٣) أورده في « محاضرات الأدباء » (٤/ ٢٨٦) .

(٤) أورده في « البصائر والذخائر » (٤/ ١٧٠) .

(٥) أورده في « ربيع الأبرار » (١/ ٩٣) ، و« العاقبة في ذكر الموت » (١/ ٨٣) .

وقال بعض الحكماء : (**الطبيب معذور إذا لم يدفع المحذور**) .

وقال بعض البلغاء : (**اعمل عملَ المرتحل** ؛ فإنَّ حاديَ الموت يحدُوك ليومٍ ليس يعدُوك)[1] .

وروي عن عليِّ بن أبي طالب عليه السلام أنه قال بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] : [من مجزوء الرجز]

غَـــرَّ جَهُـــولاً أَمَلُـــهُ ... يمـــوتُ مَـــن جـــا أَجَلُـــهْ

ومَـــن دنـــا مـــن حَتْفِـــهِ ... لـــم تُغـــنِ عنـــه حِيَلُـــهْ

ومـــا بَقـــاءُ آخِـــرٍ ... قـــد غـــابَ عنـــهُ أوَّلُـــهْ

والمـــرءُ لا يصحَبُـــهُ ... فـــي القبـــرِ إلاّ عمَلُـــهْ

وقال أبو العتاهية[3] : [من البسيط]

لا تأمنِ الموتَ في لحظٍ ولا نفَسٍ ... وإنْ تمنَّعْتَ بالحُجّابِ والحرَسِ

ما بالُ دينِكَ ترضىٰ أنْ تدنِّسَهُ ... وثوبُكَ الدهرَ مغسولٌ من الدَّنَسِ

واعلم بأنَّ سهامَ الموتِ قاصدةٌ ... لكـــلِّ مُـــدَّرِعٍ منّـــا ومُتَّـــرِسِ

ترجو النجاةَ ولم تسلُكْ مسالِكَها ... إنَّ السفينةَ لا تجري على اليَبَسِ

* * *

فإذا رُضتَ نفسك من هـٰذه الحال بما وصفتُ . . **اعتضتَ منها ثلاث خلال** :

ـ **إحداهنَّ** : أن تُكفَىٰ تسويفَ أملٍ يُرديك ، وتسويلَ محالٍ يؤذيك ؛ فإنَّ **تسويف الأمل غرّار** ، وتسويل المحال ضرّار .

ـ **والثانية** : أن تستيقظ لعمل آخرتك ، وتغتنم بقيّة أجلك بخير عملك ؛ فإنَّ **مَن قصّر أملَه ، واستقبل أجلَه** . . حسّن عمله .

---

(١) أورده في « العاقبة في ذكر الموت » (ص ٨٣) ، و« الكشكول » (٢/٢٧٨) .

(٢) الأبيات في « ديوانه » (ص ٢١٣) .

(٣) الأبيات في « ديوانه » (ص ١٩٤) ، والبيت الثاني زيادة من (ج) .

ـ والثالثة : أن يهون عليك نزول ما ليس عنه محيص ، ويسهل عليك حلول ما ليس إلىٰ دفعه سبيل ؛ فإنَّ مَن تحقَّق أمراً . . توطَّأ لحلوله ، وهان عليه عند نزوله .

وروي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال لأبي ذرّ : « نبِّهْ بالتفكر قلبَكَ ، وجافِ عن النوم جنبَكَ ، واتقِ اللهَ ربَّكَ »[١] .

وقال عمر بن الخطاب لأبي ذرّ رضي الله عنهما : (عظني) فقال : (ارضَ بالقُوت ، وخَفِ الفَوت ، واجعل صومَكَ الدنيا ، وفطرَكَ الموت) .

وقال عمر بن عبد العزيز : (ما رأيتُ يقيناً لا شكَّ فيه أشبهَ بشكٍّ لا يقين فيه من يقينٍ نحن فيه ؛ فلَئن كنّا مقرِّين . . إنَّا لَحمقىٰ ، ولَئن كنَّا جاحدين . . إنَّا لَهلكىٰ)[٢] .

وقال الحسن البصري : (نهارُك ضيفُك ، فأحسنْ إليه ؛ فإنَّك إن أحسنت إليه . . ارتحل بحمدك ، وإن أسأت إليه . . ارتحل بذمّك ، وكذا ليلُك)[٣] .

وقال الجاحظ في كتاب « البيان » : (وجد مكتوباً في حجر : يا بنَ آدمَ ؛ إنَّك لو رأيت يسير ما بقي من أجَلك . . لزهدت في طويل ما ترجو من أمَلك ، ولرغبت في الزيادة من عملك ، ولقصرت في حرصك وحيَلك ، وإنَّما يلقاك غداً ندمُك لو قد زلَّت بك قدمُك ، وأسلمك أهلُك وحشمُك ، وتبرّأ منك القريب ، وانصرف عنك الحبيب)[٤] .

ولمَّا حضر بشرَ بن منصور الموتُ . . فرح ، فقيل له : (أتفرح بالموت ؟! فقال : أتجعلون قدومي علىٰ خالقٍ أرجوه كمُقامي مع مخلوقٍ أخافه ؟!)[٥] .

وقيل لأبي بكر الصدّيق رضي الله تعالىٰ عنه في مرضه الذي مات فيه : لو

---

(١) أورده في « بهجة المجالس » (١/ ١١٥) من قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٢٣٤) ، وأورده في « محاضرات الأدباء » (٤/ ٢٩٢) .
(٣) أورده في « البيان والتبيين » (٣/ ١٦٤) ، وروىٰ نحوه في « المجالسة وجواهر العلم » (١٢٨٦) .
(٤) البيان والتبيين (٣/ ١٦٦) .
(٥) أورده ابن المعتز في « البديع » (ص ٣٧) ، و« محاضرات الأدباء » (٤/ ٣١٣) .

أرسلت إلى الطبيب ؟ فقال : (قد رآني) قالوا : فما قال لك ؟ قال : (قال : إنِّي فعَّالٌ لما أريد)[1] .

وقيل للربيع بن خُثَيم وقد اعتلّ : (ندعو لك الطبيبَ ؟ فقال : قد أردت ذلك ، فذكرت عاداً وثمود وأصحاب الرّسّ وقروناً بين ذلك كثيراً ، وعلمتُ أنه كان فيهم الداء والمُداوي ، فهلكوا جميعاً)[2] .

وسئل أنوشروان : (متىٰ يكون عيشُ الدنيا ألذَّ ؟ فقال : إذا كان الذي ينبغي أن يعمله في حياته معمولاً) .

وقال بعض الحكماء : (مَن ذكر المنيّة . . نسي الأمنيَّة)[3] .

وقال بعض الأدباء : (عن الموت تسلَّ ، فهو كريشةٍ تُسَلّ) .

وقال بعض البلغاء : (الأمل حجاب الأجل) .

وأنشد بعض أهل الأدب ما ذكر أنه لعليّ بن أبي طالب عليه السلام[4] : [من الوافر]

ولـو كنّـا إذا متنـا تُـرِكْنـا ... لَكـان المـوتُ راحـةَ كـلِّ حـيِّ
ولٰكنّـا إذا متنـا بُعِثْنـا ... ونُسـألُ بعـدَ ذا عـن كـلِّ شـيِّ

وقال بعض الشعراء[5] : [من الطويل]

ألا إنَّمـا الـدنيـا مَقيـلٌ لـراكـبٍ ... قضىٰ وطَراً من منزلٍ ثمَّ هَجَّرا
فـراحَ ولا يـدري عـلامَ قـدومُـهُ ... ألا كـلُّ مـا قـدَّمتَ تلقـىٰ مـوفَّـرا

روىٰ سعيد بن مسعود أن أبا الدرداء رضي الله عنه قال : يا رسولَ الله ؛ أوصني ، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « اكسبْ طيّباً ، واعمل صالحاً ،

---

(١) رواه الإمام أحمد في « الزهد » (٥٨٧) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٥٨١) .
(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٠٠) في زيادات نعيم بن حماد ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٣٨٩٤) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٩٥١٤) .
(٣) أورده في « الإمتاع والمؤانسة » (ص ٢٧٩) .
(٤) البيتان في « ديوانه » (ص ٢٧٩) ، وفي « ديوان أبي العتاهية » (ص ٢٨٧ـ دار صادر) .
(٥) البيتان هتف بهما هاتف بركبٍ يسيرون ؛ كما رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (١٥٤) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (٣٩١) عن وهب بن منبه رحمه الله تعالىٰ .

واسألِ اللهَ تعالىٰ رزقَ يومٍ بيومٍ ، واعدد نفسَكَ منَ الموتىٰ »[1] .

وكتب الربيع بن خُثيم إلىٰ أخٍ له : (قدِّم جَهازك ، وافرغ منْ زادك ، وكن وصيَّ نفسك ، والسلام)[2] .

وقال بعض السلف : (أصاب الدنيا مَنْ حذرها ، وأصابتِ الدنيا مَنْ أمنها)[3] .

ومرَّ محمد بن واسع بقوم ، فقيل له : (هٰؤلاء زهَّاد ، فقال : وما قدرُ الدنيا حتىٰ يُحمَد مَن زهد فيها ؟!)[4] .

وقال بعض الحكماء : (السعيد : مَن اعتبر بأمسه ، واستظهر لنفسه ، والشقيُّ : مَن جمع لغيره ، وبخل علىٰ نفسه)[5] .

وقال بعض البلغاء : (لا تبِتْ عن غير وصيّة وإنْ كنت من جسمك في صحّة ، ومن عمرك في فُسحة ؛ فإنَّ الدهر خائن ، وكلَّ ما هو كائن . . كائن)[6] .

وقال بعض الشعراء[7] : [من البسيط]

مَن كان يعلمُ أنَّ الموتَ مُدرِكُهُ ... والقبرَ مَسكنُهُ والبعثَ مَخرجُهُ
وأنَّــه بيــنَ جنّــاتٍ ستُبهِجُــهُ ... يــومَ القيــامــةِ أو نــارٍ ستُنضِجُــهُ
فكلُّ شيءٍ سوى التقوىٰ به سمِجٌ ... ومــا أقــامَ عليــه منــه أسمَجُــهُ
ترى الذي اتخذَ الدنيا له وطناً ... لم يدرِ أنَّ المنايا سوفَ تُزعِجُهُ

وروىٰ جعفر بن محمد بن علي ، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال في بعض خطبه : « أيُّها الناسُ ؛ إنَّ لكم نهايةً

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٤٦٦) ، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (١/ ٢١٢) بنحوه .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٩٧) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٦/ ١٠٨) .
(٣) أورده في « نهاية الأرب » (٦/ ١٠٦) من قول عبد الحميد ، و« البصائر والذخائر » (٤/ ٦٢) .
(٤) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (١/٣٠١١) ، و« تاريخ دمشق » (٥٦/ ١٥٣) .
(٥) أورده في « نهاية الأرب » (٦/ ١٠٧) .
(٦) أورده في « العاقبة في ذكر الموت » (ص ٨٨) .
(٧) أورد الأبيات في « المستطرف » (٣/ ٣٥٨) ، و« سراج الملوك » (١/ ٦١) .

فانتهُوا إلىٰ نهايتكم ، **وإنَّ لكم معالمَ** فانتهُوا إلىٰ معالمكم ، **وإنَّ المؤمن بين مَخافتَين** ؛ أجَلٍ قد مضىٰ لا يدري ما الله تعالىٰ صانعٌ فيه ، وأجَلٍ قد بقي لا يدري ما الله تعالىٰ قاضٍ فيه ، **فليتزوَّدِ العبدُ من نفسه لنفسه** ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الحياة قبلَ الموت ؛ **فإنَّ الدنيا خُلِقت لكم ، وإنّكم خُلِقتم للآخرة** ، فوالذي نفسُ محمدٍ بيده ؛ **ما بعدَ الموت من مُستعتَبٍ ، ولا بعد الدنيا دار إلا الجنةَ أو النارَ** »[١] .

وقال الحسن البصريّ : (**أمسِ أجَلٌ ، واليومَ عمَلٌ ، وغداً أمَلٌ**)[٢] .

فأخذ أبو العتاهية هٰذا المعنىٰ فنظمه شعراً ، فقال[٣] : [من الخفيف]

ليسَ فيما مضَىٰ ولا في الذي لم ... يــأتِ مــن لــذّةٍ لمُستحْلِيهــا
إنَّمـا أنـتَ طُـولَ عُمْـرِكَ مـا عُمِّـ ... ـرتَ في الساعة التي أنتَ فيها
قنِّـعِ النفــسَ بــالكَفــافِ وإلا ... طلَبــتْ منــكَ فــوقَ مــا يكفيهــا

وقيل لزاهدٍ : (ما بالك تمشي علىٰ عصاً ولست بكبيرٍ ولا مريض ؟! قال : **لأنّي أعلم أنّي مسافر** ، وأنها دارُ قُلْعة ، **وأن العصا من آلة السفر**)[٤] .

وقال بعضهم[٥] : [من الطويل]

حملتُ العصا لا الضعفُ أوجبَ حَمْلَها ... علـيَّ ولا أنّـي تحنَّيــتُ مــن كِبَــرْ
ولٰكنَّـي ألـزَمـتُ نفسـيَ حَمْلَهـا ... لأُعْلِمَهــا أنَّ المقيــمَ علــىٰ سَفَــرْ

وقال بعض المتصوِّفة : (**الدنيا ساعة ، فاجعلها طاعة**)[٦] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٩٠) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (١٠٠٩٧) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « كلام الليالي والأيام لابن آدم » (١٢) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٥٣/١٢) .
(٣) الأبيات في « ديوانه » (ص ٤١٦) .
(٤) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (١٢٨٤) ، وأورده في « ربيع الأبرار » (١٠٦/٢) ، ودار قُلْعة ؛ أي : اقتلاع وتحوُّل .
(٥) أوردهما في « عيون الأخبار » (٣٢٣/٢) .
(٦) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ١٧٣) ، و« زهر الآداب » (٨١٠/٢) .

وقال ذو القرنين : (رتَعنا في الدنيا جاهلين ، وعِشنا فيها غافلين ، وأُخرِجنا منها كارهين)[1] .

وقال عبد الحميد : (المرءُ أسير عُمرٍ يسير) .

وقيل في بعض المواعظ : (عجبٌ لمَن خاف العقاب كيف لا يكفُّ ، وعجبٌ لمَن يرجو الثواب كيف لا يعمل ؟!)[2] .

وقال بعض الحكماء : (المسيءُ ميتٌ وإن كان في دار الحياة ، والمحسنُ حيٌّ وإن كان في دار الأموات ، وكلٌّ بالأثر يومَه أو غدَه)[3] .

وقال بعض السلف : (الله المستعان علىٰ ألسنة تصف ، وقلوب تعرف ، وأعمال تخالف)[4] .

وقال آخر : (إن الليل والنهار يعملان فيك ، فاعمل فيهما)[5] .

وقال آخر : (اعملوا لآخرتكم من هـٰذه الأيام التي تسير كأنَّها تطير)[6] .

وقال آخر : (الموتُ قُصاراك ، فخُذْ من دنياك لأُخراك)[7] .

وقال آخر : (عبادَ الله ؛ الحذرَ الحذرَ ، فوالله ؛ لقد ستر حتىٰ كأنه قد غفر ، ولقد أمهل حتىٰ كأنه قد أهمل)[8] .

---

(١) أورده في « الكشكول » (٢/ ١٤٦) لميلاطوس .

(٢) أورده في « الإعجاز والإيجاز » (ص ٤٢) من قول سيدنا علي رضي الله عنه ، و« العقد الفريد » (٣/ ١٧٨) من قول الحسن البصري رحمه الله تعالىٰ .

(٣) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (١٤١) ، وأورده في « البصائر والذخائر » (٧/ ١١٤) .

(٤) أورده في « البيان والتبيين » (١/ ٢٨٤) ، و« التمثيل والمحاضرة » (ص ١٧٢) من قول عمر بن ذرّ ، وفي « العقد الفريد » (٣/ ١٨٥) من قول ابن السمّاك .

(٥) أورده ابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (٤٧) ، ونسبه في « الإعجاز والايجاز » (ص ٧٧) لعمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالىٰ .

(٦) أورده في « الكشكول » (٢/ ٨٩) .

(٧) قُصاراك : مبلغ جهدك وغايتك .

(٨) أورده في « محاضرات الأدباء » (٤/ ١١٣) من قول ابن السمّاك ، وفي « شرح نهج البلاغة » (١٨/ ١٤١) من قول سيدنا علي رضي الله عنه .

وقال آخر : (**الأيام صحائف أعمالكم فخلِّدوها أجملَ أفعالكم**)[1] .

وقيل في منثور الحكم : (**اقبل نُصحَ الشَّيب وإن عجل**)[2] .

وقيل : (**ما طلعت شمسٌ إلا وعظت بأمسِ**) .

وقال محمد بن بشير[3] : [من الطويل]

مضىٰ أمسُكَ الأدنىٰ شهيداً معدَّلاً ... ويومُكَ هٰذا بالفِعالِ شهيدُ

فإنْ تكُ بالأمسِ اقترفتَ إساءةً ... فثَنِّ بإحسانٍ وأنتَ حميدُ

ولا تُرْجِ فعلَ الخيرِ منكَ إلىٰ غدٍ ... لعلَّ غداً يأتي وأنتَ فقيدُ

إذا ما المنايا أخطأَتْكَ وصادفَتْ ... حميمَكَ فاعلمْ أنَّها ستعودُ

وإنَّ امرأً ينجو من النار بعدما ... تزوَّدَ من أعمالها لسعيدُ

روىٰ أبو هريرة رضي الله عنه ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **ما رأيتُ مثلَ الجنَّةِ نامَ طالبُها ، وما رأيتُ مثلَ النارِ نامَ هاربُها** »[4] .

وقال عيسى ابن مريم عليه السلام : (**إنَّ أولياءَ الله الذين لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون . . الذين نظرُوا إلىٰ باطن الدنيا حين نظر الناسُ إلىٰ ظاهرها ، وإلىٰ آجل الدنيا حين نظر الناسُ إلىٰ عاجلها ، فأماتُوا منها ما خشُوا أن يُميتَ قلوبَهم ، وتركُوا منها ما علمُوا أنَّه سيتركُهم**)[5] .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالىٰ عنه : (**الناس طالبان يطلبان ؛ فطالبٌ يطلب الدنيا ، فارفضوها في نحره ؛ فإنَّه ربَّما أدرك الذي يطلب منها فهلك بما أصاب منها ، وطالبٌ يطلب الآخرة ، فإذا رأيتم طالب الآخرة . . فنافِسُوه**)[6] .

---

(١) أورده في « الإعجاز والإيجاز » (ص ٤٦)، و« زهر الآداب » (١/ ٢١٢) من قول أفريدون ملك العجم .

(٢) أورده في « نثر الدر » (٣/ ١٥٣) من كلام ابن المعتز .

(٣) أورد الأبيات المرزباني في « معجم الشعراء » (ص ٤١٤) لمحمد بن يسير الرياشيّ ، وهي ممَّا نُسب لمحمود الوراق في « ديوانه » (ص ٢٤٧) وزاد في (ج) البيتين الأخيرين ، وهما ليزيد بن الصقيل العُقَيليّ ، أوردهما المبرّد في « الكامل » (١/ ١٣٥) ، و« التذكرة الحمدونية » (١/ ٢٢٣) .

(٤) رواه الترمذي (٢٦٠١) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٣٨٣) .

(٥) رواه الإمام أحمد في « الزهد » (٣٣٩) ، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (١/ ١٠) .

(٦) أورده في « البيان والتبيين » (٣/ ١٣٨) ، و« التذكرة الحمدونية » (١/ ١٢٧) .

ودخل أبو الدرداء الشام ، فقال : (يا أهلَ الشام ؛ اسمعوا قولَ أخٍ ناصحٍ) ، فاجتمعوا عليه ، فقال : (ما لي أراكم تبنون ما لا تسكنون ، وتُؤمِّلون ما لا تُدركون ، وتجمعون ما لا تأكلون ؟! إنَّ الذين كانوا قبلكم بنَوا مَشيداً ، وأمَّلُوا بعيداً ، وجمعوا كثيراً ، فأصبح أملُهم غروراً ، وجمعُهم بُوراً ، ومساكنُهم قبوراً)[1] .

وقال أبو حازم : (إنَّ الدنيا غرَّت أقواماً ، فعملوا فيها بغير الحقِّ ، ففاجأهم الموتُ ، فخلَّفوا مالَهم لمَن لا يحمدهم ، وصاروا إلىٰ مَن لا يعذرهم ، وقد خُلِّفنا بعدَهم ، فينبغي لنا أن ننظر الذي كرهناه منهم فنجتنبه ، والذي غبطناهم به فنستعمله)[2] .

ومرَّ بعض الزهَّاد بباب ملك ، فقال : (بابٌ جديد ، وموتٌ عتيد ، ونزعٌ شديد ، وسفرٌ بعيد)[3] .

ومرَّ بعض الزهَّاد برجلٍ قد اجتمع عليه الناس ، فقالوا : (هٰذا مسكين سرق منه رجلٌ جبّةً !!) ، ومرَّ به آخر فأعطاه جبّةً ، فقال : (الحمد لله ، ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴾)[4] .

وقال بعض الحكماء : (ما أنصف مِن نفسه مَنْ أيقن بالحشر والحساب ، وزهد في الأجر والثواب) .

وقال آخر : (بطول الأمل تقسو القلوب ، وبإخلاص النيّة تقلُّ الذنوب) .

وقال آخر : (إياكَ والمُنىٰ ؛ فإنَّها من بضائع النَّوْكىٰ ، وتثبِّط عن الآخرة والأولىٰ)[5] .

---

(١) رواه أبو داوود في « الزهد » (٢٤٧) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٧٢٣) .

(٢) أورده في « البيان والتبيين » (٣/ ١٢٧) ، و« البصائر والذخائر » (٨/ ٥٨) .

(٣) أورده في « البيان والتبيين » (١/ ٢٨٦) .

(٤) أي : إن بعضكم يأخذ دناءة ، وبعضكم يعطي كرامة ، فسعيكم مختلف ، وأجركم كذلك .

(٥) أورده في « الإعجاز والإيجاز » (ص ٣٧) ، و« شرح نهج البلاغة » (١٦/ ٩٧) من كلام سيدنا علي رضي الله عنه .

وقال آخر : (**قصِّر أملَك** ؛ فالعمر قصير ، **وأحسِن سيرتَك** ؛ فالبرُّ يسير) .

وقال عبد الله بن المعتزّ[1] : [من الطويل]

نسيرُ إلى الآجالِ في كلِّ ساعةٍ ... وأيّامُنا تُطوىٰ وهُنَّ مَراحِلُ
ولم نرَ مثلَ الموتِ حقّاً كأنَّهُ ... إذا ما تخطَّتهُ الأمانيُّ باطلُ
وما أقبحَ التفريطَ في زمَنِ الصِّبا ... فكيفَ به والشَّيبُ في الرأس شاملُ
ترحَّلْ من الدنيا بزادٍ من التُّقىٰ ... فعمرُكَ أيّامٌ تُعدُّ قلائلُ

وكان عبد الملك بن مروان يتمثَّل بهٰذين البيتين كثيراً : [من الكامل]

فاعمَلْ علىٰ مَهَلٍ فإنَّكَ ميِّتٌ ... واكدَحْ لنفسِكَ أيُّها الإنسانْ
فكأنَّ ما قد كان لم يكُ إذْ مضَىٰ ... وكأنَّ ما هو كائنٌ قد كانْ[2]

ونظر سليمان بن عبد الملك يوماً في المرآة فقال : **أنا الملك الشابُّ** ، وكان علىٰ رأسه جارية له ، فقال لها : **أوَما تقولين أنت ؟**

فقالت له الجارية : [من الخفيف]

أنتَ نِعْمَ المتاعُ لو كنتَ تبقىٰ ... غيرَ أنْ لا بقاءَ للإنسانِ
ليسَ فيما بدا لنا منكَ عيبٌ ... كان في الناسِ غيرَ أنَّكَ فانِ[3]

روي عن عبد العزيز بن عبد الصمد ، عن أبان ، عن أنسٍ قال : خطبَنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم علىٰ ناقته الجَدْعاء ، فقال : « **أيُّها الناسُ ؛ كأنَّ الموتَ فيها علىٰ غيرِنا كُتِبَ ، وكأنَّ الحقَّ فيها علىٰ غيرنا وجَبَ ، وكأنَّ الذين نشيِّعُ من الأموات سَفْرٌ عمَّا قليلٍ إلينا راجعون ، نبوِّئُهم أجداثَهم ، ونأكلُ تُراثَهم ، كأنّا مخلَّدون بعدَهم ، قد نسينا كلَّ واعظةٍ ، وأَمِنَّا كلَّ جائحةٍ ، طوبىٰ لمَن شغَلَه عيبُه عن عيبِ غيرِه ، وأنفق من مالٍ كسبَهُ من غيرِ معصيةٍ ، ورحم أهلَ**

---

(١) الأبيات في « ديوانه » (٢/ ٤٠٤) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الاعتبار » (٥٨) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٧/ ١٣١) ، والجريري في « الجليس الصالح » (٤/ ١٤٠) .

(٣) رواه البيهقي في « الزهد » (٦١٥) ، والبيتان لموسى بن يسار الملقب بشهوات ، قالهما في حمزة بن عبد الله بن الزبير . انظر « الأغاني » (٣/ ١٢٠٧) ، و« الشعر والشعراء » (ص ٥٧٨) .

الذُّلِّ والمَسْكَنةِ ، وخالطَ أهلَ الفقه والحكمةِ ، طوبىٰ لمَن أدَّبَ نفسَه ، وحسُنَت خليقتُه ، وصلُحَت سريرتُه ، طوبىٰ لمَن عمل بعلمه ، وأنفق الفضلَ من مالهِ ، وأمسك الفضلَ من قوله ، ووسعته السنّة ، ولم يَعدُها إلىٰ بدعةٍ »[1] .

وروي عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « زُورُوا القبورَ . . تذكروا بها الآخرةَ ، وغسِّلوا الموتىٰ ؛ فإنها معالجةُ الأجساد الخاوية ، وموعظةٌ بليغةٌ »[2] .

وحفر الربيع بن خُثيم في داره قبراً ، فكان إذا وجد من قلبه قسوةً . . جاء فاضطجع في القبر ، فمكث فيه ما شاء الله ، ثم يقول : ﴿ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ ﴾ ، ثم يردُّ علىٰ نفسه فيقول : (قد أرجعتُكِ فجدِّي) ، فمكث علىٰ ذلك ما شاء الله[3] .

وقال أبو محرز الطُّفاويّ : (كفتك القبورُ مواعظَ الأمم السالفة)[4] .

وقيل لبعض الزهّاد : (ما أبلغُ العظات ؟ فقال : النظر إلىٰ مَحلّة الأموات)[5] .

فأخذه أبو العتاهية فقال[6] : [من مجزوء الكامل]

وعظَتْكَ أجداثٌ صُمُتْ ... ونعَتْكَ أزمِنةٌ خُفُتْ
وتكلَّمَتْ عن أوجُهٍ ... تبلىٰ وعن صُوَرٍ سُبُتْ
وأرَتْكَ قبرَكَ في الحيا ... ةِ وأنتَ حيٌّ لم تمُتْ

(١) رواه البزار في « مسنده » (٦٢٣٧ ، ٦٢٣٨) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (١٠٠٧٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٤/ ٢٤٠) .
(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (١/ ٣٧٧) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٨٨٥١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٦/ ١٨٨) عن أبي ذرّ رضي الله عنه .
(٣) رواه البلاذري في « أنساب الأشراف » (١١/ ٣١١) .
(٤) رواه البيهقي في « الشعب » (٨٨٦٨) بنحوه .
(٥) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٨٨٦٦) ، وأورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٣٦) من كلام قُسّ بن ساعدة الإيادي .
(٦) الأبيات في « ديوانه » (ص ٧٨) .

يـــا شـــامِتـــاً بمَنيَّتـــي إنَّ المَنيَّـــةَ لـــم تفُـــتْ
ولـــربَّمـــا انقلَـــبَ الشَّمـــا تُ فحَـــلَّ بـــالقـــومِ الشُّمُـــتْ

ووُجد مكتوباً علىٰ قبرٍ : (**قهرْنا مَن قهرْنا ، فصرْنا للناظرين عِبرة**)[1] .

وعلىٰ آخر : (**مَن أمَّل البقاءَ وقد رأىٰ مَصارعَنا . . فهو مغرورٌ**) .

وقيل في منثور الحكم : (**ما أكثرَ مَن يعرف الحقَّ ولا يطيعه**) .

وقال بعض الحكماء : (**مَن لم يمُتْ . . لم يفُتْ**)[2] .

وقال بعض الصلحاء : (**لنا مِن كلِّ ميت عظةٌ بحاله ، وعبرةٌ بمآله**)[3] .

وقال بعض العلماء : (**مَن لم يتَّعظ بموت ولد . . لم يتَّعظ بقول أحد**) .

وقال بعض البلغاء : (**ما انقضَت ساعةٌ من أمسِك إلا ببَضْعة من نفسِك**)[4] .

فأخذه أبو العتاهية فقال[5] : [من المنسرح]

إنَّ مـعَ اليـومِ ـ فـٱعلَمَـنَّ ـ غـداً فـانظُـرْ بمـا ينقضـي مَجـيءُ غَـدِهْ
مـا ارتـدَّ طـرفُ امـرىءٍ بلـذَّتِـهِ إلا وشـيءٌ يمـوتُ مِـن جسَـدِهْ

ولمّا مات الإسكندر . . قال أرسطاطاليس : (**لقد حرَّكتنا بسكونك**) .

وقال بعض الحكماء : (**كان الملك أمسِ أنطقَ منه اليومَ ، وهو اليومَ أوعظُ منه أمسِ**)[6] .

فأخذ هـٰذا المعنىٰ أبو العتاهية فقال[7] : [من الوافر]

كفـىٰ حـزَنـاً بـدفنِـكَ ثُـمَّ أنِّـي نفضْـتُ تُـرابَ قبـرِكَ عـن يـدَيَّـا
وكـانـتْ فـي حيـاتِـكَ لـي عِظـاتٌ وأنـتَ اليـومَ أوعـظُ منـكَ حَيَّـا

---

(١) أورده في « سراج الملوك » (١/ ٥٣) .
(٢) أورده أبو عبيد في « الأمثال » (ص ٣٣٧) من كلام أكثم بن صيفيّ .
(٣) أورده في « العاقبة في ذكر الموت » (ص ٤٣) .
(٤) أورده في « الإمتاع والمؤانسة » (ص ٢٧٩) .
(٥) البيتان في « ديوانه » (ص ١٣٣) .
(٦) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ١٧٦) ، و« زهر الآداب » (٢/ ٦٧٣ـ ٦٧٤) .
(٧) البيتان في « ديوانه » (ص ٦٧٩) .

وقال بعض الحكماء : (**لو كان للخطايا ريحٌ . . لافتضح الناسُ من كل عملٍ قبيح ، ولم يتجالسوا**) .

فأخذ هٰذا المعنىٰ أبو العتاهية فقال[1] : [من مجزوء الرمل]

أحســـــنَ اللهُ بنـــــا أنَّ ... الخطــــايـــــا لا تفُـــوحُ
فـــــإذا المستـــــورُ مِنَّـــــا ... بيـــنَ ثَـــوْبَيــــهِ فُضُـــوحُ

وهٰذا كلُّه مأخوذٌ من قول النبيِّ صلى الله عليه وسلم : « **لو تكاشَفتُم . . ما تدافَنتُم** »[2] .

وكتب رجلٌ إلىٰ أبي العتاهية : [من مجزوء الرمل]

يـــا أبـــا إسحـــاقَ إنِّـــي ... واثـــقٌ منـــكَ بـــوُدِّكْ
فـــأعِنِّـــي بـــأبـــي أنْـــ ... ـــتَ علـىٰ غَيِّـي بـرُشْـدِكْ

فأجابه أبو العتاهية[3] : [من مجزوء الرمل]

أطِـــعِ اللهَ بجَهْـــــدِكْ ... راغبـــاً أو دونَ جَهْـــدِكْ
أَعـــطِ مـــولاكَ الـــذي تَطْـ ... ـلُـــبُ مِـــن طـــاعـــةِ عَبْـدِكْ

وقال بعض الحكماء : (**مَن سرَّه بنُوه . . ساءته نفسُه**)[4] .

فأخذ هٰذا المعنىٰ أبو العتاهية فقال[5] : [من الخفيف]

ابـنُ ذي الابـنِ كلَّمـا زادَ منـهُ ... مَشْـرَعٌ زادَ فـي فَنـاءِ أبيـهِ
مـا بقـاءُ الأبِ المُلِـحِّ عليـهِ ... بـدَبيـبِ البِلَـىٰ شبـابُ بَنِيـهِ

وفي معناه : ما حُكي عن زرِّ بن حُبَيش أنه عاش مئة وعشرين سنة ، فلمَّا

---

(١) البيتان في « ديوانه » (ص ٩٧) .

(٢) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٦١٦) ، و« عيون الأخبار » (٢/ ٣٤٤) من قول الحسن البصري رحمه الله تعالىٰ .

(٣) البيتان في « ديوانه » (ص ٨٨ ـ دار صادر) .

(٤) أورده أبو عبيد في « الأمثال » (ص ١٤٦) ، و« عيون الأخبار » (٢/ ٣٢٠) من قول ضرار بن عمرو الضبّيّ .

(٥) البيتان في « ديوانه » (ص ٢٧٧ ـ دار صادر) .

حضرته الوفاة أنشأ يقول : [من مشطور الرجز]

إذا الـــرجـــالُ وَلـــدَتْ أولادُهـــا
وارتعشَـــتْ مـــن كِبَـــرٍ أجســـادُهـــا
وجعلَـــتْ أسقـــامُهـــا تعتـــادُهـــا
تلـــكَ زُروعٌ قـــد دَنـــا حَصـــادُهـــا[١]

وكتب رجلٌ إلىٰ صالح بن عبد القدّوس[٢] : [من البسيط]

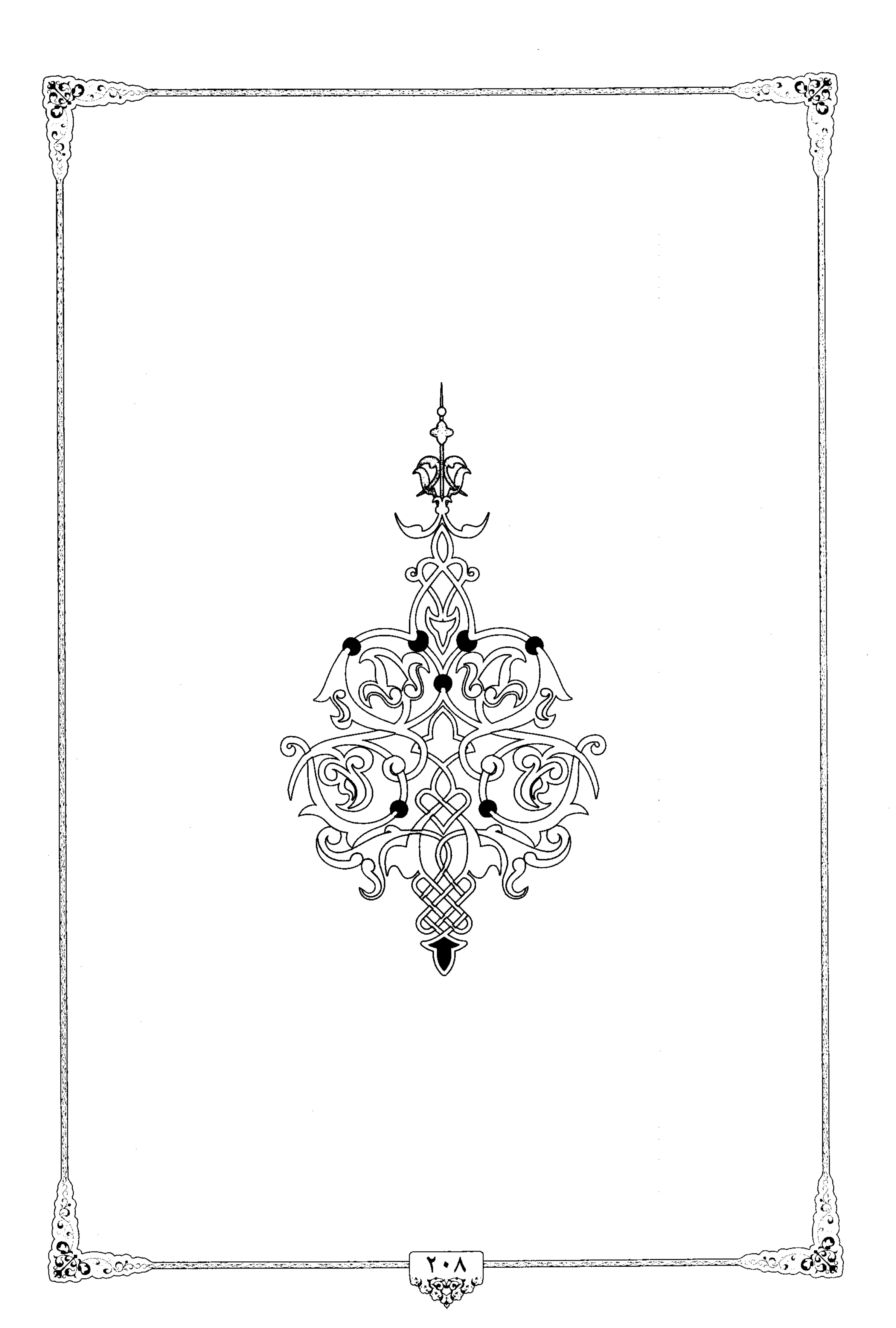
المـوتُ بـابٌ وكـلُّ النـاسِ داخلُـهُ فليتَ شعرِيَ بعدَ البابِ ما الدارُ

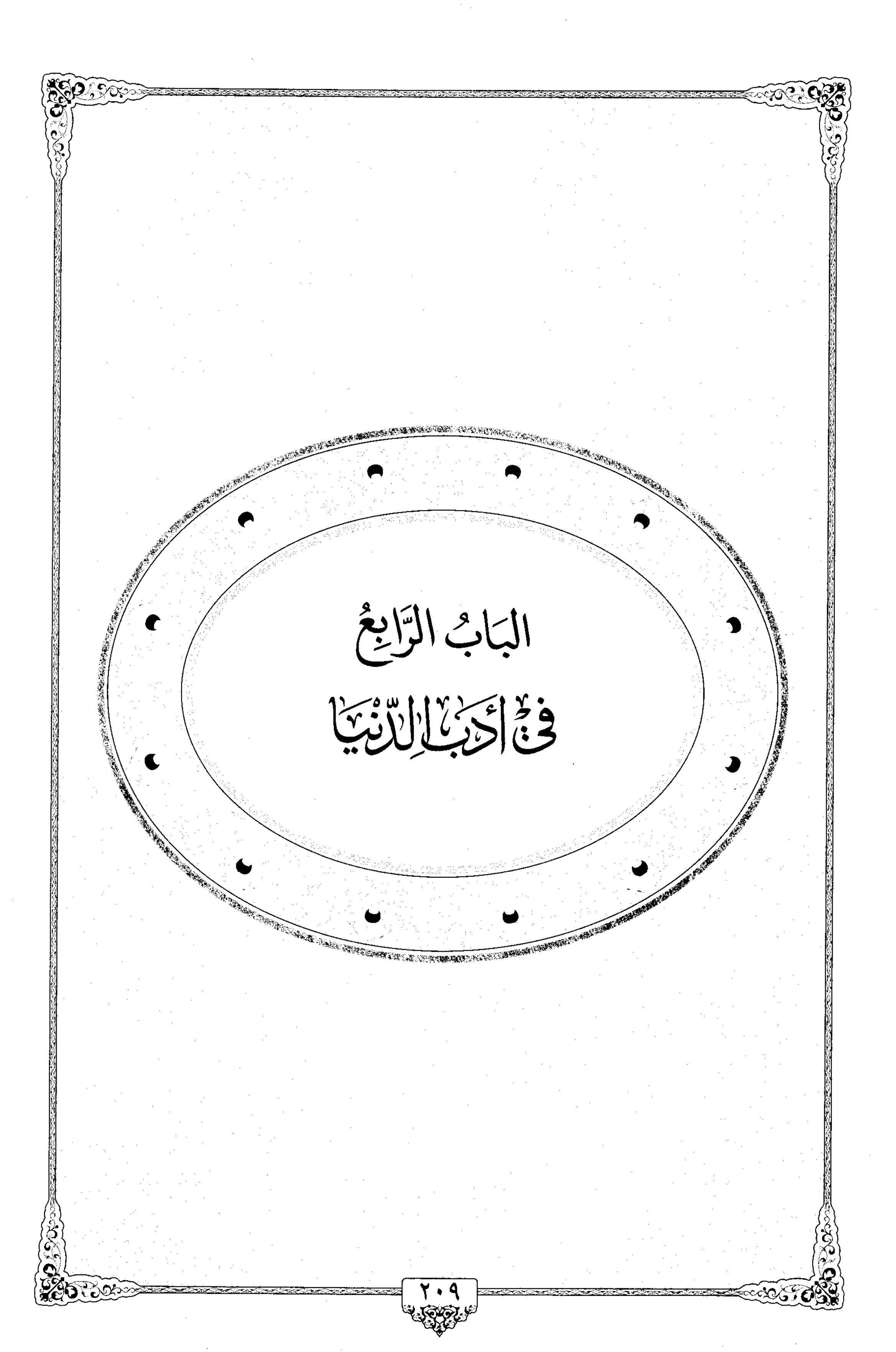
فأجابه صالح[٣] : [من البسيط]

الـدارُ جنّـةُ عَـدْنٍ إنْ عمِلْـتَ بمـا يُرضي الإلٰهَ وإنْ فرَّطتَ فالنارُ
همـا محـلاّنِ مـا للنـاس غيـرُهمـا فـانظُـرْ لنفسِـكَ مـاذا أنـتَ مُختـارُ

---

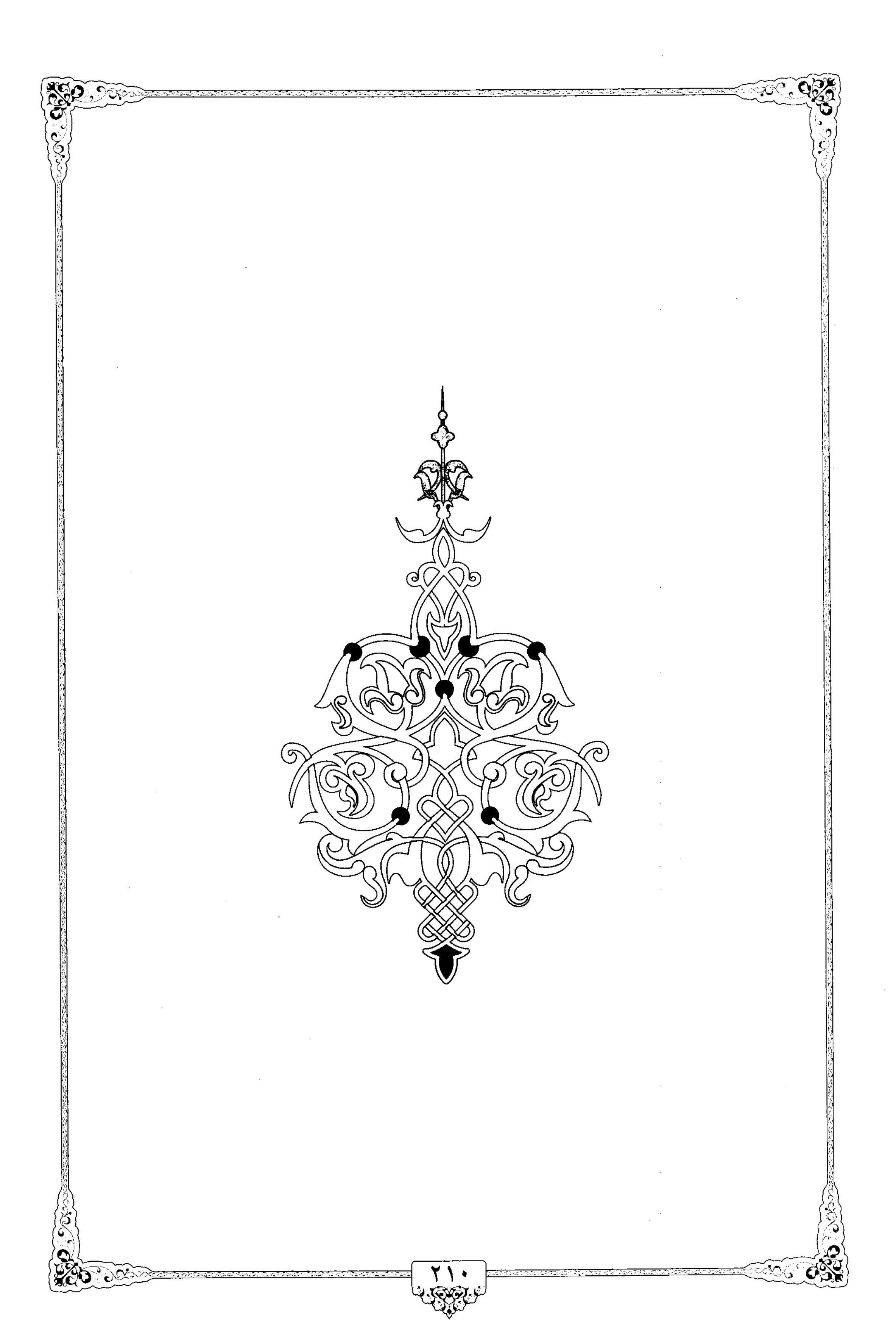
(١) أورده في « الصاهل والشاحج » (ص ٥٦٦) .
(٢) أورده في « ثمار القلوب » (٢/٩٧٨) ، وهـٰذا البيت مع الأول من الجواب في « ديوان أبي العتاهية » (ص ١٤١) .
(٣) البيتان في « ديوانه » (ص ١١٩) .

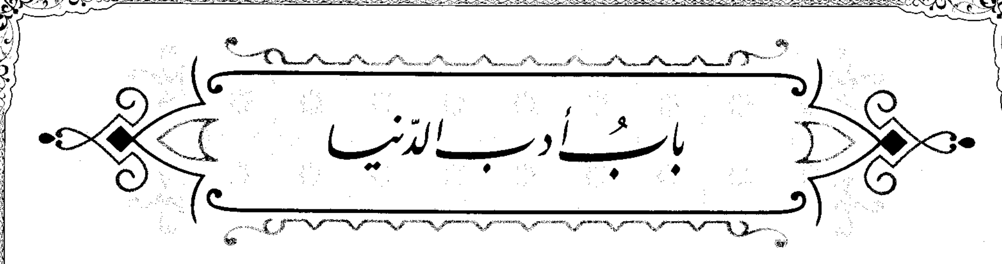




البَابُ الرَّابِعُ

في أدبِ الدّنْيا





بابُ أدبِ الدّنيا

اعلم : أنَّ الله تعالىٰ لنافذ قدرته وبالغ حكمته خلق الخلق بتدبيره ، وفطرهم بتقديره ، فكان من لطيف ما دبَّر ، وبديع ما قدَّر : أن خلقهم محتاجين ، وفطرهم عاجزين ؛ ليكون بالغنىٰ متفرِّداً ، وبالقدرة مختصاً ؛ حتىٰ يُشعرَنا بقدرته أنه خالق ، ويُعلمَنا بغناه أنه رازق ، فنذعن بطاعته رغبةً ورهبةً ، ونقرّ بنقصنا عجزاً وحاجة .

ثم جعل الإنسانَ أكثر حاجةً من جميع الحيوان ؛ لأن من الحيوان ما يستقلُّ بنفسه عن جنسه ، والإنسان مطبوعٌ على الافتقار إلىٰ جنسه ، والاستعانة به صفةً لازمة لطبعه ، وخِلقةً قائمة في جوهره ؛ ولذلك قال الله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ يعني : ضعيفاً عن الصبر عمَّا هو إليه مفتقرٌ ، واحتمالِ ما هو عنه عاجزٌ .

ولمَّا كان الإنسان أكثرَ حاجةً من جميع الحيوان . . كان أظهرَ عجزاً ؛ لأن الحاجة إلى الشيء افتقارٌ إليه ، والمفتقر إلى الشيء عاجز به[1] .

وقد قال بعض حكماء المتقدِّمين : (استغناؤك عن الشي خيرٌ من استغنائك به)[2] .

وإنَّما خَصَّ الله تعالى الإنسان بكثرة الحوائج ، وظهور العجز ؛ نعمةً عليه ، ولطفاً به ؛ ليكون ذلُّ الحاجة ومَهانة العجز يمنعان من طغيان الغنىٰ وبغي القدرة ؛ لأنَّ الطغيان مركوزٌ في طبعه إذا استغنىٰ ، والبغيَ مُستولٍ عليه إذا قدر ، وقد أنبأ الله تعالىٰ بذلك عنه فقال : ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ ، ثم ليكون أقوى الأمور شاهداً علىٰ نقصه ، وأوضحَها دليلاً علىٰ عجزه .

---

(١) فيه إيماء إلىٰ أن الحاجة من العيوب .

(٢) أورده في « الكشكول » (٢/ ١٥٨) من كلام أرسطاطاليس .

وأَنشدني بعضُ أهل الأدب لابن الروميّ[1] : [من الطويل]

أعيَّرتَني بالنقصِ والنقصُ شاملٌ ... ومَن ذا الذي أُعطي الكمالَ فيكمُلُ
وأشهدُ أنِّي ناقصٌ غيرَ أنَّني ... إذا قِيس بي قومٌ كثيرٌ تقلَّلوا
تفاضلَ هٰذا الخلقُ بالفضل والحِجا ... ففي أيِّما هٰذين أنتَ مفضَّلُ
ولو منحَ اللهُ الكمالَ ابنَ آدمٍ ... لخلَّده واللهُ ما شاءَ يفعَلُ

ولمّا خلق الله سبحانه الإنسانَ ماسَّ الحاجةِ ، ظاهرَ العجز.. جعل لنيل حاجته أسباباً ، ولدفع عجزه حيلةً ، دلَّه عليهما بالعقل ، وأرشده إليهما بالفطنة ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ قال مجاهد : (قدَّر أحوالَ خَلْقه ، فهدىٰ إلىٰ سبيل الخير والشرّ)[2] .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالىٰ : ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ : (يعني الطريقين : طريقَ الخير ، وطريقَ الشرّ)[3] .

ثم لمَّا كان العقل دالاً علىٰ أسباب ما تدعو الحاجةُ إليه.. جعل الله تعالى الإدراك والظَّفَر موقوفاً علىٰ ما قسم وقدر ؛ لكيلا يعتمدوا في الأرزاق علىٰ عقولهم ، وفي العجز علىٰ فطنهم ؛ لتدوم له الرغبة والرهبة ، ويظهر منه الغنىٰ والقدرة .

وربَّما عزَب هٰذا المعنىٰ عمَّن ساء ظنُّه بخالقه حتىٰ صار سبباً لضلاله ؛ كما قال الشاعر[4] : [من البسيط]

سبحانَ مَن أنزلَ الأيّامَ منزلَها ... وصيَّر الخلقَ مرفوضاً ومرموقا

---

(١) أورد الأبيات في « معجم الأدباء » (١/ ٦٤٨) ، و« ربيع الأبرار » (٢/ ٥٥) منسوبة لأحمد بن عبيد الله بن محمد بن عمار الثقفي الملقب بحمار العُزير ، كان ابن الرومي ينحله الشعر ، ولابن عمار كتاب في أخبار ابن الرومي ومختار شعره .

(٢) رواه الطبري في « تفسيره » (١٥/ ٣٠/ ١٩١) .

(٣) رواه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٥٢٣) ، وابن المقرىء في « معجمه » (١١٤٨) .

(٤) الأبيات في « طبقات الشعراء » (ص ٤٤٦) لعمرو القَصافيّ ، وفي « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٤/ ٢٣٢) لأبي العلاء ، وفي « معاهد التنصيص » (١/ ١٤٧) لأحمد ابن الراوَنْديّ .

فعاقلٍ فطِنٍ أعيَتْ مذاهبُهُ ... وجاهلٍ خرقٍ تلقاه مرزوقا
ذاك الذي ترك الألبابَ حائرةً ... وصيَّرَ العاقلَ النِّحْرِيرَ زِنْدِيقا

ولو حسُن ظنُّ العاقل حتىٰ صحَّ نظرُه.. لعلم من علل المَصالح ما صار بها صدِّيقاً لا زنديقاً ؛ لأنَّ من علل المصالح ما هو ظاهر ، ومنها ما هو غامض ، ومنها ما هو مغيَّب ؛ حكمةً استأثر بها .

ولذلك قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « حُسْنُ الظنِّ بالله مِن عبادةِ اللهِ »[١] .

* * *

ثم إنَّ الله سبحانه وتعالىٰ جعل أسباب حاجاته وحيَل عجزه في الدنيا التي جعلها دارَ تكليفٍ وعمل ؛ كما جعل الآخرة دارَ قرارٍ وجزاء ، فلزم لذلك أن يصرف الإنسان إلىٰ دنياه حظّاً من عنايته ؛ لأنه لا غنىً به عن التزوُّد منها لآخرته ، ولا له بدٌّ من سدِّ الخَلَّة فيها عند الحاجة .

وليس في هٰذا القول نقضٌ لما ذكرنا قبلُ من ترك فضولها[٢] ، وزجر النفس عن الرغبة فيها ، بل الراغب فيها مَلُوم ، وطالب فضولها مذموم ، والرغبة إنَّما تختصّ بما جاوز قدر الحاجة ، والفضول إنَّما ينطلق علىٰ ما زاد علىٰ قدر الكفاية[٣] ؛ وقد قال الله تعالىٰ لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾ قال أهل العلم بالتأويل : يعني : (وإذا فرغت من أمر دنياك.. فانصب في عبادة ربِّك)[٤] .

وليس هٰذا القول منه ترغيباً لنبيِّه صلى الله عليه وسلم فيها ، ولٰكن ندبه إلىٰ أخذ البُلغة منها ، وعلىٰ هٰذا المعنىٰ : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٢٥٦) ، وأبو داوود (٤٩٩٣) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .
(٢) أي : لما ذكرناه قبلُ في أدب الدين .
(٣) أي : لا علىٰ قدر الحاجة والكفاية ، فحاصل كلاميه : طالب ما زاد علىٰ قدر الحاجة مذموم ، وطالب قدر الحاجة ليس بمذموم بل ممدوح ، فلا تناقض بينهما ؛ لعدم اتحادهما في الإضافة . انظر « منهاج اليقين » (ص٢٢٢) .
(٤) رواه الطبري في « تفسيره » (١٥/ ٣٠/ ٢٩٨) عن مجاهد رحمه الله تعالىٰ .

« ليس خيرُكُم مَن تركَ الدنيا للآخرة ، ولا الآخرةَ للدنيا ، ولٰكنْ خيرُكُم مَن أَخذَ مِن هٰذه وهٰذه »[1] .

وروي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « نِعْمَ المَطيّةُ الدنيا ؛ فارتحِلُوها . . تبلِّغْكُم الآخرةَ »[2] .

وذمَّ رجلٌ الدنيا عند عليِّ بن أبي طالب عليه السلام ، فقال عليٌّ عليه السلام : (الدنيا دار صدقٍ لمَن صدقها ، ودار نجاةٍ لمَن تجاوز عنها ، ودار غنىً لمَن تزوَّد منها)[3] .

وحكىٰ مقاتل : أن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام قال : (يا ربِّ ؛ حتىٰ متىٰ أترَدَّدُ في طلب الدنيا ؟ فقيل له : أمسِكْ عن هٰذا ؛ فليس طلبُ المَعاش من طلب الدنيا) .

وقال سفيان الثوري : (مكتوبٌ في التوراة : إذا كان في البيت بُرٌّ . . فتعبَّدْ ، وإذا لم يكن . . فاطلب ، يا بنَ آدمَ ؛ حرِّك يدَك . . يُسبَّب لك رزقُك)[4] .

وقال بعض الحكماء : (ليس من الرغبة في الدنيا اكتسابُ ما يصون العِرْضَ فيها) .

وقال بعض الأدباء : (ليس من الحرص اجتلابُ ما يقوت البدنَ) .

وقال محمود الورّاق[5] : [من السريع]

لا تُتبِعِ الدنيا وأيّامَها ذمّاً وإنْ دارَتْ بكَ الدائرَهْ
مِن شرَفِ الدنيا ومِن فضلها أنَّ بها تُستدرَكُ الآخرَهْ

وإذ قد لزم بما بيَّنّاه النظرُ في أمور الدنيا . . فواجبٌ سَبْرُ أحوالها ، والكشفُ

---

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٥/ ١٩٧) ، وابن أبي الدنيا في « إصلاح المال » (٥٠) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « إصلاح المال » (١٠١) .

(٣) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (١٢١١) ، و« تاريخ دمشق » (٤٢/ ٤٩٨) .

(٤) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (١٢١١) ، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (٧/ ١٨) ، وأورده في « ربيع الأبرار » (٤/ ٥٦) .

(٥) البيتان في « ديوانه » (ص ٢٥٢) .

عن جهة انتظامها واختلالها ؛ **لتُعلم أسباب صلاحها وفسادها** ، وموادُّ عمرانها وخرابها ؛ **لتنتفي عن أهلها شُبَه الحيرة** ، وتتجلَّىٰ لهم أسباب الخِيرة ، **فيقصدوا الأمور من أبوابها** ، ويعتمدوا إصلاحَ قواعدها وأسبابها .

واعلم : أن صلاح الدنيا **معتبرٌ من وجهين** :

أولهما : ما ينتظم به أمور جملتها .

والثاني : ما يصلح به حال كل واحدٍ من أهلها .

فهما شيئان ، **لا صلاحَ لأحدهما إلا بصاحبه** ؛ **لأنَّ من صلحت حاله** مع فساد الدنيا واختلال أمورها . . **لن يعدم أن يتعدَّىٰ إليه فسادُها** ، ويقدح فيه اختلالُها ؛ **لأنَّ منها يستمدُّ** ، **وبها يستعدُّ** .

ومَن فسدت حالُه مع صلاح الدنيا وانتظام أمورها . . **لم يجد لصلاحها لذّةً** ، ولا لاستقامتها أثراً ؛ **لأنَّ الإنسان دنيا نفسه** ، فليس يرى الصلاحَ إلا إذا صلحت له ، **ولا يعدُّ الفسادَ إلا إذا فسدت عليه** ؛ لأنَّ نفسه أخصُّ ، وحاله أمسُّ ، **فصار نظره إلىٰ ما يخصُّه مصروفاً** ، وفكره علىٰ ما يمسُّه موقوفاً .

واعلم : أنَّ الدنيا لم تكن قطُّ **لجميع أهلها مُسعِدة** ، ولا عن كافَّة ذويها مُعرِضة ؛ **لأنَّ إعراضها عن جميعهم عطَب** ، **وإسعادها لكافَّتهم فساد** ؛ لائتلافهم بالاختلاف والتباين ، واتفاقهم بالمساعدة والتعاون ، **فإذا تساوىٰ جميعهم** . . لم يجد أحدهم إلى الاستعانة بغيره سبيلاً ، وبهم من الحاجة والعجز ما وصفناه ، **فيذهبوا حينئذٍ ضيعةً** ، ويهلكوا عجزاً .

وإذا تباينوا واختلفوا . . صاروا مؤتلفين بالمعاونة ، متواصلين بالحاجة ؛ **لأنَّ ذا الحاجة وَصُولٌ** ، **والمحتاج إليه موصولٌ** ، وقد قال الله تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ ، قال الحسن : (﴿ مُخْتَلِفِينَ ﴾ **في الرزق** ؛ فهٰذا غنيّ ، وهٰذا فقير ، ﴿ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ يعني : للاختلاف بالغنىٰ والفقر)[1] .

---

(١) رواه الطبري في « تفسيره » (٧/ ١٢/ ١٧٦ـ ١٧٧) .

وقال الله تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ﴾ .

غيرَ أنَّ الدنيا إذا صلحت . . كان إسعادها موفوراً ، وإعراضها ميسوراً ؛ لأنَّها إذا منحت . . هنَّت وأودعت ، وإذا استردَّت . . رفقَت وأبقَت .

وإذا فسدت الدنيا . . كان إسعادُها مكراً ، وإعراضها غدراً ؛ لأنَّها إذا منحت . . كدَّت وأتعبت ، وإذا استردَّت . . استأصلت وأجحفت .

ومع هٰذا فصلاحُ الدنيا مصلحٌ لسرائر أهلها ؛ لوفور أماناتهم ، وظهور دياناتهم ، وفسادُها مفسِدٌ لسرائر أهلها ؛ لقلّة أماناتهم ، وضعف دياناتهم ، وقد وُجِد ذلك في شاهد الحال تجربةً وعرفاً ؛ كما يقتضيه دليلُ الحال تعليلاً وكشفاً ، فلا شيءَ أنفعُ من صلاحها ؛ كما أنه لا شيءَ أضرُّ من فسادها ؛ لأنَّ ما به تقوىٰ دياناتُ الناس وتتوفَّر أماناتُهم . . فلا شيءَ أحقُّ به نفعاً ؛ كما أنَّ ما به تضعف دياناتهم وتذهب أماناتُهم . . فلا شيءَ أجدرُ به ضرراً .

وأنشد لأبي بكر بن دريد الأزديِّ[1] : [من مجزوء الكامل]

النـــاسُ مثـــلُ زمـــانِهـــمْ ... قَـــدَّ الحـــذاءِ علـــىٰ مِثـــالِـــهْ
ورجـــالُ دهـــرِكَ مثـــلُ دَهْـ ... ـــرِكَ فـــي تقلُّبـــهِ وحـــالِـــهْ
وكـــذا إذا فسَـــدَ الـــزَّمـــا ... نُ جـرىٰ الفســادُ علـىٰ رجـالِـهْ

وإذ قد بلغ بنا القولُ إلىٰ ذلك . . فسنبدأ بذكر ما تصلح به الدنيا ، ثم نتلوه بوصف ما تصلح به حالُ الإنسان فيها .

(١) الأبيات في « ديوانه » : (ص١٠٥) .

[فَصْلٌ]
[في قواعد صلاح الدنيا]

اعلم : أن ما به **تصلح الدنيا** حتىٰ تصير أحوالها منتظمة ، وأمورها ملتئمة . . ستة أشياء ، **هي قواعدها وإن تفرعت** ؛ وهي : دِين متَّبَع ، وسلطان قاهر ، وعدل شامل ، وأمن عامٌّ ، وخِصب دارٌّ ، وأمل فسيح .

* * *

فأمّا القاعدة الأولىٰ وهي الدِّين المتَّبَع : فلأنه يصرف النفوس عن شهواتها ، ويعطف القلوب عن إراداتها ، **حتىٰ يصيرُ قاهراً للسرائر** ، زاجراً للضمائر ، رقيباً على النفوس في خلواتها ، نَصوحاً لها في مُلِمّاتها ، **وهـٰذه أمورٌ لا يُوصَل بغير الدِّين إليها** ، ولا يصلح سائرُ الناس إلا عليها ، **فكان الدِّين أقوىٰ قاعدةٍ في صلاح الدنيا واستقامتها** ، وأجدى الأمور نفعاً في انتظامها وسلامتها .

ولذلك لم يُخلِّ الله تعالىٰ خَلْقَه مذ فطرهم **غُفْلاً** من تكليف شرعيٍّ ، واعتقاد دينيٍّ ، ينقادون لحكمه ، **فلا تختلفُ بهم الآراء** ، ويستسلمون لأمره ، **فلا تفترقُ فيهم الأهواء** .

* * *

وإنّما اختلف العلماء في العقل والشرع : هل جاءا مجيئاً واحداً ، أو سبق العقل ثم تعقَّبه الشرع ؟

فقالت طائفةٌ : جاء العقل والشرع معاً مجيئاً واحداً ، **لم يسبق أحدُهما صاحبَه** .

وقالت طائفةٌ أخرىٰ : بل سبق العقل ثم تعقَّبه الشرع ؛ **لأن بكمال العقل يُستدَلُّ علىٰ صحة الشرع** ، وقد قال الله تعالىٰ : ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ ، وذلك لا يوجد منه إلا عند كمال عقله .

فثبت أن الدِّين من أقوى القواعد في صلاح الدنيا ، وهو الفرد الأوحد في

صلاح الآخرة ، وما كان به صلاح الدنيا والآخرة . . **فحقيقٌ** بالعاقل أن يكون به متمسِّكاً ، وعليه محافِظاً .

وقال بعض الحكماء : (**الأدب أدبان** : أدبُ شريعةٍ ، وأدبُ سياسةٍ ، **فأدبُ الشريعة** : ما أدَّى الفرض ، **وأدبُ السياسة** : ما عمر الأرض ، وكلاهما يرجع إلى العدل الذي به سلامةُ السلطان ، وعمارةُ البلدان ؛ لأنَّ مَن ترك الفرض . . فقد ظلم نفسه ، ومَن خرب الأرض . . **فقد ظلم غيره**)[1] .

وقال سعيد بن حميد[2] : [من الكامل]

مـــا صحّـــةٌ أبـــداً بنـــافعـــةٍ ... حتّـىٰ يصـحَّ الـدِّيـنُ والخُلُـقُ

وأمّا **القاعدةُ الثانية** . . **فهي سلطان قاهر** : تأتلفُ برهبته الأهواء المختلفة ، وتجتمع بهيبته القلوبُ المتفرِّقة ، وتنكفُّ بسطوته الأيدي الغالبة ، وتنقمع من خوفه النفوس المتعاندة ؛ لأنَّ في طباع الناس من حبِّ المغالبةِ علىٰ ما آثروه ، والقهرِ لمَن عاندوه ما لا ينكفُّون عنه إلا بمانع قويّ ، ورادع مليّ ، وقد أوضح المتنبي ذلك حيث يقول[3] : [من الكامل]

لا يسلمُ الشرفُ الرفيعُ من الأذىٰ ... حتّـىٰ يُـراقَ علـىٰ جَـوانبـهِ الـدَّمُ

والظُّلمُ مِنْ شِيَمِ النُّفوسِ فإنْ تجِدْ ... ذا عفَّـــةٍ فلِعِلَّـــةٍ لا يظلِـــمُ

وهـٰذه **العلّة المانعة من الظلم** لا تخلو من أحد أربعة أشياء : إمّا عقلٌ زاجر ، أو دينٌ حاجز ، أو سلطانٌ رادع ، أو عجزٌ صادٌّ ، إذا تأمَّلتها . . لم تجد لها خامساً يقترن بها .

ورهبةُ السلطان أبلغُها ؛ لأنَّ العقل والدين ربَّما كانا مضعوفين ، أو بداعي الهوىٰ مغلوبين ، فتكون رهبة السلطان أشدَّ زجراً ، وأقوىٰ ردعاً .

---

(١) أورده أسامة بن منقذ في « لباب الآداب » (ص ٥٦) .

(٢) أورد البيت في « أخبار القضاة » (٣/ ١٧٨) ، والعجليُّ في « معرفة الثقات » (٢/ ٤٦٥) .

(٣) البيتان في « ديوانه » (٤/ ١٢٥) .

وقد روي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « **إنَّ السلطانَ ظلُّ اللهِ في الأرضِ ، يأوي إليه كلُّ مظلومٍ** »[1] .

وروي عنه صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « **إنَّ اللهَ ليَزَعُ بالسُّلطانِ أكثَرَ ما يَزَعُ بالقرآنِ** »[2] .

وروي عنه أنَّه قال : « **إنَّ للهِ حُرّاساً في السماءِ ، وحُرّاساً في الأرضِ ؛ فحُرّاسُه في السماءِ الملائكةُ ، وحُرّاسُه في الأرضِ الذين يقبضون أرزاقهم ، يذبُّون عن الناسِ** »[3] .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **الإمامُ الجائرُ خيرٌ من الفتنة ، وكلٌّ لا خيرَ فيه ، وفي بعضِ الشَّرِّ خِيارٌ** » .

وقال عبد الله بن مسعود : (السلطانُ يُفسِدُ ، **وما يُصلح اللهُ تعالىٰ به أكثرُ ؛ فإنْ عدل** . . فله الأجر ، وعليكم الشكر ، **وإنْ جار** . . فعليه الوِزر ، وعليكم الصبر)[4] .

ورویٰ أبو هريرة قال : سُبَّتِ العجَمُ بين يدَي النبي صلى الله عليه وسلم ، فنهَىٰ عن ذلك ، وقال : « **لا تسبُّوها ؛ فإنَّها عمَّرَتْ بلادَ اللهِ تعالىٰ ، وعاش فيها عبادُ اللهِ تعالىٰ** » .

وقال بعض البلغاء : (**السلطان في نفسه إمام متبوع** ، وفي سيرته دِين مشروع ؛ **فإن ظلم** . . لم يعدل أحدٌ في حكم ، **وإن عدل** . . لم يجسر أحدٌ علىٰ ظلم) .

---

(١) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٦٩٨٤) ، والبزار في « مسنده » (٥٣٨٣) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

(٢) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٤/ ٣٢٩) من قول سيدنا عمر رضي الله عنه ، وأورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٢٩) ، وابن شبّة في « تاريخ المدينة » (٣/ ٩٨٨) من قول سيدنا عثمان رضي الله عنه ، **ليزع بالسلطان** ؛ أي : ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام ما لا يمنع كثيراً من الناس بالقرآن وما فيه من الوعيد الأكيد والتهديد الشديد .

(٣) رواه ابن قتيبة في « عيون الأخبار » (١/ ٢) عن خالد بن معدان مرسلاً .

(٤) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٨٤٤٩) موقوفاً ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٦٩٨٣) ، والخطيب في « موضح أوهام الجمع والتفريق » (٢/ ٧١) مرفوعاً .

وقال بعض العلماء : (إنَّ أقربَ الدعوات من الإجابة دعوةُ السلطان العادل الصالح ، وأَولى الحسنات بالأجر والثواب أمرُه ونهيُه في وجوه المَصالح) .

فهٰذه آثار السلطان في أحوال الدنيا وما ينتظم به أمورها .

ثمَّ لما في السلطان من حراسة الدِّين والذبِّ عنه ، ومنع الأهواء منه ، وحراسة التبديل فيه ، وزجر مَن شذَّ عنه بارتداد ، أو بغىٰ فيه بعناد ، أو سعىٰ فيه بفساد .

وهٰذه أمورٌ إن لم تنحسم عن الدِّين بسلطانٍ قويٍّ ورعايةٍ وافية . . أسرع فيه تبديل ذوي الأهواء ، وتحريفُ ذوي الآراء ، فليس دِينٌ زال سلطانُه إلا بُدِّلت أحكامُه ، وطُمِست أعلامُه ، وكان لكلِّ زعيمٍ فيه بدعة ، ولكلِّ عصرٍ في وهائه أثر[1] .

كما أنَّ السلطان إن لم يكن عن دينٍ تجتمع به القلوب حتىٰ يرىٰ أهلُه الطاعةَ فيه فرضاً ، والتناصرَ عليه حتماً . . لم يكن للسلطان لَبْثٌ ، ولا للأيام صَفْوٌ ، وكان سلطانَ قهرٍ ، ومفسدَ دهرٍ .

ومن هٰذين الوجهين[2] وجب إقامة إمامٍ يكون سلطانَ الوقت ، وزعيمَ الأمّة ؛ ليكون الدينُ محروساً بسلطانه ، والسلطانُ جارياً علىٰ سنن الدِّين وأحكامه .

وقد قال عبد الله بن المعتز : [من المجتث]

الملكُ بالدِّين يبقىٰ والدينُ بالملك يقوىٰ[3]

واختلف الناس : هل وجب ذلك بالعقل ، أو بالشرع ؟

فقالت طائفة : وجب بالعقل ؛ لأن معلوماً من حال العقلاء على اختلافهم

---

(١) الوهاء : الضعف ، يقال : وهى السقاء ؛ أي : استرخىٰ رباطه ، ووهى الحائط : ضعف وهمَّ بالسقوط .

(٢) أي : حراسة الدنيا ، وحراسة الدين .

(٣) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ١٣٢) ، و« زهر الآداب » (٢/ ٦٧٥) .

الفزعُ إلىٰ زعيم مندوب للنظر في مصالحهم .

وذهب **آخرون** : إلىٰ وجوبه بالشرع ؛ **لأن المقصود بالإمام القيامُ بأمورٍ** شرعية ؛ كإقامة الحدود ، واستيفاء الحقوق ، **وقد كان يجوز الاستغناء عنها بألاّ** يرد التعبُّد بها ، **فبأن يجوزَ الاستغناء عمّا لا يراد إلا لها أَولىٰ**[١] .

وعلىٰ هٰذا **اختلفوا في وجوب بعثة الأنبياء** وإرسال الرسل عليهم السلام :

فمَن قال بوجوب ذلك **بالعقل** . . **قال بوجوب بعثة الأنبياء** .

ومَن قال بوجوب ذلك **بالشرع** . . **منع من وجوب بعثة الأنبياء** ؛ لأنه لمَّا كان المقصود ببعثتهم تعريفَ المصالح الشرعية ، وكان يجوز من المكلَّفين ألاّ تكون هٰذه الأمور مصلِحة لهم . . لم تجب بعثةُ الأنبياء إليهم .

* * *

فأمّا إقامةُ إمامين أو ثلاثةٍ في عصرٍ واحد ، وبلدٍ واحد . . **فلا يجوز إجماعاً** .

فأمّا في بلدانٍ شتّىٰ وأمصارٍ متباعدة :

فقد ذهب طائفةٌ شاذةٌ إلىٰ جواز ذلك ؛ لأنَّ الإمام مندوبٌ للمصالح ، **وإذا كانا إمامين في بلدين أو ناحيتين** . . كان كلُّ واحدٍ منهما أقومَ بما في يديه ، وأضبطَ لما يليه ، **ولأنه لمَّا جاز بعثةُ نبيين في عصرٍ واحدٍ** ولم يؤدِّ ذلك إلىٰ إبطال النبوة . . **كانت الإمامة أَولىٰ** ، ولا يؤدي ذلك إلىٰ إبطال الإمامة[٢] .

وذهب **الجمهور** إلىٰ أن إقامة إمامين في عصرٍ واحدٍ لا يجوز شرعاً ؛ لما روي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **إذا بُويعَ لأميرين . . فاقتُلوا آخرهما** »[٣] .

---

(١) ذهب بعض المعتزلة إلىٰ وجوب ذلك بالعقل ؛ كالجاحظ والخياط والكعبي وأبي الحسين البصري وهم طائفة منهم ، وقال أهل السنة وعامة المعتزلة بوجوب ذلك بالشرع . انظر « منهاج اليقين » (ص٢٣٢) .

(٢) **هٰذا الدليل كان يتم لو كان أمر الإمامة مقصوراً علىٰ تسوية مصالح الرعية فقط بدون حراسة البيضة** ؛ من عدو في الدِّين ، وليس كذلك ، **بل هي أقدم أمورها وأعظمها** ، **وقياسه بالنبوة** : قياسٌ مع الفارق ؛ إذ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام **معصومون** عن عداوة نبي آخر واختلافه ، **وأما في تعدد الإمامة** . . فالاختلاف واقع لا محالة ، مع ما ينضم إليه من تحاسد الأكفاء ، أو بغي الكثرة وعلو اليد ، أو ذل القلة والضعف . انظر « منهاج اليقين » (ص٢٣٣) .

(٣) رواه مسلم (١٨٥٣) بنحوه عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

وروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنْ ولَّيتُم أبا بكرٍ . . تَجدُوهُ قويّاً في دينِ اللهِ ، ضعيفاً في بدنه ، وإنْ ولَّيتُم عمرَ . . تَجدُوهُ قويّاً في دين الله ، قويّاً في بدنه ، وإنْ ولَّيتُم عليّاً . . تجدُوهُ هادياً مهديّاً »[1] .

فتبيَّن بهٰذا القول أن إقامة جميعهم في وقتٍ واحد لا يصحُّ ، ولو صحَّ . . لأشار إليه ، ونبَّه عليه .

والذي يلزم سلطانَ الأمّة من أمورها سبعةُ أشياء :

أحدها : حفظُ الدِّين من تبديلٍ فيه ، والحثُّ على العمل به من غير إهمالٍ له .

والثاني : حراسةُ البيضة ، والذَّبُّ عن الأمّة من عدوٍّ في دينٍ ، أو باغي نفسٍ أو مال[2] .

والثالث : عمارةُ البلدان باعتماد مصالحها ، وتهذيب سُبلها ومسالكها .

والرابع : تقديرُ ما يتولاه من الأموال بسنن الدِّين من غير تحريفٍ في أخذها وإعطائها .

والخامس : معاناةُ المَظالم والأحكام بالتسوية بين أهلها ، واعتماد النَّصَفة في فصلها .

والسادس : إقامةُ الحدود علىٰ مستحقِّيها من غير تجاوزٍ فيها ، ولا تقصيرٍ عنها .

والسابع : اختيارُ خلفائه في الأمور أن يكونوا من أهل الكفاية فيها ، والأمانة عليها .

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣/ ٧٠) ، والبزار في « مسنده » (٧٨٣) ، والإمام أحمد في « فضائل الصحابة » (٢٨٤) عن سيدنا علي رضي الله عنه .

(٢) حراسة البيضة ؛ أي : حماية حوزة الإسلام وساحة الأمة .

فإذا فعل مَن أفضىٰ إليه سلطانُ الأمّة ما ذكرنا من هـٰذه الأشياء السبعة . . كان مؤدِّياً لحقِّ الله تعالىٰ فيهم ، مستوجِباً لطاعتهم ومناصحتهم وخلوص نيّاتهم ، مستحِقّاً لصدق ميلهم ومحبّتهم .

وإن قصَّر عنها ولم يقم بحقِّها وواجبها . . كان بها مؤاخذاً ، وعليها معاقَباً ، ثم هو من الرعيّة على استبطان معصيةٍ ومقت ، يتربَّصون الفُرَصَ بإظهارهما ، ويتوقَّعون الدوائر بإعلانهما ، وقد قال الله تعالىٰ : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا ﴾ .

وفي قوله تعالىٰ : ﴿ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ تأويلان :

أحدهما : أن العذاب الذي من فوقهم : **أمراءُ السوء** ، والذي من تحت أرجلهم : **عبيدُ السوء** ، وهـٰذا قول ابن عباس رضي الله عنهما .

والثاني : أن العذاب الذي من فوقهم : **الرجمُ** ، والذي من تحت أرجلهم : **الخسفُ** ، وهـٰذا قول مجاهد وسعيد بن جبير .

وفي قوله تعالىٰ : ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا ﴾ تأويلان :

أحدهما : أنه الأهواء المختلفة ، وهـٰذا قول ابن عباس رضي الله عنهما .

والثاني : أنه الفتن والاختلاط ، وهـٰذا قول مجاهد[1] .

وروي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما مِن أميرٍ علىٰ عشرةٍ إلا وهو **يجيءُ يومَ القيامةِ مغلولةً يَداهُ إلىٰ عُنقِهِ** ؛ حتىٰ يكونَ عملُه هو الذي يُطلِقه أو يُوبِقه »[2] .

وروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **خيرُ أئمّتِكُم** : الذينَ تُحبُّونَهم

---

(١) انظر هـٰذه الأقوال في « تفسير الطبري » (٥/ ٧/ ٢٧٥) وما بعدها .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ١٠٣) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٧١١٣) .

ويُحبُّونَكم ، وشرُّ أئمتِكُم : الذين تُبغِضونَهم ويُبغِضونَكم ، وتلعَنونَهم ويلعَنونَكم »[1] .

وهٰذا صحيح ؛ لأنه إذا كان ذا خيرٍ . . أحبَّهم وأحبُّوه ، وإذا كان ذا شرٍّ . . أبغضهم وأبغضوه .

وقد كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلىٰ سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه : (إنَّ الله تعالىٰ إذا أحبَّ عبداً . . حبَّبه إلىٰ خلقه ، فاعرف منزلتك من الله تعالىٰ بمنزلتك من الناس ، واعلم أنَّ ما لك عند الله تعالىٰ مثلُ ما لله تعالىٰ عندك)[2] ، فكان هٰذا موضحاً لمعنىٰ ما ذكرناه .

وأصل هٰذا : أن خشية الله تعالىٰ تبعث علىٰ طاعته في خلقه ، وطاعتَه في خلقه تبعثهم علىٰ محبّته ؛ فلذلك كانت محبّتُهم دليلاً علىٰ خيره وخشيته ، وبغضُهم دليلاً علىٰ شرِّه وقلّة مراقبته .

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لبعض خلفائه : (أوصيك أن تخشى الله في الناس ، ولا تخشى الناس في الله)[3] .

وقال عمر بن عبد العزيز لبعض جلسائه : (إنِّي أخاف الله فيما تقلَّدتُ) ، فقال : لستُ أخاف عليك أن تخافَ ، وإنَّما أخاف عليك ألا تخافَ[4] .

وهٰذا واضح ؛ لأن الخائف من الله تعالىٰ مأمونُ الحَيْف ؛ كالذي روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال لأبي مريم السَّلُوليّ وهو الذي قتل أخاه زيداً : (والله ؛ إني لا أحبُّك حتىٰ تحبَّ الأرضُ الدمَ) ، قال : فيمنعُني ذلك حقّاً ؟ قال : (لا) قال : فلا ضَيْرَ ، إنَّما يأسىٰ على الحبِّ النساءُ[5] .

---

(١) رواه مسلم (١٨٥٥) ، والترمذي (٢٢٦٤) .

(٢) أورده في « البيان والتبيين » (١/ ٢٦١) ، و« الصداقة والصديق » (ص ٢١١) .

(٣) رواه أبو داوود في « الزهد » (٣٧٠) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢١/١٥٨) من وصية سعيد بن عامر لعمر رضي الله عنهما .

(٤) أورده في « البيان والتبيين » (١/ ٢١١) ، ورواه في « المجالسة وجواهر العلم » (١٠٥٣) .

(٥) أورده في « عيون الأخبار » (٣/ ١٣) ، و« الأوائل » (ص ٢٤٤) .

وروي عن عبد الرحمـٰن بن محمد قال : (أصدق طلحةُ بن عبيد الله أمَّ كلثوم بنت أبي بكر الصديق مئةَ ألف درهم ، وهو أوَّلُ مَن أصدقَ هـٰذا القدرَ ، فمُرَّ بالمال علىٰ عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : ما هـٰذا ؟ قالوا : صَداقُ أمِّ كلثوم بنت أبي بكر ، قال : أدخلوه بيتَ المال ، فأُخبر طلحةُ وقيل : كلِّمْه ، فقال : ما أنا بفاعل ؛ لئن كان عمرُ يرىٰ أنَّ له فيه حقاً . . لا يردُّه بكلامي ، ولئن كان لا يرىٰ فيه حقّاً . . ليردَّنَّه ، فلمَّا أصبح عمرُ . . أمر بالمال فدُفع إلىٰ أمِّ كلثوم)[1] .

وحُكي : أنَّ الرشيد حبس أبا العتاهية ، فكتب علىٰ حائط الحبس : [من الوافر]

أَمَا واللهِ إنَّ الظُّلمَ لُوْمُ ... وما زالَ المُسيءُ هوَ الظَّلُومُ

إلىٰ دَيّانِ يومِ الدِّين نمضي ... وعندَ الله تجتمعُ الخُصُومُ

ستعلمُ في المَعادِ إذا التقَينا ... غداً عندَ المَليكِ مَن الظَّلُومُ

فأُخبِر الرشيدُ بذلك ، فبكىٰ بكاءً شديداً ، ودعا أبا العتاهية فاستحلَّه ، ووهب له ألف دينار وأطلقه[2] .

* * *

وأمّا القاعدةُ الثالثة . . فهي عدلٌ شامل : يدعو إلى الألفة ، ويبعث على الطاعة ، وتعمر به الأرض ، وتنمىٰ به الأموال ، ويكثر معه النسل ، ويأمن به السلطان ، وقد قال الهُرمُزان لعمر رضي الله عنه حين رآه وقد نام متبذِّلاً : (عدَلتَ ، فأمِنتَ ، فنِمتَ !!)[3] .

وليس شيءٌ أسرعَ في خراب الأرض ، ولا أفسدَ لضمائر الخلق من الجَور ؛ لأنَّه ليس يقف علىٰ حدٍّ ، ولا ينتهي إلىٰ غاية ، ولكلِّ جزءٍ منه قسطٌ من الفساد حتىٰ يستكمل .

---

(١) ذكر في « منهاج اليقين » (ص٢٣٩) قصة هـٰذا الخبر ؛ فانظره ففيه فائدة .

(٢) أورده في « المجالسة وجواهر العلم » (٢٢٣٢) ، والأبيات في « ديوانه » (ص ٣٥٣) .

(٣) أورده في « ثمار القلوب » (١/ ١٧٠) ، و« نهاية الأرب » (٦/ ٣٦) .

وقد روي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **بئسَ الزادُ إلى المَعادِ العُدوانُ على العِبادِ** »[1] .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ثلاثٌ مُنجياتٌ ، وثلاثٌ مُهلِكاتٌ ؛ **فأمّا المُنجِياتُ** : فالعدلُ في الغضب والرضا ، وخشيةُ الله تعالىٰ في السرِّ والعلانية ، والقصدُ في الغنىٰ والفقر .

وأمّا المُهلِكاتُ : فشحٌّ مُطاعٌ ، وهوىً متَّبعٌ ، وإعجابُ المرء بنفسه »[2] .

وحكي : أن الإسكندر قال لحكماء الهند وقد رأىٰ قلّة الشرائع بها : (**لِمَ صارت سننُ بلادكم قليلةً** ؟ قالوا : لإعطائنا الحقَّ من أنفسنا ، ولعدل ملوكنا فينا ، فقال لهم : **أيُّما أفضلُ ؛ العدلُ أم الشجاعةُ** ؟ قالوا : إذا استُعمِل العدلُ . . أغنىٰ عن الشجاعة)[3] .

وقال بعض الحكماء : (**بالعدل والإنصاف** تكون مدّة الائتلاف) .

وقال بعض البلغاء : (**إن العدلَ ميزانُ الله تعالىٰ** الذي وضعه للخلق ، ونصبه للحقِّ ، **فلا تخالفْه** في ميزانه ، ولا تعارضْه في سلطانه ، **واستعِنْ على العدل بخُلَّتين** : قلَّةِ الطمع ، وكثرةِ الورع)[4] .

وإذا كان العدلُ من إحدىٰ **قواعد الدنيا** التي لا انتظامَ لها إلا به ، ولا صلاحَ فيها إلا معه . . **وجب أن يبدأ بعدل الإنسان في نفسه** ، ثم بعدله في غيره .

---

(١) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٢٣٦٠) ، و« تاريخ دمشق » (٤٨/ ٤٢٢) من قول الفضيل بن عياض رحمه الله تعالىٰ ، وفي « تاريخ دمشق » (٥١/ ٤١١) من قول الإمام الشافعي رحمه الله تعالىٰ .

(٢) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٨٩٩) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٧٣١) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٣) أورده أسامة بن منقذ في « لباب الآداب » (ص ٥٧) ، والمراد بسنن البلاد : قوانينها ؛ أي : قوانينهم قليلة فلا يحتاجون إلىٰ قوانين للخصومات والجرائم ؛ لمعرفة كلٍّ ما له وما عليه !! .

(٤) أورد بعضه في « ثمار القلوب » (١/ ٩٢) ، و« ربيع الأبرار » (٣/ ٦٠٠) .

فأمّا عدلُه في نفسه : فيكون بحملها على المصالح ، وبكفِّها عن القبائح ، ثم بالوقوف في أحوالها علىٰ أعدل الأمرين مِن تجاوزٍ أو تقصير ؛ فإنَّ التجاوزَ بها جَور ، والتقصيرَ فيها ظلم ، ومَن ظلم نفسه . . فهو لغيره أظلمُ ، ومَن جار عليها . . فهو علىٰ غيره أجوَرُ .

وقال بعض الحكماء : (مَن توانىٰ في نفسه . . ضاع)[١] .

* * *

وأمّا عدله في غيره : فقد ينقسم حالُ الإنسان مع غيره ثلاثة أقسام :

ـ **فالقسم الأول** : عدل الإنسان فيمَن دونه ؛ كالسلطان مع رعيَّته ، والرئيس مع صحابته ، فعدله فيهم يكون بأربعة أشياء : باتباع الميسور ، وحذف المعسور ، وترك التسلُّط بالقوة ، وابتغاء الحقّ في السيرة ؛ فإنَّ اتباع الميسور أدوَمُ ، وحذف المعسور أسلَمُ ، وترك التسلُّط أعطَفُ على المحبّة ، وابتغاءَ الحقّ أبعَثُ على النُّصرة .

وهـٰذه أمور إن لم تسلم للزعيم المدبِّر . . كان الفسادُ بنظره أكثرَ ، والاختلالُ بتدبيره أظهرَ ، وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أشدُّ الناسِ عذاباً يومَ القيامة مَن أشرَكَه اللهُ تعالىٰ في سلطانه ، فجارَ في حُكمِه »[٢] .

وقال بعض الحكماء : (الملك يبقىٰ على الكفر ، ولا يبقىٰ على الظلم)[٣] .

وقال بعض الأدباء : (ليس للجائر جارٌ ، ولا تعمر له دارٌ) .

وقال بعض البلغاء : (أقربُ الأشياء : صَرعةُ الظَّلُوم ، وأنفذُ السهام : دعوةُ المظلوم)[٤] .

---

(١) أورده في « البيان والتبيين » (٤/ ٩٤) من جملة ما أوصىٰ به عبد الملك بن صالح ابنه .

(٢) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٤/ ١٥) من قول طاووس رحمه الله تعالىٰ ، وذكره في « ربيع الأبرار » (٣/ ٥١٣) عن طاووس مرفوعاً .

(٣) أورده في « الإعجاز والإيجاز » (ص ٧٠) ، و« التذكرة الحمدونية » (١/ ٣١٣) .

(٤) ذكره البروسوي في « روح البيان » (٩/ ٩٩) .

وقال بعض حكماء الملوك : (**العجبُ من مَلِكٍ استفسد رعيّتَه وهو يعلم أن عزَّه بطاعتهم !!**)[1] .

وقال أردشير بن بابك : (**إذا رغب الملكُ عن العدل.. رغبت الرعيّةُ عن الطاعة**)[2] .

وعُوتِب أنوشروان علىٰ ترك عقاب المذنبين ، فقال : (**هم المرضىٰ ، ونحن الأطبّاء ؛ فإذا لم نُداوِهم بالعفو.. فمَن لهم ؟!**) .

- **والقسم الثاني** : **عدل الإنسان مع مَن فوقه** ؛ كالرعيّة مع سلطانها ، والصحابة مع رئيسها ، وذلك يكون بثلاثة أشياء : بإخلاص الطاعة ، وبذل النُّصرة ، وصدق الوَلاء ؛ فإنَّ إخلاص الطاعة أجمعُ للشمل ، وبذل النُّصرة أدفعُ للوهن ، وصدق الوَلاء أنفىٰ لسوء الظن .

وهٰذه أمور إن لم تجتمع في المرعيِّ.. تسلَّط عليه مَن كان يدفع عنه ، واضطُرَّ إلى اتِّقاء مَن كان يَقي عنه ؛ كما قال البحتري[3] : [من الوافر]

متىٰ أحرجْتَ ذا كَرَمٍ تَخطَّىٰ ... إليكَ ببعضِ أخلاقِ اللَّئيمِ

وفي استمرار هٰذا حَلُّ نظامٍ جامعٍ ، وفسادُ صلاحٍ شاملٍ .

وقد قال أبرويز : (**أطِعْ مَن فوقَك.. يُطِعْك مَن دونَك**)[4] .

وقال بعض الحكماء : (**الظلمُ : مَسلَبَةُ النِّعَم ، والبغيُ : مَجلَبَةُ النِّقَم**)[5] .

وقال بعض البلغاء : (**إنَّ الله تعالىٰ لا يرضىٰ عن خلقه إلا بتأدية حقِّه ، وحقُّه شكرُ النعمة ، ونصحُ الأمّة ، وحسنُ الصَّنيعة ، ولزومُ الشريعة**) .

---

(١) أورده في « شرح نهج البلاغة » (١١/ ٩٥) ، واستفسد رعيّتَه : أساء إليهم حتى استعصَوا عليه .
(٢) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ١٣٦) ، و« زهر الآداب » (١/ ٢١٢) .
(٣) البيت في « ديوانه » (٤/ ٢٠٧٩) .
(٤) أورده في « الإعجاز والإيجاز » (ص ٦٦) ، و« زهر الآداب » (١/ ٢١٢) .
(٥) أورده في « لباب الآداب » (ص ٥٩) ، و« ربيع الأبرار » (٣/ ٤٩٢) .

ـ والقسم الثالث : عدل الإنسان مع أكفائه ، وقد يكون بثلاثة أشياء : بترك الاستطالة ، ومجانبة الإدلال ، وكفِّ الأذىٰ ؛ لأن ترك الاستطالة آلفُ ، ومجانبة الإدلال أعطفُ ، وكفَّ الأذىٰ أنصفُ .

وهٰذه أمورٌ إن لم تخلص في الأكفاء . . أسرع فيهم تقاطعُ الأعداء ، ففسدوا وأفسدوا .

وقد روي عن عمر بن عبد العزيز ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أنبِّئكم بشِرارِ الناس ؟ » قالوا : بلىٰ يا رسولَ الله ، قال : « من نزلَ وحدَه ، ومنعَ رِفْدَه ، وجلدَ عبدَه » .

ثم قال : « أفلا أنبِّئكم بشرٍّ من هٰذا ؟ » قالوا : بلىٰ يا رسول الله ، قال : « مَن لا يُرجَىٰ خيرُه ، ولا يُؤمَنُ شرُّه » .

ثم قال : « ألا أنبئكم بشرٍّ من ذلك ؟ » قالوا : بلىٰ يا رسولَ الله ، قال : « مَن يُبغِضُ الناسَ ويُبغِضُونَه ، إنَّ عيسى ابن مريم عليه السلام قام خطيباً في بَني إسرائيلَ فقال : يا بَني إسرائيلَ ؛ لا تكَلَّموا بالحكمة عند الجُهَّال . . فتظلِمُوها ، ولا تمنعُوها أهلَها . . فتظلِمُوهم ، ولا تكافئوا ظالماً . . فيبطلَ فضلُكم ، يا بَني إسرائيلَ ؛ الأمورُ ثلاثةٌ : أمرٌ تبيَّنَ رشدُه . . فاتَّبِعوه ، وأمرٌ تبيَّن غيُّه . . فاجتنبوه ، وأمرٌ اختُلِف فيه . . فرُدُّوه إلى الله تعالىٰ »(١) .

وهٰذا الحديث جامعٌ لآداب العدل في الأحوال كلِّها .

وقد قال بعض الحكماء : (كلُّ عقلٍ لا يُدارَىٰ به الكلُّ . . فليس بعقل تامٍّ) .

وقال بعض الشعراء(٢) : [من البسيط]

ما دُمتَ حيّاً فَدارِ الناسَ كلَّهُمُ ... فـإنَّمـا أنـتَ فـي دارِ المُـداراةِ
مَنْ يَدْرِ دَارَىٰ ومَن لم يَدْرِ سَوْف يُرَىٰ ... عمّـا قليـلٍ نـديمـاً للنَّـدامـاتِ

---

(١) رواه بنحوه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٢٧٠) ، والإمام أحمد في « الزهد » (١٧٠٧) ، والباغنديّ في « مسند عمر بن عبد العزيز » (٥١) .

(٢) أورد البيت في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤١٩)، و« معجم الأدباء » (٤/ ١٦٠) لأبي سليمان الخَطّابيّ، والمداراة مستحبة مع الناس ؛ وهي لين الكلام ، وترك الإغلاظ في القول ، وهي من أخلاق المؤمنين ، والفرق بينها وبين المداهنة المحرمة : أن المداراة الرفق بالجاهل في التعليم ، والفاسق بالنهي عن فعله ، والمداهنة : معاشرة المعلن بالفسق ، وإظهار الرضا بما هو فيه من غير إنكار عليه باللسان ولا بالقلب .

وقد يتعلَّق بهٰذه الطبقات أمور خاصّة ، يكون عدلُهم فيها بالتوسُّط في حالتَي التقصير والسَّرَف ؛ لأنَّ العدل مأخوذ من الاعتدال ، فما جاوز الاعتدال . . فهو خروجٌ عن العدل .

وقد قالت الحكماء : (الفضائل : هيئات متوسِّطة بين خُلّتين ناقصتين ، وأفعال الخير : توسُّطٌ بين رذيلتين ؛ فالحكمة واسطة بين الشرِّ والجهالة ، والشجاعة واسطةٌ بين التقحُّم والجُبن[1] ، والعفّة واسطةٌ بين الشَّرَه وضعف الشهوة ، والسَّكينة واسطةٌ بين السخط وضعف الغضب ، والغيرة واسطةٌ بين الحسد وسوء العادة ، والظَّرْف واسطةٌ بين الخَلاعة والفَدامة[2] ، والتواضع واسطةٌ بين الكِبْر ودناءة النفس ، والسَّخاء واسطةٌ بين التقتير والتبذير ، والحلم واسطةٌ بين إفراط الغضب وعدمه ، والمودّة واسطةٌ بين الخِلابة وجَسا الخُلُقِ[3] ، والحياء واسطةٌ بين القِحَة والحَصَر[4] ، والوَقار واسطةٌ بين الهزء والسَّخافة) .

وإذا كان ما خرج عن الاعتدال إلىٰ ما ليس باعتدالٍ خروجاً عن العدل إلىٰ ما ليس بعدل . . كان ما خرج عن الأَولىٰ إلىٰ ما ليس بأَولىٰ خروجاً عن العدل إلىٰ ما ليس بعدل .

وقد قال بعض البلغاء : (السلطان السوء يخيف البريء ، ويصطنع الدنيء ، والبلد السوء يجمع السَّفِل ، ويُورث العلل ، والولد السوء يشين السلف ، ويهدم الشرف ، والجار السوء يفشي السر ، ويهتك الستر)[5] .

فجعل هٰذه الأشياءَ بخروجها عن الأَولىٰ إلىٰ ما ليس بأَولىٰ خروجاً عن العدل إلىٰ ما ليس بعدل ، ولستَ تجد فساداً إلا وسبب نتيجته : الخروجُ فيه عن حال العدل إلىٰ ما ليس بعدلٍ من حالتي الزيادة والنقصان ، فإذاً لا شيءَ أنفعُ من العدل ؛ كما أنه لا شيءَ أضرُّ ممّا ليس بعدل .

---

(١) التقحم : هو أن يرمي بنفسه في الأمر فجأة من غير رويةٍ ولا تأنٍ .
(٢) الفَدامة : العِيّ عن الحجة ، والكلام مع ثقل ورخاوة ، وقلة فهم .
(٣) الخِلابة : الخداع بالقول اللطيف . وجَسا الخُلُقِ : صلابته وغِلظته .
(٤) القحة : يقال : وقح الرجل إذا قلَّ حياؤه .
(٥) أورد بعضه أسامة بن منقذ في « لباب الآداب » (ص ٥٥) .

وأمّا القاعدة الرابعة . . **فهي أمنٌ عامٌّ** : تطمئنُّ إليه النفوس ، وتنتشر فيه الهمم ، ويسكن إليه البريء ، ويأنس به الضعيف ؛ **فليس لخائفٍ راحة** ، ولا لحاذرٍ طُمأنينة ، وقد قال بعض الحكماء : (**الأمن أهنأُ عيش** ، **والعدل أقوىٰ جيش**)[1] .

ولأنَّ الخوف يقبض الناس عن مصالحهم ، ويحجزهم عن تصرُّفهم ، ويكفُّهم عن أسباب الموادِّ التي بها قِوام أَوَدهم ، وانتظامُ جملتهم .

ولئن كان الأمنُ من نتائج العدل ، والخوفُ من نتائج ما ليس بعدل . . **فقد يكون الخوفُ تارةً** بمقاصد الآدميين الخارجة عن العدل ، **وقد يكون تارةً** بأسبابٍ حادثةٍ عن غير مقاصد الآدميين ، فلا تكونُ خارجةً عن حال العدل ؛ **فمن أجل ذلك** لم يكن ما سبق من حال **العدل** مُقنعاً عن أن يكون الأمن في انتظام الدنيا قاعدةً للعدل .

فإذا كان ذلك كذلك . . **فالأمنُ المطلَق** ما عمَّ ، **والخوفُ** قد يتنوَّع تارة ويعمُّ ؛ **فتنوُّعه** : بأن يكون تارةً على النفس ، وتارةً على الأهل ، وتارةً على المال .

وعمومُه : أن يستوعب جميع الأحوال ، ولكلِّ واحدٍ من أنواعه حظٌّ من الوهن ، ونصيب من الحزن .

وقد يختلف باختلاف أسبابه ، ويتفاضل بتباين جهاته ، ويكون بحسب اختلاف الرغبة فيما خِيف عليه ؛ **فمن أجل ذلك** لم يجز أن نصفَ حالَ كلِّ واحدٍ من أنواعه بمقدارٍ من الوَهَن ، ونصيبٍ من الحزن ، **لا سيَّما والخائفُ على الشيء** مختصُّ الهمِّ به ، منصرفُ الفكرِ عن غيره ، **فهو يظنُّ أنْ لا خوف إلا إياه** ، ويغفل عن قدر النعمة بالأمن فيما سواه ، فصار كالمريض الذي هو بمرضه متشاغل ، وعمّا سواه غافل ؛ **ولعلَّ ما صُرِف عنه أعظمُ ممّا بُلي به** . [من الطويل]

علىٰ أنَّها تَعفُو الكُلومُ وإنَّما ... نُوكَّلُ بالأدنىٰ وإنْ جلَّ ما يمضي[2]

---

(١) أورده في « الإعجاز والإيجاز » (ص ١٢٣) .

(٢) هٰذا البيت لأبي خِراش الهُذَليّ ؛ كما في « ديوان الهذليين » (٢/ ١٥٨) . =

حكي : أنَّ رجلاً قال وأعرابيٌّ حاضرٌ : (ما أشدَّ وجعَ الضِّرْس !! فقال الأعرابيُّ : **كلُّ داءٍ أشدُّ داءٍ**)[1] .

كذلك مَن عمَّه الأمنُ كمَن استولت عليه العافية ، **فهو لا يعرف قدرَ النعمة بأمنه حتىٰ يخافَ ؛ كما لا يعرف المُعافىٰ قدرَ النعمة بعافيته حتىٰ يُصاب** .

وقال بعض الحكماء : (**إنَّما يُعرَف قدرُ النعمة بمُقاساة ضدِّها**) .

فأخذ ذلك أبو تمام الطائيُّ فقال[2] : [من الكامل]

والحادثاتُ وإنْ أصابَكَ بؤسُها فهُوَ الـذي أنْبـاكَ كيـفَ نَعيمُهـا

فالأَولىٰ بالعاقل : أن يتذكَّر عند مرضه وخوفه **قدرَ النعمة** فيما سوىٰ ذلك من **عافيته وأمنه** ، وما انصرف عنه ممّا هو أشدُّ من مرضه وخوفه ؛ **ليستبدلَ بالشكوىٰ شكراً** ، وبالجَزَع صبراً ، **فيكون فرِحاً مسروراً** .

حُكي : أن يعقوب قال ليوسف عليهما الصلاة والسلام حين لقيَه : (أيَّ شيءٍ كان خبرُك بعدي ؟ قال : **لا تسألني عمَّا فعل بي إخوتي ، سلني عمَّا صنعه بي ربي**)[3] .

وقال الشاعر : [من الرجز]

لا تنسَ فـي الصِّحّـةِ أيّـامَ السَّقَـمْ فـإنَّ عُقبـىٰ تـاركِ الحَـزْمِ نَـدَمْ

وأمّا القاعدةُ الخامسة . . **فهي خِصْبٌ دارٌّ** : تتَّسع به الأحوال ، ويشترك فيه ذوو الإكثار والإقلال ، **فيقلُّ في الناس الحسد** ، وينتفي عنهم تباغض العدم ،

= **والكلوم** : هي الجروح ، **والمعنىٰ** : أن العادة نسيان المصائب البعيدة العهد وإن كانت عظيمة ، والتحزن بالمصيبة القريبة الحالّة ولو حقيرة .

(١) أورده في « ربيع الأبرار » (٥/١٠٦) .

(٢) البيت في « ديوانه بشرح التبريزي » (٣/٢٧٣) .

(٣) أي : لا تسألني عما فعله بي إخوتي من الغدر ، وسلني عما صنعه بي ربي من الإعزاز والإكرام بالنبوة والتعبير ، والحكم والتعليم .

وتتسع النفوس في التوسُّع ، وتكثر المواساة والتواصل ، وذلك من أقوى الدواعي في صلاح الدنيا وانتظام أحوالها ؛ ولأنّ الخِصْبَ يؤول إلى الغنىٰ ، والغنىٰ يحدث الأمانة والسخاء .

كتب عمر بن الخطاب رضي الله تعالىٰ عنه إلىٰ أبي موسى الأشعريِّ : (لا تستقضيَنَّ إلا ذا حسَبٍ أو مالٍ ؛ فإنَّ ذا الحسَب يخافُ العواقبَ ، وذا المالِ لا يرغبُ في مالِ غيرِه)[1] .

وقال بعض السلف : (إني وجدتُ خيرَ الدنيا والآخرة في خصلتين ، وشرَّ الدنيا والآخرة في خصلتين : فخيرُ الدنيا والآخرة في التُّقىٰ والغنىٰ ، وشرُّ الدنيا والآخرة في الفُجور والفقر)[2] .

وقال بعض الشعراء[3] : [من الطويل]

ولمْ أرَ بعدَ الدِّينِ خيراً منَ الغِنَىٰ ... ولمْ أرَ بعدَ الكفر شرّاً منَ الفقرِ

وبحسَب الغنىٰ يكون إقلالُ البخيل وعطاؤه ، وإكثارُ الجواد وسخاؤه ؛ كما قال دِعْبِل[4] : [من الطويل]

لئنْ كنتَ لا تُولي يداً دونَ إمْرةٍ ... فلسْتَ بمُولٍ نائلاً آخرَ الدَّهْرِ

وأيُّ إناءٍ لم يفِضْ عندَ مَلْئِهِ ... وأيُّ بخيلٍ لم يُنِلْ ساعةَ الوَفْرِ

وإذا كان الخِصْب يُحدِث من أسباب الصلاح ما وصفت . . كان الجَدْبُ يُحدِث من أسباب الفساد ما ضادَّها ؛ وكما أنَّ صلاح الخصب عامٌّ . . فكذلك

---

(١) رواه في « أخبار القضاة » (١/٧٦) ؛ وفيه : (وإن ذا الحسب لا يخشى العواقب بين الناس) ، وفي قوله : (**وذا المال**) نكتةٌ لا بد من التنبيه عليها ؛ وهي أن الإضافة للعهد ؛ يعني : الحافظ لماله ، المراعي له ؛ لكونه آلة لمجده ومكارمه ، لا لحرصه على ادخاره وجمعه ؛ وإلاَّ . . فكم من ذوي أموالٍ وحسبٍ سلبوا من يد اليتيم الضرير عصاه ؟!

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « إصلاح المال » (٧٤) من قول أبي صالح الأسدي رحمه الله تعالىٰ .

(٣) البيت منسوب لسيدنا علي رضي الله عنه في « ديوانه » (ص ١٣١) ، ولصالح بن عبد القدّوس في « ديوانه » (ص ١٥٠) ، ولمحمود الورّاق في « ديوانه » (ص ٢٢٣) .

(٤) البيتان في « ديوانه » (ص ١٥٧) .

فساد الجدب عامٌّ ، وما عمَّ به الصلاحُ إن وُجِد وعمَّ به الفسادُ إن فُقِد . . فأحرىٰ أن يكون من قواعد الصلاح ودواعي الاستقامة .

والخِصْبُ يكون من وجهين ؛ خصب في المكاسب ، وخصب في الموادّ[1] .

فأمّا خصبُ المكاسب . . فقد يتفرَّع من خصب الموادّ ، وهو من نتائج الأمن المقترن به .

وأمّا خصبُ الموادّ . . فقد يتفرَّع عن أسباب إلـٰهية ، وهو من نتائج العدل المقترن بها .

وأمّا القاعدةُ السادسة . . فهي أمل فسيح : يبعث على اقتناء ما يقصر العمر عن استيعابه ، ويحثُّ علىٰ إنشاء ما ليس يوثق في دَرْكه بحياة أربابه .

ولولا أنَّ الثانيَ يرتفق بما أنشأه الأوَّلُ حتىٰ يصير به مستغنياً . . لافتقر أهل كلِّ عصر إلىٰ إنشاء ما يحتاجون إليه من منازل السكنىٰ وأراضي الحرث ؛ وفي ذلك من الإعواز وتعذُّر الإمكان ما لا خفاء به ؛ فلذلك ما أرفق الله تعالىٰ خلقه باتساع الآمال حتىٰ عمر به الدنيا ، وتمَّ صلاحها ، وصارت تنتقل بعمرانها إلىٰ قرنٍ بعد قرن ، فيتمِّم الثاني ما أبقاه الأول من عمارتها ، ويرمُّ الثالث ما أحدثه الثاني من شعَثها ؛ لتكون أحوالها على الأعصار ملتئمة ، وأمورها علىٰ مرور الدهور منتظمة .

ولو قصُرَت الآمال . . لما تجاوز الواحد حاجة يومه ، ولا تعدَّىٰ ضرورة وقته ، ولكانت تنتقل إلىٰ مَن بعده خراباً ؛ لا يجد فيها بُلغة ، ولا يدرك منها حاجة ، ثم تنتقل إلىٰ مَن بعده بأسوأ من ذلك حالاً ، حتىٰ لا ينمي فيها نبتٌ ، ولا يمكن فيها لبثٌ .

---

(١) وخصب في المواد ـ جمع مادة ـ : وهي عبارةٌ عن أصولٍ نامية بذواتها ؛ وهي شيئان : نبتٌ نام ، وحيوان متناسل ، والمكسوب من وجهين : تقلُّبٌ في تجارة ، وتصرُّفٌ في صناعة . انظر « منهاج اليقين » (ص٢٥١) .

وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **الأملُ رحمةٌ منَ اللهِ لأمّتِي ؛** ولولاه . . ما غرسَ غارسٌ شجَراً ، ولا أرضعَتْ أمٌّ وَلداً »[1] .

وقال الشاعر[2] : [من البسيط]

وللنُّفوسِ وإنْ كانت علىٰ وَجَلٍ ... مِنَ المَنيَّةِ آمالٌ تُقوِّيها
فالمرءُ يبسطُها والدَّهرُ يقبضُها ... والنفسُ تنشرُها والموتُ يطويها

فأمّا حالُ الأمل في أمر الآخرة . . فهو من أقوى الأسباب في الغفلة عنها ، وقلَّة الاستعداد لها ؛ **وقد أفصح لبيد** بن ربيعة مع أعرابيّته بما بيَّن به **حال الأمل في الأمرين** ، فقال[3] : [من الرمل]

وٱكْـذِبِ النَّفْـسَ إذا حـدَّثْتَهـا ... إنَّ صِدْقَ النَّفسِ يُزرِي بـالأمَـلْ
غيـرَ ألا تكـذِبَنْهـا فـي التُّقَـىٰ ... وٱجـزِهـا بـالبـرِّ للهِ الأجَـلْ

وفرقُ ما بين الآمال والأماني : أنَّ الآمال ما تقيَّدت بأسباب ، والأماني ما تجرَّدت عنها .

فهٰذه القواعد الستُّ التي تصلح بها أحوال الدنيا ، وتنتظم أمور جملتها ؛ فإن كملت فيها . . كمل صلاحها ، **وبعيدٌ أن يكون** أمرُ الدنيا تامّاً كاملاً ، **وأن يكون** صلاحها عامّاً شاملاً ؛ **لأنها موضوعةٌ على التغيُّر والفناء** ، ومنشأةٌ على التصرُّم والانقضاء .

سمع بعض الحكماء رجلاً يقول : (قلبَ اللهُ الدنيا !! قال : **إذاً تستويَ ؛ لأنَّها مقلوبة**)[4] .

---

(١) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٢/ ٥٠) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه .
(٢) البيتان لسيدنا علي رضي الله عنه في « ديوانه » (ص ٢٦٨) ، ونسبه في « منهاج اليقين » (ص ٢٥٢) للشاعر سابق البربري .
(٣) البيتان في « ديوانه » بشرح الطوسي (ص ١٨٠) ؛ وفيه : (واخزُها بالبرّ) أي : اقهرها .
(٤) أورده في « البصائر والذخائر » (٧/ ٢٠٠) ، و« نثر الدرّ » (٣/ ١٠٩) من قول الخليفة المأمون .

وقال بعض الشعراء[1] : [من الطويل]

ومِـن عـادةِ الأيّـام أنَّ خُطُـوبَهـا إذا سَرَّ منها جانبٌ ساءَ جانبُ
ومـا أعـرِفُ الأيّـامَ إلا ذميمـةً ولا الدَّهرَ إلا وهْوَ للثأرِ طالبُ

وبحسَب ما اختلَّ من قواعدها . . يكون اختلالها وفسادها .

(١) البيتان لسعيد بن حميد الكاتب ؛ كما في « مقاتل الطالبيين » (ص ٦١٣) ، ونسب الأول في « نهاية الأرب » (٦/ ١١٠) لقيس بن الخطيم ، وهو في « ديوانه » (ص ٢٢٦) مفرداً .

فَصْلٌ
[في قواعد صلاح الإنسان في الدنيا]

فأمّا ما يصلح به حال الإنسان فيها . . فثلاثة أشياء ، هي قواعد أمره ، ونظام حاله ؛ وهي :

- نفسٌ مطيعةٌ إلىٰ رشدها ، منتهيةٌ عن غَيِّها .
- وأُلفةٌ جامعةٌ تنعطف القلوب عليها ، ويندفع المكروه بها .
- ومادّةٌ كافيةٌ تسكن نفسه إليها ، ويستقيم أَوَدُه بها .

***

فأمّا القاعدةُ الأولى التي هي نفسٌ مطيعةٌ : فلأنها إذا أطاعته . . ملكها ، وإذا عصته . . ملكته ولم يملكها ، ومَن لم يملك نفسه . . فهو بألاَّ يملك غيرها أَحرىٰ ، ومن عصته . . كان بمعصية غيرها أَولىٰ .

وقد قال بعض الحكماء : (لا ينبغي للعاقل أن يطلب طاعةَ غيره وطاعةُ نفسِه ممتنعةٌ عليه)[1] .

وقال الشاعر[2] : [من الوافر]

أتطمعُ أنْ يُطيعَكَ قلبُ سُعْدىٰ وتزعمُ أنَّ قلبَكَ قدْ عَصاكا

وطاعة نفسه تكون من وجهين : أحدهما : نصح ، والثاني : انقياد .

فأمّا النُّصحُ : فهو أن ينظر إلى الأمور بحقائقها ، فيرى الرشدَ رشداً فيستحسنه ، ويرى الغَيَّ غيّاً فيستقبحه ، وهـٰذا يكون من صدق النفس إذا سلمت

---

(١) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٠٨) ، و« محاضرات الأدباء » (١/ ٣٢) .

(٢) البيت للخليل بن أحمد في « ديوانه » (ص ١٦) ، ونقل في « منهاج اليقين » (ص ٢٥٤ـ ٢٥٥) عن « المستطرف » (٣/ ٢١٠ـ ٢١١) : أن الشعر للوليد بن يزيد حين طلق امرأته وتزوجت بعده ، وأرسل إليها أشعب برسالة وردت عليه في قصة طريفة ظريفة .

من دواعي الهوىٰ ؛ ولذلك قيل : (مَن تفكَّر . . أبصر)[١] .

وأمّا الانقيادُ : فهو أن تسرع إلى الرشد إذا أمرها ، وتنتهي عن الغَيِّ إذا زجرها ، وهٰذا يكون من قَبول النفس إذا كُفِيت منازعةَ الشهوات ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ .

وللنفس آداب هي من تمام طاعتها ، وكمال مصلحتها ، قد أفردنا لها من هٰذا الكتاب باباً ، واقتصرنا في هٰذا الموضع علىٰ ما قد اقتضاه الترتيب ، واستدعاه التقريب[٢] .

وأمّا القاعدةُ الثانية التي هي الألفة الجامعة : فلأنَّ الإنسان مقصودٌ بالأذيّة ، محسودٌ بالنعمة ، فإذا لم يكن آلفاً مألوفاً . . تخطَّفَتْهُ أيدي حاسديه ، وتحكَّمت فيه أهواء أعاديه ، فلم تسلم له نعمة ، ولم تَصْفُ له مدّة .

وإذا كان آلفاً مألوفاً . . انتصر بالألفة علىٰ أعاديه ، وامتنع بها من حاسديه ، فسلمت نعمته منهم ، وصفَتْ مدّتُه عنهم وإن كان صفوُ الزمان كدِراً ، ويسرُه عسِراً ، وسِلْمُه خَطِراً .

وقد روى ابن جريج ، عن عطاء ، عن جابر ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « المؤمنُ آلفٌ مألوفٌ ، ولا خيرَ فيمَن لا يألفُ ولا يُؤلَفُ ، وخيرُ الناسِ أنفعُهم للناسِ »[٣] .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنَّ اللهَ تعالىٰ يرضىٰ لكم ثلاثاً ، ويكره لكم ثلاثاً ؛ يرضىٰ لكم : أنْ تعبدُوهُ ولا تُشرِكُوا به شيئاً ، وأنْ تعتصِمُوا بحَبْلِهِ جميعاً ولا تفرَّقُوا ، وأنْ تُناصِحُوا مَن وَلاّه اللهُ تعالىٰ أمرَكم ،

---

(١) أورده في « شرح نهج البلاغة » (١٦/٩٧) من قول سيدنا علي رضي الله عنه ، ورواه ابن طيفور في « بلاغات النساء » (ص ٥١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٩/١٦٦) من قول الزرقاء بنت عديّ الهمدانية .

(٢) سيأتي (ص ٣٦٧) .

(٣) رواه الشهاب في « مسنده » (١٢٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٨/٤٠٤) .

ويكرهُ لكم : قيلَ وقالَ ، وكثرةَ السُّؤالِ ، وإضاعةَ المالِ »[1] ، وكلُّ ذلك حثٌّ منه على الألفة .

والعرب تقول : (مَن قلَّ . . ذلَّ)[2] .

وقال قيس بن عاصم[3] : [من الكامل]

إنَّ القِداحَ إذا اجتمَعْنَ فَرامَها ... بالكسرِ ذو حَنَقٍ وبطشٍ أيِّدِ
عزَّتْ فلمْ تُكسَرْ وإنْ هِيَ بُدِّدَتْ ... فالوَهْنُ والتَّكسيرُ للمُتبدِّدِ

* * *

وإذا كانت الألفةُ ـ كما ذكرت ـ تجمع الشملَ ، وتمنع الذلَّ . . اقتضتِ الحالُ ذكرَ أسبابها .

وأسباب الألفة خمسة ؛ وهي : الدِّين ، والنَّسَب ، والمُصاهرة ، والمودّة ، والبِرّ .

* * *

فأمّا الدِّينُ : وهو الأول من أسباب الألفة . . **فلأنه يبعث على التناصر ، ويمنع من التقاطع والتدابر** ، وبمثل ذلك وصَّىٰ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أصحابَه وأمّتَه ؛ فروىٰ سفيان ، عن الزهريّ ، عن أنسٍ رضي الله عنه قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « **لا تَقاطَعُوا ، ولا تَدابَرُوا** ، ولا تَحاسَدُوا ، **وكُونُوا عبادَ الله إخواناً** ، لا يحِلُّ لمسلمٍ أنْ يهجُرَ أخاهُ فوقَ ثلاثٍ »[4] .

---

(١) رواه مسلم (١٧١٥) ، وابن حبان في « صحيحه » (٣٣٨٨) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٤٤٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وقوله : « **قيل وقال** » هو ما يكون من فضول المجالس مما يتحدث به فيها ؛ كقيل كذا وقال كذا مما لا يصح ولا يعلم حقيقته ، وربما جرَّ إلىٰ غيبةٍ أو نميمة ، أما من قال ما يصح وعُرف حقيقته ، وأسنده إلىٰ ثقة صدوق ، ولم يجرَّ إلىٰ منهيٍّ عنه . . فلا وجه لذمه .

(٢) أورده أبو عبيد في « الأمثال » (ص ٩٤) ؛ وتمامه : (ومَن أمِرَ . . فلَّ) ، ورواه في « تاريخ دمشق » (٣/ ٤٥٧) من قول أوس بن حارثة جد قبيلة الأوس .

(٣) أورد البيتين في « ديوان المعاني » (ص ١٥٢) لقيس بن عاصم المنقري ، وفي « ربيع الأبرار » (١/ ٤٥٧) و« تاريخ الإسلام » (٦/ ١٤٣) لعبد الله بن عبد الأعلى الشيباني ، **وذو حنق** : صاحب غيظ ، **وبطش أيِّد** ـ علىٰ وزن : كيِّس ـ أي : قوي وشديد .

(٤) رواه مسلم (٢٥٥٩) ، والترمذي (١٩٣٥) .

وهـٰذا وإن كان اجتماعُهم في الدِّين يقتضيه . . فهو علىٰ وجه التحذير من تذكُّر تِراتِ الجاهلية ، وإِحَن الضلالة ؛ فقد بُعِث رسولُ الله صلى الله عليه وسلم والعربُ أشدُّ الناس تقاطعاً وتعادياً ، وأكثرُهم اختلافاً وتمادياً ؛ حتىٰ إنَّ بني الأب الواحد كانوا يفترقون أحزاباً مختلفة ، وينشأ بينهم بالتحزُّب والافتراق أحقادُ الأعداء ، وإِحَنُ البُعَداء ، وكانت الأنصار أشدَّهم تقاطعاً وتعادياً ، وكان بين الأوس والخزرج من الاختلاف والتباين أكثرُ من غيرهم إلىٰ أن أسلموا ، فذهبت إِحَنُهم ، وانقطعت عداواتهم ، وصاروا بالإسلام إخواناً متواصلين ، وبألفة الدِّين أعواناً متناصرين .

قال الله تعالىٰ : ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ يعني : أعداءً في الجاهلية ، فألَّف بين قلوبكم بالإسلام .

وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ يعني : حُبّاً .

وعلىٰ حسب التألُّف على الدِّين تكون العداوة فيه إذا اختلف بأهله ؛ فإن الإنسان قد يقطع في الدين مَن كان به برّاً ، وعليه مشفِقاً ، هـٰذا أبو عبيدة ابن الجرّاح وقد كانت له المنزلة العالية في الفضل ، والأثر المشهور في الإسلام . . قتل أباه يوم بدر ، وأتىٰ برأسه إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ طاعةً لله ولرسوله ـ حين بقي علىٰ ضلالته ، وانهمك في طغيانه ، فلم تعطفه عليه رَحِم ، ولا كفَّه عنه إشفاقٌ وهو من أبرِّ الأبناء ؛ تغليباً للدِّين على النسب ، ولطاعة الله تعالىٰ علىٰ طاعة الأب ، وفيه أنزل الله تعالىٰ : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾[1] .

وقد يختلف أهلُ الدِّين علىٰ مذاهب شتّىٰ ، وآراء مختلفة ، فيحدث بين

---

(١) رواه نحوه الحاكم في « المستدرك » (٣/ ٢٦٤ـ ٢٦٥) ، والبيهقي في « الكبرىٰ » (٩/ ٢٧) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (١/ ١٥٤) ، وفصل في « منهاج اليقين » (ص ٢٦٠) من جاهد أقرباءه وعشيرته من الصحابة .

المختلفين فيه من العداوة والتباين مثل ما يحدث بين المختلفين في الأديان .

وعلَّةُ ذلك : أن الدِّين والاجتماع على العقد الواحد فيه لمّا كان من أقوىٰ أسباب الألفة . . كان الاختلاف فيه من أقوىٰ أسباب الفرقة ، **وإذا تكافأ أهل الأديان المختلفة** والمذاهب المتباينة ولم يكن أحدُ الفريقين أعلىٰ يداً وأكثرَ عدداً . . **كانت العداوةُ بينهم أقوىٰ** ، والإِحَنُ فيهم أعظمَ ؛ لأنَّه ينضمُّ إلىٰ عداوة الاختلاف تحاسدُ الأكفاء ، وتنافس النُّظَراء .

❁ ❁ ❁

وأمّا النسَبُ : وهو الثاني من أسباب الألفة . . فلأنَّ **تعاطف الأرحام** ، **وحَميّة القرابة يبعثان** على التناصر والألفة ، **ويمنعان** من التخاذل والفرقة ؛ **أَنفَةً من استعلاء الأباعد** على الأقارب ، **وتوقِّياً من تسلُّط الغرباء** الأجانب ؛ وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **إنَّ الرَّحِمَ إذا تماسَّتْ . . تعاطفَتْ ، وإذا تقاست تقاطعت** » .

ولذلك حفظت العرب أنسابها لمّا امتنعت بها عن سلطانٍ يقهرها ، ويكف الأذىٰ عنها ؛ لتكون به متضافرةً علىٰ مَن ناوأها[1] ، متناصرةً علىٰ مَن شاقَّها وعاداها ، **حتىٰ بلغت بألفة الأنساب وتناصرها عزَّ القويِّ الأيِّدِ** ، وتحكَّمت فيه تحكُّمَ المتسلِّط المتشدِّد ؛ **حتىٰ إنَّ نبيَّ الله لوطاً أعذرَ نفسَه حين عَدِمِ عشيرةً تنصره** ، فقال لمَن بُعِث إليه : ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ يعني : إلىٰ عشيرة مانعة .

وروىٰ أبو سلمة ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : « **رحِمَ اللهُ لوطاً !! لقد كان يأوي إلىٰ ركنٍ شديدٍ** » يعني : اللهَ عزَّ وجلَّ ، قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « **فما بعث الله بعدَه نبياً إلا في ثَروةٍ مِن قومِه** »[2] .

---

(1) ناوأها : عاداها وخاصمها .

(2) رواه البخاري (٣٣٧٢) ، ومسلم (١٥١) ، والترمذي واللفظ له (٣١١٦) ، وقال في « منهاج =

وقال وهب : (لقد ردَّتِ الرسلُ علىٰ لوط ، وقالوا : إنَّ ركنَك لشديدٌ)[1] .

وروي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم : (أنَّه كان لا يتركُ المرءَ مُفرَجاً ؛ حتىٰ يضمَّه إلىٰ قبيلةٍ يكون منها) ، قال الرِّياشيُّ : (والمُفرَج : الذي لا ينتمي إلىٰ قبيلة يكون منها)[2] .

كلُّ ذلك حثّ منه صلى الله عليه وسلم على الألفة ، وكفّ عن الفرقة ؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « مَن كثَّرَ سوادَ قومٍ . . فهو منهُمْ »[3] .

وإذا كان النسَب بهٰذه المنزلة من الألفة . . فقد تعرض له عوارض تمنع منها ، وتبعث على الفرقة المنافية لها ؛ فإذاً قد لزم أن نصف حال الأنساب وما يعرض لها من الأسباب .

وجملة الأنساب : أنها تنقسم ثلاثةَ أقسام : قسمٌ وَالدون ، وقسمٌ مولودون ، وقسمٌ مناسبون ، ولكلِّ صنفٍ منهم منزلةٌ في البرِّ والصلة ، وعارضٌ يطرأ فيبعث على العقوق والقطيعة .

فأمّا الوالدون : فهم الآباء والأمّهات ، والأجداد والجدّات ، وهم موسومون مع سلامة أحوالهم بخُلقين ؛ أحدهما : لازمٌ بالطبع ، والثاني : حادثٌ باكتساب .

فأمّا ما كان لازماً بالطبع : فهو الحذر والإشفاق ؛ وذلك لا ينتقل عن الوالد

= اليقين » (ص ٢٦٢) : (يعني الله عز وجل : تفسير ومدرج في الحديث ، فما وقع من نسخ المتون : « وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم » لربط آخر الحديث بأوله ، لا لأنه حديث آخر ؛ كما رواه الحاكم [٢/ ٥٦١] عن أبي هريرة بتمامه وصححه) .

(١) رواه الطبري في « تفسيره » (٧/ ١٢/ ١١٠) .

(٢) رواه الطبراني بنحوه في « المعجم الكبير » (١٧/ ٢٤) ، والديلمي في « الفردوس » (٧٨٥٥) عن سيدنا عمرو بن عوف رضي الله عنه ، وفي (ج) : (مُفرَحاً) وقد روي الحديث بالوجهين ، والمُفرَح : المُثقَل بالدَّين . انظر « تصحيفات المحدّثين » (١/ ١٦٠) وما بعدها .

(٣) أورده الديلمي في « الفردوس » (٥٦٢١) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

بحال[1] ، وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **لكلِّ شيءٍ ثمرةٌ ، وثمرةُ القلبِ الولدُ** »[2] .

وروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **الولدُ مَبخَلةٌ مَجهَلةٌ ، مَجبَنةٌ مَحزَنةٌ** »[3] فأخبر أنَّ الحذر عليه يكسب هٰذه الأوصاف ، ويحدث هٰذه الأخلاق .

وقد كره قومٌ طلبَ الولدِ كراهةً لهٰذه الحال التي لا يقدر علىٰ دفعها عن نفسه ؛ للزومها طبعاً ، وحدوثها حتماً .

قيل ليحيى بن زكريا عليهما السلام : ما بالُك تكره الولد ؟ فقال : (**ما لي وللولد ؟ إن عاش . . كدَّني ، وإن مات . . هدَّني**)[4] .

وقيل لعيسى ابن مريم عليهما السلام : ألا تتزوَّجُ ؟ فقال : (**إنَّما يُحَبُّ التكثُّرُ في دار البقاء**)[5] .

وأمّا ما كان حادثاً باكتسابٍ : فهي المحبّة التي تنمي مع الأوقات ، وتتغيَّر مع تغيُّر الحالات ؛ وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **الولدُ أَلوَطُ** »[6] ، يعني : أن حبَّه يلتصق بنياط القلب .

فإن انصرف الوالد عن حب الولد . . فليس ذلك لبغضة منه ؛ ولٰكن لسَلْوةٍ حدثَتْ من عقوقٍ أو تقصيرٍ مع بقاء الحذر والإشفاق الذي لا يزول عنه ، ولا ينتقل منه ، وقد قال محمد بن علي[7] : (**إنَّ الله تعالىٰ رضي الآباءَ للأبناء** ،

---

(١) في (أ) : (عن الولد بحال) .

(٢) رواه البزار في « مسنده » (٥٣٧٩) ، والديلمي في « الفردوس » (٧٧٩) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

(٣) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣/ ٢٩٦) عن سيدنا الأسود بن خلف القرشي رضي الله عنه .

(٤) أورده في « تحسين القبيح وتقبيح الحسن » (ص ١٠٦) من قول السيد المسيح عليه السلام ، وفي « ربيع الأبرار » (٤/ ٤٦٢) دون نسبة .

(٥) أورده في « البصائر والذخائر » (٩/ ٢٢٤) بنحوه .

(٦) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٨٤) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٤/ ٢٤٧) من قول سيدنا أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه ، وفي (أ) : (الولد أنوط) .

(٧) هو سيدنا محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالىٰ عنهم .

فحذَّرهم فتنتَهم ، ولم يُوصِهم بهم ، ولم يرضَ الأبناءَ للآباء ، فأوصاهم بهم ، وإنَّ شرَّ الأبناء : مَن دعاه التقصيرُ إلى العقوق ، وشرَّ الآباء : مَن دعاه البرُّ إلى الإفراط)[1] .

والأمّهاتُ أكثرُ إشفاقاً ، وأوفرُ حبّاً ؛ لما باشرنَ من الولادة ، وعانينَ من التربية ، وأنَّهنَّ أرقُّ قلوباً ، وألينُ نفوساً ، وبحسَب ذلك وجب أن يكون التعطُّفُ من الأبناء عليهنَّ أكثرَ ، والبرُّ لهنَّ أوفرَ ؛ جزاءً لفعلهنَّ ، وكِفاءً لحقِّهنَّ وإن كان الله تعالىٰ قد أشرك بينهما في البرِّ ، وجمع بينهما في الوصية ، فقال تعالىٰ : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ﴾ .

وقد رُوي أنَّ رجلاً جاء إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم فقال : إنَّ لي أمّاً أنا مَطيّتُها ، أُقعِدُها علىٰ ظهري ، ولا أصرف عنها وجهي ، وأردُّ إليها كسبي ، فهل جزيتُها ؟ قال : « لا ، ولا بزَفرةٍ واحدة » ، قال : ولمَ ؟ قال : « لأنَّها كانت تخدمُك وهي تحبُّ حياتَكَ ، وأنتَ تخدمُها وتحبُّ موتَها »[2] .

وقال الحسن البصري : (حقُّ الوالد أعظمُ ، وبرُّ الوالدة ألزمُ)[3] .

ورُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أنهاكُم عن عُقوقِ الأمَّهاتِ ، ووَأْدِ البناتِ ، ومنَعَ وهاتِ »[4] .

وروىٰ خالد بن معدان ، عن المقدام قال : سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنَّ اللهَ تبارك وتعالىٰ يُوصيكُم بأمَّهاتِكُم ، ثمَّ يُوصيكُم بأمَّهاتِكُم ،

---

(١) كذا أورده في « بهجة المجالس » (١/٧٦٦) لمحمد الباقر رضي الله عنه ، ورواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٨٣٠٤) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٩/٤٦٥) لزيد بن علي بن الحسين رضي الله عنهم .

(٢) رواه بنحوه البخاري في « الأدب المفرد » (١١) ، وابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (٢٢١) ، وابن وهب في « الجامع في الحديث » (٩٠) من قول سيدنا عمر رضي الله عنه ، ورواه البزار (٤٣٨٠) عن سيدنا بريدة رضي الله عنه مرفوعاً مختصراً .

(٣) أورده في « محاضرات الأدباء » (١/٦٨٤) .

(٤) رواه البخاري بنحوه (٢٤٠٨) ، ومسلم في كتاب الأقضية ، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة (٥٩٣) عن سيدنا المغيرة بن شعبة رضي الله عنه .

ثمَّ يُوصيكُم بأمَّهاتِكُم ، ثمَّ يُوصيكُم بآبائكُم ، ثمَّ يُوصيكُم بالأقربِ فالأقربِ »[1] .

وأمّا المولودون : فهم الأولاد وأولاد الأولاد ، **والعرب تسمي ولد الولد** الصَّفْوة ؛ وهم مختصُّون مع سلامة أحوالهم بخُلقين : **أحدهما لازم ، والآخر** منتقل .

فأمّا اللازمُ : **فهو الأنَفة للآباء** من تهضُّم أو خُمول ، **والأنَفة في الأبناء** في مقابلة الإشفـاق في الآباء ، وقد لحظ أبو تمام الطائيُّ ذلك في شعره فقال[2] : [من الطويل]

فأصبحتُ يَلقاني الزَّمانُ مِنَ أجلِهِ ... بـإعظـامِ مَـولُـودٍ وإشفـاقِ والـدِ

وأمّا المنتقلُ : **فهو الإدلال** ، وهو أوّل حال الولد ، **والإدلال في الأبناء** في مقابلة المحبّة في الآباء ؛ لأنَّ المحبة بالآباء أخصُّ ، والإدلالَ بالأبناء أمسُّ .

وقد رُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالىٰ عنه أنه قال : قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ **ما بالُنا نَرِقُّ علىٰ أولادنا ، ولا يَرِقُّونَ علينا** ؟ قال : « **لأنّا وَلَدْناهُم ، ولم يَلِدُونا** »[3] .

ثم إنَّ الإدلال في الأبناء قد ينتقل مع الكِبَر إلىٰ **أحد أمرين** ؛ إمّا إلى **البرِّ والإعظام** ، وإمّا إلى **الجَفاء والعُقوق** .

فإنْ كان الولد رشيداً وكان الأب برّاً عَطوفاً . . **صار الإدلالُ بِرّاً وإعظاماً** ، وقد روى الزهري ، عن عامر بن شَراحِيل[4] : أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال لجرير بن عبد الله : « **إنَّ حقَّ الوالدِ على الولدِ** أنْ يخشعَ له عندَ الغضَبِ ، ويؤثِرَهُ

---

(١) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٦٠) ، وابن ماجه (٣٦٦١) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٧٤٦١) .

(٢) البيت في « ديوانه » (٢/ ٧٣) .

(٣) قال في « منهاج اليقين » (ص ٢٦٥) : (وقيل لبعض الحكماء : **لأي شيءٍ نحب أولادنا ولا يحبوننا ؟!** قال : **لأن آدم لم يكن له أب حتىٰ يحبه** ، وورث منه بنوه ذلك !!) .

(٤) وهو المشهور **بالشعبي** رحمه الله تعالىٰ .

علىٰ نفسه عندَ السَّغابة والنَّصَب ؛ **فإنَّ المكافىءَ ليس بالواصلِ** ، ولٰكنَّ الواصلَ مَن إذا قطعَتْ رَحِمُه . . وصلَها »[1] .

وإن كان الولد غاوياً ، أو كان الوالد جافياً . . صار **الإدلالُ قطيعة وعُقوقاً** ؛ ولذلك قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « **رحِمَ الله امرأً أعانَ ولدَهُ علىٰ برِّهِ** »[2] .

وبُشِّر عمرُ بن الخطاب رضي الله تعالىٰ عنه بمولودٍ فقال : (**رَيحانةٌ أَشَمُّها** ، ثم هو عن قريبٍ : **ولدٌ بارٌّ ، أو عدوٌّ ضارٌّ**)[3] .

وقد قيل في منثور الحكم : (**العُقوقُ ثُكْلُ مَن لم يثكَلْ**)[4] .

وقال بعض الحكماء : (**ابنُك ريحانُك سبعاً** ، وخادمُك سبعاً ، **ووزيرُك سبعاً** ، ثم هو صديقٌ أو **عدوٌّ**)[5] .

وأمّا المُناسِبون : فهم مَن عدا الآباءَ والأبناءَ ممَّن يُرجع بتعصيبٍ أو رحِم ، **والذي يختصُّون به الحَميّةُ الباعثة على النُّصرة** ، وهي أدنىٰ رتبةً من الأنَفة ؛ **لأنَّ الأنَفة تمنع من التهضُّم والخمول معاً** ، **والحَميّة تمنع من التهضُّم** ، وليس لها في كراهية الخمول نصيبٌ إلا أن يقترنَ بها ما يبعث على الأنفة .

وحميّةُ المُناسِبين : إنَّما تدعو إلى النُّصرة على البُعَداء الأجانب ، **وهي معرَّضةٌ لحسد الأداني والأقارب** ، موكولةٌ إلىٰ منافسة الضاوي والصاحب[6] .

---

(١) رواه الطبراني في « الأحاديث الطوال » (٣) ، وابن شبة في « تاريخ المدينة المنورة » (٢/ ٥٦٧) من طريق أخرىٰ موصولاً ، **والسغابة والنصب** : الجوع وعدم كفاية المؤونة فيقدم الولدُ والدَه علىٰ نفسه ، **وقطعت** : روي مبنياً للفاعل والمفعول . **والحاصل من أقسامه ثلاثة** : مواصل ومكافىء وقاطع ؛ **فالمواصل** : من يتفضل ولا يُتفضل عليه ، **والمكافىء** : الذي لا يزيد في الإعطاء علىٰ ما يأخذ ، **والقاطع** : الذي يُتفضل عليه ولا يتفضل . انظر « منهاج اليقين » (ص ٢٦٦) بتصرف .

(٢) رواه السلميّ في « آداب الصحبة » (١٣٧) عن سيدنا علي رضي الله عنه ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٥٩٢٤) عن الشعبي ، وابن وهب في « الجامع في الحديث » (١٣٨) عن عطاء رحمه الله تعالىٰ مرسلاً .

(٣) أورده في « البيان والتبيين » (٣/ ٢٨٥) ، و« التذكرة الحمدونية » (٤/ ٢٧٣) .

(٤) أورده أبو عبيد في « الأمثال » (ص ١٤٨) ، و« ربيع الأبرار » (٤/ ٤٥٨) من قول أوس بن حارثة ، ومعناه : العقوق فقدان ولد لمن لم يفقده ، وقالوا : (**إن العقوق أحد الثكلين ؛ ولرُبَّ عقمٍ أقر للعين**) .

(٥) أورده في « عيون الأخبار » (٣/ ٩٤) ، و« التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٥٩) .

(٦) في (ج ، د ، هـ) : (الصاحب بالصاحب) .

فإنْ حُرِست بالتواصل والتلاطف.. تأكَّدت أسبابها ، واقترن بحميّة النسَب مصافاة المودّة ؛ وذلك أوكدُ أسباب الألفة ، وقد قيل لبعض قريش : (**أيُّما أحبُّ إليك** ؛ أخوكَ أو صديقُك ؟ فقال : **أخي إذا كان صديقاً**)[1] .

وقال مسلمة بن عبد الملك : (**العيشُ في ثلاث** : سَعةِ المنزل ، وكثرةِ الخدَم ، وموافقةِ الأهل)[2] .

وقال بعض الحكماء : (**البعيد** قريب بمودّته ، **والقريب** بعيد بعداوته)[3] .

وإنْ أُهمِلَتِ الحالُ بين **المُناسِبين** ؛ ثقةً بلُحْمة النسب ، واعتماداً علىٰ حميّة القرابة.. غلب عليها مقتُ الحسد ، أو منازعةُ التنافس ، **فصارت المناسبة عداوة** ، والقرابة تباعداً .

وقال الكنديُّ في بعض رسائله : (**الأبُ ربٌّ** ، والولد كمَد ، **والأخ فخّ** ، والعمّ غمّ ، والخال وَبال ، **والأقارب عقارب**)[4] .

وقال عبد الله بن المعتز[5] : [من الطويل]

لُحُومُهُمُ لَحْمِي وهُمْ يأكلُونَهُ ... وما داهياتُ المرءِ إلا أقارِبُهْ

ومن أجل ذلك أمر الله تعالىٰ بصلة الأرحام[6] ، **وأثنىٰ علىٰ واصليها** فقال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴾ ، قال المفسرون : (هي الرحم التي أمر الله تعالىٰ بوصلها ، **ويخشون ربَّهم** : في قطعها ، **ويخافون سوءَ الحساب** : في المعاقبة عليها)[7] .

وقد روىٰ عبد الرحمٰن بن عوف أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال :

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الإخوان » (٦٤) ، وأورده في « الموشّىٰ » (ص ٣١) من قول خالد بن صفوان .

(٢) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٧٠) ، و« بهجة المجالس » (٢/ ١٢٥) .

(٣) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٦٥) .

(٤) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص٤٦٠) .

(٥) البيت في « ديوانه » (١/ ٤٤٩) .

(٦) **ومن أجل ذلك** ؛ أي : لأجل كون حمية المناسبين تتأكد بالتواصل ، وتنقطع بالإهمال .

(٧) أورده الطبري في « تفسيره » (٨/ ١٣/ ١٧٧) .

« يقولُ الله عزَّ وجلَّ : أنا الرحمـٰنُ ، وهي الرَّحِمَ ، اشتقَقْتُ لها اسماً من اسمي ، فمَن وصلَها . . وصلْتُه ، ومَن قطعَها . . قطعْتُه »[١] .

ورُوي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « صِلةُ الرَّحِمِ : مَنماةٌ للعدد ، مَثراةٌ للمال ، مَحبةٌ في الأهل ، مَنسأةٌ في الأجَل »[٢] .

وقال بعض الحكماء : (بُلُّوا أرحامَكم بالحُقوق ، ولا تُجفُّوها بالعُقوق) .

وقال بعضُ البلغاء : (صِلُوا أرحامَكم ؛ فإنَّه لا تبلىٰ عليها أصولُكم ، ولا تهتضم عليها فروعُكم) .

وقال بعض الأدباء : (مَن لم يصلُحْ لأهله . . لم يصلُحْ لكَ ، ومَن لم يذبَّ عنهم . . لم يذبَّ عنكَ) .

وقال بعض الفصحاء : (مَن وصل رحمَه . . وصله الله تعالىٰ ورحمه ، ومَن أجار جارَه . . أعانه الله وأجاره)[٣] .

وقال محمد بن عبد الله الأزديّ[٤] : [من الطويل]

وحسْبُكَ مِن ذلٍّ وسوءِ صَنيعةٍ ... مُناواةُ ذي القُربىٰ وأنْ قيلَ قاطعُ
ولـٰكنْ أُواسِيهِ وأنسىٰ ذُنوبَهُ ... لترجِعَهُ يوماً إليَّ الرَّواجعُ

وقال عبد الله بن الزبير رضي الله عنه[٥] : [من الطويل]

ولا يستوي في الحكمِ عبدانِ واصلٌ ... وعبدٌ لأرحامِ القرابةِ قاطعُ

---

(١) رواه أبو داوود (١٦٩٤) ، والترمذي (١٩٠٧) ، والمعنىٰ : إن الرحم أثر من آثار الرحمة ، مشتبكة بها ، فالقاطع لها منقطعٌ من رحمة الله ، وليس المعنىٰ : أنها من ذات الله ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، وقوله : (وصلْتُه) كناية عن عظيم إحسانه بعبده .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ١٦١) ، والترمذي (١٩٧٩) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) انظر « الكليات » (١/ ٥٥) ، و« فيض القدير » (٥/ ٤٦٢) .

(٤) أورد البيتين المرزوقي في « شرح ديوان الحماسة » (١/ ٤٠٤) ، و« التذكرة الحمدونية » (١/ ٣٧٤) ، ومن ذل : (من) : زائدة ، و(ذلٌّ) : تمييز من النسبة ، وأن قيل : (أن) مصدرية ؛ والمعنىٰ : يكفيك ذلاً وسوء صنيعة مباعدةُ الأقارب وقولُ الناس : هو قاطع عاق ، فواهاً لك .

(٥) أورده في « تاريخ دمشق » (٥٧/ ٢٧٤) ، و« الحلّة السيراء » (١/ ٢٨) .

وأمّا **المصاهرةُ** وهي الثالثة من أسباب الألفة . . فلأنّها **استحداث مواصلة ، وتمازج مناسبة** ، صدَرا عن رغبةٍ واختيار ، وانعقدا عن خبرةٍ وإيثار ، **فاجتمع فيهما** أسبابُ الألفة ، وموادُّ المصاهرة ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ يعني **بالمودّة** : المحبَّة ، **وبالرحمة** : الحنوّ والشفقة ؛ وهما من أوكد أسباب الألفة .

وفيها تأويل آخر ـ قاله الحسن البصريُّ ـ : (أنَّ **المودّة** : النكاح ، **والرحمة** : الولد)[1] .

وقال الله تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ **فاختلف المفسرون في الحفدة** ؛ فقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : (**هم أصهار الرجل علىٰ بناته**)[2] .

وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : (**هم ولد الرجل ، وولد ولده**) .

وحُكي عنه : أنه قال : (إنَّهم بنو امرأة الرجل من غيره)[3] .

وسُمُّوا حفدة ؛ لتحفُّدهم في الخدمة ، وسرعتهم في العمل ؛ ومنه قولهم في القنوت : (**وإليكَ نسعىٰ ونحفِدُ**)[4] أي : نُسرع إلى العمل بطاعتك .

ولم تزل العرب تجتذب البُعَداء وتتألَّف الأعداء بالمصاهرة ، حتىٰ يرجع النافر مؤانِساً ، ويصير العدوُّ موالياً ، **بل يصير الصهر بين الاثنين ألفةً بين القبيلتين** ، وموالاةً بين العشيرتين .

وحُكي عن خالد بن يزيد بن معاوية أنه قال : (كان أبغض خلق الله إليَّ آل الزبير ؛ **حتىٰ تزوَّجتُ فيهم رملةَ** ، فصاروا أحبَّ خلق الله إليَّ) وفيهم يقول : [من الطويل]

تجولُ خَلاخِيلُ النساءِ ولا أَرىٰ ... لِرَملةَ خَلْخالاً يجولُ ولا قُلْبا

---

(١) أورده أبو حيان في « البحر المحيط » (٧/ ١٦٦) .

(٢) رواه الطبري في « تفسيره » (٨/ ١٤/ ١٧٥) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٧/ ٧٧) .

(٣) رواه الطبري في « تفسيره » (٨/ ١٤/ ١٧٩) .

(٤) أخرجه البيهقي في « الكبرىٰ » (٢/ ٢١١) ، وعبد الرزاق (٤٩٦٨) عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

أُحِـبُّ بَنـي العَـوّامِ طُـرّاً لأجْلِهـا ... ومن أجْلِها أحبَبْتُ أخوالَها كَلْبا

فـإنْ تُسلِمـي نُسلِـمْ وإنْ تتنصَّـرِي ... يخـطُّ رِجـالٌ بيـنَ أعيُنِهـم صُلْبـا[1]

ولذلك قيل : (**المرء علىٰ دين زوجته**) لِما يستنزله الميلُ إليها من المتابعة ، ويجتذبه الحبُّ لها من الموافقة ، **فلا يجد إلى المخالفة سبيلاً** ، ولا إلى المباينة والمُشاقَّة طريقاً .

وإذا كانت المصاهرة والنكاح بهـٰذه المنزلة من الألفة . . فقد يبتغىٰ **بعقدها أحد خمسة أوجه** ؛ وهي : المال ، والجمال ، والدِّين ، والألفة ، والتعفُّف .

وقد روىٰ سعيد بن أبي سعيد ، عن أبيه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **تُنكَحُ المرأةُ لأربع** : لمالِها ، ولجَمالِها ، ولحسَبِها ، ولدِينِها ؛ **فاظفَرْ بذاتِ الدِّينِ ، ترِبَتْ يداكَ** »[2] .

ـ **فإن كان عقدُ النكاح لأجل المال** ، وكان أقوى الدواعي إليه . . **فالمال إذاً هو المنكوح** ؛ **فإن اقترن بذلك أحدُ الأسباب** الباعثة على الائتلاف . . جاز أن يثبت العقدُ ، وتدوم الألفةُ .

وإن تجرَّد عن غيره من الأسباب ، وعري عمّا سواه من الموادّ . . **فأخلِق بالعقد أن ينحلَّ** ، وبالألفة أن تزول ، **لا سيَّما إذا غلب الطمع** ، وقلَّ الوفاء ؛ لأن المال إن وُصل إليه . . فقد تقضّىٰ سببُ الألفة به ؛ وقد قيل : (**مَن ودَّك لأمرٍ . . ولّىٰ مع انقضائه**)[3] .

---

(1) أورده ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٩/ ١٢٩ـ ١٣٠) ، والمبرّد في « الكامل » (١/ ٤٥٠) ، وصُلباً : جمع : صليب ، والخطاب إلىٰ غير معين ، فالتفاته إلىٰ رملة ليست لخصوصية ذاتها ، بل باعتبار جنس النساء بقرينة (رجال) ، ونكتة الالتفات إلى الغيبة في قوله : (**يخط رجال**) والتوجيه إلىٰ غير مُعينٍ : تنزيه نفسه وإياها عن التنصُّر ، والتصريح بالبراءة عنه وإن كان مستتبعات التراكيب غير ملتفتٍ إليها ؛ **فالمعنىٰ** : وإن تنصَّرتُنَّ أيتها النساء . . يتبعكن رجال كثير يعلنون النصرانية بخط الصليب بين أعينهم ، فاتقين الله ولا تتسبَّبن بتنصرهم . انظر « منهاج اليقين » (ص ٢٧٣) .

(2) رواه البخاري (٥٠٩٠) ، ومسلم (١٤٦٦) .

(3) أورده في « التذكرة الحمدونية » (١/ ٢٧٥) من قول الحسن بن محمد الجواد .

وإن أعوز الوصول إليه ، وتعذَّرت القدرة عليه . . أعقب ذلك استهانةَ الآيِسِ بعد شدّة الأمل ، فحدثت منه عداوة الخائب بعد استحكام الطمع ، فصارت الوُصْلة فُرقةً ، والألفة عداوةً ، وقد قيل : (مَن ودَّك طمعاً فيك . . أبغضك إذا أيِسَ منك) .

وقال عبد الحميد : (مَن أعظمك لاستقلالك . . استقلَّك عند إقلالك) .

ـ وإن كان العقد رغبةً في الجمال . . فذلك أدوَمُ للألفة من المال ؛ لأن الجمال صفةٌ لازمة ، والمال صفةٌ زائلة ؛ ولذلك قيل : (حُسنُ الصورة أوَّلُ السعادة)[1] .

وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أعظمُ النِّساءِ بركةً : أحسنُهنَّ وَجْهاً ، وأقلُّهنَّ مَهْراً »[2] .

فإن سلمت الحال من الإدلال المُفضي إلى الملل . . استدامت الألفة ، واستحكمت الوُصْلة .

وقد كانوا يكرهون الجمال البارع ؛ إمّا لما يحدث عنه من شدّة الإدلال ، وقد قيل : (مَن بسطه الإدلال . . قبضه الإذلال)[3] .

وإمّا لما يُخاف عليه من مِحَن الرغبة ، وبلوى المنازعة ؛ وقد حُكي : أن رجلاً شاور حكيماً في التزويج ، فقال : (افعل ، وإيّاك والجمالَ البارع ؛ فإنَّه مرعىً أنيقٌ ! !) .

قال الرجل : وكيف ذلك ؟ قال : كما قال الأوَّل : [من البسيط]

ولن تُصادِفَ مَرعىً مُمرِعاً أبداً إلا وجَدتَ بهِ آثارَ مُنتجعِ[4]

(١) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٣٩٦) .
(٢) رواه الشهاب القضاعي في « مسنده » (١١٤٦) عن السيدة عائشة رضي الله عنها .
(٣) أورده المناوي في « فيض القدير » (١/ ٥٠) .
(٤) أورده في « عيون الأخبار » (٤/ ٩) ، و« محاضرات الأدباء » (٣/ ٣٩٧) ، ومرعىً أنيق : حسَنٌ مُعجِب ، والانتجاع : طلب الكلأ ، ويقال : انتجعت فلاناً ؛ أي : طلبت معروفه ، والحكيم قصد هـٰذا =

وإمّا لما يخافه اللبيب من شدة الصَّبْوة ، ويتوقّاه الحازم من عواقب الفتنة ؛ فقد قال بعض الحكماء : (إيّاكَ ومخالطةَ النساء ؛ فإنَّ لَحْظَ المرأة سهمٌ ، ولفظَها سمٌّ) .

ورأىٰ بعضُ الحكماء صيّاداً يكلِّم امرأة ، فقال : (يا صيّاد ؛ احذر أن تُصاد)[1] .

وقال سليمان بن داوود عليهما السلام لابنه : (امشِ وراء الأسد ، ولا تمشِ وراء المرأة)[2] .

وسمع عمر بن الخطاب رضي الله تعالىٰ عنه امرأةً تقول : [من البسيط]

إنَّ النســاءَ رَيــاحيــنُ خُلِقْــنَ لَكُــمْ   وكلُّكُـم يشتهـي شَـمَّ الـريـاحيـنِ

فقال عمر رضي الله تعالىٰ عنه : [من البسيط]

إنَّ النســاءَ شيــاطيــنُ خُلِقْــنَ لنــا   نعـوذُ بـالله مـن شـرِّ الشيـاطيـنِ[3]

ـ **وإن كان العقد رغبةً في الدِّين** . . فهو أوثَقُ العقود حالاً ، وأدومُها ألفة ، وأحمدها بدءاً وعاقبة ؛ **لأن طالب الدِّين متبعٌ له ، ومَن اتبع الدِّين . . انقاد له** ، فاستقامت حاله ، وانتظم أمره ، وأمن زلله ؛ ولذلك قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « فاظفَرْ بذاتِ الدِّينِ ، ترِبَتْ يداكَ »[4] ؛ **وفيه تأويلان** :

أحدهما : تربت يداك إن لم تظفر بذات الدِّين .

= المعنىٰ وإن كان السَّوق ظاهراً في المعنى الأول ، والبيت نسبه الجاحظ في « رسائله » (١/ ٣٤٤) للأحنف بن قيس ، وفي (أ) : (آثار مأكول) .

(١) أورده في « الإعجاز والإيجاز » (ص ١٥٥) من قول لقمان الحكيم .

(٢) رواه الإمام أحمد في « الزهد » (٢١٩) .

(٣) أورده المناوي في « فيض القدير » (٢/ ١٧٧) ، والبيت الأول أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٢١٨) ، ولعلها عرَّضت بشمها وهو محرم ؛ فلذلك استعاذ بالله من شرها .

(٤) رواه البخاري (٥٠٩٠) ، ومسلم (١٤٦٦) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

والثاني : أنَّها كلمةٌ تُذكَر للمبالغة ، ولا يراد بها سوء ؛ كقولهم : ما أشجعَه ، قاتلَه اللهُ ! !

وقيل : التأويلان أحدُهما يقتضي : استغنيتَ ، والثاني : افتقرتَ .

* * *

- وإن كان العقد رغبةً في الألفة . . فهاذا قد يكون علىٰ أحد وجهين :

إمّا أن يقصد به المكاثرة باجتماع الفريقين ، والمضافرة بتناصر الفئتين .

وإمّا أن يقصد به تألُّف أعداء متسلِّطين ؛ استكفافاً لعاديتهم ، وتسكيناً لصَولتهم .

وهاذان الوجهان قد يكونان في الأماثل ، وأهل المنازل ، وداعي الوجه الأول : هو الرغبة ، وداعي الوجه الثاني : هو الرهبة ؛ وهما سببان في غير المتناكحين .

فإن استدام السبب . . دامت الألفة ، وإن زال السبب بزوال الرغبة والرهبة . . خِيفَ زوال الألفة ، إلا أن ينضم إليها أحد الأسباب الباعثة عليها ، والمقترنة بها[1] .

* * *

- وإن كان العقد رغبةً في التعفُّف . . فهو الوجه الحقيقيّ المبتغىٰ بعقد النكاح ، وما سواه . . فأسبابٌ متعلِّقة عليه ، أو مضافةٌ إليه .

روي أنه لما نزل قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ . . قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « خُلِقَ الرَّجلُ منَ التُّرابِ ، فهمُّهُ في التُّرابِ ، وخُلِقَتِ المرأةُ منَ الرَّجلِ ، فهمُّها في الرَّجلِ »[2] .

---

(١) في (ب ، د) : (والمقوّية لها) .

(٢) رواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (٤٧١٨) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٧٤١١) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما موقوفاً ، فهمه في التراب : بالزراعة فيها ، والبناء عليها ، والسير في مناكبها .

وروىٰ عطيّة بن بُسْر ، عن عَكّاف بن وَداعة الهلاليّ أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال له : « **يا عكّافُ ؛ أَلَكَ زوجةٌ ؟** » قال : لا ، قال : « **فأنت إذاً مِنْ إخوانِ الشياطينِ ؛ إنْ كنتَ من رُهْبانِ النَّصارىٰ . . فالحَقْ بهم ، وإنْ كنتَ منّا . . فإنَّ من سُنّتِنا النِّكاحَ** »[1] ، فكان هٰذا القول منه حثّاً على التعفُّف عن الفساد ، وباعثاً علىٰ طلب المكاثرة بالأولاد .

ولهٰذا المعنىٰ كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يقول للقُفَّال من غزوهم : « **إذا أفضَيتُم إلىٰ نسائِكُم . . فالكَيْسَ الكَيْسَ** »[2] يعني : في طلب الولد .

فلزم حينئذٍ في عقد التعفُّف : تحكيمُ الاختيار فيه ، والتماسُ الأدوم من دواعيه ، وهي نوعان : نوعٌ يمكن حصر شروطه ، ونوعٌ لا يمكن ؛ لاختلاف أسبابه ، وتغاير شروطه .

فأمّا الشروطُ المحصورة فيه : فثلاثة شروط :

أحدها : الدِّين المُفضي إلى الستر والعفاف ، المؤدِّي إلى القناعة والكفاف ، قال أبو هريرة رضي الله عنه : « **لا يَفرَكْ مؤمنٌ مؤمنةً ؛ إنْ كرِهَ منها خُلُقاً . . رضيَ خُلُقاً** »[3] .

وخطب رجلٌ من عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يتيمةً كانت عنده ، فقال : (**لا أرضاها لكَ**) قال : ولمَ وفي دارك نشأتْ ؟! قال : (**إنّها تتشرَّفُ**) قال : لا أُبالي ، قال : (**الآنَ لا أرضاكَ لها**)[4] .

---

(١) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٥٠٩٤) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٦٨٥٦) .

(٢) رواه البخاري (٢٠٩٧) ، ومسلم (٧١٥) عن سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما .

(٣) رواه مسلم (١٤٦٩) مرفوعاً ، ولا يفرَكْ : لا يُبغِضْ .

(٤) أورده في « عيون الأخبار » (٤/١٦) ، وتتشرَّف : تتطلّع وتنظر ، ولا أرضاك لها : كأنه تفرس فيه أن نكاحه نكاحُ غلمةٍ فردَّه .

وفي معنىٰ هـٰذا قولُ بعض الحكماء : (**مَن رضي بصُحبة مَن لا خيرَ فيه . . لم يرضَ بصُحبته مَن فيه خيرٌ**)(١) .

والشرط الثاني : **العقل الباعث علىٰ حسن التقدير** ، الآمر بصواب التدبير ؛ فقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **العقلُ حيثُ كان أَلُوفٌ مألوفٌ** »(٢) .

ورُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **عليكُم بالوَدُودِ الوَلُودِ** ، ولا تنكِحُوا الحَمْقاءَ ؛ فإنَّ صُحبتَها بلاءٌ ، وولدَها ضياعٌ »(٣) .

والشرط الثالث : **الأكفاء الذين ينتفي بهم العار** ، ويحصل بهم الاستكثار ؛ فقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **تخيَّرُوا لنُطَفِكُم ، ولا تضَعُوها إلا في الأكْفاءِ** »(٤) .

وقال أكثمُ بن صيفيّ لوُلْده : (**يا بَنيَّ ؛ لا يحملنَّكم جمالُ النساء عن صراحة النسَب** ؛ فإنَّ المناكح اللئيمة مَدرجةٌ للسَّرَف ، والكريمة مَدرجةٌ للشرف)(٥) .

وقال أبو الأسود الدؤلي لبَنيه : (**قد أحسنتُ إليكم صغاراً** ، وكباراً ، وقبل أن تُولَدوا ، قالوا : وكيف أحسنتَ إلينا قبل أن نُولَد ؟! قال : **اخترتُ لكم من الأمّهات مَن لا تُشنَؤون بها**)(٦) .

وأنشد الرِّياشيُّ : [من الطويل]

فـأوَّلُ إحسـانـي إليكـم تَخيُّـري لمـاجِـدةِ الأَعْـراقِ بـادٍ عَفـافُهـا

---

(١) أورده الآبيُّ في « نثر الدرّ » (٤/ ٢٣٠) ، و« ربيع الأبرار » (١/ ٤٥٥) .
(٢) رواه ابن عساكر بنحوه في « تاريخ دمشق » (٨/ ٤٠٤) عن سيدنا جابر رضي الله عنه .
(٣) رواه أبو داوود (٢٠٥٠) عن سيدنا معقل بن يسار رضي الله عنه ، وأورده الديلمي في « الفردوس » (٧٣٣٣) عن سيدنا علي رضي الله عنه .
(٤) رواه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ١٦٣) ، وابن ماجه (١٩٦٨) عن السيدة عائشة رضي الله عنها .
(٥) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٣٦) ، و« المعمَّرون والوصايا » (ص ١٥) .
(٦) أورده في « بهجة المجالس » (٢/ ٣٢) ، و« ربيع الأبرار » (٥/ ٣٠٦) .

وقد ينضمُّ إلىٰ هٰذه الشروط من صفات الذات وأحوال النفس ما يلزم التحرُّز منه ؛ لبُعد الخير عنه ، وقلّة الرشد فيه ؛ فإنَّ كوامن الأخلاق باديةٌ في الصور والأشكال ؛ كالذي رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال لزيد بن حارثة : « أتزوَّجتَ يا زيدُ ؟ » قال : لا ، قال : « تزوَّجْ . . تستعفِفْ معَ عِفّتك ، ولا تتزوَّجْ منَ النساءِ خمساً » قال : وما هنَّ يا رسولَ الله ؟

قال : « لا تتزوَّجْ شَهْبَرةً ، ولا لَهْبَرةً ، ولا نَهْبَرةً ، ولا هَنْدَرةً ، ولا لَفُوتاً » .

قال : يا رسولَ الله ؛ ما أعرفُ ممّا قلتَ شيئاً !!

قال : « أمّا الشَّهْبَرةُ : فالزرقاء البَذيّة ، وأمّا اللَّهْبَرةُ : فالطويلة المهزولة ، وأمّا النَّهْبَرةُ : فالعجوز المُدبِرة ، وأمّا الهَنْدَرةُ : فالقصيرة الذميمة ، وأمّا اللَّفُوتُ : فذاتُ الولد من غيرك »[1] .

وقال شيخٌ من بني سُلَيم لابنه : (يا بنيَّ ؛ إيّاكَ والرَّقُوبَ الغَضُوبَ القَطُوبَ) . الرَّقُوب : التي تراقبه أن يموت فتأخذ ماله[2] .

وأوصىٰ بعض الأعراب ابناً له في التزويج ، فقال : (إيّاكَ والحَنّانةَ والمَنّانةَ والأنّانةَ ؛ فالحنّانة : التي تحنُّ إلىٰ زوجٍ كان لها ، والمَنّانة : التي تمنُّ علىٰ زوجها بمالِها ، والأنّانة : التي تئنُّ كسَلاً وتمارُضاً)[3] .

وقال أوفى بن دَلْهَم : (النساء أربع : فمنهنَّ مَعْمَع ، لها شيئُها أجمع ، ومنهنَّ تبَع ، ترىٰ ولا تنفع ، ومنهنَّ صَدَع ، تفرِّق ولا تجمع ، ومنهنَّ غيثٌ وقع ، ببلدٍ فأمرع)[4] .

وقال الشاعر[5] : [من الطويل]

أرىٰ صاحبَ النِّسوانِ يحسبُ أنَّها ... سواءٌ وبَوْنٌ بينَهنَّ بعيدُ

---

(١) أورده الديلمي في « الفردوس » (٨٥٦١) .

(٢) أورده في « مجالس ثعلب » (١/ ٢١٤) .

(٣) أورده في « مجالس ثعلب » (١/ ٢١٤) ، والجاحظ في « المحاسن والأضداد » (ص ١٤٧) .

(٤) أورده القالي في « ذيل الأمالي » (٣/ ١٢٦) ، والمبرّد في « الكامل » (٣/ ١٤٤٢) ، و« عيون الأخبار » (٤/ ٣) .

(٥) رواه في « الطيوريّات » (١٢٢٦) لابن شُبْرُمة .

فمنهـنَّ جنّـاتٌ تَفـيءُ ظِـلالُهـا ومنهـنَّ نِيـرانٌ لهـنَّ وَقـودُ

وأنشد أبو العيناء عن أبي زيد[1] : [من البسيط]

إنَّ النسـاءَ كـأشجـارٍ نبَتْـنَ معـاً منهـنَّ مُـرٌّ وبعـضُ المُـرِّ مـأكـولُ

إنَّ النساءَ ولو صُوِّرْنَ من ذهبٍ فيهنَّ من هفَواتِ الجهْلِ تخييلُ

إنَّ النسـاءَ متىٰ يُنهَيْـنَ عـن خُلُـقٍ فـإنَّـه واجـبٌ لا بـدَّ مفعـولُ

ومـا وعَـدْنَـكَ مـن شـرٍّ وفَيْـنَ بـهِ ومـا وعَـدْنَـكَ مـن خيـرٍ فممطـولُ

وأمّا النوعُ الآخر . . فهو ما لا يمكن حصرُ شروطه ؛ لأنه قد يختلف باختلاف الأحوال ، وينتقل بتنقُّل الإنسان والأزمان ، فإنه لا يُستغنىٰ فيه عن موافقة النفس ومتابعة الشهوة ؛ ليكون أدومَ لحال الألفة ، وأمدَّ لأسباب الوُصْلة ؛ **فإنَّ الرأي المعلول لا يبقىٰ علىٰ حاله** ، والميل المدخول لا يدوم علىٰ دَخَله ، **ولا بدَّ أن ينتقل إلىٰ إحدىٰ حالتين** ؛ إمّا إلى الزيادة والكمال ، وإمّا إلى النقصان والزوال .

حُكي : أن رجلاً قال لعليّ بن أبي طالب عليه السلام : **إنِّي أحبُّك وأحبُّ معاوية** ، فقال عليّ عليه السلام : (**أمّا الآن . . فأنت أعورُ ؛ فإمّا أن تبرأ ، وإمّا أن تعمىٰ**)[2] .

وإذا كان كذلك . . فلا بدَّ من كشف السبب الباعث علىٰ هـٰذا النوع ؛ فإنه **لا يخلو من ثلاثة أحوال** :

أحدها : أن يكون لطلب الولد ، **فالأحمدُ فيه** : التماسُ الحداثة والبكارة ؛ لأنها أخصُّ بالولادة ، وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « **عليكم**

---

(١) أورد الأبيات الثلاثة الأولىٰ في « الأغاني » (١٧/ ٦٠٤٢) لمالك بن عمرو الخزرجيّ ، والبيتان الأول والثالث في « ديوان طفيل الغنَويّ » (ص ٨٢) ، وما عدا البيت الثاني في « ديوان عبيد الله بن قيس الرقيّات » (ص ١٦٤) .

(٢) **فأنت أعور** : كالأعور في رؤيتك الإمامة ـ التي لا تكون إلا واحدة ـ متعددةً ، وأراد بالأعور الأحول ؛ لأن تلك الرؤية من لوازم الحول الجعلي .

بالأبكارِ ؛ فإنَّهنَّ أعذَبُ أفواهاً ، وأنتَقُ أرحاماً ، وأرضىٰ باليَسيرِ »[1] ، ومعنىٰ قوله : (أنتقُ أرحاماً) أي : أكثرُ أولاداً .

وقال معاذ بن جبل : (عليكم بالأبكار ؛ فإنَّهنَّ أكثرُ حبّاً ، وأقلُّ خبّاً)[2] .

وهـٰذه الحال هي أَولى الأحوال الثلاث ؛ لأنَّ النكاح موضوع لها ، والشرع واردٌ بها ، وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « سوداءُ وَلُودٌ خيرٌ من حسناءَ عاقرٍ »[3] .

والعرب تقول : (مَن لم يلِدْ . . فلا وُلِدَ ! !)[4] .

وقد كانوا يختارون لمثل هـٰذه الحال نكاحَ البُعَداء الأجانب ، ويَرَونَ ذلك أنجبَ للولد ، وأبهىٰ لخَلْقه ، ويجتنبون نكاحَ الأهل والأقارب ، ويرونه مُضوِياً لخَلْق الولد ، بعيداً من نَجابته ، وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اغترِبُوا . . لا تُضوُوا »[5] .

ورُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالىٰ عنه أنه قال : (يا بَني السائبِ ؛ قد أضوَيتُم ، فانكِحُوا في الغرائب)[6] .

---

(١) رواه ابن ماجه (١٨٦١) ، والبيهقي في « الكبرىٰ » (٧/ ٨١) عن سيدنا عُوَيم بن ساعدة رضي الله عنه ، وأعذب أفواهاً : أحلىٰ كلاماً ؛ لعدم تعودهن فحش الكلام بمخالطة الرجال ، أو أطيب ريقاً .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (١٧٩٩١) من قول سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، والطبراني في « الأوسط » (٧٦٧٣) عن سيدنا جابر رضي الله عنه ، وأقل خباً : خداعاً ومكراً ، علىٰ أنه لم يدنسها لامس ، ولا استغشاها لابس ، ولها الوجه الحيي ، والطرف الخفي ، واللسان العيي ، والقلب النقي .

(٣) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (١٩/ ٤١٦) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٤/ ٥٠) عن سيدنا معاوية بن حَيْدة رضي الله عنه .

(٤) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٢٢١) ، وزاد فيه : (ومن لم يشترِ . . فلا عبدَ) .

(٥) أورده الحربيّ في « غريب الحديث » (٢/ ٣٧٩) ، و« عيون الأخبار » (٢/ ٦٧) من كلام العرب ، ولا تُضوُوا : لا تأتوا بأولاد مهازيل ضاوين . ونقل في « منهاج اليقين » (ص ٢٨٤) عن القسطلاني قوله : (وتوقف السبكي في هـٰذا الحكم ؛ لعدم صحة الحديث الدال عليه ؛ فقد قال ابن الصلاح : لم أجد له أصلاً معتمداً . قال السبكي : فلا ينبغي إثباته لعدم الدليل . وقال الحافظ زين الدين العراقي : والحديث المذكور إنما يعرف من قول عمر) رضي الله عنه وأرضاه .

(٦) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (١٤٣٧) ، و« عيون الأخبار » (٢/ ٦٦) .

وقال الشاعر : [من الطويل]

تجاوزتُ بنتَ العمِّ وَهْيَ حبيبةٌ   مَخافةَ أنْ تُضوي عليَّ سَلِيلي

وكان حكماء المتقدِّمين يرون أن **أنجب الأولاد خَلقاً وخُلقاً** : مَن كانت سنُّ أمِّه ما بين العشرين والثلاثين ، وسنُّ أبيه ما بين الثلاثين والخمسين .

والعرب تقول : (**إنَّ ولد الغيرىٰ لا ينجُبُ** ، وإنَّ أنجبَ النساءِ الفَرُوكُ)[1] لأنَّ الرجل يغلبها على الشبه ؛ لزهدها في الرجال .

وقالوا : (**إن الرجل إذا أكره المرأةَ وهي مذعورةٌ ، ثم أُذكِرتْ . . أنجبت**)[2] .

والحال الثانية : أن يكون المقصود به القيامَ بما يتولاه النساء من تدبير المنازل ؛ **فهٰذا وإن كان مختصّاً بمعاناة النساء . . فليست ألزمَ حالتي الزوجات** ؛ لأنه قد يجوز أن يعانيَه غيرُهنَّ من النساء ، ولذلك قيل : (**المرأة ريحانة ، وليست بقَهْرَمانة**)[3] .

وليس في هٰذا القصد تأثيرٌ في دِين ، ولا قدحٌ في مروءة ، **والأحمدُ في مثل هٰذا** : التماسُ ذوات الأسنان والحُنْكة ممَّن قد خَبِرت تدبير المنازل ، وعرفت عادات الرجال ، فإنهنَّ أقومُ بهٰذه الحال .

والحال الثالثة : أن يكون المقصود به الاستمتاعَ ، **وهٰذه أذمُّ الأحوال الثلاثة** ، وأوهنُها للمروءة ؛ **لأنَّه ينقاد فيه لأخلاقه البهيميّة** ، ويتابع شهواته الذميمة ، وقد قال الحارث بن النضر الأزديّ : (**شرُّ النكاح نكاحُ الغُلْمة**) .

---

(١) **الغيرىٰ** : الشرهة الراغبة ، **والفَرُوك** : العفيفة الزاهدة .

(٢) أورده في « عيون الأخبار » (٢/ ٦٥) ، و« شرح ديوان الحماسة » (١/ ٨٧) ، **وأُذكرت** : بالبناء للمفعول ؛ يعني : جُومعت ، **وأنجبت** : لأن شهوتها لا تزيد علىٰ شهوته حينئذٍ ، وأيضاً يسكن غضبها بميل الزوج إليها وتطييب قلبها فتعلق به وهي كاظمة لغيظها ، وحالة الكظم تحرك القوى العقلية ، والغضب مع الكظم والتيقظ مادة النجابة ، وأيضاً الغضب يزيد حسن الجميلة ؛ وذلك يورث شدة حب زوجها .

(٣) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٢١٥) ، و« عيون الأخبار » (١/ ١٧٠) من قول الحجّاج ، **والقهرمان** : الخازن والوكيل في الأمور .

إلا أن يفعل ذلك لكسر الشهوة وقهرها بالإضعاف لها عند الغلبة ، أو تسكين النفس عند المنازعة ؛ حتىٰ لا تطمحَ له عينٌ بريبة ، ولا تنازعه نفسٌ إلىٰ فجور ، ولا يلحقه في ذلك ذمٌّ ، ولا يناله وَصْمٌ ، وهو بالحمد أجدرُ ، وبالثناء أحقُّ .

ولو تنزَّه في مثل هٰذه الحال عن استبذال الحرائر إلى الإماء . . كان أكملَ لمروءته ، وأبلغ في صيانته .

وهٰذه الحال تقف علىٰ شهوات النفوس ، لا يمكن أن يرجح فيها أَولى الأمور ، ثم هي أخطر الأحوال بالمنكوحة ؛ لأنَّ للشهوات غاياتٍ متناهية ، يزول بزوالها ما كان متعلِّقاً بها ، فتصير الشهوة في الابتداء كراهيةً في الانتهاء ؛ ولذلك كرهت العرب البنات ووأدتهنَّ إشفاقاً عليهنَّ ، وحمية لهنَّ من أن يبتذلهنَّ اللئام بمثل هٰذه الحال ، وكان مَن تحوَّب من قتل البنات ؛ لرقّة أو محبّة . . كان موتُهنَّ أحبَّ إليه ، وآثرَ عنده .

خُطِب إلىٰ عَقيل بن عُلَّفةَ ابنته الجَرْباء ، فقال : [من مشطور الرجز]

إنِّي وإنْ سِيقَ إليَّ المَهْرُ
ألفٌ وعَبدانِ وذَوْدٌ عَشْرُ
أَحبُّ أصهاري إليَّ القَبْرُ[1]

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر[2] : [من الطويل]

لكلِّ أبي بنتٍ يُراعي شُؤونَها ... ثلاثةُ أصهارٍ إذا حُمِدَ الصِّهْرُ
فبَعْلٌ يُراعيها وخِدْرٌ يُكِنُّها ... وقبرٌ يُواريها وخيرُهُمُ القَبْرُ

---

(١) أورده في « زهر الآداب » (١/ ٤٨٤) ، و« بهجة المجالس » (١/ ٧٦٨) ، والجرباء : زوج يزيد بن عبد الملك ، سُمِّيت جرباء ؛ لأن النساء ينفرن عنها لتقبيحها بمحاسنها محاسنَهنَّ ، وكان أبوها شديد الغيرة .

(٢) أورده في « ديوان المعاني » (٢/ ٢٥١) ، و« زهر الآداب » (١/ ٤٨٤) .

فَصْلٌ

وأمّا المؤاخاةُ بالمودَّة وهي الرابع من أسباب الألفة . . فلأنَّها تكسب بصادق الميل إخلاصاً ومصافاة ، وتحدث بخُلوص المصافاة وفاءً وافياً ، ومحاماة صافية ، **وهٰذا أعلىٰ مراتب الألفة وعمدتُها** ؛ لأنَّ أصلَ الألفة الصفاء ، ونتيجتها الوفاء ؛ **ولذلك آخىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه** ؛ لتزيد ألفتهم ، ويقوىٰ تضافرهم وتناصرهم .

ورُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **عليكم بإخوان الصِّدق ؛ فإنَّهم زينةٌ في الرَّخاء ، وعِصمةٌ في البلاء** »[1] .

وروىٰ أبو الزبير ، عن سهل بن سعدٍ أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « **المرءُ كثيرٌ بأخيه** ، ولا خيرَ في صُحبة مَن لا يرىٰ لكَ منَ الحقِّ مثلَ ما ترىٰ له »[2] .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (**لقاءُ الإخوان جلاءُ الأحزان**)[3] .

وقال خالد بن صفوان : (**أعجزُ الناس** : مَن قصَّر في طلب الإخوان ، **وأعجزُ منه** : مَن ضيَّع مَن ظفر به منهم)[4] .

وقال عليّ بن أبي طالب لابنه الحسن عليهما السلام : (**يا بنيَّ ؛ الغريبُ مَن ليس له حبيبٌ**)[5] .

وقال ابن المعتزّ : (**مَن اتخذ إخواناً . . كانوا له أعواناً**)[6] .

وقال بعض الأدباء : (**أفضلُ الذخائر أخٌ وفيٌّ**) .

---

(١) رواه البيهقي في « شعب الإيمان »(٧٩٩٢) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٠/ ٣٦٣) عن سيدنا عمر رضي الله عنه موقوفاً .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «الإخوان» (٢٤)، وأبو الشيخ في « جزء أحاديث أبي الزبير عن غير جابر » (٢٣).

(٣) أورده في « الموشّىٰ » (ص ٢٦) .

(٤) أورده في « الموشّىٰ » (ص ٢٤) .

(٥) أورده في « ربيع الأبرار » (٤/ ٤٣٤) ، و« شرح نهج البلاغة » (١٦/ ١١٣) .

(٦) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٦١) بدون نسبة .

وقال بعض البلغاء : (صديقٌ مساعد عضدٌ وساعد) .

وقال بعض الشعراء[1] : [من الطويل]

هُمومُ رجالٍ في أمورٍ كثيرةٍ ... وهمِّي منَ الدُّنيا صديقٌ مُساعِدُ
نكونُ كرُوحٍ بين جسمَين قُسِّما ... فجسماهما جسمانِ والرُّوحُ واحِدُ

وقيل : (إنَّما سُمِّي الصديق صديقاً ؛ لصِدقه ، والعدوُّ عدوّاً ؛ لعَدْوه عليك)[2] .

وقال ثعلب : (إنَّما سُمِّي الخليل خليلاً ؛ لأنَّ محبّته تتخلَّل القلبَ ، فلا تدعُ فيه خَلَلاً إلا ملأته) ، وأنشد قولَ بشار : [من الخفيف]

قد تخلَّلْتِ مَسلكَ الرُّوحِ مِنِّي ... وبهِ سُمِّيَ الخَليلُ خَليلا[3]

والمؤاخاة في الناس قد تكون علىٰ وجهين ؛ أحدهما : أخوةٌ مكتسبةٌ بالاتفاق الجاري مجرى الاضطرار ، والثاني : أخوةٌ مكتسبةٌ بالقصد والاختيار .

فأمّا المكتسبة بالاتفاق . . فهي أوكدُ حالاً ؛ لأنَّها تنعقد عن أسبابٍ تقود إليها .

والمكتسبة بالقصد تُعقَد لها أسبابٌ تُقاد إليها .

وما كان جارياً بالطبع . . فهو ألزمُ ممّا هو حادث بالقصد ، ونحن نبدأ بالوجه الأول المكتسب بالاتفاق ، ثم نعقبه بالوجه الثاني المكتسب بالقصد .

أمّا المكتسب بالاتفاق : فله أسباب يبتدىء منها ، ثم ينتقل في غاية أحواله المحدودة إلىٰ مراتب سبع ، ربما يستكملهنَّ ، وربما وقف علىٰ بعضهنَّ ، ولكلِّ

---

(١) البيتان لسيدنا عليّ رضي الله عنه في « ديوانه » (ص ١٠٢) .
(٢) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٦٤) ، و« زهر الآداب » (٢/ ٨٣٣) من قول ابن المعتز .
(٣) أورده القرطبي في « تفسيره » (٥/ ٤٠٠) ، والبيت في « ديوان بشار » (٤/ ١٦١) ، وفي « ديوان البحتري » (٣/ ١٩١٢) .

مرتبةٍ من ذلك حكمٌ خاص ، وسببٌ موجِب ؛ كما قال الشاعر[1] : [من المديد]

مــا هَــوىً إلا لــهُ سَبَــبُ يَبتــدِي منــهُ ويَنشَعِــبُ

فأول أسباب الإخاء : **التجانس في حالٍ يجتمعان فيها** ، ويأتلفان بها ؛ **فإنْ قوي التجانس** . . قوي الائتلاف به ، **وإن ضعف** . . كان ضعيفاً به ، ما لم تحدث علَّةٌ أخرىٰ يقوىٰ بها الائتلاف .

وإنَّما كان كذلك ؛ لأن الائتلاف بالتشاكل ، والتشاكل بالتجانس ، **فإذا عدم التجانس من وجهٍ** . . انتفى التشاكل من كل وجه ، **ومع انتفاء التشاكل يعدم** الائتلاف ، **فثبت أن التجانس** ـ وإن تنوَّع ـ **أصلٌ للإخاء** ، وقاعدةٌ للائتلاف .

وقد روىٰ يحيى بن سعيد ، عن عَمْرةَ ، عن عائشة رضي الله عنها ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **الأرواحُ جُنودٌ مُجنَّدةٌ ؛ فما تعارَفَ منها** . . ائتلَفَ ، **وما تناكَرَ منها** . . اختلَفَ »[2] ، وهٰذا واضحٌ ، وهي بالتجانس متعارفة ، وبفقده متناكرة .

وقد قيل في منثور الحكم : (**الأضداد لا تتفق ، والأشكال لا تفترق**)[3] .

وقال بعض الحكماء : (**بحسن تشاكل الإخوان يثبت التواصل**) .

وقال بعض الشعراء[4] : [من الطويل]

فـلا تحتقـرْ نفسـي وأنـتَ خَليلُهـا فكلُّ امرئٍ يَصبُو إلىٰ مَن يُجانسُ

وقال آخر[5] : [من الطويل]

فقلتُ أخي قالوا أخٌ مِن قَرابةٍ فقلـتُ لهُـمْ إنَّ الشُّكـولَ أقـارِبُ

---

(١) البيت لأبي نواس في « ديوانه » (ص ٢٣٩) .

(٢) رواه البخاري (٣٣٣٦) .

(٣) ذكره الوطواط في « غرر الخصائص » (ص ٣٤٩) .

(٤) أورد البيت ابن داوود الأصبهاني في « الزهرة » (١ / ١٦٩) لبعض أهل زمانه .

(٥) البيتان لأبي تمام في « ديوانه » (٤ / ٤١) ، والشُّكول : جمع شِكْل ؛ أي : بعضهم يشبه بعضاً .

نسيبيَ في رأيي وعَزمي وهِمَّتي   وإنْ فرَّقَتْنا في الأصولِ المَناسِبُ

ثم يُحدِث التجانسُ **المواصلةَ** بين المتجانسين ؛ وهي **الرتبة الثانية** من رتب الإخاء ، **وسبب المواصلة بينهما** : وجودُ الاتفاق منهما ، فصارت المواصلة نتيجةَ التجانس ، **والسبب فيه** : وجود الاتفاق ؛ **لأنَّ عدم الاتفاق منفِّرٌ** .

وقد قال الشاعر[١] : [من الكامل]

النـاسُ إنْ وافقتَهُم عَـذُبُـوا   أوْ لا فـإنَّ جَنـاهُـمُ مُـرُّ
كَـمْ مِـن رِيـاضٍ لا أنيـسَ بهـا   تُـرِكَـتْ لأنَّ طـريقَهـا وَعْـرُ

ثم تحدث عن المواصلة **رتبةٌ ثالثة** ؛ وهي **المؤانسة** ، **وسببها** : الانبساط .

ثم تحدث عن المؤانسة **رتبةٌ رابعة** ؛ وهي **المصافاة** ، **وسببها** : خُلوص النيّة .

ثم تحدث عن المصافاة **رتبةٌ خامسة** ؛ وهي **المودّة** ، **وسببها** : الثقة ، وهٰذه الرتبة هي أدنى الكمال في أحوال الإخاء ، وما قبلها أسبابٌ تقود إليها ؛ فإن اقترن بها **المعاضدة** . . **فهي الصداقة** .

ثم تحدث عن المودَّة **رتبةٌ سادسة** ؛ وهي **المحبَّة** ، **وسببها** : الاستحسان .

فإن كان سببُها الاستحسانَ لفضائل النفس . . حدثت منه **رتبةٌ سابعة** ؛ وهي **الإعظام** ، **وإن كان الاستحسان** للصورة والحركات . . حدثت منه **رتبةٌ ثامنة** ؛ وهي **العشق** ، **وسببه** : الطمع[٢] .

وقد قال المأمون[٣] : [من الرمل]

أوَّلُ العِشْـقِ مُـزاحٌ ووَلَـعْ   ثـمَّ يـزدادُ إذا زادَ الطَّمَـعْ
كـلُّ مَـن يهـوىٰ وإنْ غـالَـتْ بـهِ   رتبـةُ الملـكِ لمَـن يهـوىٰ تَبَـعْ

---

(١) أورد البيتين في « ديوان المعاني » (٢/ ٢٣٩) ، وفيه : (كم من رياض لا نظير لها) ، و« نهاية الأرب » (٦/ ١٣١) ، عذُبوا : بضم الذال ؛ أي : صاروا عذباً طيباً ومُستاغاً .

(٢) يلاحظ أن الرتبتين الأخيرتين حالتان للرتبة التي تتلو رتبة (المحبّة) ، وبذلك تكون الرتب سبعاً كما أراد المؤلف رحمه الله تعالىٰ ، والله أعلم .

(٣) أورد البيتين في « مصارع العشّاق » (٢/ ١٦٧) ؛ وفي (أ) : (كل من يهوىٰ وإن عَالَتْ به . . .) .

وهـٰذه الرتبة هي آخر الرتب المحدودة ، وليس لما جاوزها رتبةٌ مقدَّرة ، ولا حالٌ محدودة ؛ لأنَّها قد تَؤول إلىٰ ممازجة النفوس وإن تميَّزت ذواتها ، وتفضي إلىٰ مخالطة الأرواح وإن تفارقت أجسادها ، وهـٰذه حالٌ لا يمكن حصر غايتها ، ولا الوقوف عند نهايتها .

وقد قال الكنديُّ : (الصديقُ إنسانٌ هو أنت إلا أنه غيرُك)[1] .

ومثل هـٰذا القول يُحكىٰ عن أبي بكر الصديق رضي الله تعالىٰ عنه في عمر رضي الله تعالىٰ عنه حين أقطع طلحةَ بن عبيد الله أرضاً ، وكتب له بها كتاباً ، وأشهد فيه ناساً منهم عمر ، فأتىٰ طلحةُ بكتابه إلىٰ عمر ليختمه فامتنع عليه ، فرجع طلحة مغضَباً إلىٰ أبي بكر رضي الله عنه وقال : (واللهِ ؛ ما أدري أأنتَ الخليفةُ أم عمرُ ؟!) ، فقال : (بل عمرُ ، لـٰكنَّه أنا) رضي الله تعالىٰ عنهم[2] .

❁ ❁ ❁

وأمّا المكتسبة بالقصد : فلا بدَّ لها من داعٍ يدعو إليها ، وباعثٍ يبعث عليها ؛ وذلك من وجهين : رغبة ، وفاقة .

ـ فأمّا الرغبةُ : فهو أن يظهر من الإنسان فضائل تبعث علىٰ إخائه ، ويتوسَّم بجميلٍ يدعو إلى اصطفائه .

وهـٰذه الحال أقوىٰ من التي بعدها ؛ لظهور الصفات المطلوبة من غير تكلُّفٍ لطلبها ، وإنَّما يخاف عليها من الاغترار بالتصنُّع لها ؛ فليس كلُّ مَن أظهر الخير كان من أهله ، ولا كلُّ مَن تخلَّق بالحسنىٰ كان في طبعه ، والمتكلِّف للشيء مُنافٍ له إلا أن يدوم عليه مستحسِناً له في العقل ، أو متديِّناً به في الشرع ، فيصير متطبِّعاً به ، لا مطبوعاً عليه ؛ لأنَّه قد تقدَّم من قول الحكماء : (ليس في الطبع أن يكون ما ليس في الطبع)[3] .

---

(١) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٦٢) .

(٢) رواه أبو عبيد في « الأموال » (٦٩٩) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٣٧٠٢) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٩/ ١٩٤) ، وفيها : (ولـٰكنَّه أبىٰ) .

(٣) في (هـ) : (ما ليس من المتطبع) .

ثم أقول : من المتعذِّر أن تكون أخلاق الفاضل كاملةً بالطبع ، **وإنَّما الأغلب** : أن يكون بعضُ فضائله **بالطبع** ، وبعضُها **بالتطبُّع الجاري** بالعادة مجرى الطبع ، حتىٰ يصير ما تطبّع به في العادة أغلبَ عليه ممَّا كان مطبوعاً عليه إذا خالف العادة ؛ ولذلك قيل : (**العادةُ طبعٌ ثانٍ**)[1] .

وقد قال ابن الروميّ[2] : [من السريع]

واعلَمْ بأنَّ الناسَ مِن طِينةٍ يصدُقُ في الثَّلْبِ لها الثَّالِبُ

لولا علاجُ الناس أخلاقَهُمْ إذاً لَفاحَ الحَمأُ اللاَّزِبُ

ـ **وأمّا الفاقة** : فهو أن يفتقر الإنسان لوحشة انفراده ومهانة وحدته إلى اصطفاء مَن يأنس بمؤاخاته ، ويثق بنصرته وموالاته .

وقد قالت الحكماء : (**مَن لم يرغب في ثلاث.. بُلِي بستٍّ** : **مَن لم يرغب في الإخوان..** بُلِي بالعداوة والخذلان ، **ومَن لم يرغب في السلامة..** بُلِي بالشدائد والامتهان ، **ومَن لم يرغب في المعروف..** بُلِي بالندامة والخسران)[3] .

ولعَمري ؛ إنَّ إخوان الصدق من أنفس الذخائر ، وأفضل العُدَد ؛ لأنَّهم سُهَماءُ النفوس[4] ، وأولياء النوائب .

وقد قالت الحكماء : (**ربَّ صديق أودُّ مِن شقيق**) .

وقيل لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه : **أيُّ الناس أحبُّ إليك** ؟ قال : (**صديقٌ يحبِّبني إلى الناس**)[5] .

---

(١) أورده في « جمهرة الأمثال » (٢/ ٣٩) .
(٢) البيتان في « ديوانه » (١/ ١٨٦) .
(٣) أورد قسمه الأول في « غرر الخصائص » (ص ٣٤٨) .
(٤) في (ج ، د) : (شفاء النفوس) ، وسهماء النفوس : أنصباؤها من هـٰذه الدنيا الفانية .
(٥) أورد نحوه في « غرر الخصائص » (ص ٣٤٨) .

وقال ابن المعتز : (**القريبُ بعداوته بعيدٌ ، والبعيدُ بمودَّته قريبٌ**)[1] .

وقال الشاعر : [من الكامل]

لَمَــودّةٌ ممَّــن يحبُّــكَ مُخلِصــاً خيرٌ منَ الرَّحِمِ القريبِ الكاشحِ

وقال آخر[2] : [من الطويل]

يخونُكَ ذو القُربىٰ مِراراً وربَّما وفىٰ لكَ عندَ العهدِ مَن لا تُناسِبُهْ

فإذا عزم على اصطفاء الإخوان. . سبر أحوالهم قبل إخائهم ، وكشف عن أخلاقهم قبل اصطفائهم ؛ لما تقدَّم من قول الحكماء : (**اسبُرْ . . تخبُرْ**) .

ولا تبعثه الوحدة على الإقدام قبل الخبرة، ولا حسنُ الظنِّ على الاغترار بالتصنُّع ؛ **فإنَّ المَلَق مَصائدُ العقول**[3] ، والنفاقَ تدليسُ الفِطَن ، وهما سجيّة المتصنِّع ، **وليس فيمَن يكون النفاقُ والمَلَقُ بعضَ سجاياه خيرٌ يُرجىٰ** ، ولا صلاحٌ يؤمل .

ولأجل ذلك قالت الحكماء : (**اعرفِ الرجلَ من فعله ، لا من كلامه ، واعرف محبّتَه من عينه ، لا من لسانه**)[4] .

وقال خالد بن صفوان : (**إنَّما نفَقتُ عند إخواني ؛ لأنِّي لم أستعمل معهم النِّفاق ، ولا قصرت بهم عن الاستحقاق**)[5] .

وقال حمّاد عَجْرَد[6] : [من الكامل]

كَـمْ مِـن أخٍ لـكَ لسْـتَ تُنكِـرُهُ مـا دُمـتَ مـن دنيـاكَ فـي يُسْـرِ
مُتصنِّــعٍ لــكَ فــي مــودّتِــهِ يلقــاكَ بـالتَّـرحيـبِ والبِشْـرِ
فــإذا عــدا والـدَّهـرُ ذو غِيَـرٍ دهـرٌ عليـكَ عـدا مـع الـدَّهـرِ

---

(١) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٦٥) .
(٢) البيت في « ديوان بشار » (٤/ ١٦) .
(٣) **الملق** : القول الحسن مع خبث القلب .
(٤) لأن العين رائد القلب ، واللسان ترجمانه ، وفي المثل : (رُبَّ عينٍ أنم من لسان) .
(٥) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٦٢) .
(٦) أورد الأبيات في « التذكرة الحمدونية » (٤/ ٣٧٤) ، و« الشعر والشعراء » (٢/ ٧٨٠) .

فـارفـضْ بـإجمـالٍ مـودّةَ مَـن   يَقلـي المُقِـلَّ ويعشـقُ المُثـرِي
وعليـكَ مَـنْ حـالاهُ واحـدةٌ   فـي العُسـرِ إمّـا كنـتَ واليُسْـرِ

علىٰ أنَّ الإنسان موسومٌ بسِيماء مَن قارب ، ومنسوب إليه أفاعيلُ مَن صاحب ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **المرءُ معَ مَن أحبَّ** »(١) .

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام : (**الصاحبُ مناسِب**)(٢) .

وقال عبد الله بن مسعود : (ما شيءٌ أدلَّ علىٰ شيءٍ ، **ولا الدخانُ على النار من الصاحب على الصاحب**)(٣) .

وقال بعض الحكماء : (**اعرف أخاك بأخيه قبلَك**)(٤) .

وقال بعض الأدباء : (**يُظَنُّ بالمرء ما يُظَنُّ بقرينه**)(٥) .

وقال عديّ بن زيد(٦) : [من الطويل]

عنِ المَرْءِ لا تَسْأَلْ وسَلْ عن قرينِهِ   فكـلُّ قـريـنٍ بـالمُقـارَنِ يقتـدِي
إذا كنتَ في قومٍ فصاحبْ خيارَهُم   ولا تصحبِ الأردىٰ فتردىٰ معَ الردي

فلزم من هـٰذا الوجه أيضاً(٧) : أن يتحرَّز من أخلاَّء السوء ، ويُجانب صحبةَ أهل الريب ؛ ليكون موفورَ العِرض ، سليمَ الغيب ، **فلا يُلام بلائمةِ غيره** ، وهـٰذا قبل التثبُّت والارتياء ومداومة الاختبار والابتلاء . . متعذِّرٌ بل مُعوِز .

وقد ضرب ذو الرُّمّة مثلاً بالغاً فيمَن حَسُن ظاهرُه وخَبُث باطنه ، فقال(٨) : [من الطويل]

ألـم تـرَ أنَّ المـاءَ يخبُـثُ طَعمُـهُ   وإنْ كان لونُ الماءِ أبيضَ صافيا

---

(١) رواه البخاري (٦١٦٨) ، ومسلم (٢٦٤٠) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .
(٢) أورده في « شرح نهج البلاغة » (١٦/ ١١٧) ، ونسبه في « العقد الفريد » (٣/ ٧٦) لأكثم بن صيفيّ .
(٣) أورده في « الصداقة والصديق » (ص ٤٠) ، و« البصائر والذخائر » (٧/ ١٧٩) .
(٤) أورده في « الكشكول » (٢/ ٤٢١) .
(٥) أورده الجاحظ في « رسائله » (١/ ١٢٦) .
(٦) انظر « ديوانه » (ص ١٠٦) ، وفي (أ) : (وأبصرْ قرينَه) .
(٧) وهو الهلاك مع الهالكين .
(٨) البيت في « ديوانه » (٣/ ١٩٢١) ، وذو الرمة ـ بضم الراء وقد تكسر ـ : هي في الأصل قطعة حبلٍ =

ونظر بعض الحكماء إلىٰ رجلٍ سوءٍ حسنِ الوجه ، فقال : (**أمّا البيتُ . . فحسنٌ ، وأمّا الساكنُ . . فرديءٌ**)[1] .

فأخذ جَحْظةُ هٰذا المعنىٰ فقال[2] : [من الخفيف]

ربِّ مـا أبيـنَ التبـايُـنَ فيـهِ منـزلٌ عـامـرٌ وعقـلٌ خـرابُ

وأنشدني بعض أهل العلم : [من البسيط]

لا تـركنَـنَّ إلـىٰ ذي منظـرٍ حسَـنٍ فـربَّ رائقـةٍ قـد سـاءَ مَخبـرُهـا
مـا كـلُّ أصفـرَ دينـارٌ تصـرِّفُـهُ صُفرُ العقاربِ أَدهاها وأنكرُها

ثم قد تقدَّم من كلام الحكماء : (**مَن لم يقدِّم الامتحانَ قبل الثقة ، والثقةَ قبل الأنس . . أثمرت مودّتُه ندماً**)[3] .

وقال بعض البلغاء : (**مصارمةٌ قبل اختبار أفضلُ من مؤاخاةٍ على اغترار**) .

وقال بعض الأدباء : (**لا تثِقْ بالصديق قبل الخبرة ، ولا توقعْ بالعدوِّ قبل القدرة**)[4] .

وقال بعض الشعراء[5] : [من البسيط]

لا تحمَـدَنَّ امـرأً حتّـىٰ تُجـرِّبَـهُ ولا تـذُمَّنَّـهُ مِـن غيـرِ تجـريـبِ
فحَمـدُكَ المـرءَ مـا لـم تَبلُـهُ خطـأٌ وذَمُّكَ المرءَ بعدَ الحمدِ تكذيبُ

= بالية ، قيل : علقت له تميمة في صغره فلُقب بذلك ، وقيل : لقبته محبوبته (مي) عندما استسقاها وعلىٰ كتفه قطعة حبل بالية ، فقالت له : اشرب يا ذا الرمة ، فكان أحب أسمائه إليه ، واسمه : غيلان بن عقبة . انظر « منهاج اليقين » (ص ٢٩٩) .

(١) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ١٧٦) ، و« البصائر والذخائر » (٢/ ٩٤) .

(٢) البيت في « ديوانه » (ص٤٢) .

(٣) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٦٤) ، و« التذكرة الحمدونية » (٤/ ٣٦٣) من قول جعفر بن محمد رحمه الله تعالىٰ .

(٤) أورده في « لباب الآداب » (ص ٦٠) .

(٥) البيتان لأبي الأسود الدؤليّ في « ديوانه » (ص ٣٨٧) ، وفي (هـ) : (وذمُّه بعدَ حمدٍ شرُّ تكذيبِ) بلا إقواء .

فإذْ قد لزم من هٰذين الوجهين سبرُ الإخوان قبل إخائهم[١] ، وخبرةُ أخلاقهم قبل اصطفائهم . . فالخصالُ المعتبرة في إخائهم بعد المجانسة التي هي أصل الاتفاق أربعُ خصال :

فالخصلة الأولىٰ : عقلٌ موفور يهدي إلىٰ مراشد الأمور ؛ فإنَّ الحُمقَ لا تثبت معه مودَّة ، ولا تدوم لصاحبه استقامة .

وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « البَذاءُ لُؤمٌ ، وصحبةُ الأحمقِ شُؤمٌ »[٢] .

وقال بعض الحكماء : (عداوةُ العاقل أقلُّ ضرراً من مودّة الأحمق)[٣] لأنَّ الأحمق ربَّما ضرَّ وهو يقدِّر أنه ينفع ، والعاقل لا يتجاوز الحدَّ في مضرّته ، فمضرّتُه لها حدٌّ يقف به عليه العقل ، ومضرّةُ الجاهل ليست بذات حدٍّ ، فالمحدود أقلُّ ضرراً من غير المحدود .

وقال المنصور للمسيّب بن زهير : (ما مادّةُ العقل ؟ فقال : مجالسةُ العقلاء) .

وقال بعض البلغاء : (من الجهل : صحبةُ ذوي الجهل ، ومن المِحَال : مجادلةُ ذوي المِحَال)[٤] .

وقال بعض الأدباء : (مَن أشار عليك باصطناع جاهلٍ أو عاجزٍ . . لم يخلُ :

---

(١) الوجهين ؛ أي : المدح والذم .

(٢) كذا أورده في « محاضرات الأدباء » (٢/ ٤٤) ، وروىٰ أوله ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٣٢٣) ، والخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٦٨) ، وباقيه أورده في « كنز العمال » (٤٤٢١٥) ، و« شرح نهج البلاغة » (٢٠/ ٢٧١) من وصية سيدنا علي رضي الله عنه .

(٣) رواه الخطّابي في « العزلة » (ص ٥٧) عن بعض الأعراب ، وأورده في « نهاية الأرب » (٣/ ٣٥٥) من قول سهل بن هارون رحمه الله تعالىٰ .

(٤) أورده في « نهاية الأرب » (٦/ ١٣٢) ، ومن المِحال ـ علىٰ وزن كتاب ـ يجيء لمعانٍ مثل : الكيد ، وتسخير أمر بالحيلة ، والتدبير والقدرة ، والعذاب والعقاب ، ومجادلة ذوي المحال : هو إما بكسر الميم أيضاً ؛ فالمعنىٰ : من الهلاك أو العذاب والعقاب مجادلة أصحاب التدبير والعقل ، أو بفتحها : جمع (محل) أي : مجادلة أرباب المنازل وأصحاب المناصب .

إمّا أن يكون صديقاً جاهلاً ، أو عدوّاً عاقلاً ؛ **لأنّه يشير بما يضرُّ بك** ، ويحتال فيما يضع منك) .

وقال بعض الشعراء[1] : [من الوافر]

إذا ما كنتَ متَّخِذاً خليلاً ... فلا تثِقَنْ بكلِّ أخي إخاءِ

فإن خُيِّرتَ بينهُمُ فألصِقْ ... بأهلِ العقلِ منهُمْ والحياءِ

فإنَّ العقلَ ليس له إذا ما ... تفاضلَتِ الفضائلُ مِن كِفاءِ

* * *

والخصلة الثانية : الدِّين الواقف بصاحبه على الخيرات ؛ **فإنَّ تاركَ الدِّين عدوُّ نفسه** ، **فكيف يُرجىٰ منه مودّةُ غيره ؟!**

وقال بعض الحكماء : (**اصطفِ منَ الإخوان ذا الدِّين والحسَب** ، والرأي والأدب ؛ **فإنَّهم رِدْءٌ لك عند حاجتك** ، ويدٌ عند نائبتك ، **وأنسٌ عند وحشتك** ، وزَينٌ عند عافيتك) .

وقال حسان بن ثابت رضي الله تعالىٰ عنه[2] : [من الوافر]

أخِلّاءُ الرَّخاءِ هُمُ كثيرٌ ... ولٰكنْ في البَلاءِ هُمُ قليلُ

فلا يغرُرْكَ خُلّةُ مَن تُؤاخِي ... فما لكَ عندَ نائبةٍ خليلُ

وكلُّ أخٍ يقولُ أنا وفيٌّ ... ولٰكنْ ليسَ يفعلُ ما يقولُ

سوىٰ خِلٍّ له حسَبٌ ودِينٌ ... فذاكَ لما يقولُ هو الفَعُولُ

وقال آخر : [من الكامل]

مَن لم تكنْ في الله خُلّتُهُ ... فخليلُهُ منهُ علىٰ خَطَرِ

* * *

والخصلة الثالثة : أن يكون محمودَ الأخلاق ، مرضيَّ الأفعال ، **مؤثراً**

---

(١) أورد الأبيات في « البيان والتبيين » (١/ ٢٤٤) ، و« الأغاني » (١٩/ ٦٦٥٣) لأبي عطاء السِّنديّ .

(٢) الأبيات في « ديوانه » (١/ ٥٠٦) .

للخير ، آمراً به ، كارهاً للشرِّ ، ناهياً عنه ؛ فإنَّ مودّة الشرِّير تكسب الأعداءَ ، وتفسد الأخلاق ، ولا خيرَ في مودّةٍ تجلب عداوة ، وتورث مذمّةً وملامة ؛ فإنَّ المتبوعَ تابعٌ صاحبَه[1] .

وقال عبد الله بن المعتزّ : (إخوانُ السوء كشجر النار يُحرق بعضُه بعضاً)[2] .

وقال بعض الحكماء : (مخالطةُ الأشرار خطَرٌ ، والصبرُ علىٰ صحبتهم كركوب البحر ، الذي مَن سلم ببدنه من التلَف فيه . . لم يسلم بقلبه من الحذر منه)[3] .

وقيل : (صحبةُ الأشرار تورث سوءَ الظنِّ بالأخيار)[4] .

وقال بعض البلغاء : (إنَّ من خير الاختيار صحبةَ الأخيار ، ومن شرِّ الاختيار صحبةَ الأشرار) .

وقال بعض الشعراء وهو سراقةُ البارقيُّ[5] : [من الوافر]

مُجالسةُ السَّفيهِ سَفاهُ رأيٍ ... ومن عقلٍ مُجالسةُ الحليمِ
فإنَّكَ والقرينَ معاً سواءٌ ... كما قُدَّ الأديمُ مِنَ الأديمِ

والخصلة الرابعة : أن يكون من كلِّ واحدٍ منهما ميلٌ إلىٰ صاحبه ، ورغبةٌ في مؤاخاته ؛ فإنَّ ذلك أوكدُ لحال المؤاخاة ، وأمدُّ لأسباب المصافاة ؛ إذ ليس كلُّ مطلوب إليه طالباً ، ولا كلُّ مرغوبٍ إليه راغباً ، ومَن طلب مودّةَ ممتنعٍ عليه ،

---

(١) في (أ) : (فإن المسبوع سابع صاحبه) ، والمسبوع : من يُرمىٰ بالقول القبيح ، يقال : هو أرقع من مسبوع .

(٢) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص٤٦٤) ، و« تحسين القبيح » (ص ١٠٤) ، و« التذكرة الحمدونية » (٤/ ٣٦١) ، وفي (هـ) : (كشجر النارنج) .

(٣) أورده في « نثر الدرّ » (٤/ ١٩٦) .

(٤) أورده في « كليلة ودمنة » (ص١٣٧) ، و« الإمتاع والمؤانسة » (ص٣٦٤) .

(٥) البيتان في « ديوانه » (ص٤٧) .

ورغب إلىٰ زاهدٍ فيه . . كان معنّىً خائباً ؛ كما قال البحتريّ[1] : [من الكامل]

وطلبتُ منكِ مودّةً لم أُعطَها ... إنَّ المُعنَّىٰ طالبٌ لا يظفَرُ

وقال العبَّاس بن الأحنف[2] : [من الطويل]

فإنْ كان لا يُدنيكَ إلا شفاعةٌ ... فلا خيرَ في وُدٍّ يكونُ بشافعِ

فأُقسِمُ ما تَرْكي عتابَكَ عن قِلىً ... ولٰكنْ لعِلمي أنَّهُ غيرُ نافعِ

وأنِّي إذا لم أَلزمِ الصَّبرَ طائعاً ... فلا بدَّ منه مُكرَهاً غيرَ طائعِ

فإذا استكملت هٰذه الخصال في إنسانٍ . . وجب إخاؤه ، وتعيَّن اصطفاؤه ، وبحسَب وُفورها فيه يجب أن يكون الميل إليه ، والثقة به ، وبحسَب ما يرىٰ من غلبة إحداها عليه يجعله مستعملاً في الخُلق الغالب عليه ؛ فإنَّ الإخوان علىٰ طبقات مختلفة ، وأنحاء متشعِّبة ، ولكلِّ واحدٍ منهم حال يختصُّ بها في المشاركة ، وثُلْمة يسدُّها في المؤازرة والمظافرة ، وليس تتفق أحوالُ جميعِهم علىٰ حدٍّ واحد ؛ لأنَّ التباين في الناس غالب ، واختلافهم في الشِّيَم ظاهر .

وقد قال بعض الحكماء : (الرجال كالشجر ؛ شرابه واحد ، وثمره مختلف) .

وأخذ هٰذا المعنىٰ منصور بن إسماعيل الفقيه فقال[3] : [من الهزج]

بَنُو آدمَ كالنَّبْتِ ... ونَبْتُ الأرضِ ألوانُ

فمنهُ شجَرُ الصَّنْدَ ... لِ والكافورُ والبانُ

ومنهُ شجَرٌ أفضَـ ... ـلُ ما يحملُ قطْرانُ

ومَن رام إخواناً تتفق أحوالُ جميعهم . . فقد رام أمراً متعذِّراً ؛ بل لو اتفقوا . .

---

(1) البيت في « ديوانه » (٢/ ١٠٧٠) .

(2) الأبيات في « ديوانه » (ص ١٩٧) .

(3) أورد الأبيات في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٢٧٥) ، والمعنى : الرجال كالنبات ؛ فمنهم : رجال ينتفع بهم الأحياء كالصندل ، ومنهم : من ينتفع بهم الأموات كالكافور ، ومنهم : من ينتفع بهم المرضىٰ كالبان ، ومنهم : من نفعه قليل وأذيته أكثر كالقطران .

لكان ربما وقع به خلَل في نظامه ؛ إذ ليس الواحد من الإخوان يمكن الاستعانة به في كل حال ، ولا المجبولون على الخُلق الواحد يمكن أن يتصرَّفوا في جميع الأعمال ، وإنَّما بالاختلاف يكون الائتلاف .

وقد قال بعض الحكماء : (ليس بلبيب مَن لم يعاشر بالمعروف مَنْ لم يجدْ من معاشرته بدّاً)[١] .

وقال المأمون : (الإخوانُ ثلاث طبقات : طبقةٌ كالغذاء لا يُستغنىٰ عنه ، وطبقةٌ كالدواء يُحتاج إليه أحياناً ، وطبقةٌ كالداء لا يُحتاج إليه أبداً)[٢] .

ولعَمري ؛ إنَّ الناس علىٰ ما وصفهم لا الإخوان ، وليس مَن كان منهم كالداء من الإخوان المعدودين ، بل هم من الأعداء المحذورين ، وإنما يُداجَون بالمودّة استكفافاً لشرِّهم[٣] ، وتحرُّزاً من مكاشفتهم ، فدخلوا في أعداد الإخوان بالمظاهرة والمساترة ، وفي الأعداء عند المكاشفة والمجاهرة .

وقد قال بعض الحكماء : (مثَلُ العدوِّ الضاحك إليك كالحنظلة الخضرة أوراقُها ، القاتل مذاقُها)[٤] .

وقد قيل في حكم الفرس : (لا تغترنَّ بمقاربة العدو ؛ فإنَّه كالماء ، إنْ أُطِيل إسخانُه بالنار . . لم يمنع من إطفائها)[٥] .

وقال يزيد بن الحكم الثقفيُّ[٦] : [من الطويل]

تُكاشِرُني كُرْهاً كأنَّكَ ناصحٌ ... وعينُكَ تُبدي أنَّ صدرَكَ لي دَوِي
لسانُكَ معسولٌ ونفسُكَ عَلْقَمٌ ... وشرُّكَ مبسوطٌ وخيرُكَ مُلتوِي

---

(١) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٨٨٩) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٧٠٤) ، وابن حبان في « روضة العقلاء » (١٩٧) عن محمد ابن الحنفيّة رحمه الله تعالىٰ .

(٢) أورده في « عيون الأخبار » (٣/٣) ، و« المحاسن والأضداد » (ص ٤٠) .

(٣) يداجَون ؛ أي : يساترون عداوتهم .

(٤) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٣) .

(٥) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٢٦٣) ، وفي « كليلة ودمنة » (ص ١٩١) .

(٦) أورد الأبيات القالي في « الأمالي » (٦٨/١) ، و« لباب الآداب » (ص ٣٩٧) ، ودَوِيَ صدرُه : ضَغِنَ .

فليتَ كَفافاً كانَ خيرُكَ كلُّهُ وشرُّكَ عنِّي ما ارتَوى الماءَ مُرتوِي

فإذا خرج مَن كان كالداء من عداد الإخوان.. فالإخوانُ هم الصنفان الآخران ؛ مَن كان منهم كالغذاء ، أو كالدواء ؛ **لأنَّ الغذاء قوام النفس** وحياتها ، **والدواء علاجها** وصلاحها ، **وأفضلهما** مَن كان كالغذاء ؛ **لأنَّ الحاجة إليه أعمُّ** .

وإذا تميَّز الإخوان.. وجب أن يُنزَّل كلُّ واحدٍ منهم حيث تنزَّلت به أحواله إليه ، واستقرَّت خصاله وخلاله عليه ، **فمَن قويت أسبابه..** قويت الثقةُ به ، **وبحسَب الثقة به يكون الركون إليه** ، والتعويل عليه .

قال الشاعر[1] : [من الكامل]

ما أنتَ بالسَّببِ الضَّعيفِ وإنَّما نَجْحُ الأمورِ بقوّةِ الأسبابِ
فاليومَ حاجتُنا إليكَ وإنَّما يُدعى الطَّبيبُ لشدةِ الأوصابِ

وقد اختلفت مذاهب الناس في اتخاذ الإخوان :

فمنهم : مَن يرىٰ أنَّ الاستكثار منهم أَولىٰ ؛ **ليكونوا أقوىٰ منعةً ويداً** ، وأوفرَ تحنُّناً وتودُّداً ، **وأكثرَ تعاوناً وتفقُّداً** .

وقيل لبعض الحكماء : (**ما العيشُ** ؟ فقال : **إقبالُ الزمان** ، وعزُّ السلطان ، **وكثرةُ الإخوان**)[2] .

وقيل : (**حليةُ المرء كثرةُ إخوانه**) .

ومنهم : مَن يرىٰ أنَّ الإقلال منهم أَولىٰ ؛ **لأنَّه أخفُّ أثقالاً وكُلَفاً** ، وأقلُّ تنازعاً وخُلْفاً .

وقد قال الإسكندر : (**المستكثِرُ من الإخوان من غير اختبار** كالمستوقر من

---

(١) البيتان لعلي بن الحسن الباخرزيّ في « ديوانه » (ص ٨٠) ، **ونَجْح الأمور** : الظفر بالحاجة ؛ أي : ما أنت بسبب ضعيف باعتمادنا عليك ، ووثوقنا بك ، وكيف نحسبك ضعيفاً والظفر بالأمور العظام بالأسباب القوية ؟!

(٢) أورده في « المحاسن والمساوىء » (ص ٢٦٩) ، ونحوه في « الصداقة والصديق » (ص ٦٤) عن عبد الملك بن صالح .

الحجارة[١] ، والمقِلُّ من الإخوان المتخيِّرُ لهم كالذي يتخيَّر الجوهر) .

وقال عمرو بن العاص رضي الله عنه : (مَن كثر إخوانُه . . كثر غرماؤُه)[٢] .

وقال إبراهيم بن العبّاس : (مثلُ الإخوان كالنار ؛ قليلُها متاع ، وكثيرُها بَوار)[٣] .

ولقد أحسن ابن الروميّ في هٰذا المعنىٰ ، ونبَّه على العلّة حيث يقول[٤] : [من الوافر]

عَـدوُّكَ مـن صـديقِـكَ مُستفـادٌ ... فـلا تَستكثِـرَنَّ مـنَ الصِّحـابِ

فـإنَّ الـداءَ أكثـرَ مـا تَـراهُ ... يكـونُ مـنَ الطَّعـامِ أو الشَّـرابِ

فـدَعْ عنـكَ الكثيـرَ فكـم كثيـرٍ ... يُعـافُ وكـم قليـلٍ مُستطـابِ

إذا انقلـبَ الصَّـديـقُ غـدا عـدوّا ... مُبينـاً والأمـورُ لهـا انقـلابُ

فمـا اللُّجَـجُ المِـلاحُ بمُـروِيـاتٍ ... وتَلقى الرِّيَّ في النُّطَفِ العِذابِ

وقال بعض البلغاء : (ليكن غرضُك في اتخاذ الإخوان الأخلاّء واصطناع النُّصَحاء تكثيرَ العُدّة ، لا تكثيرَ العِدّة ، وتحصيلَ النفع ، لا تحصيلَ الجمع ، فواحدٌ يحصِّل به المرادَ . . خيرٌ من ألفٍ يكثِّر الأعدادَ) .

وإذا كان التجانس والتشاكل من قواعد الأخوّة وأسباب المودّة . . كان وُفور العقل وظهورُ الفضل يقتضي من حال صاحبه قلّةَ إخوانه ؛ لأنَّه يروم مثلَه ، ويطلب شِكْلَه ، وأمثالُه من ذوي العقل والفضل أقلُّ من أضداده من ذوي الحمق والنقص ؛ لأنَّ الخِيار في كل جنسٍ هو الأقلُّ ، فلذلك قلَّ وُفورُ العقل والفضل ؛ وقد قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ،

---

(١) المستوقر : المتخذ حملاً ثقيلاً من الحجارة .
(٢) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٣١) ، و« زهر الآداب » (١/ ٥٥) .
(٣) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص٤٦٢) ، و« البصائر والذخائر » (٩/ ٣٩) .
(٤) الأبيات في « ديوانه » (١/ ٢٣١) ؛ وفيه : (والأمورُ إلى انقلاب) ، وعليه فلا إقواء .

فقلَّ لهٰذا التعليل إخوانُ أهل الفضل ؛ لقلّتهم ، وكثر إخوان ذوي النقص والجهل ؛ لكثرتهم .

وقال الحكيم : (**المرءُ حيث يجعل نفسَه ؛ إنْ صانَها** . . ارتفعت ، **وإنْ قصَّر بها** . . اتَّضعت)[1] .

وقد قال في ذلك الشاعر[2] : [من الطويل]

لكلِّ امرىءٍ شِكْلٌ منَ الناسِ مثلُهُ	فـأكثـرُهـم شِكْـلاً أقلُّهُـمُ عَقْـلا
وكـلُّ أُنـاسٍ آلِفـونَ لشِكْلِهِـمْ	فـأكثـرُهُـمْ عَقـلاً أقلُّهُـمُ شِكْـلا
لأنَّ كثيـرَ العقـلِ ليـسَ بـواجـدٍ	لـه في طريـقٍ حيـنَ يسلكُـهُ مِثْلا
وكـلُّ سفيـهٍ طـائـشٍ إنْ فقـدتَـهُ	وجدْتَ له في كلِّ ناحيةٍ عِدْلا

* * *

وإذا كان الأمر علىٰ ما وصفنا . . **فقد تنقسم أحوال مَن دخل في عداد الإخوان أربعة أقسام** : **منهم** : مَن يعين ويستعين ، **ومنهم** : مَن لا يعين ولا يستعين ، **ومنهم** : مَن يستعين ولا يعين ، **ومنهم** : مَن يعين ولا يستعين .

فأمّا المعين المستعين . . فهو معاوِضٌ منصف ؛ **يؤدِّي ما عليه** ، ويستوفي ما له ، **فهو كالمقرِض** ؛ يُسعف عند الحاجة ، ويستردُّ عند الاستغناء ، **فهو مشكورٌ في معونته** ، ومعذورٌ في استعانته ، **وهٰذه أعدل أحوال الإخوان** .

* * *

وأمّا مَن لا يعين ولا يستعين . . فهو متارِك ؛ **قد منع خيره** ، **وقمع شرَّه** ، فلا هو صديق يُرجىٰ ، ولا عدوٌّ يُخشىٰ .

وقد قال المغيرة بن شعبة : (**التاركُ للإخوان متروكٌ**)[3] .

ومَن كان كذلك . . فهو كالصورة الممثَّلة ؛ **يروعك حسنها** ، ويخونك

---

(١) أورده في « محاضرات الأدباء » (١/ ٦٢٤) عن عمرو بن العاص رضي الله عنه ، والقول زيادة من (ج) .

(٢) أورد الأبيات في « الزهرة » (٢/ ٢٩٧) ، والبيتين الأولين في « العزلة » (ص ٤٥) .

(٣) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٦١) .

نفعها ، فلا هو مشكور لمنع خيره ، ولا هو مذموم لقمع شره ، وإنْ كان بالذمِّ أجدرَ .

وقال الشاعر[1] : [من الطويل]

وأسوأُ أيّامِ الفتىٰ يومُ لا يُرىٰ ... لـه أحـدٌ يُـزرِي عليـه ويُنكِـرُ

غير أنَّ فساد الوقت وتغيُّر أهله يوجب شكر مَن كان شرُّه مقطوعاً وإنْ كان خيرُه ممنوعاً ؛ كما قال المتنبي[2] : [من البسيط]

إنّـا لَفـي زمـنٍ تَـرْكُ القبيـحِ بـهِ ... مِن أكثرِ النّاسِ إحسانٌ وإجمالُ

وأمّا مَن يستعين ولا يعين . . فهو لئيم كَلٌّ ، ومَهين مستذَلٌّ ، قد قطع عنه الرغبة ، وبسط فيه الرهبة ، فلا خيره يُرجىٰ ، ولا شرُّه يؤمَن ، وحسبُكَ مهانةً برجلٍ يَستثقِلُ عند إقلاله ، ويَستقِلُّ عند استقلاله ، فليس لمثله في الإخاء حظٌّ ، ولا في الوداد نصيب ، وهو ممَّن جعله المأمون من داء الإخوان لا من دوائهم ، ومن سُمِّهم لا من غذائهم[3] .

وقال بعض الحكماء : (شرُّ ما في الكريم : أن يمنعك خيرَه ، وخيرُ ما في اللئيم : أن يكفَّ عنك شرَّه)[4] .

وقال ابن الروميّ[5] : [من الوافر]

عـذَرْنـا النَّخـلَ فـي إبداءِ شـوكٍ ... يـردُّ بـه الأنـامـلَ عـن جَنـاهُ

فمـا للعَـوسَـجِ الملعـونِ أبـدىٰ ... لنـا شـوكـاً بـلا ثمَـرٍ نَـراهُ

---

(١) أورده في « محاضرات الأدباء » (١/ ٥٢٦) لعبد الملك الحارثيّ .

(٢) البيت في « ديوانه » (٣/ ٢٨٧) .

(٣) أورده في « عيون الأخبار » (٣/ ٣) ، و« المحاسن والأضداد » (ص ٤٠) .

(٤) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ١٧٤) ، و« ربيع الأبرار » (٤/ ٦٠٩) .

(٥) البيتان في « ديوانه » (١/ ١١٣) .

وأمّا مَن يعين ولا يستعين . . فهو كريم الطبع ، مشكور الصنع ، قد حاز فضيلتي الإسداء والاكتفاء ؛ فلا يُرىٰ ثقيلاً في نائبة ، ولا يقعد عن نهضةٍ في معونة ، فهو أشرف الإخوان نفساً ، وأكرمهم طبعاً .

فينبغي لمَن أوجده الزمانُ مثلَه ـ وقلَّ أن يكونَ له مثلٌ ؛ لأنَّه البرُّ الكريم ، والدرُّ اليتيم ـ أن يثني عليه خِنصرَه ، ويعضَّ عليه ناجذَه ، ويكون به أشدَّ ضنّاً منه بنفائس أمواله ، وسَنيِّ ذخائره ؛ لأنَّ نفع الإخوان عامٌّ ، ونفع الأموال خاصٌّ ، وما كان أعمَّ نفعاً . . فهو بالادِّخار أحقُّ .

وقد قال الفرزدق[1] : [من البسيط]

يمضي أخوكَ فلا تلقىٰ لهُ خَلَفاً ... والمالُ بعدَ ذهابِ المالِ يُكتسَبُ

وقال آخر[2] : [من المنسرح]

لكلِّ شيءٍ عدِمْتَهُ عِوَضٌ ... وما لفَقْدِ الصَّديقِ مِن عِوَضِ

ثم لا ينبغي أن يزهد فيه لخُلقٍ أو خُلقين يكرههما منه إذا رضي سائر أخلاقه ، وحمد أكثر شِيَمه ؛ فإنَّ اليسير مغفور ، والكمال مُعوِز .

وقد قال الكِنديُّ : (كيف تريد من صديقك خُلقاً واحداً وهو ذو طبائعَ أربع ؟!)[3] .

مع أن نفس الإنسان التي هي أخصُّ النفوس به ، ومدبَّرة باختياره وإرادته . . لا تعطيه قِيادَها في كلِّ ما يريد ، ولا تجيب إلىٰ طاعته في كلِّ ما يحبُّ ، فكيف بنفس غيره ؟ وحسبُك أن يكون لك من أخيك أكثرُه .

وقد قال أبو الدرداء : (معاتبةُ الأخ خيرٌ من فَقْده ، ومَن لك بأخيك كلِّه ؟)[4] .

---

(١) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٧٠) ، و« نهاية الأرب » (٣/ ٧٥) .
(٢) أورده في « دمية القصر » (٢/ ٤١٤) .
(٣) أورده في « أخلاق الوزيرين » (ص ٣٩٠) ، و« الصداقة والصديق » (ص ٧١) من قول انكساغورس . والطبائع الأربع : الحرارة ، والبرودة ، والرطوبة ، واليبوسة .
(٤) رواه أبو داوود في « الزهد » (٤٦٢) ، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (١/ ٢١٥) .

فأخذ الشعراء هـٰذا المعنىٰ ، فقال أبو العتاهية[1] : [من مجزوء الكامل]

أَأُخَـيَّ مَـن لـكَ مـن بَنـي الـدُّ ... نيـا بكـلِّ أخيـكَ مَـن لَـكْ
فـٱستبـقِ بعضَـكَ لا يَمَلَّـ ... ـكَ كـلُّ مَـن أَعطَيـتَ كُلَّـكْ

وقال أبو تمّام الطائيّ[2] : [من الرجز]

مـا غُبـنَ المغبـونُ مثـلَ عَقْلِـهِ ... مَـن لـكَ يـومـاً بـأخيـكَ كلِّـهِ

وقال بعض الحكماء : (طلب الأنصاف من قلَّة الإنصاف)[3] .

وقال بعض البلغاء : (لا يزهدنَّكَ في رجلٍ حمِدتَ سيرته ، وارتضيتَ وتيرته ، وعرفتَ فضله ، وبطنتَ عقله . . عيبٌ خفيٌّ يحيط به كثرةُ فضائله ، أو ذنبٌ صغير تستغفرُ له قوّةُ وسائله ؛ فإنَّك لن تجد ما بقيتَ مهذَّباً لا يكون فيه عيبٌ ، ولا يقع منه ذنبٌ ، فاعتبر بنفسك بعد ألا تراها بعين الرضا ، ولا تجريَ فيها علىٰ حكم الهوىٰ ؛ فإنَّ في اعتبارك بها ، وفي اختبارك لها . . ما يؤيِسُك ممّا تطلب ، ويعطفك علىٰ مَن يذنب) .

وقال الشاعر[4] : [من الطويل]

ومَن ذا الذي تُرضىٰ سَجاياهُ كلُّها ... كفـى المرءَ نُبـلاً أنْ تُعَـدَّ مَعـايبُـهْ

وقال النابغة الذُّبيانيُّ[5] : [من الطويل]

ولســتَ بمُستبْـقٍ أخــاً لا تلُمُّــهُ ... علىٰ شَعَثٍ أيُّ الرجالِ المُهذَّبُ

وليس ينقض هـٰذا القولُ ما وصفنا من اختياره ، واختبار الخصال الأربع فيه ؛ لأنَّ ما أعوز معفوٌّ عنه .

---

(١) البيتان في « ديوانه » (ص٦١٥) .
(٢) البيت في « ديوانه » (٤/ ٥٣٠) .
(٣) طلب الأنصاف : جمع نصف ؛ أي : ما فوق الواحد ؛ إذ لا يكون لشيءٍ إلا نصفان ؛ يعني طلب الكل من الصديق ، من قلة الإنصاف ؛ أي : من عدم العدل . انظر « منهاج اليقين » (ص ٣٠٩) .
(٤) البيت في « ديوان علي بن الجهم » (ص ٧٩) ، ونسبه في « منهاج اليقين » (ص ٣٠٩) إلىٰ يزيد بن محمد الباهلي ، ونقل عن الإمام السيوطي : أنه المهلبي ، والله أعلم .
(٥) البيت في « ديوانه » (ص ٧٤) .

وهكذا لا ينبغي أن توحشه فترةٌ يجدها منه ، ولا أن يسيء به الظنَّ في نَبْوةٍ تكون منه ، ما لم يتحقَّق تغيُّرَه ، ولم يتيقَّن تنكُّرَه ، وليصرف ذاك إلىٰ فترات النفوس ، واستراحات الخواطر ؛ فإنَّ الإنسان قد يفتر عن مراعاة نفسه التي هي أخصُّ النفوس به ، ولا يكون ذلك من عداوةٍ لها ، ولا ملَلٍ منها .

وقد قيل في منثور الحكم : (لا يفسدك الظنُّ علىٰ صديقٍ قد أصلحكَ اليقينُ له)[1] .

وقال جعفر بن محمدٍ لابنه : (يا بنيَّ ؛ مَنْ غضب من إخوانك ثلاث مرات ، فلم يقل فيك سوءاً . . فاتخذه لنفسك خِلاًّ)[2] .

وقال الحسن بن وهب : (من حقوق المودَّة : أخذُ عفو الإخوان ، والإغضاءُ عن تقصيرٍ إن كان)[3] .

وقد رُوي عن علي بن أبي طالب عليه السلام في قوله تعالىٰ : ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ قال : (الرِّضا بغير عِتاب)[4] .

وقال ابن الروميّ[5] : [من الطويل]

هُمُ الناسُ والدُّنيا ولا بدَّ من قَذىً ... يُلِمُّ بعينٍ أو يكدِّرُ مَشرَبا

ومن قلّةِ الإنصافِ أنَّكَ تبتغي الـ ... ـمهذَّبَ في الدنيا ولستَ المهذَّبا

وقال بعض الشعراء[6] : [من الوافر]

تواصُلُنا علىٰ الأيّامِ باقٍ ... ولٰكنْ هَجْرُنا مَطَرُ الرَّبيعِ

يروعُكَ صَوْبُهُ لٰكنْ تَراهُ ... علىٰ عِلاّتِهِ داني النُّزُوعِ

---

(١) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٦٤) ، و« زهر الآداب » (٢/ ٨٣٣) من قول ابن المعتز .

(٢) أورده في « تاريخ اليعقوبي » (٢/ ٣٨٣) .

(٣) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٦٣) .

(٤) رواه في « تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس » (٩٨٥) عنه ، وفي « شعب الإيمان » (٧٩٨٦) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

(٥) أورد البيتين في « الصداقة والصديق » (ص ٣١٠) دون نسبة .

(٦) أورد الأبيات في « معجم الأدباء » (١/ ٢٤٨) ، و« مصارع العشاق » (٢/ ١٩٤) لنفطويه إبراهيم بن محمد .

مَعَــاذَ اللهِ أنْ نُلفــىٰ غِضَــابــاً ... ســوىٰ دَلِّ المُطَـاعِ علـى المُطِيـعِ

وأنشد الأزديُّ[1] : [من الكامل]

لا يـؤيِسَنَّـكَ مـن صـديـقٍ نَبـوةٌ ... ينبو الفتىٰ وهو الجَوادُ الخِضْرِمُ

فـإذا نـأىٰ فـاستبقِـهِ وتـأنَّـهُ ... حتـىٰ تفـيءَ بـهِ الطبـاعُ الأكـرمُ

وأمّا المَلُول.. فهو السريع التغيُّر ، الوشيكُ التنكُّر ، **فوداده خطَر ،** وإخاؤه غرَر ؛ **لأنَّه لا يبقىٰ علىٰ حالة ،** ولا يخلو من استحالة ؛ وقد قال ابن الروميّ[2] : [من الطويل]

إذا أنـا عـاتبـتُ المَلُـولَ فـإنَّمـا ... أخطِّطُ في صُحْفٍ منَ الماءِ أحرُفا

وهَبْهُ ارعَوىٰ بعدَ العِتابِ ألم تكُنْ ... مـودّتُـهُ طَبعـاً فصـارت تكلُّفـا

وهم نوعان : منهم : مَن يكون ملَلُه استراحة ، ثم يعود إلى المعهود من إخائه ، **فهٰذا أسلمُ الملَلين ،** وأقرب الرجلين ، **يُسامَح في وقت استراحته ، وحين فترته ؛** ليرجع إلى الحسنىٰ ، ويؤوب إلى الإخاء وإن تقدم المثَل بما نظمه الشاعر حيث يقول[3] : [من الطويل]

وقالوا يعودُ الماءُ في النَّهرِ بعدَما ... عَفَـتْ منـهُ آثـارٌ وجَفَّـتْ مَشـارِعُـهْ

فقلتُ إلىٰ أن يرجعَ الماءُ عائداً ... ويُعشِـبَ شَطّـاهُ تمـوتُ ضَفـادِعُـهْ

ولٰكن لا يُطـرَح حقُّه بالتوهُّم ، ولا تسقط حرمتُه بالظُّنون ، وقد قال الشاعر : [من الوافر]

إذا مـا حـالَ عهـدُ أخيـكَ يـومـاً ... وحـادَ عـن الطـريـقِ المستقيـمِ

---

(١) أورد البيتين في « التذكرة الحمدونية » (٨/ ١٥٩) ، و« محاضرات الأدباء » (٢/ ٣٧٠) .

(٢) أورد البيتين في « التذكرة الحمدونية » (٥/ ٥٢) ، و« من غاب عنه المطرب » (ص ١٨٧) لأبي الحسن الناشىء الأصغر .

(٣) أورد البيتين في « يتيمة الدهر » (٣/ ٤٨٣) لأحمد بن بندار .

فـلا تعجَـلْ بلَـوْمِـكَ واستـدِمْـهُ   فـإنَّ أخـا الحِفـاظِ المُسـتـديـمِ[1]
فـإنْ تَـكُ زَلّــةٌ منــهُ وإلا   فـلا تبعُـدْ عـن الخُلُـقِ الكـريـمِ

ومنهم : مَن يكون ملَلُه تركاً واطِّراحاً ، **لا يراجع إخاءً ولا ودّاً** ، ولا يتذكَّر حفاظاً ولا عهداً ؛ كما قال الأشجع بن عمرو السُّلَميُّ : [من الكامل]

إنِّـي رأيـتُ لهـا مُـواصَلـةً   كـالسُّـمِّ تُفـرغُـه علـى الشَّهـدِ
فــإذا أخــذتُ بعهــد ذِمّتِهــا   لعِـبَ الصُّـدودُ بـذلـكَ العَهـدِ

وهٰذا أذمُّ الرجلين حالاً ؛ لأنَّ مودّته من وساوس الخطرات ، وعوارض الشهوات ، **وليس إلا استدراك الحال معه** بالإقلاع قبل الخِلْطة ، أو حسن المُتارَكة بعد الورطة ؛ كما قال العبّاس بن الأحنف : [من المتقارب]

تــداركْــت نفســي فعــزَّيْتُهــا   ونغَّصتُهــا فيــكَ آمــالَهــا
ومـا طـابـتِ النفسُ عـن سَلْـوةٍ   ولٰكــنْ حمَلــتُ عليهــا لَهــا

وما مثَلُ مَن هٰذه حالُه إلا كما قال إبراهيم بن هَرْمة[2] : [من الوافر]

فـإنَّـكَ واطِّـراحَـكَ وَصْـلَ سلمـىٰ   لأُخـرىٰ فـي مـودّتهـا نُكُـوبُ
كثــاقبــةٍ لحَلْــيِ مُستعــارٍ   لأُذْنَيهــا فشــانَتْهــا الثُّقُــوبُ
فــأدَّتْ حَلْـيَ جـارتِهـا إليهـا   وقــد بقِيَـت بـأُذْنَيهـا نُـدُوبُ

***

فإذا صفَت عنده أخلاقُ مَن سبره ، وتمهَّدت لديه أحوالُ مَن خبره ، **وأقدم على اصطفائه أخاً** ، وعلى اتِّخاذه خِدْناً . . **لزمته حينئذٍ حقوقُه** ، ووجبت عليه حرماتُه ، فقد قال عمرو بن مسعدة : (**العبوديّة عبوديّة الإخاء ، لا عبوديّة الرِّقِّ**)[3] .

---

(١) **الحفاظ المستديم** : المصدر بمعنى الفاعل ، وإضافته من إضافة الصفة إلىٰ مفعوله ، يعني : لا تعجل في لومه ، وتأنَّ فيه ؛ فإن أخا المحافظ للاستدامة مستديمٌ كأخيه علىٰ ما هو حكم المقارنة وقاعدة الإضافة ، فالخبر محذوف ولا إقواء في القافية . انظر « منهاج اليقين » (ص ٣١٢) .
(٢) الأبيات في « ديوانه » (ص ٦٨) .
(٣) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٦٢) .

وقال بعض الحكماء : (مَن جاد لك بمودّته . . فقد جعلك عَديلَ نفسِه) .

فأوّلُ حقوقه : اعتقادُ مودّته ، ثم إيناسُه بالانبساط إليه في غير محرَّم ، ثم نصحُه في السرِّ والعلانية ، ثم تخفيفُ الأثقال عنه ، ثم معاونتُه فيما ينوبه من حادثة ، أو يناله من نكبة ؛ فإنَّ مراقبته في الظاهر نفاق ، وتركه في الشدّة لؤم[١] .

وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خيرُ أصحابِكَ : المُعِينُ لكَ علىٰ دَهْرِكَ ، وشرُّهُمْ : مَن سعىٰ لكَ بسوقِ يومِهِ »[٢] .

وقيل : يا رسولَ الله ؛ أيُّ الأصحاب خيرٌ ؟ قال : « الذي إذا ذكَرْتَ . . أعانَكَ ، وإذا نسِيتَ . . ذكَّرَكَ »[٣] .

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام : (خيرُ إخوانك : مَن واساك ، وخيرٌ منه : مَن كفاك)[٤] .

وكان أبو هريرة رضي الله عنه يقول : (اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذ بك ممَّن لا يلتمس خالص مودَّتي إلا بموافقة شهوتي ، وممَّن يساعدني علىٰ سرور ساعتي ، ولا يفكِّر في حوادث غدي)[٥] .

وقال بعض الحكماء : (عقودُ الغادر محلولة ، وعهوده مدخولة) .

وقال بعض البلغاء : (ما وَدَّكَ مَن أهمل وُدَّك ، ولا أَحبَّكَ مَن أبغض حِبَّك) .

وقال بعض الشعراء[٦] : [من الطويل]

وكلُّ أخٍ عندَ الهُوَينا مُلاطِفٌ ... ولٰكنَّما الإخوانُ عندَ الشَّدائدِ

---

(١) في (ب) : (وتركه في السرِّ لؤم) .
(٢) رواه في « الصداقة والصديق » (ص ٢٥٦) من قول موسى بن جعفر رحمه الله تعالىٰ .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الإخوان » (٤٢) عن الحسن رحمه الله تعالىٰ مرسلاً .
(٤) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٣٠) ، و« زهر الآداب » (١/ ٤٣) .
(٥) أورده في « عيون الأخبار » (١/ ٣١) ، و« التذكرة الحمدونية » (٣/ ٣٠٣) من قول ابن هبيرة رحمه الله تعالىٰ .
(٦) البيت لأبي الأسود الدؤَليّ في « ديوانه » (ص ٣٥٤) .

وقال صالح بن عبد القدّوس[1] : [من البسيط]

شرُّ الأخلاّءِ مَن كانت مودّتُهُ ... معَ الزّمانِ إذا ما خافَ أو رَغِبا
إذا وَتَرتَ امرأً فاحذَرْ عداوتَهُ ... مَن يزرَعِ الشّوكَ لا يحصُدْ به عِنَبا
إنَّ العدوَّ وإنْ أبدىٰ مُسالَمةً ... إذا رأىٰ منكَ يوماً فُرصةً وَثَبا

وينبغي أن يتوقّى الإفراط في محبّته ؛ فإنَّ الإفراط داعٍ إلى التقصير ، ولأَنْ تكونَ الحالُ بينهما نامية . . أَولىٰ من أن تكون متناهية .

وقد روى ابن سيرين ، عن أبي هريرة رضي الله تعالىٰ عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « **أَحبِبْ حبيبَكَ هَوْناً** ما ، عسىٰ أن يكونَ بغيضَكَ يوماً ما ، **وأبغِضْ بغيضَكَ هَوْناً** ما ، عسىٰ أن يكونَ حبيبَكَ يوماً ما »[2] .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالىٰ عنه : (**لا يكنْ حبُّكَ كَلَفاً ، ولا بغضُكَ تلَفاً**)[3] .

وقال أبو الأسود الدؤَليُّ[4] : [من الطويل]

وكُنْ مَعدِناً للخيرِ واصفَحْ عنِ الأذىٰ ... فإنَّكَ راءٍ ما عمِلْتَ وسامِعُ
وأحبِبْ إذا أحببْتَ حبّاً مُقارباً ... فإنَّكَ لا تدري متىٰ أنتَ نازِعُ
وأبغِضْ إذا أبغضْتَ غيرَ مُبايِنٍ ... فإنَّك لا تدري متىٰ أنتَ راجِعُ

وقال عديّ بن زيد[5] : [من الطويل]

ولا تأمنَنْ من مُبغِضٍ قربَ دارِهِ ... ولا من مُحبٍّ ؛ أن يمَلَّ فيبعُدا

وإنّما يلزم من حقِّ الإخاء : بذلُ المجهود في النصح ، والتناهي في رعاية ما بينهما من الحقِّ ؛ **فليس في ذلك إفراطٌ** وإن تناهىٰ ، **ولا مجاوزةُ حدٍّ** وإن كثر

---

(١) الأبيات في « ديوانه » (ص ١٣٦) .
(٢) رواه الترمذي (١٩٩٧) ، وتمّام الرازيّ في « فوائده » (١١٩٣) ، والهَوْن : مصدر بمعنى السكينة ، و(ما) : زائدة للتقليل ، أو إبهامية تزيد النكرة شياعاً .
(٣) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (١٣٢٢) ، وعبد الرزاق في « المصنف » (٢٠٢٦٩) .
(٤) الأبيات في « ديوانه » (ص ١٠٤) .
(٥) البيت في « ديوانه » (ص ١٢١) ، وقوله : (أن يملَّ) معناه : خشيةَ أن يملَّ .

وأوفىٰ ، وتستوي حالتاهما في المَغيب والمَشهد ، ولأن يكون مَغيبُهما أفضلَ من مشهدهما . . أَولىٰ ؛ فإنَّ فضل المشهد على المغيب لؤمٌ ، وفضل المغيب على المشهد كرم ، واستواؤهما حفاظ .

وقال بعض الشعراء[1] : [من الطويل]

عليَّ لإخواني رقيبٌ منَ الصَّفا ... تَبيدُ اللَّيالي وَهْوَ ليسَ يَبيدُ
يُذكِّرُنيهِمْ في مَغيبي ومَشهَدي ... فسِيَّانِ منهُمْ غائبٌ وشهيدُ
وإنِّي لأستحيِي أخي أنْ أبرَّهُ ... قريباً وأنْ أجفُوْهُ وَهْوَ بعيدُ

وهكذا يقصد التوسُّط في زيارته وغشيانه غيرَ مقلِّلٍ ولا مكثر ؛ فإنَّ تقليل الزيارة داعية الهجران ، وكثرتها سبب المَلال .

وقد قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « يا أبا هريرةَ ؛ زُرْ غِبّاً . . تزدَدْ حُبّاً »[2] .

وقال لبيد : [من الوافر]

توقَّفْ عن زيارةِ كلِّ يومٍ ... إذا أكثرتَ ملَّكَ مَن تزُورُ

وقال آخر[3] : [من الطويل]

عليكَ بإقلالِ الزيارةِ إنَّها ... إذا كثُرتْ كانت إلى الهَجْرِ مَسلَكا
ألم ترَ أنَّ الغيثَ يُسأمُ دائماً ... ويُسأَلُ بالأيدي إذا هو أمسكا

وقال آخر[4] : [من الكامل]

أقلِلْ زيارتَكَ الصَّديقَ ولا تُطِلْ ... هِجْرانَهُ فيلجَّ في هجرانِهِ
إنَّ الصَّديقَ يلجُّ في غِشيانِهِ ... لصديقه فيمَلُّ من غِشيانِهِ

---

(١) أورد الأبيات في « الحماسة البصريّة » (٢/ ٨٣٩) للحارث المخزوميّ .
(٢) رواه ابن قتيبة في « عيون الأخبار » (٣/ ٢٤) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٨٠٠٨) ، والبزّار في « مسنده » (٩٣١٥) .
(٣) أورد البيتين في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٦٣) ، و« ديوان المعاني » (٢/ ٢٣٩) ، ونسبهما في « وفيات الأعيان » (٥/ ٢٧٧) لعبد المنعم بن غلبون المصريّ ، وهما زيادة من (ج) .
(٤) الأبيات لأبي العتاهية في « ديوانه » (ص ٤٠١) .

حتّىٰ تراهُ بعدَ طولِ سرورِهِ   بمكانِهِ مُتثاقلاً بمكانِهِ
وإذا توانىٰ عن صيانةِ نفسِهِ   رجلٌ تُنُقِّصَ واستُخِفَّ بشانِهِ

وبحسَب ذلك فليكن في عتابه ؛ فإنَّ كثرة العتاب سببٌ للقطيعة ، واطِّراحَ جميعه دليلٌ علىٰ قلَّة الاكتراث بأمر الصديق ، وقد قيل : (**علَّة المعاداة قلَّة المبالاة**)[1] .

بل يتوسَّط حالتي تركه وعتابه ـ فإنَّ ذلك أدومُ لإخائهما ، وأحفظُ لصفائهما ـ **فيسامح بالمتاركة** ، ويستصلح بالمعاتبة ؛ **فإنَّ المسامحة والاستصلاح** إذا اجتمعا . . **لم يلبث معهما نفور** ، ولم يبقَ معهما وَجْد .

وقد قال بعض الحكماء : (**لا تكثِرَنَّ معاتبةَ إخوانك . . فيهونَ عليهم سخطُك**) .

وقال منصور النَّمَريُّ[2] :   [من الكامل]

أقلِلْ عِتابَ منِ استرَبْتَ بودِّهِ   ليسَتْ تُنالُ مودّةٌ بعِتابِ

وقال بشار بن برد[3] :   [من الطويل]

إذا كنتَ في كلِّ الأمورِ مُعاتِباً   صديقَكَ لم تَلْقَ الذي لا تُعاتبُهْ
وإنْ أنتَ لم تشرَبْ مِراراً على القَذىٰ   ظمِئتَ وأيُّ الناسِ تصفو مَشاربُهْ
فعِشْ واحداً أو صِلْ أخاكَ فإنَّهُ   مُقارِفُ ذنبٍ مرةً ومُجانِبُهْ

ثمَّ من حقِّ الإخوان : أن تغفر هفوتهم ، وتسترَ زلتهم[4] ؛ **لأنَّ مَن رام بريئاً من الهفوات** ، سليماً من الزَّلّات . . **رام أمراً مُعوِزاً** ، واقترح وصفاً مُعجِزاً ؛ وقد قالت الحكماء : (**أيُّ عالمٍ لا يهفو** ، وصارمٍ لا ينبو ، **وجوادٍ لا يكبو** ؟!)[5] .

وقد قال بعض الحكماء : (**مَن حاول صديقاً يأمنُ زلَّته** ، ويدومُ اغتباطُه به . .

---

(١) أورده في « نهاية الأرب » (٦/ ١٠٤) .
(٢) البيت في « ديوانه » (ص ٧٠) .
(٣) الأبيات في « ديوانه » (١/ ٣٢٦) .
(٤) في (أ) : (ثم من حق الإخاء : أن تغفر هفوته ، وتستر زلَّته) .
(٥) أورده في « المستطرف » (١/ ٢١٨) ، و« التذكرة الحمدونية » (٧/ ٢٦٤) .

كان كضالِّ الطريق الذي لا يزداد لنفسه إتعاباً إلا ازداد من غايته بُعداً)[1] .

وقيل لخالد بن صفوان : (أيُّ إخوانك أحبُّ إليك ؟ قال : مَن غفر زَلَلي ، وقطع عِلَلي ، وبلَّغني أمَلي)[2] .

وقال بعض الشعراء[3] : [من الكامل]

ما كدتُ أفحَصُ عن أخي ثِقةٍ إلا ذمَمْتُ عواقبَ الفَحْصِ

وأُنشدت عن الربيع للشافعيِّ رحمه الله تعالىٰ[4] : [من الطويل]

أُحبُّ منَ الإخوانِ كلَّ مُؤاتي وكلَّ غَضيضِ الطَّرْفِ عن عثَراتي
يُوافِقُني في كلِّ أمرٍ أُريدُهُ ويَحفظُني حيّاً وبعدَ وَفاتي
فمَن لي بهٰذا ليتَ أنِّي أصبتُهُ فقاسمتُهُ ما لي منَ الحسَناتِ
تصفَّحتُ إخواني فكان أقلُّهم علىٰ كثرةِ الإخوانِ أهلَ ثقاتي

وأنشد ثعلب[5] : [من الطويل]

إذا أنتَ لم تستقبلِ الأمرَ لم تجدْ لكفَّيكَ في إدبارِهِ مُتعلَّقا
إذا أنتَ لم تترُكْ أخاكَ وزَلّةً إذا زلَّها أوشكتُما أنْ تفرَّقا

وحكى الأصمعيُّ عن بعض الأعراب أنه قال : (تناسَ مساوىءَ الإخوان . . يدُمْ لك ودُّهم)[6] .

ووصَّىٰ بعضُ الأدباء أخاً له فقال : (كن للودِّ حافظاً وإنْ لم تجدْ مُحافِظاً ، وللخِلِّ واصلاً وإنْ لم تجدْ مُواصِلاً)[7] .

---

(١) أورده في « فضل الكلاب علىٰ كثير ممَّن لبس الثياب » (ص ٥) ، و« نثر الدرّ » (٤/ ٢٣٠) .
(٢) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٣٢٩٤) ، وأورده المبرّد في « الكامل » (٢/ ٦٩٦) .
(٣) البيت لمحمود الورّاق في « ديوانه » (ص ١٣٧) .
(٤) الأبيات في « ديوانه » (ص ٤٣) ، و« مناقب الشافعي » للبيهقي (٢/ ٧٩) ، ونسبت لأبي العتاهية في « ديوانه » (ص ٥٩) ، والبيتان الأولان نُسبا لجحظة البرمكيّ في « ديوانه » (ص٥٨) .
(٥) أورد البيتين في « الزهرة » (١/ ١٩٥) ، و« الحماسة البصريّة » (٢/ ٨٦٠) .
(٦) رواه السُّلَميُّ في « آداب الصحبة » (ص ٤٦) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (١٠٦٨٦) .
(٧) أورده في « فيض القدير » (٤/ ١٩٦) .

وقال رجلٌ من إياد ليزيد بن المُهلَّب[1] : [من الطويل]

إذا لم تَجاوَزْ عن أخٍ عندَ زَلّةٍ ... فلستَ غداً عن عَثرتي مُتجاوِزا
وكيفَ يُرجِّيكَ البعيدُ لنفعِهِ ... إذا كان عن مولاكَ خيرُكَ عاجِزا
ظلمتَ امرأً كلَّفتَهُ فوقَ وُسْعِهِ ... وهلْ كانتِ الأخلاقُ إلا غرائزا

وقال أبو مسعود كاتب الرضا : كنَّا في مجلس الرضا ، فشكا رجلٌ أخاه ، فأنشأ الرضا رحمه الله تعالىٰ يقول : [من مجزوء الكامل]

اعذِرْ أخاكَ علىٰ ذُنُوبِهْ ... واستُرْ وغَطِّ علىٰ عُيوبِهْ
واصبِرْ علىٰ بَهْتِ السَّفيـ ... ـهِ وللزمانِ علىٰ خُطُوبِهْ
ودَعِ الجوابَ تفضُّلاً ... وكِلِ الظَّلُومَ إلىٰ حَسيبِهْ
واعلَمْ بأنَّ الحِلْمَ عنـ ... ـدَ الغَيِّ أحسَنُ من رُكوبِهْ[2]

* * *

وحُكي عن بنت عبد الله بن مطيع أنها قالت لزوجها طلحةَ بن عبد الله بن عوف الزُّهريِّ وكان أجودَ قريش في زمانه : (**ما رأيتُ قوماً ألأمَ من إخوانك** ، قال لها : مَهْ ؛ **ولِمَ قلتِ ذاك ؟!** قالت : **أراهم إذا أيسرتَ** . . لزموك ، **وإذا أعسرتَ** . . تركوك !! قال : **هٰذا ـ واللهِ ـ من كرَمهم** ؛ يأتوننا في حال القوّة بنا عليهم ، ويتركوننا في حال الضعف منّا عنهم)[3] .

انظر كيف تأوّل بكرمه هٰذا التأويل ؛ حتىٰ جعل قبيحَ فعلهم حسناً ، وظاهر غدرهم وفاءً ، **وهٰذا محض الكرم** ، ولباب الفضل ، **وبمثل هٰذا يلزم ذوي الفضل أن يتأوَّلوا هفواتِ إخوانهم** .

---

(١) أورد البيتين الأولين في « روضة العقلاء » (٢/ ٦٥٤) ، والثالث في « محاضرات الأدباء » (١/ ٥٧٠) .

(٢) أورده ابن بشران في « أماليه » (٧٩٣) ، وابن النجّار في « ذيل تاريخ بغداد » (١٩/ ١٣٧) دون البيت الأخير عن ابن أبي مسعود ، عن كاتب الفياض ، عن أبيه قال : (حضرنا مجلس الرضا . . .) ، والأبيات الثلاثة الأولىٰ منسوبة لسيدنا علي رضي الله عنه في « ديوانه » (ص ٨٠) .

(٣) رواه في « روضة العقلاء » (٣٩٣) ، وأورده في « الصداقة والصديق » (ص ١٨٧) .

وقد قال بعض الشعراء(١) : [من الطويل]

أُحبُّ الفتىٰ ينفي الفواحشَ سمعُهُ … كأنَّ بهِ عن كلِّ فاحشةٍ وَقْرا
سليمُ دواعي الصدرِ لا باسطٌ أذىً … ولا مانعٌ خَيْراً ولا قائلٌ هُجْرا
إذا شئتَ أن تُدعىٰ كريماً مُعطَّفاً … حليماً ظريفاً ماجداً فطِناً حُرّا
إذا ما بدَتْ مِن صاحبٍ لكَ زَلّةٌ … فكنْ أنتَ مُحتالاً لزَلّتِهِ عُذْرا

والداعي إلىٰ هٰذا التأويل شيئان : **التغافلُ الحادث عن الفطنة ، والتألُّفُ الصادر عن الوفاء** .

وقد قال أكثم بن صيفيّ : (**مَن تشدَّد . . نفَّر ، ومَن تراخىٰ . . تألَّف ، والشرفُ في التغافل**)(٢) .

وقال شبيب بن شيبة : (**الأريب العاقل** : هو الفطِن المتغافل)(٣) .

وقال بعض الحكماء : (وجدتُ أكثر أمور الدنيا **لا تجوز إلا بالتغافل**) .

وقال أبو تمام الطائيُّ(٤) : [من الكامل]

ليسَ الغبيُّ بسيِّدٍ في قومِهِ … لٰكنَّ سيِّدَ قومِهِ المُتَغابي

وقال أبو العتاهية(٥) : [من الخفيف]

إنَّ في صِحَّةِ الإخاءِ منَ النّا … سِ وفي خُلَّةِ الوفاءِ لَقِلَّةْ
فألبَسِ النَّاسَ ما استطعْتَ على النَّقْـ … ـصِ وإلا لم تستقِمْ لكَ خُلَّةْ
عِشْ وحيداً إنْ كنتَ لا تقبلُ العُذْ … رَ وإنْ كنتَ لا تُجاوِزُ زَلَّةْ

---

(١) أورد الأبيات التبريزيّ في « شرح ديوان الحماسة » (٣/ ١٤٥) ، وهي في « التذكرة الحمدونية » (٤/ ٣٦٦) ما عدا البيت الثالث ، لسالم بن وابصة الأسديّ .

(٢) أورده في « المعمَّرون والوصايا » (ص ٢١) ، و« نهاية الأرب » (٦/ ١٣٦) .

(٣) أورده في « البصائر والذخائر » (٥/ ١٥٢) عن عبد الصمد بن أبي شبيب عن أبيه .

(٤) البيت في « ديوانه » (١/ ٨٧) .

(٥) الأبيات في « ديوانه » (ص ٣٣٨) ، فالبس الناس ؛ أي : عاشرهم علىٰ قدر أخلاقهم ، ولبست فلاناً علىٰ ما فيه ؛ أي : احتملته وقبلته ، وفي المال : المراد به : لازمُهُ وهو الميراث ، وأبناء علة : أمهاتهم مختلفة وأبوهم واحد .

مِـــن أبٍ واحــدٍ وأمٍّ خُلِقْنــا   غيـرَ أنّـا فـي المـالِ أولادُ عَلَّـةْ

وممّا يتبع هٰذا الفصل[1] تألُّفُ الأعداء بما يثنيهم عن البِغضة ، ويعطفهم على المحبّة ، وذلك قد يكون بصُنوفٍ من البرّ ، ويختلف بحسَب اختلاف الأحوال ؛ فإنَّ ذلك من سمات الفضل ، وشروط السؤدد ، فإنَّه ما أحدٌ يعدم عدوّاً ، ولا يفقد حاسداً ، وبحسَب وُفور النِّعمة تكثر الأعداء والحسدة ؛ كما قال البحتريّ[2] : [من الطويل]

ولن تستبِينَ الدَّهْرَ مَوقِعَ نِعمةٍ   إذا أنتَ لم تُدْلَلْ عليها بحاسِدِ

فإن أغفل تألُّفَ الأعداء مع وُفور النعمة وظهور الحسد . . توالىٰ عليه من مكر حليمهم وبادِرة سفيههم ما تصير به النعمة غَراماً ، والدَّعة مَلاماً .

وروى ابن المسيِّب ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رأسُ العَقْلِ بعدَ الإيمانِ باللهِ تعالى التَّودُّدُ إلى الناسِ »[3] .

وقال سليمان بن داوود عليهما السلام لابنه : (لا تستكثِرْ أن يكونَ لكَ ألفُ صديقٍ ، فالألفُ قليلٌ ، ولا تستقِلَّ أن يكونَ لكَ عدوٌّ واحدٌ ، فالواحدُ كثيرٌ)[4] .

فنظم ابن الروميّ هٰذا المعنىٰ فقال[5] : [من الطويل]

تكثَّرْ منَ الإخوانِ ما اسطَعْتَ إنَّهُمْ   بُطُـونٌ إذا استنجَـدتَهُـمْ وظُهُـورُ

---

(١) وهو المؤاخاة بالمودة .

(٢) البيت في « ديوانه » (١/ ٦٢٥) .

(٣) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٨٦٣٧) ، وابن أبي الدنيا في « الإخوان » (١٤٠) ، والقصد بهٰذا الحديث : الحث علىٰ مداراة الناس بكل ما أمكن من الإحساس ، وتحمل أذاهم ، وكف الأذىٰ عنهم وملاطفتهم ، ولفظ (الناس) : عام يشمل الأعداء ، فكما أن الإيمان من أسباب الألفة بين المسلمين . . فالتودد من أسبابها بين جميع الناس .

(٤) كذا رواه ابن أبي الدنيا في « الإخوان » (٣١) ، وفي « عيون الأخبار » (٣/ ١) : أنَّ داوود النبيَّ قاله لابنه سليمان عليهما السلام .

(٥) البيتان ليسا في « ديوانه » ، وهما في « ديوان سيدنا عليّ » (ص ١٣٨) ، و« ديوان الخليل بن أحمد » =

وليس كثيراً ألفُ خِلٍّ وصاحبٍ ... وإنَّ عدوّاً واحداً لَكثيرُ

وقيل لعبد الملك بن مروان : (ما الذي أفدْتَ في ملكك هٰذا ؟ قال : مودّات الرجال) .

وقال بعض الحكماء : (من علامة الإقبال اصطناعُ الرجال)[1] .

وقال بعض البلغاء : (مَن استصلح عدوَّه .. زاد في عَدَده ، ومَن استفسد صديقَه .. نقص من عُدَده)[2] .

وقال بعض الأدباء : (العجَبُ ممَّن يطَّرح عاقلاً كافياً ؛ لِما يضمره من عداوته ، ويصطنع عاجزاً جاهلاً بما يظهره من محبّته ، وهو يقدر على استصلاح مَن يُعاديه بحسن صنائعه وأياديه) .

وقال عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما : ثلاثةُ أبياتٍ جامعةٌ لكلِّ ما قالته العرب ، وهي للأَفْوه الأَوْديّ : [من الوافر]

بَلَوتُ الناسَ قَرْناً بعدَ قَرْنٍ ... فلم أَرَ غيرَ خَتّالٍ وقالِ

وذُقتُ مَرارةَ الأشياءِ جَمْعاً ... فما طعمٌ أمرَّ منَ السؤالِ

ولم أَرَ في الخُطوبِ أشدَّ هَوْلاً ... وأصعبَ من مُعاداةِ الرجالِ[3]

وقال القاضي التَّنُوخيُّ[4] : [من البسيط]

اِلْقَ العدوَّ بوجهٍ لا قُطُوبَ بهِ ... يكادُ يقطُرُ من ماءِ البَشاشاتِ

=(ص ٩) ، و« ديوان محمود الورّاق » (ص ٢٥٠) ، والبيت الثاني فقط في « ديوان الشافعيّ » (ص ٦٧) .

(١) أورده في « لباب الآداب » (ص ٦٨) نقلاً عن « الفرائد والقلائد » ، و« نهاية الأرب » (٦/ ١٠٣) .

(٢) أورده في « لباب الآداب » (ص ٦٠) ، والقلعيّ في « تهذيب الرياسة في ترتيب السياسة » (ص ٢٢٥) .

(٣) رواه الجريريّ في « الجليس الصالح الكافي » (٣/ ٣٤٨) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٨/ ١٩٨) ، والأبيات في « ديوان الأَفْوه الأَوديّ » (ص ١٠٤) ، وذكر ابن عساكر : أن سيدنا معاوية رضي الله عنه طلب من سيدنا ابن الزبير رضي الله عنهما أن ينشده ثلاثة أبيات من أجمع ما قالته العرب ، قال : (نعم يا أمير المؤمنين ؛ بثلاث مئة ألف . . .) وأنشده هٰذه الأبيات وحُمل المال إلىٰ بيته .

(٤) أورد الأبيات في « معجم الأدباء » (٥/ ٢٨٩) ؛ وفيه : (الصبر خيرٌ وخير القول . . .) ، و« محاضرات الأدباء » (١/ ٥١٠) .

فأَحزَمُ الناسِ مَن يلقىٰ أعادِيَهُ ... في جسمِ حِقْدٍ وثوبٍ من مَوَدَّاتِ
الرِّفْقُ يُمْنٌ وخيرُ القَولِ أصدَقُهُ ... وكثرةُ المَزْحِ مفتاحُ العَداواتِ

وأُنشدتُ عن الربيع للشافعيِّ رحمه الله تعالىٰ(١) : [من البسيط]

لمَّا عفَوتُ ولم أحقِدْ علىٰ أحدٍ ... أَرَحْتُ نفسِيَ من هَمِّ العَداواتِ
إنِّي أُحيِّي عدوِّي عندَ رؤيتِهِ ... لأدفعَ الشَّرَّ عنِّي بالتَّحيَّاتِ
وأُظهِرُ البِشْرَ للإنسانِ أُبغِضُهُ ... كأنَّما قد حَشا قلبي مَحبَّاتِ
ولستُ أسلَمُ ممَّن لستُ أذكرُهُ ... فكيف أسلمُ من أهلِ المودَّاتِ
الناسُ داءٌ دواءُ الناسِ تركُهُمُ ... وفي الجَفا لهمُ قَطعُ الأُخوّاتِ
فخالقِ الناسَ وٱصبِرْ ما بقيتَ لهُمْ ... أصمَّ أبكمَ أعمىٰ ذا تَقيَّاتِ

وليس ـ وإن كان بتألُّف الأعداء مأموراً ، وإلىٰ مقاربتهم مندوباً ـ **ينبغي أن يكون إليهم راكناً** ، وبهم واثقاً ، **بل يكون منهم علىٰ حذر** ، ومن مكرهم علىٰ تحرُّز ؛ **فإنَّ العداوة إذا استحكمت في الطباع . . صارت طبعاً لا يستحيل** ، وجِبلّةً لا تزول ، **وإنَّما يستكفُّ بالتألُّف إظهارَها** ، ويستدفعُ به أضرارَها ؛ **كالنارِ يُستدفَع بالماء إحراقُها** ، ويُستفادُ به إنضاجُها وإن كانت محرِقةً بطبعٍ لا يزول ، وجوهرٍ لا يتغيَّر .

وقال الشاعر(٢) : [من الكامل]

وإذا عجزْتَ عنِ العدوِّ فدارِهِ ... وامزِجْ لَهُ إنَّ المِزاجَ وِفاقُ
فالنارُ بالماءِ الذي هو ضِدُّها ... تعطي النِّضاجَ وطبُعها الإحراقُ

* * *

---

(١) الأبيات في « ديوانه » (ص ٤٢) ، والأربعة الأولىٰ في « مناقب الشافعي » للبيهقي (٢/ ٨٧) ، والبيت الخامس في النسخ ما عدا (ج) هٰكذا :

النـاسُ داءٌ وداءُ الناس قُربُهُمُ ... وفي ٱعتزالهمُ قَطعُ المودَّاتِ

(٢) البيتان لابن نباتة السعديّ في « ديوانه » (٢/ ٢٧٢ ـ ٢٧٣) ، وفي (ب ، ج ، هـ) : (وامزح له إن المزاح) .

فَصْلٌ
[البرّ خامس أسباب الألفة]

وأمّا البِرُّ وهو الخامس من أسباب الألفة. . فلأنّه يوصل إلى القلوب ألطافاً ، ويَثْنيها محبةً وانعطافاً ؛ ولذلك ندب الله تعالىٰ إلى التعاون به ، وقرنه بالتقوىٰ له ، فقال سبحانه : ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ ؛ لأنَّ في التقوىٰ رضا الله تعالىٰ ، وفي البِرّ رضا الناس ، ومَن جمع بين رضا الله تعالىٰ ورضا الناس. . فقد تمَّت سعادته ، وعمَّت نعمته .

وروى الأعمش ، عن خيثمة ، عن ابن مسعود رضي الله تعالىٰ عنه قال : سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : « جُبِلَتِ القلوبُ علىٰ حُبِّ مَن أحسَنَ إليها ، وبُغضِ مَن أساءَ إليها »[1] .

وحُكي : أنَّ الله تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ داوود عليه الصلاة والسلام : (ذَكِّرْ عبادي إحساني إليهم ليُحبُّوني ؛ فإنَّ عبادي لا يحبُّونَ إلا مَن أحسنَ إليهم)[2] .

وأنشدني أبو الحسن بن أبي الحارث الهاشميّ رحمه الله تعالىٰ[3] : [من مجزوء الكامل]

النَّاسُ كلُّهُمُ عِيَا ... لُ اللهِ تحتَ ظِلالِهِ
فأحبُّهُمْ طُرّاً إليـ ... ـهِ أبرُّهُمْ بعيالِهِ

والبِرُّ نوعان : صلةٌ ، ومعروفٌ .

فأمّا الصِّلةُ : فهي التبرُّع ببذل المال في جهاتٍ محمودةٍ لغير عوضٍ

---

(١) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٨٥٧٤) ، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (٤/ ١٢١) .
(٢) أورده في « نثر الدرّ » (٧/ ٣٢) ، وانظر « فيض القدير » (٣/ ٣٧١_ ٣٧٢) .
(٣) البيتان لأبي العتاهية في « ديوانه » (ص ٣٣٥) .

مطلوب[1] ، وهـٰذا يبعث عليه سماحة النفس وسخاؤها ، ويمنع منه شُحُّها وإباؤها ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ .

وروىٰ محمد بن إبراهيم التيميُّ ، عن عروة بن الزبير ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **السَّخيُّ قريبٌ منَ الله** ، قريبٌ منَ الجنّةِ ، **قريبٌ منَ الناسِ** ، بعيدٌ منَ النارِ ، **والبخيلُ بعيدٌ منَ الله** ، بعيدٌ منَ الجنّةِ ، **بعيدٌ منَ الناسِ** ، قريبٌ منَ النارِ »[2] .

وقال صلى الله عليه وسلم لعديِّ بن حاتم : « **رفعَ اللهُ تعالىٰ عن أبيكَ العذابَ الشديدَ لسخائه** » .

وبلغه صلى الله عليه وسلم عن الزبير إمساكٌ ، فجذب عِمامتَه إليه ، وقال : « يا زبيرُ ؛ أنا رسولُ اللهِ إليكَ وإلىٰ غيركَ ، يقول الله : **أَنفِقْ . . أُنفقْ عليكَ ، ولا تُوكِ . . فأُوكِيَ عليكَ** »[3] .

وروىٰ أبو الدَّرداء رضي الله تعالىٰ عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما مِن يوم غرَبتْ فيه شمسُه إلا ومَلَكان يُناديان : **اللهمَّ ؛ أَعطِ مُنفِقاً خلَفاً** ، **ومُمسِكاً تَلَفاً** ، وأُنزِلَ في ذلك القرآنُ ، فقال عزَّ من قائل : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ »[4] .

قال ابن عباس رضي الله تعالىٰ عنهما : (يعني : **مَن أعطىٰ فيما أُمِر ، واتقىٰ فيما حُظِر ، وصدَّق بالحسنىٰ** ؛ يعني : بالخلَف من عطائه)[5] .

---

(١) في (أ) : (غرض مطلوب) .

(٢) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (١٠٣٥٧) ، والطبراني في « المعجم الأوسط » (٢٣٦٣) عن محمد بن إبراهيم التيميّ ، عن أبيه ، عن السيدة عائشة رضي الله عنها .

(٣) رواه الحكيم الترمذي في « النوادر » (ص١٥٠) في الأصل (١١٦) ، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (١٠/٢١٦) ، و« بهجة المجالس » (١/٦٢٥) .

(٤) رواه الطبريُّ في « تفسيره » (١٥/٣٠/٢٧٩) ، وابن حبان في « صحيحه » (٣٣٢٩) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٣١٣٩) .

(٥) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (١٠٣٣٢) بنحوه .

فعندها قال ابن عباس : (سادةُ الناس في الدنيا الأسخياءُ ، وفي الآخرة الأتقياءُ)[1] .

وقيل في منثور الحكم : (الجودُ عن موجودٍ)[2] .

وقيل في المثل : (سؤدُدٌ بلا جود كملِك بلا جُنود)[3] .

وقال بعض الحكماء : (الجودُ حارسُ الأعراض)[4] .

وقال بعض الأدباء : (مَن جاد . . ساد ، ومَن أضعف . . ازداد)[5] .

وقال بعض البلغاء : (جودُ الرجل يُحبِّبه إلىٰ أضداده ، وبخلُه يُبغِّضه إلىٰ أولاده)[6] .

وقال بعض الفصحاء : (خيرُ الأموال ما استرقَّ حرّاً ، وخيرُ الأعمال ما استحقَّ شكراً)[7] .

وقال صالح بن عبد القدّوس[8] : [من الطويل]

ويُظهرُ عَيبَ المرءِ في الناسِ بُخلُهُ ... ويستـرُهُ عنهـم جميعـاً سَخـاؤُهُ
تغـطَّ بـأثـوابِ السَّخـاءِ فـإنَّنـي ... أرىٰ كـلَّ عيـبٍ والسَّخـاءُ غِطـاؤُهُ

وحدُّ السخاء : بذلُ ما يحتاج إليه عند الحاجة ، وأن يوصل إلىٰ مستحقِّه بقدر الطاقة ، وتدبير ذلك مستصعَب .

---

(١) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (١٠٣٩٥) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٣/٥٢) عن عليّ بن عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهم .
(٢) في (أ) : (الجود خيرٌ موجودٍ) .
(٣) أورده في « غرر الخصائص » (ص١٩٨) .
(٤) أورده في « التذكرة الحمدونية » (٢/٢٦٠) عن سيدنا علي رضي الله عنه ، و« البصائر والذخائر » (٥/١٩٨) عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما .
(٥) أورده في « التذكرة الحمدونية » (١/١٠٢) ، و« نهاية الأرب » (٣/٢٠٥) من كلام الحسين بن علي رضي الله عنهما .
(٦) أورده في « الكشكول » (٢/٧٧) .
(٧) انظر « فيض القدير » (٢/٣٤٦) .
(٨) البيتان في « ديوانه » (ص ١١٩) .

ولعلَّ بعض مَن يحبُّ أن يُنسَب إلى الكرم يُنكر حدَّ السخاء ، ويجعل تقدير العطيّة فيه نوعاً من البخل ، وأنَّ الجود بذلُ الموجود ، **وهٰذا تكلُّفٌ يفضي إلى الجهل بحدود الفضائل** ، ولو كان حدُّ الجود بذلَ الموجود . . لما كان للسَّرَف موضعاً ، ولا للتبذير موقعاً ، **وقد ورد الكتاب بذمِّهما** ، وجاءت السنة بالنهي عنهما .

❁ ❁ ❁

وإذا كان السخاء محدوداً ؛ فمَن وقف علىٰ حدِّه . . **سُمِّي كريماً** ، وكان للحمد مستحِقّاً ، **ومَن قصَّر عنه . . كان بخيلاً** ، وكان للذمِّ مستوجِباً .

قال الله تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُمۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ ﴾ .

ورُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « **أقسمَ اللهُ تعالىٰ بعزّتهِ ؛ لا يُجاوِرُه بخيلٌ** »[1] .

ورُوي عنه صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « **طعامُ الجَوادِ دواءٌ ، وطعامُ البخيلِ داءٌ** »[2] .

وسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً يقول : الشحيحُ أعذَرُ من الظالم ، فقال : « **لعنَ اللهُ الشحيحَ ، ولعنَ الظالمَ** »[3] .

وقال بعض الحكماء : (**البخلُ جِلبابُ المَسكنة**)[4] .

---

(١) رواه الطبراني في « المعجم الأوسط » (٥٥١٨) ، والخطيب في « البخلاء » (٦٠) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

(٢) رواه الخطيب في « البخلاء » (٢٢) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

(٣) رواه الجريريّ في « الجليس الصالح » (٢/٢٢٧) ، والخطيب في « البخلاء » (٥٩) عن سيدنا أبي الدرداء رضي الله عنه بنحوه . **وأصل اللعن** : الطرد والإبعاد إن كان من الله ، وإن كان من الخلق . . فالسب والدعاء عليه ، **والنبي صلى الله عليه وسلم لم يُبعث لعَّاناً** ؛ وإنما أوحى الله إليه : أن الله لعن فأخبر عن الله أنه لعن ، لا أنه إنشاءٌ ولا دعاء منه عليه الصلاة والسلام ، **وكذا كل ما ورد عنه من اللعن فإنه مُؤَوَّلٌ بذلك** . انظر « منهاج اليقين » (ص٣٢٨) بتصرف .

(٤) أورده في « بهجة المجالس » (١/٦٢٦) من قول سيدنا علي رضي الله عنه .

وقال بعض الأدباء : (البخيل ليس له خليل) .

وقال بعض البلغاء : (البخيل حارس نعمته ، وخازن ورثته)[1] .

وقال بعض الشعراء[2] : [من الطويل]

إذا كنتَ جَمّاعاً لمالِكَ مُمسِكاً ... فأنتَ عليه خازنٌ وأمينُ
تؤدِّيهِ مذمُوماً إلىٰ غيرِ حامدٍ ... فيأكلُهُ عفْواً وأنتَ دَفينُ

وتظاهر بعض ذوي النَّباهة بحبِّ الثناء مع إمساكٍ فيه ، فقال فيه بعض الشعراء[3] : [من المتقارب]

أراكَ تؤمِّلُ حُسنَ الثَّناءِ ... ولم يرزُقِ اللهُ ذاكَ البخيلا
وكيفَ يسودُ أخو بِطْنةٍ ... يمُنُّ كثيراً ويُعطي قليلا

وقد يتنافىٰ حبُّ الثناء وحبُّ المال ؛ لأن حبَّ الثناء يبعث على البذل ، وحبَّ المال يمنع منه ، فإن ظهرا عليه . . كان حبُّ الثناء كاذباً .

وقال بعض الشعراء[4] : [من البسيط]

جمعتَ أمرَينِ ضاعَ الحَزْمُ بينَهما ... تِيهَ المُلوكِ وأخلاقَ المَماليكِ
أردتَ شكراً بلا بِرٍّ ولا صِلةٍ ... لقد سلكتَ طريقاً غيرَ مسلوكِ
ظننتَ عِرْضَكَ لم يُقرَعْ بقارعةٍ ... وما أُراكَ علىٰ حالٍ بمتروكِ
لئنْ سبقتَ إلىٰ مالٍ حَظِيتَ بهِ ... لما سبقتَ إلىٰ شيءٍ سوى النُّوكِ

---

(١) أورده في « الإمتاع والمؤانسة » (ص ٢٧٩) ، و« المستطرف » (١/ ٨٧) .

(٢) أورد البيتين في « التذكرة الحمدونية » (٢/ ٣٢٦) ، و« محاضرات الأدباء » (٢/ ٣٢٥) ؛ وفي (أ) : (فيأكله صفواً وأنت دفين) .

(٣) أورد البيتين في « الإمتاع والمؤانسة » (ص ٤٢١) ، و« المجالسة وجواهر العلم » (٣٢٥٦) دون نسبة .

(٤) الأبيات الثلاثة الأولىٰ لعليّ بن الجهم في « ديوانه » (ص ١٦٩) .

وقد يحدثُ عن البخل من الأخلاق المذمومة ـ وإن كان ذريعةً إلىٰ كلِّ مَذمّةٍ ـ أربعةُ أخلاق ، ناهيك بها ذمّاً ؛ وهي الحِرصُ ، والشَّرَهُ ، وسوءُ الظنّ ، ومنعُ الحقوق .

فأمّا الحِرصُ . . فهو شدّة الكَدْح ، والإسراف في الطلب .

وأمّا الشَّرَهُ . . فهو استقلال الكفاية ، والاستكثار لغير حاجة ، وهٰذا فرق ما بين الحِرص والشَّرَه .

وقد روى العلاء بن حَرِيز ، عن أبيه ، عن سالم بن مسرور قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَن لا يُجزيه منَ العيشِ ما يكفيه . . لم يجدْ ما عاشَ ما يُغنيه »[1] .

وقال بعض الحكماء : (الشَّرَه من غرائز اللؤم)[2] .

وأمّا سوءُ الظنِّ . . فهو عدم الثقة بمَن هو لها أهلٌ ؛ فإن كانت بالخالق . . كانت شكّاً يؤول إلىٰ ضلال ، وإن كانت بالمخلوق . . كانت استخانةً يصير بها مُختاناً ، أو خَوّاناً ؛ لأنَّ ظنَّ الإنسان بغيره بحسَب ما يراه من نفسه ، فإن وجد فيها خيراً . . ظنَّه في غيره ، وإن رأىٰ منها سوءاً . . اعتقده في الناس .

وقد قيل في المثل : (كلُّ إناءٍ ينضَحُ بما فيه)[3] .

فإن قيل : قد تقدَّم من قول الحكماء أنَّ من الحزم سوءَ الظنِّ . . قيل : تأويله قلّةُ الاسترسال إليهم ، لا اعتقادُ السوء فيهم .

---

(١) أورده الخطّابي في « العزلة » (ص ٤٨) من كلام الحكماء .
(٢) في (ب) : (عزائم اللؤم) .
(٣) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٣٠٣) ، و« محاضرات الأدباء » (١/ ٥٧٠) .

وأمّا منعُ الحقوق . . فإن نفس البخيل لا تسمح بفراق محبوبها ، ولا تنقاد إلىٰ ترك مطلوبها ، فلا تذعن لحقٍّ ، ولا تُجيب إلىٰ إنصافٍ .

وإذا آلَ البخلُ إلىٰ ما وصفنا من هـٰذه الأخلاق المذمومة ، والشِّيَم اللئيمة . . لم يبقَ معه خيرٌ مرجوٌّ ، ولا صلاحٌ مأمولٌ .

وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال للأنصار : « مَن سيِّدُكم ؟ » قالوا : الجدُّ بن قيس علىٰ بخلٍ فيه ، فقال صلى الله عليه وسلم : « وأيُّ داءٍ أدوأُ منَ البُخل ؟ »[1] .

قالوا : وكيف ذلكَ يا رسولَ الله ؟ قال : « إنَّ قوماً نَزلُوا بساحل البحرِ ، فكرِهُوا لبُخلهم نُزولَ الأضياف بهم ، فقالوا : ليبعدِ الرجالُ منّا عن النساء ؛ حتىٰ يعتذرَ الرجالُ إلى الأضياف ببُعد النساء ، ويعتذرَ النساءُ ببُعد الرجال ، ففعَلوا وطالَ ذلكَ بهم ، فاشتغلَ الرجالُ بالرجال ، والنساءُ بالنساء »[2] .

فأمّا السَّرَف والتبذير . . فإنَّ مَن زاد علىٰ حد السخاء . . فهو مسرف ومبذِّر ، وهو بالذَّمِّ جدير .

قال الله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ .

ورُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما عالَ مَنِ اقتصد »[3] .

وقال المأمون : (لا خيرَ في السَّرَف ، ولا سَرَفَ في الخير)[4] .

وقال بعض الحكماء : (صديقُ الرجل قصدُه ، وسَرَفُه عدوُّه) .

---

(١) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٢٩٦) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (١٠٣٦١) عن سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، والمعنىٰ : وأيُّ عيبٍ أقبح من البخل ؟!

(٢) أورده القرطبي في « تفسيره » (٤/ ٢٩٢) وعزاه للمؤلف .

(٣) رواه الإمام أحمد في « المسند » (١/ ٤٤٧) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٧١٣٦) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٦١٤٩) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٤) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ١٣٥) ، و« بهجة المجالس » (١/ ٦١٤) من قول الحسن بن سهل وزير المأمون وقد أنفق أموالاً عظيمة في دخول ابنته على المأمون .

وقال بعض البلغاء : (لا كثيرَ مع إسراف ، ولا قليلَ مع احتراف)[١] .

واعلم : أنَّ السَّرَف والتبذير قد يفترق معناهما ، فالسَّرَف : هو الجهل بمقادير الحقوق ، والتبذير : هو الجهل بمواقع الحقوق ، وكلاهما مذموم ، وذمُّ التبذير أعظمُ ؛ لأنَّ المسرفَ مخطىءٌ في الزيادة ، والمبذِّرَ مخطىءٌ في الجميع .

ومَن جهل مواقع الحقوق ومقاديرها بماله وأخطأها . . فهو كمَن جهلها بفعاله فتعدّاها ، وكما أنه بتبذيره قد يضع الشيء في غير موضعه . . فهكذا قد يعدل به عن موضعه ؛ لأنَّ المال أقلُّ من أن يُوضَع في كل موضع من حقٍّ وغير حقٍّ .

وقد قال معاوية بن أبي سفيان : (كلُّ سَرَفٍ . . فبإزائه حقٌّ مُضيَّعٌ)[٢] .

وقال بعض الحكماء : (الخطأُ في إعطاءِ ما لا ينبغي ومنعِ ما ينبغي واحدٌ)[٣] .

وقال سفيان الثوريُّ رحمه الله تعالىٰ : (الحلالُ لا يحتمل السَّرَف)[٤] .

وليس يتمُّ السخاء ببذل ما في يده حتّىٰ تسخوَ نفسه عمَّا بيد غيره ، فلا يميلَ إلىٰ طلب ، ولا يكفَّ عن بذل .

وقد حُكِي : أنَّ الله تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام : (أتدري لِمَ اتَّخذتُكَ خليلاً ؟ قال : لا يا ربِّ ، قال : لأنِّي رأيتُكَ تحبُّ أن تُعطيَ ، ولا تحبُّ أن تأخذَ)[٥] .

---

(١) أورده في « نثر الدرّ » (٤/ ١٩٤) .
(٢) أورده في « عيون الأخبار » (١/ ٣٣٢) ، و« البيان والتبيين » (٣/ ٢٦٧) ، ورواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٦٧٠) من قول سفيان بن عيينة .
(٣) أورده في « ديوان المعاني » (٢/ ٩٣) من قول سقراط .
(٤) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٦/ ٣٨٢) عن الثوريّ ، ورواه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص ٤٦) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٠/ ٢٠٨) عن بشر بن الحارث .
(٥) أورده الديلميّ في « الفردوس » (٨٤٢٦) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

وروىٰ سهل بن سعد الساعديُّ رضي الله تعالىٰ عنه قال : أتىٰ رجل إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ؛ أخبرني بعملٍ يحبُّني الله تعالىٰ عليه ، ويحبُّني الناس ، فقال : « ازهَدْ في الدنيا . . يُحبَّكَ اللهُ ، وازهَدْ فيما في أيدي الناس . . يُحبَّكَ الناسُ »(١) .

وقال أيّوب السَّختِيانيُّ : (لا ينبُلُ الرجلُ حتَّىٰ يكونَ فيه خصلتان : العفّةُ عن أموال الناس ، والتجاوزُ عنهم)(٢) .

وقيل لسفيان : (ما الزهدُ في الدنيا ؟ قال : الزهدُ في الناس)(٣) .

وكتب كسرىٰ إلى ابنه هرمز : (يا بنيَّ ؛ استقلِلِ الكثيرَ ممّا تعطي ، واستكثرِ القليل ممّا تأخذ ؛ فإنَّ قرّةَ عيون الكرام في الإعطاء ، وسرور اللئام في الأخذ ، ولا تعدَّ الشحيحَ أميناً ، ولا الكذّابَ حرّاً ؛ فإنه لا عفّةَ مع الشحِّ ، ولا مروءةَ مع الكذب)(٤) .

وقال بعض الحكماء : (السخاءُ سخاءان ، وأشرفُهما سخاؤك عمّا بيد غيرك)(٥) .

وقال بعض البلغاء : (السخاء : أن تكون بمالك متبرِّعاً ، وعن مال غيرك متورِّعاً)(٦) .

وقال بعض الصلحاء : (الجودُ غايةُ الزهد ، والزهدُ غايةُ الجود)(٧) .

وقال بعض الشعراء : [من الطويل]

إذا لم تكنْ نفسُ الشَّريفِ شريفةً وإن كان ذا قدرٍ فليس له شَرَفْ

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/٣١٣) ، وابن ماجه (٤١٠٢) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (١٠٠٤٤) ، والطبراني في « الكبير » (٦/١٩٣) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « مداراة الناس » (٣٤) ، وابن المقرىء في « المعجم » (٥٣٠) .

(٣) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٧/٦٩) ، وأورده في « ربيع الأبرار » (٢/١٩٣) .

(٤) أورده في « البصائر والذخائر » (٧/١٨١) .

(٥) القول لابن المقفَّع في « الأدب الكبير » (ص ٢٦٨) ضمن « آثار ابن المقفع » ، ورواه عنه الجريريُّ في « الجليس الصالح » (٤/٤٩) .

(٦) أورده في « ديوان المعاني » (١/١٣٩) ، و« نهاية الأرب » (٣/٢٠٤) من قول عمرو بن عبيد .

(٧) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٠٩) .

والبذل علىٰ وجهين : أحدهما : ما ابتدأ به الإنسانُ من غير سؤال ، والثاني : ما كان عن طلب وسؤال .

فأمّا المبتدئُ به . . فهو أطبَعُهما سخاءً ، وأشرفُهما عطاءً .

سئل علي بن أبي طالب عليه السلام عن السخاء ، فقال : (ما كان منه ابتداءً ، فأمّا ما كان عن مسألة . . فحياءٌ وتكرُّمٌ)[1] .

وقال بعض الحكماء : (أجلُّ النَّوالِ : ما وصل قبل السؤال) .

وقال بعض الشعراء[2] : [من مجزوء الكامل]

وفتىً خلا مِن مالِهِ ... ومِنَ المروءةِ غيرُ خالِ

أعطاكَ قبلَ سؤالِه ... فكفاكَ مكروهَ السؤالِ

وهٰذا النوع من البذل قد يكون لأحد تسعة أسباب :

فالسبب الأول : أن يرىٰ خَلّةً يقدر علىٰ سدِّها ، وفاقةً يتمكَّن من إزالتها ، فلا يدعُه الكرم أو التديُّن إلا أن يكون زعيمَ صلاحها ، وكفيلَ نجاحها ؛ رغبةً في الأجر إن تديَّن ، وفي الشكر إن تكرَّم[3] .

وقال أبو العتاهية : [من مشطور الرجز]

ما النّاسُ إلا آلةٌ مُعتمِلَةْ

للخيرِ والشرِّ جميعاً فَعَلَةْ

والسبب الثاني : أن يرىٰ في ماله فضلاً عن حاجته ، وفي يده زيادةً عن

---

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٢/ ٥١٧) .

(٢) البيتان لسَلْم الخاسر في « ديوانه » (ص١١٠) ضمن « شعراء عباسيون » لغرونباوم ، وفي « ديوان عبد الله بن المبارك » (ص ٨٨) ، والبيت الثاني في « ديوان صريع الغواني » (ص ٣٣٦) .

(٣) في (د) : (رغبة في الأجر أن يتوفّر ، وفي الشكر أن يكثر) .

كفايته ، فيرى انتهاز الفرصة بها ، فيضعها حيثُ تكون له ذُخراً مُعدّاً ، وغُنْماً مُستجَدّاً .

فقد قال الحسن البصريّ : (ما أنصفكَ مَن كلَّفكَ إجلالَه ، ومنعكَ مالَه)[1] .

وقيل لهند بنت الخُسِّ : (مَن أعظمُ الناسِ في عينِكِ ؟ قالت : مَن كان لي إليه حاجةٌ)[2] .

وقال الشاعر[3] : [من الطويل]

وما ضاعَ مالٌ ورَّثَ الحمدَ أهلَهُ ... ولٰكــنَّ أمــوالَ البخيــلِ تضيــعُ

والسبب الثالث : أن يكون لتعريضٍ يتنبَّه عليه بفطنته ، وإشارةٍ يستدلُّ عليها بكرمه ، فلا يدَعه الكرمُ أن يغفل ، ولا الحياءُ أن يكفَّ ؛ كالذي حُكي أن رجلاً سايرَ بعضَ الوُلاة ، فقال : (ما أهزلَ بِرْذَونَكَ !! فقال : يدُه مع أيدينا)[4] ، فوصله اكتفاءً بهٰذا التعريض الذي بلغ ما لا يبلغه صريحُ السؤال .

ولذلك قال أكثم بن صيفيّ : (السخاءُ : حسنُ الفطنة ، واللؤمُ : سوء التغافل)[5] .

وحُكي : أن عبيد الله بن سليمان لمَّا تقلَّد وزارة المعتضد . . كتب إليه عبيد الله بن عبد الله بن طاهر بن الحسين ، فقال : [من الطويل]

أبىٰ دهرُنا إسعافَنا في نُفوسِنا ... وأسعَفَنــا فيمَــن نحِــبُّ ونُكــرِمُ
فقلــت لــه نُعْمــاكَ فيهِــم أَتِمَّهــا ... ودَعْ أمــرَنــا إنَّ المُهِــمَّ المقــدَّمُ

---

(١) أورده في « الأجوبة المسكتة » (١١٣٨) ، و« التمثيل والمحاضرة » (ص ٣٣) ، و« زهر الآداب » (١/ ٥٦) .

(٢) أورده في « نثر الدرّ » (٤/ ٥٧) .

(٣) البيت لبشار في « ديوانه » (٤/ ١٢١) .

(٤) أورده في « الأجوبة المسكتة » (١١٣٨) ، و« محاضرات الأدباء » (٢/ ٣٧٤) ، يده مع أيدينا : عساراً ويساراً ؛ يعني : أن سمنه ورفاهه مع سعتنا وإكثارنا ، فليس وليس .

(٥) أورده في « نثر الدرّ » (٤/ ١٥١) ، و« التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٣١) .

فقال عبيد الله : (**ما أحسنَ ما شكا أمرَه بين أضعاف مدحه !!**) وقضىٰ حاجته[1] .

ولذلك قال بعض الشعراء : [من الطويل]

ومَن لا يَرىٰ مِن نفسه مُذكِراً لها ... رأىٰ طلَبَ المستنجدين ثقيلا

❀ ❀ ❀

والسبب الرابع : أن يكون ذلك رعايةً ليدٍ ، أو جزاءً علىٰ صَنيعةٍ ، **فيرىٰ تأدية الحقِّ عليه طَوعاً** ؛ إمّا أنَفةً ، وإمّا شكراً ؛ **ليكون من أَسْر الامتنان طليقاً ، ومن رِقِّ الإحسان عَتيقاً** .

وقد قال بعض الحكماء : (**الإحسانُ رِقٌّ ، والمكافأةُ عِتْقٌ**)[2] .

وقال أبو العتاهية[3] : [من الطويل]

وليسَتْ أَيادي النّاسِ عندي غنيمةً ... ورُبَّ يدٍ عندي أشدُّ منَ الأَسْرِ

❀ ❀ ❀

والسبب الخامس : أن يؤثِر الإذعانَ بتقديمه ، والإقرارَ بتعظيمه ؛ **توطيداً لرئاسةٍ هو لها محبٌّ ، وعلىٰ طلبها مكبٌّ** .

وقد قال الشاعر[4] : [من البسيط]

حبُّ الرِّياسةِ داءٌ لا دواءَ لهُ ... وقلَّما تجدُ الرَّاضينَ بالقِسَمِ

فتستصعب عليه إجابةُ النفوس له طَوعاً إلا بالاستعطاف ، وإذعانُها إلا بالرغبة والإسعاف ؛ فقد قال بعض الأدباء : (**بالإحسان يرتبط الإنسان**) .

وقال بعض البلغاء : (**مَن بذل مالَه . . أدرك آمالَه**) .

---

(١) أورده في « البصائر والذخائر » (٨/ ٢٠٣) ، و« زهر الآداب » (٢/ ٨٧٣) .

(٢) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٢٢) ، و« نثر الدرّ » (٣/ ١٥٢) .

(٣) البيت في « ديوانه » (ص ٥٥٤) .

(٤) البيت في « ديوان عبد الله بن المبارك » (ص ٦١) .

وقال بعض الشعراء[1] : [من الوافر]

أتـرجُـو أنْ تسُـودَ ولا تُعنَّـىٰ … وكيـفَ يسُودُ ذو الـدَّعَـةِ البخيـلُ

والسبب السادس : أن يستدفع به سطوةَ الأعداء ، ويستكفَّ به نِفارَ الخصماء ؛ ليصيروا له بعد الخصومة أعواناً ، وبعد العداوة إخواناً ؛ إمّا لصيانة عرض ، وإمّا لحراسة مجد .

وقد قال أبو تمّام الطائي[2] : [من الطويل]

فلم يجتمِعْ شرقٌ وغربٌ لقاصدٍ … ولا المجدُ في كفِّ امرئٍ والدَّراهِمُ

ولم أَرَ كالمعروفِ تُدعَىٰ حُقوقُهُ … مَغارِمَ في الأقوامِ وَهْيَ مَغانِمُ

وقال بعض الأدباء : (مَن عظُمَت مَرافقُه . . أعظمَه مُرافِقُه) .

والسبب السابع : أن يرُبَّ به سالفَ صَنيعةٍ أولاها ، ويراعيَ به قديمَ نعمةٍ أسداها ؛ كي لا يُنسىٰ ما أولاه ، أو يُضاعَ ما أسداه ؛ فإنَّ مقطوع البرِّ ضائع ، ومُهمَلَ الإحسان ضالٌّ .

وقد قال الشاعر[3] : [من الطويل]

وَسَمْتَ امرأً بالعُرْفِ ثمَّ اطَّرَحتَهُ … ومن أفضلِ الأشياءِ رَبُّ الصَّنائعِ

وقال محمد بن داوود الأصبهانيُّ[4] : [من الطويل]

بدأْتَ بنُعْمىٰ أوجبَتْ ليَ حُرمةً … عليكَ فعُدْ بالفضلِ فالعَوْدُ أحمَدُ

---

(١) أورد البيت في « البيان والتبيين » (١/ ٢٧٥) للأعلم الهذلي ، وفي « محاضرات الأدباء » (١/ ٣٢٥) .

(٢) البيتان في « ديوانه » (٣/ ١٧٨) .

(٣) أورد البيت في « ربيع الأبرار » (٤/ ٥٨٥) دون نسبة .

(٤) البيت ليس في مطبوع « ديوانه » .

والسبب الثامن : المحبةُ التي يؤثر بها المحبوبَ علىٰ ماله ، فلا يضنُّ عليه بمرغوب ، ولا ينفسُ عليه بمطلوب ؛ للَّذَّةِ التي هي عنده أحلىٰ ، وإلىٰ نفسه أشهىٰ ؛ لأنَّ النفس إلىٰ محبوبها أشوَقُ ، وإلىٰ مُمايلته أسبَقُ .

وقد قال الشاعر[1] : [من الطويل]

وما زُرتُكُمْ عَمْداً ولٰكنَّ ذا الهَوىٰ ... إلىٰ حيثُ يَهوى القلبُ تَهوِي به الرِّجلُ

وهٰذا وإن دخل في أقسام العطاء . . فخارجٌ عن حدِّ السخاء ، وهكذا الخامس والسادس من هٰذه الأسباب ، وإنَّما ذكرناها ؛ لدخولها تحت أقسام العطاء .

والسبب التاسع وليس بسبب : أن يفعل ذلك لغير ما سبب ، وإنَّما هي منه سَجيّة قد فُطِر عليها ، وشِيمة قد طُبِع بها ، فلا يميِّزُ بين مستحقٍّ ومحروم ، ولا يفرِّق بين محمود ومذموم ؛ كما قال بشار[2] : [من الخفيف]

ليسَ يُعطِيكَ للرَّجاءِ ولا ٱلخَوْ ... فِ ولٰكنْ يَلَذُّ طَعْمَ العَطاءِ

وقد اختلَف الناسُ في مثل هٰذا ؛ هل يكون منسوباً إلى السخاء فيُحمَدَ ، أو خارجاً عنه فيُذَمَّ ؟

فقال قوم : هٰذا هو السخيُّ طبعاً ، والجوادُ كرماً ، وهو أحقُّ ممَّن كان به ممدوحاً ، وإليه منسوباً .

قالوا : (والتمييزُ شطرُ البخلِ ، والبذلُ لسببٍ إلجاءُ ضرورةٍ) .

وقال أبو تمّام[3] : [من البسيط]

مِن غيرِ ما سبَبٍ يُدنِي كفىٰ سبباً ... للحُرِّ أن يَجتديْ حُرّاً بلا سبَبِ

---

(١) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٨٦) لعبد الملك الحارثيِّ المعروف بـ(اللَّجلاج) .

(٢) البيت في « ديوانه » (١/ ١٣٦) .

(٣) البيت في « ديوانه » (١/ ١١٥) .

وقد قال الحسن بن سهل : (إذا لم أُعطِ إلا مستحِقّاً . . فكأنِّي أعطيت غريماً)[1] .

وقال : (الشَّرفُ في السَّرَف ، فقيل له : لا خيرَ في السَّرَف ، فقال : لا سَرَفَ في الخير)[2] .

وقال الفضل بن سهل : (العجَبُ لمَن يرجو مَن فوقه كيف يحرِمُ مَن دونه ؟!)[3] .

وقال بشار[4] : [من الطويل]

وما الناسُ إلا صاحبانِ فمنهُمُ سَخِيٌّ ومغلولُ اليدَينِ منَ البُخْلِ
فسامِحْ يداً ما أمكنَتْكَ فإنَّها تُقِلُّ وتُثري والعَواذِلُ في شُغْلِ

وقال آخرون : هٰذا خارجٌ من السخاء المحمود إلى السَّرَف والتبذير المذموم ؛ لأنَّ العطاء إذا كان لغير سببٍ . . كان المنعُ لغير سبب ؛ لأنَّ المال يقِلُّ عن الحقوق ، ويقصرُ عن الواجبات ؛ فإذا أعطىٰ غيرَ مستحِقٍّ . . فقد يمنع مستحِقّاً .

وما يناله من الذمِّ بمنع المستحِقِّ أكثرُ ممَّا يناله من الحمد بإعطاء غيرِ المستحِقِّ ، وحسبُكَ ذمّاً بمَن كانت أفعاله تصدر عن غير تمييز ، وتوجد لغير علَّة .

وقد قال الله تعالىٰ : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ ، فنهىٰ عن بسطها سَرَفاً ، كما نهىٰ عن قبضها بُخلاً ، فدلَّ على استواء الأمرين ذمّاً ، وعلى اتفاقهما لوماً .

وقال الشاعر[5] : [من الوافر]

وكانَ المالُ يأتينا فكُنَّا نُبذِّرُهُ وليسَ لنا عُقُولُ

---

(١) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ١٤٧) .
(٢) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ١٣٥) ، و« بهجة المجالس » (١/ ٦١٤) .
(٣) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ١٤٧) .
(٤) البيتان في ملحق « ديوانه » (٤/ ١٦٤) .
(٥) أورده في « محاضرات الأدباء » (٢/ ٢٩٠) دون نسبة ، والبيتان خبرٌ لفظاً وتحسُّرٌ وندامةٌ معنىً .

فلمّا أنْ تولّى المالُ عنّا عقَلْنا حينَ ليس لنا فُضُولُ

قالوا : ولأنَّ العطاء والمنع إذا كانا لغير علَّةٍ . . أفضيا إلىٰ ذمِّ الممنوع ، وقلَّة شكرِ المُعطَىٰ ؛ أمَّا الممنوعُ . . فلأنه قد فُضِّل عليه مَن ساواه .

وأمّا المُعطَىٰ . . فلأنَّه وجد ذلك اتِّفاقاً ، وربَّما أمَّل بالاتِّفاق أضعافاً ، فصار ذلك مُفضياً إلى اجتلاب الذمِّ ، وإحباط الشكر ، وليس فيما أفضىٰ إلىٰ واحدٍ منهما خيرٌ يُرجىٰ ، وهو جديرٌ أن يكونَ شرّاً يُتَّقىٰ ، ولمثل هـٰذا قيل : (منعُ الجميعِ أرضىٰ للجميعِ)[1] ، وعطاءٌ يكون المنع أرضىٰ منه . . خسرانٌ مبين .

❁ ❁ ❁

فأمَّا إذا كان البذل والعطاء عن سؤالٍ وطلبٍ . . فشروطه معتبرةٌ من وجهين : أحدهما : في السائل ، والثاني : في المسؤول .

❁ ❁ ❁

فأمّا ما كان معتبراً في السائل . . فله ثلاثة شروط :

الشرط الأول : أن يكون السؤال لسبب ، والطلب لموجِب ؛ فإن كان لضرورةٍ . . ارتفع عنه الحرَج ، وسقط عنه اللَّوم .

وقد قال بعض الحكماء : (الضرورةُ توقِّحُ الصورةَ) .

وقال بعض الشعراء[2] : [من الطويل]

ألا قبَّحَ اللهُ الضَّرورةَ إنَّها تُكلِّفُ أعلى الخَلْقِ أدنى الخَلائقِ
وللهِ دَرُّ الِاتِّساعِ فإنَّهُ يُبيِّنُ فضلَ السَّبقِ من غير سابقِ

وقال الكميت[3] : [من الطويل]

إذا لم يكنْ إلا الأسنَّةَ مَركَبٌ فلا رأيَ للمُضطَرِّ إلا رُكُوبُها

---

(١) أورده في « جمهرة الأمثال » (٢/ ١٩٥) ، و« عيون الأخبار » (٢/ ٤) من قول محمد بن الجهم .
(٢) أورد البيتين في « التمثيل والمحاضرة » (ص ١٠٤) .
(٣) البيت في « ديوانه » (ص ٧١) .

فإن ارتفعت الضرورة ، ودعت الحاجة فيما هو أَولى الأمرين أن يكون وإن جاز ألا يكون . . فالنفسُ المُسامِحة تُغلِّب الحاجةَ ، وتسمح في الطلب ، وتراعي ما استقام به الحال ، وانتظم به الأمرُ وإن نالته بذِلَّةٍ ، ولحقها وَهْنٌ ، ويُتأوَّل لصاحبها قولُ البحتريّ[1] : [من البسيط]

وربَّما كان مكروهُ الأمورِ إلىٰ محبوبِها سبَباً ما مِثْلُه سَبَبُ

والنفس الشريفة تطلب الصيانة ، وتراعي النزاهة ، وتحتمل من الضُّرِّ ما احتملت ، ومن الشدَّة ما أطاقت ؛ ليبقىٰ تجمُّلُها ، ويدومَ تصوُّنها ، فتكونَ كما قال الشاعر[2] : [من المتقارب]

رَأَوا بِزَّتي فقَضَوا أنَّني منَ المالِ في ثروةٍ مُثْرِيَةْ
فقلتُ لهُمْ ليسَ ما قِستُمُ سواءً لدى العدلِ والتَّسوِيَةْ
وقد يَكْتسي المرءُ خَزَّ الثِّيابِ ومِن دُونِها حالةٌ مُضنِيَةْ
كمن يكتسي خَدُّهُ حُمْرةً وعِلّتُها وَرَمٌ في الرِّيَةْ

ولا يرىٰ أن يتدنَّس بمطالب الشؤم ، ومطالع اللؤم ؛ فإنَّ من البهائم الوحشية ما يأبىٰ ذلك ، ويأنف منه ، قال الشاعر[3] : [من الوافر]

وليسَ اللَّيثُ من جُوعٍ بغادٍ علىٰ جِيَفٍ تحيطُ بها كلابُ

فكيف بالإنسان الفاضل الذي هو أكرمُ الحيوان جنساً ، وأشرفُه نفساً ، هل يحسن به أن يرىٰ لوحشيِّ البهائم عليه فضلاً ؟!

وقد قال الشاعر[4] : [من الطويل]

علىٰ كلِّ حالٍ يأكُلُ المرءُ زادَهُ على البؤسِ والضَّرّاءِ والحَدَثانِ

والفضلُ في مثل هـٰذا ما قيل لبعض الزُّهّاد : (لو سألتَ جارك . . لأعطاك ؟

(١) البيت في « ديوانه » (١/ ١٧١) .
(٢) الأبيات في « ديوان البستي » (ص ٣٩٨) .
(٣) أورده في « يتيمة الدهر » (٣/ ٦٠) ، و« محاضرات الأدباء » (٢/ ٣١٨) لابن حجّاج .
(٤) أورد البيت في « مجالس ثعلب » (٢/ ٤٢١) ، و« التذكرة الحمدونية » (٤/ ٣٢٠) لأعرابية .

فقال : والله ؛ ما أسألُ الدنيا مَن يملكها ، فكيف مَن لا يملكها ؟!)[1] .

ووصف بعض الشعراء قوماً فقال[2] : [من الطويل]

إذا افتقَرُوا أَغضَوا على الضُّرِّ حِسبةً وإن أيسَرُوا عادُوا سِراعاً إلى الفَقْرِ

فأمّا مَنْ يسأل من غير ضرورةٍ مسَّتْ ، ولا حاجةٍ دعَتْ . . فذلك صريحُ اللؤم ، ومحضُ الدَّناءة ، وقلَّما تجد مثله ملحوظاً ، أو مموَّلاً محظوظاً ؛ لأن الحِرمانَ قاده إلىٰ أضيق الأرزاق ، واللؤمَ ساقه إلىٰ أخبث المطاعم ، فلم يبق لوجهه ماءٌ إلا أراقه ، ولا ذلٌّ إلا ذاقه ؛ كما قال عبد الصمد بن المُعذَّل لأبي تمَّام الطائيّ[3] : [من الخفيف]

أنـتَ بيـنَ اثنتيـنِ تبـرز للنَّـا سِ وكِلتـاهُمـا بـوجـهٍ مُـذالِ
لسـتَ تنفَـكُّ طـالبـاً لـوصـالٍ مـن حبيـبٍ أو طـالبـاً لنَـوالِ
أيُّ مـاءٍ لحُـرٍّ وجهِـكَ يبقـىٰ بيـنَ ذلِّ الهـوىٰ وذلِّ السـؤالِ

ولو استقبحَ العارَ ، وأنِفَ من الذُّلِّ . . لوجد غيرَ السؤال مَكسباً يمونه ، ولَقدَرَ علىٰ ما يقلُّه ويصونه .

وقد قال الشاعر[4] : [من الكامل]

لا تطلبَـنَّ مَعيشـةً بتـذلُّـلٍ فلَيـأتينَّـكَ رزقُـكَ المَقـدورُ
واعلـمْ بـأنَّـكَ آخـذٌ كـلَّ الـذي لـك فـي الكتـابِ مُحبَّـرٌ مَسطـورُ

والشرط الثاني من شروط السؤال : أن يضيق الزمان عن إرجائه ، ويقصر الوقت عن إبطائه ، فلا يجد لنفسه في التأخير فُسحة ، ولا في التَّمادي مُهلة ، فيصير من المعذورين ، وداخلاً في عداد المضطرِّين .

فأمّا إذا كان الوقت متَّسعاً ، والزمان ممتدّاً . . فتعجيلُ السؤال لؤمٌ وقُنوطٌ .

---

(١) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٨٠) ، و« تاريخ بغداد » (٢٠/ ٦٤) من قول سالم بن عبد الله بن عمر مع الخليفة هشام بن عبد الملك .
(٢) أورده في « المجالسة وجواهر العلم » (١٥٨٠/م) ، و« عيون الأخبار » (١/ ٢٤٧) .
(٣) الأبيات في « ديوانه » (ص ١٦١) ، ومُذال : مهان .
(٤) أورد البيتين في « روضة العقلاء » (١/ ٥٢٢) .

وقال الشاعر[1] : [من الطويل]

أبىٰ ليَ إغضاءَ الجُفونِ على القَذىٰ ... يقينِــيَ أنْ لا عُســرَ إلا مُفــرَّجُ

ألا رُبَّمــا ضــاقَ الفضــاءُ بــأهلِــهِ ... وأمكــنَ مــن بيــنِ الأسنَّــةِ مَخــرَجُ

والشرط الثالث : اختيار المسؤول أن يكون مرجوَّ الإجابة ، مأمولَ النُّجح ؛ **إمّا لحرمة السائل** ، أو لكرمٍ في المسؤول ؛ **فإنَّ مَن سأل لئيماً لا يراعي حرمةً** ، ولا يُولي مَكرُمةً . . **فهو في اختياره ملوم** ، وفي سؤاله محروم .

وقد قال بعض الحكماء : (**المخذولُ** : من كانت له إلى اللِّئام حاجةٌ)[2] .

وقال بعض البلغاء : (**أذلُّ من اللئيم سائلُه** ، **وأقلُّ من البخيل** نائلُه) .

وقال بعض الشعراء[3] : [من مجزوء الكامل]

مَــن كــان يــأمُــلُ أن يــرىٰ ... مــن ســاقــطٍ أمــراً سَنيّــا

فلقـــد رَجـــا أنْ يَجتنِـــيْ ... مـــن عَـــوْسَـــجٍ رُطَبــاً جَنِيّــا

وأما الشروط المعتبرة في المسؤول . . فثلاثة :

فالشرط الأوّل : أن يكتفيَ بالتعريض ، ولا يُلجِىءَ إلى السؤال الصريح ؛ **ليصونَ السائلَ عن ذلِّ الطلب** ، **فإنَّ الحالَ ناطقةٌ** ، والتعريضَ كافٍ ، وقد قال الشاعر[4] : [من المتقارب]

أقــولُ وسِتــرُ الــدُّجــىٰ مُسبَــلُ ... كمــا قــال حيــنَ شكــا الضِّفْـدِعُ

---

(١) أورد البيتين القاضي التنوخيّ في « الفرج بعد الشدّة » (٥/ ٨٩) لمحمد بن وهيب الحميريّ .

(٢) أورده في « لباب الآداب » (ص٤٢٩) .

(٣) أورد البيتين في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٢٦٩) دون نسبة ، وفي النسخ عدا (أ) : (من ساقطٍ نيلاً سنيا) .

(٤) أورد البيتين في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٢٦١) دون نسبة ، ولقد عرض الشاعر بقصة الضِّفْدع الذي استقرض قمحاً من نملة فردَّته ، وقالت : لا أرعىٰ جاراً ضيع صيفه بالقهقهة ، فلعل الشاعر استحيا من تلقي مثل جواب النملة ، فتستر بالدجىٰ ونادىٰ رجاء الإجابة .

كــلامــيَ إنْ قلتُــهُ ضــائــري ... وفـي الصَّمـتِ حَتْفـي فمـا أصنَـعُ

وربّما فهم المسؤول الإشارة ، فألجأ إلى التصريح بالعبارة ؛ **تهجيناً للسائل ليخجلَ فيُمسكَ** ، ويستحييَ فيكفَّ ، فيكون كما قال أبو تمّام[1] : [من الكامل]

مَن كـانَ مفقـودَ الحَيـاءِ فـوَجهُـهُ ... مـن غيـرِ بَـوَّابٍ لـه بَـوَّابُ

* * *

والشرط الثاني : أن يَتلقَّىٰ بالبشر والترحيب ، ويقابِل بالطَّلاقة والتقريب ؛ **ليكون مشكوراً إن أعطىٰ ، ومعذوراً إن منع** .

وقد قال بعض الحكماء : (**اِلقَ صاحبَ الحاجة بالبِشر ؛ فإنْ عدِمتَ شكرَه .. لم تعدَمْ عذرَه**)[2] .

وحكى ابنُ لَنْكَكَ : أنَّ أبا بكر بن دُرَيد قصد بعض الوزراء في حاجةٍ فلم يقضِهَا ، وظهر له منه ضجر ، فقال[3] : [من الكامل]

لا تـدخُلَنَّـكَ ضَجْـرةٌ مـن سائـلٍ ... فلَخيـرُ دهـرِكَ أن تُـرىٰ مسـؤولا
لا تجبَهَـنْ بـالـرَّدِّ وجـهَ مـؤمِّـلٍ ... فبقـاءُ عِـزِّكَ أن تُـرىٰ مـأمـولا
تَلقـى الكـريـمَ فتستـدِلُّ ببِشْـرِهِ ... وتَرى العُبوسَ على اللئيمِ دليلا
واعلَـمْ بـأنَّـكَ عـن قليـلٍ صـائـرٌ ... خبَـراً فكـنْ خبَـراً يـروقُ جميـلا

* * *

والشرط الثالث : تصديق الأمل فيه ، وتحقيق الظنِّ به ، **ثم اعتبار حاله وحال سائله ، فإنَّهما لا يخلوان من أربع أحوال** :

فـالحـال الأولـىٰ : أن يكـون السـائـل مستـوجبـاً ، والمسـؤول متمكِّنـاً ؛

---

(١) البيت في « ديوانه » (٤/ ٣١١) .

(٢) أورده في « التذكرة الحمدونية » (٨/ ١٥٩) ، و« ربيع الأبرار » (٢/ ٥٧٦) .

(٣) الأبيات عدا الثالث منها في « ديوانه » (ص ١٠٥) ، وهي جميعها في « ديوان محمد بن حازم الباهليّ » (ص٩١ـ البقاعي) .

فالإجابةُ هٰهنا تُستحَقُّ كرماً ، وتلزم مروءةً ، وليس إلى الردِّ سبيل إلا لمَن استولىٰ عليه البخل ، وهان عليه الذمُّ ، فيكون كمن قال فيه عبد الرحمٰن بن حسان[1] : [من الكامل]

إنِّي رأيتُ منَ المَكارمِ حسبَكُمْ ... أنْ تلبَسُوا خزَّ الثِّيابِ وتشبَعُوا
فـإذا تُـذُكِّـرَتِ المَكـارِمُ مـرّةً ... فـي مَجلـسٍ أنتُـمْ بـهِ فتقَنَّعُـوا

ونعوذ بالله ممَّن حرم ثروةَ ماله ، ومنع حُسنَ حاله . . أن يكون مستودَعاً في صنيعٍ مشكور ، وبرٍّ مذخور .

قيل لبخيل : (لمَ حبستَ مالك ؟ قال : للنوائب ، قيل : فقد نزلت بك) .

وقال بعض الشعراء : [من السريع]

مـا لَـكَ مـن مـالِـكَ إلا الـذي ... قـدَّمْـتَ فـابـذُلْ طـائعـاً مـالَكـا
تقـولُ أعمـالـي ولـو فتَّشُـوا ... رأيـتَ أعمـالَـكَ أعمـىٰ لَكـا

ثم قد أسقط حقَّ نفسه ، ورفع أسباب شكره ، فصار كأنْ لا حقَّ له ؛ مذموماً كمشكور ، ومأثوماً كمأجور .

قال أبو العتاهية[2] : [من الكامل]

جُـزِيَ البخيـلُ علـيَّ صـالحـةً ... إذْ لـم يُثقِّـلْ بِـرُّهُ ظَهْـري
أَعلـىٰ ونَـزَّهَ عـن يـدَيـهِ يـدِي ... فعلَـتْ ونـزَّهَ قـدرُهُ قَـدْري
مـا فـاتَنـي خيـرُ امـرىءٍ وضعَـتْ ... عنِّـي يـداهُ مَـؤُونـةَ الشُّكـر
ورُزِقْـتُ مِـن جَـدْواهُ عـاقبـةً ... ألاّ يضيـقَ بشُكْـرِهِ صَـدْري

فإذا لم يكن إلى الردِّ في مثل هٰذه الحال سبيلٌ . . نظر ؛ فإن كان التأخير مضرّاً . . عجَّل بَذْلَه ، وقطع مَطْلَه ، وكانت إجابته فعلاً ، وقوله عملاً .

---

(١) البيت الأول في « كتاب سيبويه » (٣/ ١٥٣) لعبد الرحمٰن ، ونسبهما في « الزهرة » (٢/ ٣٥٥) لسيدنا حسان بن ثابت رضي الله عنه .
(٢) الأبيات في « ديوانه » (ص ١٧١) .

وقد قال بعض الحكماء : (من مروءة المطلوب إليه : ألا يُلجِئَ إلى الإلحاح عليه) .

وقال محمد بن حازم[1] : [من الوافر]

ومنتظرٍ سُـؤالَـكَ بـالعَطـايـا وأشـرفُ مِـن عَطـايـاهُ السُّـؤالُ
إذا لـم يـأتِـكَ المعـروفُ طَـوْعـاً فـدَعْـهُ فـالتَّنـزُّهُ عنـه مـالُ

وإن كان في الوقت مهلةٌ ، وفي التأخير فسحةٌ . . فقد اختلفت مذاهب الفضلاء فيه :

ـ فذهب بعضهم إلىٰ أنَّ الأولىٰ : تعجيلُ الوعد قولاً ، ثم يتعقَّبه الإنجازُ فعلاً ؛ ليكون السائل مسروراً بتعجيل الوعد ، ثم بآجل الإنجاز ، ويكون المسؤول مرهوناً بالكرم ، ملحوظاً بالوفاء .

وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « العِدَةُ عَطيّةٌ »[2] .

وقال الفضل بن سهل لرجلٍ سأله حاجةً : (أَعِدُك اليومَ ، وأحبُوكَ غداً بالإنجاز ؛ لتذوق حلاوة الأمل ، وأتزيَّن بثوب الوفاء)[3] .

ووعد يحيى بن خالد رجلاً بحاجةٍ سأله إياها ، فقيل له : (تعِدُ وأنت قادر ؟! فقال : إنَّ الحاجة إذا لم يتقدَّمْها وعدٌ ينتظر صاحبُها نُجْحَه . . لم يجد سرورَها ؛ لأنَّ الوعدَ طُعْم ، والإنجازَ طعامٌ ، وليس مَن فاجأه الطعام كمَن يجد رائحته ويتطعَّمُه ، فدعِ الحاجة تختمر بالوعد ؛ ليكون لها طَعمٌ عند المصطنَع إليه)[4] .

وقال بعض البلغاء : (إذا أحسنت القول . . فأحسن الفعل ؛ ليجتمع لك مزيّةُ اللسان ، وثمرةُ الإحسان ، ولا تقُلْ ما لا تفعل ؛ فإنَّك لا تخلو في ذلك من ذنبٍ تكتسبه ، أو عجزٍ تلتزمه)[5] .

---

(١) البيتان في « ديوانه » (ص٨٥ـ العاشور) ، وأوردهما في « ديوان المعاني » (١/ ١٣٩) .
(٢) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٨/ ٢٥٩) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .
(٣) رواه في « ديوان المعاني » (٢/ ٢٠٥) ، و« الطيوريّات » (٦٨٤) .
(٤) رواه في « ديوان المعاني » (٢/ ٢٠٤) ، وأورد بعضه في « بهجة المجالس » (١/ ٤٩٥) .
(٥) انظر « فيض القدير » (٤/ ٣٧٧) .

ـ ومنهم مَن ذهب إلىٰ : أنَّ تعجيل البذل فعلاً من غير وعدٍ أَولىٰ ، وتقديمَه من غير ترقُّبٍ ولا انتظارٍ أَهنىٰ ، **وإنَّما يقدِّم الوعدَ واحدٌ من رجلين** : إمَّا مُعوزٌ ينتظر جِدَةً ، وإمَّا شحيحٌ يروض نفسَه توطئةً ، **وليس للوعد في غير هاتين الحالتين وجهٌ يصحُّ** ، ولا رأيٌ يتَّضح مع ما يغيِّره الليل والنهار ، وتتقلَّبُ به الحال من يسارٍ وإعسار .

وقال بعض الشعراء[1] : [من مجزوء الكامل]

يَـا أيُّهَـا المَلِـكُ المُقَـدَّ ... مُ أمـرُهُ شَـرقـاً وغَـرْبـا
أُمنُـنْ بخَتْـمِ صَحيفتـي ... مـا دامَ هـٰذا الطِّيـنُ رَطْبـا
واعلَـمْ بـأنَّ جَفـافَـهُ ... ممّـا يُعيـدُ السَّهـلَ صَعْبـا

قالوا : (ولأنَّ **في الرجوع عنه من الانكسار** ، **وفي توقُّع الوعد** من مرارة الانتظار ، **وفي العَود إليه** من بِذْلة الاقتضاء ، وذِلّة الاجتداء . . **ما يكدِّرُ بِرَّه ، ويُوهِنُ شكرَه**) .

وقد قال الشاعر[2] : [من الكامل]

إنَّ الحـوائـجَ ربَّمـا أزرىٰ بهـا ... عنـدَ الـذي تُقضـىٰ لـه تطـويلُهـا
فإذا ضمِنْتَ لصاحبٍ لك حاجةً ... فـاعلَـمْ بـأنَّ تمـامَهـا تعجيلُهـا

والحال الثانية : أن يكون السائلُ غيرَ مستوجِب ، والمسؤولُ غيرَ متمكِّن ؛ **ففي الردِّ فسحة** ، وفي المنع عذر ، **غير أنه يلين عند الردِّ ليناً يقيه الذمَّ** ، ويُظهر عذراً يدفع عنه اللَّوم ؛ **فليس كلُّ مقلٍّ يعرف ، ولا كلُّ معذورٍ ينصف** .

وقال أبو العتاهية يصف الناس[3] : [من الطويل]

أيـا رَبِّ إنَّ النَّـاسَ لا يُنصِفُـونَنـي ... فكيـفَ وإنْ أنصَفتُهُـمْ ظَلَمُـونـي

---

(١) أورد الأبيات في « الأوائل » (ص ٧٠) ، و« محاضرات الأدباء » (١/ ٢١٤) .

(٢) أورد البيتين في « تاريخ إربل » (١/ ١٨٨) .

(٣) الأبيات في « ديوانه » (ص ٣٦٥) .

وإنْ كان لي شيءٌ تصَدَّوا لأخذِهِ | وإنْ جئتُ أبغي شيئَهُم مَنَعُوني
وإنْ نالَهُمْ بَذْلي فلا شُكرَ عندَهُمْ | وإنْ أنا لم أبذُلْ لهُمْ شتَمُوني
وإنْ طرَقَتْني نَكبةٌ فَكِهُوا بها | وإنْ صحِبَتْني نِعمةٌ حَسَدُوني
سأمنَعُ قلبي أنْ يحِنَّ إليهِمُ | وأحجُبُ عنهُمْ ناظري وجُفُوني
وأقطَعُ أيّامي بيومِ سُهولةٍ | أُقضِّي بها عُمري ويومِ حُزونِ
ألا إنَّ أصفى العيشِ ما طابَ غِبُّهُ | وما نِلتَه في لذّةٍ وسُكُونِ

❁ ❁ ❁

والحال الثالثة : أن يكون السائل مستوجِباً ، والمسؤولُ غيرَ متمكِّن ، **فيأتي بالحمل على النفس ما أمكن من يسيرٍ يسدُّ خَلّةً** ، ويدفع مَذمّةً ، **أو يوضح من أعذار المُعوِزين** أو توجُّع المتألِّمين . . **ما يجعله في المنع معذوراً** ، وبالتوجُّع مشكوراً ؛ كما قال أبو النصر العُتْبيُّ رحمه الله[1] : [من البسيط]

اللهُ يعلَمُ أنّي لستُ ذا بَخَلٍ | ولستُ ملتمِساً في البُخلِ لي عِلَلا
لكنَّ طاقةَ مِثْلي غيرُ خافيةٍ | والنَّملُ يُعذَرُ في القَدْر الذي حَمَلا

وربَّما تحسَّر بحدوث العجز بعد تقدُّم القدرة علىٰ فَوت الصَّنيعة ، وزوال العادة ، **حتّىٰ صار أنضىٰ جسداً** ، وأزيدَ كَمَداً ؛ كما قال بعض الشعراء[2] : [من الطويل]

وكنتُ كبازِ الجوِّ قُصَّ جناحُهُ | يرىٰ حسراتٍ كلَّما طارَ طائرُ
يرىٰ طائراتِ الجوِّ يخفِقْنَ حَولَهُ | فيذكُرُ إذْ رِيشُ الجناحَينِ وافرُ

❁ ❁ ❁

والحال الرابعة : أن يكون السائلُ غيرَ مستوجِب ، والمسؤولُ متمكِّناً ، وعلى البذل قادراً ، فينظر ؛ **فإن خاف بالردِّ قدحَ عِرضٍ** ، أو قبحَ هجاءٍ مُمِضٍّ . . **كان إلى البذل مندوباً** ؛ صيانةً لا وجوباً .

---

(١) أورد البيتين في « يتيمة الدهر » (٤/٤٦٦) .
(٢) أورد البيتين في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٣٦٦) .

فقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما وقى المرءُ بهِ عِرْضَه . . فهو لهُ صَدَقةٌ »[1] .

وإن أمن ذلك وسلم منه ؛ فمن الناس مَن غلَّب المسألة ، وأمر بالبذل ؛ لئلاّ يقابلَ الرجاءَ بالخَيبة ، والأملَ بالإياس ، ثم لما فيه من اعتياد الردِّ ، واستسهال المنع ، وكما أن اعتياد البذل مفضٍ إلى السخاء . . كذلك اعتيادُ المنع مفضٍ إلى الشحِّ .

وأنشد الأصمعيُّ عن الكسائيِّ[2] : [من الوافر]

كـأنَّـكَ فـي الكتـابِ وجَـدْتَ لاءً   مُحـرَّمـةً عليـكَ فـلا تحِـلُّ
فمـا تـدري إذا أعطيـتَ مـالاً   أيكثـرُ مِـن سمـاحِـكَ أم يقِـلُّ
إذا حضَـرَ الشِّتـاءُ فـأنـتَ شمسٌ   وإنْ حضَـرَ المَصِيفُ فـأنـتَ ظِـلُّ

ومن الناس مَن اعتبر الأسباب ، وغلَّب حال السائل ، وندب إلى المنع إذا كان العطاء في غير حقٍّ ؛ ليقوىٰ على الحقوق إذا عرضت ، ولا يعجز عنها إذا لزمت وتعيَّنت .

وقال بعض الشعراء[3] : [من الخفيف]

لا تجُـدْ بـالعَطـاءِ فـي غيـرِ حـقٍّ   ليس في مَنْعِ غيرِ ذي الحقِّ بُخْلُ
إنَّمـا الجُـودُ أن تجُـودَ علـىٰ مَـن   هُـوَ للجُـودِ والنَّـدىٰ منـكَ أَهْـلُ

فأمّا مَن أجاب السؤال ، ووعد بالبذل والنَّوال . . فقد صار بوعده مرهوناً ، وصار وفاؤه بالوعد مقروناً ، ولا اعتبارَ باستحقاق السائل بعد الوعد ، ولا سبيلَ

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٥٠) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٣٢٢٠) عن سيدنا جابر رضي الله عنه .
(٢) البيتان الأخيران لبكر بن النَّطّاح في « ديوانه » (ص ٣١) ، وأوردها في « العقد الفريد » (٣/ ٤٥٠) دون نسبة .
(٣) البيتان لصالح بن عبد القدّوس في « ديوانه » (ص ١١٨) .

إلىٰ مراجعة نفسه في الردِّ ، **فيستوجب مع ذمِّ المنع لؤمَ المُخلِف** ، ومقتَ الغادر ، وهُجْنةَ الكَذُوب .

ثم لا سبيلَ إلىٰ مَطله بعد الوعد ؛ لما في المَطل من تكدير الصَّنيع ، وتمحيق الشكر ، والعرب تقول في أمثالها : (**المَطلُ** : أحدُ المَنْعَين ، **واليأسُ** : أحدُ النُّجْحَين)[1] .

وقال بشار بن برد[2] : [من الطويل]

أظلَّتْ علينا منكَ يوماً غمامةٌ   أضاءَتْ لنا بَرْقاً وأبطَا رَشاشُها
فلا غَيْمُها يُجلىٰ فييئسَ طامعٌ   ولا غَيْثُها يأتي فيُروىٰ عِطاشُها

ثم إذا أنجز وعده ، وأوفىٰ عهده . . **لم يُتبع نفسَه ما أعطىٰ** ، وسُرَّ إذْ كانت يدُه العُليا ، قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « **اليدُ العُليا خيرٌ منَ اليدِ السُّفلىٰ** »[3] .

وقال الشاعر[4] : [من الطويل]

وإنَّكَ لا تدري إذا جاءَ سائلٌ   أأنتَ بما تُعطيهِ أم هُوَ أسعَدُ
عسىٰ سائلٌ ذو حاجةٍ إنْ منعتَهُ   منَ اليومِ سُؤلاً أن يكونَ له غَدُ

وليكن من سروره إذ كانت الأرزاق مقدَّرةً ، أن تكونَ علىٰ يده جاريةً ، ومن جهته واصلةً ، لا تنتقل عنه بمنع ، ولا تتحوَّل عنه بإياس .

حُكي : أنَّ رجلاً شكا كثرة عياله إلىٰ بعض الزهّاد ، فقال : (**انظر مَن كان منهم ليس رزقُه على الله تعالىٰ . . فحوِّلْه إلىٰ منزلي**)[5] .

وقال ابن سيرين لرجلٍ كان يأتيه علىٰ دابّةٍ ، ففقد الدابة ولم يَرَها تحته ، فقال

---

(١) أورده في « البصائر والذخائر » (٩/ ١٩) ، و« التذكرة الحمدونية » (٩/ ٢٥٨) .

(٢) البيتان في « ديوانه » (٤/ ١٠٤) .

(٣) رواه البخاري (١٤٢٩) ، ومسلم (١٠٣٣) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

(٤) أورد البيتين في « خزانة الأدب » (٨/ ٥٥٩) لأبي اللَّحّام حُرَيث التغلبيّ .

(٥) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (١٢٧٢) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦/ ٣٤٥) ، **والزاهد** : إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالىٰ .

له : (ما فعل بِرذَوْنُكَ ؟ قال : اشتدَّت عليَّ مَؤونتُه فبعتُه ، قال : **أفَتراه خلَّف رزقَه عندك ؟**)[1] .

وقال ابن الروميِّ[2] : [من الخفيف]

أنَّ للهِ غيـرَ مَـرعـاكَ مَـرعـىً ... نـرتعِيـهِ وغيـرَ مـائِـكَ مـاءَ

أنَّ للهِ بـالبَـريّـةِ لُطْفـاً ... سَبَـقَ الأُمّهـاتِ والآبـاءَ

ثم ليكن غالبُ عطائه لله تعالىٰ، وأكثرُ قصده ابتغاءَ ما عنده؛ كالذي حكاه أبو بكرة عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالىٰ عنه : أنَّ أعرابياً أتاه فقال : [من مشطور الرجز]

يـا عُمَـرُ الخيـرَ جُـزِيـتَ الجَنَّـةْ

أُكـسُ بُنَيّـاتـي وأُمَّهُنَّـهْ

وكُـنْ لنـا مـنَ الـزَّمـان جُنَّـةْ

أُقسِـمُ بـاللهِ لَتفعَلَنَّـهْ

فقال عمر رضي الله عنه : (**إن لم أفعل . . يكون ماذا ؟**) فقال :

إذاً أبـا حَفـصٍ لأذهبَنَّـهْ

فقال : (**فإذا ذهبتَ . . يكونُ ماذا ؟**) قال :

يكـونُ عـن حـالـي لَتُسـأَلَنَّـهْ

يـومَ تكـونُ الأُعطِيـاتُ هَنَّـهْ

ومَـوقِـفُ المسـؤولِ بينَهُنَّـهْ

إمّـا إلـىٰ نـارٍ وإمّـا جَنَّـةْ

فبكىٰ عمر رضي الله عنه حتَّى اخضلَّت لحيتُه ، ثم قال : (**يا غلامُ ؛ أعطِه قميصي هـٰذا لذلك اليوم ، لا لشعره ، أمَا والله ؛ لا أملكُ غيرَه**)[3] .

فإذا كان العطاء علىٰ هـٰذا الوجه . . خلا من طلب جزاءٍ وشكر ، وعرِي من

---

(١) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٢/ ٢٦٥) ، وصاحب البرذون : سَلْمُ بن قتيبة رحمه الله تعالىٰ .

(٢) البيتان في « ديوانه » (١/ ٨٨) ، وهمزة (أنَّ) مفتوحة في الموضعين ؛ لأنها مسبوقة بـ(تعلَّمْ) و(تيقَّنْ) .

(٣) رواه الجريريّ في « الجليس الصالح » (٢/ ٢٣٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٤/ ٣٤٩) .

امتنانٍ ونشر ، فكان ذلك أشرفَ للباذل ، وأهنأَ للقابل .

فأمّا المُعطي إذا التمس بعطائه الجزاءَ ، وطلب به الشكرَ والثناءَ . . **فخارجٌ بعطائه عن حكم السَّخاء ؛ لأنَّه** إن طلب به الشكرَ والثناءَ . . كان صاحب سمعةٍ ورياء ، **وفي هـٰذين من الذمِّ ما يُنافي السخاءَ** ، وإن طلب به الجزاءَ . . كان تاجراً متربِّحاً ، **لا يستحقُّ حمداً ولا مدحاً** .

وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما في تأويل قوله تعالىٰ : ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ : (**إنه الذي يُعطي عطيّةً يلتمس بها أفضلَ منها**) .

وكان الحسن البصري يقول في تأويل ذلك : (**لا تمنُنْ بعملك تستكثرُ علىٰ ربّك**)[1] .

وقال أبو العتاهية[2] : [من الطويل]

وليسَـــتْ يـــدٌ أولَيْتَهـــا بغَنيمــــةٍ إذا كنتَ تبغي أنْ تُعِدَّ لها شُكرا
غِنى المرءِ ما يكفيهِ من سَدِّ خَلّةٍ فإنْ زاد شيئاً عاد ذاكَ الغِنىٰ فَقرا

واعلم : أنَّ الكريم يُجتدَىٰ بالكرامة واللطف ، **والمهين اللئيم يُجتدَىٰ** بالمهانة والعنف ، **فلا يجود إلا خوفاً** ، **ولا يُجيب إلا عنفاً** ، كما قال الشاعر[3] : [من الطويل]

رأَيتُـكَ مِثْـلَ الجَـوْز يمنـعُ لُبَّـهُ صحيحاً ويُعطي خيرَهُ حينَ يُكسَرُ

فاحذر أن تكون المَهانةُ طريقاً إلى اجتدائك ، والخوفُ سبيلاً إلىٰ **إعطائك** ، **فتجرَّ عليك سَفَهَ الطَّغام**[4] ، وامتهانَ اللِّئام ، **وليكن جودُك كرماً ورغباً ، لا لؤماً ورهَباً** ؛ كي لا يكون مع الوَصمة ؛ كما قال العبَّاس بن الأحنف[5] : [من المنسرح]

أُحــرَمُ مِنكُــمْ بمــا أَقــولُ وَقَــدْ نــال بــه العـاشقُـونَ مَـن عَشِقُـوا

---

(١) رواه الطبريّ في « تفسيره » (١٤/ ٢٩/ ١٨٠ـ ١٨١) .

(٢) البيتان في « ديوانه » (ص ١٥٩) ، والبيت الثاني نسبه أبو تمام في « الحماسة » (٣/ ١٤٥) بشرح التبريزيّ لسالم بن وابصة الأسديّ .

(٣) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٢٧١) .

(٤) **الطَّغام** : الأراذل والأوغاد .

(٥) البيتان في « ديوانه » (ص ٢٢١) ، **والذُّبالة** : الفتيلة التي يُصبَح بها السِّراج .

صِـرْتُ كـأنِّـي ذُبـالـةٌ نُصِبَـتْ   تُضِـيءُ للنَّـاسِ وَهْـيَ تحتـرِقُ

وأمّا النوع الثاني من البِرِّ . . فهو المعروف ، ويتنوَّع أيضاً نوعين : قولٌ ، وعملٌ .

فأمّا القولُ : فهو طِيب الكلام ، وحسن البِشر ، والتودُّد بجميل القول ، وهـٰذا يبعث عليه حسن الخلق ، ورقَّة الطبع ، ويجب أن يكون محدوداً كالسخاء ؛ فإنَّه إن أسرف فيه . . كان مَلَقاً مذموماً ، وإن توسَّط واقتصد فيه . . كان معروفاً وبرّاً محموداً .

وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما في تأويل قوله تعالىٰ : ﴿وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ : (إنها الكلامُ الطيِّبُ) .

وكان سعيد بن جُبير يتأوَّل : (أنها الصلوات الخمس) .

وعن مالك رضي الله تعالىٰ عنه أنه قال : (هي قولُ العبدِ : سبحانَ اللهِ ، والحمدُ للهِ ، واللهُ أكبرُ ، ولا إلـٰهَ إلا اللهُ)[١] .

وروىٰ سعيد[٢] ، عن أبي هريرة رضي الله تعالىٰ عنه ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنَّكُم لن تَسَعُوا النّاسَ بأموالِكُمْ ؛ فَلْيَسَعْهُمْ مِنكُمْ بَسْطُ الوجهِ ، وحُسْنُ الخُلُقِ »[٣] .

ورُوي : أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم أُنشِد عنده قولُ الأعرابيِّ :   [من الطويل]

وحَيِّ ذَوِي الأضغانِ تَسْبِ قُلوبَهُمْ   تحيّتُكَ الحُسنىٰ فقد يُرقَعُ النَّغَلْ
فإنْ نبَسُوا بالمكرِ فاعفُ تكرُّماً   وإنْ خَنَسُوا عنكَ الحديثَ فلا تَسَلْ
فـإنَّ الـذي يـؤذيـكَ منه سمـاعُـهُ   وإنَّ الـذي قـالـوا وراءَكَ لـم يُقَـلْ

(١) روى الأقوال الطبريُّ في « تفسيره » (٩/١٥/٣٠٩ ، ٣١٣) ، وقول مالك في « الموطأ » (١/٢١٠) .
(٢) في النسخ عدا (هـ) : (أبو سعيد) والمثبت هو الصواب ؛ لأن المقصود هو سيدنا سعيد بن المسيب رحمه الله تعالىٰ .
(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٥٨٤٢) ، وأبو يعلىٰ في « المسند » (٦٥٥٠) .

فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « **إنَّ منَ الشِّعرِ لحُكْماً ، وإنَّ منَ البيانِ لسِحْراً** »[1] .

وقيل للعتّابيِّ : (إنَّك تلقى العامة ببشرٍ وتقريب ؟ قال : **دفعُ ضغينة بأيسر مؤونة ، واكتسابُ إخوان بأهون مبذول**)[2] .

وقيل في منثور الحكم : (**مَن قلَّ حياؤُه . . قلَّ أحباؤُه**)[3] .

وقال بعض الشعراء[4] : [من الرجز]

بُنـيَّ إنَّ البِـرَّ شـيءٌ هيِّـنُ وجـهٌ طَليـقٌ وكـلامٌ ليِّـنُ

وأنشدني بعض أهل العلم : [من السريع]

المـرءُ لا يُعـرَفُ مِقـدارُهُ مـا لـم تَبِنْ للنـاسِ أفعـالُـهُ

وكـلُّ مَـن يمنعُنـي بِشْـرَهُ فقلَّمـا ينفعُنـي مـالُـهُ

* * *

وأمّا العملُ : فهو بذل الجاه ، والإسعاد بالنفس ، والمعونة في النائبة ، **وهٰذا يبعث عليه حبُّ الخير للناس** ، وإيثارُ الصلاح لهم ، **وليس في هٰذه الأمور سرَفٌ** ، ولا لغايتها حدٌّ ، بخلاف النوع الأول ؛ لأنها وإن كثرت . . فهي أفعال خيرٍ تعود بنفعين ؛ **نفع علىٰ فاعلها** في اكتساب الأجر ، وجميل الذكر ، **ونفع علىٰ المُعان بها في التخفيف عنه** ، والمساعدة له .

وقد روىٰ محمد بن المنكدر ، عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالىٰ عنهما :

---

(١) أورده في « العقد الفريد » (٢/ ٣٣٦) ، و« العمدة » (١/ ٤٠٨) ، **والمنشد** : هو سيدنا العلاء بن الحضرميِّ رضي الله عنه ، والمرفوع رواه الحاكم في « المستدرك » (٣/ ٦١٣) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٤/ ٨٢) . **والنَّغَل** : فساد الجلد في دباغه ، وفي (ج) : (يُرفَع النَّغَلْ) أي : الضِّغن . **ونبسوا** : تكلَّموا أقلَّ الكلام .

(٢) رواه في « تاريخ بغداد » (١٢/ ٤٨٧) ، وأورده في « بهجة المجالس » (١/ ٦٦٥) .

(٣) ذكره في « فيض القدير » (٥/ ٣٣) .

(٤) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (١٤٨) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، وأورده في « محاضرات الأدباء » (١/ ٥٧٢) لسفيان بن عيينة رحمه الله تعالىٰ .

أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « كلُّ معروفٍ صدَقةٌ »[١] .

وقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « صنائعُ المعروفِ تَقي مَصارعَ السُّوءِ »[٢] .

وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : « المعروفُ كاسمه ، وأوّلُ مَن يدخُلُ الجنّةَ يومَ القيامةِ المعروفُ وأهلُهُ »[٣] .

وقال عليّ بن أبي طالب عليه السلام : (لا يزهدَنَّك في المعروف كفرُ مَن كفره ؛ فقد يشكر الشاكر بإضعافِ جحود الكافر)[٤] .

وقال الحطيئة[٥] : [من البسيط]

مَن يفعلِ الخيرَ لا يَعدَمْ جَوازِيَهُ ... لا يذهبُ العُرْفُ بينَ اللهِ والنّاسِ

وأنشد الرِّياشيُّ[٦] : [من الوافر]

يـدُ المعـروفِ غُنْـمٌ حيثُ كـانَـتْ ... تحمَّلَهـا كَفُـورٌ أو شَكُـورُ

ففـي شُكْـرِ الشَّكُـورِ لهـا جـزاءٌ ... وعنـدَ اللهِ مـا كفـرَ الكَفُـورُ

فينبغي لمَن قدر علىٰ إسداء المعروف : أن يعجله حذرَ فواته ، ويبادر به خيفةَ عجزه ، وليعلمْ أنه من فُرَص زمانه وغنائم إمكانه ، ولا يهمله ثقةً بالقدرة عليه ، فكم من واثقٍ بالقدرة زالت عنه ، ومن مهمل المعروف خاب منه ، وكم واثقٍ بقدرةٍ فاتت ، فأعقبت ندماً ، ومعوِّلٍ علىٰ مُكْنةٍ زالت ، فأورثت خجَلاً ؛ كما قال الشاعر[٧] : [من البسيط]

ما زلتُ أسمعُ كَمْ من واثقٍ خَجِلٍ ... حتّى ابتُلِيتُ فكنتُ الواثقَ الخَجِلا

---

(١) رواه البخاري (٦٠٢١) ، والترمذي (١٩٧٠) .

(٢) رواه الشهاب في « المسند » (١٠٢) ، والطبراني في « المعجم الأوسط » (٩٤٣) عن سيدنا معاوية بن حَيْدة رضي الله عنه .

(٣) أورده في « ديوان المعاني » (١/ ١٥٤) ، ورواه ابن شاذان في « مشيخته » (٦٧) .

(٤) أورده المبرّد في « الفاضل » (ص ٩٤) ، و« شرح نهج البلاغة » (١٩/ ٢٤) بنحوه .

(٥) البيت في « ديوانه » (ص ٥١) .

(٦) البيتان لعبد الله بن المبارك في « ديوانه » (ص ٧٩) ، وأوردهما في « ربيع الأبرار » (٥/ ٣٢٣) لجعفر بن محمد الصادق رحمهما الله تعالىٰ .

(٧) أورد البيت في « يتيمة الدهر » (٣/ ١٠٦) لابن حجاج .

ولو فطن لنوائب دهره ، وتحفَّظ من عواقب مكره .. لكانت مغانمُه مذخورة ، ومغارمُه مجبورة .

وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَن فُتِحَ عليه بابٌ منَ الخيرِ . فلْينتهِزْهُ ؛ فإنَّه لا يدري متىٰ يُغلَقُ عنه »[1] .

وروي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لكلِّ شيءٍ ثمرةٌ ، وثمرةُ المعروفِ تعجيلُ السَّراحِ »[2] .

وقيل لأنوشروان : (ما أعظمُ المصائب عندكم ؟ فقال : أن تقدرَ على المعروف ، فلا تصطنعَه حتّىٰ يفوتَ)[3] .

وقال عبد الحميد : (مَن أخَّر الفرصة عن وقتها .. فليكنْ علىٰ ثقةٍ من فَوتها)[4] .

وقال حكيم : (خيرُ البرِّ ما وافقَ وقتَ الحاجة) .

وقال بعض الشعراء[5] : [من الوافر]

إذا هبَّتْ رياحُكَ فاغتنِمْها ... فإنَّ لكلِّ خافقةٍ سُكُونُ

ولا تغفَلْ عنِ الإحسانِ فيها ... فما تدري السُّكونُ متىٰ يكونُ

وإن درَّت نياقك فاحتلبها ... فما تدري الفصيل لمن يكونُ

وحُكي : أن بعض وزراء بني العبّاس مطل راغباً إليه في عملٍ يستكفيه إياه ،

---

(١) رواه الإمام أحمد في « الزهد » (٢٣٣٥) ، وابن المبارك في « الزهد » (١١٧) عن حكيم بن عمير رحمه الله تعالىٰ مرسلاً .

(٢) رواه في « ديوان المعاني » (١/ ١٥٤) من قول سيدنا عمر رضي الله عنه ، وأورده في « شرح نهج البلاغة » (٢٠/ ٢٦٣) من قول سيدنا علي رضي الله عنه .

(٣) ذكره القرطبي في « تفسيره » (٥/ ٣٨٤) .

(٤) ذكره القرطبي في « تفسيره » (٥/ ٣٨٤) معزواً لقائله ، وأورده في « نهاية الأرب » (٦/ ١٣٧) دون نسبة .

(٥) البيتان في « ديوان علي بن أبي طالب » (ص ٢٥٩) ، وفي « ديوان الشافعي » (ص ١٣٣) ، والبيت الثالث زيادة من (هـ) .

فكتب إليه بعد طول المَطل به : [من الوافر]

أمَا يدعُوكَ طُولُ الصَّبرِ منِّي ... على استئنافِ منفعتي وشُغلي
وعلمُكَ أنَّ ذا السلطانِ غادٍ ... علىٰ خطرَين من موتٍ وعَزلِ
وأنَّكَ إنْ تركتَ قضاءَ حقِّي ... إلىٰ وقتِ التَّفرُّغ والتَّخلِّي
ستُصبحُ نادماً أسِفاً مُعزّىً ... علىٰ فَوتِ الصَّنيعةِ عندَ مثلي

وكتب بعض ذوي الحُرمات إلىٰ والٍ قصَّر في رعاية حرمته[1] : [من الكامل]

أعَلى الصِّراطِ تُريدُ رَعْيَةَ حُرمتي ... أمْ في الحِسابِ تمُنُّ بالإنعامِ
للنَّفعِ في الدنيا أُريدكَ فانتبِهْ ... لحوائجي مِن رقدةِ النُّوّامِ

كتب أبو علي البصير إلىٰ بعض الوزراء وقد اعتذر إليه بكثرة الأشغال[2] : [من الطويل]

لنا كلَّ يومٍ نَوبةٌ قد نَنُوبُها ... وليسَ لنا رزقٌ ولا عندَنا فَضْلُ
فإنْ تعتذِرْ بالشُّغْلِ عنّا فإنَّما ... تُناطُ بكَ الآمالُ ما اتَّصلَ الشُّغْلُ

واعلم : أنَّ للمعروف شروطاً لا يتمُّ إلا بها ، ولا يكملُ إلا معها .

فمن ذلك : ستره عن إذاعةٍ يستطيل لها ، وإخفاؤه عن إشاعةٍ يستذلُّ بها ؛ فقد قال بعض الحكماء : (إذا اصطنعتَ المعروفَ . . فاستُرْه ، وإذا اصطُنع إليك . . فانشُرْه)[3] .

وقال دِعْبل الخزاعيُّ[4] : [من المتقارب]

إذا انتقَمُوا أعلَنُوا أمرَهُمْ ... وإن أنعَمُوا أنعَمُوا باكتِتامِ
يقومُ القُعُودُ إذا أقبَلُوا ... وتقعُدُ هيبتُهُمْ بالقِيامِ

---

(١) أورد البيت الأول في « محاضرات الأدباء » (٢/ ٤٠٢) لمعاوية بن أبي أيوب .
(٢) أورد البيت الثاني في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٩١) ، و« معجم الشعراء » (ص ٢٢٦) .
(٣) أورده في « المستطرف » (١/ ٨٩) .
(٤) البيتان في « ديوانه » (ص ٤٢١) .

عَلىٰ أنَّ سترَ **المعروف** من أقوىٰ أسباب ظهوره ، **وأبلغ دواعي نشره ؛ لما** جُبِلت عليه النفوس من إظهار ما أُخفي ، وإعلان ما كُتم .

وقد قال سهل بن هارون(١) : [من البسيط]

خِـلٌّ إذا جئتَـهُ يـومـاً لتسـألَـهُ ... أعطـاكَ مـا ملَكَـتْ كَفّـاهُ واعتـذَرا

يُخفـي صنـائعَـهُ واللهُ يُظهِـرُهـا ... إنَّ الجميـلَ إذا أخفيتَـهُ ظهَـرا

❁ ❁ ❁

ومن شروط المعروف : تصغيرُه عن أن يراه مستكبَراً ، وتقليلُه عن أن يكون مستكثراً ؛ **لئلاّ يصير مُدِلاًّ بطِراً ، أو مستطيلاً أَشِراً** .

قال العبّاس بن عبد المطلب رضي الله تعالىٰ عنه : (**لا يتمُّ المعروف إلا بثلاث خصال** : تعجيلِهِ ، وتصغيرِهِ ، وسترِهِ ؛ **فإذا عجَّلته** . . هنَّأته ، **وإذا صغَّرته** . . عظَّمته ، **وإذا سترتَه** . . أتممتَه)(٢) .

وقال بعض الشعراء(٣) : [من الرمل]

زادَ معـروفُـكَ عنـدي عِظَمـاً ... أنَّـهُ عنـدَكَ مستـورٌ حقيـرُ

تتنـاسـاه كـأنْ لـم تـأتِـهِ ... وَهْوَ عندَ النّاسِ مشهورٌ خطيرُ

❁ ❁ ❁

ومن شروط المعروف : مجانبةُ الامتنان به ، وتركُ الإعجاب بفعله ؛ **لما فيهما من إسقاط الشكر ، وإحباط الأجر** .

وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **إيّاكم والامتنانَ بالمعروفِ** ؛ فإنَّه يُبطلُ الشُّكرَ ، ويمحَقُ الأجرَ ، ثم تلا قوله تعالىٰ : ﴿ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ »(٤) .

---

(١) أورد البيتين في « المحاسن والأضداد » (ص ٥٦) ، و« المحاسن والمساوىء » (ص ٢١٠) دون نسبة .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « اصطناع المعروف » (٢٢) ، وابن شاذان في « مشيخته » (٦٧) .

(٣) البيتان في « الشعر والشعراء » (٢/ ٨٥٦) ، و« المنصف » (١/ ٣٧٣) لأبي يعقوب الخريميّ .

(٤) أورده في « محاضرات الأدباء » (٢/ ٤٩٦) ، وانظر « تفسير القرطبي » ٣/ ٣١٢) .

وسمع ابنُ سيرين رجلاً يقول لرجلٍ : **فعلتُ إليكَ وفعلتُ** ، فقال ابن سيرين : (**اسكتْ ، فلا خيرَ في المعروف إذا أُحصِي**)[1] .

وقال بعض الحكماء : (**المَنُّ : مَفسدةُ الصنيعة**)[2] .

وقال بعض الأدباء : (**كدَّرَ معروفاً امتنانٌ ، وضيَّعَ حسَباً امتهانٌ**) .

وقال بعض البلغاء : (**مَن منَّ بمعروفه.. سقط شكرُه ، ومَن أُعجِب بعمله.. حبِطَ أجرُه**)[3] .

وقال بعض الفصحاء : (**قوّةُ المِنَن من ضعف المُنَن**) .

وقال بعض الشعراء[4] : [من البسيط]

أفسدتَ بالمَنِّ ما أسديتَ من حَسَنٍ ... ليس الكريمُ إذا أَسدىٰ بمَنَّانِ

وقال أبو نواس[5] : [من المديد]

فامْضِ لا تَمْنُنْ علَيَّ يداً ... مَنُّكَ المعروفَ مِن كَدَرِهْ

وأُنشدتُ عن الربيع للشافعي رحمهم الله[6] : [من مجزوء الكامل]

لا تحمِلَنَّ لِمَنْ يَمُنُّ ... مِنَ الأنام عليكَ مِنَّةْ

واختَرْ لنفسِكَ حَظَّها ... واصبرْ فإنَّ الصَّبْرَ جُنَّةْ

مِنَنُ الرجالِ على القلو ... بِ أَشَدُّ مِن وَقْعِ الأَسِنَّةْ

ومن شروط المعروف : ألا تحتقرَ منه شيئاً وإن كان قليلاً نَزْراً إذا كان الكثيرُ

---

(١) أورده في « عيون الأخبار » (٣/ ١٧٧) من قول ابن شُبْرُمة رحمه الله تعالىٰ ، ورواه في « المجالسة وجواهر العلم » (١٧٢٩/م) ، و« تاريخ دمشق » (٢٢/ ١٥٤) من قول سَلْم بن قتيبة رحمه الله تعالىٰ .

(٢) رواه في « تاريخ دمشق » (٤٢/ ٥٢٩) من قول سيدنا علي رضي الله عنه شعراً ، وهو في « ديوانه » (ص ١٦٨) .

(٣) أورده في « المستطرف » (١/ ٨٩) .

(٤) أورده في « الصداقة والصديق » (ص ١٨٢) ، و« المجالسة وجواهر العلم » (١٣٨٤) دون نسبة .

(٥) البيت في « ديوانه » (ص ٤٢٨) .

(٦) الأبيات في « ديوانه » (ص ١٤٩) .

مُعوزاً ، وكنتَ عنه عاجزاً ؛ **فإنَّ مَن حقر يسيرَهُ فمنع منه . . أعجزه كثيرُه فامتنع عنه ، وفعلُ قليل الخير أفضلُ من تركه .**

وقد رُوِي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **لا يَمنعَنَّكُم من معروفٍ صغيرُهُ** »[1] .

وقال عبد الله بن جعفر : (**لا تستحْيِ من القليل** ؛ فإنَّ المنعَ أقلُّ منه ، **ولا تجبُنْ عن الكثير** ؛ فإنَّكَ أكثرُ منه)[2] .

وقال الشاعر[3] : [من الخفيف]

افعلِ الخيرَ ما استطَعْتَ وإنْ كا ... نَ يسيــراً فلــن تُحيــطَ بكلِّــهْ

ومتــىٰ تفعــلُ الكثيــرَ مــنَ الخَيـ ... ـــرِ إذا كنــتَ تــاركــاً لأقلِّــهْ

علىٰ أنَّ من المعروف ما لا كلفة علىٰ مُوليه ، ولا مشقّةَ علىٰ مُسديه ، **وإنَّما هو جاهٌ يستظلُّ به الأدنىٰ** ، ويرتفقُ به التابعُ .

وقد قال الشاعر[4] : [من السريع]

ظِــلُّ الفتــىٰ ينفَــعُ مَــن دونَــهُ ... ومــا لــهُ فــي ظِلِّــهِ حَــظُّ

* * *

واعلم : أنك لن تستطيع أن تُوسعَ جميعَ الناس معروفَك ، ولا أن تُوليَهم إحسانَك ، **فاعتمد بذلك أهل الفضل منهم والحِفاظ** ، واقصد به ذوي الرعاية والوداد ؛ **ليكون معروفُك فيهم نامياً** ، وصنيعُك عندهم زاكياً .

وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **لا تنفعُ الصَّنيعةُ إلا عند ذي حَسَبٍ ودِينٍ** »[5] .

---

(١) أورده في « محاضرات الأدباء » (٢/ ٣٩٠) .

(٢) أورده في « محاضرات الأدباء » (٢/ ٣٩٠) ، و« نثر الدرّ » (١/ ٤٢٣) .

(٣) أورده في « ربيع الأبرار » (٢/ ٢١٦) ، و« تاريخ دمشق » (١٧/ ٢٥٥) لعبد الله بن طاهر .

(٤) البيت لأبي الفتح البستيّ في « ديوانه » (ص ٢٢٧) .

(٥) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » بنحوه (١٠٤٦٤) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٣/ ٣٦٨) عن السيدة عائشة رضي الله عنها .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إذا أراد الله تعالىٰ بعبدٍ خيراً . . جعَلَ صنائعَه في أهلِ الحِفاظِ »[1] .

وقال حسان بن ثابت الأنصاري[2] : [من الكامل]

إنَّ الصَّنيعـةَ لا تكـونُ صَنيعـةً ... حتّىٰ يُصابَ بها طريقُ المَصنَعِ
فـإذا صنعـتَ صَنيعـةً فـاعمَلْ بهـا ... للهِ أو لـذوي القَـرابـةِ أو دَعِ

وقيل في منثور الحكم : (لا خيرَ في معروفٍ إلىٰ غيرِ عَرُوفٍ)[3] .

وقد ضرب به الشاعر مثلاً ، فقال[4] : [من المديد]

كحمـارِ السُّـوءِ إنْ أشبعتَـهُ ... رَمَـحَ النّـاسَ وإنْ جـاعَ نَهَـقْ

وقد قال بعض الحكماء : (علىٰ قدر المَغارس يكون اجتناءُ الغارس) .

فأخذه بعض الشعراء فقال[5] : [من الطويل]

لَعَمْرُكَ ما المعروفُ في غيرِ أهلِهِ ... وفـي أهلِـهِ إلا كبعـضِ الـودائـعِ
فمُستودَعٌ ضاعَ الذي كان عندَهُ ... ومُستـودَعٌ مـا عنـدَه غيـرُ ضـائـعِ
وما النّاسُ في شُكرِ الصَّنيعةِ عندَهُمْ ... وفـي كُفْـرِهـا إلا كبعـضِ المَـزارعِ
فمَـزرعـةٌ طـابَـتْ وأضعَـفَ نبتُهـا ... ومَـزرعـةٌ أكـدَتْ علـىٰ كـلِّ زارعِ

فأمّا مَن أُسدِي إليه المعروفُ ، واصطُنِع إليه الإحسانُ . . فقد صار بأسر المعروف مُوثَقاً ، وفي ملَكة الإحسان مرقوقاً ، ولزمه إن كان من أهل المكافأة . . أن يُكافِئَ عليها ، وإن لم يكن من أهلها . . أن يقابلَ المعروفَ بنشره ، ويُجازيَ الفاعلَ بشكره .

---

(١) أورده الديلمي في « الفردوس » (٩٣٦) عن السيدة أم سلمة رضي الله عنها .
(٢) البيتان في « ديوانه » (ص ٤٩٣) ، ونسبهما في « معجم الشعراء » (ص ٥٢٩) للهذيل الأشجعيّ .
(٣) أورده في « الكشكول » (١/ ٢٢٩) من كلام سيدنا علي رضي الله عنه .
(٤) البيت لمسكين الدارمي في « ديوانه » (ص٧٨) .
(٥) أورد الأبيات في « روضة العقلاء » (٢/ ٩١٧ـ ٩١٨) لعبد الله بن همام السلولي ، وفي « المنتحل » (ص٨٣) .

رُوِي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **مَن أُودِعَ معروفاً . . فلْينشُرْهُ ؛ فإنْ نشَرَهُ . . فقد شكَرَهُ** ، وإنْ كتَمَهُ . . **فقد كفَرَهُ** »[1] .

وروى الزهريُّ ، عن عروة ، عن عائشة رضي الله تعالىٰ عنها قالت : دخل عليَّ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وأنا أتمثَّلُ بهـٰذين البيتين : [من الكامل]

ارفَعْ ضَعيفَكَ لا يَحُرْ بكَ ضَعفُهُ ... يوماً فتدركَهُ العَواقبُ قد نَمىٰ

يَجزِيكَ أو يُثني عليكَ وإنَّ مَن ... أثنىٰ عليكَ بما فعلتَ فقد جَزىٰ

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « **رُدِّي عليَّ قول اليهوديِّ قاتلَه اللهُ** ، لقد أتاني جبريلُ برسالةٍ من ربِّي تعالىٰ : **أيُّما رجلٍ صنَعَ إلىٰ أخيهِ صَنيعةً** ، فلم يجِدْ لها جزاءً إلا الدُّعاءَ والثناءَ . . **فقد كافأه** »[2] .

وقيل في منثور الحكم : (**الشكرُ** : قيدُ النِّعَمِ)[3] .

وقال عبد الحميد : (**مَن لم يشكرِ الإنعامَ . . فاعدُدْه من الأنعام**) .

وقيل في منثور الحكم : (**قيمةُ كلِّ نعمةٍ شكرُها**) .

وقال بعض الحكماء : (**كفرُ النِّعم** : من أمارات البطَر ، وأسبابِ الغِيَر)[4] .

وقال بعض الفصحاء : (**الكريمُ** : شَكُور أو مشكور ، **واللئيم** : كَفُور أو مكفور) .

وقال بعض البلغاء : (**لا زوالَ للنِّعمة مع الشكر ، ولا بقاءَ لها مع الكفر**)[5] .

---

(١) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٣٤١٥) ، والشهاب في « مسنده » (٤٨٥) عن سيدنا جابر رضي الله عنه .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « اصطناع المعروف » (٥٥) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٨٧١٤) . والبيتان للسَّموءل في « ديوانه » (ص٥٣) ، ونُسبا لزهير بن جَناب الكلبيّ في « ديوانه » (ص ١٢٠) .

(٣) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤١٦) ، و« زهر الآداب » (١/ ٣٣٤) .

(٤) أورده في « التذكرة الحمدونية » (٢/ ١٨٢) من قول محمد بن علي بن موسى بن جعفر .

(٥) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٢٥٤٤) ، و« تاريخ دمشق » (٦٠/ ٥٣) من قول سيدنا المغيرة بن شعبة رضي الله عنه .

وقال بعض الأدباء : (**شكرُ الإلٰه** : بطول الثناء ، **وشكرُ الوُلاة** : بصدق الولاء ، **وشكرُ النظير** : بحسن الجزاء ، **وشكرُ مَن دونك** : بسَيب العطاء)[1] .

وقال بعض الشعراء[2] : [من الطويل]

فلو كان يستغني عن الشُّكرِ ماجدٌ ... لعِــزَّةِ ملــكٍ أو عُلــوٍّ مكــانِ
لَمــا أمــرَ اللهُ العبــادَ بشُكْــرِهِ ... فقـال اشكُـرُوا لـي أيُّهـا الثَّقَـلانِ

فإنْ شكر معروف مَن أحسن إليه ، ونشر إنعام مَن أفضل عليه . . **فقد أدَّىٰ حقّ النعمة** ، وقضىٰ موجَب الصَّنيعة ، **ولم يبقَ عليه إلا استدامة ذلك** ؛ إتماماً لشكره ، ليكون للمزيد مستحِقّاً ، ولمتابعة الإحسان مستوجِباً .

حُكي : أن الحجّاج أُتِي بقومٍ من الخوارج وكان **فيهم صديقٌ له** ، فأمر بقتلهم **إلا ذلك الصديق فإنه عفا عنه** ، وأطلقه ووصله ، فرجع الرجل إلىٰ قَطَريّ وكان من أصحابه ، فقال له : (**عُدْ إلىٰ قتال الحجّاج عدوِّ الله** ، فقال : هيهات !! **غَلَّ يداً مطلِقُها** ، **واسترقَّ رقبةً معتِقُها**) ، وأنشأ يقول : [من الكامل]

أأُقـاتِـلُ الحَجّـاجَ عـن سُلطـانِـهِ ... بيـدٍ تُقِـرُّ بـأنَّهـا مَـولاتُـهُ
إنِّـي إذاً لأخـو الـدَّنـاءةِ والـذي ... شهِـدَتْ بـأقبـحِ فعلِـهِ غَـدَراتُـهُ
مـاذا أقـولُ إذا وقفـتُ إزاءَهُ ... في الصفِّ واحتجَّتْ له فَعَلاتُهُ
أأَقـولُ جـارَ علـيَّ لا إنِّـي إذاً ... لأَحـقُّ مَـن جـارَتْ عليـه وُلاتُـهُ
وتحـدَّث الأقـوامُ أنَّ صنـائعـاً ... غُـرِسَـتْ لـديَّ فحنظَلَـتْ نَخَـلاتُـهُ[3]

وقيل في منثور الحكم : (**المعروفُ رِقٌّ ، والمكافأةُ عِتقٌ**)[4] .

---

(١) في (هـ) جعله شعراً من المتقارب لكن صدره أثلم فقال :

شكــرُ الإلٰــه بطــول الثنــاء ... وشكـــرُ الــولاة بصــدق الــولاء
وشكــر النظيــر بحســن الجــزاء ... وشكــر الــدَّنــي بحســن العطــاء

(٢) البيتان لمحمود الورّاق في « ديوانه » (ص ١٩٦) .

(٣) رواه الجريريُّ في « الجليس الصالح » (١/ ٢٤٠) ولم يسمِّ الشاعر ، ونسب الأبيات في « زهر الآداب » (٢/ ٨٥٥) لعمران بن حِطّان ، وانظر « شعر الخوارج » (ص ١٦٩) .

(٤) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٢٢) ، و« نثر الدرّ » (٣/ ١٥٢) من قول عبد الله بن المعتزّ .

ومِن أشكرِ الناس الذي يقول[1] : [من البسيط]

لأشكُـرَنَّـكَ معـروفـاً همَمْـتَ بِـهِ ... إنَّ اهتمامَكَ بالمعروفِ معروفُ

ولا ألـومُـكَ إنْ لـم يُمضِـهِ قَـدَرٌ ... فالشيءُ بالقَدَرِ المحتومِ مصروفُ

وهٰذا النوع من الشكر الذي يتعجَّل المعروفَ ، ويتقدَّم البرَّ . . قد يكون علىٰ وجوه :

ـ فيكون تارةً من حسن الثقة بالمشكور في وصول برِّه ، وإسداءِ عُرْفه ، ولا أرىٰ لمَن حسن به ظنُّ شاكرٍ أن يُخلف حسنَ ظنِّه فيه ، فيكونَ كما قال العتابي[2] : [من البسيط]

قد أَورَقَتْ فيكَ آمالي بوَعدِكَ لي ... وليـسَ فـي وَرَقِ الآمـالِ لـي ثَمَـرُ

* * *

ـ وقد يكون تارةً من فرط شكر الراجي ، وحسن مكافأة الآمل ، فلا يرضىٰ لنفسه إلا بتعجيل الحقِّ ، وإسلاف الشكر ، وليس لمَن صادف لمعروفه معدِناً زاكياً ، ومغرِساً نامياً . . أن يفوِّتَ نفسَه غُنْماً ، ولا يحرمَها ربحاً ، فهٰذا وجهٌ ثانٍ .

* * *

ـ وقد يكون تارةً ارتهاناً للمأمول ، وحثّاً للمسؤول ، وبحسَب ما أسلفه من الشكر يكون الذمُّ عند الإياس .

قال بعض الأدباء من حكماء المتقدِّمين : (مَن شكرَكَ علىٰ معروفٍ لم تُسدِهِ إليه . . فعاجِلْه بالبرِّ ؛ وإلا . . انعكس فصار ذمّاً)[3] .

---

(١) أورد البيتين في « التذكرة الحمدونية » (٤/ ٩١) ، و« المنتحل » (ص ٨٢) لمحمد بن حازم الباهليّ ، وفي « ديوانه » (ص٧٣ـ البقاعي) .

(٢) في (ج ، د) : (الغساني) .

(٣) أورده في « لباب الآداب » (ص ٤٦٦) من قول أفلاطون .

وقال ابن الروميِّ في ذلك[1] : [من الطويل]

وما الحقدُ إلا توءمُ الشُّكرِ في الفتىٰ وبعضُ السَّجايا ينتسِبْنَ إلىٰ بعضِ
فحيثُ ترىٰ حِقداً علىٰ ذي إساءةٍ فثَمَّ ترىٰ شُكراً علىٰ حَسَنِ القرضِ
إذا الأرضُ أدَّتْ رَيعَ ما أنتَ زارعٌ منَ البَذْرِ فيها فَهْيَ ناهِيكَ من أرضِ

فأمّا مَن ستر معروف المنعِم ، ولم يشكر علىٰ ما أولاه من نعمٍ . . **فقد كفر النعمة** ، وجحد الصَّنيعة ، **وأنبأ من دنيِّ الخلائق وسوء الطرائق** عمّا يستوجب به قبحَ الردِّ ، وسوءَ المنعِ .

فقد روىٰ أبو هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **لا يشكُرُ اللهَ مَن لا يشكُرُ الناسَ** »[2] .

وقال بعض الأدباء : (**مَن لم يشكرْ لمُنعِمه** . . استحقَّ قطعَ نعمه)[3] .

وقال بعض الفصحاء : (**مَن كفر نعمةَ المفيد** . . استوجبَ حرمانَ المزيد) .

وقال بعض البلغاء : (**مَن أنكر حسنَ الصَّنيعة** . . استوجب قبحَ القطيعة)[4] .

وأنشدني بعض الأدباء ما ذكر أنه لعلي بن أبي طالب عليه السلام[5] : [من السريع]

مَن جاورَ النِّعمةَ بالشُّكرِ لم يَخشَ على النِّعمةِ مُغتالَها
لو شكَرُوا النعمة زادتْهُمُ مَقالةُ اللهِ التي قالَها
لئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ لكنَّما كُفْرُهُمُ غالَها
والكفرُ بالنِّعمةِ يدعو إلىٰ زوالِها والشُّكرُ أبقىٰ لَها

---

(١) الأبيات في « ديوانه » (٤/ ١٣٨٠) .
(٢) رواه أبو داوود (٤٨١١) ، والترمذي (١٩٥٤) .
(٣) رواه في « الطيوريّات » (٨١٢) من قول السَّريّ السَّقَطيّ رحمه الله تعالىٰ .
(٤) أورده في « المستطرف » (١/ ٨٩) .
(٥) الأبيات في « ديوانه » (ص ١٩٢) .

فهـٰذا آخر ما يتعلّق بالقاعدة الثانية من أسباب الألفة الجامعة .

وأمّا القاعدة الثالثة . . فهي المادة الكافية ؛ لأنَّ حاجة الإنسان لازمةٌ لا يعرىٰ منها بشرٌ[1] ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ﴾ .

فإذا عدم المادة التي هي قِوام نفسه . . لم تدُمْ له حياة ، ولم تستقم له دنيا ، وإذا تعذَّر شيءٌ منها عليه . . لحقه من الوهن في نفسه ، والاختلالِ في دنياه بقدر ما تعذَّر من المادة عليه ؛ لأن الشيء القائم بغيره يكملُ بكماله ، ويختلُّ باختلاله .

ثم لمّا كانت الموادُّ مطلوبةً ؛ لحاجة الكافّة إليها . . أعوزت بغير طلب ، وعدمت لغير سبب ، وأسبابُ المواد مختلفة ، وجهاتُ المكاسب متشعِّبة ؛ ليكون اختلاف أسبابها علّةً للائتلاف بها ، وتشعُّبُ جهاتها توسعةً لطلابها ؛ كي لا يجتمعوا علىٰ سبب واحد فلا يلتئمون ، أو يشتركوا في جهة واحدة فلا يكتفون .

ثم هداهم الله تعالىٰ إليها بعقولهم ، وأرشدهم إليها بطباعهم ؛ حتّىٰ لا يتكلَّفوا ائتلافَهم في المعايش المختلفة فيعجزوا ، ولا يُعانوا تقديرَ موادِّهم بالمكاسب المتشعِّبة فيختلُّوا ؛ حكمةً منه سبحانه وتعالى اطَّلع بها علىٰ عواقب الأمور .

وقد أنبأ الله تعالىٰ في كتابه إخباراً وإذكاراً بقوله تعالىٰ : ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ .

فاختلف المفسرون في تأويل ذلك :

فقال قتادة : (أعطىٰ كلَّ شيءٍ ما يصلحه ، ثم هداه له) .

---

(١) لا يعرىٰ : لا يتجرد .

وقال مجاهد : (**أعطىٰ كلَّ شيءٍ صورته ، ثم هداه لمعيشته**) .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : (**أعطىٰ كلَّ شيءٍ زوجه ، ثم هداه لنكاحه**)[1] .

وقال الله تعالىٰ : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ يعني : معايشَهم ؛ متىٰ يزرعون ، ومتىٰ يغرسون ﴿ وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ .

وقال الله تعالىٰ : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴾ .

قال عكرمة : (**قدَّر في كل بلدة منها ما لم يجعله في الأخرىٰ ؛ ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة من بلد إلىٰ بلد**) .

وقال الحسن البصري وعبد الرحمـٰن بن زيد : (**قدَّر أرزاق أهلها سواءً للسائلين الزيادةَ في أرزاقهم**)[2] .

ثم إن الله تعالىٰ جعل لهم مع ما هداهم إليه من مكاسبهم ، وأرشدهم إليه من معايشهم ديناً يكون لهم حكَماً ، وشرعاً يكون عليهم قيِّماً ؛ ليصلوا إلىٰ موادِّهم بتقديره ، ويطلبوا أسباب مكاسبهم بتدبيره ؛ حتىٰ لا ينفردوا بإرادتهم فيتغالبوا ، ولا تستوليَ عليهم أهواؤهم فيتقاطعوا ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ قال المفسرون : (**الحقُّ في هـٰذا الموضع** : هو الله سبحانه وتعالىٰ)[3] .

فلأجل ذلك لم يجعل الموادَّ مطلوبةً بالإلهام حتىٰ جعل العقل هادياً إليها ، والدِّين قاضياً عليها ؛ لتتمَّ السعادة ، وتعمَّ المصلحة .

ثم إنه ـ جلَّت عظمته ـ جعل سدَّ حاجتهم ، وتوصُّلَهم إلىٰ منافعهم من وجهين : بمادّة ، وكسب .

---

(١) روىٰ هـٰذه الأقوال الطبري في « تفسيره » (٩/١٦/٢١٧ـ٢١٨) .

(٢) روى الطبري هـٰذه الأقوال في « تفسيره » (١٢/٢٤/١١٧ ، ١١٩) .

(٣) رواه الطبري في « تفسيره » (١٠/١٨/٥٥) .

أمّا المادّةُ : فهي حادثةٌ عن اقتناء أصولٍ ناميةٍ بذواتها ؛ **وهي شيئان** : **نَبْتٌ** نامٍ ، وحيوانٌ متناسِلٌ .

قال الله تعالىٰ : ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴾ ، قال أبو صالح : (**أغنىٰ** : خلَقه بالمال ، **وأقنىٰ** : جعل لهم قِنية ، هي أصول الأموال)[1] .

❁ ❁ ❁

وأمّا الكسبُ : فيكون بالأفعال الموصلة إلى المادة ، والتصرُّف المؤدِّي إلى الحاجة ؛ **وذلك من وجهين** : **أحدهما** : تقلُّبٌ في تجارة ، **والثاني** : تصرُّفٌ في صناعة ، **وهٰذان الوجهان هما فرعٌ لوجهي المادة** .

فصارت أسباب الموادِّ المألوفة ، وجهاتُ المكاسب المعروفة . . **من أربعة أوجه** : نماء زراعة ، ونِتاج حيوان ، وربح تجارة ، وكسب صناعة .

وقد حكى الحسن بن رجاء نحو ذلك عن المأمون قال : سمعته يقول : (**معايشُ الناس علىٰ أربعة أقسام** : زراعة ، وصناعة ، وتجارة ، وإمارة ؛ **فمَن خرج عنها . . كان كَلّاً عليها**)[2] .

وإذ قد تقرَّرت أسباب الموادّ بما ذكرنا . . فسنصف حال كل واحدٍ منها بقولٍ موجزٍ :

❁ ❁ ❁

أمّا الأول من أسبابها وهو الزراعة : فهي مادّة أهل الحضر ، وسكان الأمصار والمدن ، **والاستمداد بها أعمُّ نفعاً ، وأوفرُ فرعاً** ؛ ولذلك ضرب الله تعالىٰ بها المثل فقال : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ .

ورُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **خيرُ المالِ عينٌ ساهرةٌ لعينٍ نائمةٍ** »[3] .

---

(١) رواه الطبري في « تفسيره » (١٣/ ٢٧/ ٩٤) .

(٢) أورده الذهبي في « تاريخ الإسلام » (١٨/ ٢٢٥) .

(٣) أورده في « النهاية في غريب الحديث » (٢/ ٤٢٨) ، وأورده المبرّد في « الكامل » (١/ ٣٠٧) من قول =

وقال صلى الله عليه وسلم : « نِعمَتِ العمّةُ لكمُ النخلةُ !! تشربُ من عينٍ خَرّارةٍ ، وتُغرَسُ في أرضٍ خَوّارةٍ »[١] .

وقال صلى الله عليه وسلم في النخل : « هنَّ الراسخاتُ في الوَحلِ ، المُطعِماتُ في المَحْل »[٢] .

وقال بعض السلف : (خيرُ المال عينٌ خرّارةٌ ، في أرضٍ خوّارة ، تفجِّرها الفارة ؛ تسهر إذا نمتَ ، وتشهد إذا غبتَ ، وتكون عقِباً إذا متَّ)[٣] .

وروىٰ هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « التمِسُوا الرِّزقَ في خَبايا الأرضِ » يعني : الزرع[٤] .

وحُكي عن المعتضد أنه قال : (رأيتُ عليَّ بن أبي طالب عليه السلام في المنام ، فناولَني مِسحاةً ، فقال : خُذْها ؛ فإنَّها مفاتيحُ خزائن الأرض)[٥] .

وقال كسرىٰ للمُوبَذ : (ما قيمة تاجي هـٰذا ؟ فأطرق ساعةً ، وقال : ما أعرف له قيمةً إلا أن يكونَ مطرةً في نَيسان ؛ فإنَّها تُصلح من معايش الرعيّة ما تكون قيمتُه مثلَ مقدار تاج الملك)[٦] .

ولقي عبدُ الله بن عبد الملك ابنَ شهاب الزُّهريَّ ، فقال له : دلَّني علىٰ مالٍ

= سيدنا معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما ، وعين ساهرة : جارية لا تفتر أصلاً ، لعينٍ نائمة : وهي عين صاحبها ؛ لأنه فارغ البال .

(١) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٢٦) ، و« البيان والتبيين » (٢/ ٢٠) ، وعين خرارة : غزيرة النبع كثيرة الجريان ، وأرض خوارة : لينة سهلة .

(٢) رواه الطبراني في « المعجم الأوسط » (٣٩١٦) ، والشهاب في « مسنده » (١٣١٤) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) أورده في « عيون الأخبار » (٣/ ٢٥٢) ، و« سمط اللآلي » (١/ ٣٧٥) من قول سيدنا معاوية رضي الله عنه .

(٤) رواه الإمام أحمد في « فضائل الصحابة » (٤٣١) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٤٣٨٤) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (١١٧٨) .

(٥) ذكرها القرطبي في « تفسيره » (٣/ ٣٠٦) .

(٦) ذكر نحوها ابن المجاور في « تاريخ المستبصر » (ص٣٢٢) عن أنوشروان يخاطب وزيره بزرجمهر .

أعالجُه ، فأنشأ ابنُ شهاب يقول :   [من الطويل]

تَتبَّعْ خَبايا الأرضِ وادعُ مَليكَها ... لعلَّكَ يوماً أنْ تُجابَ فتُرزَقا

فيُؤتِيكَ مالاً واسعاً ذا مَثابةٍ ... إذا ما مِياهُ الأرضِ غارَتْ تَدفَّقا[1]

وقد اختلف الناس في تفضيل الزرع والشجر بما ليس يتسع كتابنا هٰذا لبسط القول فيه ، غير أنَّ **مَن فَضَّل الزرع** . . فلقُرب مداه ، ووُفور جدواه ، **ومَن فضَّل الشجر** . . فلثُبوت أصله ، وتوالي ثمره .

❊ ❊ ❊

وأمّا الثاني من أسبابها وهو نِتاج الحيوان : فهو مادةُ أهل الفلَوات ، وسكَّان الخيام ؛ **لأنَّهم لمَّا لم تستقرَّ بهم دار** ، ولم تضمَّهم أمصار . . **افتقروا إلى الأموال المنتقلة معهم** ، وما لا ينقطع نماؤه بالظَّعْن والرِّحلة ، **فاقتنَوا الحيوانَ** ؛ لأنَّه يستقلُّ في النُّقْلة بنفسه ، ويستغني في العُلوفة برعيه ، **ثم هو مركوبٌ ومحلوب** ، فكان اقتناؤه علىٰ أهل الخيام أيسرَ ؛ لقلَّة مَؤونته ، وتسهيل الكُلفة به ، **وكانت جدواه عليهم أكثرَ** ؛ لوُفور نسله ، واقتيات رِسْله[2] ؛ إلهاماً من الله تعالىٰ لخلقه في تعديل المصالح فيهم ، وإرشاداً لعباده في قسمة المنافع بينهم .

وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **خيرُ المالِ : مُهْرةٌ مأمورةٌ** ، أو سِكّةٌ مأبورةٌ » معنىٰ قوله صلى الله عليه وسلم : (**مهرة مأمورة**) أي : كثيرة النَّسْل ، ومنه ما تأوَّل الحسن وقتادة قوله تعالىٰ : ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا ﴾ أي : أكثرنا عددَهم ، وأمّا (**السِّكّةُ المأبورةُ**) : فهي النخل المؤبَّرة الحَمل[3] .

وروي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال في الغنم : « **سَمْنُها مَعاشٌ ، وصُوفُها رِياشٌ** »[4] .

---

(١) رواه في « تاريخ دمشق » (٢٩/ ٣٥٠) . وفي (أ) : (تَبَغَّ خبايا . . .) .

(٢) **واقتيات رِسْله** : ارتزاق لبنه ، وفي (هـ) : (ويستغني عن العلوفة) .

(٣) رواه ابن الأعرابي في « المعجم » (٥٠٠) ، والحارث في « مسنده » (٤٢٢) عن سيدنا سويد بن هبيرة رضي الله عنه ، وانظر « القضاء والقدر » للبيهقيّ (٣٣١) .

(٤) رواه الرامهرمزيّ في « أمثال الحديث » (١٢٢) .

ورُوي عن أبي ظبيان أنه قال : قال لي عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (ما مالُكَ يا أبا ظَبْيانَ ؟) قال : قلتُ : عطائي ألفانِ ، قال : (**اتَّخِذْ من هـٰذا الحَرْث والسّابِياءِ** قبلَ أنْ تلِيَكَ غِلْمةٌ من قريش لا تعُدُّ العطاءَ معهم مالاً)[1] والسّابِياءُ : النِّتاج .

ورُوي أنَّ امرأة أتتِ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، فقالت : يا رسولَ الله ؛ إنِّي اتَّخَذتُ غنماً أبتغي نَسْلَها ورِسْلَها ، وإنَّها لا تَنمِي ، فقال لها النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « **ما ألوانُها ؟** » قالت : سُودٌ ، فقال لها : « **عَفِّري** »[2] .

وهـٰذا مثل قوله صلى الله عليه وسلم في مناكح الآدميِّين : « **اغترِبُوا . . لا تُضْوُوا** »[3] .

وأمّا الثالث من أسبابها وهو التجارة : فهي فرعٌ لمادّتي الزرع والنِّتاج ، ورُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **تسعةُ أعشارِ الرِّزقِ في التِّجارة** ، والجزء الباقي في السّابِياءِ »[4] .

وهي نوعان :

ـ **تقلُّبٌ في الحضَر** ، من غير نُقْلة ولا سفَر ، **وهـٰذا تربُّصٌ واحتكار** ، قد رغب عنه أولو الأقدار ، وزهد فيه ذوو الأخطار .

ـ **والثاني** : تقلُّبُ المال بالأسفار ، ونقلُه إلى الأمصار ، **فهـٰذا أليقُ بأهل المروءة** ، وأعمُّ جَدوىً ومنفعة ، غير أنه أكثرُ خطَراً ، وأعظم غرَراً .

وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **إنَّ المسافرَ ومالَه لَعلىٰ**

---

(١) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٥٧٦) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٨٥٩٦) .
(٢) أورده في « عيون الأخبار » (٢/ ٧٦) ، و« النهاية في غريب الحديث » (٣/ ٢٦١) .
(٣) أورده الحربيّ في « غريب الحديث » (٢/ ٣٧٩) ، و« عيون الأخبار » (٢/ ٦٧) من كلام العرب .
(٤) أورده أبو عبيد في « غريب الحديث » (١/ ٢٩٩) ، ورواه الرافعي القزويني في « التدوين في أخبار قزوين » (١/ ٢٣١) عن نعيم بن عبد الرحمـٰن الأزديّ ، وليس في هـٰذا الحديث تعرُّضٌ لأفضل طريق الكسب ، **وأفضلها** : سهم الغازي ، ثم الزراعة ، ثم الصناعة ، ثم التجارة . انظر « منهاج اليقين » (ص٣٦٨) .

قَلَتٍ إلا ما وَقَى اللهُ تعالىٰ »[1] يعني : علىٰ خَطَر .

وقيل : في التوراة : (يا بنَ آدمَ ؛ أحدِثْ سَفَراً . . أُحدِثْ لكَ رِزْقاً)[2] .

❁ ❁ ❁

وأمّا الرابع من أسبابها وهو الصناعة : فقد تتعلَّق بما مضىٰ من الأسباب الثلاثة ، وتنقسم أقساماً ثلاثة : صناعة فكر ، وصناعة عمل ، وصناعة مشتركة بين فكر وعمل ؛ لأنَّ الناس آلات للصناعات .

فأشرفُهم نفساً متهيِّيءٌ لأشرفها جنساً ؛ كما أنَّ أرذلَهم نفساً متهيِّيءٌ لأرذلها جنساً ؛ لأنَّ الطبع يبعث علىٰ ما لاءمه ، ويدعو إلىٰ ما جانسه .

حكي : أنَّ الإسكندر لمّا أراد الخروج إلىٰ أقاصي الأرض . . قال لأرسطاليس : (أُخرج معي ، قال : قد نحَل جسمي وضعف عن الحركة ، فلا تزعجْني ، قال : فما أصنع في عمَّالي خاصة ؟ قال : انظر ؛ فمَن كان له عَبيدٌ فأحسنَ سياستَهم . . فولِّهِ الجندَ ، ومن كانت له ضيعةٌ فأحسنَ تدبيرَها . . فولِّهِ الخَراجَ)[3] .

فنبَّهَه باعتبار الطِّباع علىٰ ما أغناه عن كُلَف التجربة .

❁ ❁ ❁

وأشرفُ الصناعات : صناعةُ الفكر ، وأرذلُها : صناعةُ العمل ؛ لأنَّ العمل نتيجةُ الفكر ، وهو مدبَّرٌ به .

فأمّا صناعة الفكر . . فقد تنقسم قسمين :

أحدهما : ما وقعت على التدبيرات الصادرة عن نتائج الآراء الصحيحة ؛ كسياسة الناس ، وتدبير البلاد ، وقد أفردنا للسياسة كتاباً لخَّصنا فيه من جُمَلها ما ليس يحتمل هـٰذا الكتابُ ذكرَ زيادةٍ عليها[4] .

---

(١) أورده في « الجليس الصالح » (١/٥٨٦) ، و« تاريخ دمشق » (٥٠/٨٥) .
(٢) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٣٩٩) ، و« بهجة المجالس » (١/٢٢٢) .
(٣) أورده في « لباب الآداب » (ص ٥٢) ، و« بهجة المجالس » (١/٣٣٧) .
(٤) لعله أراد رحمه الله تعالىٰ « قوانين الوزارة وسياسة الملك »، أو « الأحكام السلطانية »، والله تعالى أعلم.

والثاني : ما أدَّت إلى المعلومات الحادثة عن الأفكار النظرية ، وقد مضىٰ في العلم من كتابنا هـٰذا بابٌ أغنىٰ ما فيه عن زيادة قولٍ فيه .

وأمّا صناعة العمل . . فقد تنقسم **قسمين** : عمل صناعيّ ، وعمل بهيميّ .

فالعمل الصناعيّ : أعلاهما رتبةً ؛ لأنه يحتاج إلىٰ مُعاطاة في تعلُّمه ، ومُعاناة في تصوُّره ، فصار آخذاً للشبه من المعلومات الفكرية .

والآخر : إنَّما هو صناعة كدٍّ ، وآلةُ مهنةٍ ؛ وهي الصناعة التي تقتصر عليها النفوس الرَّذِلة ، وتقف عليها الطباع الجاسية[1] ؛ كما قال أكثم بن صيفيّ : (**لكلِّ ساقطةٍ لاقطةٌ**)[2] .

وقال المُتلمِّس[3] : [من البسيط]

ولا يُقيمُ علىٰ ضَيمٍ يُسامُ بهِ إلا الأذَلّانِ عَيْرُ الحَيِّ والوَتِدُ
هـٰذا على الخَسْفِ مربوطٌ برُمّتِهِ وذا يُشَجُّ فلا يَرثي لهُ أَحَدُ

وأمّا الصناعة المشتركة بين الفكر والعمل . . فقد تنقسم **قسمين** :

أحدهما : أن تكون صناعةُ الفكر أغلبَ ، والعملِ تبعاً ؛ كالكتابة .

والثاني : أن تكون صناعةُ العمل أغلبَ ، والفكرِ تبعاً ؛ كالبناء .

فأعلاهما رتبةً : ما كانت صناعةُ الفكر أغلبَ عليها ، والعملِ تبعاً لها .

فهـٰذه أحوال الخَلق التي ركَّبهم الله تعالىٰ عليها في ارتياد موادّهم ، **ووَكَلهم إلىٰ فِطَرهم في طلب أكسابهم** ، وفرّق بين هِمَمهم في التماسها ؛ **ليكون ذلك سبباً لألفتهم** .

فسبحانَ مَن تفرَّد فينا بلطيف حكمته ، وأظهر لفِطَننا عزائمَ قدرته !!

---

(١) **الطباع الجاسية** : القاسية الصلبة الغليظة .

(٢) أورده أبو عبيد في « الأمثال » (ص ٤١) ، والجاحظ في « المحاسن والأضداد » (ص ١٦) .

(٣) البيتان في « ديوانه » (ص ٢٠٨ ، ٢١١) .

وإذ قد وضح القول في أسباب الموادّ ، وجهات المكاسب . . **فليس يخلو حالُ الإنسان فيها من ثلاثة أمور** :

أحدها : أن يطلبَ منها قدرَ كفايته ، ويلتمسَ وَفْقَ حاجته ، من غير أن يتعدَّىٰ إلىٰ زيادةٍ عليها ، أو يقتصرَ علىٰ نقصان منها ، **فهـٰذه أحمدُ أحوال الطالبين** ، وأعدلُ مراتب المقتصدين .

وقد روىٰ قتادة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أوحى اللهُ تعالىٰ إليَّ كلماتٍ ، فدخَلْنَ في أُذني ، ووَقَرْنَ في قلبي : **مَن أعطىٰ فضلَ مالِهِ** . . فهو خيرٌ له ، **ومَن أمسَكَ** . . فهو شرٌّ له ، **ولا يَلومُ اللهُ علىٰ كَفافٍ** »[1] .

وروىٰ حُمَيد ، عن معاويةَ بن حَيْدةَ قال : قلتُ : يا رسولَ الله ؛ **ما يكفيني من الدنيا ؟ قال** : « **ما سدَّ جَوعتَكَ** ، **وسترَ عَورتَكَ** ، فإنْ كان دارٌ . . فذاكَ ، وإنْ كان حمارٌ . . فبَخٍ بَخٍ ، **فِلَقٌ** من خبزٍ ، **وجَرٌّ** من ماءٍ ، وأنتَ مسؤولٌ عمّا فوقَ الإزار »[2] .

وقد حكي عن ابن عبّاسٍ ومجاهدٍ في قوله تعالىٰ : ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ : (**أنَّ كلَّ مَن يملكُ بيتاً وزوجةً وخادماً** . . **فهو مَلِكٌ**)[3] .

وروىٰ زيد بن أسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **مَن كان له بيتٌ وخادمٌ** . . **فهو مَلِكٌ** »[4] ، وهو في المعنىٰ صحيحٌ ؛ **لأنَّه بالزوجة والخادم مُطاعٌ في أمره** ، **وبالدار محجوبٌ إلا عن إذنه** .

وليس علىٰ مَنْ طلب قدرَ الكفاية ، ولم يتجاوز تبعات الزيادة **إلا توخِّي الحلال منه** ، وإجمالُ الطلب فيه ، ومجانبةُ الشبهة الممازجة له ؛ فقد روىٰ نافع ، عن

---

(١) رواه الطبريّ في « تفسيره » (٧/ ١١/ ٥٧) ، ورواه مسلم (١٠٣٦) ، والترمذي (٢٣٤٣) عن سيدنا أبي أمامة رضي الله عنه .
(٢) رواه أبو يوسف الفَسَويّ في « المعرفة والتاريخ » (٣/ ٤٦٧) ، وفي (أ) : (عمّا فوق الإناء) .
(٣) رواه الطبريّ في « تفسيره » (٤/ ٦/ ٢٢٠) .
(٤) رواه الطبريّ في « تفسيره » (٤/ ٦/ ٢١٩) .

ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « **الحَلالُ بيِّنٌ** ، **والحَرامُ بيِّنٌ** ، فدَعْ ما يَرِيبُكَ إلىٰ ما لا يَرِيبُكَ ، **فلن تجدَ فَقْدَ شيءٍ تركتَهُ للهِ** »[1] .

وسُئل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عن الزُّهد ، فقال : « أمَا إنَّه ليسَ بإضاعةِ المالِ ، ولا تحريمَ الحَلالِ ؛ ولـٰكنْ **أنْ تكونَ بما بيَدِ اللهِ أوثَقَ منكَ بما في يدِكَ** ، وأنْ يكونَ ثوابُ المُصيبةِ أرجَحَ عندَكَ مِن بَقائها »[2] .

وحكىٰ عبد الله بن المبارك قال : كتب عمر بن عبد العزيز إلى الجرَّاح بن عبد الله الحَكَميّ : (إنِ استطعتَ أن تدَعَ ممَّا أحلَّ اللهُ لك **ما يكون حاجزاً بينك وبين الحرام** . . **فافعَلْ** ؛ فإنَّه مَنِ استوعبَ الحلالَ . . تاقت نفسُه إلى الحرام)[3] .

وقد اختلف أهل التأويل في قوله تعالىٰ : ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ فقال عكرمة : (**يعني : كسباً حراماً**) .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : (**هو إنفاقُ مَنْ لا يوقن بالخلَف**)[4] .

وقال يحيى بن معاذ : (**الدِّرهمُ عقربٌ** ؛ فإن أحسنتَ رُقْيتَها ، وإلاَّ . . فلا تأخذْها)[5] .

وقيل : (**مَن قلَّ توقِّيه . . كثُرَت مَساوِيه**)[6] .

وقال بعض البلغاء : (**خيرُ الأموال** : ما أخذته من الحلال ، وصرفته في النَّوال ، **وشرُّ الأموال** : ما أخذته من الحرام ، وصرفته في الآثام)[7] .

---

(١) رواه الرامهرمزي في « أمثال الحديث » (٤) ، وابن الأعرابي في « المعجم » (١٥٢٨) .
(٢) رواه الترمذي (٢٣٤٠) ، وابن ماجه (٤١٠٠) عن سيدنا أبي ذرّ الغفاريّ رضي الله عنه .
(٣) أورده في « البيان والتبيين » (٣/ ١٧٠) ، و« التذكرة الحمدونية » (١/ ٢٠٦) .
(٤) رواه الطبري في « تفسيره » (٩/ ١٦/ ٢٨٣) .
(٥) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (١٠/ ٦٠) .
(٦) ذكره المناوي في « فيض القدير » (١/ ٦٥) .
(٧) أورده في « المستطرف » (١/ ٩٠) .

وكان الأوزاعيُّ الفقيه رحمه الله تعالىٰ كثيراً ما يتمثَّل بهٰذه الأبيات[1] : [من الكامل]

المـالُ ينفَـدُ حِلُّـهُ وحَـرامُـهُ ... يـومـاً وتبقـىٰ بعـدَهُ آثـامُـهُ
ليـسَ التقـيُّ بمُتَّـقٍ لإلٰهـهِ ... حتّىٰ يطيبَ شرابُهُ وطعامُهُ
ويطيبَ ما يجني ويكسبُ أهلَهُ ... ويطيبَ من لفظ الحديثِ كلامُهُ
فبـذاكَ خبَّـرَنـا النَّبـيُّ محمَّـدٌ ... فعلى النبيِّ صلاتُهُ وسلامُهُ

وحُكي عن ابن المعتمر السُّلَميِّ أنه قال : (**الناس ثلاثة أصنافٍ** : أغنياء ، وفقراء ، وأوساط ، **فالفقراء مَوتىٰ** إلا مَن أغناه الله تعالىٰ بعزِّ القناعة ، **والأغنياء سكارىٰ** إلا مَن عصَمَه الله تعالىٰ بتوقُّع الغِيَر ، **وأكثرُ الخير مع أكثر الأوساط** ، وأكثرُ الشرِّ مع أكثر الفقراء والأغنياء ؛ لسُخف الفقر ، وبطَر الغِنىٰ)[2] .

***

والحال الثانية : أن يقصِّر عن طلب كفايته ، ويزهد في التماس مادّته ، **وهٰذا التقصير قد يكون علىٰ ثلاثة أوجه** : فيكون تارة كسلاً ، وتارة توكُّلاً ، وتارة زهداً وتقنُّعاً .

ـ **فإن كان تقصيرُه لكسل** . . فقد حُرم ثروة النشاط ، ومرح الاغتباط ، ولن يعدم أن يكون كَلاًّ مقصيّاً ، أو ضائعاً شقيّاً .

رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **كاد الحسَدُ** أن يغلبَ القدرَ ، **وكاد الفقرُ** أن يكونَ كُفْراً »[3] .

وقال بُزُرْجُمِهْرَ : (**إن كان شيءٌ فوق الحياة** . . فالصِّحّةُ ، **وإن كان شيءٌ مثلَها** . . فالغنىٰ ، **وإن كان شيءٌ فوق الموت** . . فالمرضُ ، **وإن كان شيءٌ مثلَه** . . **فالفقرُ**)[4] .

---

(١) البيتان الأولان رواهما ابن أبي الدنيا في « إصلاح المال » (٣٥) للأوزاعي ، ورواها جميعاً في « شعب الإيمان » (٥٤٠٥) .
(٢) أورده في « عيون الأخبار » (١/ ٣٣١) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « إصلاح المال » (٤٣٧) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٦١٨٨) ، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (٨/ ٢٥٣) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه .
(٤) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٠٢) ، و« التذكرة الحمدونية » (٤/ ٣٣٧) .

وقيل في منثور الحكم : (القبرُ خيرٌ من الفقر)[1] .

ووُجد في نيل مصرَ مكتوبٌ علىٰ حجر : [من الرمل]

عُقْبــةُ الصَّبــرِ نجــاحٌ وغِنــىً ورِداءُ الفقــرِ مــن نَسْــجِ الكَسَــلْ

وقال بعض الشعراء[2] : [من الطويل]

أعـوذُ بـكَ اللَّهُـمَّ مـن بَطَـرِ الغِنـىٰ ومن نَهْكةِ البَلْوىٰ ومن ذِلّةِ الفقرِ
ومـن أمـلٍ يمتـدُّ فـي كـلِّ شـارقٍ ويـرجِعُنـي منـه بحـظٍّ يـدٍ صِفـرِ
إذا لم تدنِّسني الذُّنوبُ بعارِها فلستُ أُبالي ما تشعَّثَ من أمري

ـ وإن كان تقصيرُه لتوكُّل . . فذلك عجزٌ قد أعذر به نفسه ، وتركُ حزمٍ قد غيَّر اسمَه ؛ لأن الله تعالىٰ إنما أمر بالتوكُّل عند انقطاع الحِيَل ، والتسليم إلى القضاء بعد الإعذار .

وقد روىٰ معمر ، عن أيوب ، عن أبي قِلابةَ قال : ذُكِرَ عند النبيِّ صلى الله عليه وسلم رجلٌ ، فذُكر فيه خير ، وقالوا : يا رسولَ الله ؛ خرج معنا حاجّاً ، فإذا نزلنا منزلاً . . لم يزلْ يصلِّي حتّىٰ نرتحلَ ، فإذا ارتحَلْنا . . لم يزل يذكرُ اللهَ تعالىٰ حتّىٰ ننزلَ ، فقال صلى الله عليه وسلم : « فمَن كان يكفيه عَلَفَ ناقته ، وصنعَ طعامه ؟ » قالوا : كلُّنا يا رسولَ الله ، قال : « فكلُّكم خيرٌ منه »[3] .

وقال بعض الحكماء : (ليس من توكُّل المرء إضاعتُه للحزم ، ولا من الحزم إضاعة نصيبه من التوكُّل)[4] .

---

(١) رواه في « تاريخ دمشق » (٣/ ٤٥٧) ، والقالي في « الأمالي » (١/ ١٠٢) من قول أوس بن حارثة .

(٢) من نهكة البلوىٰ : إهلاكها لي وإجهادها ، وكل شارق : لامعٍ كالشمس ، ويد صفر : خالية لا شيء فيها ، وما تشعث : ما تفرّق .

(٣) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٢٠٤٤٢) ، فكلكم خير منه ؛ لعدم كونكم كَلاًّ علىٰ غيركم ، أو لأنه راءىٰ بعمله ليستخدمكم ، فهو غير مأجورٍ في عمله ، وأنتم مأجورون في خدمتكم .

(٤) أورده في « التذكرة الحمدونية » (١/ ٣٨٢) ، و« نثر الدرّ » (٣/ ١١٩) من قول المأمون .

- وإن كان تقصيره لزهدٍ وتقنُّعٍ . . فهـٰذه حالُ مَن علم بمحاسبة نفسه تَبِعات الغنىٰ والثروة ، وخاف عليها بوائقَ الهوىٰ والقدرة ، فآثر الفقر على الغنىٰ ، وزجر النفس عن ركوب الهوىٰ .

وقد روىٰ أبو الدرداء رضي الله تعالىٰ عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **ما مِن يوم طلَعَتْ فيه شمسٌ إلا وبجَنْبتَيها مَلَكانِ يُناديانِ** ، يسمعهما خَلْقُ اللهِ كلُّهم إلا الثَّقَلَينِ : يا أيُّها الناسُ ؛ هَلُمُّوا إلىٰ ربِّكُم ، **إنَّ ما قلَّ وكفىٰ خيرٌ ممَّا كثُرَ وألهىٰ** »[1] .

وروىٰ زيد بن عليّ بن الحسين ، عن أبيه ، عن جدِّه عليهم السلام أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **انتظارُ الفرَجِ منَ اللهِ تعالىٰ عبادةٌ** ، ومَن رضيَ بالقليل منَ الرِّزقِ . . **رضيَ اللهُ تعالىٰ منه بالقليلِ منَ العَملِ** »[2] .

ورُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالىٰ عنه أنه قال : (**من نُبْل الفقر : أنَّكَ لا تجدُ أحداً يعصي الله تعالىٰ ليفتقرَ**)[3] .

فأخذه محمود الورّاق فقال[4] : [من السريع]

يـا عـائـبَ الفَقـرِ ألا تـزدَجـرْ	عيـبُ الغِنـىٰ أكبـرُ لـو تعتبـرْ
مِـن شـرَفِ الفَقـرِ ومِـن فَضْلِـهِ	على الغِنىٰ إنْ صَحَّ منكَ النَّظَرْ
أنَّـكَ تعصـي لتنـالَ الغِنـىٰ	ولسـتَ تعصـي اللهَ كـي تفتقِـرْ

وقال ابن المقفَّع[5] : [من الطويل]

دليلُـكَ أنَّ الفقـرَ خيـرٌ مـنَ الغِنـىٰ	وأنَّ القليلَ المالِ خيرٌ منَ المُثْرِي

---

(١) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٣٣٢٩) ، والحاكم في « المستدرك » (٢/ ٤٤٥) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الفرج بعد الشدة » (١) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٩٥٣١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٧/ ١٢٩) ، عن علي بن الحسين رحمهما الله تعالىٰ .

(٣) أورده في « عيون الأخبار » (١/ ٢٤٧) ، ورواه في « تاريخ دمشق » (٣٢/ ٢٢٦) من قول السيد المسيح عليه السلام .

(٤) الأبيات في « ديوانه » (ص ٢١٦) .

(٥) أورد البيتين في « الوافي بالوفيات » (١٧/ ٦٣٤) ، وهما منسوبان لسيدنا عليّ رضي الله عنه في « ديوانه » (ص ١٣١) .

لقاؤُكَ مخلوقاً عَصى اللهَ بالغِنىٰ ولم ترَ مخلوقاً عَصى اللهَ بالفقرِ

وهـٰذه الحال إنَّما تصحُّ لمَن نصح نفسه فأطاعته ، وصدَقها فأجابته ؛ حتىٰ لاَنَ قيادُها ، وهان عنادُها ، وعلمت أنَّ مَن لم يتقنَّع بالقليل . . لم يتقنَّع بالكثير ؛ كما كتب الحسن البصريُّ إلىٰ عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالىٰ عنهما : (يا أخي ؛ مَن استغنىٰ بالله تعالىٰ . . اكتفىٰ ، ومَن انقطع إلىٰ غيره . . تعنَّىٰ ، ومَن كان من قليل الدنيا لا يشبعُ . . لم يُغنِه منها كثرةُ ما يجمع ، فعليكَ منها بالكَفاف ، وألزِم نفسَك العفافَ ، وإياكَ وجمعَ الفُضول ؛ فإنَّ حسابَه يطول)[1] .

وقال بعض الحكماء : (هيهاتَ منكَ الغِنىٰ إن لم يُقنعكَ ما حوَيتَ)[2] .

فأمَّا مَن عزفَتْ نفسه عن قَبول نصحه ، وجمحت به عن قناعة زهده . . فليس إلىٰ إكراهها سبيلٌ ، ولا إلى الحمل عليها وجهٌ إلا بالرياضة والمُرون ، وأن يستنزلها عن اليسير الذي لا تنفر منه ، فإذا استقرَّت عليه . . استنزلها إلىٰ ما هو أقلُّ منه ؛ لتنتهيَ بالتدريج إلى الغاية المطلوبة ، وتستقرَّ بالرياضة والمُرون على الحال المحبوبة ، فقد تقدَّم قول الحكماء بأنَّ الكره يسهُلُ بالمُرون .

فهـٰذا حكم ما في الحال الثانية من التقصير عن طلب الكفاية .

وأمّا الحال الثالثة : فهو ألاَّ يقنعَ بالكفاية ، ويطلب الزيادة والكثرة ، فقد يدعو إلىٰ ذلك أربعةُ أسباب :

أحدها : منازعة الشهوات التي لا تُنال إلا بزيادة المال ، وكثرة المادة ، فإذا نازعته الشهوةُ . . طلب من المال ما يوصله إليها ، وليس للشهوات حدٌّ متناهٍ ، فيصير ذلك ذريعةً إلىٰ أنَّ ما يطلبه من الزيادة غيرُ متناهٍ ، ومَن لم يتناهَ طلبُه . . استدامَ كدَّه وتعبُه ، ومَن استدام به الكدُّ والتعب . . لم يفِ التذاذُه بنيل شهواته ؛ بما يعانيه من استدامة كدِّه وإتعابه ، مع ما قد لزمه من ذمِّ الانقياد لمغالبة

---

(١) رواه البيهقي في « الزهد » (١٠٣) من قول سيدنا عمر رضي الله عنه .

(٢) وقال بعضهم ـ كما في « منهاج اليقين » (ص٣٧٧) ـ : (انتقم من الحرص بالقناعة كما تنتقم من عدوك بالقصاص) .

الشهوات ، والتعرُّض لاكتساب التَّبِعات ؛ حتّىٰ يصيرَ كالبهيمة التي قد انصرف طلبُها إلىٰ ما تدعو إليه شهوتُها ، فلا تنزجرُ منه بعقل ، ولا تنكفُّ عنه بقناعة .

وقد روىٰ عليُّ بن أبي طالب عليه السلام ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَن أرادَ اللهُ بهِ خيراً . . حالَ بينَه وبينَ شهوتِهِ ، وحالَ بينَه وبينَ قلبِهِ ، وإذا أرادَ اللهُ به شرّاً . . وَكَلَهُ إلىٰ نفسه » .

وقال الشاعر[1] : [من الطويل]

وإنَّكَ إنْ أعطَيْتَ بطنَكَ همَّهُ ... وفَرْجَكَ نالا مُنتهى الذَّمِّ أجمَعا

* * *

والسبب الثاني : أن يطلب الزيادة ، ويلتمس الكثرة ؛ ليصرفها في وجوه الخير ، ويتقرَّب بها في وجوه البرّ ، ويصطنع بها المعروف ، ويغيث بها الملهوف .

فهٰذا أعذرُ ، وهو بالحمد أحرىٰ وأجدرُ إذا انصرفت عنه تبعات المطالب ، وتوقّىٰ شبهات المكاسب ، وأحسنَ التقديرَ في حالتي فائدته وإفادته علىٰ قدر الزمان ، وبقدر الإمكان ؛ لأنَّ المال آلةُ المكارم ، وعونٌ على الدِّين والمغارم ، وبه يُتألَّف الإخوان .

ومَن فقده من أبناء الدنيا . . قلَّت الرغبةُ فيه ، والرهبةُ منه ، ومَن لم يكن منهم بموضعِ رهبةٍ ولا رغبةٍ . . استهانوا به ؛ وقد روىٰ عبد الله بن بُرَيدةَ ، عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنَّ أحسابَ أهلِ الدُّنيا هٰذا المالُ »[2] .

* * *

وقال مجاهد : (الخير في القرآن كلِّه : هو المال ؛ فمن ذلك قولُه تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ يعني : المالَ ، ومنه : ﴿أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى﴾

---

(١) البيت لحاتم الطائيّ في « ديوانه » (ص ٤٢) .
(٢) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٦٦٩) ، والنسائي (٦/ ٦٤) .

يعني : المالَ ، ومنه : ﴿ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ يعني : مالاً ، وقال سبحانه علىٰ لسان شعيب عليه السلام : ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ ﴾ يعني : الغنىٰ والمالَ)[1] .

وإنَّما سمَّى اللهُ تعالى المالَ خيراً إذا كان في الخير مصروفاً ؛ لأنَّ ما أدَّىٰ إلى الخير . . فهو في نفسه خيرٌ .

وقد اختلف أهل التأويل في قوله تعالىٰ : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ ، فقال السدّيّ وعبد الرحمٰن بن زيد : (**الحسنة في الدنيا** : المالُ ، **وفي الآخرة** : الجنّةُ . وقال الحسن البصريُّ وسفيان الثوريُّ : **الحسنة في الدنيا** : العلمُ والعبادة ، **وفي الآخرة** : الجنّةُ)[2] .

وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : (**الدراهم والدنانير خواتيمُ اللهِ في الأرض** ، لا تُؤكَلُ ولا تُشرَبُ ، حيثُ قصدتَ بها . . قُضِيَت حاجتُك)[3] .

وقال قيس بن سعد : (**اللهم** ؛ ارزقني حمداً ومجداً ، **فإنَّه لا حمدَ** إلا بفَعال ، **ولا مجدَ** إلا بمال)[4] .

وقيل لأبي الزِّناد : (**لِمَ تحبُّ الدراهمَ وهي تُدنِيكَ من الدنيا** ؟ فقال : هي وإن أدنَتني منها . . فقد صانَتني عنها)[5] .

وقال بعض الحكماء : (**مَن أصلح مالَه . . فقد صان الأكرمَينِ** : الدِّينَ ، والعِرضَ)[6] .

---

(١) رواه الطبري في « تفسيره » (٢/٢/١٥٩) .

(٢) رواه الطبري في « تفسيره » (٢/٢/٤٠٠ـ٤٠١) .

(٣) رواه الطبراني في « المعجم الأوسط » (٦٥٠٧) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٣/ ٣٩٤) من قول وهب بن منبه رحمه الله تعالىٰ .

(٤) أورده في « البيان والتبيين » (٢/١٤٧) ، ورواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٢٢١٠) .

(٥) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٢٢١٢) ، و« تاريخ دمشق » (٢٨/ ٦١) .

(٦) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٢٨) ، و« زهر الآداب » (٢/ ٩٨٥) .

وقيل في منثور الحكم : (**مَن استغنىٰ . . كرُمَ علىٰ أهله**)[1] .

ومرَّ رجلٌ من أرباب الأموال ببعض العلماء ، فتحرَّكَ له وأكرمه ، فقيل له بعد ذلك : (أكانت لك إلىٰ هـٰذا حاجةٌ ؟ قال : لا ؛ **ولـٰكنِّي رأيتُ ذا المالِ مَهيباً**)[2] .

وسأل رجلٌ محمدَ بن عُمَير بن عُطارد وعَتّابَ بن ورقاءَ في عشر دِيَات ، فقال محمد : (عليَّ دِيَةٌ) ، وقال عتّاب : (الباقي عليَّ) ، فقال محمد : (**نعمَ العونُ على المجد اليسارُ**)[3] .

وكان يقال : (**الدراهمُ مَراهمُ** ؛ لأنها تداوي كلَّ جُرح ، ويطيب بها كلُّ صُلح)[4] .

وقيل في منثور الحكم : (**الفقرُ مَخذَلَةٌ** ، والغِنىٰ مَجذَلَةٌ ، **والبؤسُ مَرذَلَةٌ** ، والسؤالُ مَبذَلَةٌ)[5] .

وقال الأحنف بن قيس[6] : [من المتقارب]

فلو مُدَّ سَرْوِي بمالٍ كثيرٍ لجُدْتُ وكنتُ له باذلا

فإنَّ المروءةَ لا تُستَطاعُ إذا لم يكنْ مالُها فاضلا

---

(١) أورده أبو عبيد في « الأمثال » (ص ٢٨٩) ، والعسكريّ في « جمهرة الأمثال » (٢/ ٢٩٧) لحصن بن حذيفة .

(٢) أورده أبو عبيد في « الأمثال » (ص ١٩١) ، وفي « محاضرات الأدباء » (٢/ ٢٨١) للشعبيّ .

(٣) أورده في « البيان والتبيين » (٢/ ٢٩٢) .

(٤) أورد أوله في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٢٨٨) ، وذكره تاماً في « فيض القدير » (١/ ٤٢٦) .

(٥) ذكره الألوسي في « روح المعاني » (٤/ ٢٠٣) ، **ومخذلة** : داع إلى الخذلان ، **ومجذلة** : داعي جذلٍ ؛ وهو الفرح ، **والبؤس مرذلة** : شدة الحاجة سبب رذالة ومساوىء أفعالٍ ، **والسؤال مبذلة** : داعٍ إلىٰ بذل الحياء وإراقة ماء الوجه .

(٦) أورد البيتين في « البيان والتبيين » (٢/ ٢٩٢) ، و« بهجة المجالس » (١/ ٦٤٧) . والبيتان في (ج ، هـ) فقط ، وسَرْوي : مصدر (سرو الرجل) إذا كان ذا مروءة في شرفٍ وأصالة ، **ومعنى البيت** : تأسف وتلهف علىٰ عدم المال ؛ فكأنه قيل : (**الجود بذل الموجود**) .

وقال ابن الجُلاَح[1] : [من البسيط]

رُزِقتُ لُبّاً ولم أُرزَقْ مروءتَهُ … وما المروءةُ إلا كثرةُ المالِ
إذا أردتُ مُساماةً تُباعِدُني … عمَّا يُنوِّهُ باسمي رِقَّةُ الحالِ

وقال أوس بن حجر[2] : [من الطويل]

أُقيمُ بدارِ الحَزْمِ ما دامَ حَزْمُها … وأحْرىٰ إذا حالَتْ بأنْ أتحَوَّلا
فإنِّي وجَدْتُ النَّاسَ إلا أقلَّهُمْ … خِفافَ العُهودِ يُكثِرونَ التَّنقُّلا
بَني أمِّ ذي المالِ الكثيرِ يرَونَهُ … وإن كان عبداً سيدَ الأمرِ جَحْفَلا
وهُمْ لمقلِّ المالِ أولادُ عَلّةٍ … وإن كان مَحْضاً في العَشيرة مُخوَلا

وقال أبو بشر الضرير[3] : [من الطويل]

كفىٰ حَزَناً أني أروحُ وأغتدي … وما لي من مالٍ أصون به عرضي
وأكثر ما ألقى الصديقَ بمرحباً … وذلك لا يكفي الصديق ولا يُرضي

وقال آخر[4] : [من الطويل]

أجلَّكَ قومٌ حينَ صِرْتَ إلى الغِنىٰ … وكلُّ غنيٍّ في العُيونِ جَليلُ
وليسَ الغِنىٰ إلا غِنىً زَيَّنَ الفَتىٰ … عَشيّةَ يَقري أو غَداةَ يُنِيلُ

وقد اختلف الناسُ في تفضيل الغنىٰ والفقر ، مع اتِّفاقهم : أنَّ ما أحوجَ من الفقر مكروهٌ ، وما أبطرَ من الغنىٰ مذمومٌ .

فذهب قوم إلىٰ تفضيل الغنىٰ على الفقر ؛ لأنَّ الغنيَّ مقتدر ، والفقيرَ عاجز ،

---

(١) البيتان ليسا في « ديوانه » المطبوع ، ومنسوبان للخليل في « ديوانه » (ص ١٨) ، وانظر « عيون الأخبار » (١/ ٢٣٩) ، والمساماة : المفاخرة .
(٢) الأبيات في « ديوانه » (ص ٨٣ ، ٩١) .
(٣) أوردهما ابن أبي الدنيا في « إصلاح المال » (١٠٥) ، والبيتان زيادة من (ج ، هـ) .
(٤) البيتان لأبي العتاهية في « ديوانه » (ص ٣١٨) ، يقري : ما يقدم للضيف ، وينيل : يعطي ، وفي البيت نصح وإرشاد لِما يفعله صاحب المال ، أو هو تعريض ببخل المخاطب .

والقدرة أفضل من العجز ، وهٰذا مذهب مَن غلب عليه حبُّ النباهة .

وذهب آخرون إلىٰ تفضيل الفقر على الغنىٰ ؛ لأنَّ الفقيرَ تارك ، والغنيَّ مُلابِس ، وتركُ الدنيا أفضلُ من ملابستها ، وهٰذا مذهب مَن غلب عليه حبُّ السلامة .

وذهب آخرون إلىٰ تفضيل التوسُّط بين الأمرين ؛ بأن يخرج عن حدِّ الفقر إلىٰ أدنىٰ مراتب الغنىٰ ؛ ليصل إلىٰ فضيلة الأمرين ، ويسلمَ من مَذمّة الحالين ، وهٰذا مذهبُ مَن يرىٰ تفضيل الاعتدال ، وأنَّ خيار الأمور أوساطُها ، وقد مضىٰ من شواهد كلِّ فريق في موضعه ما أغنىٰ عن إعادته .

والسبب الثالث : أن يطلبَ الزيادة ، ويقتنيَ الأموال ؛ ليدَّخرها لولده ، ويخلِّفها علىٰ ورثته مع شدة ضنِّه علىٰ نفسه ، وكفِّه عن صرف ذلك في حقِّه ؛ إشفاقاً عليهم من كدح الطلب ، وسوء المنقلَب .

فهٰذا شقيٌّ بجمعها ، مأخوذٌ بوِزرها ، قد استحقَّ اللومَ ، واستوجب الذمَّ من وجوه لا تختلُّ علىٰ ذي لبٍّ :

منها : سوءُ ظنِّه بخالقه في أنه لا يرزقهم إلا من جهته ، وقد قيل : (قتل القنوطُ صاحبَه) .

وفي حسن الظنِّ بالله تعالىٰ راحةُ القلوب ، وقال عبد الحميد : (كيف تبقىٰ علىٰ حالتِك والدهرُ في إحالتِك ؟!)[1] .

ومنها : الثقةُ ببقاء ذلك علىٰ ولده مع نوائب الزمان ومصائبه ، وقد قيل : (الدهرُ حَسُودٌ ، لا يأتي علىٰ شيءٍ إلا غيَّره) .

وقيل في منثور الحكم : (المالُ مَلُولٌ)[2] .

---

(١) في إحالتك : في إفنائك ، يقال : أحالت الدار : إذا أتىٰ عليها أحوال ؛ أي سنون .

(٢) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٣٩٣) .

وقال بعض الحكماء : (**الدنيا إن بقيت لكَ . . لم تبقَ لها**)[1] .

ومنها : ما حُرِم من منافع ماله ، وسُلِب من وُفور حاله ، وقد قيل : (**إنَّما مالُكَ** : لكَ ، أو للوارث ، أو للجائحة ، **فلا تكن أشقى الثلاثة**)[2] .

وقال عبد الحميد : (اطَّرِحْ كواذبَ آمالِك ، **وكنْ وارثَ مالِك**) .

ومنها : ما لحقه من شقاءِ جمعه ، وناله من عناءِ كدِّه ، حتّىٰ صار ساعياً محروماً ، وجاهداً مذموماً ، وقد قيل : (**ربَّ مغبوطٍ بمَسرّةٍ هي داؤه ، ومرحومٍ من سقَمٍ هو شفاؤه**)[3] .

وقال الشاعر[4] : [من الطويل]

وَمَن كلَّفَتْهُ النَّفسُ فوقَ كَفافِها فما ينقضي حتّى المَماتِ عَناؤُهُ

ومنها : ما يُؤاخَذ به من وزره وآثامه ، ويُحاسَب عليه من تبعاته وإجرامه ؛ **كما حُكي** : أنَّ هشام بن عبد الملك لمَّا ثقُل . . بكىٰ عليه ولدُه ، فقال لهم : (**جاد لكم هشام بالدنيا** ، وجُدتم عليه بالبكاء !! **وترك لكم ما كسب** ، وتركتم عليه ما اكتسب !! **ما أسوأ حالَ هشام إن لم يغفر الله له !!**)[5] .

فأخذ هـٰذا المعنىٰ محمود الورّاق ، فقال[6] : [من المتقارب]

تمتَّـعْ بمـالِـكَ قبـلَ المَمـاتِ وإلا فــلا مـالَ إنْ أنـتَ متّـا
شقِيـتَ بـهِ ثـمَّ خلَّفتَـهُ لغيـرِكَ بُعْـداً وسُحْقـاً ومَقْتـا
فجـادُوا عليـكَ بـزُورِ البُكـاءِ وجُـدتَ عليهـم بمـا قـد جمَعْتـا
فـأرهَنْتَهُـمْ كـلَّ مـا فـي يـدَيـكَ وخَلَّـوكَ رَهْنـاً بمـا قـد كسبْتـا

---

(١) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٢٤٩) ، و« نهاية الأرب » (٦/ ١١٠) .
(٢) رواه في « البيان والتبيين » (٣/ ١٩١) ، وأورده في « بهجة المجالس » (١/ ١٩٦) من قول سيدنا أبي ذرّ رضي الله عنه .
(٣) أورده في « لباب الآداب » (ص ٤٦٣) .
(٤) البيت لأبي العتاهية في « ديوانه » (ص ٤) .
(٥) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٣٠٨٧) ، و« الجليس الصالح » (٢/ ٣٨٦) ، **وترك لكم ما كسب** من الدنيا ، وتركتم عليه ما اكتسب من الآثام والمعاصي !!
(٦) الأبيات في « ديوانه » (ص ٨٨) .

وقد رُوي أن العبّاس بن عبد المطلب جاء إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسولَ الله ؛ وَلِّني ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « يا عبّاسُ ، يا عمَّ النبيِّ ؛ **قليلٌ يكفيكَ خيرٌ من كثيرٍ يُردِيكَ** ، يا عبّاسُ ، يا عمَّ النبيِّ ؛ **نفسٌ تُنجيها خيرٌ من إمارة لا تُحصيها** ، يا عبّاسُ ، يا عمَّ النبيِّ ؛ **إنَّ الإمارةَ أوّلُها ندامةٌ ، وأوسطُها مَلامةٌ ، وآخرُها خِزْيٌ يومَ القيامةِ** » فقال : يا رسولَ الله ؛ إلا مَن عدَل ؟ فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « **وكيف تعدِلُونَ معَ الأقاربِ ؟** »[1] .

وقال رجلٌ للحسن البصريِّ : (إنِّي أخاف الموتَ وأكرهه !! فقال : **إنَّك خلَّفتَ مالَكَ ، ولو قدَّمتَه . . لسرَّكَ اللحاقُ به**)[2] .

وقيل في منثور الحكم : (**كثرةُ مالِ الميت تُعزِّي ورثتَه عنه**)[3] .

فأخذ هـٰذا المعنى ابنُ الروميِّ ، فقال وزاد[4] : [من البسيط]

أبقيتَ مالَكَ ميراثاً لوارثِهِ	**فليتَ شِعْرِيَ ما بقَّىٰ لكَ المالُ**
القومُ بعدَكَ في حالٍ تسرُّهُمُ	**فكيفَ بعدَهُمُ حالَتْ بكَ الحالُ**
ملُّوا البكاءَ فما يَبكيكَ من أحَدٍ	**واستحكَمَ القِيلُ في الميراثِ والقالُ**
أَلْهَتْهُمُ عنكَ دنيا أقبلَتْ لهُمُ	**وأدبرَتْ عنكَ والأيّامُ أحوالُ**

والسبب الرابع : أن يجمع المال ، ويطلب المكاثرة ؛ **استحلاءً لجمعه ، وشغَفاً باحتجانه**[5] .

فهـٰذا أسوأُ الناس حالاً فيه ، وأشدُّهم حرماناً له ، قد توجَّهت إليه سائرُ

---

(١) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٧٠٢٤) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٣٢١١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٨/ ٤٣٩) .

(٢) أورده في « البيان والتبيين » (١/ ٢٦٤) ، ورواه في « المجالسة وجواهر العلم » (١٥٢٢) .

(٣) أورده في « التذكرة الحمدونية » (٨/ ١٠٨) ، و« نثر الدر » (٣/ ١٥١) من قول عبد الله بن المعتز .

(٤) الأبيات منسوبة لمحمود الوراق في « ديوانه » (ص٢٣٠) .

(٥) **احتجان المال** : جمعه وضم ما انتشر منه ، والاستلذاذ بجمعه وجذبه كما يُجذب الشيء بالمحجن .

المَلاوِم ؛ حتىٰ صار وبالاً عليه ، ومَذامَّ له ، وفي مثله قال الله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « تبّاً للذَّهَبِ ، تبّاً للفضّةِ » فشقَّ ذلك علىٰ أصحاب رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : فأيَّ مالٍ نتخذُ ؟ قال عمر رضي الله تعالىٰ عنه : أنا أعلمُ لكم ذلك ، فقال : يا رسولَ الله ؛ إنَّ أصحابك قد شقَّ عليهم ما قلت ، وقالوا : فأيَّ مالٍ نتَّخذُ ؟ فقال : « لساناً ذاكراً ، وقلباً شاكراً ، وزوجةً مؤمنةً تُعينُ أحدَكُم علىٰ دِينِهِ »(1) .

وروىٰ شَهْرُ بن حَوْشَبٍ ، عن أبي أمامةَ قال : مات رجلٌ من أهل الصُّفّة ، فوُجِد في مئزره دينارٌ ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « كيّةٌ » ثم مات آخر ، فوُجِد في مئزره ديناران ، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « كيّتانِ »(2) .

وإنَّما ذكر ذلك فيهما وإن كان قد مات علىٰ عهده مَن ترك أموالاً جمّةً ، وأحوالاً ضخمةً ، فلم يكن منه فيهم ما كان في هٰذين ؛ لأنَّهما تظاهرا بالقناعة ، واحتجَنا ما ليس بهما إليه حاجةٌ ، فصار ما احتجَناه وِزراً عليهما ، وعقاباً لهما .

وقد قال الشاعر(3) : [من الطويل]

إذا كنتَ ذا مالٍ ولم تَكُ ذا نَدىً ... فأنتَ إذاً والمُقتِرُونَ سَواءُ
علىٰ أنَّ في الأموالِ يوماً تِباعةً ... علىٰ أهلِها والمُقتِرُونَ بُراءُ

وأُنشدت عن الربيع للشافعيّ رضي الله عنه(4) : [من الكامل]

إنَّ الذي رُزِقَ اليسارَ فلم يُصِبْ ... حمداً ولا أجراً لَغيرُ مُوفَّقِ

---

(1) رواه الإمام أحمد في « الزهد » (١٤٠) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٥٨٤) ، والطبراني في « المعجم الأوسط » (٢٢٧٤) ، وقال في « منهاج اليقين » (ص٣٨٣) : (ولله در المصنف ؛ لقد ساق الآية في مساقٍ اندفع به شبهات المفسرين ، حتىٰ ذهب بعضهم إلىٰ أن آية الزكاة نسخت آية الكنز ، وبنى الزمخشري تفسيرها علىٰ ما روي عنه عليه السلام : « كل ما أديت زكاته . . فليس بكنز وإن كان باطناً ، وما لم يُزكَّ . . فهو كنز وإن كان ظاهراً ») .

(2) رواه هنّاد في « الزهد » (٦٣١) ، والإمام أحمد في « المسند » (٥/ ٢٥٢) .

(3) البيتان أوردهما الخطّابيُّ في « غريب الحديث » (١/ ٨٨) ممّا أنشده ثعلب ، والمُقترون : المُقِلُّون .

(4) الأبيات في « ديوانه » (ص ١٠٠ـ ١٠١) ، وفي « مناقب الشافعي » للبيهقي (٢/ ٩٢) ، =

والجَدُّ يُدني كلَّ شيءٍ شاسعٍ والجِدُّ يفتحُ كلَّ بابٍ مُغلَقِ
فإذا سمعْتَ بأنّ مَجْدُوداً حوىٰ عُوداً فأَوْرقَ في يدَيْهِ فحقِّقِ
وإذا سمعْتَ بأنّ محدُوداً أتىٰ ماءً ليشربَه فجفَّ فصدِّقِ
وأحقُّ خَلْقِ اللهِ بالهَمِّ امرُؤٌ ذو هِمّةٍ يُبلىٰ بعيشٍ ضَيِّقِ
ومنَ الدَّليلِ على القضاءِ وكونِهِ بؤسُ اللَّبيبِ وطيبُ عيشِ الأحمقِ

وآفةُ مَن بُلِي بالجمع والاستكثار ، ومُنِي بالإمساك والادِّخار ، حتّى انصرف عن رشده فغوىٰ ، وانحرف عن سَنَن قصده فهوىٰ . . أن يستوليَ عليه حبُّ المال ، وبعدُ الأمل ، فيبعثه حبُّ المال على الحرص في طلبه ، ويدعوه بعدُ الأمل على الشحِّ به .

والحرص والشح أصلا كلِّ ذمٍّ ، وسببا كلِّ لؤمٍ ؛ لأنَّ الشح يمنع من أداء الحقوق ، ويبعث على القطيعة والعقوق ؛ ولذلك قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « شرُّ ما أُعطِيَ العبدُ : شُحٌّ هالعٌ ، وجُبْنٌ خالعٌ »[1] .

وقال بعض الحكماء : (الغنيُّ البخيلُ كالقويِّ الجبان) .

وأمّا الحِرصُ . . فيسلب فضائلَ النفس ؛ لاستيلائه عليها ، ويمنع من التوفُّر على العبادة ؛ لتشاغله عنها ، ويبعث على التورُّط في الشبهات ؛ لقلّة تحرُّزه منها ، وهٰذه ثلاثُ خِلالٍ هنَّ جامعاتُ الرذائل ، وسالباتُ الفضائل[2] .

مع أنَّ الحريص لا يكسب بحرصه زيادةً علىٰ رزقه سوىٰ إذلال نفسه ، وإسخاط خالقه .

= والجد : الأول بالفتح : الحظ والبخت ، والثاني بالكسر : السعي والاجتهاد ، والشاسع : البعيد .
والمجدود : المحظوظ ، والمحدود عكسه ؛ وهو المحروم .

(١) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٣٢٥٠) ، وأبو داوود (٢٥١١) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وشح هالع : البخل الذي يمنع من إخراج الحق الواجب عليه ؛ فإذا استخرج منه . . هلع وجزع ، وجبن خالع : شديد يخلع الفؤاد من شدته .

(٢) وهٰذه الثلاث هي : سلب الفضائل ، ومنع العبادة ، والتورط في الشبهات .

ورُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **الحريصُ الجاهدُ ، والقَنِعُ الزاهدُ . . يَستوفيانِ أُكُلَهُما غيرَ منتقَصٍ منه شيئاً ، فعلامَ التَّهافُتُ في النارِ ؟!** »[1] .

وقال بعض الحكماء : (**الحرصُ مَفسدةٌ للدِّين والمروءة** ، والله ؛ ما عرفتُ من وجه رجلٍ حرصاً فرأيتُ أنَّ فيه مُصطَنعاً)[2] .

وقال آخر : (**الحريصُ** أسيرُ مهانةٍ ، لا يُفَكُّ أسرُه) .

وقال بعض البلغاء : (**المقاديرُ الغالبة لا تُنال بالمُغالبة ، والأرزاق المكتوبة** لا تُنال بالشدَّة والمُكالبة ، فذلِّلْ للمقادير نفسَك ، واعلم بأنَّك غيرُ نائلٍ بالحرص إلا حظَّك)[3] .

وقال بعض الأدباء : (ربَّ حظٍّ أدركه غيرُ طالبه ، ودَرٍّ أحرزه غيرُ حالبه)[4] .

وأنشدني بعض أهل الأدب لمحمد بن حازم[5] : [من مجزوء الرمل]

يا أسيرَ الطَّمَعِ الكا ... ذبِ في غُلِّ الهَوانِ
إنَّ عِزَّ اليأسِ خيرٌ ... لَكَ مِن ذُلِّ الأماني
سامِحِ الدَّهرَ إذا عَزَّ ... وخُذْ صَفْوَ الزَّمانِ
ربَّما أَعدَمَ ذو الحِر ... صِ وأَثرىٰ ذو التَّواني

وليس للحريص غايةٌ مقصودةٌ يقف عندها ، ولا نهايةٌ محدودةٌ يقتنع بها ؛ لأنَّه إن وصل بالحرص إلىٰ ما أمَّل . . أغراه ذلك بزيادة الحرص والأمل ، وإن لم يصل . . رأىٰ إضاعةَ العناء لوماً ، والصبرَ عليه حزماً ، وصار بما سلف من عنائه أقوىٰ رجاءً ، وأبسطَ أملاً .

---

(١) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (١٧٤٥) ، وأورده ابن أبي الدنيا في « القناعة والتعفّف » (٦٦) من قول الحسن البصريّ رحمه الله .
(٢) رواه في « الأغاني » (٤/١٢٨٩) ، وأورده في « ربيع الأبرار » (٣/٤٣٨) من قول المأمون .
(٣) أورده في « البصائر والذخائر » (٣/١٥٦) .
(٤) أورده في « جمهرة الأمثال » (١/١٣٧) .
(٥) الأبيات في « ديوانه » (ص٩٨ـ العاشور) .

وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **يشيبُ ابنُ آدمَ وتَشِبُّ منه خَصلتانِ : الحرصُ والأمل** »[1] .

وقيل للمسيح عليه السلام : (ما بالُ المشايخ أحرصَ على الدنيا من الشباب ؟ قال : **لأنَّهم ذاقُوا من طعم الدنيا ما لم يذقْه الشباب**)[2] .

ولو صَدق **الحريصُ** نفسَه ، واستنصح عقلَه . . **لعلم أنَّ من تمام السعادة ، وحسن التوفيق** . . الرضا بالقضاء ، والقناعةَ بالقَسْم .

رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **اقتصِدُوا في الطَّلَب** ؛ فإنَّ ما رُزِقتُمُوهُ أشدُّ طلَباً لكم منكم له ، وما حُرِمتُمُوهُ . . فلن تنالُوه ولو حرَصْتُم »[3] .

ورُوي أنَّ جبريل عليه السلام هبط على النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فقال : إنَّ الله تعالىٰ يقرأ عليكَ السلامَ ، ويقول لكَ : اقرأ بسم اللهِ الرحمـٰنِ الرحيم : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ ، فأمر النبيُّ صلى الله عليه وسلم منادياً فنادىٰ : « **مَن لم يتأدَّب بأدب الله تعالىٰ** . . **تقطَّعَتْ** نفسُه على الدنيا حَسَراتٍ »[4] .

وقيل : (مكتوبٌ في بعض الكتب : **رُدُّوا أبصارَكم عليكم ؛ فإنَّ لكم فيها شغلاً**)[5] .

وقال مجاهد في تأويل قوله تعالىٰ : ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ قال : (**بالقناعة**)[6] .

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٣٩) ، وابن ماجه (٤٢٣٤) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٢) أورده في « البصائر والذخائر » (٨/ ١٣٠) ، و« محاضرات الأدباء » (٢/ ٣٢٩) .

(٣) أورده في « محاضرات الأدباء » (٢/ ٢٥٨) .

(٤) ذكره المؤلف في « النكت والعيون » (٣/ ٤٣٤) .

(٥) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٣/ ٨٢) عن مالك بن دينار رحمه الله تعالىٰ .

(٦) رواه الطبري في « تفسيره » (٨/ ١٤/ ٢٠٩) عن سيدنا علي رضي الله عنه والحسن البصري رحمه الله تعالىٰ .

وقال أكثم بن صيفيّ : (مَن باع الحرصَ بالقناعة . . ظفر بالغنىٰ والثَّروة)[1] .

وقال بعض السلف : (قد يخيب الجاهدُ الساعي ، ويظفر الوادعُ الهادي) .

فأخذه البحتريُّ فقال[2] : [من الكامل]

لـم أَلْقَ مقـدوراً علـى استحقـاقِـهِ ... فـي الحـظِّ إمّـا نـاقصـاً أو زائـدا
وعجِبتُ للمحدودِ يُحرَمُ ناصباً ... كَلِفـاً وللمجـدودِ يغنـمُ قـاعـدا
ما خَطْبُ مَن حُرِمَ الإرادةَ وادعاً ... خَطْبَ الذي حُرِمَ الإرادةَ جاهدا

وقال بعض الحكماء : (إنَّ مَن قنع . . كان غنيّاً وإنْ كان مقتراً ، ومن لم يقنَعْ . . كان فقيراً وإنْ كان مُكثِراً)[3] .

وقال بعض البلغاء : (إذا طلبتَ العزَّ . . فاطلبه بالطاعة ، وإذا طلبتَ الغنىٰ . . فاطلبه بالقناعة ، فمَن أطاع الله عز وجل . . عزَّ نصرُه ، ومَن لزم القناعة . . زال فقرُه)[4] .

وقال بعض الأدباء : (القناعةُ : عزُّ المعسر ، والصَّدَقةُ : حرزُ الموسر)[5] .

وقال بعض الشعراء[6] : [من مخلّع البسيط]

إنِّـي أرىٰ مَـن لـه قُنُـوعٌ ... يُـدرِكُ مـا نـال مَـن تمنَّـىٰ
والـرِّزقُ يـأتـي بـلا عَنـاءٍ ... وربَّمـا فـاتَ مَـن تعنَّـىٰ

---

(١) أورده في « ربيع الأبرار » (٥/ ٣٧٣) .
(٢) الأبيات في « ديوانه » (٢/ ٨٢١ـ ٨٢٢) ، والمحدود : المحروم ، والمجدود : ذو الحظّ .
(٣) أورده في « الكشكول » (٢/ ٨٩)
(٤) أورده في « الكشكول » (٢/ ٥٥) .
(٥) أورده في « الإمتاع والمؤانسة » (ص٢٧٩) ، و« الكشكول » (٢/ ٨٩) ، وحرز الموسر : حصنه وملجأه .
(٦) البيتان رواهما في « الطيوريات » (٧٩٩) ، وأوردهما في « الزهرة » (٢/ ٩٧) .

والقناعة قد تكون علىٰ ثلاثة أوجه :

فالوجه الأول : أن يقتنع بالبُلغة من دنياه ، ويصرف نفسه عن التعرُّض لما سواه ، وهٰذا أعلىٰ منازل أهل القناعة .

وقال الشاعر[1] : [من الطويل]

إذا شئتَ أن تحيا غنيّاً فلا تكنْ ... علىٰ حالةٍ إلا رضيتَ بدونها

وقال مالك بن دينار : (أزهدُ الناسِ في الدنيا : مَنْ لم تتجاوز رغبتُه من الدنيا بُلغتَه) .

وقال بعض الحكماء : (الرِّضا بالكفاف يؤدِّي إلى العفاف)[2] .

وقال بعض الأدباء : (ربَّ ضيقٍ أفضلُ من سَعة ، وعناءٍ خيرٌ من دَعة)[3] .

وأنشدني بعض أهل الأدب وذكر أنَّه لعليِّ بن أبي طالب عليه السلام[4] : [من الوافر]

أفادتني القناعةُ كلَّ عزٍّ ... وأيُّ غِنىً أعزُّ منَ القَناعَةْ

فصيِّرْها لنفسِكَ رأسَ مالٍ ... وصيِّرْ بعدَها التَّقوىٰ بِضاعَةْ

تحُزْ رِبحَينِ تغنىٰ عن بخيلٍ ... وتنعمُ في الجِنانِ بصبرِ ساعَةْ

والوجه الثاني : أن تنتهي به القناعة إلى الكفاية ، ويحذف الفضول الزائدة ، وهٰذه أوسطُ أحوال المقتنع .

وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما مِن عبدٍ إلا بينَه وبينَ

---

(١) في النسخ كلها إلا (هـ) : (وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال) ، وهو بيت شعر ذُكر في كثير من المصادر ؛ انظر « الصلة » لابن بشكوال (١/ ٢٦) ، و« وفيات الأعيان » (٣/ ٣٢٨) في ترجمة ابن حزم الظاهري حيث قالا عنه : (أنشدني والدي الوزير في بعض وصاياه لي رحمه الله تعالىٰ . . .) وذكرا البيت .

(٢) أورده في « الإمتاع والمؤانسة » (ص٢٧٩) ، و« يتيمة الدهر » (٤/ ٣٤٩) من قول أبي الفتح البستيّ .

(٣) خيرٌ مِن دعة : خيرٌ من سكونٍ وراحة .

(٤) الأبيات في « ديوانه » (ص١٦٢) .

رزقِهِ حِجابٌ ؛ فإن قنِعَ واقتصدَ . . أتاه رزقُهُ ، وإن هتكَ الحجابَ . . لم يُزَدْ في رزقِهِ »[١] .

وقال بعض الحكماء : (**طلبُ ما فوقَ الكفافِ إسرافٌ**) .

وقال بعض البلغاء : (**مَن رضي بالمقدور . . قنع بالميسور**)[٢] .

وقال البحتريّ[٣] : [من الرمل]

تَطلبُ الأكثرَ في الدُّنيا وقد ... تُبلَغُ الحاجةُ منها بالأقَلّْ

وأُنشدت لإبراهيم بن المدبّر[٤] : [من مجزوء الكامل]

إنَّ القَناعةَ والعَفا ... فَ ليُغنِيانِ عنِ الغِنىٰ

فإذا صبَرْتَ عنِ المُنىٰ ... فاشكُرْ فقد نِلْتَ المُنىٰ

والوجه الثالث : أن تنتهي به القناعة إلى الوقوف علىٰ ما سنح ؛ فلا يكره ما أتاه وإن كان كثيراً ، ولا يطلب ما تعذَّر وإن كان يسيراً .

وهٰذه الحال أدنىٰ منازل أهل القناعة ؛ لأنها مشتركةٌ بين رغبةٍ ورهبة ؛ أمّا **الرغبةُ** . . فلأنه لا يكره الزيادةَ على الكفاية إذا سنحت ، وأمّا **الرهبةُ** . . فلأنه لا يطلب المتعذِّرَ عن نقصان المادة إذا تعذَّرت .

وفي مثله قال ذو النون : (**مَن كانت قناعتُه سمينةً . . طابت له كلُّ مَرَقة**)[٥] .

وقد روى الحسن بن عليّ ، عن أبيه ، عن جدِّه عليهم السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **الدنيا دُوَلٌ ؛ فما كان منها لكَ . . أتاكَ علىٰ**

---

(١) أورده في « عيون الأخبار » (٣/١٨٣) ، ورواه في « المجالسة وجواهر العلم » (١١١٢) من قول سيدنا عمر رضي الله عنه .

(٢) انظر « فيض القدير » (١/ ٢٢٤) .

(٣) البيت في « ديوانه » (٣/ ١٧١٧) .

(٤) أورد البيتين في « بهجة المجالس » (١/ ١٢٣) .

(٥) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص٤١١) .

ضعفِكَ ، وما كان منها عليكَ . . لم تدفعْهُ بقوّتِكَ ، ومَن انقطعَ رجاؤه ممّا فات . . استراحَ بدَنُهُ ، ومَن رضيَ بما رزقَهُ اللهُ تعالىٰ . . قرّتْ عينُهُ »[1] .

وقال أبو حازم الأعرج : (وجدت الدنيا شيئين : شيئاً هو لي لن أعجلَه قبلَ أجلِه ولو طلبتُه بقوّة السماوات والأرض ، وشيئاً هو لغيري ؛ وذلك مما لم أنلْه فيما مضىٰ ، ولا أنالُه فيما بقي ، يُمنَع الذي لي من غيري ؛ كما يُمنَع الذي لغيري منِّي ، ففي أيِّ هٰذين أُفني عمري ، وأُهلِك نفسي ؟!)[2] .

وقال أبو تمام الطائي[3] : [من الكامل]

لا تأخُذَنّي بالزَّمانِ فليسَ لي ... تَبَعاً ولستُ على الزَّمانِ كفيلا
مَنْ زاحفَ الأيّامَ ثمَّ عَبا لها ... غيرَ القَناعةِ لم يزَلْ مَفلُولا
منْ كان مَرعىٰ عزمِهِ وهُمومِهِ ... روضَ الأماني لم يزَلْ مَهزُولا
لو جار سلطانُ القُنُوعِ وحُكمُهُ ... في الخَلْقِ ما كان القليلُ قليلا
والرِّزقُ لا تكمَدْ عليه فإنَّهُ ... يأتي ولم تَبعَثْ إليه رَسُولا

وأنشدني بعض أهل الأدب لابن الروميِّ[4] : [من الوافر]

جرىٰ قلَمُ القَضاءِ بما يكونُ ... فسِيّانِ التَّحرُّكُ والسُّكُونُ
جنونٌ منكَ أن تسعىٰ لرزقٍ ... ويُرزَقُ في غِشاوتِهِ الجَنينُ

ونحن نسأل الله تعالىٰ ـ أكرمَ مسؤولٍ ، وأفضلَ مأمولٍ ـ أن يُحسنَ لنا التوفيقَ فيما منح ، ويصرفَ عنّا الرغبة فيما منع ؛ استكفافاً لتبِعات الثروة ، ومُوبقات الشهوة !!

---

(١) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٥٦١) عن زين العابدين عن أبيه عن جده رضي الله عنهم ، وأورده الديلمي في « الفردوس » (٣١١٣) ، والدنيا دول ـ جمع : دولة ـ : وهي عبارة عن انقلاب الزمان ، والغالبية والمغلوبية بالنوبة ؛ أي : ذات انقلابات كثيرة .

(٢) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (١٢٤٠) ، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (٣/ ٢٣٧) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٢/ ٥٠) .

(٣) الأبيات في « ديوانه » (٣/ ٦٧ـ٦٨) .

(٤) البيتان في « يتيمة الدهر » (٥/ ١٦٣) لأبي الفرج بن هندو ، وفي « وفيات الأعيان » (٣/ ٢٨٣) لأبي الخير الكاتب الواسطيّ .

رویٰ شريك بن أبي نمر ، عن أبي الجِذْع ، عن أعمامه وأجداده ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خيرُ أمّتي الذين لم يُعطَوا حتّىٰ يبطَرُوا ، ولم يُقتَّرْ عليهِم حتّىٰ يَسألُوا »[1] .

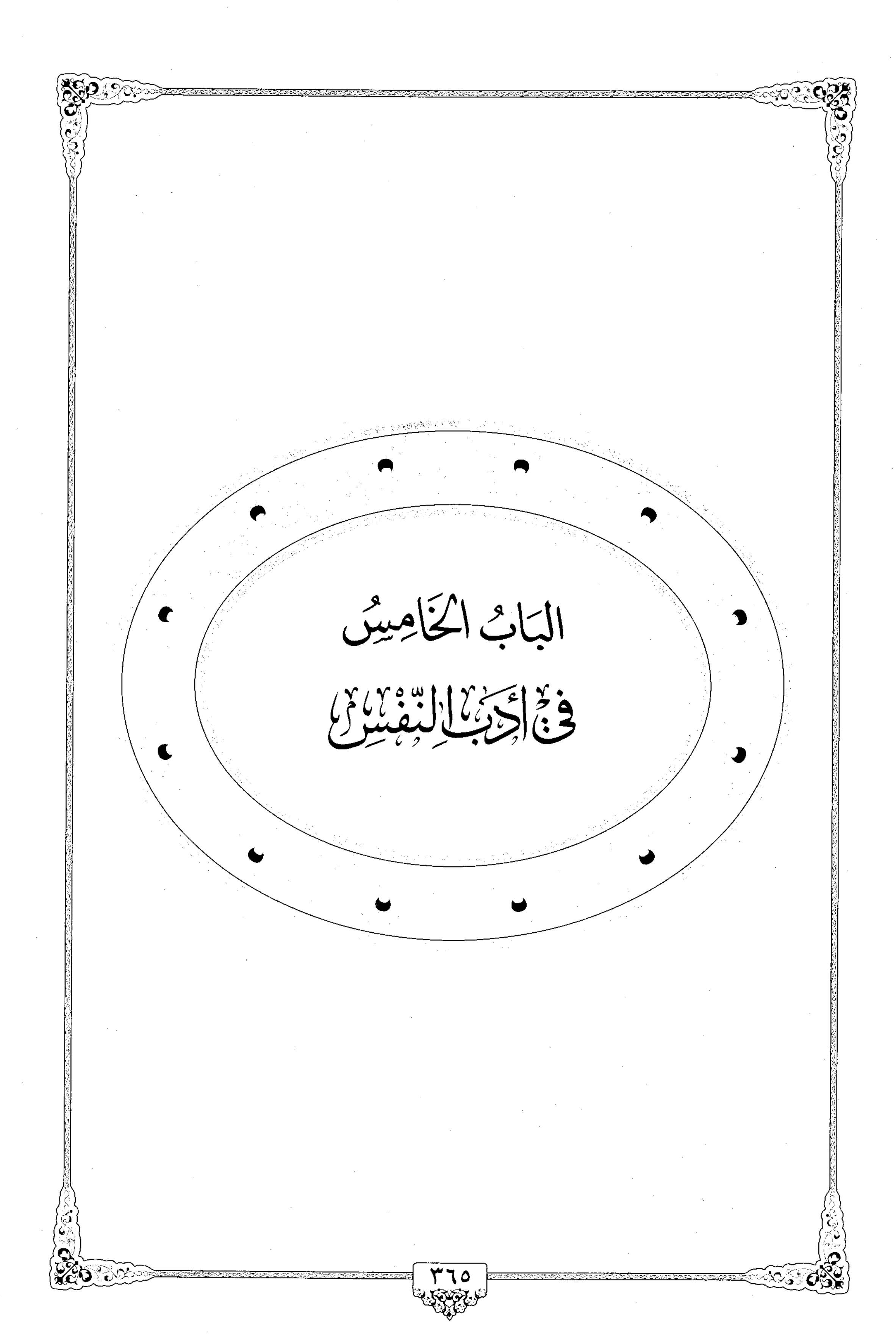
وقال أبو تمام الطائيّ[2] : [من الكامل]

عنـدي مِـنَ الأيّـام مـا لـو أنّـهُ ... أضحىٰ بشاربِ مُرقِدٍ ما غَمَّضا
لا تطلُبَـنَّ الـرِّزقَ بعـدَ شِمـاسِـهِ ... فتـرُومَـهُ سَبُعـاً إذا مـا غَيَّضـا
مـا عُـوِّضَ الصَّبـرَ امـرُؤٌ إلا رأىٰ ... مـا فـاتَـهُ دونَ الـذي قـد عُـوِّضـا

---

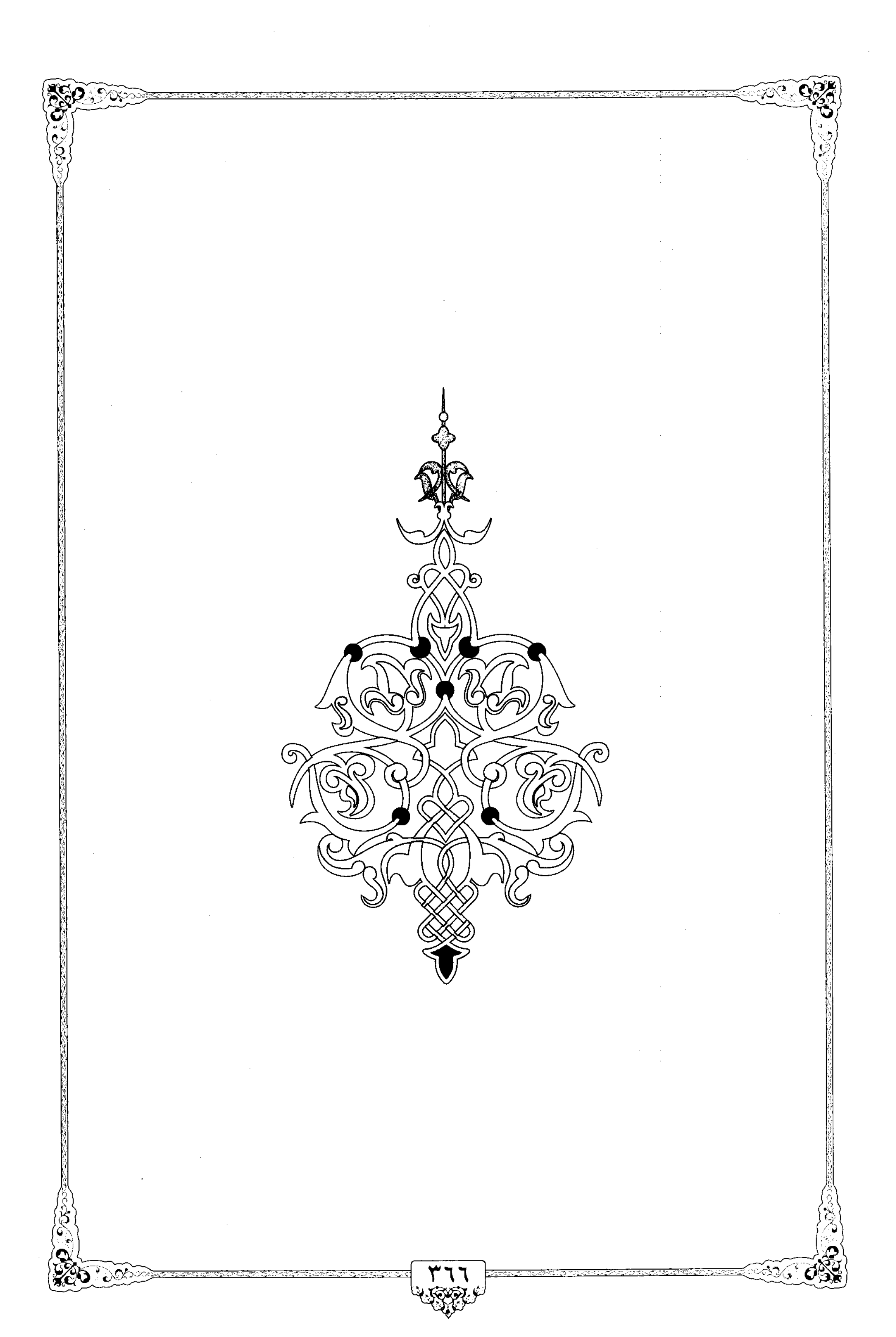
(١) رواه الخطيب في « موضح أوهام الجمع والتفريق » (٢/ ٣٨١) عن ابن الجذع عن أبيه ، والبخاري في « التاريخ الكبير » (٨/ ٣٠٥) عن ابن الحوا عن أعمامه ، وفي (ب ، ج) : (عن ابن أبي الجذع عن أعمامه . . .) .

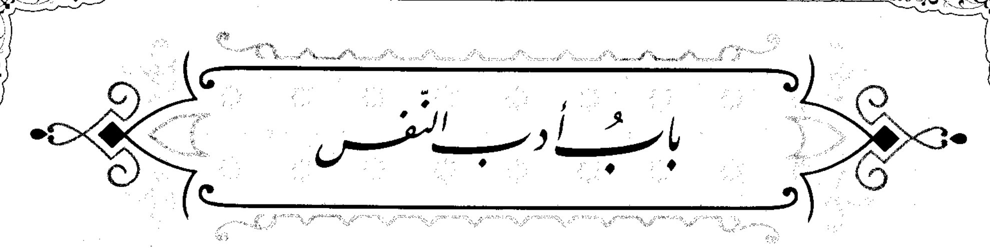
(٢) الأبيات في « ديوانه » (٢/ ٣٠٣) ، والمرقد : دواء مُنيم ، وما غمضا ؛ أي : عينه لشدة الأهوال ، وبعد شماسه : بعد امتناعه ، وغيضا : إذا دخل الغَيْضة ؛ أي : الأَجَمة .



الباب الخامس

في أدب النفس





باب أدب النفس

اعلم : أنَّ النفس مجبولةٌ علىٰ شِيَم مهمَلة ، وأخلاق مرسَلة ، **لا تستغني بمحمودها عن التأديب** ، ولا تكتفي بالمرضيِّ منها عن التهذيب ؛ **لأن لمحمودها أضداداً مقابلة** ، يُسعدها هوىً مطاع ، وشهوةٌ غالبة .

فإن أغفل تأديبها تفويضاً إلى العقل ، أو توكُّلاً علىٰ أن تنقاد إلى الأحسن بالطبع . . **أعدمه التفويضُ دَرْكَ المجتهدين** ، وأعقبه التوكُّلُ ندمَ الخائبين ، **فصار من الأدب عاطلاً**[1] ، وفي صورة الجهل داخلاً ؛ **لأنَّ أكثر الأدب مكتسَبٌ بالتجربة** ، أو مستحسَنٌ بالعادة ، **ولكلِّ قوم مُواضَعة** ، وكلُّ ذلك لا يُنال بتوقيف العقل ، ولا بالانقياد للطبع حتىٰ يُكتسَبَ بالتجربة والمُعاناة ، ويُستفادَ بالدُّرْبة والمُعاطاة ، **ثم يكون العقل عليه قَيِّماً** ، وزكيُّ الطبع إليه سُلَّماً .

ولو كان العقل مُغنياً عن الأدب . . لكان أنبياءُ الله تعالىٰ عن أدبه مستغنِينَ ، وبعقولهم مستكفين ؛ وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **بُعِثْتُ لأُتمِّمَ مَكارِمَ الأخلاقِ** »[2] .

وقيل لعيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام : مَن أدَّبَكَ ؟ فقال : « **ما أدَّبَني أحدٌ ، رأيتُ جهلَ الجاهلِ فاجتنبتُه** »[3] .

وقال عليُّ بن أبي طالب عليه السلام : (**إنَّ اللهَ تعالىٰ جعل مكارمَ الأخلاق ومحاسنَها وُصَلاً** بينه وبينكم ؛ فبحسب الرجلِ أن يتَّصلَ من الله تعالىٰ بخُلُقٍ منها)[4] .

---

(١) درك المجتهدين : اللحاق بهم ، ومن الأدب عاطلاً ؛ أي : خالياً ، يقال للمرأة : عاطل إذا خلا جيدها من الحلي .

(٢) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٢٧٣) ، والحاكم في « المستدرك » (٢/ ٦١٣) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) أورده في « بهجة المجالس » (١/ ١١٤) ، و« العقد الفريد » (٢/ ٤٤٢) .

(٤) أورده في « التذكرة الحمدونية » (٢/ ١٧٣) ، و« نثر الدرّ » (١/ ٣٠٤) .

وقال أردشير بن بابك : (من فضيلة الأدب : أنَّه ممدوحٌ بكل لسان ، ومتزيَّنٌ به في كل مكان ، وباقٍ ذكرُه علىٰ أيّام الزمان)[1] .

وقال مهبوذ : (شُبِّه العالِمُ الشريفُ العديمُ الأدبِ : بالبنيان الخراب الذي كلَّما علا سَمْكُه. . كان أشدَّ لوحشته ، وبالنهر اليابس الذي كلَّما كان أعرضَ وأعمقَ. . كان أشدَّ لوعورته ، وبالأرض الجيّدة المعطَّلة التي كلَّما طال خرابُها. . ازداد نباتُها غيرُ المنتفَع به التفافاً ، وصار للهوامِّ مسكناً) .

وقال ابن المقفَّع : (ما نحن علىٰ ما نتقوَّىٰ به علىٰ حواسِّنا من المطعم والمشرب بأحوجَ منَّا إلى الأدب الذي هو لقاحُ عقولنا ؛ فإنَّ الحبَّةَ المدفونة في الثَّرىٰ لا تقدر أن تطلع زهرتُها ونضارتُها إلا بالماء الذي يعود إليها من مُستودَعها)[2] .

وحكى الأصمعيُّ : أن أعرابيّاً قال لابنه : (يا بنيَّ ؛ الأدبُ دِعامةٌ أيَّدَ اللهُ بها الألبابَ ، وحِليةٌ زيَّنَ اللهُ بها عواطلَ الأحساب ؛ فالعاقلُ لا يستغني ـ وإن صحَّت غريزتُه ـ عن الأدب المخرِج زهرتَه ؛ كما لا تستغني الأرضُ ـ وإن عذُبَت تربتُها ـ عن الماء المخرجِ ثمرتَها)[3] .

وقال بعض الحكماء : (الأدب صورة العقل ، فصوِّر عقلَك كيف شئتَ)[4] .

وقال آخر : (العقلُ بلا أدب كالشجر العاقر ، ومع الأدب كالشجرة المثمرة)[5] .

وقيل : (الأدب أحد المنصبين)[6] .

---

(١) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (١٧٨٨) في فضيلة العلم .
(٢) الأدب الصغير (ص٢٨٣) ضمن « آثار ابن المقفع » .
(٣) أورده في « الكشكول » (٢/ ١٣٣) .
(٤) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص١٥٩) ، و« التذكرة الحمدونية » (٣/ ٢٦٨) .
(٥) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص١٥٩) .
(٦) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص١٥٩) .

وقال بعض البلغاء : (الفضلُ بالعقل والأدب ، لا بالأصل والنسب ؛ لأنَّ مَن ساء أدبُه . . ضاع نسبُه ، ومَن قلَّ عقلُه . . ضلَّ أصلُه)[1] .

وقال بعض الأدباء : (ذكِّ قلبَكَ بالأدب كما تُذكَّى النار بالحطب ، واتَّخِذ الأدبَ غُنْماً ، والحرصَ عليه حظّاً . . يرتجيك راغبٌ ، ويخافُ صولتَك راهبٌ ، ويُؤَمَّلُ نفعُك ، ويُرجىٰ عدلُك)[2] .

وقال بعض العلماء : (الأدب وسيلةٌ إلىٰ كلِّ فضيلة ، وذريعةٌ إلىٰ كل شريعة)[3] .

وقال بعض الفصحاء : (الأدب يسترُ قبحَ النَّسَب)[4] .

وقال بعض الشعراء : [من المتقارب]

فمـا خَلَـقَ اللهُ مثـلَ العُقُـولْ ... ولا اكتسَـبَ النّـاسُ مثـلَ الأَدَبْ

ومـا كَـرَمُ المـرءِ إلا التُّقـىٰ ... ولا حَسَـبُ المـرءِ إلا النَّسَـبْ

وفـي العِلْـمِ زَيـنٌ لأهـلِ الحِجا ... وآفـةُ ذي الحِلْـمِ طَيشُ الغَضَـبْ

وقال الأصمعيُّ[5] : [من البسيط]

إنْ يكُنِ العقلُ مولوداً فلَسْتُ أَرىٰ ... ذا العقلِ مستغنياً عن حادثِ الأدَبِ

إنِّـي رأيتُهمـا كـالمـاءِ مختلِطـاً ... بالتُّرْبِ تظهَرُ عنه زَهرةُ العُشُبِ

وكـلُّ مَـنْ أخطـأتْـهُ فـي مَـوالـدِهِ ... غريزةُ العقلِ حاكى البَهْمَ في النَّسَبِ

---

(١) أورده في « الإعجاز والإيجاز » (ص٣٨) ، و« الكشكول » (٢/ ١٣٣) .

(٢) أورد بعضه في « التذكرة الحمدونية » (٣/ ٣٣٠) ، و« العقد الفريد » (٣/ ١٥٧) من وصية سيدنا علي رضي الله عنه لابنه محمد رحمه الله تعالىٰ ، وذَكِّ : أمرٌ من التذكية ، يقال : ذكتِ النار ؛ أي : اشتد لهيبها ، أي : نوِّرْه به .

(٣) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص١٥٩) .

(٤) أورده العاملي في « الكشكول » (٢/ ١٣٣) .

(٥) روى الأبيات القالي في « ذيل الأمالي » (٣/ ٣٣) ، والمحاكاة : المشابهة .

والتأدُّبُ يلزم من وجهين :

أحدهما : ما لزم الوالدَ للولد في صغره .

والثاني : ما لزم الإنسانَ في نفسه عند نشوئه وكبره .

فأمّا التأدُّبُ اللازم للأب . . فهو أن يأخذ ولدَه بمبادىء الآداب ؛ ليأنس بها ، وينشأ عليها ، فيسهل عليه قَبولُها عند الكبر ؛ لاستئناسه بمبادئها في الصغر ، لأن نشوء الصغير على الشيء يجعله متطبِّعاً به ، ومَن أُغفِل في الصِّغَر . . كان تأديبه في الكِبَر عسيراً .

وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما نحَلَ والدٌ ولَدَهُ نِحْلةً أفضلَ مِن أدبٍ حسنٍ يُفيدُهُ إيّاه ، أو جهلٍ قبيحٍ يكفُّهُ عنه ، ويمنعُه منه »[1] .

وقال بعض الحكماء : (بادِروا بتأديب الأطفال قبلَ تراكم الأشغال ، وتفرُّق البال)[2] .

وقال بعض الشعراء[3] : [من البسيط]

قد ينفعُ الأدبُ الأحداثَ في مَهَلٍ ... وليسَ ينفَعُ بعدَ الشَّيبةِ الأدَبُ
إنَّ الغصونَ إذا قوَّمتَها اعتدلتْ ... ولا يلينُ إذا قوَّمتَهُ الخَشَبُ

وقال آخر[4] : [من البسيط]

يَنشُو الصَّغيرُ علىٰ ما كان والدُهُ ... إنَّ الأصولَ عليها تنبُتُ الشَّجَرُ

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٢٦٣) ، والترمذي (١٩٥٢) عن سعيد بن العاص رحمه الله تعالىٰ مرسلاً .

(٢) أورد أوله في « محاضرات الأدباء » (١/ ٩٥) ، وانظر « فيض القدير » (٣/ ٣٩٤) .

(٣) البيتان لصالح بن عبد القدوس في « ديوانه » (ص١٣٣) ، ونسبهما في « بهجة المجالس » (١/ ١١٣) لسابق البربريّ ، وفي « الحماسة المغربية » (٢/ ١٢٤٨) لطرفة .

(٤) أورد البيت في « جمهرة الأمثال » (٢/ ٢٩٨) ، و« الموشَّىٰ » (ص٢١) .

وأمّا الأدب اللازم للإنسان عند نشوئه وكبره.. فأدبان : أدب مُواضَعة واصطلاح ، وأدب رياضة واستصلاح .

فأمّا أدبُ المواضعة والاصطلاح : فيؤخَذ تقليداً علىٰ ما استقرَّ عليه اصطلاحُ العقلاء ، واتَّفق عليه استحسانُ الأدباء .

وليس لاصطلاحهم علىٰ وضعه تعليلٌ مستنبَط ، **ولا لاتِّفاقهم على استحسانه** دليلٌ موجِب ؛ كاصطلاحهم علىٰ مُواضَعات الخِطاب ، واتِّفاقهم علىٰ هيئات اللباس ؛ **حتّىٰ إنَّ الإنسان الآن** إذا تجاوز **ما اتَّفقوا** عليه منها.. صار مجانِباً للأدب ، مستوجِباً للذمِّ ؛ **لأنَّ فراق المألوف في العادة** ، ومُجانَبة ما صار متَّفقاً عليه بالمُواضعة.. **مُفضٍ إلى استحقاق الذمِّ بالعقل** ، ما لم يكن لمخالفته علّةٌ ظاهرةٌ ، ومعنىً حادثٌ .

وقد كان جائزاً في العقل أن يُوضَعَ ذلك علىٰ غير ما اتَّفقوا عليه ، فيرونه حسناً ، ويرون ما سواه قبيحاً ، فصار هٰذا **مشاركاً لما وجب بالعقل** من حيثُ توجُّهُ الذمِّ علىٰ تاركه ، **ومخالفاً له** من حيث إنه **كان جائزاً في العقل** أن يُوضَعَ علىٰ خلافه .

***

وأمّا أدبُ الرياضة والاستصلاح : فهو ما كان محمولاً علىٰ حالٍ لا يجوز في العقل أن تكون بخلافها ، ولا أن يختلف العقلاء في صلاحها وفسادها .

وما كان كذلك.. فتعليلُه بالعقل مستنبَط ، ووضوحُ صحّته بالدليل مرتبِط ، وللنفس علىٰ ما يأتي من ذلك شاهدٌ ألهمها الله تعالىٰ إرشاداً لها ، قال الله تعالىٰ : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ قال ابن عباس رضي الله تعالىٰ عنهما : (**بيَّن لها ما تأتي من الخير ، وتذَرُ من الشرِّ**)[1] .

وسنذكر تعليلَ كل شيءٍ في موضعه ؛ فإنَّه أولىٰ به وأحقُّ .

***

(١) رواه الطبري في « تفسيره » (١٥/ ٣٠/ ٢٦٤) .

فأوّل مقدِّمات أدب الرياضة والاستصلاح : ألاَّ يسبقَ إلىٰ حسن الظن بنفسه ، فيخفىٰ عنه مذمومُ شِيَمه ، ومساوئُ أخلاقه ؛ لأن النفوس بالشهوات آمرة ، وعن الرشد زاجرة ، ولذا قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾[1] .

وقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « أَعدىٰ عدوِّكَ نفسُكَ التي بين جَنبَيكَ ، ثم أهلُكَ ، ثم عِيالُكَ »[2] .

ودَعَت أعرابيّةٌ لرجلٍ فقالت : (كبَتَ الله كلَّ عدوٍّ لكَ إلا نفسَكَ)[3] .

فأخذه بعض الشعراء فقال[4] : [من السريع]

قلبي إلىٰ ما ضَرَّني داعِي ... يُكثِرُ أسقامي وأوجاعي
كيفَ احتراسي مِن عدوِّي إذا ... كان عدوِّي بينَ أضلاعي

وإذا كانت النفس كذلك . . فحسنُ الظنِّ بها ذريعةٌ إلىٰ تحكيمها ، وتحكيمُها داعٍ إلىٰ سَلاطتها ، وفسادِ الأخلاق بها ، وإذا صرف حسنَ الظنِّ عنها ، وتوسَّمَها بما هي عليه من التسويف والمكر . . فاز بطاعتها ، وانحاز عن معصيتها .

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالىٰ عنه : (العاجزُ : مَن عجز عن سياسة نفسه)[5] .

وقال بعض الحكماء : (مَن ساس نفسَه . . ساد ناسَه) .

---

(١) أراد الجنس ؛ أي : إن هـٰذا الجنس يأمر بالسوء ويحمل عليه بما فيه من الشهوات إلا ما رحم ربي بالعصمة لمن خصَّهم بذلك ؛ كالملائكة والأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

(٢) رواه البيهقي في « الزهد » (٣٤٣) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، والديلمي في « الفردوس » (٥٢٤٨) عن سيدنا أبي مالك الأشعري رضي الله عنه ، وأعدىٰ أعدائك ؛ أي : مِنْ أشد أعدائك ، وليس المراد بالعداوة البغض ، بل المراد : المحنة المفوِّتة للخير .

(٣) أورده في « البيان والتبيين » (٣/ ٢٧١) ، ورواه في « المجالسة وجواهر العلم » (١٩٣٣) ، وكبت : صرع وأذل وأخزىٰ .

(٤) البيتان للعباس بن الأحنف في « ديوانه » (ص٢٠٢) ، ونسبهما في « الأغاني » (٢٧/ ٩٣٥٤) لبكر بن خارجة .

(٥) أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٧/ ١٠٠) ، والذهبي في « تاريخ الإسلام » (٢٣/ ٦١٩) عن أبي عمر الدمشقي رحمه الله تعالىٰ .

فأمّا سوءُ الظنّ بها . . فقد اختلف الناس فيه :

ـ فمنهم مَن كرهه ؛ لما فيه من اتهام طاعتها ، وردِّ مُناصحتها ؛ فإنَّ النفس وإن كان لها مكرٌ يُردي . . فلها نُصحٌ يهدي ، فلمّا كان حسنُ الظنِّ بها يُعمي عن مَساويها . . كان سوءُ الظنِّ بها يُعمي عن محاسنها ، ومَن عمي عن محاسن نفسه . . كان كمَن عمي عن مَساويها ، فلم ينفِ عنها قبيحاً ، ولم يُهدِ إليها حسناً .

وقد قال الجاحظ في كتاب « البيان » : (يجب أن يكون في التهمة لنفسه معتدلاً ، وفي حسن الظنِّ بها مقتصداً ؛ فإنَّه إن تجاوز مقدار الحقِّ في التُّهمة . . ظلَمها ، فأودَعها ذِلَّةَ المظلومين ، وإن تجاوز بها الحقَّ في مقدار حسن الظنِّ . . أودعها تهاوُنَ الآمنين ، ولكلِّ ذلك مقدارٌ من الشغل ، ولكلِّ شغلٍ مقدارٌ من الوهن ، ولكلِّ وهنٍ مقدارٌ من الجهل)[1] .

وقال الأحنف بن قيس : (مَن ظلم نفسَه . . كان لغيره أظلمَ ، ومَن هدم دينَه . . كان لمجده أهدمَ)[2] .

ـ وذهب قوم إلىٰ أنَّ سوء الظنِّ بها أبلغُ في صلاحها ، وأوفرُ في اجتهادها ؛ لأن للنفس جَوْراً لا ينفكُّ إلا بالسخط عليها ، وغروراً لا ينكشف إلا بالتهمة لها ؛ لأنَّها محبوبةٌ تجور إدلالاً ، وتغرُّ مكراً ، فإن لم يُسىءِ الظنَّ بها . . غلب عليه جَوْرُها ، وتموَّه عليه غرورُها ، فصار بميسورها قانعاً ، وبالشُّبَه من أفعالها راضياً .

وقد قالت الحكماء : (مَن رضي عن نفسه . . أسخطَ عليه الناسَ) .

وقال كشاجم[3] : [من الكامل]

لم أرضَ عن نفسي مَخافةَ سُخْطِها ... ورِضا الفتىٰ عن نفسِهِ إغضابُها
ولَـوَ أنَّني عنها رَضِيتُ لقصَّرَتْ ... عمَّـا تـزيـدُ بمثلِـهِ آدابُهـا

---

(1) البيان والتبيين (١/ ٩٣) في بيان ما يجب أن يتصف به الخطيب لتجتمع لديه آلة البلاغة .
(2) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص٤٥٢) ، و« ربيع الأبرار » (٣/ ٥٠٠) .
(3) الأبيات في « ديوانه » (ص٣٣) .

وتبيَّنَــتْ آثــار ذاكَ فــأكثــرَتْ عَــذْلــي عليهِ وطــالَ فيه عِتابُهــا

وقد استُحسِن قولُ أبي تمّام الطائيّ[1] : [من الكامل]

ويُسيءُ بالإحسانِ ظَنّاً لا كَمَنْ هُوَ بابنِهِ وبشِعْرِهِ مفتُونُ

فلم يرَوا إساءةَ ظنِّه بالإحسان ذمّاً ، ولا استقلال عمله لَوْماً ، بل رأوا ذلك أبلغَ في الفضل ، وأبعثَ على الازدياد .

فإذا عرف من نفسه ما تُجِنُّ ، وتصوَّر منها ما تُكِنُّ[2] ، ولم يطاوعْها فيما تحبُّ إذا كان غَيّاً ، ولا صرف عنها ما تكره إذا كان رشداً . . فقد ملكها بعد أن كان في مَلَكتها ، وغلبها بعد أن كان في غَلَبتها .

وقد روىٰ أبو حازم ، عن أبي هريرة رضي الله تعالىٰ عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الشَّديدُ مَن غلَبَ نفسَهُ »[3] .

وقال عون بن عبد الله : (إذا عصَتْكَ نفسُكَ فيما كرهَتْ . . فلا تُطِعْها فيما أحبَّتْ ، ولا يغرَّنَّكَ ثناءُ مَن جهل أمرَكَ)[4] .

وقال بعض البلغاء : (مَن قوِيَ علىٰ نفسه . . تناهىٰ في القوّة ، ومَن صبر عن شهوته . . بالغ في المروّة) .

فحينئذٍ يأخذ نفسَه عند معرفة ما أكنَّت ، وخبرةِ ما أجنَّت بتقويم عِوَجِها ، وإصلاحِ فاسدها .

وقد رُوي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : يا رسولَ الله ؛ متىٰ يعرفُ الإنسانُ ربَّه ؟ فقال : « إذا عرَفَ نفسَهُ »[5] .

---

(١) البيت في « ديوانه » (٣/ ٣٣١) .

(٢) ما تُجِن وما تُكِن : ما تُخفي وما تَستر .

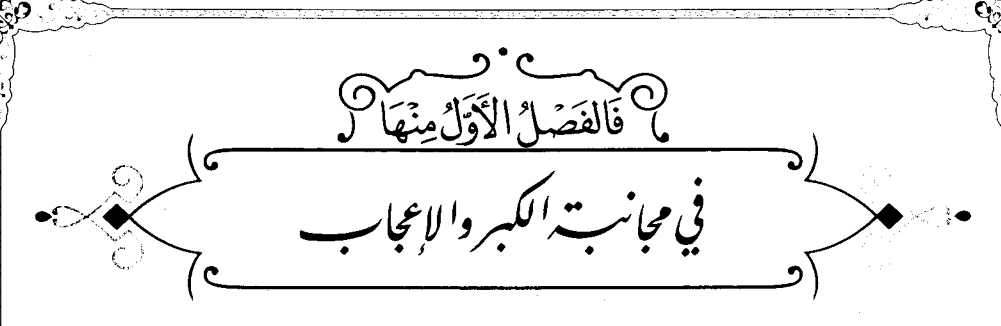
(٣) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٧١٧) ، وهنّاد في « الزهد » (١٣٠٢) .

(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٩٥١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٧/ ٧٩) .

(٥) ذكر الحافظ السخاوي في « المقاصد الحسنة » (ص٤١٩) أنه من قول يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله تعالىٰ ، ولا يُعرف مرفوعاً ، وقيل في تأويله : (من عرف نفسه بالحدوث . . عرف ربه بالقِدَم ، ومن عرف نفسه بالفناء . . عرف ربه بالبقاء) .

ثم يراعي منها ما صلح واستقام من زيغ يحدُث عن إغفال ، أو ميل يكون عن إهمال ؛ **ليتمَّ له الصَّلاحُ** ، وتستديم له الاستقامةُ ؛ **فإنَّ المُغفَل بعد المُعاناة ضائعٌ** ، والمُهمَل بعد المُراعاة زائغ .

وسنذكر من أحوال أدب الرياضة والاستصلاح فصولاً تحتوي علىٰ ما يلزم مراعاتُه من الأخلاق ، ويجب معاناتُه من الآداب ، **وهي ستةُ فصولٍ متفرِّعة** .



لأنَّهما يسلبان الفضائلَ ، ويكسبان الرذائلَ ، وليس لمَن استوليا عليه إصغاءٌ لنصح ، ولا قبولٌ لتأديب ؛ لأنَّ الكبر يكون بالمنزلة ، والعُجبَ يكون بالفضيلة ؛ فالمتكبِّر يجلُّ نفسَه عن رتبة المتعلِّمين ، والمُعجَب يستكثر فضلَه عن استزادة المتأدِّبين ؛ فلذلك وجب تقديم القول فيهما ، بإبانة ما يكسبانه من ذمٍّ ، ويوجبانه من لَوم[١] ، فنقول :

أمّا الكِبرُ : فيكسب المقتَ ، ويُلهي عن التألُّف[٢] ، ويُوغر صدورَ الإخوان ، وحسبك بذلك سوءاً عن استقصاء ذمِّه ؛ ولذلك قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم لعمِّه العباس رضي الله تعالىٰ عنه : « أنهاكَ عنِ الشِّرْكِ باللهِ والكِبْرِ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ يحتجِبُ منهما »[٣] .

وقال أردشير بن بابك : (ما الكبرُ إلا فضلُ حُمقٍ ، لم يدرِ صاحبُه أين يذهب به ، فصرفه إلى الكبر)[٤] ؛ وما أشبه ما قال بالحقِّ !!

حُكِي : أن مطرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير نظر إلى المهلَّب بن أبي صُفْرة وعليه حُلّةٌ يسحبها ، ويمشي الخُيَلاء ، فقال له : (يا عبدَ الله ؛ ما هـٰذه المِشية التي يُبغضها اللهُ ورسولُه ؟) فقال المهلَّب : أَوَما تعرفُني ؟ قال : (بلىٰ أعرفك ؛ أوّلُك : نطفةٌ مَذِرةٌ ، وآخرُك : جِيفةٌ قذِرَةٌ ، وحشوُك فيما بين ذلك : بولٌ وعَذِرةٌ)[٥] .

---

(١) لأنهما كقطّاع الطريق بينه وبين حسن الخلق ، فوجب استئصالهما ؛ ليأمن الطريق .

(٢) في (أ) : (ويلهي عن التأله) ، وفي (ج) : (ويثير الحقد) .

(٣) رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (١٠٦٠٠) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٨٧/٦٢) من وصية سيدنا نوح عليه السلام لابنه ، ويحتجب منهما ؛ أي : لا يغفر لصاحبهما .

(٤) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص٤٤٤) ، و« نهاية الأرب » (٣/ ٣٧١) .

(٥) أورده في « محاضرات الأدباء » (١/ ٥٣٧) .

فأخذ ابن عون هٰذا الكلام فنظمه شعراً ، فقال[1] : [من المنسرح]

عجبتُ مِن مُعجَبٍ بصورتِهِ وكان بالأمسِ نُطْفةً مَذِرَةْ
وفي غدٍ بعدَ حُسنِ صورتِهِ يصيرُ في اللَّحدِ جيفةً قَذِرَةْ
وَهْوَ علىٰ تِيْهِهِ ونَخوتِهِ ما بينَ ثَوبَيهِ يحمِلُ العَذِرَةْ

وقال آخر[2] : [من الطويل]

فتىً كان عَذْبَ الرُّوحِ لا مِن غَضاضةٍ ولٰكنَّ كِبْراً أنْ يُقالَ بهِ كِبْرُ

وقد كان المهلَّب أفضلَ من أن يخدَعَ نفسَه بهٰذا الجواب ، ولٰكنها **زَلّةٌ من زلات الاسترسال** ، وخطيئةٌ من خطايا الإدلال .

فأمّا الحُمقُ الصريح ، والجهلُ القبيح . . فهو ما حُكي عن نافع بن جبير بن مطعم : أنه جلس في حلقة العلاء بن عبد الرحمٰن الحُرَقيّ وهو يقرىء الناس ، فلمَّا فرغ . . قال : (**أتدرون لمَ جلستُ إليكم ؟** قالوا : جلستَ لتسمعَ ، قال : **لا ؛ لٰكنِّي أردتُ أن أتواضعَ لله بالجلوس إليكم**)[3] ؛ فهل يُرجىٰ من مثل هٰذا فضلٌ ، أو ينفعُ فيه عذلٌ ؟!

وقد قال ابن المعتز : (**لمَّا عرف أهلُ النقص حالَهم عند ذوي الكمال . . استعانُوا بالكِبْر** ؛ ليعظم صغيراً ، ويرفع حقيراً ، وليس بفاعل)[4] .

وأمّا الإعجابُ : فيُخفي المحاسنَ ، ويُظهر المساوىءَ ، ويكسب المذامَّ ، ويصدُّ عن الفضائل .

وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **إنَّ العُجْبَ لَيأكُلُ الحسَناتِ كما تأكُلُ النارُ الحَطَبَ** »[5] .

---

(١) روى الأبيات في « يتيمة الدهر » (٣/ ١٤٣) لأبي محمد عبد الله بن محمد البافيّ الخوارزميّ .
(٢) البيت زيادة من (ج) ، وهو لأبي تمام في « ديوانه » (٤/ ٨٢) .
(٣) رواه ابن سعد في « الطبقات الكبير » (٧/ ٢٠٥) ، وابن قتيبة في « المعارف » (ص٢٨٥) .
(٤) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص٤٤٥) ، و« نهاية الأرب » (٣/ ٣٧١) .
(٥) أورده في « ربيع الأبرار » (٤/ ٣٢٠) ، و« محاضرات الأدباء » (١/ ٥٣٢) .

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام : (**الإعجابُ ضدُّ الصواب ، وآفةُ الألباب**)[1] .

وقال بُزُرْجُمِهْرَ : (**النعمةُ التي لا يُحسَد صاحبُها عليها : التواضعُ ، والبلاءُ الذي لا يُرحَم منه صاحبُه : العُجبُ**)[2] .

وقال بعض الحكماء : (**عُجْبُ المرء بنفسه أحدُ حُسَّاد عقله**)[3] .

وليس لما يكسبه الكبرُ من المقت حدٌّ ، ولا لما ينتهي إليه العُجبُ من الجهل غايةٌ ؛ حتىٰ إنه لَيطمس من المحاسن ما انتشر ، ويسلب من الفضائل ما اشتهر ، وناهيك بسيّئةٍ تحبط كلَّ حسنة ، وبمَذمَّةٍ تهدم كلَّ فضيلة ، مع ما تثيره من حَنَق ، وتنشئه من حقد .

وحكىٰ عمر بن حصن قال : (قيل للحجَّاج : **كيف وجدتَ منزلك بالعراق ؟** قال : خيرَ منزل ، **لو كان اللهُ بلَّغني أربعةً ، فتقرَّبتُ إليه بدمائهم** ، قيل : ومَن هم ؟

قال : مقاتلُ بن مِسمَع : ولي سجستان ، فأتاه الناس فأعطاهم الأموالَ ، فلمّا عُزِل . . دخل مسجد البصرة ، فبسط له الناسُ أرديتَهم ، فمشىٰ عليها وقال لرجلٍ يُماشيه : **لمثلِ هـٰذا فليعملِ العاملونَ** .

وعبيد الله بن زياد بن ظَبْيان التميميُّ : حزب أهلَ البصرة أمرٌ ، فخطب خطبةً أوجز فيها ، فنادى الناسُ من أعراض المسجد : **أكثرَ اللهُ فينا أمثالَك !!** فقال : **لقد كلَّفتم اللهَ شطَطاً** .

ومَعبَدُ بن زُرارة : كان ذات يومٍ جالساً في طريق ، فمرَّت به امرأةٌ فقالت :

---

(١) أورده في « شرح نهج البلاغة » (١٦/ ٨٤) .

(٢) أورده في « الجليس الصالح » (٤/ ٨٨) ، و« التذكرة الحمدونية » (٣/ ١٠٥) .

(٣) أورده في « ديوان المعاني » (٢/ ٩٤) ، و« التذكرة الحمدونية » (٣/ ٩٨) من قول سيدنا علي رضي الله عنه .

يا عبد الله ؛ كيف الطريقُ إلىٰ موضع كذا ؟ فقال : يا هَنْتاهْ ؛ مثلي يكونُ من عَبيد الله ؟!

وأبو سَمّال الأسديُّ : أضلَّ راحلتَه ، فالتمسها الناس فلم يجدوها ، فقال : والله ؛ لئن لم يردَّ اللهُ عليَّ راحلتي . . لا صلَّيتُ له أبداً ، فالتمسها الناس حتىٰ وجدوها ، فقالوا له : قد ردَّ اللهُ راحلتَك فصلِّ ، فقال : إنَّ يميني يمينُ مُصِرٍّ)[1] .

فانظر إلىٰ هـٰؤلاء ، كيف أفضىٰ بهم العُجب إلىٰ حُمقٍ صاروا به نَكالاً في الأوَّلين ، ومثَلاً في الآخرين .

ولو تصوَّر المُعجَب والمتكبِّر ما فُطِر عليه من جِبِلَّة ، وبُلِي به من مهنة . . لخفض جناح نفسه ، واستبدل ليناً من عُتوّه ، وسكوناً من نُفوره .

قال الأحنف بن قيس : (عجبتُ لمَن جرىٰ في مجرى البول مرّتين ، كيف يتكبَّرُ ؟!)[2] .

وقد وصف بعض الشعراء الإنسان ، فقال[3] : [من البسيط]

يا مُظهِرَ الكبرِ إعجاباً بصُورتِهِ ... انظُـرْ خَـلاكَ فـإنَّ النَّتْـنَ تثـريـبُ

لو فكَّرَ الناسُ فيما في بُطُونِهِمِ ... ما استشعَرَ الكِبرَ شُبّانٌ ولا شِيْبُ

هل في ابن آدمَ مثلُ الرأس مَكرُمةً ... وَهْوَ بخَمسٍ منَ الأقذارِ مضرُوبُ

أنـفٌ يسيـلُ وأُذْنٌ رِيحُهـا سَهِـكٌ ... والعيـنُ مُـرمَصـةٌ والثغـرُ ملعـوبُ

يا بنَ الترابِ ومأكولَ الترابِ غداً ... أقصِـرْ فـإنَّـكَ مـأكـولٌ ومشـروبُ

---

(١) رواه في « عيون الأخبار » (١/٢٦٩ـ ٢٧٠) ، وراويه : (زَحْر بن حصن) ، وأورده في « التذكرة الحمدونية » (٣/١٠٧) .

(٢) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٢١٦٣) ، و« شعب الإيمان » (٧٨٦١) .

(٣) أورد الأبيات في « المجالسة وجواهر العلم » (١٥٨٢) ، و« عيون الأخبار » (١/٢٧٢) ، والتثريب : اللوم ، ومضروب : مشهور ، والسهك : ريح كريهة يجدها الإنسان ممن عرق ، والأصل في معناه : صدأ الحديد وريح السمك وقبح رائحة اللحم .

وأحقُّ مَن كان للكبر مجانِباً ، وللإعجاب مبايناً . . مَن جلَّ في الدنيا قدرُه ، وعظم فيها خطَرُه ؛ لأنه قد يستقلُّ بعالي همّتِه كلَّ كثير ، ويستصغرُ معَها كلَّ كبير .

وقد قال محمد بن علي الباقرُ رضي الله عنه : (لا ينبغي للشريف أن يرىٰ شيئاً من الدنيا لنفسه خطَراً ، فيكونَ بها تائهاً)[١] .

وقال ابن السمَّاك لعيسى بن موسىٰ : (تواضُعُك في شرفِك أشرفُ لك من شرفِك)[٢] .

وكان يقال : (اسمان متضادّان بمعنىً واحدٍ : التواضعُ والشرفُ)[٣] .

وللكبر أسباب ، فمن أقوىٰ أسبابه : علوُّ اليد ، ونفوذُ الأمر ، وقلّةُ مخالطة الأكْفاء .

حُكِي : أن قوماً مشَوا خلفَ عليِّ بن أبي طالب عليه السلام ، فقال : (أبعدوا عنِّي خَفْقَ نعالِكم ؛ فإنَّها مَفسدةٌ لقلوب نَوْكى الرِّجال)[٤] .

ومشوا خلف ابن مسعودٍ رضي الله تعالىٰ عنه ، فقال : (ارجِعُوا ؛ فإنَّها ذِلَّةٌ للتابع ، وفتنةٌ للمتبوع)[٥] .

وروىٰ قيس بن أبي حازم : أنَّ رجلاً أُتِي به النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، فأصابته رِعْدةٌ ، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « هَوِّنْ عليكَ ؛ فإنَّما أنا ابنُ امرأةٍ كانَتْ تأكُلُ القَدِيدَ »[٦] .

---

(١) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (١٣٧) ، و« تاريخ دمشق » (٤١/٤٠٨) .
(٢) أورده في « عيون الأخبار » (١/ ٢٦٧) ، ورواه في « تاريخ دمشق » (٦١/ ١٩٢) .
(٣) أورده في « الكشكول » (٢/ ٩) .
(٤) رواه الإمام أحمد في « فضائل الصحابة » (٩٢١) ، والدارمي في « مسنده » (٥٥١) .
(٥) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٦٨٣٩) .
(٦) رواه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٤٦٦) ، وابن ماجه (٣٣١٢) ، وأصابته رعدة ؛ أي : من دهشة القدوم عليه صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه صلى الله عليه وسلم من رآه بديهةً . . هابه ، ومن خالطه . . أحبه عليه الصلاة والسلام .

وإنما قال ذلك صلى الله عليه وسلم حَسْماً لموادِّ الكِبر ، وقطعاً لذرائع الإعجاب ، وكسراً لأشَرِ النفس[1] ، وتذليلاً لسطوة الاستعلاء .

ومثل ذلك : ما رُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنَّه نادى : (الصلاةَ جامعةً) فلمَّا اجتمع الناس . . صعد المنبرَ ، فحمِدَ اللهَ ، وأثنىٰ عليه ، وصلَّىٰ علىٰ نبيِّه صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : (أيُّها الناسُ ؛ لقد رأيتُني أرعىٰ علىٰ خالاتٍ لي من بني مخزومٍ ، فيقبضنَ لي القُبْضةَ من التمر والزبيب ، فأظلُّ اليومَ ، وأيَّ يومٍ ؟!) .

فقال له عبد الرحمـٰن بن عوف : (واللهِ يا أميرَ المؤمنين ؛ ما زِدتَ علىٰ أن قصَّرتَ بنفسك) ، فقال له عمر : (ويحَكَ يا بنَ عوفٍ ؛ إنِّي خلَوتُ بنفسي ، فحدثتني نفسي فقالت : أنتَ أميرُ المؤمنين ، فمَن ذا أفضلُ منكَ ؟! فأردتُ أن أعرِّفَها نفسَها)[2] .

وللإعجاب أسباب ، فمِنْ أقوىٰ أسبابه : كثرةُ مديح المتقرِّبين ، وإطراء المتملِّقين ، الذين قد جعلوا النِّفاقَ مادّةً ومكسباً ، والتملُّقَ خديعةً وملعباً ، فإذا وجدوه مقبولاً في العقول الضعيفة . . أغرَوا أربابها باعتقاد كذبهم ، وجعلوا ذلك ذريعةً إلى الاستهزاء بهم .

وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه سمع رجلاً يزكِّي رجلاً ، فقال : « قطَعْتَ مطاهُ ؛ لو سمِعَها . . ما أفلَحَ بعدَها »[3] .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (المدحُ ذبحٌ)[4] .

---

(١) أشر النفس : بطرها وتكبرها .

(٢) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (١٦٨٢) ، و« تاريخ دمشق » (٣١٤/٤٤) ، وأي يوم : فيه تحسُّرٌ علىٰ ما فات مع أنه خليفة ، وقصرت بنفسك : لأن تحسُّر العالي الكبير على الدنيء الحقير من دناءة النفس ، ويحك : كلمة رحمة ؛ كما أن (ويل) كلمة عذاب .

(٣) رواه الإمام أحمد في « المسند » (٥١/٥) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٤٥٢٧) عن سيدنا أبي بكرة رضي الله عنه ، ومطاه : ظهره .

(٤) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٣٣٦) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت » (٦٠٦) ، والمدح ذبحٌ ، لا يحسُّ به المذبوح ؛ لحدَّة سنان اللسان .

وقال ابن المقفَّع : (قابلُ المدحِ كمادحِ نفسِه)[1] .

وقال بعض الحكماء : (مَن رضيَ أن يُمدَح بما ليس فيه . . فقد أمكنَ الساخرَ منه) .

رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إيّاكُمْ والتَّمادُحَ ؛ فإنَّه الذَّبحُ »[2] ، « إنْ كان أحدُكُم مادحاً أخاه لا مَحالةَ . . فليقل : أحسبُ ، ولا أُزكِّي على اللهِ أحداً »[3]

وقيل : فيما أنزل اللهُ تعالىٰ من الكتب السالفة : (عجباً لمَن قيل فيه الخيرُ وليس فيه كيف يفرحُ ؟! وعجباً لمَن قيل فيه الشرُّ وهو فيه كيف يغضبُ ؟!)[4] .

وقال بعض الشعراء : [من البسيط]

يـا جـاهـلاً غـرَّهُ إفـراطُ مـادِحِـهِ ... لا يغلِبَنْ جهلُ مَن أطراكَ علمَكَ بِكْ
أثنـىٰ وقـال بـلا عِلـمٍ أحـاطَ بِـهِ ... وأنتَ أعلَمُ بالمحصولِ مِن رِيَبِكْ

وهٰذا أمرٌ ينبغي للعاقل أن يضبطَ نفسه عن أن يستفزَّها ، ويمنعَها من تصديق المدح لها ؛ فإنَّ للنفس ميلاً إلىٰ حبِّ الثناء ، وسماع المدح .

قال الشاعر[5] : [من الكامل]

يَهـوى الثَّنـاءَ مُبـرِّزٌ ومُقصِّـرٌ ... حُـبُّ الثَّنـاءِ طَبيعـةُ الإنسـانِ

وإذا سامح نفسَه في هٰذه الصَّبْوة ، وتابعَها علىٰ هٰذه الشهوة . . تشاغلَ بها عن الفضائل الممدوحة ، ولها بها عن المحاسن الممنوحة ، فصار الظاهرُ من مدحه كذباً ، والباطنُ من ذمِّه صدقاً ، وعند تقابلهما يكون الصِّدقُ ألزمَ الأمرين ،

---

(١) الأدب الكبير (ص٢٤٨) ضمن « آثار ابن المقفع » .

(٢) رواه ابن ماجه (٣٧٤٣) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٦٧٨٦) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٩٨٢٥) عن سيدنا معاوية رضي الله عنه ، فإنه الذبح : لأن المذبوح يفتر عن العمل ، والمدح يوجب الفتور ، أو لأنه يوجب العجب والكبر وهو مهلكٌ كالذبح .

(٣) رواه البخاري (٢٦٦٣) ، ومسلم (٣٠٠٠) عن سيدنا أبي بكرة رضي الله عنه .

(٤) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٦/٢٤٣٥) ، وأورده في « عيون الأخبار » (١/٢٧٦) .

(٥) البيت لابن نباتة السعديّ في « ديوانه » (١/٥٤٦) ، والمبرِّز : من فاق أصحابه فضلاً وشجاعة ، وضده المقصِّر .

وهـٰذه خُدعةٌ لا يرتضيها عاقل ، ولا ينخدع بها مميِّز .

وليعلم أنَّ المتقرِّبَ بالمدح يُسرف مع القَبول ، ويكفُّ مع الإباء ، فلا يغلبه حسنُ الظنِّ علىٰ تصديق مدحٍ هو أعرف بحقيقته .

ولتكن تهمة المادح أغلبَ عليه ؛ فقلَّ مدحٌ كان جميعُه صدقاً ، وقلَّ ثناءٌ كان كلُّه حقّاً ؛ ولذلك كره أهل الفضل أن يطلقوا ألسنتهم بالثناء والمدح ؛ تحرُّزاً من التجاوز فيه ، وتنزُّهاً عن التملُّق به[1] .

وقد روىٰ مكحولٌ قال : قال رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم : « لا تكُونُوا عَيّابِينَ ، ولا تُكونُوا لَعّانِينَ ، ولا مُتمادِحِينَ ، ولا مُتماوِتِينَ »[2] .

وحكى الأصمعيُّ : أن أبا بكر الصدِّيقَ رضي الله عنه كان إذا مُدِح . . قال : (اللهمَّ ؛ أنتَ أعلمُ بي من نفسي ، وأنا أعلمُ بنفسي منهم ، اللهمَّ ؛ اجعَلْني خيراً ممَّا يحسبون ، واغفر لي ما لا يعلمون ، ولا تؤاخِذْني بما يقولون)[3] .

وقال بعض الشعراء[4] : [من الطويل]

إذا المَرْءُ لم يَمدَحْهُ حُسْنُ فِعالِهِ فمادِحُهُ يَهذي وإنْ كانَ مُفصِحا

وربَّما آلَ حُبُّ المدح بصاحبه إلىٰ أن يصيرَ مادحَ نفسِه ؛ إمّا لتوهُّمه أنَّ الناس قد غفلوا عن فضله ، وأخلُّوا بحقِّه ، وإمّا ليخدعَهم بتدليس نفسه بالمدح والإطراء ، فيعتقدوا أنَّ قوله حقٌّ متبَع ، وصدقٌ مستمَع ، وإمّا ليتلذَّذَ بسماع الثناء ، ويَسُرَّ نفسَه بالمدح والإطراء ؛ كما يتغنّىٰ لنفسه طرباً إذا لم يسمع صوتاً مطرباً ، ولا غناءً ممتعاً ، ولأيِّ ذلك كان . . فهو الجهل الصريح ، والنقص الفاضح .

---

(١) المدح متضمنٌ للكذب والباطل ، وقد قيل : (إن أحلى المدح أكذبه !!) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣٩١) ، والشهاب في « مسنده » (٩٤٠) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٧/ ٨١) .

(٣) رواه في « أسد الغابة » (٣/ ٣٢٥) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٠/ ٣٣٢) ، وقول سيدنا أبي بكر رضي الله عنه ودعاؤه هـٰذا . . هو توبة الممدوح ، فاقتدوا به رضي الله عنه .

(٤) أورد البيت في « عيون الأخبار » (١/ ٢٧٧) .

قال بعض الشعراء[1] : [من الطويل]

وما شرفٌ أن يمدحَ المرءُ نفسَهُ ... ولٰكــنَّ أعمــالاً تــذُمُّ وتمــدَحُ
وما كلّ حينٍ يصدقُ المرءَ ظنُّهُ ... ولا كـلُّ أصحـابِ التِّجـارةِ يـربَـحُ
ولا كلُّ مَن ترجو لغَيبِكَ حافظاً ... ولا كلُّ مَن ضمَّ الوديعةَ يصلُحُ

وينبغي للعاقل أن يسترشدَ إخوانَ الصِّدق ، الذين هم أصفياء القلوب ، ومرايا المحاسن والعيوب علىٰ ما ينبِّهونه عليه من مساويه التي صرفه حسنُ الظنِّ عنها ؛ فإنَّهم أمكنُ نظراً ، وأسلمُ فكراً ، ويجعلَ ما ينبِّهونه عليه من مساويه عِوَضاً عن تصديق المدح فيه .

وقد روىٰ أنس بن مالك ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « المؤمنُ مِرآةُ المؤمنِ ، إذا رأىٰ فيه عيباً . . أصلَحَهُ »[2] .

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : (رحِمَ اللهُ امرأً أهدىٰ إلينا مساوِيَنا)[3] .

وقيل لبعض الحكماء : (أتحبُّ أن تُهدىٰ إليك عيوبُك ؟ قال : نَعَمْ ؛ من ناصحٍ)[4] .

ومما يقارب معنىٰ هٰذا القول : ما رُوي عن عمر رضي الله عنه أنه قال لابن عباسٍ رضي الله عنهما : (مَن ترىٰ أن نولِّيَه حمصَ ؟ قال : رجلاً صحيحاً منك ، صحيحاً لك ، قال : فكنْ أنت ذلك الرجلَ ، قال : لا تنتفع بي مع سوء ظنِّي بك ، وسوء ظنِّكَ بي !!)[5] .

---

(١) الأبيات للمغيرة بن حبناء في « ديوانه » (٣/ ٨٢ ـ ٨٣) ضمن « شعراء أمويون » .

(٢) رواه البزار في « مسنده » (٦١٩٣) ، والطبراني في « المعجم الأوسط » (٢١١٤) بنحوه ، ولفظه رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٢٣٨) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) رواه الدرامي في « مسنده » (٦٧٥) ، وأورده في « البيان والتبيين » (٣/ ١٣٤) .

(٤) رواه الخطيب في « المتفق والمفترق » (٩٦٢) ، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (٧/ ٢١٧) من قول مِسعَر بن كِدام رحمه الله تعالىٰ ، ومن ناصح ؛ أي : يريد براءتي من العيوب ، لا من عدوٍّ يشمت بالذنوب .

(٥) أورده ابن المعتز في « البديع » (ص٥٤) ، و« نثر الدرّ » (١/ ٤١٤) ؛ وفيه : (مع سوء ظني في سوء ظنك بي) ، وسوء ظنك بي : لمَّا حملتَ كلامي على التعريض وسؤال الولاية ، ولا يُنتَفع مع سوء الظن .

وقد قيل في منثور الحكم : (**مَن أظهر عيبَ نفسه . . فقد زكَّاها**)[1] .

فإذا قطع أسباب الكِبر ، وحسم موادَّ العُجب . . **اعتاض بالكِبر تواضعاً** ، وبالعُجب تودُّداً ؛ **وذلك من أوكد أسباب الكرامة** ، وأقوىٰ موادِّ النِّعَم ، وأبلغ شافعٍ إلى القلوب ، يعطفها إلى المحبة ، ويثنيها عن البِغضة .

وقد قال بعض الحكماء : (**مَن برىء من ثلاثٍ** . . نال ثلاثاً ؛ **مَن برىء من الشَّرَه** . . نال العزَّ ، **ومَن برىء من البخل** . . نال الشَّرَف ، **ومَن برىء من الكِبر** . . نال الكرامة) .

وقال مصعب بن الزبير : (**التواضع أحدُ مصائد الشَّرَف**)[2] .

وقيل في منثور الحكم : (**مَن دام تواضُعه** . . كثر صديقُه) .

وقد تُحدِث المنازل والولايات لقوم أخلاقاً مذمومة ، يُظهرها سوءُ طباعهم ، **ولآخرين فضائل محمودة** ، يبعث عليها زكيُّ شِيَمهم ؛ **لأنَّ لتقلُّب الأحوال سكرةً** تُظهر من الأخلاق مكنونَها ، ومن السرائر مخزونَها ، لا سيَّما إذا هجمت بغير تدريج ، وطرقت من غير تأهُّب .

وقال بعض الحكماء : (**في تقلُّب الأحوال تُعرَف جواهرُ الرجال**)[3] .

وقال الفضل بن سهل : (**مَن كانت ولايتُه فوقَ قدره** . . تكبَّر لها ، **ومَن كانت ولايتُه دونَ قدره** . . تواضع لها)[4] .

وقال بعض البلغاء : (**الناس في الولاية رجلان : رجلٌ يجِلُّ عن العمل** بفضله ومروءته ، **ورجلٌ يجلُّ بالعمل** لنقصه ودناءته ، **فمَن جلَّ عن عمله** . . ازداد به تواضعاً وبِشراً ، **ومَن جلَّ عنه عملُه** . . لبس به تجبُّراً وكِبراً) .

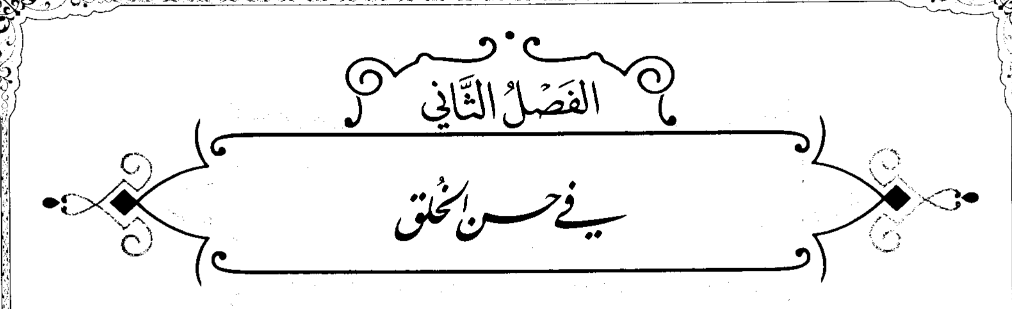
---

(١) أورده في « عيون الأخبار » (١/ ٢٧٥) ، و« بهجة المجالس » (١/ ٥٢٠) .

(٢) أورده في « لباب الآداب » (ص٢٥٧) ، و« زهر الآداب » (١/ ٥٥) ، وقال في « منهاج اليقين » (ص٤٠٤) : (**مصائد** : جمع مصيدة ، ولعله مُصحَّف : مصاعد ؛ جمع : مصعد) .

(٣) أورده في « الإمتاع والمؤانسة » (ص٣٦٥) ، و« التذكرة الحمدونية » (١/ ٣٥٢) .

(٤) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص١٤٩) .



الفصل الثاني

في حسن الخلق

رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنَّ اللهَ تعالى اختارَ لكُمُ الإسلامَ دِيناً ، فأكرِمُوهُ بحُسْنِ الخُلُقِ والسَّخاءِ ؛ فإنَّه لا يكمُلُ إلا بهما »(١) .

وقال الأحنف بن قيس : (**ألا أخبرُكم بأدوأ الدَّاءِ ؟** قالوا : بلىٰ ، قال : **الخُلُق الدَّنيُّ** ، واللسان البَذيُّ)(٢) .

وقال بعض الحكماء : (**مَن ساء خُلقُه** . . ضاق رزقُه)(٣) . وعلَّة هٰذا القول ظاهرةٌ(٤) .

وقال بعض البلغاء : (**الحسَنُ الخُلقِ** : مَنْ نفسه في راحة ، والناسُ منه في سلامة ، **والسيِّءُ الخُلقِ** : الناسُ منه في بلاء ، وهو من نفسه في عناء)(٥) .

وقال بعض الأدباء : (**عاشِرْ أهلَك بأحسن أخلاقك** ؛ فإنَّ الثَّواءَ فيهم قليلٌ)(٦) .

وقال بعض الشعراء(٧) : [من الوافر]

إذا لم تتَّسِعْ أخلاقُ قومٍ ... يضِقْ بهِمُ الفَسيحُ منَ البلادِ
إذا ما المرءُ لم يُخلَقْ لبيباً ... فليس اللبُّ عن قِدَمِ الوِلادِ

---

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٠/ ٢٨٩) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت » (٣٤١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٤/ ٣٣٧) ، **واللسان البذي** : الفاحش القول وقبيحه .
(٣) أورده في « المستطرف » (١/ ٨٩) .
(٤) وهي أن الرزق يكتسب بالألفة ، ولا ألفة بسوء الخلق .
(٥) أورده الحافظ المزي في « تهذيب الكمال » (١٠/ ٧٣) من قول عبيد الله بن أبي جعفر رحمه الله تعالىٰ .
(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (٤٠) ، وأورده في « نثر الدرّ » (٥/ ١٩٠) من كلام الحسن البصريّ رحمه الله تعالىٰ ، والثواء : البقاء أو الإقامة .
(٧) أورد البيتين في « فضل الكلاب » (ص١٦) ، و« تاريخ دمشق » (١٦/ ٨) .

فإذا حسنت أخلاقُ الإنسان . . كثر مُصافُوه ، وقلَّ مُعادُوه ، وتسهَّلت عليه الأمور الصِّعاب ، ولانت له القلوبُ الغِضاب .

وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « حُسنُ الخُلُقِ ، وحُسنُ الجِوارِ . . يَعمُرانِ الدِّيارَ ، ويَزيدانِ في الأعمارِ »(١) .

وقال بعض الحكماء : (في سَعة الأخلاق كنوزُ الأرزاق)(٢) .

وسبب ذلك : ما ذكرنا من كثرة الأصفياء المُسعِدين ، وقلّة الأعداء المجحِفين ؛ ولذلك قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « أحبُّكُمْ إليَّ أحسَنُكُم أخلاقاً ، المُوَطَّؤُونَ أكنافاً ، الذين يألَفُونَ ويُؤلَفُونَ »(٣) .

وحسن الخُلق : أن يكون سهلَ العريكة ، ليِّن الجانب ، طَلْقَ الوجه ، قليلَ النُّفور ، طيِّب الكلمة ، وقد بيَّن رسولُ الله صلى الله عليه وسلم هٰذه الأوصاف فقال : « أهلُ الجنّةِ : كلُّ هَيِّنٍ ليِّنٍ ، سهل طَلْقٍ »(٤) .

ولِمَا ذكرنا من هٰذه الأوصاف حدودٌ مقدَّرة ، ومواضعُ مستحَقَّة ؛ كما قال الشاعر(٥) : [من البسيط]

أصفُـو وأكـدرُ أحيـانـاً لمُختَبِـري ... وليـس مُستحسَنـاً صَفْـوٌ بـلا كَـدَرِ

وليس يريد الكدَرَ الذي هو البَذاءُ وشراسةُ الخُلق ؛ فإن ذلك ذمٌّ لا يُستحسَن ، وعيبٌ لا يُرتضىٰ ، وإنَّما يريد الكفَّ والانقباض في موضعٍ يُلام فيه المساعد ، ويُذمُّ فيه الموافق .

فإذا كانت لمحاسن الأخلاق حدودٌ مقدَّرة ، ومواضع مستحَقّة ؛ فإن تجاوز

---

(١) رواه الإمام أحمد في « المسند » (٦/١٥٩) عن السيدة عائشة رضي الله عنها ، وأورده في « عيون الأخبار » (٣/٢٣) .

(٢) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص١٤) ، و« محاضرات الأدباء » (١/٥٦٦) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت » (٢٥٥) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٢/٣٢٠) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، والموطؤون أكنافاً : المتواضعون اللينون الهينون .

(٤) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٧٧٧١) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٥) البيت لسعيد الخالديّ في « ديوان الخالديِّين » (ص١٢٩) .

بها الحدَّ . . صارت مَلَقاً ، وإن عدل بها عن مواضعها . . صارت نفاقاً ، والمَلَقُ ذلٌّ ، والنِّفاقُ لؤمٌ ، وليس لمَن وُسِم بهما ودٌّ مبرور ، ولا أثرٌ مشكور .

وقد روىٰ حكيم ، عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالىٰ عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « شرُّ الناسِ ذو الوَجهَينِ ؛ الذي يأتي هؤلاءِ بوجهٍ ، وهؤلاءِ بوجهٍ »[1] .

وروىٰ مكحول ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا ينبغي لذي الوجهَينِ أن يكونَ وجيهاً عندَ الله »[2] .

وقال سعيد بن أبي عَروبة : (لأَنْ يكونَ لي نصفُ وجهٍ ونصفُ لسانٍ علىٰ ما فيهما من قُبح المنظر ، وعجز المَخبَر . . أحبُّ إليَّ من أن أكونَ ذا وجهَين ، وذا لسانَين ، وذا قولَين مختلفَين)[3] .

وقال الشاعر[4] : [من مجزوء الكامل]

خَــلِّ النِّفــاقَ لأهلِــهِ ... وعليــكَ فـالتَمِـسِ الطَّـريقـا
وارغَــبْ بنفسِــكَ أن تــرىٰ ... إلا عــدوّاً أو صــديقــا

وقال إبراهيم بن محمد[5] : [من الطويل]

وكَـمْ مِـن صـديـقٍ وُدُّهُ بلسـانِـهِ ... خَـؤُونٌ بظهـرِ الغَيـبِ لا يتـذمَّـمُ
يُضـاحِكُنـي عُجْبـاً إذا مـا لقِيتُـهُ ... ويصـدِقُنـي منـهُ إذا غِبـتُ أسهُـمُ
كذلكَ ذو الوجهَينِ يُرضِيكَ شاهداً ... وفي غَيبِهِ إنْ غابَ صابٌ وعَلقَمُ

---

(١) رواه البخاري (٧١٧٩) ، ومسلم (٩٩/٢٥٢٦) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٣١٣) ، والإمام أحمد في « المسند » (٢/ ٢٨٩) عن سلمان الأغرّ عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) أورده في « البيان والتبيين » (٢/ ١٤٩) .

(٤) البيتان لإبراهيم الصوليّ في « ديوانه » (ص١٦١) ضمن « الطرائف الأدبية » .

(٥) أورد الأبيات في « التذكرة الحمدونية » (٢/ ٢٠٧) ، و« روضة العقلاء » (١/ ٤٣٦) ، وصابٌ وعلقم : الشيء المرُّ مثل الحنظل .

وربما تغيَّر **حُسنُ الخُلق والوِطاءُ** ، إلى الشَّراسة والبَذاء ؛ **لأسبابٍ عارضة** ، **وأمورٍ طارئة** ، تجعل اللِّينَ خُشونةً ، والوِطاءَ غِلظةً ، والطَّلاقةَ عُبوساً ؛ **فمن أسباب ذلك** :

ـ **الوِلاية** : التي قد تُحدِث في الأخلاق تغيُّراً ، وعلى الخُلَطاء تنكُّراً ؛ إمّا من لؤمِ طبعٍ ، وإمّا من ضيقِ صدرٍ .

وقد قيل : (**مَن تاه في ولايته . . ذلَّ في عَزله**)[1] .

وقيل : (**ذلُّ العَزل يَضْحك من تِيه الوِلاية**)[2] .

ومنها : العَزل ؛ فقد يسوء به الخُلق ، ويضيق به الصدر ؛ إمّا لشدّة أسف ، أو لقلّة صبر .

حكىٰ **حُمَيد الطويل** : أنَّ عمّار بن ياسر عُزِل عن ولاية ، فاشتدَّ ذلك عليه ، وقال : (**إنِّي وجدتُها حلوةَ الرَّضاع ، مرَّة الفِطام**)[3] .

ومنها : الغنىٰ ؛ فقد تتغيَّر به أخلاق اللئيم بطَراً ، وتسوء طرائقه أشَراً ؛ ولذلك قيل : (**مَن نال . . استطال**)[4] .

وأنشد الرِّياشيُّ[5] : [من البسيط]

غضبانُ يعلَمُ أنَّ المالَ ساقَ لهُ ... ما لم يَسُقْهُ له دِينٌ ولا خُلُقُ
فمَن يكُنْ عن كِرامِ النّاسِ يسألُني ... فأكرَمُ النّاسِ مَن كانت له وَرِقُ

---

(١) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص١٤٩) .
(٢) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص١٤٩) ، و« زهر الآداب » (٢/ ٨٢٦) من قول ابن المعتز .
(٣) أورده في « المحاسن والأضداد » (ص٤١) ، و« البصائر والذخائر » (١/ ١٢٨) .
(٤) أورده في « الإمتاع والمؤانسة » (ص٣٦٥) ، و« ديوان المعاني » (٢/ ٩٤) ، واستطال : تكبَّر .
(٥) أورد البيتين في « عيون الأخبار » (١/ ٢٤٠) ، و« العقد الفريد » (٣/ ٢٩) .

وقال بعض الشعراء[1] : [من الطويل]

فـإنْ تكُـنِ الـدُّنيـا أنـالَتْـكَ ثـروةً فأصبحتَ ذا يُسرٍ وقد كنتَ ذا عُسرِ
لقد كشفَ الإثراءُ منكَ خلائقاً منَ اللؤمِ كانت تحتَ ثَوبٍ منَ الفقرِ

وبحسب ما أفسده الغنىٰ . . كذلك يصلحه الفقر .

كتب قتيبةُ بن مسلمٍ إلى الحجّاج : (أنَّ أهل الشام قد التاثُوا عليه)[2] ، فكتب إليه : (أنِ اقطَعْ عنهم الأرزاق) ، ففعل ، فساءت حالهم ، فاجتمعوا إليه فقالوا : (أقِلْنا) فكتب إلى الحجّاج فيهم ، فكتب إليه : (إن كنتَ آنستَ منهم رشداً . . فأجرِ عليهم ما كنتَ تُجري) .

واعلم : أنَّ الفقرَ جندُ الله الأكبر ، يذلُّ به كلَّ جبّارٍ عنيدٍ متكبِّر ، وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لولا أنَّ اللهَ تعالىٰ أذَلَّ ابنَ آدمَ بثلاثٍ . . ما طأطأَ رأسَهُ لشيءٍ : الفقرُ ، والمَرضُ ، والموتُ »[3] .

ومنها : الفقر ؛ فقد يتغيَّر به الخُلق ؛ إمّا أنَفَةً من ذلِّ الاستكانة ، أو أسفاً علىٰ فائت الغنىٰ ؛ ولذلك قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « كادَ الفقرُ أنْ يكونَ كُفْراً ، وكادَ الحسَدُ أنْ يغلِبَ القَدَرَ »[4] .

وقال أبو تمام الطائي[5] : [من الطويل]

وأعجـبُ حـالاتِ ابـنِ آدمَ خُلقُـهُ يضِلُّ إذا فكَّرْتَ في كُنْهِهِ الفِكْرُ
فيفـرَحُ بـالشَّـيءِ القليـلِ بقـاؤُهُ ويجزَعُ لمّـا صار وَهْوَ لـه ذُخْـرُ

---

(١) البيتان لإبراهيم الصوليّ في « ديوانه » (ص١٥٨) ضمن « الطرائف الأدبية » .
(٢) التاثوا عليه : تغيّروا علىٰ قتيبة وفسدوا عليه حين كان كاتب عبد الملك .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « إصلاح المال » (٤٨٤) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (٤٥٦) من كلام الحسن البصريّ رحمه الله تعالىٰ .
(٤) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٦١٨٨) ، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (٣/ ٥٣) .
(٥) البيتان في « ديوانه » (٤/ ٨٦) .

وربَّما تسلَّىٰ مَنْ هٰذه حالُه بالأماني وإنْ قلَّ صدقُها ؛ فقد قيل : (**قلَّما تصدقُ الأُمنيةُ**)[1] لٰكن قد يعتاضُ بها سُلْوةً من همٍّ ، ومسرّةً تُرجىٰ .

وقد قال أبو العتاهية[2] : [من مجزوء الكامل]

حَـــرِّكْ مُنـــاكَ إِذَا اغتمَمْـ ـــتَ فـــإنَّهـــنَّ مَـــراوِحُ

وقال آخر[3] : [من البسيط]

إذا تمنَّيـتُ بـتُّ الليـلَ مغتبِطـاً إنَّ المُنىٰ رأسُ أموالِ المَفاليسِ

ومنها : الهموم التي تذهل اللبَّ ، وتشغل القلبَ ، فلا يتَّسع لاحتمال ، ولا يقوىٰ علىٰ صبر ؛ فقد قيل : (**الهمُّ كالسّمِّ**)[4] .

وقال بعض الأدباء : (**الحزن كالداء المخزون في فؤاد المحزون**)[5] .

وقال بعض الشعراء[6] : [من المتقارب]

همــومُــكَ بــالعيشِ مقــرونــةٌ فمـــا تقطَــعُ العيــشَ إلاّ بهَــمّ
إذا تـــمَّ أمـــرٌ بـــدا نقصُـــهُ تـــوقَّـــعْ زوالاً إذا قيــل تَــمّ
إذا كنــتَ فــي نعمــةٍ فــارْعَهــا فــإنَّ المَعــاصــيْ تُــزيــلُ النِّعَــمْ
وحــامِ عليهــا بشكــرِ الإلٰــه فــإنَّ الإلٰــه ســريــع النقــمْ

---

(١) أورده في « ديوان المعاني » (٢/ ٩٤) .

(٢) البيت في « ديوانه » (ص٧٢ـ دار صادر) ؛ فالحرارة تلزم الاغتمام ، ولذا يكون دمع الحزن حاراً ومضراً بالعين ، والأمنية مروحة الاغتمام .

(٣) أورد البيت في « عيون الأخبار » (١/ ٢٦١) ، و« المحاسن والمساوىء » (ص٢٧٠) .

(٤) الهم : ما يكون لأمر يُنتظر وقوعه وذهابه ، والغم : ما يكون لأمرٍ واقعٍ أو لخيرٍ فات ، وهما يُحدِثان الحميات اليومية ، وقد كان صلى الله عليه وسلم يستعيذ من الهم والحزن دبر كلِّ صلاة .

(٥) أورده في « الكشكول » (٢/ ١٧١) .

(٦) أورد الأبيات الثلاثة الأولىٰ مع الخامس في « تاريخ دمشق » (٥١/ ١٠٣) ، والبيت الرابع زيادة من (هـ) ، وقوله : (إلا بسمٍّ) أي : بسَمِّ النحل ؛ إلا أنه أراد العموم ، واستحضر تلك الصورة البديعة ؛ للتنبيه على الغفلة ، فكل نعمةٍ تنعمت بها من الدنيا ليست نعمة بل هي سم ونقمة ، متىٰ تدرك أوانه . . تجد آلامه .

حلاوةُ دنياكَ مسمومةٌ ... فما تأكلُ الشَّهْدَ إلا بسَمّ
فكم قَدَرٍ دبَّ في مُهلةٍ ... فلم يعلمِ النّاسُ حتّىٰ هَجَمْ

ومنها : الأمراض التي يتغيَّر بها الطبع كما يتغيَّر بها الجسم ، فلا تبقى الأخلاق على اعتدال ، ولا يقدر معها على احتمال .

وقد قال المتنبي[1] : [من الخفيف]

آلةُ العَيشِ صِحّةٌ وشَبابٌ ... فإذا وَلَّيا عنِ المرءِ وَلّىٰ
وإذا الشيخ قال أفٍّ فما ملَّ ... حياةً وإنما الضعف ملاَّ
وإذا لم تجد من الناس كفْواً ... ذاتُ خِدْرٍ أرادتِ الموت بعلا
أبداً تَستَرِدُّ ما تَهَبُ الدُّنـ ... ـيا فيا ليت جُودَها كان بُخْلا

ومنها : علوُّ السِّنِّ ، وحدوثُ الهرَم ؛ لتأثيره في آلة الجسد ، كذلك يكون تأثيره في أخلاق النفس ، **فكما يضعف الجسد** عن احتمال ما كان يُطيقُه من الأثقال . . **فكذلك تعجز النفس** عن احتمال ما كانت تصبرُ عليه من مخالفة الوِفاق ، ومضض الشِّقاق ، وكذلك ما ضاهاه[2] .

قال منصور النَّمَريُّ[3] : [من البسيط]

ما كنتُ أُوفي شبابي كُنْهَ غِرَّتهِ ... حتَّىٰ مضىٰ فإذا الدُّنيا له تَبَعُ
أصبحتِ لم تَطعَمِي ثُكْلَ الشَّبابِ ولم ... تَشجَي بغُصَّتِهِ فالعذرُ لا يقَعُ
ما كان أقصرَ أيّامَ الشَّبابِ وما ... أبقىٰ حلاوةَ ذِكراهُ الذي يَدعُ
ما واجهَ الشَّيبَ من عينٍ وإنْ رمقَتْ ... إلا له نَبْوةٌ عنه ومُرتَدَعُ

---

(١) الأبيات في « ديوانه » (٣/ ١٢٩ـ١٣٠) .
(٢) ومضض الشقاق : وجع العداوة والمخالفة ، وما ضاهاه : ما شابهه .
(٣) الأبيات في « ديوانه » (ص٩٦ـ ٩٧) .

قد كدتَ تقضي علىٰ فَوتِ الشَّبابِ أسىً   لولا تَعزِّيكَ أنَّ الشَّيبَ مُنقطِعُ
أبكي شَباباً سُلِبْناهُ فكانَ ولا   تفي بقيمتِهِ الدُّنيا وما تَسَعُ

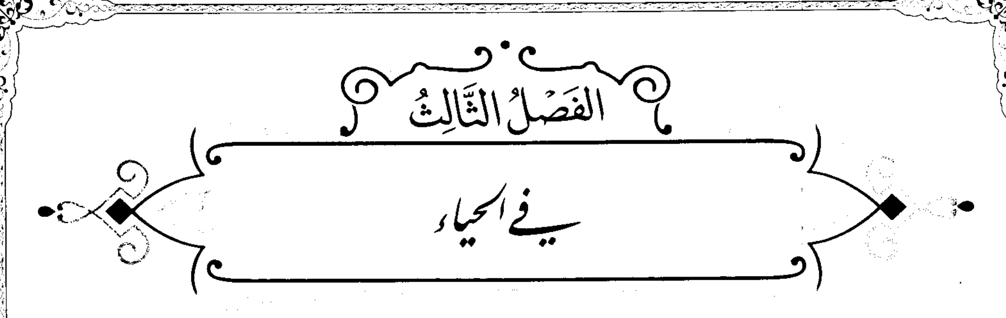
فهٰذه سبعة أسبابٍ إن أحدثت سوءَ الخُلق . . كان عامّاً .

وهٰهنا سببٌ خاصٌّ قد يُحدِث سوءَ خُلقٍ خاصٍّ ؛ وهو **البغض الذي تنفر منه النفس** ، فتُحدِث نفوراً على المبغوض يؤول إلىٰ سوء خُلقٍ يخصُّه دون غيره .

وإذا كان سوءُ الخُلق حادثاً لسبب . . كان زوالُه مقروناً بزوال ذلك السبب ، **ثم بالضدِّ**[1] .

---

(١) **وأعيا الأسباب علاجاً** : الهرم ؛ كما قال التميمي :   (من الطويل)
إذا كانت السبعون سنَّك لم يكن   لدائك إلا أنْ تموتَ طبيبُ



الفَصلُ الثَّالِثُ

في الحياء

اعلم : أنَّ الخيرَ والشرَّ معانٍ كامنةٌ تُعرَف بسِماتٍ دالَّة ؛ كما قالت العرب في أمثالها : (**تُخبِرُ عن مَجهولِه مَرآتُه**)[١] .

وكما قال سَلْم بن عمرو الشاعر[٢] : [من المنسرح]

لا تَسألِ المرءَ عن خَلائِقِهِ في وجهِهِ شاهدٌ منَ الخَبَرِ

فسِمةُ الخير : الدَّعَةُ والحياء ، **وسِمةُ الشرِّ** : القِحَةُ والبَذاء[٣] ، **وكفىٰ بالحياء خيراً** أن يكون على الخير دليلاً ، **وكفىٰ بالقِحَة والبَذاء شرّاً** أن يكونا إلى الشرِّ سبيلاً .

وقد روىٰ حسان بن عطية ، عن أبي أمامة رضي الله تعالىٰ عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **الحَياءُ والعِيُّ** شُعبتانِ منَ الإيمانِ ، **والبَذاءُ والبَيانُ** شُعبتانِ منَ النِّفاقِ »[٤] .

ويشبه أن يكون العِيُّ في معنى الصمت ، والبيانُ في معنى التشدُّق ؛ كما جاء في الحديث الآخر : « **إنَّ أبغضَكُمْ إليَّ** : الثَّرثارُونَ المُتفيهِقُونَ المُتشدِّقونَ »[٥] .

وروىٰ أبو سلَمةَ ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : « **الحياءُ** منَ الإيمانِ ، **والإيمانُ في الجنّةِ** ، **والبَذاءُ** من الجَفاءِ ، **والجَفاءُ في النار** »[٦] .

---

(١) أورده أبو عبيد في « الأمثال » (ص٢٥٤) .
(٢) البيت في « ديوانه » (ص١٠٠) .
(٣) القحة : مصدر (وقح الرجل) أي : قلَّ حياؤه ، والبذاء : التكلم بالكلام الفاحش .
(٤) رواه الحاكم في « المستدرك » (١/٩) ، والترمذي (٢٠٢٧) .
(٥) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٤٨٢) ، والترمذي (٢٠١٨) .
(٦) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٦٠٨) ، والترمذي (٢٠٠٩) .

وقال بعض الحكماء : (**مَن كساه الحياءُ ثوبَه** . . لم يرَ الناسُ عيبَه)[(١)] .

وقال بعض البلغاء : (**حياةُ الوجهِ بحيائه** ؛ كما أنَّ حياة الغرس بمائه)[(٢)] .

وقال بعض البلغاء العلماء : (**يا عجبا !! كيف لا تستحِي** من كثرة ما لا تستحِي ، **وتتَّقي من طول ما لا تتَّقي ؟!**) .

وقال بعض الشعراء وهو صالح بن عبد القدّوس[(٣)] : [من الطويل]

إذا قلَّ ماءُ الوجهِ قلَّ حياؤُهُ ... ولا خيرَ في وجهٍ إذا قلَّ ماؤُهُ

حياءَكَ فاحفَظْهُ عليكَ فإنَّما ... يدلُّ علىٰ فعلِ الكريمِ حياؤُهُ

وليس لمَن سُلِب الحياءَ صادٌّ عن قبيح ، ولا زاجرٌ عن محظور ، فهو يُقْدِمُ علىٰ ما يشاء ، ويأتي ما يهوىٰ ، وبذلك جاء الخبر : روىٰ شعبةُ ، عن منصور ، عن رِبعيٍّ ، عن أبي مسعود البدريِّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **إنَّ ممّا أدركَ النّاسُ مِن كلامِ النُّبُوةِ الأُولىٰ** : يا بنَ آدمَ ؛ إذا لم تستَحْيِ . . فاصنَعْ ما شِئتَ »[(٤)] .

وليس هٰذا القولُ إغراءً منه بفعل المعاصي عند قلّة الحياء ؛ كما توهَّمه بعضُ مَن جهل معانيَ الكلام ، ومواضعاتِ الخطاب .

وفي مثل هٰذا الخبر قولُ الشاعر[(٥)] : [من الوافر]

إذا لم تَخشَ عاقبةَ اللَّيالي ... ولم تَستحْيِ فاصنَعْ ما تَشاءُ

فلا واللهِ ما في العَيشِ خيرٌ ... ولا الدُّنيا إذا ذهَبَ الحَياءُ

يعيشُ المرءُ ما استحيا بخيرٍ ... ويبقى العُودُ ما بقيَ اللِّحاءُ

---

(١) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص٤١٣) ، و« زهر الآداب » (٢/ ٩٨٤) من قول يحيى بن معاذ رحمه الله تعالىٰ .

(٢) ذكره المناوي في « التيسير شرح الجامع الصغير » (١/ ٥١٠) .

(٣) البيتان في « ديوانه » (ص١١٩) .

(٤) رواه البخاري (١٦٢٠) ، وابن حبان في « صحيحه » (٦٠٧) ، وأبو داوود (٤٧٩٧) ، وأحمد في « مسنده » (٤/ ١٢١) .

(٥) الأبيات لأبي تمام في « ديوانه » (٤/ ٢٩٧) .

واختلف أهل العلم في معنىٰ هـٰذا الخبر :

فقال أبو بكر محمد بن علي الشاشيُّ في « أصول الفقه » : (معنىٰ هـٰذا الخبر : أنَّ مَن لم يستحيِ . . دعاه ترك الحياء إلىٰ أن يعملَ ما يشاء ، لا يردعه عنه رادعٌ ، فليستحيِ المرءُ ؛ فإنَّ الحياء يردعُه) .

وسمعت مَن يحكي عن أبي بكر الرازيِّ من أصحاب أبي حنيفة : (أنَّ المعنىٰ فيه : إذا عُرِضت عليك أفعالُك التي هممت بفعلها فلم تستحيِ منها ؛ لحسنها وجمالها . . فاصنع ما شئت منها) فجعل الحياء حكَماً علىٰ أفعاله .

وكلا القولين حسن[1] ، والأوّلُ أشبهُ ؛ لأنَّ الكلام خرج من النبيِّ صلى الله عليه وسلم مَخرجَ الذمِّ ، لا مَخرجَ الأمرِ .

لـٰكن قد جاء الحديث بما يضاهي القولَ الثاني ؛ وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « ما أحببتَ أن تسمعَهُ أُذناكَ . . فأْتِهِ ، وما كرهْتَ أن تسمعَهُ أُذناكَ . . فاجتنِبْهُ »[2] .

ويجوز أن يُحمَل هـٰذا الحديث على المعنى الصريح فيه ، ويكونَ التأويلُ الأول في الحديث المتقدِّم أصحَّ ؛ إذ ليس يلزم أن تكون أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم كلُّها متّفقةَ المعاني ، بل اختلافُ معانيها أدخلُ في الحكمة ، وأبلغُ في الفصاحة إذا لم يضادَّ بعضُها بعضاً .

واعلم : أنَّ الحياء في الإنسان قد يكون من ثلاثة أوجه : أحدها : حياؤه من الله تعالىٰ ، والثاني : حياؤه من الناس ، والثالث : حياؤه من نفسه .

فأمّا حياؤه من الله تعالىٰ . . فيكون بامتثال أوامره ، والكفِّ عن زواجره .

وروى ابن مسعود رضي الله عنه أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال :

---

(١) فمبنى الأول : حمل الأمر على التهديد ، ومبنى الثاني : حمله على الإباحة ، وكلاهما حسن من حيث المبنىٰ والمعنىٰ .

(٢) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٢٢٢) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (١٠٦١٨) عن سيدنا حرملة بن عبد الله رضي الله عنه .

« استَحْيُوا منَ اللهِ تعالىٰ حقَّ الحَياءِ » قيل : يا رسولَ اللهِ ؛ كيف نستحْيِي منَ اللهِ عزَّ وجلَّ حقَّ الحياءِ ؟ قال : « مَن حفِظَ الرأسَ وما حَوىٰ ، والبطنَ وما وعىٰ ، وتركَ زينةَ الحياةِ الدُّنيا ، وذكرَ الموتَ والبِلىٰ . . فقدِ استحيا منَ اللهِ حقَّ الحياءِ »[1] ، وهٰذا الحديث من أبلغ الوصايا .

قال أقضى القضاة رحمه الله تعالىٰ : رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم في المنام ذاتَ ليلة ، فقلت : يا رسولَ الله ؛ أوصِني ، فقال : « استحْيِ منَ اللهِ حقَّ الحياءِ » ، ثم قال : « تغيَّرَ النّاسُ » قلتُ : وكيفَ ذلك يا رسولَ الله ؟ قال : « كنتُ أنظرُ إلى الصبيِّ فأرىٰ في وجهه البِشرَ والحَياءَ ، وأنا أنظرُ إليه اليومَ فلا أرىٰ ذلك في وجهه !! » .

ثم تكلَّم بعد ذلك بوصايا وعِظات تصوَّرتُها ، وأذهلني السرورُ عن حفظها ، ووددتُ أنِّي لو حفظتها ، فلم يبدأ صلى الله عليه وسلم بشيءٍ قبل الوصية بالحياء من الله تعالىٰ ، وجعل ما سُلِبه الصبيُّ من البشر والحياء سبباً لتغيُّر الناس ، وخصَّ الصبيَّ ؛ لأن ما يأتيه بالطبع من غير تكلُّف .

فصلَّى الله عليه وسلَّم من هادٍ لأمته ، تابعَ إنذارها ، وقطع أعذارها ، وواصل تأديبها ، وحفظ تهذيبها ، وجعل لكل عصرٍ حظّاً من زواجره ، ونصيباً من أوامره ، أعان الله تعالىٰ علىٰ قبولها بالعمل ، وعلى استدامتها بالتوفيق !!

وقد رُوي أنَّ علقمة بن عُلاثة قال : يا رسولَ الله ؛ عِظْني ، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « استَحْيِ منَ اللهِ تعالى استحياءَكَ من ذي الهيبةِ من قومِكَ »[2] .

وهٰذا النوع من الحياء يكون من قوّة الدِّين ، وصحّة اليقين ؛ ولذلك قال

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣٢٣) ، والترمذي (٢٤٥٨) ، وعطف (ما حوىٰ) على (الرأس) إشارة إلىٰ أن حفظ الرأس عبارة عن التنزه عن الشرك ؛ فلا يسجد إلا لله ، ولا يرفعه تكبراً ، والعطف على البطن إشارة إلىٰ حفظه عن الحرام ، والتحذير من أن يملأه من المباح .

(٢) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٧٣٤٣) .

النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « **قِلّةُ الحَياءِ كُفرٌ** »[1] يعني : من الله تعالىٰ ؛ لما فيه من مخالفة أوامره .

وقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « **الحياءُ نِظامُ الإيمانِ ، فإذا انحلَّ نظامُ الشيءِ . . تبدَّدَ ما فيه وتفرَّقَ** »[2] .

وأمّا حياؤه من الناس . . فيكون بكفِّ الأذىٰ ، وترك المجاهرة بالقبيح .

وقد رُوِي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **مِن تَقوى اللهِ تعالى اتقاءُ النّاسِ** » .

ورُوي أنَّ حذيفةَ بن اليمانِ أتى الجمعةَ ، فوجد الناسَ قد انصرفوا ، فتنكَّبَ الطريقَ عن الناس ، وقال : (**لا خيرَ فيمَن لا يستحِي من الناس**)[3] .

وقال بشار بن برد[4] : [من الخفيف]

ولقـد أَصـرِفُ الفـؤادَ عـن الشَّـ ... ـيءِ حَيـاءً وحُبُّـهُ فـي السَّـوادِ
أُمسِـكُ النَّفـسَ بـالعَفـافِ وأُمسِي ... ذاكـراً فـي غَـدٍ حـديـثَ الأعـادي

وهـٰذا النوع من الحياء قد يكون من كمال المروءة ، وحبِّ الثناء ؛ ولذلك قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « **مَن ألقىٰ جِلْبابَ الحَياءِ . . فلا غِيبةَ له** »[5] يعني والله تعالىٰ أعلم : **لقلّة مروءته ، وظهور شهوته** .

وروى الحسن ، عن أبي هريرة رضي الله تعالىٰ عنه قال : قال رسولُ الله

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٥٨٥٨) عن ابن المسيب رحمه الله تعالىٰ مرسلاً ، والحكيم الترمذي في « المنهيّات » (ص٩٦) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أورده في « بهجة المجالس » (١/ ٥٩١) من قول سيدنا سليمان عليه السلام .

(٣) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٥٤٦١) ؛ وفيه : أن حذيفة رضي الله عنه أمر من تأخّر بتنكُّب سَنَن الناس .

(٤) البيتان في « ديوانه » (٢/ ١٢٩) ؛ وفي (أ) : (حديث المعادِ) .

(٥) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٠/ ٢١٠) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٣/ ٢٠٤) عن سيدنا أنس رضي الله عنه ، والمعنىٰ : أن المتجاهر بالفواحش لا يحرم ذكره بما تجاهر به ؛ كي يحذره الناس .

صلى الله عليه وسلم : « إنَّ مِن مُروءةِ الرجلِ مَمْشاهُ ، ومَدخَلَهُ ، ومَخرَجَهُ ، ومَجلِسَهُ ، وإلفَهُ ، وجَليسَهُ »[1] .

وقال بعض الشعراء[2] : [من الوافر]

وربَّ قَبيحةٍ ما حالَ بيني وبينَ رُكوبِها إلا الحَياءُ
إذا رُزِقَ الفتىٰ وَجهاً وَقاحاً تقلَّبَ في الأمورِ كما يشاءُ

وقال آخر[3] : [من الطويل]

إذا لم تصُنْ عِرضاً ولم تخشَ خالقاً وتستَحْيِ مخلوقاً فما شئتَ فاصنَعِ

وأمّا حياؤه من نفسه . . فيكون بالعفّة وصيانة الخلوات .

وقد قال بعض الحكماء : (**ليكن استحياؤك من نفسك** أكثرَ من استحيائك من غيرك)[4] .

وقال بعض الأدباء : (**مَن عمل في السرِّ عملاً** يستحيي منه في العلانية . . **فليس لنفسه عنده قدرٌ**)[5] .

ودعا قومٌ رجلاً كان يألفُ عشرتهم ، فلم يُجبهم ، وقال : (**إنِّي دخلت البارحةَ في الأربعين ، وأنا أستحيي من سنِّي**)[6] .

وقال بعض الشعراء[7] : [من الطويل]

فسِرِّي كإعلاني وتلكَ خَليقتي وظُلمةُ ليلي مثلُ ضَوءِ نَهارِيا

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٦١٠٤) ، وابن المبارك في « الزهد » (٩٨٨) عن سيدنا أبي الدرداء رضي الله عنه موقوفاً ، والمعنىٰ : تظهر مروءته في كلٍّ من ذلك .

(٢) البيتان لعلي بن الجهم في « ديوانه » (ص٥٧) .

(٣) أورد البيت في « روضة العقلاء » (١/٢٦٨) ، و« بهجة المجالس » (١/٥٩٣) لأبي دُلَف العِجْليّ .

(٤) أورده ابن أبي أصيبعة في « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » (ص ٦٦) .

(٥) رواه الدارقطني في « المؤتلف والمختلف » (٢/١٠٠٠) من قول ذي النون المصريّ رحمه الله تعالىٰ .

(٦) أورده ابن المعتز في « البديع » (ص١٥) .

(٧) أورد البيت ابن المعتز في « البديع » (ص٧٥) لرافع بن هُريم اليربوعيّ .

وهٰذا النوع من الحياء قد يكون من فضيلة النفس ، وحسن السريرة .

فمتىٰ كمل حياءُ الإنسان من وجوهه الثلاثة . . **فقد كملت فيه أسبابُ الخير** ، وانتفت عنه أسبابُ الشرِّ ، وصار بالفضل مشهوراً ، وبالجميل مذكوراً .

وقال بعض الشعراء(١) : [من الطويل]

وإنِّي ليثنيني عنِ الجَهلِ والخَنا ... وعن شتمِ ذي القُربىٰ خلائقُ أربَعُ
حيـاءٌ وإسـلامٌ وتقـوىٰ وأنَّنـي ... كـريـمٌ ومثلـي مَـن يضـرُّ وينفَـعُ

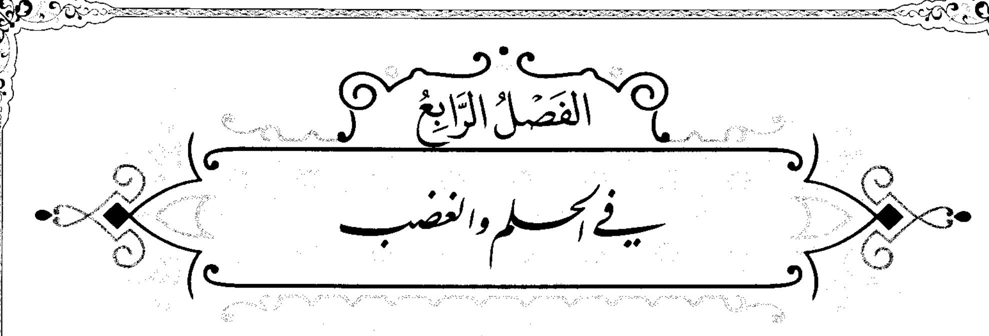
وإن أخلَّ بأحد وجوه الحياء . . لحِقَه من النقص بإخلاله بقدر ما كان يلحقه من الفضل بكماله .

وقد قال الرِّياشيُّ : يقال : إنَّ أبا بكر الصدِّيق رضي الله تعالىٰ عنه كان يتمثَّل بهٰذا الشعر(٢) : [من البسيط]

إنِّي سأستُرُ ما ذو العقلِ ساتِرُهُ ... مِـن حـاجـةٍ وأُمِيـتُ السِّـرَّ كِتمـانـا
وحاجةٍ دونَ أُخرىٰ قد سنحْتُ لها ... جعَلْتُهـا للتـي أخفَيـتُ عُنْـوانـا
إنـي كـأنـي أرىٰ مَـن لا حَيـاءَ لَـهُ ... ولا أمـانـةَ وَسْـطَ النـاسِ عُـرْيـانـا

(١) البيتان في « ديوان أبي الأسود الدؤلي » (ص١١٨) ، و« ديوان محمد بن حازم الباهليّ » (ص٧٢ـ البقاعي) .

(٢) أورد الأبيات في « الزهرة » (١/ ٤١٤) ، و« شرح ديوان الحماسة » للتبريزيّ (٣/ ٣٠٤) لسَوّار بن المُضرَّب .



الفصل الرابع

في الحلم والغضب

روىٰ محمود بن حارث الهلاليُّ : أنَّ جبريلَ عليه السلام نزل على النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فقال : (**يا محمّدُ ؛ إنِّي أتيتُكَ بمكارم الأخلاق في الدنيا والآخرة** : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾)(١) .

وروىٰ سفيان بن عيينة : أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال حين نزلت هٰذه الآية ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ ﴾ : « **يا جبريلُ ؛ ما هٰذا ؟** » قال : لا أدري حتىٰ أسألَ العالمَ ، ثم عاد جبريل وقال : « **يا محمدُ ؛ إنَّ ربَّكَ يأمرك** : أن تصلَ مَن قطعَكَ ، وتُعطِيَ مَن حرمَكَ ، وتعفُوَ عمَّن ظلمَكَ »(٢) .

وروىٰ هشام ، عن الحسن : أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « **أيعجز أحدُكُم أنْ يكونَ كأبي ضَمْضَمَ** ؟ كان إذا خرجَ مِن منزلِهِ .. قال : **اللّٰهمَّ ؛ إنِّي قد تصدَّقتُ بعِرْضي علىٰ عبادك** »(٣) .

ورُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « **إنَّ اللهَ تعالىٰ يحبُّ الحَليمَ الحَيِيَّ** ، ويُبغِضُ الفاحشَ البذِيَّ »(٤) .

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام : (**مَن حلُمَ** .. ساد ، **ومَن تفهَّم** .. ازداد)(٥) .

---

(١) أورده الإمام مكي ابن أبي طالب القيسي في « الهداية إلىٰ بلوغ النهاية » (٤/ ٢٦٩٢) ، والدميري في « حياة الحيوان الكبرىٰ » (٣/ ٤٥٣) .

(٢) رواه الطبري في « تفسيره » (٦/٩/ ١٩٣) ، وابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (٢٥) .

(٣) رواه البزار في « مسنده » (٧٢٦٩) ، وابن السنّيّ في « عمل اليوم والليلة » (٦٥) عن سيدنا أنس رضي الله عنه .

(٤) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (١٠/ ١٩٦) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٥) أورده في « التذكرة الحمدونية » (٣/ ٣٣٠) ، و« العقد الفريد » (٣/ ١٥٧) ضمن وصيته لابنه محمد رضي الله عنهما .

وقال بعض الأدباء : (**مَن غرسَ شجرةَ الحِلْم . . اجتنىٰ ثمرةَ السِّلْم**) .

وقال بعض البلغاء : (**ما ذَبَّ عن الأعراض كالصَّفح والإعراض**)[1] .

وقال بعض الشعراء[2] : [من الوافر]

أحبُّ مَكارِمَ الأخلاقِ جهْدي ... وأكْرَهُ أنْ أَعِيبَ وأنْ أُعابا

وأصفَحُ عن سِبابِ النّاسِ حِلْماً ... وشرُّ النّاسِ مَن يَهوَى السِّبابا

ومَن هابَ الرِّجالَ تهيَّبُوهُ ... ومَن حقَرَ الرِّجالَ فلن يُهابا

والحِلمُ من **أشرف الأخلاق** وأحقِّها بذوي الألباب ؛ **لما فيه من سلامة العِرض** ، وراحة الجسد ، واجتلاب الحمد .

وقد قال علي بن أبي طالب عليه السلام : (**أوّلُ عِوَض الحليم عن حِلمه . .** أنَّ الناس أنصارُه)[3] .

وحدُّ الحِلم : ضبطُ النفس عن هيَجان الغضب ، وهٰذا يكون لباعث وسبب .

وأسباب الحلم الباعثة علىٰ ضبط النفس **عشرة** :

أحدها : الرحمة للجهّال ؛ وذلك من خيرٍ يوافق رقَّة .

وقد قيل في منثور الحكم : (**من أوكد أسباب الحلم** : رحمةُ الجُهّال) .

وقال أبو الدرداء لرجلٍ أسمعه كلاماً : (**يا هٰذا ؛ لا تُغرقَنَّ في سَبِّنا ، ودَعْ للصُّلح موضعاً ؛ فإنّا لا نُكافىء مَن عصى اللهَ فينا بأكثرَ من أن نُطيعَ اللهَ فيه**)[4] .

---

(١) ما ذبَّ : ما دفع وطرد .

(٢) أورد الأبيات في « العقد الفريد » (٢/ ٢٨٤) للحسن بن رجاء ، و« البصائر والذخائر » (٢/ ١٤٨) للحسين بن مُطير الأسديّ ، وجهدي ؛ بالضم : الطاقة ، وبالفتح : المشقة .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الحلم » (١٢) ، وأورده في « عيون الأخبار » (١/ ٢٨٥) .

(٤) رواه في « الجليس الصالح » (٣/ ١٤٥) ، و« تاريخ دمشق » (٤٥/ ٢٧) بين عمر بن ذرّ وابن عياش رحمهما الله تعالىٰ .

وشتم رجلٌ الشعبيَّ ، فقال : (إن كنتُ كما قلتَ . . **فغفر اللهُ لي** ، وإن لم أكن كما قلتَ . . **فغفر اللهُ لكَ**)[١] .

واغتاظت عائشة رضي الله عنها علىٰ خادمٍ لها ، ثم رجعت إلىٰ نفسها ، فقالت : (**للهِ درُّ التقوىٰ ، ما تركت لذي غيظٍ شفاءً**)[٢] .

وقسم معاوية رضي الله عنه قُطُفاً ، فأعطىٰ شيخاً من أهل دمشق قطيفةً فلم تعجبه ، فحلف أن يضربَ بها رأسَ معاويةَ ، فأتاه فأخبره ، فقال له معاوية : (**أَوْفِ بنذرِكَ ، وليرفقِ الشيخُ بالشيخ**) .

والثاني من أسبابه : القدرة على الانتصار ، وذلك من سعة الصدر ، وحسن الثقة .

وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **إذا قدَرتَ علىٰ عدوِّكَ** . . فاجعلِ العفوَ عنه شُكْراً للقُدرةِ عليه »[٣] .

وقال بعض الحكماء : (**ليس من الكرم** عقوبةُ مَن لا يجد امتناعاً من السَّطوة)[٤] .

وقال بعض البلغاء : (**أحسنُ المكارم** : عفوُ المقتدر ، وجُودُ المفتقر)[٥] .

والثالث من أسبابه : الترفُّع عن السِّباب ؛ وذلك من شرف النفس ، وعلو الهمة ؛ كما قالت الحكماء : (**شرفُ النفس** : أن تحمل المكاره كما تحملُ المكارمَ) .

---

(١) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٨٠٠) ، و« تاريخ دمشق » (٢٥/ ٣٨١) .
(٢) أورده في « التذكرة الحمدونية » (١/ ١٤٥) .
(٣) أورده في « الإعجاز والإيجاز » (ص٣٨) ، و« التذكرة الحمدونية » (٤/ ١٠٤) من قول سيدنا علي كرم الله وجهه .
(٤) أورده في « غرر الخصائص » (ص٣٢٥) .
(٥) أورده في « المستطرف » (١/ ٩٠) .

وقد قيل : (إنَّ الله تعالىٰ سمّىٰ يحيىٰ عليه السلام سيِّداً ؛ لحِلمه)[1] .

وقال الشاعر[2] : [من البسيط]

لن يبلغَ المجدَ أقوامٌ وإنْ كرُمُوا حتّىٰ يَذِلُّوا وإنْ عَزُّوا لأقوامِ
ويُشتَمُوا فترى الألوانَ مُسفِرةً لا صَفْحَ ذُلٍّ ولٰكنْ صَفْحَ أحلامِ

والرابع من أسبابه : الاستهانة بالسبَّاب[3] ؛ وذلك عن ضرب من ضروب الكِبْر والإعجاب ؛ كما حُكي : عن مصعب بن الزبير : أنه لمّا ولي العراق.. جلس يوماً لعطاء الجند ، وأمر مناديَه فنادىٰ : (أين عمرو بن جُرْمُوز ؟) وهو الذي قتل أباه الزبيرَ ، فقيل له : أيُّها الأميرُ ؛ إنه قد تباعد في الأرض ، فقال : (أوَظنَّ الجاهل أنِّي أُقِيدُه بأبي عبد الله ؟ فليظهرْ آمناً ، وليأخذْ عطاءَه موفَّراً) فعدَّ الناس ذلك من مستحسَن الكِبر[4] .

ومثل ذلك قولُ بعض الزعماء في شعره[5] : [من الكامل]

أوَكلَّما طنَّ الذُّبابُ طردتُهُ إنَّ الذُّبابَ إذاً عليَّ كريمُ

وأكثرَ رجلٌ من سبِّ الأحنف وهو لا يجيبُهُ ، فقال : (والله ؛ ما منعه من جوابي إلا هَواني عليه)[6] .

وفي مثله يقول الشاعر[7] : [من المتقارب]

نَجا بكَ لؤمُكَ مَنجَى الذُّبابِ حَمَتْهُ مقاذِرُهُ أن يُنالا

---

(١) رواه الطبري في « تفسيره » (٣/ ٣/ ٣٢٧) عن قتادة وسعيد بن جبير رحمهما الله تعالىٰ .
(٢) أورد البيتين في « الجليس الصالح » (٣/ ٣٣٤) ، و« الحماسة البصرية » (٢/ ٧٩١) لعبيد الله بن زياد الحارثيّ .
(٣) في (هـ) : (الاستهانة بالمسيء) .
(٤) أورده في « الأوائل » (ص١٤٦) .
(٥) أورد البيت في « مجالس ثعلب » (٢/ ٣٤٥) ، و« المنتحل » (ص١٣٤) .
(٦) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٧٩٩) ، و« عيون الأخبار » (١/ ٢٨٣) .
(٧) البيت لإبراهيم الصوليّ في « ديوانه » (ص١٦٣) ضمن « الطرائف الأدبية » .

وأسمع رجلٌ ابنَ هُبَيرةَ ، فأعرض عنه ، فقال له الرجل : (**إيّاك أعني** ، فقال : **وعنكَ أُعرِض**)[1] .

وفي مثله يقول الشاعر[2] : [من الكامل]

فاذهَبْ فأنتَ طَليقُ عِرْضِكَ إنَّهُ ... عِـرْضٌ عَـزَزْتَ بـهِ وأنـتَ ذلَيـلُ

وقال عمر بن علي[3] : [من الوافر]

إذا نطَـقَ السَّفيـهُ فـلا تُجِبْـهُ ... فخيـرٌ مِـن إجـابتِـهِ السُّكُـوتُ

سكَـتُّ عـن السَّفيـهِ فظـنَّ أنِّـي ... عَيِيـتُ عـنِ الجَـوابِ ومـا عَيِيـتُ

والخامس من أسبابه : الاستحياء من خَنا الجواب ، وهـٰذا يكون من صيانة النفس ، وكمال المروءة .

وقد قال بعض الحكماء : (**احتمالُ السَّفيه أيسرُ من التحلِّي بصورته ، والإغضاءُ عن الجاهل** خيرٌ من مشاكلته) .

وقال بعض الأدباء : (**ما أفحشَ حليمٌ ، ولا أوحشَ كريمٌ**) .

وقال لَقيط بن زُرارة[4] : [من الطويل]

وقُلْ لبَني سعدٍ فما لي وما لكُمْ ... تُـرِقُّـونَ منِّي مـا استطَعْتُـمْ وأُعتِـقُ

أغـرَّكُـمُ أنِّـي بـأحسـنِ شِيمـةٍ ... بصيـرٌ وأنِّـي بـالفـواحـشِ أخـرَقُ

وإنْ تَـكُ قـد فـاحشتني فقهَـرتَنـي ... هنيئاً مريئاً أنتَ بالفُحْشِ أحذَقُ

---

(١) أورده المبرّد في « الكامل » (٢/ ٩٨٣) ، و« التذكرة الحمدونية » (٢/ ١٢٣) .

(٢) البيت لمسلم بن الوليد صريع الغواني في « ديوانه » (ص٣٣٤) ، ونُسب لدعبل في « ديوانه » (ص٤١٢) .

(٣) أورد البيتين في « الزهرة » (٢/ ٢٠٤) لأبي الدُّلَف ، و« روضة العقلاء » (٢/ ٥٥٥ـ ٥٥٦) قال : أخبرنا محمد بن المنذر ، حدثنا عمر بن علي بن زياد العنبري قال : سمعت سَلْم بن ميمون الخوّاص .

(٤) البيتان الأخيران في « ديوان المعاني » (١/ ٨١) ، و« الزهرة » (٢/ ٢٠٠) ، **وأخرق** : أحمق ، **وفاحشتني** : إن طلبت المغالبة في الفحش فغلبتني وقهرتني . . بورك لك ذلك السبق ؛ فأنت أحذق بالفحش وأعلم به !! .

والسادس من أسبابه : التفضُّل على السّابِّ ، وهـٰذا يكون من الكرم ، وحبِّ التألُّف ؛ كما قيل للإسكندر : (إنَّ فلاناً وفلاناً يتنقَّصانك ويثلِبانك ، **فلو عاقبتَهما !!** فقال : **هما بعد العقوبة أعذرُ في تنقُّصي وثَلْبي**) فكان هـٰذا تفضُّلاً منه وتألُّفاً .

وقد **حُكي** عن الأحنف بن قيسٍ أنه قال : (ما عاداني أحدٌ قطُّ إلا أخذتُ في أمره بإحدىٰ ثلاث خصال : **إن كان أعلىٰ منِّي** . . عرفتُ له قدرَه ، **وإن كان دوني** . . رفعتُ قدري عنه ، **وإن كان عِدْلي** . . تفضَّلتُ عليه)[1] .

فأخذه الخليل بن أحمد فنظمه شعراً ، فقال[2] : [من الطويل]

سأُلزِمُ نفسي الصَّفحَ عن كلِّ مذنبٍ ... وإنْ عَظُمت منه إليَّ الجرائمُ
فما النّاسُ إلا واحدٌ من ثلاثةٍ ... شريفٌ ومشروفٌ ومِثلٌ مُقاوِمُ
فأمّا الذي فوقي فأعرفُ قَدْرَهُ ... وأتبَعُ فيه الحقَّ والحقُّ لازمُ
وأمّا الذي دوني فأحلُمُ دائباً ... أصونُ به عِرضي وإنْ لامَ لائمُ
وأمّا الذي مِثْلي فإنْ زلَّ أو هَفا ... تفضَّلْتُ إنَّ الفضلَ بالعزِّ حاكمُ

والسابع من أسبابه : استكفاف السابِّ ، وقطع السِّباب ، وهـٰذا يكون من الحزم ؛ **كما حُكي** : أنَّ رجلاً قال لضرار بن القعقاع : (واللهِ ؛ **لو قلتَ واحدةً** . . **لَسمعتَ عشراً** ، فقال ضرار : واللهِ ؛ **لو قلتَ عشراً** . . **لم تسمع واحدةً**)[3] .

وحُكي : أنَّ عليَّ بن أبي طالب عليه السلام قال لعامر بن مرّة الزُّهريّ : (**مَن أحمقُ الناسِ** ؟ فقال : مَن ظنَّ أنَّه أعقلُ الناس ، قال : صدقتَ ، قال : **فمَن أعقلُ الناسِ** ؟ قال : مَن لم يتجاوز الصمتَ في عقوبة الجهّال) .

وقال الشعبيُّ : (ما أدركتُ أمّي فأبرَّها ؛ **ولـٰكن لا أسبُّ أحداً فيسبَّها**) .

---

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٤/ ٣٢٩) .
(٢) الأبيات في « ديوانه » (ص٢١) .
(٣) رواه في « عيون الأخبار » (١/ ٢٨٥) ، و« المجالسة وجواهر العلم » (٨٠٣) .

وقال بعض الحكماء : (**في إعراضِك صونُ أعراضِك**) .

وقال بعض الشعراء[1] : [من الطويل]

وفي الحِلمِ رَدعٌ للسَّفيهِ عنِ الأذىٰ وفي الخُرْقِ إغراءٌ فلا تَكُ أخرَقا
فتنــدَمَ إذْ لا تنفعَنْــكَ نــدامــةٌ كمــا نــدِمَ المغبُــونُ لمّــا تفــرَّقــا

وقال آخر[2] : [من البسيط]

قُلْ ما بدا لكَ من زُوْرٍ ومن كَذِبٍ حِلْمي أصــمٌّ وأُذْنـي غيـرُ صَمّـاءِ

والثامن من أسبابه : الخوف من العقوبة على الجواب ، وهٰذا يكون من ضعف النفس ، وربما أوجبه الرأي ، واقتضاه الحزم .

وقد قيل في منثور الحكم : (**الحِلمُ حِجابُ الآفات**)[3] .

وقال الشاعر : [من البسيط]

أُرفُقْ إذا خِفتَ من ذي هَفْوةٍ خُرُقاً ليس الحليم كمَن في أمرِهِ خُرُقُ

والتاسع من أسبابه : الرِّعاية ليدٍ سالفة ، أو حرمةٍ لازمة ، وهٰذا يكون من الوفاء ، وحسن العهد .

وقد قيل في منثور الحكم : (**أكرمُ الشِّيَم أرعاها للذِّمَم**) .

وقال الشاعر : [من الكامل]

إنَّ الـوفـاءَ علـى الكِـرام فـريضـةٌ واللـؤمُ مقـرونٌ بـذي الإخـلافِ
وترى الكريمَ لمَن يُعاشِرُ مُنصِفاً وتـرى اللئيـم مُجانِـبَ الإنصـافِ

---

(١) أورد البيتين في « العقد الفريد » (٢/ ٢٨١) ، والأول في « ربيع الأبرار » (٢/ ٣٠٥) .
(٢) البيت لبشار بن برد في « ديوانه » (١/ ١٥٠) .
(٣) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص٤١٣) ، و« زهر الآداب » (٢/ ٩٨٤) من كلام يحيى بن معاذ رحمه الله تعالىٰ .

والعاشر من أسبابه : المكر ، وتوقُّع الفرص الخفيّة ، وهٰذا يكون من الدهاء .

وقد قيل في منثور الحكم : (**مَن ظهر غضبُه . . قلَّ كيدُه**)[1] .

وقال بعض الأدباء : (**غضبُ الجاهل** في قوله ، **وغضبُ العاقل** في فعله)[2] .

وقال بعض الحكماء : (**إذا سكتَّ عن الجاهل** . . فقد أوسعتَه جواباً ، وأوجعتَه عقاباً) .

وقال إياس بن قتادة[3] : [من الطويل]

تُعاقِبُ أيدينا ويَحلُمُ رأيُنا ونشتِمُ بالأفعالِ لا بالتّكلُّمِ

وقال شاعر آخر[4] : [من الطويل]

ولَلكَفُّ عن شَتْمِ اللئيمِ تكرُّماً أضرُّ له من شَتْمِهِ حينَ يشتِمُ

فهٰذه عشرة أسباب تدعو إلى الحِلم ، وبعض الأسباب أفضلُ من بعض ، وليس إذا كان بعض أسبابه مفضولاً ما يقتضي أن يكون نتيجتُه من الحِلم مذموماً ، **وإنَّما الأولىٰ بالإنسان** : أن يدعوَه إلى الحلم أفضلُ أسبابه وإن كان الحِلم كلُّه فضلاً .

وإن عرِيَ عن أحد هٰذه الأسباب . . **كان ذلاًّ** ، ولم يكن حِلماً ؛ لأنّا قد ذكرنا في حدِّ الحلم أنه ضبط النفس عن هيَجان الغضب ، **فإذا فُقِد الغضبُ** بسماع ما يُغضَب منه . . **كان ذلك من ذلِّ النفس** ، وقلّة الحميّة .

---

(١) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص٤٥٠) .

(٢) القول لابن المعتز في « البديع » (ص٤٦) .

(٣) أورده في « عيون الأخبار » (٢/ ١٧٨) لإياس ، وفي « شرح ديوان الحماسة » للتبريزي (٢/ ١٨٥) ، و« الزهرة » (٢/ ٢١٣) منسوباً لمعبد بن علقمة .

(٤) أورده في « شرح ديوان الحماسة » للتبريزي (٣/ ١٤٦) ، و« معجم الأدباء » (٧/ ١٥٢) للمؤمَّل بن أُمَيل المحاربيّ .

ولذلك قالت الحكماء : (**ثلاثةٌ لا يُعرَفون إلا في ثلاثة مواطن : لا يُعرَف الجواد** إلا في العُسرة ، **ولا الشجاعُ** إلا في الحرب ، **ولا الحليمُ** إلا في الغضب)[1] .

وقال الشاعر[2] : [من الرمل]

ليستِ الأحلامُ في حالِ الرِّضا إنَّما الأحلامُ في حالِ الغَضَبْ

وقال آخر : [من البسيط]

مَن يدَّعي الحِلْمَ أَغضِبْهُ لِتعرِفَهُ لا يُعرَفُ الحِلْمُ إلا ساعةَ الغَضَبِ

وأنشد النابغة الجَعْديُّ بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم : [من الطويل]

ولا خيرَ في حِلمٍ إذا لم يكنْ له بَوادِرُ تَحمي صَفْوَهُ أنْ يُكَدَّرا

ولا خيرَ في جَهْلٍ إذا لم يكنْ له حَليمٌ إذا ما أوردَ الأمرَ أصدَرا

فلم يُنكر صلى الله عليه وسلم قولَه عليه[3] .

ومَن فقد الغضب في الأشياء المُغضِبة ، حتّى استوت حالتاه قبل الإغضاب وبعده . . **فقد عدم من فضائل النفس** : الشجاعةَ والأنَفة ، والحميّة والغَيرة ، والدفاع والأخذ بالثأر ؛ لأنَّها خصال مركَّبة من الغضب ، **فإذا عدمها الإنسان . . هان بها** ، ولم يكن لباقي فضائله في النفس موضعٌ ، ولا لوفور حِلمه في القلوب موقعٌ .

وقد قال المنصور : (**إذا كان الحِلمُ مَفسدةً . . كان العفوُ مَعجَزة**)[4] .

وقال بعض السلف : (**العفو يُفسِد من اللئيم بقدر إصلاحه من الكريم**)[5] .

---

(١) أورده في « البيان والتبيين » (٢/ ٧٦) ، ورواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٥٢٠) من قول لقمان الحكيم عليه السلام .

(٢) البيت لمسكين الدارميّ في « ديوانه » (ص٢٢) .

(٣) رواه الحارث في « مسنده » (٨٩٤) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٠/ ١٣٢) ؛ وفيه أنه دعا له : « لا يفضُضِ اللهُ فاكَ » ، والبيتان في « ديوانه » (ص٨٥) .

(٤) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص١٣٨) .

(٥) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص٤١٢) ، و« ربيع الأبرار » (٢/ ١٤١) .

وقال عمرو بن العاص : (**أكرموا سفهاءَكم ؛ فإنَّهم يكفونكم العارَ والشَّنارَ**)[1] .

وقال مصعب بن الزبير : (**ما قلَّ سفهاء قومٍ إلا ذلُّوا**)[2] .

وقال أبو تمام الطائي[3] : [من الكامل]

والحربُ تركَبُ رأسَها في مَشهدٍ　　عُـدِلَ السَّفِيـهُ بـهِ بـألـفِ حَليـمِ

وليس هٰذا القولُ إغراءً بتحكيم الغضب والانقياد له عند حدوث ما يُغضِب ، فيكتسبَ بالانقياد للغضب من الرذائل أكثرَ ممّا يسلبُه عدمُ الغضب من الفضائل ؛ **ولٰكن إذا ثار به الغضب** عند هجوم ما يُغضِبه . . **كفَّ سَورته بحزمه** ، وأطفأ نائرته بحلمه ، ووكل مَن استحقَّ المقابلة إلىٰ غيره ، **فلن يعدم مسيءٌ مكافئاً ؛ كما لن يعدم محسنٌ مجازياً .**

والعرب تقول : (**دخل بيتاً ما خرج منه**) أي : إن خرج منه خيرٌ . . دخله خيرٌ ، وإن خرج منه شرٌّ . . دخله شرٌّ .

وأنشد ابن دريد عن أبي حاتم[4] : [من الطويل]

إذا أَمِـنَ الجُـهّـالُ جَهْلَـكَ مـرّةً　　فعِرْضُكَ للجُهّالِ غُنْمٌ منَ الغُنْمِ
فعُـمَّ عليـهِ الحِلـمَ والجهلَ وألْقَهُ　　بمنـزلـةٍ بيـنَ العـداوةِ والسِّلْـمِ
إذا أنتَ جازيتَ السفيهَ كما جزىٰ　　فـأنـتَ سفيـهٌ مثلُـهُ غيـرُ ذي حِلْـمِ
ولا تعضِيَـنْ عِـرضَ السَّفيـهِ ودارِهِ　　بحِلـمٍ فـإنْ أعيـا عليـكَ فبالصَّـرْمِ
فيـرجـوكَ تـاراتٍ ويخشـاكَ تـارةً　　وتـأخـذُ فيمـا بيـنَ ذلـكَ بـالحَـزْمِ
فإنْ لـم تـجدْ بُدّاً منَ الجهلِ فاستعِنْ　　عليـهِ بجُهّـالٍ فـذاكَ مـنَ العَـزْمِ

---

(١) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص٣١) ، و« زهر الآداب » (١/ ٥٥) .

(٢) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص٣٣) .

(٣) البيت في « ديوانه » (٣/ ٢٦٦) .

(٤) روى الأبيات في « تاريخ دمشق » (٥١/ ٨٦) ، **ولا تعضين** : لا تنتقصه ولا تطعن به ، **والصرم** : هو القطع ؛ **والمعنىٰ** : لا تطعن عرض السفيه ، بل داره بحلم ؛ فإن أعيا وأشكل عليك أمر ذلك . . فاطعنه بالصرم .

وهٰذا من أحكم أبياتٍ وجدتها في تدبير الحِلم والغضب .

وهٰذا التدبير إنَّما يُستعمَل فيمَن لا يجد الإنسان بدّاً من مقارنته[1] ، ولا سبيلاً إلى اطِّراحه ومتاركته ؛ إمّا لخوف شرِّه ، أو للزوم أمره .

فأمّا مَن أمكن اطِّراحُه ، ولم يضرَّ إبعادهُ . . فالهَوانُ به أَولىٰ ، والإعراضُ عنه أصونُ .

فإذا كان علىٰ ما وصفتُ . . استفاد بتحريك الغضب فضائلَه ، وأمن بكفِّ نفسه عن الانقياد له رذائلَه ، وصار الحلمُ مدبِّراً للأمور المغضِبة بقدرٍ لا يعتورُه نقصٌ بعدم الغضب ، ولا يلحقه زيادةٌ بفقد الحِلم .

ولو عزب عنه الحلمُ حتّى انقاد لغضبه . . ضلَّ عنه وجهُ الصَّواب فيه ، وضعف رأيُه عن خبرة أسبابه ودواعيه ؛ حتّىٰ يصيرَ بليدَ الرأي ، مغمورَ الرَّوِيّة ، مقطوعَ الحجّة ، مسلوبَ العَزاء ، قليلَ الحيلة ، مع ما يناله من أثر ذلك في نفسه وجسده ، حتّىٰ يصير أضرَّ عليه ممّا غضب له[2] .

وقد قال بعض الحكماء : (مَن كثر شَطَطُه . . كثر غلَطُه)[3] .

ورُوي أنَّ سلمان قال لعليِّ بن أبي طالب عليه السلام : (ما الذي يُباعِدني من غضب الله تعالىٰ ؟) قال : (ألاّ تغضبَ)[4] .

وقال بعض السلف : (أقربُ ما يكون العبد من غضب الله تعالىٰ إذا غضِبَ)[5] .

وقال بعض البلغاء : (مَن ردَّ غضبَه . . هدَّ مَن أغضبَه) .

---

(١) وهٰذا التدبير : وهو الاستعانة بالسفهاء .

(٢) أي : كمن غضب علىٰ فرسه فكسر رجلها ، أو علىٰ زوجته فطلقها ، أو علىٰ عبده فقتله !!

(٣) أورده في « نهاية الأرب » (٦/ ٩٥) ، و« ربيع الأبرار » (٣/ ٤٩٢) ، والشطط : التباعد عن الحق .

(٤) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٢٩٦) ، والإمام أحمد في « المسند » (٢/ ١٧٥) عن سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً .

(٥) أورده في « البيان والتبيين » (٢/ ١٩٥) ، و« المجالسة وجواهر العلم » (١٤٤٤) من قول سيدنا أبي الدرداء رضي الله عنه .

وقال بعض الأدباء : (ما هيَّجَ جاشَك كغيظٍ أجاشَك)[1] .

وقال رجلٌ لبعض الحكماء : (عِظْني ، فقال : لا تغضَبْ) .

فينبغي لذي اللُّبِّ السَّويِّ ، والحزم القويِّ . . أن يتلقَّىٰ قوة الغضب بحلمه فيصدَّها ، ويقابلَ عواديَ شِرّته بحزمه فيردَّها ؛ ليحظىٰ بانجلاء الحَيرة ، ويسعدَ بحميد العاقبة ؛ فقد قال بعض الأدباء : (في إغضائك راحةُ أعضائك) .

وسببُ الغضب : هجومُ ما تكرهه النفس ممَّن دونها ، وسببُ الحزن : هجومُ ما تكرهه النفسُ ممَّن فوقها .

والغضبُ يتحرَّك من داخل الجسد إلىٰ خارجه ، والحزنُ يتحرَّك من خارج الجسد إلىٰ داخله ؛ ولذلك قتل الحزنُ ، ولم يقتلِ الغضبُ ؛ لبروز الغضب ، وكمون الحزن[2] ، فصار الحادثُ عن الغضب السَّطوةَ والانتقام لبروزه ، والحادثُ عن الحزن المرضَ والأسقَامَ لكمونه ؛ فمن أجل ذلك : أفضى الحزنُ إلى الموت ، ولم يُفضِ إليه الغضب ، فهـٰذا فرقُ ما بين الحزن والغضب .

واعلم : أنَّ لتسكين الغضب إذا هجم أسباباً يُستعان بها على الحلم :

منها : أن يذكر الله تعالىٰ ، فيدعوه ذكره إلى الخوف منه ، ويبعثه الخوف منه على الطاعة له ، فيرجع إلىٰ أدبه ، ويأخذ بيديه ؛ فعند ذلك يزول الغضب[3] .

قال الله تعالىٰ : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ قال عكرمة : (يعني : إذا غضبت)[4] .

وقال الله تعالىٰ : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ ومعنىٰ قوله : (ينزغَنَّكَ) أي : يُغضِبنَّكَ ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ يعني :

---

(١) جاشك ـ بتسهيل الهمزة وقد تثبت على الأصل ـ : وهو رواع القلب إذا اضطرب عند الفزع ، وأجاشك ؛ أي : أفزعك .

(٢) فالغاضب كالرامي ، والمحزون كالمرمي إليه ، وسهم الغضب مسمومة .

(٣) لأن المخلاة التي خرقها سيف الجلالة لا تنتفخ بنفخ الشيطان .

(٤) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٧٩٤٣) ، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (٣/ ٣٣٤) .

إنه سميعٌ بجهل مَن جهل ، عليمٌ بما يُذهِب عنك الغضبَ .

وذُكر أنَّ في التوراة مكتوباً : (يا بنَ آدم ؛ اذكُرْني حينَ تغضَبُ . . أذكُرْكَ حينَ أغضَبُ ، فلا أمحَقُكَ فيمَن أمحَقُ)[1] .

وحُكِي : أنَّ بعض ملوك الفرس كتب كتاباً ودفعه إلىٰ وزيره وقال له : (إذا غضبتُ . . فناوِلْنيه) ، وكان فيه مكتوب : (ما لكَ وللغضبِ ؟! إنَّما أنت بشرٌ ، ارحَمْ مَن في الأرض . . يرحمْكَ مَن في السماء)[2] .

وقال بعض الحكماء : (مَن ذكر قدرة الله تعالىٰ . . لم يستعمل قدرتَه في ظلم عباد الله)[3] .

وقال عبد الله بن مسلم بن محارب لهارون الرشيد : (يا أميرَ المؤمنين ؛ أسألك بالذي أنت بين يديه أذلُّ منِّي بين يديك ، وبالذي هو أقدرُ علىٰ عقابك منكَ علىٰ عقابي . . لما عفوتَ عنِّي !!) فعفا عنه لمّا ذكَّره قدرةَ الله تعالىٰ عليه[4] .

ورُوي أنَّ رجلاً شكا إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم القسوةَ ، فقال : « اطَّلعْ في القُبورِ ، واعتبِرْ بالنُّشُورِ »[5] .

وكان بعض ملوك الطوائف إذا غضب . . أُلقِي عنده مفاتيحُ تُرَب الملوك ، فيزول عنه غضبُه[6] .

ولذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالىٰ عنه : (مَن أكثرَ ذكرَ الموتِ . . رضي من الدنيا باليسير)[7] .

---

(١) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٣/ ٦٥) ، وابن حبان في « روضة العقلاء » (٢/ ٥٥١) ، وإطلاق الغضب على الله سبحانه مجازيٌّ ؛ أي : حين أردت أن أفعل بك ما يفعله المَلِك إذا غضب علىٰ من تحت يده من الانتقام وإنزال العقوبة ، ومحق الشيء : إبطاله ومحوه ؛ بحيث لم يُبْقِ أثراً منه ولا علامة .

(٢) أورده المبرّد في « التعازي والمراثي » (ص٣٠٢) ، و« ربيع الأبرار » (٢/ ٣٠٢) .

(٣) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص٤٥٢) .

(٤) أورده في « عيون الأخبار » (١/ ١٠٢) .

(٥) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٨٨٥٢) عن سيدنا أنس رضي الله عنه .

(٦) ذكره في « سراج الملوك » (١/ ٣٥٤) .

(٧) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت » (٣٥) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٥/ ١٧٤) من كتاب عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالىٰ إلىٰ أهل الشام .

ومنها : أن ينتقل عن الحالة التي هو فيها إلىٰ حالةٍ غيرها ، **فيزول عنه الغضب** بتغيُّر الأحوال ، والتنقُّل من حالٍ إلىٰ حال ، وكان هـٰذا مذهبَ المأمون إذا غضب أو شتم[1] .

وكانت الفرس تقول : (**إذا غضب القائمُ . . فليجلِسْ ، وإذا غضب الجالس . . فليقُمْ**)[2] .

ومنها : أن يتذكَّر ما يؤول إليه الغضبُ من الندم ، ومَذمّة الانتقام .

كتب أبرويز إلى ابنه شيرويه : (**إنَّ كلمةً منك تسفك دماً ، وإنَّ أخرىٰ منك تحقن دماً ، وإنَّ نفاذ أمرك مع ظهور كلامك ، فاحترس في غضبك من قولك أن يُخطىءَ ، ومن لونك أن يتغيَّرَ ، ومن جسدك أن يخفَّ ؛ فإن الملوك تعاقب قدرةً ، وتعفو حِلماً**)[3] .

وقال بعض الحكماء : (**الغضبُ علىٰ مَن لا تملك عجزٌ ، وعلىٰ مَن تملك لؤمٌ**)[4] .

وقال بعض الأدباء : (**إيّاكَ وعزّةَ الغضب ؛ فإنَّها تفضي بك إلىٰ ذلِّ العذر**)[5] .

وقال بعض الشعراء[6] : [من الخفيف]

وإذا ما اعترَتْكَ في الغَضَبِ العِزْ ... زَةُ فاذكُرْ تذلُّلَ الإعتذارِ

---

(١) في (أ) : (أو سئم) .

(٢) ذكره في « سراج الملوك » (١/ ٣٥٤) .

(٣) أورده في « عيون الأخبار » (١/ ٢٨٨) ، و« المجالسة وجواهر العلم » (٢١٤٣) .

(٤) ذكره في « سراج الملوك » (١/ ٣٥٧) .

(٥) أورده في « عيون الأخبار » (١/ ٢٩١) ، و« الإعجاز والإيجاز » (ص٧٢) من كلام سيدنا عمرو بن العاص رضي الله عنه .

(٦) أورد البيت في « ربيع الأبرار » (٢/ ٢٩٦) .

ومنها : أن يذكرَ ثوابَ العفو ، وجزاءَ الصفح ، فيقهر نفسه على الغضب ؛ **رغبةً في الجزاء والثواب** ، وحذراً من استحقاق الذمِّ والعقاب .

رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يُنادي مُنادٍ يومَ القيامةِ : **مَن له أجرٌ على الله عزَّ وجل . . فلْيَقُمْ** ، فيقومُ العافُونَ عنِ النّاسِ » ثمَّ تلا : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾[1] .

وقال رجاء بن حَيْوةَ لعبد الملك بن مروان في أسارى ابن الأشعث : (إن الله عز وجل **قد أعطاكَ ما تحبُّ من الظَّفَر ، فأعطِ اللهَ ما يحبُّ من العفو**)[2] .

ورُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « **الخيرُ ثلاثُ خِصالٍ** ، مَن كُنَّ فيه . . استكملَ الإيمانَ : **مَن إذا رضيَ** . . لم يُدخِلْهُ رِضاهُ في باطلٍ ، **وإذا غضِبَ** . . لم يُخرِجْه غَضَبُهُ مِن حقٍّ ، **وإذا قدَرَ** . . عفا »[3] .

وأسمع رجلٌ كلاماً لعمرَ بن عبد العزيز ، فقال عمر : (**أردتَ أن يستفزَّني الشيطانُ** بعزِّ السلطان ، **فأنالَ منكَ اليومَ** ما تنالُه منِّي غداً ، **انصرف يرحمُكَ اللهُ**)[4] .

* * *

ومنها : أن يتذكَّر انعطافَ القلوب عليه ، وميلَ النفوس إليه ، فلا يرىٰ إضاعة **ذلك** بتنفير الناس عنه ، وبعدهم منه ، **فيكفَّ عن متابعة الغضب** ، فيرغب في التألُّف وجميل الثناء .

روى ابن أبي ليلىٰ ، عن عطيّة ، عن أبي سعيد قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « **ما ازدادَ أحدٌ بعفْوٍ إلا عِزّاً ، فاعفُوا . . يُعِزَّكُمُ اللهُ** »[5] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الأهوال » (٢١٨) ، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (٦/ ١٨٧) عن سيدنا أنس رضي الله عنه .

(٢) أورده في « البيان والتبيين » (٢/ ١٠٧) ، و« نهاية الأرب » (٦/ ٦٣) .

(٣) رواه الطبراني في « المعجم الصغير » (١/ ٦١) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٤) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٧٩٧١) وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٥/ ٢٠٥) .

(٥) روىٰ نحوه مسلم (٢٥٨٨) ، والترمذي (٢٠٢٩) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

وقال بعض البلغاء : (**ليس من عادة الكرام** سرعةُ الانتقام ، **ولا من شروط الكرم** إزالةُ النِّعَم)[1] .

وقال المأمون لإبراهيم بن المهديّ : (إنِّي شاورتُ في أمرك ، **فأشاروا عليَّ بقتلك إلا أنِّي** وجدتُ قدرَك فوقَ ذنبك ، **فكرهت القتلَ** ؛ للازم حرمتك) .

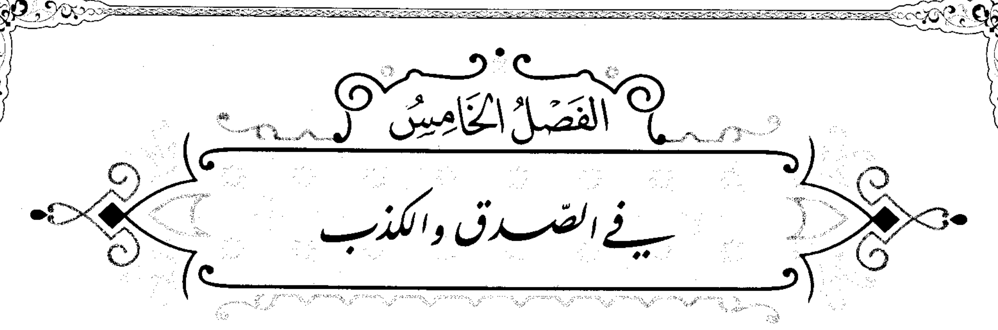
فقال : (يا أميرَ المؤمنين ؛ **إنَّ المشيرَ أشار بما جرت به العادة في السياسة** ، إلا أنَّك أبيتَ أن تطلب النصر إلا من حيثُ عُوِّدتَه من العفو ؛ **فإن عاقبتَ** . . فلك نظيرٌ ، **وإن عفوتَ** . . فلا نظيرَ لك) وأنشأ يقول : [من البسيط]

البرُّ بي منكَ وَطَّا العُذرَ عندَكَ لي ... فيما فعلتُ فلم تعذُلْ ولم تَلُمِ
وقام عِلمُكَ بي فاحتجَّ عندَكَ لي ... مَقامَ شاهدِ عَدْلٍ غيرِ متَّهَمِ
لئن جحَدتُكَ معروفاً مننْتَ بهِ ... إنِّي لَفي اللُّؤم أحظىٰ منكَ في الكرَمِ
تعفُو بعَدْلٍ وتسطُو إنْ سطَوْتَ بهِ ... فلا عدِمْناكَ مِن عافٍ ومُنتقِمِ[2]

---

(١) أورده في « تهذيب السياسة » (ص٢٠٨) ، و« المستطرف » (١/ ٥٧٢) .

(٢) أورد الخبر في « التذكرة الحمدونية » (٤/ ١١٧) ، و« نثر الدرّ » (٣/ ١٤٦) ، وأورد الأبيات سوى الثالث في « الفرج بعد الشدة » (٣/ ٣٥١) ، والبيت الثالث في « العمدة » (١/ ٤٨٤) ، وكان قد خرج عليه في بغداد وبايعه العباسيون ، وكان المأمون وقتها بخراسان ، فرجع إلىٰ بغداد فاختفىٰ إبراهيم ؛ حتىٰ أُخذ وهو متنقب مع نسوة ، فأخذه وجرىٰ بينهما ما قصّه المؤلف رحمه الله تعالىٰ .



الفصل الخامس

في الصدق والكذب

قال الله تعالىٰ وهو أصدق القائلين : ﴿ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[١] .

وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ .

ورُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال للحسن بن عليٍّ عليهما السلام : « **دَعْ ما يَرِيبُكَ إلىٰ ما لا يَرِيبُكَ ؛ فإنَّ الكَذِبَ رِيبةٌ ، والصِّدقَ طُمأنينةٌ** »[٢] .

ورُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « رَحِمَ اللهُ امرأً **أصلحَ من لسانِهِ** ، وقصرَ من عِنانِهِ ، **وألزمَ طريقَ الحقِّ مِقوَلَهُ** ، ولم **يُعوِّدِ الخَطَلَ مِقصَلَهُ** »[٣] .

ورُوِيَ صفوان بن سُلَيم قال : قيل للنبيِّ صلى الله عليه وسلم : **أيكونُ المؤمنُ جباناً** ؟ قال : « نعم » قيل : **أفيكون بخيلاً** ؟ قال : « نعم » قيل : **أفيكون كذّاباً** ؟ قال : « لا »[٤] .

---

(١) **ثم نبتهل** : بأن نقول : بهلة الله على الكاذب منا ومنكم ، والبُهلة : اللعنة ، وبَهَلَهُ الله : لعنه الله وأبعده من رحمته .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/٩٩) ، والترمذي (٢٥١٨) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٥٣٦٣) .

(٣) روىٰ صدره البيهقي في « شعب الإيمان » (١٥٥٧) عن سيدنا عمر رضي الله عنه ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٣/١٠٣) عن سيدنا أنس رضي الله عنه ، وسبب **الحديث** : أن سيدنا عمر رضي الله عنه مرَّ علىٰ قوم أخطؤوا في رميهم ، ولما تكلموا . . لحنوا في قولهم فقال : (والله ؛ لخطؤكم في لسانكم أشد عليَّ من خطئكم في رميكم ؛ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول . . .) ، وقوله : (وقصر من عنانه . . . **إلخ**) مدرج في الحديث وتفسير له ، ولسانٌ **مِقصَلٌ** : حديدٌ ذَرِبٌ .

(٤) رواه الإمام مالك في « الموطأ » (٢/٩٩٠) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٤٤٧٢) .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ أي : (**لا تخلِطوا الصدقَ بالكذب**)[1] .

وقيل في منثور الحكم : (**الكذّاب لصٌّ ؛ لأنَّ اللصَّ يسرق مالَك ، والكذّاب يسرق عقلَك**)[2] .

وقال بعض الحكماء : (**الخَرَسُ خيرٌ من الكذب** ، وصدقُ اللسان أوّلُ السعادة)[3] .

وقال بعض البلغاء : (**الصادق مُصانٌ جليل ، والكاذب مُهانٌ ذليل**) .

وقال بعض الأدباء : (**لا سيفَ كالحقِّ ، ولا عونَ كالصِّدق**)[4] .

وقال بعض الشعراء : [من الوافر]

وما شيءٌ إذا فكَّرْتَ فيهِ ... بأذهبَ للمروءةِ والجَمالِ
منَ الكذِبِ الذي لا خيرَ فيهِ ... وأبعدَ بالبَهاءِ منَ الرِّجالِ

والكذبُ جِماعُ كلِّ شرٍّ ، وأصلُ كلِّ ذمٍّ ؛ لسوء عواقبه ، وخُبث نتائجه ؛ **لأنه ينتج النَّميمة** ، والنَّميمة تنتج البغضاء ، والبغضاء تؤول إلى العداوة ، وليس مع العداوة أمنٌ ولا راحة ؛ ولذلك قيل : (**مَن قلَّ صدقُه . . قلَّ صديقُه**)[5] .

والصدق والكذب يدخلان الأخبار الماضية ؛ **كما أن الوفاء والخُلْف** يدخلان المواعيد المستقبَلة ؛ **فالصدق** : هو الإخبار عن الشيء علىٰ ما هو عليه ، **والكذب** : هو الإخبار عن الشيء بخلاف ما كان عليه .

ولكلِّ واحدٍ منهما دواعٍ ؛ فدواعي الصدق لازمةٌ ، ودواعي الكذب عارضةٌ ؛

---

(١) رواه الطبري في « تفسيره » (١/ ١/ ٣٣٥) .
(٢) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص٤٤٦) ، و« زهر الآداب » (١/ ٤٢٧) من قول الحسن بن سهل .
(٣) أورده في « ربيع الأبرار » (٥/ ٣٥١) .
(٤) ذكره المناوي في « فيض القدير » (٤/ ٢٣) .
(٥) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص٤١٢) ، و« زهر الآداب » (٢/ ٨٣٤) .

لأن **الصدق** يدعو إليه عقلٌ موجِبٌ ، وشرعٌ مؤكِّدٌ ، **والكذب** يمنع منه العقل ، ويصدُّ عنه الشرع .

ولذلك جاز أن تستفيض الأخبارُ الصادقة حتىٰ تصيرَ متواترةً[1] ، **ولم يجز أن تستفيض الأخبارُ الكاذبة** ؛ لأنَّ اتِّفاق الناس في الصدق والكذب إنَّما هو لاتِّفاق الدواعي ، **فدواعي الصدق** يجوز أن يتَّفق الجمعُ الكثيرُ عليها ؛ **حتىٰ إذا نقلوا** خبراً وكانوا عدداً ينتفي عن مثلهم المواطأةُ . . **وقع في النفس صدقُه** ؛ لأنَّ الدواعيَ إليه نافعةٌ ، واتِّفاق الناس في الدواعي النافعة ممكنٌ .

ولا يجوز أن يتَّفقَ العددُ الكثير الذي لا يمكن مواطأةُ مثلهم علىٰ **نقل خبرٍ يكون كذباً** ؛ لأنَّ الدواعيَ إليه غيرُ نافعة ، وربَّما كانت ضارّةً ، **وليس في جاري العادة** أن يتَّفق الجمع الكثير علىٰ دواعٍ غيرِ نافعة ؛ **فلذلك جاز اتِّفاق الناس على الصدق** ؛ لجواز اتِّفاق دواعيهم ، **ولم يجز أن يتَّفقوا على الكذب** ؛ لامتناع اتِّفاق دواعيهم .

* * *

وإذا كان للصدق والكذب دواعٍ . . فلا بدَّ من ذكر ما سنح به الخاطرُ من دواعيهما[2] .

أمّا دواعي الصِّدق :

فمنها : العقلُ ؛ **لأنَّه موجِبٌ لقبح الكذب** ، لا سيَّما إذا لم يجلب نفعاً ، ولم يدفع ضرراً ، **وموجِبٌ لحسن الصدق** ، لا سيَّما إذا لم ينفِ نفعاً ، ولم يجلب ضرراً ، **والعقلُ يدعو إلىٰ فعلِ ما كان فيه مستحسَناً** ، ويمنع من إتيان ما كان فيه مستقبَحاً .

وليس ما استُحسِن من مبالغات الشعراء حتىٰ صارت كذباً صريحاً . . **استحساناً**

---

(١) **الاستفاضة** : الانتشار .

(٢) **السنوح** : ظهورُ رأيٍ وعروضُه في الخاطر .

للكذب في العقل ؛ كالذي أنشدنيه الأزديُّ لبعض الشعراء[1] : [من الطويل]

تـوهَّمَـهُ فكـري فـأصبـحَ خَـدُّهُ وفيه مكانَ الوَهْمِ من فِكْرتي أُثْرُ
وصـافحَـهُ كَفِّـي فـآلـمَ كفَّـهُ فمن لَمْسِ كفِّي في أناملِهِ عَقْرُ
ومـرَّ بقلبـي خـاطـراً فجـرَحْتُـهُ فلـم أرَ شيئـاً قـطُّ يجـرحُـهُ الفِكْـرُ

وكقول العبّاس بن الأحنف وإن كان دونَ هـٰذه المبالغة[2] : [من الوافر]

تقـولُ وقـد كتبـتُ دقيـقَ خَطِّـي إليهـا لِـمْ تجنَّبْـتَ الجَليـلا
فقلـتُ لهـا نحَلْـتُ فصـار خَطِّـي مسـاعـدةً لكـاتبـهِ نَحيـلا

لأنَّه خرج مَخرج المبالغة في التشبيه والاقتدار علىٰ صنعة الشعر ، وأنَّ شواهد الحال تخرجه عن تلبيس الكذب ؛ فلذلك استُحسِن في الصنعة[3] ، ولم يُستقبَح في العقل وإن كان الكذبُ مستقبَحاً فيه .

ومنها : الدِّين الوارد باتِّباع الصدق ، وحظر الكذب ؛ لأنَّ الشرع لا يجوز أن يرِدَ بإرخاص ما حظره العقل ، بل قد جاء الشرع زائداً علىٰ ما اقتضاه العقل من حظر الكذب ؛ لأنَّ الشرع ورد بحظر الكذب وإن جرَّ نفعاً ، أو دفع ضرراً ، والعقلُ إنَّما حظر من الكذب ما لا يجلبُ نفعاً ، ولا يدفع ضرراً .

ومنها : المروءة ؛ فإنَّها مانعةٌ من الكذب ، باعثةٌ على الصدق ؛ لأنَّها قد تمنع من فعل ما كان مستكرَهاً ، فأَولىٰ أن تمنعَ من فعل ما كان مستقبَحاً .

---

(١) الأبيات لأبي نواس في « ديوانه » (ص ٧٣٠) ، ونسبه في « الوافي بالوفيات » (٦/ ١٥) و« الكشكول » (٢/ ١١١) للنظّام ، والأُثْرُ : أثَر الجرح يبقىٰ بعد البُرْء .
(٢) أورد البيتين في « الزهرة » (١/ ٤٠٧) ، و« المحاسن والمساوىء » (ص ١٤) دون نسبة .
(٣) في (أ ، ب) : (فلذلك ما استحسن في الصنعة) .

ومنها : حبُّ الثناء والاشتهار بالصدق ، حتىٰ لا يُرَدَّ عليه قولٌ ، ولا يُخلَفَ بذمٍّ .

وقد قال بعض البلغاء : (**ليكنْ مرجعُك إلى الحقِّ** ، ومنزعُك إلى الصدق ؛ **فالحقُّ أقوىٰ مُعين** ، والصدقُ أفضلُ قرين)[1] .

وقال بعض الشعراء[2] : [من البسيط]

عَوِّدْ لسانَكَ قولَ الصِّدقِ تَحظَ بِهِ ... إنَّ اللِّسانَ لِما عوَّدْتَ مُعتادُ

مُوَكَّلٌ بتقاضي ما سَنَنْتَ لَهُ ... فاحتَلْ لنفسِكَ وانظُرْ كيفَ تَرتادُ

***

وأمّا دواعي الكذب :

فمنها : اجتلاب النفع ، واستدفاع الضرر ، **فيرىٰ أنَّ الكذب أسلمُ وأغنمُ** ، فيرخِّص لنفسه فيه ؛ اغتراراً بالخدع ، واستشفافاً للطمع ، **وربَّما كان الكذبُ أبعدَ لما يأمُلُ** ، وأقربَ لما يخافُ ؛ **لأنَّ القبيحَ لا يكون حسناً** ، والشرَّ لا يصير خيراً ، **وليس يُجنىٰ من الشوك العنبُ** ، ولا من الكَرْم الحنظلُ .

وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **تحرَّوُا الصِّدقَ** وإنْ رأيتُمْ أنَّ فيه الهَلَكَةَ ؛ **فإنَّ فيه النَّجاةَ** ، **وتجنَّبُوا الكَذِبَ** وإنْ رأيتُمْ أنَّ فيه النَّجاةَ ؛ **فإنَّ فيه الهَلَكَةَ** »[3] .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (**لأنْ يضعَني الصِّدقُ** وقلَّما يفعلُ . . **أحبُّ إليَّ من أن يرفعَني الكذبُ** وقلّما يفعلُ) .

---

(١) أورده في « لباب الآداب » (ص ٥٥) .

(٢) أورد البيتين في « الجليس الصالح » (١/ ٥٨٤) ، و« روضة العقلاء » (١/ ٢٣٣) ، وفي غير (أ) : (في الخير والشر فانظر كيف ترتاد) ، **والتقاضي** : طلب الدَّين ، **والسنة** : الطريقة والطبيعة والجبلة ، **والارتياد** : الطلب ؛ فاللسان يطلب ما عودته ، وقال يحيى بن خالد : رأينا شارب خمر نزع ، ولصاً أقلع ، وصاحب فواحش رجع ، ولم نر كذاباً صار صادقاً !!

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (١٣٧) ، وهناد في « الزهد » (١٣٧٥) مرسلاً .

وقال بعض الحكماء : (**الصدقُ مُنجِيكَ** وإنْ خفتَه ، **والكذبُ مُردِيك** وإنْ أمنتَه)[1] .

وقال الجاحظ : (**الصدقُ والوفاءُ** توءمان ، **والصبرُ والحِلمُ** توءمان ، فيهنَّ تمامُ كلِّ دِين ، وصلاحُ كلِّ دنيا ، **وأضدادُهنَّ سببُ كلِّ فرقة** ، **وأصلُ كلِّ فساد**)[2] .

ومنها : أن يؤثِرَ أن يكون حديثُه مستغرَباً ، وكلامه مستظرَفاً ، **فلا يجد صدقاً يُغرِب** ، **ولا حقّاً يُطرِب** ، فيستملُّ الكذبَ الذي ليست غرائبه معوزةً ، ولا طرائقه معجِزةً .

وهـٰذا النوع أسوأ حالاً ممّا قبل ؛ لأنه يصدر عن مهانة النفس ، ودناءة الهمّة ، وقد قال الجاحظ : (**لم يكذب أحدٌ قطُّ إلا لصِغَر قدر نفسه عنده**)[3] .

وقال ابن المقفَّع : (**لا تَهاونَنَّ بإرسال الكَذْبة من الهزل ؛ فإنَّها تُسرعُ إلىٰ إبطال الحقِّ**)[4] .

ومنها : أن يقصد بالكذب التَّشفِّيَ من عدوٍّ ، **فيشتمه بقبائحَ يتخرَّصُها عليه** ، ويصِمُه بفضائحَ ينسُبُها إليه ، ويرىٰ أنَّ **معرّة الكذب غُنمٌ** ، وأنَّ **إرسالَها في العدوِّ سهمٌ وسَمٌّ** .

وهـٰذا **أسوأُ حالاً من النوعين الأوّلين** ؛ لأنَّه قد جمع بين الكذب المُعِرِّ ، والشرِّ المُضِرِّ ؛ ولذلك ورد الشرعُ بردِّ شهادة العدوِّ علىٰ عدوِّه .

---

(١) أورده في « نهاية الأرب » (٣/ ٣٦٠) .

(٢) المعاش والمعاد (١/ ١٢٥) ضمن « رسائل الجاحظ » .

(٣) المعاش والمعاد (١/ ١٢٤) ضمن « رسائل الجاحظ » .

(٤) الأدب الكبير (ص ٢٥٨) ضمن « آثار ابن المقفع » .

ومنها : أن تكون دواعي الكذب قد ترادفت عليه حتّىٰ أَلِفَها ، **فصار الكذبُ له عادةً ، ونفسُه إليه منقادةً** ، حتّىٰ لو رام مُجانبةَ الكذب . . عسر عليه ؛ **لأنَّ العادةَ طبعٌ ثانٍ** .

وقد قالت الحكماء : (**مَنِ استحلىٰ رَضاعَ الكذب . . عسر فِطامُه**)[1] .

وقيل في منثور الحكم : (**لا يلزم الكذبُ شيئاً إلا غلبَ عليه**)[2] .

واعلم : أنَّ للكذّاب قبل خبرته أماراتٍ دالّةً عليه :

فمنها : أنك إذا لقَّنته الحديث . . تلقَّنه ، ولم يكن بين ما لقَّنته وبين ما أورده فرقٌ عنده .

ومنها : أنك إذا شكَّكتَه فيه . . تشكَّك ، حتّىٰ يكادَ أن يرجعَ فيه ، ولولاك . . ما تخالجه الشكُّ فيه .

ومنها : أنك إذا ردَّدتَ عليه قولَه . . حصِرَ وارتبكَ ، ولم يكن عنده نصرةُ المحتجِّين ، ولا برهانُ الصادقين ؛ ولذلك قال علي بن أبي طالب عليه السلام : (**الكذّابُ كالسَّراب**)[3] .

ومنها : ما يظهر عليه من ريبة الكذَّابين ، وينُمُّ عليه من ذِلّة المتهومين ؛ لأنَّ هٰذه أمورٌ لا يمكن الإنسانَ دفعُها عن نفسه ؛ لما في الطبع من إثارتها ، ولذلك قالت الحكماء : (**العينان أنمُّ من اللسان**)[4] .

وقال بعض البلغاء : (**الوجوهُ مرايا تُريكَ أسرارَ البرايا**) .

---

(١) أورده في « محاضرات الأدباء » (١/ ٢٤٨) .

(٢) أورده في « المعمَّرون والوصايا » (ص ٢٣) ، و« جمهرة الأمثال » (١/ ٤٠٢) من قول أكثم بن صيفيّ رحمه الله تعالىٰ .

(٣) أورده في « شرح نهج البلاغة » (١٨/ ١٥٧) ، و« التذكرة الحمدونية » (١/ ٣٦٢) ، والمعنىٰ : أنك كلما تقربت منه . . تباعد عنك .

(٤) أورده في « التذكرة الحمدونية » (٣/ ١٥٥) ، و« بهجة المجالس » (٢/ ١٨١) من قول خالد بن صفوان ؛ فالعينان تفشيان ما كتمه من الريب ، ولذلك قيل : لا شاهد علىٰ غائب أعدل من طرفٍ علىٰ قلب .

وقال بعض الشعراء[1] : [من البسيط]

تُرِيكَ أعيُنُهُمْ ما في صُدُورِهِمُ إنَّ العُيُونَ يؤدِّي سِرَّها النَّظَرُ

وإذا اتَّسمَ بالكذب . . نُسِبت إليه شواردُ الكذب المجهولة ، وأُضِيفت إلىٰ أكاذيبه زياداتٌ مفعولة ؛ حتّىٰ يصيرَ الكاذبُ مكذوباً عليه ، فيجمع بين مَعرَّة الكذب منه ، ومَضرَّة الكذب عليه .

وقد قال الشاعر[2] : [من مجزوء الكامل]

حَسْبُ الكَذُوبِ مِنَ البَلِيَّـ ـةِ بعضُ ما يُحكىٰ عليهِ
ما إنْ سمِعْتَ بكِذْبةٍ مِن غيرِهِ نُسِبَت إلَيهِ

ثم إن تحرَّى الصدقَ . . اتُّهِمَ ، وإن جانبَ الكذب . . أُكذِبَ ؛ حتّىٰ لا يُعتقدَ له حديثٌ مصدَّقٌ ، ولا كذبٌ مستنكَرٌ .

قال الشاعر[3] : [من الطويل]

إذا عُرِفَ الكَذّابُ بالكِذْبِ لم يكَدْ يُصدَّقُ في شيءٍ وإنْ كان صادِقا
ومن آفةِ الكَذّابِ نِسيانُ كِذْبِهِ وتَلقاهُ ذا حفظٍ إذا كان حاذِقا

وقد وردت السُّنَّة بإرخاص الكذب في الحرب ، وإصلاح ذات البَين ، علىٰ وجه التورية والتأويل دون التصريح به ؛ فإنَّ السنة لا يجوز أن ترِدَ بإباحة الكذب ، لما فيه من التنفير ، وإنَّما ذلك علىٰ طريق التورية والتعريض ؛ كما سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تطرَّف بَدْراً وانفرد عن أصحابه ، فقال له رجلٌ : ممَّن أنتَ ؟ فقال : « من ماءٍ »[4] .

---

(١) البيت لمجنون ليلىٰ في « ديوانه » (ص ١٣٥) ؛ وفيه : (إنَّ الصدورَ يؤدِّي غيبهَا النظرُ) .
(٢) أورد البيتين في « عيون الأخبار » (٢/ ٢٨) ، و« البصائر والذخائر » (٩/ ١٤١) .
(٣) البيتان لمحمود الورّاق في « ديوانه » (ص ١٥٢) ؛ وفيه : (بالكذب لم يكنْ لدى الناسِ ذا صدقٍ) .
(٤) أورده ابن هشام في « السيرة النبوية » (١/ ٦١٥) ، و« عيون الأخبار » (١/ ١٩٤) .

فورّىٰ عن الإخبار بنسَبِهِ بأمرٍ محتمل ، فظنَّ السائل أنه عنى القبيلة المنسوبة إلىٰ ذلك ، وإنَّما أراد رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : **أنَّه من الماء الذي يُخلَق منه الإنسان** ، فبلغ ما أحبَّ من إخفاء نسبه ، وصدق في خبره صلى الله عليه وسلم .

وكالذي حُكي عن أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه أنَّه كان يسير خلفَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم حين هاجر معه ، فتلقّاه العربُ وهم يعرفون أبا بكر ، ولا يعرفون رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فيقولون : **يا أبا بكر ؛ مَن هٰذا** ؟ فيقول : (**يهديني السبيلَ**)[1] ، فيظنُّون أنه يعني : **هداية الطريق** ؛ وهو إنَّما يريد سبيل الخير ، فيصدق في قوله ، ويُورِّي عن مراده .

وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **إنَّ في المَعاريضِ لَمَندُوحةً عنِ الكذِبِ** »[2] .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (إنَّ في المَعاريضِ ما يكفي **أن يعفَّ الرجلُ عن الكذبِ**)[3] .

وقال بعض أهل التأويل في قوله تعالىٰ : ﴿ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ ﴾ : (إنَّه لم ينسَ ؛ **ولٰكنَّه معاريضُ الكلام**)[4] .

وقال ابن سيرين : (**الكلامُ أوسعُ من أن يُصرَّح فيه بالكذب**)[5] .

واعلم : أنَّ من الصدق ما يقوم مقامَ الكذب في القبح والمَعرّة ، **ويزيد عليه في الأذىٰ والمَضرّة** ؛ وهو : الغِيبةُ ، والنَّميمةُ ، والسِّعايةُ .

---

(١) رواه البخاري (٣٩١١) عن سيدنا أنس رضي الله عنه .

(٢) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٠/١٩٩) ، والشهاب في « مسنده » (١٠١١) عن سيدنا عمران بن حصين رضي الله عنهما ، **والمعاريض** ـ جمع معراض ـ : وهو التورية وإرادة غير الظاهر المتبادر من الكلام ، **والمندوحة** : السَّعة والفسحة ، **والمراد** : أن المعاريض يستغني بها الرجل عن الكذب .

(٣) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٨٨٤) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٦٦١٩) .

(٤) رواه الطبري في « تفسيره » (٩/ ١٥/ ٣٤٦) عن سيدنا أُبيّ بن كعب الأنصاريّ رضي الله عنه .

(٥) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٤٥٥٥) ، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (٢/ ٢٦٤) .

فأمّا الغِيبةُ : فإنَّها خيانة وهَتْكُ سِتر ، يحدُثان عن حسدٍ وغَدر .

قال الله تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ يعني : أنه كما لا يحلُّ لحمُه ميتاً . . لا تحلُّ غِيبتُه حيّاً .

ورُوي أنَّ امرأتين صامتا علىٰ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجعلتا تغتابان الناس ، فأُخبر بذلك النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، فقال : « صامَتا عمّا أُحِلَّ لهما ، وأفطرَتا علىٰ ما حُرِّمَ عليهما »[1] .

وروت أسماء بنت يزيد قالت : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « مَن ذَبَّ عن لحمِ أخيهِ بظَهْرِ الغيبِ . . كان حقّاً على الله تعالىٰ أنْ يُحرِّمَ لَحمَهُ على النارِ »[2] .

وقال عديُّ بن حاتم : (الغيبةُ رعيُ اللِّئام)[3] .

وكان الحسن البصري يقول : (الغِيبةُ فاكهةُ النُّسَّاكِ)[4] .

وقال رجلٌ لابن سيرين : (إنّي اغتبتُكَ ، فاجعَلْني في حِلٍّ ؟ فقال : ما أحبُّ أن أحلَّ لك ما حرَّم الله عليكَ)[5] .

وقال ابن السَّمّاك : (لا تُعِنِ الناسَ علىٰ عَيبِكَ بسوء غَيبِكَ) .

وقال الشاعر[6] : [من البسيط]

لا تلتمِسْ من مَساوِي الناسِ ما سَتَروا ... فيَهتِكَ اللهُ سِتْراً مِنْ مَساوِيكا
واذكُرْ مَحاسِنَ ما فيهم إذا ذُكِروا ... ولا تعِبْ أحداً منهُمْ بما فيكا

---

(١) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (١٥٧٦) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤/ ٢٧٥) عن سيدنا عبيد مولىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنه ، وكما قال الزمخشري : (أتزعم أنك صائم وفي لحم أخيك سائم ؟!) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٨٧) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٧٢٣٦) .

(٣) أورده في « بهجة المجالس » (١/ ٣٩٨) .

(٤) أورده في « الجليس الصالح » (١/ ٢٧٦) ، ورواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٦٣٦٠) من قول فضيل بن عياض رحمه الله تعالىٰ ، وفيهما : (فاكهة القراء) ، وفي (ب) : (فاكهة النساء) .

(٥) رواه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (١٩٠) ، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (٢/ ٢٦٣) .

(٦) البيتان لمحمود الورّاق في « ديوانه » (ص ١٥٨) .

وربَّما أعذر المغتابُ نفسَه بأنَّه يقول حقّاً ، ويُعلن فسقاً ، ويستشهد بما رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ثلاثةٌ ليسَتْ غِيبتُهُمْ بغِيبةٍ : الإمامُ الجائرُ ، وشاربُ الخَمْرِ ، والمُعلِنُ بفِسْقِهِ »[1] ، فيبعد من الصواب ، ويجانب الأدب ؛ لأنه وإن كان بالغيبة صادقاً . . فقد هتك سِتراً كان بصَونه أَولىٰ ، وجاهرَ مَنْ أسرَّ وأخفىٰ .

وربَّما دعا المغتابَ ذلك إلىٰ إظهار ما كان يستره ، والمجاهرة بما كان يضمره ، فلم يفِدْه ذلك إلا فسادَ أخلاقه من غير أن يكون فيه صلاحٌ لغيره .

وقد قيل لأنوشروان : (ما الذي لا خيرَ فيه ؟ قال : ما ضرَّني ولم ينفَعْ غيري ، أو ضرَّ غيري ولم ينفعْني ، لا أعلمُ فيه خيراً) .

وقيل في منثور الحكم : (لا تُبدِ من العيوب ما ستره علاَّمُ الغيوب) .

وقد روى العلاء بن عبد الرحمـٰن ، عن أبيه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغِيبة ، فقال : « هو أنْ تقولَ لأخيكَ ما فيه ؛ فإنْ كنتَ صادقاً . . فقد اغتبْتَه ، وإنْ كنتَ كاذباً . . فقد بَهَتَّه »[2] .

وقال عبد الرحمـٰن بن زيد في قوله تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾ : (إنه استهزاءُ المسلم بمَن أعلن بفسقه)[3] .

ودخلتِ امرأةٌ على النبيِّ صلى الله عليه وسلم تستفتيه ، فلمَّا خرجت . . قالت عائشة رضي الله تعالىٰ عنها : يا رسولَ اللهِ ؛ ما أقصرَها !! فقال : « مَهْلاً ، إيَّاكِ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت » (٢٢٣) من قول إبراهيم النخعيّ رحمه الله تعالىٰ ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٦٣٧٤) من قول ابن عيينة رحمه الله تعالىٰ ؛ وفيه : (المبتدع) بدل : (شارب الخمر) .

(٢) رواه مسلم (٢٥٨٩) ، وأبو داوود (٤٨٧٤) ، والترمذي (١٩٣٤) ؛ وفيه : (ذكرك أخاك بما يكره) .

(٣) رواه الطبري في « تفسيره » (١٣/٢٦/ ١٦٠) .

والغِيبةَ » قالت : يا رسولَ اللهِ ؛ إنَّما قلتُ ما فيها ، قال : « **أجَلْ ، ولولا ذلكَ . . لَكانَ بُهتاناً** »[1] .

وسُئل بعض الأدباء عن صفة اللئيم ، فقال : (**اللئيمُ إذا غاب . . عاب ، وإذا حضر . .** اغتاب)[2] .

فأمّا الخبرُ . . فمحمولٌ على الإنكار لأفعال هٰؤلاء ، ولا يكون الإنكار غِيبةً ؛ لأنه نهيٌ عن منكَر ، **وفرق بين إنكار المجاهر** ، وغيبة المساتر .

وأمّا النَّميمةُ : **فهي تجمعُ إلىٰ مَذمّة الغِيبة** رداءةً وشرّاً ، **وتضمُّ إلىٰ لؤمها دناءةً وغدراً ، ثم تؤول إلىٰ** تقاطع المتواصلين ، وتباعد المتقاربين ، وتباغض المتحابِّين .

وقد روىٰ شهرُ بن حَوْشَب ، عن أسماءَ بنت يزيدَ ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « **ألا أُخبِرُكُمْ بشِرارِكُمْ ؟** » قالوا : بلىٰ يا رسولَ الله ، قال : « مِن شِرارِكُمُ : المَشّاؤُونَ بالنَّميمةِ ، المُفسِدُونَ بينَ الأحبّةِ ، الباغُونَ العُيُوبَ »[3] .

وروىٰ محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « **ملعونٌ ذو الوجهَين ، ملعونٌ ذو اللِّسانَينِ ، ملعونٌ كلُّ شَقّارٍ ، ملعونٌ كلُّ قَتّاتٍ ، ملعونٌ كلُّ مَنّانٍ** »[4] .

الشَّقّارُ : المُحرِّش بين الناس يُلقي بينهم العداوةَ والبغضاءَ .

والقَتّات : النَّمّام . وقيل : إنَّ النَّمّام : هو الذي يكون مع القوم يتحدَّثون ،

---

(١) رواه ابن وهب في « الجامع » (٥٥٨) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت » (٢٠٨) بنحوه .

(٢) أورده في « غرر الخصائص » (٣٨٧) .

(٣) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٣٢٣) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (١٠٥٩٦) ؛ وفيه : (الباغون البُرَآءَ العَنَتَ) .

(٤) أورده في « سراج الملوك » (٢/٦١٣) ، و« المستطرف » (١/٢٧٧) ؛ وفيه وفي (هـ) : (شَغّاز) ، والشَّغْزُ : الإغراء بين القوم ، وفي (ج ، د) : (شَغّار) ، يقال : اشتغرت الحرب بين الفريقين إذا اتسعت وعظمت .

فينُمُّ حديثَهم ، **والقَتّات** : هو الذي يتسمَّعُ علىٰ قومٍ وهم لا يعلمون ، فينُمُّ حديثَهم ، **والمَنّان** : الذي يعمل الخيرَ ويمنُّ به .

وقيل في منثور الحكم : (**النَّميمةُ سيفٌ قاتلٌ**)[1] .

وقال بعض الأدباء : (**لم يمشِ ماشٍ شرٌّ من واشٍ**)[2] .

وأمّا السِّعاية : **فهي** شرُّ الثلاثة[3] ؛ **لأنَّها تجمع إلىٰ** مَذمّة الغِيبة ولؤم النَّميمة **التغريرَ بالنفوس** والأموال ، **والقدحَ في المنازل** والأحوال .

روى ابن قتيبة أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « **الجنّةُ لا يدخلُها دَيبُوبٌ ، ولا قَلّاعٌ** »[4] .

فالدَّيبُوب : الذي يجمع بين الرجال والنساء ، سُمِّي بذلك **لأنَّه يدبُّ بينهم** .

والقَلّاع : هو الساعي الذي يقع في الناس عند الأمراء ، سُمِّي قَلّاعاً **لأنَّه يأتي الرجل المتمكِّن** عند الأمير ، فلا يزال يقع فيه حتىٰ يقلعَه .

وقال بعض الحكماء : (الساعي بين منزلتين قبيحتين ؛ **إمّا أن يكون صدق** . . فقد خان الأمانة ، **وإمّا أن يكون قد كذب** . . فخالف المروءة)[5] .

---

(١) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٥٥) .

(٢) أورده في « نهاية الأرب » (٣/ ٢٩٣) .

(٣) قال في « منهاج اليقين » (ص٤٤١) : (وقد وُجد في حكم القدماء : **أبغض الناس المثلث** ، قال الأصمعي : هو الذي يسعىٰ بأخيه إلى السلطان فيُهلك نفسه وأخاه وإمامه !!) .

(٤) أورده في « النهاية في غريب الحديث » (٢/ ٩٦) ، و« سراج الملوك » (٢/ ٦١٥) ؛ وفي النسخ ما عدا (أ) : (لا يدخلها ديوث) وهما بمعنىً .

(٥) في هامش (د) : (وحُكي : أن رجلاً جاء إلىٰ عبيد الله ابن زياد ، وقال له : إنَّ فلاناً سبَّكَ ، [فأحضر] الرجل ، وقال له : إنك سببتَني وهـٰذا يسمعُ ، فقال المسعيُّ به للساعي : [من الطويل]

وأنتَ امرؤٌ إمّا ائتمنتُكَ خالياً ... فخُنتَ وإمّا قلتَ قولاً بلا علمِ
فأنتَ من الأمرِ الذي كان بيننا ... بمنزلةٍ بينَ الخيانةِ والإثمِ)

والخبر أورده في « عيون الأخبار » (١/ ٤١) ، و« تاريخ دمشق » (٣٣/ ٣٥٩) عن ابن زياد ، ورواه في « روضة العقلاء » (٢/ ٦٨٣) عن زياد ابن أبيه ، والمسعيُّ به : عبد الله بن همّام السلوليّ .

وقال بعض حكماء الفرس : (**الصدقُ يَزينُ كلَّ أحد إلا السُّعاةَ** ؛ فإنَّ الساعيَ أذمُّ وآثَمُ ما يكون إذا صدق)[1] .

وقال بعض البلغاء : (**النَّميمةُ دَناءةٌ ، والسِّعاية رَداءةٌ** ، وهما رأسُ الغدر ، وأساسُ الشرِّ ، فتجنَّبْ سبيلَهما ، واجتنِبْ أهلَهما) .

ووقَّع الفضلُ بنُ سهل علىٰ قصّةِ ساعٍ سعىٰ إليه في رجل : (**نحن نرىٰ قبولَ السِّعاية شرّاً منها** ؛ لأنَّ السِّعاية دلالةٌ ، والقبولَ إجازةٌ ، **فاتَّقوا الساعيَ** ؛ فإنَّه إن كان في سِعايته صادقاً . . كان في صدقه آثماً ؛ إذ لم يحفظ الحُرمةَ ، ويستر العورةَ)[2] .

وقال الإسكندر لساعٍ سعىٰ إليه برجلٍ : (أتحبُّ أن نقبل منك ما تقول فيه **علىٰ أن نقبل منه ما يقول فيك** ؟ قال : لا ، قال : **فكفَّ عن الشرِّ . . يكفَّ عنك الشرُّ**)[3] .

وحكي : أن الله سبحانه وتعالىٰ أوحىٰ إلىٰ موسىٰ عليه الصلاة والسلام : (**إنَّ في بلدك ساعياً** ، ولست أمطرُك وهو في أرضك !! قال : يا ربِّ ؛ **دُلَّني عليه حتّىٰ أخرِجَه** ، فقال : **يا موسىٰ ؛ أكرهُ النَّميمةَ وأنُمُّ ؟!**)[4] .

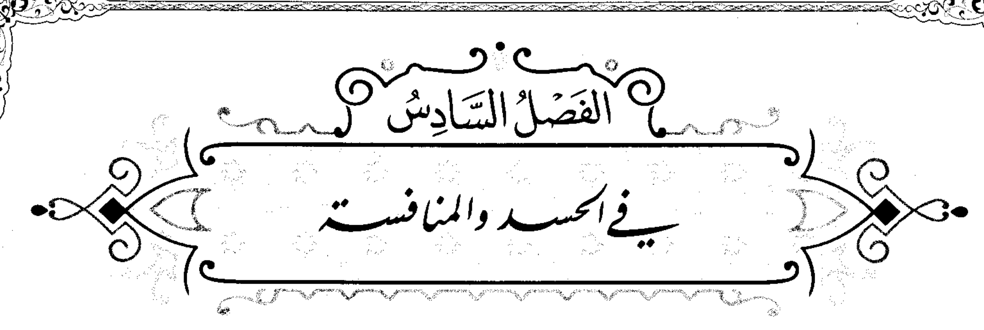
---

(١) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (١٧١٩/م) ، والخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٢٢٧) .

(٢) أورده في « عيون الأخبار » (٢/٢٣) ، و« التذكرة الحمدونية » (٣/١٥٧) ، ورواه في « حلية الأولياء » (٩/١٢٢) من قول الإمام الشافعي رضي الله عنه .

(٣) أورده في « عيون الأخبار » (٢/٢٤) ، و« العقد الفريد » (٢/٣٣٣) .

(٤) أورده ابن قدامة المقدسيّ في « التوّابين » (ص ٨٠) .



الفصل السادس

في الحسد والمنافسة

اعلم : أنَّ الحسد خُلقٌ ذميمٌ مع إضراره بالبدن ، وإفساده الدِّين ؛ حتّىٰ لقد أمر الله تعالىٰ بالاستعاذة من شرِّه ، فقال تعالىٰ : ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ وناهِيكَ بحال ذلك شرّاً .

ورُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « دَبَّ إليكُمْ داءُ الأُمَمِ قبلَكُمْ البَغضاءُ والحَسَدُ ، وهي الحالقةُ حالقةُ الدِّينِ ، لا حالقةُ الشَّعرِ ، والذي نفسُ محمَّدٍ بيده ؛ لا تُؤمِنُوا حتّىٰ تَحابُّوا ، ألا أنبِّئُكُمْ بأمرٍ إذا فعَلْتُمُوهُ . . تحابَبْتُمْ ؟ أَفشُوا السَّلامَ بينَكُمْ »[1] .

فأخبر صلى الله عليه وسلم بحال الحسد ، وأنَّ التَّحابُب ينفيه ، وأنَّ السَّلام يبعث على التَّحابُب ، فصار السَّلام إذاً نافياً للحسد ، وقد جاء كتاب الله تعالىٰ بما يوافق هـٰذا القولَ ، قال الله تعالى : ﴿ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴾ قال مجاهد : (إنَّ معناه : ادفع بالسَّلام إساءةَ المسيء)[2] .

وقال الشاعر[3] : [من البسيط]

قد يلبَثُ النّاسُ حِيناً ليسَ بينَهُمُ ... وُدٌّ فيزرعُهُ التَّسليمُ واللَّطَفُ

وقال بعض السَّلف : (الحسدُ أوّلُ ذنبٍ عُصيَ الله تعالىٰ به في السماء ؛ يعني : حسدَ إبليسَ لآدمَ عليه الصلاة والسلام ، وأوّلُ ذنبٍ عُصيَ الله تعالىٰ به في

---

(١) رواه الترمذي (٢٥١٠) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٠/ ٢٣٢) عن سيدنا الزبير بن العوّام رضي الله عنه .

(٢) رواه الطبري في « تفسيره » (١٢/ ٢٤/ ١٤٦) ، وعبد الرزاق في « المصنف » (٢٠٢٢٥) .

(٣) أورد البيت في « المحاسن والأضداد » (ص ٣٩) ، ونسبه ابن النجار في « ذيل تاريخ بغداد » (٢٠/ ٦٩) لأبي حفص الشطرنجيّ .

الأرض ؛ يعني : حسدَ قابيلَ ابنِ آدمَ لأخيه حتّىٰ قتله)[1] .

وقال بعض الحكماء : (مَن رضي بقضاء الله تعالىٰ .. رضي الله عنه ولم يُسخِطْه أحدٌ ، ومَن قنع بعطائه .. لم يدخله حسدٌ)[2] .

وقال بعض البلغاء : (الناس حاسدٌ ومحسودٌ ، ولكلِّ نعمةٍ حَسودٌ) .

وقال بعض الأدباء : (ما رأيتُ ظالماً أشبهَ بمظلومٍ من الحَسود ؛ نفَسٌ دائم ، وهمٌّ لازم ، وقلبٌ هائم)[3] .

فأخذه بعض الشعراء فقال : [من المنسرح]

إنَّ الحَسُودَ الظَّلُومَ في كُرَبٍ ... يَخالُهُ مَن يَراهُ مَظلُوما
ذا نَفَسٍ دائمٍ علىٰ نَفَسٍ ... يُظهِرُ منهُ ما كان مَكتُوما

ولو لم يكن من ذمِّ الحسد إلا أنَّه خُلقٌ دنيءٌ يتوجَّه نحو الأكفاء والأقارب ، ويختصُّ بالمُخالِط والمُصاحِب .. لكانت النَّزاهة عنه كَرماً ، والسَّلامة منه مَغنَماً ، فكيف وهو بالنفس مُضِرٌّ ، وعلى الهمِّ مصِرٌّ ؛ حتّىٰ ربَّما أفضىٰ بصاحبه إلى التَّلف من غير نِكايةٍ بعدوٍّ ، ولا إضرار بمحسود ؟!

وقال معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه : (ليس في خِصال الشرِّ أعدلُ من الحسد ، يقتلُ الحاسدَ قبل أن يصل إلى المحسود)[4] .

وقال بعض الحكماء : (يكفيك من الحسود : أنْ يغتمَّ وقتَ سرورك)[5] .

وقيل في منثور الحكم : (عقوبةُ الحاسد من نفسه)[6] .

---

(١) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٦٥٩) من قول ابن عيينة رحمه الله تعالىٰ ، وأورده في « عيون الأخبار » (٢/ ١١) .

(٢) أورده في « المستطرف » (١/ ٨٦) .

(٣) أورده في « الموشىٰ » (ص ٥) ، ورواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٦٢١١) من قول الخليل بن أحمد رحمه الله تعالىٰ .

(٤) أورده المبرّد في « الفاضل » (ص ١٠٠) ، و« بهجة المجالس » (١/ ٤١٤) .

(٥) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٢٩) من قول سيدنا عثمان رضي الله عنه ، وفي « المستطرف » (٢/ ٥١) من قول سيدنا عمر رضي الله عنه .

(٦) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٥٢) .

وقال الأصمعيُّ : (قلت لأعرابيٍّ : ما أطولَ عمرَكَ !! فقال : **تركتُ الحسدَ فبقيتُ**)[1] .

وقال رجلٌ لشُرَيح القاضي : (**إنِّي لأحسدُك علىٰ ما أرىٰ من صبرك على الخصوم** ، ووقوفك علىٰ غامض الحُكم ، فقال : **ما نفعك اللهُ بذلك ، ولا ضرَّني**)[2] .

وقال عبد الله بن المعتزّ[3] : [من مجزوء الكامل]

اصبِـرْ علـىٰ كَيْـدِ الحَسُـو ... دِ فـإنَّ صَبْـرَكَ قـاتِلُـهْ
النّـارُ تـأكُـلُ بعضهـا ... إنْ لـم تجِـدْ مـا تـأكُلُـهْ

وحقيقةُ الحسد : شدّةُ الأسىٰ على الخير أن يكونَ للناس الأفاضل ، وهو غيرُ المنافسة .

وربَّما غلط قومٌ فظنُّوا أن **المنافسة في الخير هي الحسد** ، وليس الأمرُ كما ظنُّوا ؛ لأنَّ المنافسةَ طلبُ التشبُّه بالأفاضل من غير إدخال ضررٍ عليهم ، **والحسدَ مصروفٌ إلى الضرر** ؛ لأنَّ غايته أن يعدم الفاضلُ فضلَه من غير أن يصيرَ الفضل له ، **فهٰذا هو الفرق بين المنافسة والحسد** .

فالمنافسة إذاً فضيلةٌ ؛ لأنَّها داعيةٌ إلى اكتساب الفضائل ، والاقتداء بالأخيار والأفاضل .

وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **المؤمنُ يَغبِطُ ، والمنافقُ يحسُدُ** »[4] .

---

(١) رواه في « الطيوريّات » (٤٤٥) ، و« المجالسة وجواهر العلم » (٦٦٠) .
(٢) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٤/ ١٣٧) .
(٣) البيتان في « ديوانه » (٢/ ٤٠٣) .
(٤) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٨/ ٩٥) من قول الفضيل بن عياض رحمه الله تعالىٰ .

وقال الشاعر[1] : [من السريع]

نافِسْ على الخَيراتِ أهلَ العُلا ... فإنَّما الدُّنيا أحاديثُ
كلُّ امرئٍ في شأنِهِ كادحٌ ... فوارثٌ منهُمْ ومورُوثُ

واعلم : أن دواعيَ الحسد ثلاثة :

أحدها : بغض المحسود ، فيأسىٰ عليه بفضيلةٍ تظهر ، أو منقبةٍ تشكر ، فيثير حسداً قد خامر بُغْضاً .

وهٰذا النوع لا يكون عامّاً وإن كان أضرَّها ؛ **لأنه ليس يبغضُ كلَّ الناس** .

والثاني : أن يظهر من المحسود فضلٌ يعجز عنه الحاسد ، فيكره تقدُّمَه فيه ، واختصاصَه به ، فيثير ذلك حسداً لولاه . . لكفَّ .

وهٰذا أوسطُها ؛ لأنَّه لا يحسد الأكفاءَ ومَن دنا ، **وإنَّما يختصُّ بحسد مَن علا** ، وقد يمتزج بهٰذا النوع ضربٌ من المنافسة ؛ ولٰكنَّها مع عجز ، **فلذلك صارت حسداً** .

والثالث : أن يكونَ في الحاسد شحٌّ بالفضائل ، وبخلٌ بالنِّعَم ، **وليست إليه فيمنعَ منها ، ولا بيده فيدفعَ عنها** ؛ **لأنَّها مواهبُ قد منحها الله تعالىٰ مَن شاء** ، فيسخطُ على **الله تعالىٰ** في قضائه ، ويحسد علىٰ ما منح من عطائه وإن كانت **نِعَمُ الله تعالىٰ** عنده أكثرَ ، ومِنَحُه عليه أظهرَ .

وهٰذا النوع من الحسد أعمُّها وأخبثُها ؛ إذ ليس لصاحبه راحةٌ ، ولا لرضاه غايةٌ ؛ **فإن اقترن بشرٍّ وقدرة** . . كان بَواراً وانتقاماً ، **وإن صادف عجزاً ومَهانة** . . كان كَمَداً وسَقاماً .

وقد قال عبد الحميد : (**الحسود من الهمِّ كساقي السمِّ ، فإذا سرىٰ سمُّه . . سُرِّي عنه همُّه**) .

---

(١) أورد البيتين في « البيان والتبيين » (٢/ ١٠٤) .

واعلم : أنَّ بحسَب فضائل الإنسان وظهور النعمة عليه يكون حسدُ الناس له ؛ **فإن كثر فضلُه . . كثر حُسّادُه ، وإن قلَّ . . قلُّوا** ؛ لأنَّ ظهور الفضل يثير الحسد ، وحدوثَ النعمة يُضاعف الكَمَد ؛ ولذلك قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « **استعِينُوا علىٰ قضاء الحوائج بسَتْرِها ؛ فإنَّ كلَّ ذي نِعمةٍ محسودٌ** »[1] .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (**ما كانت لله علىٰ أحدٍ نعمةٌ إلا وجد لها حاسداً** ، ولو كان الرجلُ أقومَ من القِدْح . . لَما عدم غامزاً)[2] .

وقد قال الشاعر[3] : [من البسيط]

إنْ يحسُدُوني فإنِّي غيرُ لائمِهِمْ ... قبلي منَ النّاسِ أهلُ الفضلِ قد حُسِدُوا

فدامَ لي ولهُمْ ما بي وما بِهِمُ ... وماتَ أكثرُنا غيظاً بما يَجِدُ

وربَّما كان الحسد منبِّهاً علىٰ فضل المحسود ، ونقص الحسود ؛ كما قال أبو تمام الطائي[4] : [من الكامل]

وإذا أرادَ اللهُ نَشْرَ فَضيلةٍ ... طُوِيَتْ أتاحَ لها لسانَ حَسُودِ

لولا اشتعالُ النارِ فيما جاورَتْ ... ما كان يُعرَفُ طِيبُ عَرْف العُودِ

لولا التَّخوُّفُ للعواقبِ لم تَزَلْ ... للحاسدِ النُّعْمىٰ على المَحسُودِ

فأمّا ما يستعمله مَن كان الحسدُ عليه غالباً ، وكان طبعُه إليه مائلاً ؛ لينتفيَ عنه فيُكفاه ، ويسلمَ من ضرره وعَدْواه . . **فأمورٌ هي له حَسمٌ** ، إن صادفها عَزمٌ .

---

(١) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٦٢٢٨) ، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (٥/ ٢١٥) عن سيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه ؛ وفيه وفي (ب ، د) : (الحوائج بالكتمان) .

(٢) رواه في « جمهرة الأمثال » (١/ ٤٠٢) ، و« روضة العقلاء » (٢/ ٥٣٨) ، **والقِدْحُ** : السهم المُقوَّم قبل أن يُراشَ ويُنصَلَ .

(٣) البيتان لبشار بن برد في « ديوانه » (٣/ ٩٥) ، ونسبهما في « بهجة المجالس » (١/ ٤١٣) للبيد بن عطارد بن حاجب التميميّ .

(٤) الأبيات في « ديوانه » (١/ ٣٩٧) ؛ وفي (أ) : (طيب نشر العود) ، **والعَرف** : الرائحة طيبة كانت أو خبيثة ؛ ولذا أضيف إلى الطيب ، **يعني** : كما يتضوع رائحة العود بالنار . . كذلك تنتشر الفضيلة بلسان الحسود .

منها : اتِّباع الدِّين في اجتنابه ، والرجوع إلى الله تعالىٰ في ندبه وآدابه ، **فيقهر نفسه علىٰ مذموم خُلقها** ، وينقلها عن لئيم طبعها وإن كان نقلُ الطباع عسراً ؛ لـكنْ بالرياضة والتدريج يسهل منه ما استصعَب ، ويُحبَّبُ منه ما أتعَب ، وإن تقدَّم قول القائل : (**مَن ربُّه خلقَه كيف يُخلِّي خُلقَه ؟!**) .

غير أنه إذا عانىٰ تهذيبَ نفسه . . تظاهر بالتخلُّق دون الخُلق ، ثم **بالعادة يصير كالخُلق** .

قال أبو تمام الطائيّ[1] : [من الطويل]

فلـم أَجِـدِ الأخـلاقَ إلاّ تخلُّقـاً ولـم أَجِـدِ الإفضـالَ إلاّ تَفَضُّـلا

ومنها : العقل الذي يستقبح به من نتائج الحسد ما لا يرضيه ، ويستنكف من هُجنة مَساويه ، **فيذلِّلُ نفسَه أنَفةً** ، ويقهرُها حَميّةً ، **فتذعن لرشدها** ، وتجيب إلىٰ صلاحها ، وهـٰذا **إنَّما يصحُّ لذي النفس الأبيّة** ، والهمّة العليّة وإن كان ذو الهمّة يجلُّ عن دناءة الحسد .

وقد قال الشاعر[2] : [من الطويل]

أبِـيٌّ لـه نَفْسـانِ نفـسٌ زَكِيّـةٌ ونفسٌ إذا ما خافَتِ الظّلمَ تَشمُسِ

ومنها : أن يستدفع الضرورةَ ، ويتوقَّى الأثَرَةَ ، ويعلم أنَّ نِكايته في نفسه أبلغُ ، ومن المحسود أبعدُ ، فيستعمل الحزم في دفع ما كدَّه وأجهده ؛ ليكون أطيبَ نفساً ، وأهنأَ عيشاً .

وقد قيل : (**العجبُ لغفلة الحُسّاد عن سلامة الأجساد !!**)[3] .

---

(١) البيت في « ديوانه » (٣/ ١٠٥) .

(٢) أبيٌّ : أي : الممدوح أبي لا ينقاد لنفسه الأمارة بالسوء ، وتشمس : تبدي عداوتها لمن يخاف ظلمه .

(٣) أورده في « ربيع الأبرار » (٣/ ٢٨٨) من قول سيدنا علي رضي الله عنه ، وفي « نثر الدرّ » (٤/ ١٩٢) .

وقال الشاعر[1] : [من الطويل]

بصيرٌ بأعقابِ الأمورِ كأنَّما يَرىٰ بصوابِ الرأي ما هُوَ واقعُ

ومنها : ما يرىٰ من نفور الناس عنه ، وبُعدهم منه ، فيخافهم : **إمّا علىٰ نفسه من عداوة ، أو علىٰ عِرضه من مَلامة** ، فيتألَّفهم بمعالجة نفسه ، ويراهم إن صلحوا أجدىٰ نفعاً ، وأخلصَ وُدّاً .

وقال ابن العميد[2] : [من الكامل]

داوىٰ جَوىً بجَوىً وليس بحازمٍ مَن يَستكِفُّ النّارَ بالحَلْفاءِ

وقال المؤمَّلُ بن أُمَيل[3] : [من البسيط]

لا تَحسِبُوني غنيّاً عن مودّتِكُمْ إنّي إليكُمْ وإنْ أيسَرْتُ مفتَقِرُ

ومنها : أن يساعد القضاءَ ، ويستسلم للمقدور ، **ولا يرىٰ أن يغالب قضاءَ الله تعالىٰ** ، فيرجعَ مغلوباً ، **ولا أن يعارضَه في أمره** ، فيُردَّ مسلوباً محروباً .

وقد قال أردشير بن بابك : (**إذا لم يساعِدْنا القضاءُ . . ساعَدْناه**)[4] .

وقال محمود الورّاق[5] : [من مجزوء الخفيف]

قَدَرُ اللهِ كائنٌ حينَ يُقضىٰ وُرُودُهُ

---

(١) أورد البيت في « عيون الأخبار » (١/ ٣٥) ، و« العقد الفريد » (٢/ ٢٥١) .

(٢) أورد البيت في « التذكرة الحمدونية » (٥/ ٥٢) ، و« يتيمة الدهر » (٣/ ٢٠٤) ، **والجوىٰ** : مرضٌ مزمنٌ في القلب أو في الصدر ، **والجوىٰ أيضاً** : احتراق القلب من شدة الوجد والعشق ، **والحلفاء** : نوع من الحشيش يوقد به النار ؛ **والمعنىٰ** : مداواة احتراق القلب من الحسد بمعاداة الناس ليست معقولة ؛ لأنه كالذي يمنع سراية النار بحائط من الحلفاء !!

(٣) أورد البيت في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٩٠) ، و« الحماسة البصرية » (٣/ ١٠٤٣) .

(٤) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ١٣٧) ؛ أي : ساعدناه باتباعه ورضاه .

(٥) الأبيات في « ديوانه » (ص ٢٤٩) .

قَــدْ مَضَــىٰ فِيــكَ عِلْمُــهُ   وانتهــىٰ مــا يُــريــدُهُ
وأخــو الحَــزْمِ حَــزْمُــهُ   ليــس ممّــا يَــزيــدُهُ
فــأَرِدْ مــا يكــونُ إنْ   لــم يكُــنْ مــا تُــرِيــدُهُ

فإن أظفرته السَّعادةُ بأحد هٰذه الأسباب ، وهدَته المَراشد إلى استعمال الصَّواب . . سلِم من سَقامه ، وخلَص من غَرامه ، واستبدل بالنقص فضلاً ، واعتاض من الذمِّ حمداً .

ولَمَن استنزل نفسَه عن مَذمّة ، وصرفها عن لائمة . . فهو أظهر حزماً ، وأقوىٰ عزماً ممَّن كفَتْه النفسُ جهادَها ، وأعطَتْه قِيادَها ؛ ولذلك قال عليُّ بن أبي طالب عليه السلام : (خِيارُكُمْ كلُّ مُفتَّنٍ توّابٍ)[1] .

وإن صدَّته الشِّقوة عن مَراشده ، وأضلَّه الحرمان عن مقاصده ، فانقاد للطبع اللئيم ، وغلب عليه الخُلق الذَّميم ، حتّىٰ ظهر حسدُه ، واشتدَّ كمَدُه . . فقد باء بأربع مَذامَّ :

إحداهنَّ : حسرات الحسد ، وسَقام الجسد ، ثم لا يجد لحسرته انتهاءً ، ولا يأمُل لسَقامه شفاءً ، وقد قال ابن المعتزّ : (الحسد داء الجسد)[2] .

والثانية : انخفاض المنزلة ، وانحطاط الرُّتبة ؛ لانحراف الناس عنه ، ونفورهم منه ، وقد قيل في منثور الحكم : (الحسود لا يسود)[3] .

والثالثة : مقتُ الناس له ، حتّىٰ لا يجدَ فيهم محبّاً ، وعداوتُهم له ، حتّىٰ لا يرىٰ فيهم وليّاً ، فيصير بالعداوة موتوراً ، وبالمقت مزجوراً ؛ ولذلك قال النبيُّ

---

(١) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٦٧١٨) ، وهناد في « الزهد » (٩٠٩) ، ورواه البزّار في « مسنده » (٧٠٠) عن سيدنا عليٍّ رضي الله عنه مرفوعاً ؛ كما في (ب) ، ومُفتّن : اسم مفعول ، يقال : فتّنه إذا أوقعه في الفتنة ؛ أي : كل ممتحن يمتحنه الله تعالىٰ بالذنوب ثم يتوب عليه ، ثم يعود ثم يتوب عليه سبحانه .

(٢) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٥١) .

(٣) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٥١) ، و« البصائر والذخائر » (١/ ٢٣٢) .

صلى الله عليه وسلم : « **شرُّ الناسِ مَن يبغضُ الناسَ ويبغضُونَه** »(١) .

والرابعة : إسخاطُ الله تعالىٰ في معارضته ، واحتقاب الأوزار في مخالفته ؛ **إذ ليس يرىٰ قضاءَ الله تعالىٰ عدلاً** ، ولا لنعمه من الناس أهلاً ؛ ولذلك قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « **إنَّ الحسدَ يأكُلُ الحَسَناتِ كما تأكُلُ النّارُ الحَطَبَ** »(٢) .

وقال عبد الله بن المعتزّ : (**الحاسدُ مغتاظٌ علىٰ مَن لا ذنبَ له** ، بخيلٌ بما لا يملكه ، طالبٌ لما لا يجده)(٣) .

وإذا بُلي الإنسان بمَن هـٰذه حالُه من حُسّاد النِّعَم وأعداء الفضل . . **استعاذ بالله من شرِّه** ، وتوقّىٰ مصارع كيده ، **وتحرَّز من غوائل حسده** ، وبعُد عن ملابسته وإدنائه ؛ لعَضْل دائه ، وإعواز دوائه ؛ فقد قيل : (**حاسدُ النعمة لا يرضيه إلا زوالُها**)(٤) .

وقال بعض الحكماء : (**مَن ضرَّ بطبعه . . فلا تأنسْ بقربه ؛ فإنَّ قلبَ الأعيان صعبُ المَرام**) .

وقال عبد الحميد : (**أسدٌ تقاربه خيرٌ من حسودٍ تراقبه**) .

وقال محمود الورّاق(٥) : [من الكامل]

أعطَيتُ كلَّ النّاسِ من نفسي الرِّضا ... إلا الحَسُـودَ فـإنَّـه أعيـانـي
مـا إنَّ لـي ذنبـاً إليـهِ علِمْتُـهُ ... إلاّ تظـاهـرُ نعمـةِ الـرَّحمـٰنِ
وأبـىٰ فمـا يُـرضيـهِ إلاّ ذِلّتـي ... وذَهـابُ أمـوالـي وقَطـعُ لسـانـي

---

(١) رواه الإمام أحمد في « الزهد » (١٧٠٧) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (١٠/٣١٨) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

(٢) رواه أبو داوود (٤٩٠٣) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٦١٨٤) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٥٢) ، و« نثر الدرّ » (٣/١٤٩) .

(٤) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٦٥٧/م) ، و« تاريخ دمشق » (٥٩/٢٠٠) من قول سيدنا معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما .

(٥) الأبيات في « ديوانه » (ص ١٩٧) .

وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **ثلاثٌ لا يسلَمُ أحدٌ منهنَّ** : **الطِّيَرةُ** ، **وسُوء الظنِّ** ، **والحسدُ** ؛ **فإذا تطيَّرتَ** . . **فلا ترجِعْ** ، **وإذا ظننتَ** . . **فلا تحقِّقْ** ، **وإذا حسدتَ** . . **فلا تبغِ** »[1] .

(١) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (١١٢٩) ، وعبد الرزاق في « المصنف » (١٩٥٠٤) ، والطِّيرة : التشاؤم بالشر .

فَصْلٌ

[أدب المواضعة والاصطلاح]

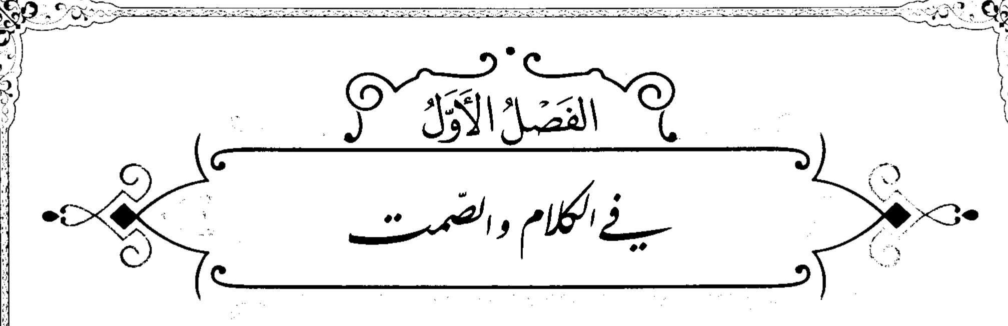
وأما أدب المواضعة والاصطلاح . . فضربان[1] :

أحدهما : ما تكون المواضعة في فروعه ، والعقل موجِبٌ لأصوله .

والثاني : ما تكون المواضعة في فروعه وأصوله ، وذلك يتضح في الفصول التي نذكرها إذا سُبِرت ؛ **وهي ثمانية** .

---

(١) **وأما أدب المواضعة** : معطوف علىٰ قوله فيما سبق : (فأما أدب الرياضة والاستصلاح) اللذينِ هما قسمان من الأدب اللازم للإنسان عند نشوئه وكبره ، فلما فرغ من بيان أدب الرياضة في ستة فصولٍ . . شرع في تفصيل أدب المواضعة الذي يؤخذ تقليداً ، علىٰ ما استقرَّ عليه اصطلاح العقلاء ، واتفق عليه استحسان الأدباء . انظر « منهاج اليقين » (ص٤٤٩) .



اعلم : أنَّ الكلام ترجمان يعبِّر عن مستودعات الضمائر ، ويخبر بمكنونات السرائر ، لا يمكن استرجاع بوادره ، ولا يُقدَر علىٰ ردِّ شوارده ، **فحقٌّ على العاقل** : أن يتحرَّزَ من زَلَله بالإمساك عنه ، أو بالإقلال منه .

رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **رَحِمَ اللهُ مَن قال خيراً فغنِمَ ، أو سكَتَ فسَلِمَ** »(١) .

وقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم لمعاذ : « **يا معاذُ ؛ أنتَ سالمٌ ما سكَتَّ ، فإذا تكلَّمْتَ . . فعليكَ أو لكَ** »(٢) .

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام : (**اللسان معيارٌ ، أطاشَه الجهلُ ، وأرجحَه العقلُ**)(٣) .

وقال بعض الحكماء : (**الزم الصمتَ تعد حكيماً ، جاهلاً كنتَ أو عليماً**)(٤) .

وقال بعض الأدباء : (**سعِد مَن لسانُه صَمُوتٌ ، وكلامُه قُوتٌ**) .

وقال بعض العلماء : (**مِن أعودِ ما يتكلَّم به العاقل : ألا يتكلَّمَ إلا بحاجته ، أو حُجَّته ، ولا يتفكَّر إلا في عاقبته ، أو آخرته**)(٥) .

وقال بعض البلغاء : (**الزم الصمتَ ؛ فإنَّه يكسبك صفوَ المحبّة ، ويؤمِّنك سوءَ المَغبّة ، ويلبسك ثوبَ الوَقار ، ويكفيك مؤونةَ الاعتذار**) .

---

(١) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٤٥٨٩) ، والشهاب في « مسنده » (٥٨٢) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٢) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٤٦٠٨) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (٢٠/ ٧٣) عن سيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه .

(٣) أورده في « البصائر والذخائر » (٧/ ٤٧) ، و« لباب الآداب » (ص ٢٧١) ، **وأطاشه** : خفَّفه وأطلقه جهل صاحبه ، **وأرجحه العقل** : أثقله وقيده عقله .

(٤) أورده في « الموشىٰ » (ص ٩) .

(٥) في (هـ) : (من أعوز ما يتكلم به العاقل) أي : أصعبه وأشده .

وقال بعض الفصحاء : (**اعقِلْ لسانَك إلا عن حقٍّ توضحه ، أو باطلٍ تدحضُه ، أو حكمةٍ تنشرُها ، أو نعمةٍ تشكرُها**) .

وقال بعض الشعراء[1] : [من الوافر]

رأيــتُ العِــزَّ فــي أدبٍ وعَقْــلٍ ... وفــي الجَهــلِ المَــذَلّــةُ والهَــوانُ

ومـا حُسـنُ الـرِّجـالِ لهـم بحُسـنٍ ... إذا لــم يُسـعِـدِ الحُسـنَ البَيـانُ

كفــىٰ بــالمــرء عيبـاً أن تــراهُ ... لــه وجــهٌ وليــس لــه لِســانُ

واعلم : أن للكلام شروطاً ، لا يسلم المتكلِّم من الزَّلل إلا بها ، ولا يعرىٰ من النقص إلا أن يستوعبها ؛ وهي أربعة :

فالشرط الأول : أن يكون الكلامُ لداعٍ يدعو إليه ؛ إمّا في اجتلاب نفع ، أو دفع ضرر .

والشرط الثاني : أن يأتيَ به في موضعه ، ويتوخَّىٰ به إصابة فرصته .

والشرط الثالث : أن يقتصرَ منه علىٰ قدر حاجته .

والشرط الرابع : أن يتخيَّر اللفظ الذي يتكلَّم به .

فهٰذه أربعة شروط ، متىٰ أخلَّ المتكلِّم بشرطٍ منها . . فقد أوهن فضيلة باقيها ، وسنذكر من تعليل كلِّ شرطٍ منها ما يُنبىء عن لزومه .

فأمّا الشرط الأول : وهو الداعي إلى الكلام ؛ فلأنَّ ما لا داعيَ إليه هذَيانٌ ، وما لا سبب له هُجرٌ[2] .

ومَن سامح نفسَه في الكلام إذا عنَّ ، ولم يُراعِ صحّةَ دواعيه ، وإصابةَ معانيه . . كان قولُه مرذولاً ، ورأيُه معلولاً ؛ كالذي حكى ابنُ عائشة : أنَّ شاباً

---

(١) أورد البيتين الأخيرين المبرد في « الكامل » (٢/ ٦٥٢) ، و« المجالسة وجواهر العلم » (٢٧٣٣) ، وليس له لسان : يجلب منافعه ، ويدفع مضاره ؛ ولذا شرع الوكالة في الدعاوي لإظهار الحق .

(٢) **الهُجْر** : قبيح الكلام .

كان يجالس الأحنف ويطيل الصمت ، **فأعجب ذلك الأحنفَ** ، فخلَتِ الحلقةُ يوماً ، فقال له الأحنف : (تكلَّمْ يا بنَ أخي ، فقال : **يا عمِّ ؛ أرأيتَ لو أنَّ رجلاً سقط من شُرفة هـٰذا المسجدِ . .** كان يضرُّه شيء ؟ فقال : **يا بنَ أخي ؛ ليتنا تركناكَ مستوراً !!**) ثم تمثَّل الأحنف بقول الأعور الشَّنِّيِّ : [من الطويل]

وكائنْ ترىٰ من صامتٍ لكَ مُعجِبٍ   زيـادتُـه أو نقصُـه فـي التَّكلُّـمِ
لسانُ الفتىٰ نصفٌ ونصفٌ فؤادُهُ   فلم يبقَ إلا صورةُ اللَّحمِ والدَّمِ[1]

وكالذي حُكي عن أبي يوسف الفقيه صاحب أبي حنيفة رحمهما الله تعالىٰ : أنَّ رجلاً كان يجلس إليه فيطيل الصمتَ ، فقال له أبو يوسف : (ألا تسألُ ؟ قال : بلىٰ ، متىٰ **يفطرُ الصُّيَّامُ** ؟ قال : إذا غربت الشمسُ ، قال : **فإنْ لم تغربِ الشمسُ إلىٰ نصف الليل ؟**) ، فتبسَّم أبو يوسف ، وتمثَّل ببيتي الخَطَفىٰ جدِّ جرير : [من الطويل]

عجِبـتُ لإزراءِ الغبـيِّ بنفسِـهِ   وصمتِ الذي قد كان بالعلم أعلَما
وفـي الصَّمـتِ سَتْرٌ للغبـيِّ وإنَّمـا   صحيفـةُ لـبِّ المـرءِ أنْ يتكلَّمـا[2]

قال أقضى القضاة رحمه الله : وممّا أُطرِفُكَ به عنِّي : أني كنت يوماً في مجلسي بالبصرة وأنا مُقبِلٌ علىٰ تدريس أصحابي ، إذ دخل شيخٌ مسنٌّ قد ناهز الثمانين أو جاوزها ، فقال لي : **قد قصدتُك بمسألةٍ اخترتُك لها** .

فقلت : سَلْ ، عافاك الله تعالىٰ ، **وظننته يسأل عن حادثٍ نزل به** .

فقال : **أخبرني عن نجم إبليس ونجم آدم عليه السلام ما هو ؛** فإنَّ هـٰذين لعظم شأنهما لا يُسأل عنهما إلا علماءُ الدِّين ؟!

---

(١) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٥٣١) ، والخطيب في « الفقيه والمتفقِّه » (٦٩١) ، **وكائن** : أصله (أي) دخلت الكاف عليه ، وصارت بمعنىٰ (كم) الخبرية ، والنون تنوينٌ أثبت في الخط علىٰ غير قياس ، **والمعنىٰ** : وكم صامتٍ يعجبك صمته فتستحسنه ، وإنما تظهر زيادته علىٰ غيره ونقصانه عند تكلمه .

(٢) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٤/ ٢٥١) ، **والخَطَفَىٰ** ـ بفتحات وقصر الألف ـ : لقب حذيفة جد جرير .

فعجبتُ وعجب مَن في مجلسي من سؤاله ، وبدر إليه قومٌ منهم بالإنكار والاستخفاف ، فكففتُهم ، وقلت : هٰذا لا يقتنع مع ما يظهر من حاله إلا بجواب مثله ، فأقبلتُ عليه وقلت : **يا هٰذا ؛ إنَّ المنجِّمين يزعمون** : أنَّ نجوم الناس لا تُعرَف إلا بمعرفة مواليدهم ؛ **فإن ظفرتَ بمَن يعرف ذلك .. فاسأله** .

فحينئذٍ أقبل عليَّ ، وقال : جزاك الله خيراً ، **ثم انصرف مسروراً** ، فلمّا كان بعد أيّام .. عاد وقال : **ما وجدتُ إلىٰ وقتي هٰذا مَن يعرف مولد هٰذين** .

فانظر إلىٰ هٰؤلاء كيف أبان الكلامُ عن جهلهم ، وأعرب السؤالُ عن نقصهم ؛ إذ لم يكن لهم داعٍ إليه ، ولا رَوِيّةٌ فيما تكلَّموا به ، **ولو صدر عن رَوِيّةٍ ، ودعا إليه داعٍ .. لَسلِموا من شَيْنه** ، وبرئوا من عيبه .

ولذلك قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « **لسانُ العاقلِ مِن وراء قلبه ، فإذا** أراد الكلامَ .. رجع إلىٰ قلبه ؛ **فإن كان له .. تكلَّمَ ، وإن كان عليه .. أمسكَ** ، **وقلبُ الجاهل مِن وراءِ لسانِهِ** ، يتكلَّمُ بكلِّ ما عرَضَ له »[1] .

وقال عمر بن عبد العزيز : (**مَن لم يعُدَّ كلامَه من عمله .. كثُرت خطاياه**)[2] .

وقال بعض الحكماء : (**عقلُ المرء مخبوءٌ** تحتَ لسانه)[3] .

وقال بعض البلغاء : (**احبِسْ لسانَك قبلَ أن يُطيلَ حبسَكَ** ، أو يُتلفَ نفسَكَ ، **فلا شيءَ أَولىٰ بطول حبسٍ من لسانٍ** يقصر عن الصواب ، ويسرع إلى الجواب) .

وقال أبو تمام الطائيُّ[4] : [من الوافر]

وممَّا كانتِ الحُكَماءُ قالَتْ ... لسانُ المَرءِ مِن تَبَعِ الفؤادِ

وكان بعض الحكماء يحسِمُ الرخصةَ في الكلام ، ويقول : (**إذا جالست**

---

(١) رواه الإمام أحمد في « الزهد » (١٥٤٠) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٧٨٤) من قول الحسن البصري رحمه الله تعالىٰ .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٢٤٦) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (١٦٨٠) .

(٣) أورده في « البيان والتبيين » (١/ ١٧١) ، وابن عبد البرّ في « أدب المجالسة » (ص ٤٤) .

(٤) البيت في « ديوانه » (١/ ٣٧٥) ؛ وفي (أ) : (من خدم الفؤاد) .

الجُهّالَ . . فأنصِتْ لهم ، **وإذا جالستَ العلماءَ** . . فأنصِتْ لهم ؛ **فإنَّ في إنصاتك** عن الجُهّال **زيادةً في الحِلم** ، وفي إنصاتك للعلماء **زيادةً في العِلم**) .

وأمّا الشرط الثاني : وهو أن يأتيَ بالكلام في موضعه ؛ **فإنَّ الكلام في غير** حينه لا يقع موقعَ الانتفاع به ، **وما لا يُنتفَع به من الكلام** . . فقد تقدَّم القولُ فيه بأنَّه هذَيان وهُجر ؛ **فإن قدَّم ما يقتضي التأخيرَ** . . كان عجَلةً وخُرقاً ، **وإن أخَّر ما يقتضي التقديمَ** . . كان توانياً وعَجْزاً ؛ لأنَّ لكل مقامٍ قولاً ، وفي كل زمانٍ عملاً .

وقد قال الشاعر[١] : [من الكامل]

تضَعُ الحديثَ علىٰ مَواضِعِهِ ... وكلامُها مِن بعدِهِ نَزْرُ

وأمّا الشرط الثالث : وهو أن يقتصرَ منه علىٰ قدر حاجته ؛ **فإنَّ الكلام إذا لم ينحصر بالحاجة** ، ولم يتقدَّر بالكفاية . . **لم يكن لحدِّه غايةٌ** ، ولا لقَدْره نهايةٌ ، **وما لم يكن من الكلام محصوراً** . . كان إمّا حَصَراً إن قصُر ، أو هَذَراً إن كثُر .

رُوي أنَّ أعرابيّاً تكلَّم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وطوَّل ، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « **كَمْ دونَ لسانِكَ مِن حِجابٍ ؟** » فقال : شَفَتايَ وأسناني ، قال : « **فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يكرَهُ الانبعاقَ في الكَلامِ** ، فنضَّرَ اللهُ وَجْهَ امرىءٍ أوجَزَ في كلامِهِ ، واقتصرَ علىٰ حاجتِهِ »[٢] .

وحُكي : أنَّ بعض العلماء رأىٰ **رجلاً يكثر الكلام** ، ويقلُّ السكوت ، فقال : (إنَّ الله تعالىٰ إنَّما خلق لك أذنين ولساناً واحداً ؛ **ليكون ما تسمعُه ضعفَ ما تتكلَّم به**)[٣] .

---

(١) البيت لعمرو بن أحمر الباهليّ في « ديوانه » (ص ٩٠) .

(٢) أورده في « البصائر والذخائر » (٨/ ١٥٥) ، **والانبعاق** : التوسُّع في الكلام ، والتكثُّر منه ، والاندفاع إليه .

(٣) أورده في « لباب الآداب » (ص ٤٦٥) ، و« بهجة المجالس » (٢/ ١٨٢) .

وقال بعض الحكماء : (**مَن كثر كلامُه . . كثرت آثامُه**)[١] .

وقال ابن مسعود رضي الله تعالىٰ عنه : (**أُنذِرُكم فُضولَ المنطق**)[٢] .

وقال بعض البلغاء : (**كلامُ المرء** : بيانُ فضله ، وترجمانُ عقله ، **فاقصره على الجميل** ، واقتصر منه على القليل ، وإياك وما يُسخِط سلطانك ، أو يُوحشُ إخوانَك ، **فمَن أسخط سلطانَه** . . تعرَّض للمنيّة ، **ومَن أوحش إخوانَه** . . تبرّأ من الحرّيّة)[٣] .

وقال بعض الشعراء[٤] : [من الكامل]

وَزِنِ الكَـلامَ إذا نطَقْـتَ فـإنَّمـا ... يُبدِي عُيُوبَ ذوِي العُقُولِ المَنطِقُ

ولمخالفة قدر الحاجة من الكلام حالتان : تقصيرٌ يكون حَصَراً ، وتكثيرٌ يكون هَذَراً ، **وكلاهما شَينٌ** ، وشَينُ الهَذَرِ أشنعُ ، وربَّما كان في الغالب أخوفَ .

قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « **وهل يَكُبُّ الناسَ علىٰ مَناخِرِهِمْ في نارِ جَهَنَّمَ إلا حَصائدُ ألسِنَتِهِمْ ؟** »[٥] .

وقال بعض الحكماء : (**مَقتَلُ الرجل بينَ فكَّيه**)[٦] .

وقال بعض البلغاء : (**الحَصَرُ خيرٌ من الهَذَرِ** ؛ لأنَّ الحَصَرَ يُضعفُ الحُجّةَ ، والهَذَرَ يُتلفُ المُهجةَ) .

وقال بعض الشعراء[٧] : [من المتقارب]

رأيـتُ اللِّسـانَ علـىٰ أهلِـهِ ... إذا سـاسَـهُ الجَهـلُ لَيثـاً مُغِيـرا

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٨٤٢) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت » (٨٩) من قول شُفَيّ بن ماتع الأَصبَحيّ .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣٧٦) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٤٦٤٤) .

(٣) أورده في « غرر الخصائص » (ص١٤٧) .

(٤) البيت لصالح بن عبد القدّوس في « ديوانه » (ص ١٢١) .

(٥) رواه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٤١٣)، والترمذي (٢٦١٦) عن سيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه .

(٦) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٨٧٩) ، وأورده في « عيون الأخبار » (١/ ٣٣١) من قول أكثم بن صيفيّ رحمه الله تعالىٰ .

(٧) أورد البيت في « عيون الأخبار » (١/ ٣٣٠) ، و« المجالسة وجواهر العلم » (٨٧٩) .

وقال آخر[1] : [من المتقارب]

ويا رُبَّ ألسِنَةٍ كالسُّيُوفِ تُقَطِّعُ أعناقَ أصحابِها
وما ينتقِصْ من سِبابِ الرِّجالِ يَزِدْ في نُهاها وألبابِها

وقد ذهب بعضهم إلىٰ أنَّ الكلام إذا كثر عن قدر الحاجة ، وزاد علىٰ حدِّ الكفاية ، وكان صواباً لا يشوبُه خَطَل ، وسليماً لا يعتورِه زَلَل . . **فهو البيانُ والسِّحرُ الحلال** .

وقال سليمان بن عبد الملك وقد ذُمَّ الكلامُ في مجلسه : (**كلاّ ؛ إنَّ مَن تكلَّم فأحسن . . قدِر علىٰ أن يسكتَ فيُحسن** ، وليس كلُّ مَن سكت فأحسن . . قدر علىٰ أن يتكلَّمَ فيُحسن)[2] .

ووصف بعضهم الكاتب فقال : (**الكاتبُ** : مَن إذا أخذ شِبراً . . كفاه ، وإنْ وجد طُوماراً . . مَلاه)[3] .

وأنشد بعضهم في خطباء إياد[4] : [من الكامل]

يرمُونَ بالخُطَبِ الطِّوالِ وتارةً وَحْيَ المَلاحِظِ خِيفةَ الرُّقَباءِ

وقال الهيثم بن صالح لابنه : (**يا بنيَّ ؛ إذا أقللتَ من الكلام . . أكثرتَ من الصَّواب** ، قال : يا أبتِ ؛ فإن أنا أكثرتُ وأكثرتُ ؟ يعني : كلاماً وصواباً ، قال : **يا بنيَّ ؛ ما رأيتُ موعوظاً أحقَّ بأن يكونَ واعظاً منك**)[5] .

وأُنشدتُ لأبي الفتح البُستيِّ[6] : [من الطويل]

تكلَّمْ وسَدِّدْ ما استطَعْتَ فإنَّما كلامُكَ حَيٌّ والسُّكوتُ جَمادُ

---

(١) البيتان لابن المعتزّ في « ديوانه » (١/ ٢٣) .
(٢) رواه في « ديوان المعاني » (١/ ١٤٩) ، و« تاريخ بغداد » (٨/ ٢٤٣) .
(٣) أورده في « محاضرات الأدباء » (١/ ١١٩) ، و« التمثيل والمحاضرة » (ص ١٥٦) ، والطومار : الصحيفة ، والمعنىٰ : أنه يراعي المقام فيأتي بالإيجاز الوفي ، ولا يعجز عن الإطناب في محله .
(٤) أورد البيت في « البيان والتبيين » (١/ ١٥٥) ، و« العقد الفريد » (٤/ ٥٥) لأبي دُوَاد الإياديّ .
(٥) أورده في « البيان والتبيين » (١/ ٢٦٤) .
(٦) البيتان في « ديوانه » (ص ١٢٦) .

فإنْ لم تجِدْ قولاً سَديداً تقولُهُ ... فصَمتُكَ عن غيرِ السَّدادِ سَدادُ

وقيل لإياس بن معاوية : (**ما فيكَ عيبٌ إلا كثرة الكلام** ، قال : أفتسمعون صواباً أم خطأً ؟ قالوا : لا ، بل صواباً ، قال : **فالزيادةُ من الخير خيرٌ**) .

قال أبو عثمان الجاحظ : (وليس كما قال ؛ **لأنَّ للكلام غايةً** ، ولنشاط السامعين نهايةً ، **وما فضلَ عن مقدار الاحتمال** ، ودعا إلى الاستثقال والمَلال . . **فذلك الفاضلُ هو الهَذَرُ**)(1) .

وصدق أبو عثمان في هٰذا ؛ **لأنَّ الإكثار منه** ـ وإن كان صواباً ـ **يُمِلُّ السامعَ** ، ويُكِلُّ الخاطرَ ؛ **فهو صادرٌ عن إعجابٍ به** ، لولاه . . لأقصرَ عنه ، **ومَن أُعجِب بكلامه** . . استرسلَ فيه ، **والمسترسِلُ في كلامه** كثيرُ الزَّلَل ، دائمُ العِثار .

قال بعض الحكماء : (**مَن أُعجِب بقوله . . أُصيب بعقله**) .

وليس للمكثر الهَذَرِ رجاءٌ يقابل خوفَه ، ولا نفعٌ يوازي ضررَه ؛ **لأنَّه يُخاف من نفسه الزَّلَلُ** ، **ومن سامعيه السَّآمةُ** والمَلَلُ ، وليس في مقابلة هٰذين حاجةٌ داعيةٌ ، ولا نفعٌ مرجوٌّ .

وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **أبغضُكم إليَّ** : المتفيهِقُ المِكثارُ ، والمُلِحُّ المِهذارُ » .

وسأل رجل حكيماً فقال : (**متىٰ أتكلَّمُ** ؟ قال : إذا اشتهيتَ الصَّمتَ ، قال : **فمتىٰ أصمتُ** ؟ قال : إذا اشتهيتَ الكلامَ)(2) .

وقال جعفر بن يحيىٰ : (**إذا كان الإيجازُ كافياً** . . كان الإكثار عِيّاً ، **وإذا كان الإكثارُ واجباً** . . كان التقصير عجزاً)(3) .

وقيل في منثور الحكم : (**إذا تمَّ العقلُ . . نقص الكلام**)(4) .

---

(1) البيان والتبيين (١/ ٩٩) .

(2) أورده في « العقد الفريد » (٢/ ٤٧٣) ، **والحكيم** : عمرُ بن عبد العزيز .

(3) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ١٤٦) ، و« عيون الأخبار » (٢/ ١٧٤) .

(4) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٠٨) ، و« الفقيه والمتفقه » (٢/ ٥٢) من قول ابن المعتزّ .

وقال بعض الأدباء : (مَن طال صمتُه . . اجتلب من الهيبة ما ينفعه ، ومن الوحشة ما لا يضرُّه)[1] .

وقال بعض البلغاء : (عِيٌّ تسلمُ به خيرٌ من نطق تندمُ عليه)[2] .

فاقتصِرْ من الكلام علىٰ ما يقيم حجّتَك ، ويبلِّغ حاجتَك ، وإياك وفُضولَه ؛ فإنَّها تزلُّ القدَمَ ، وتورثُ الندَمَ .

وقال الشاعر[3] : [من الطويل]

إذا كنتَ عن أن تُحسِنَ الصَّمتَ عاجزاً فأنتَ عنِ الإبلاغِ في القولِ أعجَزُ

وقال بعض الفصحاء : (فمُ العاقل مُلجَمٌ ، إذا همَّ بالكلام . . أحجم ، وفمُ الجاهل مُطلَق ، كلَّما شاء . . أطلق) .

وقال بعض الشعراء[4] : [من البسيط]

إنَّ الكلامَ يُعِزُّ القومَ جَلْوتُهُ حتّىٰ يَلَجَّ به عِيٌّ وإكثارُ

وأما الشرط الرابع : وهو اختيار اللفظ الذي يتكلَّم به ؛ فلأنَّ اللسان عنوان الإنسان ، يترجم عن مجهوله ، ويبرهن عن محصوله ، فلزمه أن يكون بتهذيب ألفاظه حَرِيّاً ، وبتقويم لسانه مَلِيّاً .

رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال لعمِّه العبّاس رضي الله عنه : « يُعجِبُني جَمالُكَ » قال : وما جَمالُ الرَّجلِ يا رسولَ الله ؟ قال : « لسانُهُ »[5] .

---

(١) أورده في « البيان والتبيين » (٢/ ١٧٤) ، و« بهجة المجالس » (١/ ٨٢) .

(٢) أورده في « المستطرف » (١/ ٩٠) .

(٣) البيت لأبي العتاهية في « ديوانه » (ص ١٨٦) ، وهو زيادة من (ج) .

(٤) البيت لإبراهيم بن هَرْمَةَ في « ديوانه » (ص ١٢٤) ؛ وفيه وفي (ب) : (إن الكلامَ تغرُّ القومَ خَلوتُه) .

(٥) أورده في « لباب الآداب » (ص ٢٧٠) .

وقال خالد بن صفوان : (ما الإنسانُ لولا اللِّسانُ إلا بهيمةً مُهمَلةً ، أو صورةً مُمثَّلةً)[1] .

وقال بعض الحكماء : (اللسانُ وزير الإنسان) .

وقال بعض الأدباء : (كلامُ المرء وافد أدبِه) .

وقال بعض البلغاء : (يُستدَلُّ علىٰ عقل الرجل بقوله ، وعلىٰ أصله بفعله) .

وقال بعض الشعراء[2] : [من الطويل]

وإنَّ لسانَ المرءِ ما لم تكنْ لَهُ حَصاةٌ علىٰ عَوراتِهِ لَدَليلُ

* * *

وليس يصحُّ اختيارُ الكلام إلا لمَن أخذ نفسه بالبلاغة ، وكلَّفها لزومَ الفصاحة ، حتّىٰ يصير متدرِّباً بها ، معتاداً لها ، فلا يأتي بكلام مستكرَه اللفظ ، ولا مختلِّ المعنىٰ ؛ لأنَّ البلاغة ليست معانيَ مفردةً ، ولا ألفاظاً عاريةً .

وإنَّما البلاغةُ : أن تكونَ المعاني الصحيحةُ مستودَعةً في ألفاظ فصيحة ، فتكونُ فصاحةُ الألفاظ مع صحّة المعاني هي البلاغةَ .

وقد قيل لليونانيّ : (ما البلاغةُ ؟ فقال : اختيارُ الكلام ، وتصحيحُ الأقسام) .

وقيل للروميّ : (ما البلاغةُ ؟ فقال : حسن الاختصار عند البديهة ، والغزارةُ يومَ الإطالة) .

وقيل للهنديّ : (ما البلاغةُ ؟ فقال : معرفةُ الفصلِ من الوصلِ)[3] .

وقيل للعربيِّ : (ما البلاغةُ ؟ فقال : ما حسُن إيجازُه ، وقلَّ مجازُه)[4] .

---

(١) رواه في « البيان والتبيين » (١/٣٥٣) ، وأورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٣١٢) .

(٢) البيت لطرفة بن العبد في « ديوانه » (ص ٨٥) .

(٣) أورد ثلاثتها في « البيان والتبيين » (١/٨٨) ، و« زهر الآداب » (١/١١٨) ، والأخير فيهما للفارسيّ .

(٤) أورده في « زهر الآداب » (١/١١٨) لعليّ بن عيسى الرمّانيّ ، و« نهاية الأرب » (٧/١١) لابن المعتزّ .

وقيل للبدويّ ، فقال : (ما دون السِّحرِ ، وفوقَ الشِّعر ، يثقب الخَرْدلَ ، ويحطُّ الجَنْدلَ)[1] .

وقيل للحَضَريّ ، فقال : (ما كثر إعجازُه ، وتناسبت صدورُه وأعجازُه)[2] .

وقال ابن المقفَّع : (البلاغةُ : قلّةُ الحَصَر ، والجَراءةُ على البَشَر)[3] .

وسأل الحجّاجُ ابنَ القِرِّيَّة عن الإيجاز[4] ، فقال : (أن تقولَ فلا تبطئَ ، وأن تُصيبَ فلا تخطئَ ، ثم قال : أَقِلْني ، قال : قد فعلتُ ، قال : هو ألاّ تبطئَ ، ولا تخطئَ)[5] .

وقال الشاعر[6] : [من المجتث]

خيرُ الكلامِ قَليلُ ... علىٰ كثيرٍ دَليلُ
والعِيُّ معنىً قصيرٌ ... يَحويهِ لفظٌ طَويلُ
وفي الكلامِ فُضُولٌ ... وفيهِ قالٌ وقِيلُ

وأمّا صحّة المعاني . . فتكون من ثلاثة أوجه :

أحدها : إيضاح تفسيرها ، حتّىٰ لا تكونَ مشكلةً ولا مجمَلةً .

والثاني : استيفاء تقسيمها ، حتّىٰ لا يدخلَ فيها ما ليس منها ، ولا يخرجَ عنها ما هو منها .

والثالث : صحّة مقابلاتها .

والمقابلة تكون من وجهين :

---

(١) أورده في « زهر الآداب » (١/ ٩) ، و« البصائر والذخائر » (٨/ ٢٥) لطالبيٍّ .

(٢) أورده في « زهر الآداب » (١/ ١١٨) للرمّانيّ .

(٣) أورده في « العقد الفريد » (٤/ ١٨٩) .

(٤) في (أ ، ج) : (ابن القَبَعْثَرىٰ) .

(٥) أورده في « البيان والتبيين » (١/ ٩٦) ، و« العقد الفريد » (٢/ ٢٦١) بين سيدنا معاوية رضي الله عنه وصُحارٍ العَبديّ رحمه الله تعالىٰ .

(٦) أورد الأبيات في « معجم الأدباء » (١/ ٤٢٦) ، وأورد البيتين الأولين في « بهجة المجالس » (١/ ٦١) لأحمد بن إسماعيل الكاتب .

ـ **أحدهما** : مقابلة المعنىٰ بما يوافقه ، وحقيقةُ هـٰذا المقاربةُ ؛ لأنَّ المعانيَ تصير متشاكلةً .

ـ **والثاني** : مقابلته بما يضادُّه ، وهو حقيقةُ المقابلة .

وليس للمقابلة إلا أحدُ هـٰذين الوجهين : الموافقة في الائتلاف ، والمضادّة مع الاختلاف .

* * *

وأمّا فصاحة الألفاظ . . فتكون بثلاثة أوجه :

أحدها : مجانبةُ الغريب الوَحْشيِّ ، حتّىٰ لا يمجَّه سمعٌ ، ولا ينفرَ منه طبعٌ .

والثاني : تنكُّبُ اللفظ المستبذَل ، والعدولُ عن الكلام المسترذَل ، حتّىٰ لا يستسقطه خاصّيٌّ ، ولا ينبوَ عن فهمه عامّيٌّ ؛ كما قال الجاحظ في كتاب « البيان » : (**أمّا أنا . . فلم أرَ أقواماً أمثلَ طريقةً في البلاغة من الكُتّاب** ؛ وذلك أنَّهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعِّراً وَحْشيّاً ، ولا ساقطاً عامّيّاً)[1] .

والثالث : أن تكون بين الألفاظ ومعانيها مناسبةٌ ومطابقةٌ .

* * *

أمّا المطابقة : فهو أن تكون الألفاظ كالقواليب لمعانيها ، فلا تزيد عليها ، ولا تقصر عنها .

وقد قال بشر بن المعتمر في وصيّته في البلاغة : (**إذا لم تجدِ اللفظة واقعةً موقعَها** ، ولا صائرةً إلىٰ مستقرِّها ، **ولا حالّةً في مركزها** ، بل وجدتَها قلِقةً في مكانها ، نافرةً عن موضعها . . **فلا تُكرِهْها على القرار في غير موضعها** ؛ **فإنَّك إذا** لم تتعاطَ قريضَ الشعر الموزون ، ولم تتكلَّفِ اختيارَ الكلام المنثور . . لم يعِبْكَ بترك ذلك أحدٌ ، **وإذا أنت تكلَّفتَهما ولم تكن حاذقاً فيهما . . عابَكَ مَن أنت أقلُّ عيباً منه** ، وأزرىٰ عليك مَن أنت فوقَه)[2] .

* * *

---

(١) البيان والتبيين (١/١٣٧) .

(٢) أورده في « الصناعتين » (ص ١٣٤) ، و« سر الفصاحة » (ص ١٧٢) .

وأمّا المناسبةُ : فهو أن يكون المعنىٰ يليق ببعض الألفاظ ؛ إمّا لعُرْفٍ مستعمَل ، أو لاتِّفاقٍ مستحسَن ، حتّىٰ إذا ذُكِرت تلك المعاني بغير تلك الألفاظ . . كانت نافرةً عنها وإن كانت أفصحَ وأوضحَ ؛ لاعتياد ما سواها .

وقد قال بعض البلغاء : (لا يكون البليغُ بليغاً حتّىٰ يكونَ معنىٰ كلامِه أسبقَ إلىٰ فهمك من لفظه إلىٰ سمعك)[1] .

فأمّا مُعاطاةُ الإعراب ، وتجنُّبُ اللَّحْن . . فإنَّما هو من صفات الصواب ، والبلاغةُ أعلىٰ منه رتبةً ، وأشرفُ منزلةً ، وليس لمَن لحن في كلامه مدخلٌ في الأدباء ، فضلاً عن أن يكون في عِداد البلغاء الفصحاء .

واعلم : أنَّ للكلام آداباً ، إنْ أغفلها المتكلِّمُ . . أذهب رونقَ كلامه ، وطمس بهجةَ بيانه ، ولها الناسُ عن محاسن فضله بمساوىء أدبه ، وعدلوا عن نشر مناقبه بذكر مثالبه .

فمن آدابه : ألا يتجوَّزَ في مدح ، ولا يسرفَ في ذمٍّ وإن كانت النَّزاهةُ عن الذَّمِّ كرماً .

والتَّجوُّزُ في المدح مَلَقٌ يصدر عن مَهانة ، والسَّرَفُ في الذمِّ انتقامٌ يصدر عن شرٍّ ، وكلاهما شَينٌ وإن سلِمَ من الكذب .

رُوي أنَّه لمَّا قدم علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم وفدُ تميم . . سأل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ابنَ الأهتم عن قيس بن عاصم ، فمدحَه ، فتكلَّم قيسٌ بما غضبَ منه ابنُ الأهتم ، فذمَّه[2] ، فقال له رسولُ الله : « ما هـٰذا ؟ مَدَحْتَهُ ثمَّ ذَمَمْتَهُ !! » فقال قيسٌ : واللهِ يا رسولَ اللهِ ؛ لقد علم أنِّي خيرٌ ممّا وصف ؛ ولـٰكنَّه حسدني .

---

(١) أورده في « البيان والتبيين » (١/ ١١٥) ، و« نهاية الأرب » (٧/ ٨) .

(٢) قال في « منهاج اليقين » (ص٤٦٧) : (وهما الزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم . . . فما وقع في نسخ المتن من قيس بن عاصم في الموضعين وهمٌ ؛ لما سبق أن قيساً هو أول من وأد في الجاهلية ولم يذمه به) .

فذمَّه عمرٌو ، وقال : واللهِ يا رسولَ اللهِ ؛ لقد صدقتُ في الأُولىٰ ، وما كذبتُ في الأخرىٰ ؛ لأنِّي رضيتُ في الأُولىٰ ، فقلتُ أحسنَ ما علمتُ ، وسخطتُ في الأخرىٰ ، فقلتُ أقبحَ ما علمتُ ، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « إنَّ مِنَ البَيانِ لَسِحْراً »[1] .

علىٰ أنَّ السَّلامة من الكذب في المدح والذمِّ متعذِّرةٌ ، لا سيَّما إذا مدح تقرُّباً ، وذمَّ حَنَقاً .

حُكي عن الأحنف بن قيس أنه قال : (سهرتُ ليلةً أفكِّر في كلمةٍ أُرضي بها سلطاني ، ولا أُسخِطُ بها ربِّي ؛ فما وجدتُها)[2] .

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله تعالىٰ عنه : (إنَّ الرجل ليدخل على السلطان ومعه دِينُه ، فيخرج وما معه دِينُه) قيل : وكيف ذلك ؟ قال : (يُرضيه بما يُسخِط اللهَ تعالىٰ)[3] .

وسمع ابنُ الروميِّ رجلاً يصف رجلاً ويبالغ في مدحه، فأنشأ يقول[4]: [من المتقارب]

إذا ما وصَفْتَ امرأً لامرىءٍ ... فلا تَغْلُ في وصفِهِ واقصِدِ

فإنَّكَ إنْ تَغْلُ تَغْلُ الظُّنُو ... نُ فيهِ إلى الأمَدِ الأبعَدِ

فيَضؤُلُ من حيثُ فَخَّمْتَهُ ... لفضلِ المَغِيبِ على المَشهَدِ

* * *

ومن آدابه : ألا تبعثَه الرغبة ولا الرهبة على الاسترسال في وعدٍ أو وعيدٍ يعجز عنهما ، ولا يقدر على الوفاء بهما ؛ فإنَّ مَن أطلق بهما لسانَه ، وأرسل فيهما

---

(١) كذا أورده في « لباب الآداب » (ص ٣٥٤) ، ورواه الحاكم في « المستدرك » (٣/ ٦١٣) ، وأبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٣٠٩٦) بين الزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم ، وبحضور قيس بن عاصم رضي الله عنهم .

(٢) أورده في « نثر الدرّ » (٥/ ٥٣) ، و« الكشكول » (٢/ ١٥٥) .

(٣) رواه ابن سعد في « الطبقات الكبير » (٨/ ٣٢٧) ، وهنّاد في « الزهد » (١١٥٢) .

(٤) الأبيات في « ديوانه » (٢/ ٦٨٨) ، **والغلو** : تجاوز الحد ، **والقصد** : المجانبة عن الإفراط ، **وتغل** : الأول من الغلو ، والثاني من الغليان ، **وأَمَدُ الشيء** : غايته ومنتهاه .

عِنانَه ، ولم يستثقِلْ من القول ما يستثقلُه من العمل . . **صار وعدُه نَكْثاً ، ووعيدُه عجزاً** .

وقد حُكي : أنَّ سليمان بن داوود عليهما الصلاة والسلام **مرَّ بعصفورٍ يدور حولَ عصفورة** ، فقال لأصحابه : (**هل تدرون ما يقولُ لها ؟**) قالوا : لا ، يا نبيَّ الله .

قال : (**إنَّه يخطُبُها إلىٰ نفسه** ، ويقول : زوِّجيني نفسَكِ . . أُسكِنْكِ أيَّ غرفِ دمشقَ شئتِ) ، قال سليمان عليه السلام : (**وكذب العصفورُ** ؛ غرفُ دمشقَ مبنيّةٌ بالصخر ، لا يقدر أن يُسكِنَها هناك ؛ **ولـٰكنْ كلُّ خاطبٍ كذّابٌ !!**)[1] .

ومن آدابه : أنه إذا قال قولاً . . حقَّقه بفعله ، وإذا تكلَّم بكلام . . صدَّقه بعمله ؛ **فإنَّ إرسالَ القول اختيارٌ** ، والعملَ به اضطرارٌ ، **ولأَنْ يفعلَ ما لم يقُلْ** أجملُ به من أن يقولَ ما لا يفعلُ .

وقد قال بعض الحكماء : (**أحسنُ الكلام** : ما لا يُحتاج فيه إلى الكلام) أي : يُكتفىٰ بالفعل من القول .

وقال محمود الورّاق[2] : [من السريع]

القــولُ مــا صــدَّقَــهُ الفِعــلُ والفِعــلُ مــا وَكَّــدَهُ العَقــلُ
لا يثبُــتُ الفــرعُ إذا لــم يَكُــنْ يُقِلُّــهُ مــن تحتِــهِ الأصــلُ

ومن آدابه : أن يراعيَ مخارج كلامه بحسَب مقاصده وأغراضه ؛ **فإنْ كان ترغيباً** . . قرنه باللِّين واللُّطف ، **وإنْ كان ترهيباً** . . خلطه بالخشونة والعُنف ؛ **فإنَّ لينَ اللفظ في الترهيب ، وخشونتَه في الترغيب . . خروجٌ عن موضوعهما** ، وتعطيلٌ للمقصود بهما ، فيصير الكلام لغواً ، والغرض المقصود لهواً .

---

(١) رواه في « تاريخ دمشق » (٢٢/ ٢٣٢) ، و« ربيع الأبرار » (٥/ ٢٩٠) .
(٢) البيتان في « ديوانه » (ص ١٦٩) .

وقد قال أبو الأسود الدُّؤَليُّ لابنه : (**يا بنيَّ ، إذا كنت في قوم . . فلا تتكلَّم بكلامِ مَن هو فوقَك فيمقُتوك ، ولا بكلامِ مَن هو دونَك فيزدَرُوك**)[1] .

ومن آدابه : ألا يرفعَ بكلامه صوتاً مستكرَهاً ، ولا ينزعجَ له انزعاجاً مستهجَناً ، وليكفُفْ عن حركةٍ تكون طيشاً ، وعن إشارة تكون عبثاً ؛ **فإنَّ نقصَ الطيش أكثرُ من فضل البلاغة** .

وقد حُكي : أنَّ الحجّاج قال لأعرابيٍّ : (**أخطيبٌ أنا** ؟ قال : نعم ؛ لولا أنَّك **تكثر الردَّ ، وتشير باليدِ ، وتقول : أمّا بعدُ**)[2] .

ومن آدابه : أن يتجافىٰ هُجْرَ القول ، ومستقبَحَ الكلام ، وليعدل إلى الكناية عمّا يُستقبَحُ صريحُه ، ويُستهجَنُ فصيحُه ، **ليبلغ الغرضَ ولسانُه نَزِهٌ** ، وأدبُه مصونٌ .

وقد قال محمد بن عليٍّ في تأويل قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴾ قال : (**كانوا إذا ذكروا الفُروجَ . . كَنَوا عنها**)[3] .

وكما أنه يصون لسانه عن ذلك . . **فهكذا يصون سمعَه عنه** ، فلا يسمعُ خَناً[4] ، ولا يصغي إلىٰ فُحش ؛ **فإنَّ سماع الفُحش داعٍ إلىٰ إظهاره** ، وذريعةٌ إلىٰ إكثاره ، **وإذا وُجد عن الفُحش معرِضاً . . كفَّ قائلُه** ، وكان إعراضُه أحدَ النَّكيرَين ؛ **كما أنَّ استماعَه أحدُ الباعثَين** .

---

(١) أورده في « التذكرة الحمدونية » (٣/ ٣٤٢) ، و« ربيع الأبرار » (٢/ ٥٧٧) .

(٢) أورده في « الصناعتين » (ص ١٥٩) ، و« نثر الدرّ » (٦/ ٨٢) ، **والأعرابيُّ** : هو ابنُ القِرِّيّة ، وتكلم ابن السماك يوماً وجارية له تسمع ، فلما انصرف إليها . . قال : (**كيف سمعتِ كلامي** ؟ قالت : **ما أحسنه ؛ لولا أنك تكثر ترداده** !! فقال : أردده حتىٰ يفهمه مَنْ لم يفهمه ، قالت : **إلىٰ أن يفهمه من لم يفهمه . . قد ملَّه من فهمه**) .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (١٧٨٥١) عن مجاهد ، وأورده في « محاضرات الأدباء » (٣/ ٥٠٤) عن محمد بن سيرين رحمه الله تعالىٰ .

(٤) **الخنا** : الفحش في المنطق .

وأنشدني أبو الحسن بن أبي الحارث الهاشميُّ[1] : [من المتقارب]

تحـرَّ مِـنَ الطُّـرْق أوسـاطَهـا وعَـدِّ عـنِ المـوضِـع المشتبِـهْ
وسَمْعَكَ صُنْ عن سَماعِ القَبيحِ كصَـوْنِ اللِّسـانِ عـنِ النُّطـقِ بِـهْ
فـإنَّـكَ عنـدَ استمـاعِ القَبيـحِ شَـريـكٌ لقـائِلِـهِ فـانتَبِـهْ

وممّا يجري مَجرىٰ فُحش القول وهُجْره في وجوب اجتنابه ، ولزوم تنكُّبه.. ما كان شَنِعَ البديهةِ[2] ، مستنكَرَ الظاهرِ وإن كان مع التأمُّل سليماً ، وبعد الكشف والرَّوِيّة مستقيماً ؛ كالذي رواه الأزديُّ ، عن الصُّوليِّ لبعض المتكلِّفين من الشعراء[3] : [من مجزوء الرمل]

إنَّنـــي شيـــخٌ كبيـــرٌ كـــافـــرٌ ، بـــاللهِ سِيـــرِي
أنـــتِ ربِّـــي ، وإلٰـهـــي رازقُ الطِّفـــلِ الصَّغيـــرِ

يريد بقوله : (كافرٌ) أي : لابسٌ ؛ لأنَّ الكفرَ التغطيةُ ؛ ولذلك سُمِّي الكافر بالله كافراً ، لأنه قد غطَّىٰ نعمةَ الله بمعصيته .

وقوله : (باللهِ سِيرِي) أقسم عليها بالله تعالىٰ أن تسيرَ .

وقوله : (أنتِ ربِّي) يعني : ربِّي ولدَكِ ؛ من التربية ، (وإلٰهي رازقُ الطِّفلِ الصَّغيرِ) كما أنَّه رازقُ الجَلد الكبير .

فانظر إلىٰ هـٰذا التكلُّف البَشِيع ، والتعمُّق الشَّنيع ، ما اعتاضَ من حيثُ البديهةُ إذا سلم بعد الفكر والرَّوِيّة إلا لَوْماً إن حسن فيه الظنُّ ، أو ذمّاً إن قوي فيه الارتيابُ ، وقلَّما يكون ذلك إلا من خَليع بَطِر ، أو مُرتاب أَشِر .

فأمّا الحديثُ المرويُّ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تُصلُّوا على

---

(١) الأبيات لمحمود الورّاق في « ديوانه » (ص ٢٦٧) ، ونسبها في « الزهرة » (٢/ ٢٠٠) لعمّار بن ياسر ، وفي « معجم الأدباء » (٤/ ٩٢) للحسين بن محمد السَّهْواجيّ .

(٢) لزوم تنكُّبه : لزوم تجنبه والعدول عنه .

(٣) أورد البيتين في « الزهرة » (٢/ ٣٣١) ، وجعل قوله : (سِيرِي) مستأنفاً .

النَّبيِّ »[1] . . فخارجٌ عن هـٰذا النوع من التلبيس ، وفي تأويله وجهان :

أحدهما : أنه أراد النَّهيَ عن الصلاة في المكان المرتفع المُحدَودِب ، مأخوذٌ من النَّبْوة .

والثاني : أنه أراد به الطريقَ ، ومنه سُمِّي رسلُ الله أنبياءَ ؛ لأنَّهم الطُّرقُ إليه .

وإنَّما زال عنه التلبيسُ إذ قاله النبيُّ صلى الله عليه وسلم ـ وإن كان من قول غيره تلبيساً شَنِعاً ـ لأنَّ موضوعَ خطابه ، وشواهدَ أحواله . . يصرفان كلامَه عن التَّجوُّز والاسترسال في أمرٍ أو نهيٍ إلىٰ ما يجوز أن يرد به شرعٌ ، وينهىٰ عنه نبيٌّ ، وليس يمتنع ذلك في غيره ؛ فلذلك ما افترق وجودُه منه ومن غيره .

ومن آدابه : أن يجتنب أمثالَ العامّة الغَوْغاء ، ويتخصَّص بأمثال العلماء والأدباء ؛ فإنَّ لكلِّ صنفٍ من الناس أمثالاً تُشاكِلُهم ، فلا تجد لساقطٍ إلا مثلاً ساقطاً ، وتشبيهاً مستقبَحاً .

وقد قال الصَّنَوبريُّ[2] : [من الوافر]

وللسُّقّـاطِ أمثـالٌ فمِنهـا ... تمثُّلُهـمْ لـذي الشـيءِ المُـريـبِ
إذا مـا كنـتَ ذا بَـولٍ صحيـحٍ ... ألا فـاضـرِبْ بـهِ وَجـهَ الطَّبيـبِ

ولذلك علّتان :

إحداهما : أن الأمثال من هواجس الهِمَم ، وخَطَرات النفوس فلم تكن لذي الهمّة الساقطة إلا مثلاً مرذولاً ، وتشبيهاً معلولاً .

والثانية : أن الأمثال مستخرَجةٌ من أحوال المتمثِّلين بها ، فبحسَب ما هم عليه تكون أمثالُهم .

فلهاتَين العلّتَين ما وقع الفرقُ بين أمثال الخاصّة والعامّة .

---

(١) أورده في « النهاية في غريب الحديث » (٥/١١) .

(٢) البيتان في « ديوانه » (ص ٣٩٧) ، يقال : له بول كثير ؛ أي : ولد أو عدد كثير ، وبال الماء : إذا انفجر ، ومعنى المثل : إذا كنتَ صحيحاً . . فلا تُبالِ ما صنعتَ .

وربَّما **أَلِفَ المتخصِّص مثلاً عامّيّاً** ، وتشبيهاً ركيكاً ؛ **لكثرة ما يطرق سمعَه من** مخالطة الأرذال ، فيسترسل في ضربه مثلاً ، **فيصير به في الناس مثلاً** ؛ كالذي حُكي عن الأصمعيِّ : أنَّ الرشيد سأله يوماً عن أنساب بعض العرب ، فقال : (**على الخبيرِ سقَطْتَ** يا أميرَ المؤمنين ، فقال له الفضل بن الربيع : **أسقطَ اللهُ حِسَّكَ** !! أتخاطبُ أميرَ المؤمنين بمثل هٰذا الخطاب ؟!)[1] .

فكان الفضل بن الربيع مع قلّة علمه **أعرفَ بما يُستعمَل من الكلام في محاورة** الخلفاء من الأصمعيِّ الذي هو واحدُ عصرِه ، وقَريعُ دهرِه .

وللأمثال في الكلام مواقعُ في الأسماع ، وتأثيرٌ في القلوب ، لا يكاد الكلام المرسَل يبلغ مَبلغَها ، ولا يؤثِّر تأثيرَها ؛ **لأنَّ المعانيَ بها لائحةٌ** ، والشواهدَ عليها واضحةٌ ، **والنفوسَ لها وامقةٌ**[2] ، والقلوبَ **بها واثقةٌ** ، والعقولَ لها موافقةٌ .

ولذلك ضرب الله تعالى الأمثالَ في كُتبه ، وجعلها من دلائل رُسله ، **وأوضح بها الحجّةَ علىٰ خلقه** ؛ لأنَّها في العقول مقبولةٌ ، وفي القلوب معقولةٌ .

ولها أربعة شروط :

أحدها : صحّةُ التشبيه ، وإصابة التمثيل .

والثاني : أن يكونَ العِلمُ بها سابقاً ، والكلُّ عليها موافقاً .

والثالث : أن يسرعَ وصولُها إلى الفَهْم ، ويتعجَّل تصوُّرها في الوَهْم ، من غير ارتياءٍ في استخراجها ، ولا كدِّ فكرٍ في استنباطها .

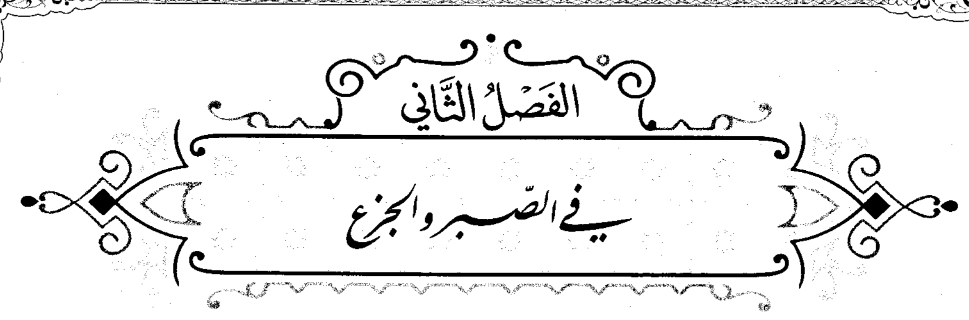
والرابع : أن تناسب حالَ السامع ؛ لتكون أبلغَ تأثيراً ، وأحسنَ موقعاً .

فإذا جمعت الأمثالُ المضروبة هٰذه الشروطَ الأربعة . . **كانت زينةَ الكلام** ، وجَلاءَ المعاني ، ونذيرَ الأفهام .

---

(١) أورده في « محاضرات الأدباء » (١/ ٣٨٦) بنحوه .

(٢) وامقة : عاشقة محبة لتلك الغرابة .



الفصل الثاني

في الصبر والجزع

اعلم : أنَّ من حسن التوفيق ، وأمارات السعادة الصبرَ في المُلِمّات ، والرِّفقَ عند النوازل ، بذلك نزل الكتاب ، وجاءت السنة .

قال الله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ .

يعني : ﴿ ٱصۡبِرُواْ ﴾ علىٰ ما افترض الله عليكم ، ﴿ وَصَابِرُواْ ﴾ عدوَّكم ، ﴿ وَرَابِطُواْ ﴾ فيه تأويلان ؛ **أحدهما** : ورابطوا على الجهاد ، **والثاني** : رابطوا على انتظار الصلوات[1] .

وروىٰ أبو هريرة رضي الله تعالىٰ عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **ألا أدلُّكُمْ علىٰ ما يُحبِطُ اللهُ به الخطايا ، ويرفعُ به الدَّرجاتِ ؟** » قالوا : بلىٰ ، يا رسولَ اللهِ ، قال : « **إسباغُ الوُضوءِ عندَ المَكارِهِ ، وكَثرةُ الخُطا إلى المَساجِدِ** ، وانتظارُ الصَّلاةِ بعدَ الصَّلاةِ ؛ **فذلكُمُ الرِّباطُ** ، فذلكُمُ الرِّباطُ »[2] .

فنزل الكتاب بتأكيد الصبر فيما أمر به وندب إليه ، **وجعله من عزائم التَّقوىٰ** فيما افترضه وحثَّ عليه .

رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **الصَّبرُ سَترٌ من الكُرُوبِ** ، وعَونٌ على الخُطُوبِ »[3] .

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام : (**الصَّبرُ مَطيَّةٌ لا تكبو** ، والقناعةُ سيفٌ لا ينبو)[4] .

---

(١) انظر « تفسير الطبري » (٣/ ٤/ ٢٧٦ـ٢٧٧) .

(٢) رواه مسلم (٢٥١) ، والترمذيّ (٥٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) أورده في « لباب الآداب » (ص ٢٩٣) ، و« سراج الملوك » (١/ ٣٩٦) .

(٤) أورده في « محاضرات الأدباء » (٤/ ٣٢٧) ، و« سراج الملوك » (١/ ٣٩٦) .

وقال عبد الحميد : لم أسمع أعجبَ من قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (**لو أنَّ الصبر والشكر بعيران . . ما باليتُ أيَّهما ركبتُ**)[١] .

وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : (**أفضلُ العُدّة : الصَّبرُ على الشِّدّة**)[٢] .

وقال بعض البلغاء : (**من خير خِلالك : الصَّبرُ على اختلالك**) .

وقيل في منثور الحكم : (**مَن أحبَّ البقاءَ . . فليُعدَّ للمصائب قلباً صَبوراً**)[٣] .

وقال بعض الحكماء : (**بالصبر علىٰ مواقع الكُره تُدرَك الحظوظُ**)[٤] .

وقال بعض الشعراء وهو عَبيد بن الأبرص[٥] : [من الخفيف]

صَبِّرِ النَّفسَ عندَ كلِّ مُلِمٍّ ... إنَّ في الصَّبرِ حِيلةَ المُحتالِ

لا تَضيقَنَّ في الأمورِ فقد تُكـ ... ـشَفُ غَمّاؤُها بغيرِ احتيالِ

ربَّما تجزَعُ النُّفوسُ منَ الأمْـ ... ـرِ لهُ فَرْجةٌ كحَلِّ العِقالِ

وقال ابن المقفَّع في كتاب « اليتيمة » : (**الصَّبرُ صبرانِ ؛ فاللئامُ أصبرُ أجساماً ، والكرامُ أصبرُ نفوساً ، وليس الصَّبرُ الممدوحُ صاحبُه أن يكون الرجلُ قويَّ الجسد على الكدِّ والعمل ؛ لأنَّ هٰذا من صفات الحمير ، ولٰكن أن يكونَ للنفس غَلُوباً ، وللأمور محتملاً ، ولجأشه عند الحِفاظ مرتبطاً**)[٦] .

---

(١) أورده في « البيان والتبيين » (٣/١٢٦) عن أبي عبد الحميد ، وقول سيدنا عمر رضي الله عنه رواه ابن أبي الدنيا في « الصبر » (٧) ، و« المجالسة وجواهر العلم » (١٥٥٨) .

(٢) أورده في « سراج الملوك » (١/٣٩٦) ، و« المحاسن والمساوىء » (ص ٣٠٥) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الاعتبار » (٢١) ، و« تاريخ دمشق » (١٩/٢٠٩) من قول عبد الرحمٰن بن أبي بكرة رضي الله عنهما .

(٤) أورده في « لباب الآداب » (ص ٢٩٤) ، و« سراج الملوك » (١/٣٩٦) .

(٥) الأبيات في « ديوانه » (ص ٣٣٠) .

(٦) انظر « الأدب الكبير » (ص ٢٦٨) ضمن « آثار ابن المقفع » ، والحِفاظ : الغضب .

واعلم : أن الصبر علىٰ ستة أقسام ، وهو في كلِّ قسمٍ منها محمودٌ .

فأوّل أقسامه وأَولاه : الصبر على امتثال ما أمر الله تعالىٰ به ، والانتهاء عمَّا نهى الله تعالىٰ عنه ؛ لأنَّ به تخلُص الطاعةُ ، وبخُلوص الطاعة يصحُّ الدِّين ، وتؤدَّى الفروض ، ويُستحَقُّ الثواب ؛ كما قال تعالىٰ في مُحكَم الكتاب : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

ولذلك قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « الصَّبرُ مِنَ الإيمانِ بمَنزِلةِ الرأسِ منَ الجَسَدِ »(١) .

وليس لمَن قلَّ صبرُه علىٰ طاعة الله تعالىٰ حظٌّ من برٍّ ، ولا نصيبٌ من صلاح ، ومَن لم يرَ لنفسه صبراً يكسبها ثواباً ، ويدفع عنها عقاباً . . كان مع سوء الاختيار بعيداً من الرَّشاد ، حَقيقاً بالضَّلال .

وقد قال الحسن البصريُّ : (يا مَن يطلب من الدنيا ما لا يلحقُه ؛ أترجو أن تلحقَ من الآخرة ما لا تطلبُه ؟)(٢) .

وقال أبو العتاهية(٣) : [من الطويل]

أراكَ امـرأً تـرجُـو مـنَ اللهِ عَفْـوَهُ ... وأنـتَ علـىٰ مـا لا يُحِـبُّ مُقِيـمُ
تـدُلُّ علـى التَّقـوىٰ وأنـتَ مُقصِّـرٌ ... فيا مَن يُداوي النَّاسَ وَهْوَ سَقِيمُ

وهٰذا النوع من الصبر إنَّما يكون لفَرط الجزع ، وشدّة الخوف ؛ فإنَّ مَن خاف الله تعالىٰ . . صبر علىٰ طاعته ، ومَن جزع من عقابه . . وقف عند أوامره .

والقسم الثاني : الصبر علىٰ ما تقضَّتْ أوقاته به من رَزيّةٍ قد أجهده الحزنُ عليها ، أو حادثةٍ قد استكدَّه الكَمَدُ والهمُّ بها(٤) ؛ فإنَّ الصبر عليها يُعقِبُه الراحةَ

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣١٠٧٩) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٤٠) عن سيدنا علي رضي الله عنه موقوفاً .
(٢) أورده في « الكشكول » (٢/ ١٥٣) .
(٣) البيتان في « ديوانه » (ص ٣٤٧ـ٣٤٨) .
(٤) الرزية : المصيبة ، واستكده : أتعبه وأثقل كاهله .

منها ، ويكسبه المَثوبةَ بها ؛ **فإنْ صبر طائعاً** ، وإلاّ . . احتمل هَمّاً لازماً ، وصبر كارهاً آثماً .

ورُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يقول الله تعالىٰ : **مَن لم يَرْضَ بقَضائي ، ولم يصبِرْ علىٰ بلائي . . فليَختَرْ ربّاً سِوايَ** »[1] .

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام للأشعث بن قيس : (**إنّك إنْ صبرتَ** . . جرىٰ عليك القلمُ وأنت مأجورٌ ، **وإنْ جزعتَ** . . جرىٰ عليك القلمُ وأنت مأزورٌ)[2] .

فذكر ذلك أبو تمام في شعرِه ، فقال[3] : [من الطويل]

وقال عليٌّ في التَّعازِي لأشعَثٍ ... وخافَ عليهِ بعضَ تلكَ المآثِمِ
أتصبِرُ للبَلْوىٰ عَزاءً وحِسْبةً ... فتُؤجَرَ أو تسلُو سُلُوَّ البَهائِمِ

وقال شَبيب بن شيبةَ للمهديّ : (**إنَّ أحقَّ ما صُبِر عليه . . ما لم تجدْ سبيلاً إلىٰ دفعه**) ، وأنشد : [من الكامل]

وإذا تُصِبْكَ مُصيبةٌ فاصبِرْ لَها ... عَظُمَتْ مُصيبةُ مُبتلىً لا يصبِرُ[4]

وقال آخر[5] : [من الطويل]

تصبَّرتُ مَغلوباً وإني لَمُوجَعٌ ... كَما صَبَرَ الظَّمْآنُ في البلدِ القَفْرِ
وليسَ اصطباري عنكَ صبرَ استطاعةٍ ... ولٰكنه صبرٌ أمرُّ من الصبْرِ

والقسم الثالث : الصبر علىٰ ما فات إدراكُه من رغبةٍ مرجوّة ، وأعوز نيلُه من مسرّةٍ مأمولة ؛ **فإنَّ الصبر عنها يُعقِبُ السَّلْوةَ منها ، والأسفَ بعد اليأس خُرْقٌ** .

---

(١) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (٢٢/ ٣٢٠) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢١/ ٦٠) ، **وفي الحديث** : الحث على الرضا بالقضاء ، والصبر على البلاء .

(٢) أورده في « التذكرة الحمدونية » (٤/ ١٩٥) ، و« شرح نهج البلاغة » (١٩/ ١٩٢) ؛ وفيه وفي (ب) : (جرىٰ عليك القدر) في الموضعين .

(٣) البيتان في « ديوانه » (٣/ ٢٥٩) .

(٤) أورده في «سراج الملوك» (١/ ٤٠٠)، وروى البيتَ في «تاريخ دمشق» (٣٦/ ١٥) لسليمان بن عبد الملك.

(٥) البيت الأول في « ديوان أبي حكيمة » (ص ١١٩) ، وفي « زهر الآداب » (٢/ ٦٥٨) .

رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **مَن أُعطِيَ فشَكَرَ ، ومُنِعَ فصَبَرَ ، وظُلِمَ فغَفَرَ ، وظَلَمَ فاستغفَرَ . . أولئكَ لهُمُ الأمنُ وهم مُهتَدُونَ** »[1] .

وقال بعض الحكماء : (**اجعَلْ ما طلبتَه من الدنيا فلم تنَلْه** مثلَ ما لم يخطُرْ ببالك ولم تنَلْه)[2] .

وقال بعض الشعراء[3] : [من الوافر]

إذا ملَكَ القَضاءُ عليكَ أمراً ... فليسَ يَحُلُّهُ غيرُ القَضاءِ

فما لَكَ والمُقامَ بدارِ ذُلٍّ ... ودارُ العِزِّ واسعةُ الفَضاءِ

وقال بعض الحكماء : (إن كنتَ تجزع علىٰ ما فات من يدك . . **فاجزَعْ علىٰ ما لم يصِلْ إليك**)[4] .

فأخذه بعض الشعراء فقال[5] : [من السريع]

لا تُطِلِ الحُزْنَ علىٰ فائتٍ ... فقلَّما يُجدِي عليكَ الحَزَنْ

سِيّانِ محزونٌ علىٰ فائتٍ ... ومُضمِرٌ حُزْناً لِما لم يَكُنْ

والقسم الرابع : الصبر فيما يخشىٰ حدوثه من رهبةٍ يخافها ، أو يحذر حلولَه من نكبةٍ يخشاها ، فلا يتعجَّلْ همَّ ما لم يأتِ ؛ **فإنَّ أكثرَ الهموم كاذبةٌ** ، والأغلبَ من الخوف مدفوعٌ .

---

(١) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (٧/١٣٨) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٤١١٧) عن سيدنا سَخْبَرَةَ رضي الله عنه .

(٢) رواه في « طبقات الصوفية » (ص ٨٠) من قول أبي سليمان الدارانيّ رحمه الله تعالىٰ ؛ وفي (ب ، ج) : (ببالك فلم تقُلْه) .

(٣) أورد البيتين في « ديوان المعاني » (٢/١٩٣) ، و« التذكرة الحمدونية » (١/٧٩) منسوباً لسيدنا علي رضي الله عنه ، وهما في « ديوانه » (ص ٣٥) برواية وقافية أخرىٰ .

(٤) أورده في « التذكرة الحمدونية » (٣/٣٣٠) ، و« شرح ديوان البلاغة » (١/٣٢٤) من وصية سيدنا علي لابنه محمد رضي الله عنهما .

(٥) البيتان لمحمود الورّاق في « ديوانه » (ص ١٨٣) .

وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **بالصَّبرِ يُتوَقَّعُ الفَرَجُ ، ومَن يُدمِنْ قَرْعَ الأبوابِ . . يَلِجْ** »[1] .

وقال الحسن البصري : (**لا تحمِلَنَّ علىٰ يومِكَ همَّ غدِكَ ، فحسبُ كلِّ يومٍ همُّه**)[2] .

وأنشد الجاحظ لحارثة بن بدر[3] : [من الطويل]

إذا الهمُّ أمسىٰ وَهْوَ داءٌ فأَمضِهِ ... ولستَ بمُمضيهِ وأنتَ تُعادِلُهْ

ولا تُنزِلَنْ أمرَ الشَّديدةِ بامرئٍ ... إذا همَّ أمراً عوَّقَتْهُ عَواذِلُهْ

وقلْ للفؤادِ إنْ نَزا بكَ نَزْوةً ... منَ الرَّوعِ أَفرِخْ أكثرُ الهَمِّ باطِلُهْ

والقسم الخامس : الصبر فيما يتوقَّعه من رغبةٍ يرجوها ، وينتظره من نعمةٍ يأمُلها ؛ فإنَّه إن أدهشه التوقُّع لها ، وأذهله التطلُّع إليها . . انسدَّت عليه سُبُلُ المطالب ، واستفزَّه تسويلُ المطامع ؛ فكان أبعدَ لرجائه ، وأعظمَ لبلائه .

وإذا كان مع الرَّغبة وَقوراً ، وعند الطلب صَبوراً . . انجلَت عنه عَمايةُ الدَّهَش ، وانجابت عنه حَيرة الوَلَه ، فأبصر رشدَه ، وعرف قصدَه .

وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **الصَّبرُ ضِياءٌ** »[4] يعني ـ والله أعلم ـ : أنه يكشف ظُلَمَ الحَيرة ، ويوضح حقائقَ الأمور .

وقال أكثم بن صيفيّ : (**مَن صبرَ . . ظَفِرَ**)[5] .

---

(١) الشطر الأول من الحديث أورده في « المستطرف » (٢/ ٣٣٤) ، والثاني رواه في « شعب الإيمان » (٩٥٣٠) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٩٧٨٥) عن سيدنا أبي الدرداء رضي الله عنه .

(٢) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٣٤) ، ورواه في « تاريخ دمشق » (٦٨/ ٦٠) من قول السيد المسيح عليه السلام .

(٣) الأبيات في « البيان والتبيين » (٣/ ٢١٨) ، وتعادله : تحار بين فعله وتركه ، وأفرخ الروع : ذهب الفزع .

(٤) رواه مسلم (٢٢٣) ، والترمذي (٣٥١٧) عن سيدنا أبي مالك الأشعري رضي الله عنه .

(٥) رواه القالي في « الأمالي » (٢/ ١٧٢) ، وأورده في « سراج الملوك » (١/ ٣٩٥) .

وقال ابن المقفَّع : (كان في قصر أردشير مكتوبٌ : **الصبرُ مفتاحُ الدَّرَك**)[1] .

وقال بعض الحكماء : (**بحسن التأنِّي تسهُلُ المطالبُ**)[2] .

وقال بعض البلغاء : (**مَن صبرَ . . نال المُنىٰ ، ومَن شكر . . حصَّنَ النُّعْمىٰ**) .

وقال محمد بن بشير[3] : [من البسيط]

إنَّ الأمورَ إذا انسدَّتْ مطالبُها ... فالصَّبرُ يفتقُ منها كلَّ ما ارتَتَجا

لا تيأسَنَّ وإنْ طالَتْ مُطالبةٌ ... إذا استعَنْتَ بصبرٍ أنْ ترىٰ فَرَجا

أخلِقْ بذي الصَّبرِ أنْ يحظىٰ بحاجتِهِ ... ومُدمِنِ القَرْعِ للأبوابِ أنْ يَلِجا

* * *

والقسم السادس : الصبر علىٰ ما نزل من مكروه ، أو حلَّ من أمرٍ مَخُوف ، وبالصبر في هـٰذا تنفتح وجوه الآراء ، وتُستدفَع مكايدُ الأعداء ؛ فإنَّ مَن قلَّ صبرُه . . عزب رأيُه ، واشتدَّ جَزَعُه ، فصار صريعَ همومه ، وفريسةَ غمومه[4] .

وقد قال الله تعالىٰ : ﴿ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ .

روىٰ ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **إنِ استطعتَ أن تُعامِلَ اللهَ بالرِّضا واليقينِ . . فافعَلْ ، فإنْ لم تستطِعْ . . فاصبرْ ؛ فإنَّ في الصَّبرِ علىٰ ما تكرَهُ خيراً كثيراً ، واعلَمْ أنَّ النَّصرَ معَ الصَّبرِ ، والفَرَجَ معَ الكَرْبِ ، واليُسْرَ معَ العُسْرِ** »[5] .

---

(١) أورده في « سراج الملوك » (١/ ٣٩٥) .
(٢) أورده في « ترتيب المدارك » (١/ ٥٠٠) من قول عيسى بن مسكين رحمه الله تعالىٰ ، و« سراج الملوك » (٢/ ٧٦٤) .
(٣) أورد الأبيات في « شعراء أمويون » (٣/ ٢٠٠) .
(٤) عزب رأيه : غاب وضلَّ ، وفريسة غمومه : مقتول غمومه ومغلوبها .
(٥) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣/ ٥٤١) ؛ وفي غير (أ) : (أن تعمل لله بالرضا) .

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام : (**الصبرُ** : مناضلُ الحِدثانِ ، **والجَزَعُ** : من أعوانِ الزَّمانِ)[١] .

وقال بعض الحكماء : (**بمفتاح عزيمة الصبر** تُعالَج مغاليقُ الأمور)[٢] .

وقال بعض البلغاء : (**عند انسداد الفُرَج** تبدو مَطالعُ الفَرَج)[٣] .

روى ابن عباس رضي الله عنهما : (أنَّ سليمان بن داوود عليهما الصلاة والسلام **لمّا استكدَّ شياطينَه في البناء** . . شكَوا ذلك إلىٰ إبليس لعنه الله ، فقال : **ألستُمْ تذهبون فُرَّغاً وترجعون مشاغيلَ** ؟ قالوا : بلىٰ ، قال : ففي هٰذا لكم راحةٌ .

فبلغ ذلك سليمانَ ، **فشغلَهم ذاهبين وراجعين** ، فشكَوا ذلك إلىٰ إبليس لعنه الله ، فقال : **ألستم تستريحون بالليل** ؟ قالوا : بلىٰ ، قال : ففي هٰذا راحةٌ لكم نصفَ دهرِكم .

فبلغ ذلك سليمانَ عليه السلام ، **فاستعملهم بالليل والنهار** ، فشكَوا ذلك إلىٰ إبليس لعنه الله ، فقال : **الآن جاءكم الفَرَجُ** ، فما لبِثُوا أن أُصِيبَ سليمانُ عليه السلام ميتاً علىٰ عصاه)[٤] .

فإذا كان هٰذا في نبيٍّ من أنبياء الله عليهم السلام ؛ يعمل بأمره ، ويقف علىٰ حدِّه . . **فكيف بما جرَّتْه الأقدارُ من أيدٍ عادية** ، وساقه القضاء من حوادث نازلة ، **هل تكونُ مع التناهي إلا منقرضةً** ، وعند بلوغ الغاية إلا منحسرةً ؟!

وأنشد بعض الأدباء لعثمان بن عفان رضي الله عنه[٥] : [من الطويل]

خليلَيَّ لا واللهِ ما مِن مُلِمّةٍ تدومُ علىٰ حَيٍّ وإنْ هيَ جَلَّتِ

---

(١) أورده في « ربيع الأبرار » (٣/ ١٨٧) ، و« شرح نهج البلاغة » (١/ ٣٢٠) ، **والمناضلة** : المراماة ، **والحِدْثان** : نوائب الدهر ومصائبه .

(٢) أورده في « جمهرة الأمثال » (١/ ٢٤٤) ، و« البصائر والذخائر » (٤/ ١٥٣) .

(٣) أورده في « نزهة المجالس » (١/ ٨٤) .

(٤) أورده في « نهاية الأرب » (١٤/ ١٣٧) ، و« نزهة المجالس » (١/ ٨٤) ، **واستكدَّ شياطينه** : أتعبهم في بناء بيت المقدس .

(٥) أورد الأبيات سوى الرابع في « الفرج بعد الشدّة » (٥/ ٦)، والثالث والرابع في « الكشكول » (٢/ ٧١).

فإنْ نزلَتْ يوماً فلا تخضَعَنْ لها ... ولا تُكثِرِ الشَّكْوىٰ إذا النَّعلُ زَلَّتِ
فكَمْ من كريمٍ قد بُلِي بنوائبٍ ... فصابَرَها حتّىٰ مضَتْ واضمَحَلَّتِ
وكَمْ غَمْرةٍ هاجَتْ بأمواجِ غَمْرةٍ ... تلقَّيتُها بالصَّبرِ حتّىٰ تَجَلَّتِ
وكانتْ عَلى الأيّامِ نفسي عزيزةً ... فلمّا رأَتْ صبري على الذُّلِّ ذَلَّتِ
فقلتُ لها يا نفسُ مُوتي كريمةً ... فقدْ كانتِ الدّنيا لنا ثُمّ وَلّتِ

ولتسهيل المصائب ، وتخفيف الشدائد أسبابٌ ، إذا قارنت حزماً ، وصادفت عزماً . . هان وقعُها ، وقلَّ تأثيرُها وضررُها .

فمنها : إشعارُ النفس بما تعلمه من حلول الفناء ، وتقضِّي المَسارِّ ، وأنَّ لها آجالاً منصرمةً ، ومُدَداً منقضيةً ؛ **إذ ليس للدنيا حالٌ تدوم** ، ولا لمخلوقٍ فيها بقاءٌ .

روى ابن مسعود رضي الله عنه ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **إنَّما مَثَلي ومَثَلُ الدنيا** كمَثَلِ راكبٍ ؛ مالَ إلىٰ ظِلِّ شجرةٍ في يومٍ صائفٍ ، ثمَّ راحَ وتَرَكَها »[1] .

وسُئل علي بن أبي طالب عليه السلام عن الدنيا ، فقال : (**تغُرُّ وتضُرُّ وتمُرُّ**)[2] .

وسُئل بعض الحكماء عن الدنيا ، فقال : (**إذا أقبلَتْ . . أدبرَتْ**) .

وقال عمرو بن عبيد : (**الدنيا أمَدٌ ، والآخرة أبَدٌ**)[3] .

وقال أنوشروان : (**إنْ أحببتَ ألاّ تغتمَّ . .** فلا تقتنِ شيئاً)[4] .

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣١٠) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٤٤٤) .

(٢) أورده في « محاضرات الأدباء » (٤/ ٦١) ، و« شرح نهج البلاغة » (٢٠/ ٥١) ، وتغر : تخدع وتطمع بالباطل .

(٣) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٣/ ٢٧٣) ، وابن أبي الدنيا في « الزهد » (٢٣٧) من قول عبيد بن عمير الليثيّ .

(٤) في (هـ) : (فلا تقتنِ ما به تهتم) .

فأخذه بعض الشعراء فقال[1] : [من الطويل]

أَلم تَرَ أَنَّ الدَّهرَ من سُوءِ فِعلِهِ ... يُكدِّرُ ما أعطىٰ ويسلُبُ ما أَسْدىٰ
فمَن سرَّه أَلاّ يرىٰ ما يسوءُهُ ... فلا يتَّخِذْ شيئاً يخافُ لهُ فَقْدا

وأنشد بعض الحكماء : [من الكامل]

لحكيمِنا بُقْراطَ خيرُ قضيّةٍ ... ووصيّةٍ تنفي الهُمُومَ الرُّكَّدا
قال الهمومُ تكونُ مِن طمَعِ الوَرىٰ ... في لَبْثِ ما في طبعِهِ أن ينفَدا
فإذا اقتنَيتَ مِنَ الزُّجاجةِ قابلاً ... للكسرِ فانكسرَتْ فلا تَكُ مُكمَدا

وأنشدني بعض أهل العلم لسعيد بن سَلْم[2] : [من مجزوء الرمل]

إنَّما الدُّنيا هِباتٌ ... وعَوارٍ مُستَرَدَّةْ
شِدّةٌ بعدَ رَخاءٍ ... ورَخاءٌ بعدَ شِدَّةْ

ولمّا قُتِل بُزْرُجُمِهْرَ . . وُجِد في جيب قميصه رقعةٌ فيها مكتوبٌ : (**إذا لم يكن جَدٌّ . . ففِيمَ الكَدُّ ؟ وإذا لم يكن للأمر دوامٌ . . ففِيمَ السُّرورُ ؟ وإذا لم يرِدِ اللهُ تعالىٰ دوامَ مُلكٍ . . ففِيمَ الحِيلةُ ؟**)[3] .

وقال ابن الروميّ[4] : [من الطويل]

رأيتُ حياةَ المرءِ رَهْناً بموتِهِ ... وصحّتَهُ رَهْناً كذلكَ بالسُّقْمِ
إذا طابَ لي عيشٌ تنغَّصتُ طِيْبَهُ ... بصِدقِ يقيني أنْ سيذهَبُ كالحُلْمِ
ومَن كان في عيشٍ يراعي زوالَهُ ... فذلكَ في بؤسٍ وإنْ كان في نُعْمِ

---

(١) أوردهما في « التذكرة الحمدونية » (٨/ ١٠٥) ، و« المستطرف » (٢/ ٢٨٨) لعبد الله بن طاهر ، وفي « الإعجاز والإيجاز » (ص ٢٤٢) لعبيد الله بن عبد الله بن طاهر .

(٢) أورده في « نهاية الأرب » (٦/ ١١١) ، ونسبه في « الفرج بعد الشدة » (٥/ ١٩) لأبي العتاهية ، وهو في « ديوانه » (ص ٥٢٤) .

(٣) جَد : البخت والحظ والنصيب ؛ أي : إذا لم يكن لك حظ . . فلا تتعب نفسك ، ودوام ملك : دوام حياة .

(٤) الأبيات في « ديوانه » (٥/ ٢١٢٩) .

ومنها : أن يتصوَّر انجلاء الشدائد ، وانكشاف الهموم ، **وأنَّها تتقدَّر بأوقات لا تتصرَّم قبلَها ، ولا تستديم بعدَها** ، **ولا تقصُر بجَزَع ، ولا تطول بصبر** ، **وأنَّ كلَّ يوم يمرُّ بها** . . **فهو يذهب منها بشَطر** ، **ويأخذ منها بنصيب** ، **حتّىٰ تنجليَ وهو عنها غافل** .

حُكي : أنَّ الرشيد حبس رجلاً ، ثم سأل عنه بعد زمان ، فقال للموكَّل به : (قل له : **كلُّ يومٍ يمضي من نعيمك** . . يمضي من بؤسي مثلُه ، **والأمرُ قريبٌ** ، **والحَكَمُ اللهُ تعالىٰ**)[1] .

فأخذ هٰذا المعنىٰ بعض الشعراء فقال[2] : [من البسيط]

لو أنَّ ما أنتُمُ فيهِ يدُومُ لكُمْ ... ظنَنْتُ ما أنا فيه دائماً أبَدا
لٰكنْ رأيتُ اللَّياليْ غيرَ تاركةٍ ... ما ساءَ من حادثٍ أو سرَّ مُطَّرِدا
فقد سكَنْتُ إلىٰ أنِّي وأنَّكُمُ ... سنستَجِدُّ خلافَ الحالتَينِ غَدا

وأُنشدت لبعض الشعراء[3] : [من الطويل]

عَواقِبُ مكروهِ الأمورِ خِيارُ ... وأيّامُ شرٍّ لا تدومُ قِصارُ
وليسَ بباقٍ بُؤسُها ونَعيمُها ... إذا كَرَّ ليلٌ ثمَّ كرَّ نَهارُ

وأنشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين حضرته الوفاة[4] : [من الوافر]

أَلَمْ تَرَ أنَّ ربَّكَ ليسَ تُحصىٰ ... أيادِيهِ الحَدِيثةُ والقَدِيمَةْ
تسَلَّ عنِ الهُمُومِ فليسَ شيءٌ ... يُقيمُ ولا هُمومُكَ بالمُقيمَةْ
لعلَّ اللهَ ينظُرُ بعدَ هٰذا ... إليكَ بنظرةٍ منهُ رَحِيمَةْ

---

(١) أورده في « عيون الأخبار » (٢/ ٣٧٥) ، و« العقد الفريد » (٢/ ١٦١) .
(٢) أورد الأبيات في « الإيضاح في علوم البلاغة » (ص ٤٠٧) ، و« التذكرة الحمدونية » (٨/ ٢٧) ، و« ذيل تاريخ بغداد » (١٩/ ٧٣) .
(٣) روى البيتين في « الفرج بعد الشدة » (١/ ٢٩٤) ، و« الوافي بالوفيات » (٧/ ٣٦٨) لابن ثوابة الكاتب .
(٤) أورد الأبيات ابن أبي الدنيا في « الفرج بعد الشدة » (٩٨ ـ نسخة المنتدى الإسلامي) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٩٥٤٩) ، والأيادي : النِّعم ؛ فلا النعم دائمة ، ولا الهموم والأحزان دائمة .

ومنها : أن يعلم أنَّ فيما وُقِي من الرَّزايا ، وكُفِي من الحوادث . . ما هو أعظمُ من رَزيّته ، وأشدُّ من حادثته ؛ ليعلم أنه ممنوحٌ بحسن الدفاع .

ولذلك قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « **إنَّ لله تعالىٰ في أثناءِ كلِّ مِحْنةٍ مِنْحةً** » .

وقيل للشعبي في نائبةٍ : (**كيف أصبحتَ** ؟ قال : **بين نعمتين** : خيرٍ منشورٍ ، وشرٍّ مستورٍ) .

وقال بعض الشعراء[1] : [من الكامل]

لا تَكـرَهِ المكـرُوهَ عنـدَ حُلُـولِـهِ إنَّ العَـواقـبَ لـم تَـزَلْ مُتبـايِنَـةْ
كَـمْ نِعْمـةٍ لا تستقِـلُّ بشُكْـرِهـا للهِ فـي طَـيِّ المَكـارِهِ كـامِنَـةْ

ومنها : أن يتأسّىٰ بذوي الغِيَر ، ويتسلّىٰ بأُولي العِبَر ، ويعلم أنّهم الأكثرون عدداً ، والأسرعون مدَداً ، فيستنجد من سَلْوة الأسىٰ وحسن العزاء ما يخفِّف شَجْوَه ، ويُقِلُّ هَلَعَه .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (**الصَقوا بذَوي الغِيَرِ . . تتَّسِعْ قلوبُكم**) .

وعلىٰ مثل ذلك كانت مراثي الشعراء ، حتّىٰ قال البحتريُّ[2] : [من الطويل]

فلا عَجَبٌ للأُسْدِ إنْ ظفِرَتْ بها كلابُ الأعادي من فَصيحٍ وأَعجَمِ
فحَرْبةُ وَحْشيٍّ سقَتْ حمزةَ الرَّدىٰ وموتُ عليٍّ من حسامِ ابنِ مُلجَمِ

وقال أبو فراس[3] : [من الكامل]

المَـرءُ بيـنَ مصـائـبٍ مـا تنقضـي حتّـىٰ يُـوارَىٰ شخصُـهُ فـي رَمْسِـهِ
فمُـؤجَّـلٌ يَلقـى الـرَّدىٰ فـي أهلِـهِ ومُعجَّـلٌ يَلقـى الـرَّدىٰ فـي نَفسِـهِ

---

(١) البيتان في « ديوان سيدنا عليّ » رضي الله عنه (ص ٢٥٤) .
(٢) البيتان في « ديوانه » (٣/١٩٤٨) .
(٣) البيتان في « ديوانه » (ص ١٤٢) .

ومنها : أن يعلم أنَّ النِّعَم زائرةٌ ، وأنَّها لا محالةَ زائلةٌ ، وأنَّ السرور بها إذا أقبلت مَشوبٌ بالحذر من فراقها إذا أدبرت ، **وأنَّها لا تمزُج بإقبالها فرَحاً حتّىٰ تُعقِبَ بفراقها ترَحاً** ، **فعلىٰ قدر السرور يكون الحزن** .

وقد قيل في منثور الحكم : (**المفروحُ به هو المحزونُ عليه**)[1] .

وقيل : (**مَن بلغ غايةَ ما يحبُّ** . . فليتوقَّعْ غايةَ ما يكرَه)[2] .

وقال بعض الحكماء : (**مَن علم أنَّ كلَّ ثابتٍ إلى انقضاء** . . حسُنَ عزاؤه عند نزول البلاء)[3] .

وقيل للحسن البصريِّ رحمه الله : (**كيف ترى الدنيا** ؟ فقال : **شغلني توقُّعُ بلائها عن الفرح برخائها**)[4] .

فأخذه أبو العتاهية فقال[5] : [من السريع]

تــزيـــدُهُ الأيّـــامُ إنْ أقبَلَـــتْ ... شِـــدّةَ خَـــوفٍ لتَصـــاريفِهـــا
كــأنَّهـــا فـــي حـــالِ إسعـــافِهـــا ... تُسمِعُـــهُ وَقعـــةَ تخـــويفِهـــا

ومنها : أن يعلم أنَّ سروره مقرون بمَساءة غيره ، وكذلك حزنُه مقرون بسرور غيره ؛ إذ كانت الدنيا تنتقل من صاحبٍ إلىٰ صاحب ، وتصل صاحباً بفراق صاحب ، فتكون سروراً لمَن وصلته ، وحزناً لمَن فارقته .

ولذلك قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « **ما قُرِعَت عصاً علىٰ عصاً إلا فرح لها قومٌ** ، وحزن آخرون »[6] .

---

(١) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٣) ، و« الكشكول » (١/ ٨٤) .
(٢) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٣) ، و« محاضرات الأدباء » (٤/ ٥٦) .
(٣) أورده في « سراج الملوك » (١/ ٤٠٠) .
(٤) أورده في « الكشكول » (٢/ ٦٦) .
(٥) البيتان في « ديوانه » (ص ١٦٥ ـ دار صادر) .
(٦) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٢٩٥) ، وأبو عبيد في « الأمثال » (ص ٢٥٨) .

وقال البحتريُّ[1] : [من الطويل]

متىٰ أَرَتِ الدُّنيا نَباهةَ خاملٍ ... فلا ترتقِبْ إلا خُمُولَ نَبيهِ

وأوضحه المتنبي فقال[2] : [من الطويل]

بذا قَضَتِ الأيّامُ ما بينَ أهلِها ... مَصائبُ قومٍ عندَ قومٍ فَوائدُ

وأنشد بعض أهل الأدب[3] : [من الطويل]

ألا إنَّما الدُّنيا غَضارةُ أَيْكةٍ ... إذا اخضَرَّ منها جانبٌ جفَّ جانبُ

فلا تفرَحَنْ منها لشيءٍ تفيدُهُ ... سيذهبُ يوماً مثلَما أنتَ ذاهبُ

وما هٰذه الأيّامُ إلا فجائعٌ ... وما العيشُ واللَّذّاتُ إلا مصائبُ

فلا تكتحِلْ عيناكَ منها بعَبْرةٍ ... علىٰ ذاهبٍ فيها فإنَّكَ ذاهبُ

ومنها : أن يعلم أنَّ طوارقَ الإنسان من دلائل فضله ، ومِحَنَه من شواهد نُبله ؛ ولذلك إحدىٰ علّتين :

ـ إمّا لأنَّ الكمال مُعوِز ، والنقص لازم ، فإذا توفَّر الفضلُ عليه . . صار النقص فيما سواه .

وقد قيل : (مَن زِيدَ في عقله . . نُقِص من رزقه)[4] .

ورُوِي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما انتقصَتْ جارحةٌ مِن إنسانٍ إلا كانَتْ ذَكاءً في عَقْلِهِ » .

وقال أبو العتاهية[5] : [من البسيط]

ما جاوزَ المَرءُ من أطرافِهِ طَرَفاً ... إلا تخَوَّنَهُ النُّقصانُ في طَرَفِ

---

(١) البيت في « ديوانه » (٤/٢٣٩٩) .

(٢) البيت في « ديوانه » (١/٢٧٦) .

(٣) الأبيات لابن عبد ربه في « ديوانه » (ص ٤٩) ، والغضارة : النعمة والسعة والخِصب والوفرة في المعيشة ، والأيكة : هو الشجر الملتف الكثير ، وفجائع ـ جمع فجيعة ـ : وهي الرزيئة والمصيبة .

(٤) رواه في « حلية الأولياء » (٧/ ٢٧١) من قول سفيان بن عيينة رحمه الله تعالىٰ .

(٥) البيت في « ديوانه » (ص ٢٣٩) .

وأنشد بعض الأدباء لإبراهيم بن هلال الكاتب[١] : [من الطويل]

إذا جمعَتْ بينَ امرَأَينِ صِناعةٌ فأحبَبْتَ أن تدرِيْ الذي هوَ أحذَقُ
فلا تتفقَّدْ منهما غيرَ ما جرَتْ بهِ لهما الأرزاقُ حينَ تُفرَّقُ
فحيثُ يكونُ النَّقصُ فالرِّزقُ واسعٌ وحيثُ يكونُ الفضلُ فالرِّزقُ ضَيِّقُ

ـ وإمّا لأنَّ ذا الفضل محسود ، وبالأذىٰ مقصود ؛ فهو لا يسلم من تِرَة مُعادٍ ، واشتطاط مُناوٍ[٢] .

وقد قال الصَّنوبريُّ[٣] : [من الكامل]

مِحَنُ الفَتىٰ يُخبِرْنَ عن فَضلِ الفَتىٰ كالنّارِ مُخبِرةٌ بفَضلِ العَنبَرِ

وقلَّما تكون محنةُ فاضلٍ إلا من جهة ناقص ، وبلوىٰ عالم إلا علىٰ يد جاهل ؛ لاستحكام العداوة بينهما بالمُباينة ، وحدوث الانتقام لأجل التقدُّم .

وقد قال الشاعر[٤] : [من الطويل]

فلا غَرْوَ أنْ يُمنىٰ أديبٌ بجاهلٍ فمِن ذَنَبِ التِّنِّينِ تنكسِفُ الشَّمسُ

ومنها : ما يعتاضُه من الارتياض بنوائب عصره ، ويستفيدُه من الحُنْكة بلأواء دهره ، فيصلب عودُه ، ويستقيم عمودُه[٥] ، ويكمل بأدبَي شدّته ورخائه ، ويتَّعظ بحالتَي عفوِه وبلائه .

حُكي عن ثعلب قال : (دخلتُ علىٰ عبيد الله بن سليمان بن وهب وعليه خِلَعُ

---

(١) أورد الأبيات في « يتيمة الدهر » (٢/٣٤٦) ، و« معجم الأدباء » (١/٣١٣) .
(٢) لا يسلم من جور معاديه في حال بره وإحسانه ، فكيف في حال عقوقه وعصيانه ؟!
(٣) البيت في « ديوانه » (ص ٩٩) .
(٤) البيت لأبي الفتح البستيّ في « ديوانه » (ص ٤٣٦) ، لا غَرْو : لا عجب ، وأن يُمنىٰ : أن يُبتلىٰ به ، والتنين : نجم علىٰ شكل الحية في الفلك .
(٥) المراد به : عقله ورأيه ، استعار العود والعمود لهما بملاحظة أن كلاً منهما يعتمد عليه ، وفي المثل : (زاحم بعودٍ أو دع) أي : استعن علىٰ حربك بالمشايخ الكُمَّل الذين جرَّبوا الأمور .

الرِّضا بعد النَّكبة ، فلمّا مثَلتُ بين يديه . . قال لي : يا أبا العباس : [من مخلع البسيط]

نـوائـبُ الـدَّهـرِ أدَّبَتْنِـي ... وإنَّمـا يُـوعَـظُ الأديـبُ
قـد ذُقـتُ حُلْـواً وذُقْـتُ مُـرّاً ... كـذاكَ عيـشُ الفَتـىٰ ضُـرُوبُ
لـم يَمـضِ بـؤسٌ ولا نَعيـمٌ ... إلا وَلِـيْ فيهمـا نَصيـبُ
كـذاكَ مَـن صـاحَـبَ اللَّيـالِـيْ ... تعـروه فـي مـرِّهـا الخُطُـوبُ

قلت : لمَن هٰذه الأبياتُ ؟ قال : لي)[1] .

ومنها : أن يخبُرَ أمورَ زمانه ، ويتنبَّه علىٰ صلاح شانه ، فلا يغترَّ برخاء ، ولا يطمعَ في استواء ، ولا يأمُلَ أن تبقى الدنيا علىٰ حالة ، أو تخلوَ من تقلُّب واستحالة ؛ **فإنَّ مَن عرف الدنيا** ، وخبر أحوالَها . . **هان عليه بؤسُها ونعيمُها** .

أنشد بعض الأدباء[2] : [من الكامل]

إنِّـي رأيـتُ عـواقـبَ الـدُّنيـا ... فتـرَكـتُ مـا أهـوىٰ لمـا أخشـىٰ
فكَّـرتُ فـي الـدُّنيـا وعـالَمِهـا ... فـإذا جميـعُ أمـورِهـا يفنـىٰ
وبلَـوتُ أكثـرَ أهلِهـا فـإذا ... كـلُّ امـرِىءٍ فـي شـأنِـهِ يسعـىٰ
أسنـىٰ منـازِلِهـا وأرفعُهـا ... فـي العـزِّ أقـربُهـا مـنَ المَهـوىٰ
تقفـو مَسـاوِيْهـا مَحـاسِنَهـا ... لا شـيءَ بيـنَ النَّعـي والبُشـرىٰ
ولقـد مـرَرتُ علـى القُبـورِ فمـا ... مَيَّـزتُ بيـنَ العبـدِ والمَـولـىٰ
أتُـراكَ تـدري كـم رأيـتَ مـنَ الـ ... أحيـاءِ ثـمَّ رأيتَهُـمْ مَـوتـىٰ

فإذا ظفر المصابُ بأحد هٰذه الأسباب . . تخفَّفت عنه أحزانُه ، وتسهَّلت عليه أشجانُه ، فصار وَشِيكَ السَّلْوةِ ، قليلَ الجَزَعِ ، حسنَ العزاءِ .

---

(١) روى الأبيات سوى الأخير في « الأغاني » (٢٧/ ٩٣٠٢) لسليمان بن وهب يذكر نكبته أيام الواثق .

(٢) الأبيات سوى الرابع لأبي العتاهية في « ديوانه » (ص ٩ـ ١٠) ، فتركت ما أهوىٰ : ما أحبه من متاعها ؛ لما أخشىٰ من حسابها وعقابها ، ومن المهوىٰ : أقربها من السقوط .

قال بعض الحكماء : (مَن حاذر . . لم يهلَعْ ، ومَن راقب . . لم يجزَعْ ، ومَن كان متوقِّعاً . . لم يُلفَ متوجِّعاً)(١) .

وقال بعض الشعراء(٢) : [من الرمل]

إنَّمـا الـدَّهـرُ سُهـولٌ وحُـزُونُ ... مـا يكـونُ الأمـرُ سَهْـلاً كلُّـهُ
قلَّمـا هـوَّنـتَ إلا سيَهُـونُ ... هَـوِّنِ الأمـرَ تَعِـشْ فـي راحـةٍ
ضـلَّ مَـن يطلُـبُ شيئاً لا يكُـونُ ... تطلُـبُ الـرّاحـةَ فـي دارِ العَنـا

وإن أغفل نفسَه من دواعي السَّلْوة ، ومنعها من أسباب الصبر . . تضاعف عليه من شدّة الأسىٰ وهمِّ الجزع ما لا يُطيق صبراً عليه ، ولا يجدُ سُلُوّاً عنه .

وقال ابن الروميِّ(٣) : [من الكامل]

إنَّ البَـلاءَ يُطـاقُ غيـرَ مُضـاعَـفٍ ... فـإذا تضـاعَـفَ صـارَ غيـرَ مُطـاقِ

فإنْ ساعد جزَعَه بالأسباب الباعثة عليه ، وأيّد هلَعَه بالذرائع الداعية إليه . . فقد سعىٰ في حَتْفه ، وأعان علىٰ تَلَفه .

فمن أسباب ذلك : تذكُّرُ المُصاب ، حتّىٰ لا يتناساه ، وتصوُّرُه ، حتّىٰ لا يعزُبُ عنه ، ولا يجدُ مع التَّذكار سَلْوة ، ولا يخلط مع التصوُّرِ تعزيةً .

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (لا تستغزِرُوا الدموعَ بالتذكُّر)(٤) .

وقال الشاعر(٥) : [من الطويل]

. . . . ولا يبعَـثُ الأحـزانَ مثـلُ التَّـذكُّـرِ

---

(١) أورده في « سراج الملوك » (١/ ٤١٠) ، وبعضه في « محاضرات الأدباء » (٤/ ٣٢٩) .

(٢) الأبيات لعمرو بن حِلِّزَةَ اليَشكُريِّ كما في « الحماسة البصريّة » (٤/ ١٦٨٤) ، ووردت في « ديوان سيدنا عليٍّ » رضي الله عنه (ص ٢٥٩) ، وفي (ب ، ج) : (دار الفنا) .

(٣) البيت في « ديوانه » (٤/ ١٦٦٢) .

(٤) كذا أورده في « سراج الملوك » (١/ ٤٠٩) ، ورواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٧٣٦/ م) ، و« عيون الأخبار » (٢/ ٢٩٨) بلفظ : (استغزروا العيون بالتذكُّر) .

(٥) البيت لليلى الأخيَلِيّة في « ديوانها » (ص ٤٦) ؛ وصدره : (سمعْنَ بهَيجا أزهقت فذكَرْنَه . . .) .

ومنها : الأسف وشدّة الحسرة ، فلا يرىٰ من مُصابه خَلَفاً ، ولا يجدُ لمفقوده بَدَلاً ، فيزداد بالأسف وَلَهاً ، وبالحسرة هَلَعاً .

ولذلك قال الله تعالىٰ : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ .

وقال بعض الشعراء[1] : [من البسيط]

إذا ابتُلِيتَ فثِقْ باللهِ وارْضَ بِهِ ... إنَّ الذي يكشفُ البَلْوىٰ هوَ اللهُ
إذا قَضَى اللهُ فاستسلِمْ لقُدرتِهِ ... ما لامرئٍ حِيلةٌ فيما قَضَى اللهُ
اليأسُ يقطَعُ أحياناً بصاحِبِهِ ... لا تيأسَنَّ فإنَّ الصانعَ اللهُ

ومنها : كثرةُ الشكوىٰ ، وبثُّ الجَزَع ؛ فقد قيل في قوله تعالىٰ : (﴿ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴾ : إنَّه الصَّبرُ الذي لا شكوىٰ فيه ، ولا بثَّ)[2] .

وروىٰ أنس بن مالك رضي الله تعالىٰ عنه أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « ما صَبرَ مَن بَثَّ »[3] .

وحكىٰ كعب الأحبار : أنَّه مكتوبٌ في التوراة : (مَن أصابه مصيبةٌ فشكا إلى الناس . . فإنَّما يشكو ربَّه)[4] .

وحُكي : أنَّ أعرابيَّةً دخلت من البادية ، فسمعت صوارخَ في دارٍ ، فقالت : (ما هٰذا ؟ فقيل لها : مات لهم إنسانٌ ، فقالت : ما أراهُم إلا مِن ربِّهم يستغيثون ، وبقضائه يتبرَّمون ، وعن ثوابه يرغبون)[5] .

وقيل في منثور الحكم : (مَن ضاق قلبُه . . اتَّسعَ لسانُه)[6] .

---

(١) روى البيتين الأول والثالث ابن عساكر في « معجم الشيوخ » (٨٣٩) لصالح بن عبد القدّوس ، والأوّلين في « الفرج بعد الشدة » (٥/ ٢٠) فيما يُروىٰ لأبي العتاهية .

(٢) انظر « تفسير الطبري » (١٤/٢٩/ ٨٨) .

(٣) رواه أبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (٢/ ٣) ، وبث ؛ أي : نشر بلاءه .

(٤) رواه الإمام أحمد في « الزهد » (١٩٠٩) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٩٥٧٣) من قول فرقد السبخيّ رحمه الله تعالىٰ .

(٥) أورده في « محاضرات الأدباء » (٤/ ٣٣٠) ، ويتبرمون : يتضجرون .

(٦) أورده في « عيون الأخبار » (١/ ٤٠) ، و« الموشّىٰ » (ص ٤٦) من قول المهلَّب بن أبي صفرة .

وأنشدني بعض أهل العلم[1] : [من مشطور الرجز]

لا تُكثِرِ الشَّكوىٰ إلى الصَّديقِ
وارجِعْ إلى الخالقِ لا المَخلُوقِ
لا يُخرِجُ الغريقُ بالغريقِ

وقال بعض الشعراء[2] : [من الكامل]

لا تَشكُ دَهْرَكَ ما صَحَحْتَ بِهِ ... إنَّ الغِنىٰ هُوَ صِحّةُ الجِسْمِ
هَبْكَ الخليفةَ كنتَ مُنتفِعاً ... بغَضارةِ الدُّنيا معَ السُّقْمِ

* * *

ومنها : اليأس من جَبر مُصابه ، ودَرك طِلابه ؛ فيقترن بحزن الحادثة قُنوطُ الإياس ، فلا يبقىٰ معهما صبرٌ ، ولا يتَّسع لهما صدرٌ ؛ ولذلك قيل : (**المصيبةُ بالصبر أعظمُ المصيبتين**)[3] .

وقال ابن الروميِّ[4] : [من مجزوء الرجز]

اصبِري أيَّتُها النَّفْـ ... ـسُ فإنَّ الصَّبرَ أَحْجىٰ
ربَّما خابَ رجاءٌ ... وأتىٰ ما ليس يُرجىٰ

وأنشدني بعض أهل الأدب[5] : [من الطويل]

أتحسبُ أنَّ البؤسَ للحُرِّ دائمٌ ... ولو دامَ شيءٌ عدَّهُ النّاسُ في العَجَبْ

---

(١) أورد الأبيات في « سراج الملوك » (١/٤٠٩) .

(٢) أورد البيتين في « التذكرة الحمدونية » (٤/٣٣٧) ، و« معجم الأدباء » (٥/٥٠٠) لعمارة بن حمزة الكاتب .

(٣) أورده في « المحاسن والمساوىء » (ص ٣٩٦) ، و« سراج الملوك » (١/٤١٠) ، وهو **أعظم المصيبتين** ؛ لأن الصبر عوضٌ عن المفقود ، ولا عوض عن الصبر ؛ فلذا كان أعظم .

(٤) البيتان لأبي تمّام في « ديوانه » (٤/٥٠٤) .

(٥) أورد الأبيات في « الفرج بعد الشدة » (٥/٨١) لسعد بن محمد الأزديّ ، والبيتين الأخيرين في « معجم الأدباء » (٤/٦٣) للحسين بن عبد الرحيم ابن أبي الزلازل ، **وصرف دهره** : نوائبه ومصائبه ، **وأعياه** : أعجزه .

لَقد عرَّفَتْكَ الحادِثاتُ نُفوسَها　　وقد أدَّبَتْ إنْ كان ينفعُكَ الأَدَبْ
ولو طلَبَ الإنسانُ مِن صَرْفِ دهرِهِ　　دوامَ الذي يخشىٰ لأعياه ما طَلَبْ

ومنها : أن يُغرىٰ بملاحظة مَن حِيطَت سلامتُه ، **وحُرِست نعمتُه**[1] ؛ حتَّى التحف بالأمن والدَّعَة ، واستمتع بالثروة والسَّعَة ، **ويرىٰ أنه قد خُصَّ من بينهم** بالرَّزيّة بعد أن كان مُساوِياً ، **وأُفرِد بالحادثة** بعد أن كان مُكافِياً ، فلا يستطيع صبراً علىٰ بَلوىٰ ، ولا يلتزم شكراً علىٰ نُعمىٰ ، **ولو قابل بهٰذه النظرة ملاحظةَ** مَن **شاركه في الرَّزيّة** ، وساواه في الحادثة . . **لتكافأ عنده الأمران** ، فهان عليه الصَّبرُ ، وحان منه الفرج .

أُنشدتُ لامرأةٍ من العرب[2] :　　[من مجزوء الرمل]

أيُّهـا الإنسـانُ صَبْـراً　　إنَّ بعـدَ العُسـرِ يُسـرا
كَـمْ رأَينـا اليـومَ حُـرّاً　　لـم يكـنْ بـالأمـسِ حُـرّا
ملَـكَ الصَّبـرَ فـأضحـىٰ　　مـالكـاً خيـراً وشـرّا
اشـرَبِ الصَّبـرَ وإنْ كـا　　نَ مـنَ الصَّبْـرِ أمَـرّا

وأنشد بعضُ أهل الأدب[3] :　　[من الطويل]

يُراعُ الفتىٰ للخَطْبِ تبدو صُدُورُهُ　　فيأسىٰ وفي عُقْباهُ يأتي سُرُورُهُ
ألـم تَـرَ أنَّ اللَّيـلَ لمّـا تـراكَمَـتْ　　دُجـاهُ بـدا وجـهُ الصَّبـاحِ ونُـورُهُ
فلا تصحبَنَّ اليأسَ إنْ كنتَ عالماً　　لبيبـاً فـإنَّ الـدَّهـرَ شَتّـىٰ أمُـورُهُ

---

(١) أن يُغرىٰ : أن يولع ويحرض ، وحيطت سلامته : صِينت وحُفظت .
(٢) الأبيات للخبزارزّيّ في « ديوانه » (القطعة رقم ٢٧٨) ، من الصبر أمرًا : هو بكسر الباء نبات شديد المرارة ، وسكنت باؤه للضرورة .
(٣) أورد الأبيات في « الفرج بعد الشدّة » (ص ٨٠ ـ ٨١) لسعد بن محمد الأزديّ ، وشتىٰ : فعل ماضٍ من التشتيت ؛ وهو التفرق الكثير .

واعلم : أنَّه قلَّ مَن صبر علىٰ حادثةٍ وتماسك في نكبةٍ **إلا كان انكشافُها وَشيكاً** ، وكان الفرَجُ منها قريباً .

أخبرني بعض أهل الأدب : أنَّ أبا أيوبَ الكاتبَ **حُبِس في السجن خمسَ عشرةَ سنةً** ، حتّىٰ ضاقت حيلتُه ، وقلَّ صبرُه ، **فكتب إلىٰ بعض إخوانه يشكو طولَ حبسه** ، وقلّةَ صبره ، فردَّ عليه جواب رقعته : [من الكامل]

صبراً أبا أيّوبَ صَبْرَ مُبرَّحِ ... فإذا عجزتَ عن الخُطُوبِ فمَن لَها

إنَّ الذي عقدَ الذي انعقدَتْ له ... عُقَدُ المَكارهِ فيك يملِكُ حَلَّها

صبراً فإنَّ الصَّبرَ يُعقِبُ راحةً ... ولعلَّها أنْ تنجلِيْ ولعلَّها

فأجابه أبو أيّوبَ : [من الكامل]

صبَّرْتَني ووعظْتَني وأنا لَها ... وستنجلي بل لا أقولُ لعلَّها

ويَحُلُّها مَن كان صاحبَ عَقْدِها ... كَرَماً به إذْ كان يملِكُ حَلَّها

قال : **فلم يلبَثْ بعد ذلك في السِّجن إلا أياماً يسيرةً** ، ثم أُطلِق مُكرَّماً[١] .

وأنشد ابن دريد عن أبي حاتم[٢] : [من الوافر]

إذا اشتملَتْ على اليأسِ القُلُوبُ ... وضاقَ لما بهِ الصَّدرُ الرَّحِيبُ

وأوطنتِ المَكارهُ واطمأنَّتْ ... وأرسَتْ في أمَاكِنِها الخُطُوبُ

ولم تَرَ لانكشافِ الضُّرِّ وَجْهاً ... ولا أغنىٰ بحيلتِهِ الأرِيبُ

أتاكَ علىٰ قُنوطٍ منكَ غَوثٌ ... يَمُنُّ به اللَّطيفُ المُستجِيبُ

وكلُّ الحادثاتِ وإنْ تناهَتْ ... فموصولٌ بها فَرَجٌ قريبُ

---

(١) رواه في « الفرج بعد الشدة » (١/١٨٦ـ ١٨٧) ، وابن النجار في « ذيل تاريخ بغداد » (١٩/١٨٣ـ ١٨٤) ، **والأخوان** : أبو أيوب سليمان والحسن ابنا وهب ، **وصبر مبرَّح** : اسم مفعول من التبريح ؛ وهو شدة الأذىٰ .

(٢) أورد الأبيات في « وفيات الأعيان » (٦/٣٩٩) لابن السكيت ، ورواها في « تاريخ دمشق » (٤٢/٥٢٣) لسيدنا علي رضي الله عنه ، وهي في « ديوانه » (ص ٤٥) ، **وأوطنت** : اتخذت المكارهُ والمصائب وطناً ، **وأرست** : ثبتت .

ولبعضهم في هٰذا المعنىٰ : [من الكامل]

وإذا الأمورُ تعذَّرَتْ ثمَّ التَوَتْ   هَبَطَ القضاءُ منَ السَّماءِ فحَلَّها

فاصبِرْ لها ولعلَّها أنْ تنجلِيْ   وعسى الذي عَقَدَ الأمورَ يَحُلُّها

الفَصلُ الثَّالِثُ

في المشورة

اعلم : أنَّ من الحزم لكل ذي لبٍّ ألاّ يُبرمَ أمراً ، ولا يُمضيَ عزماً إلا بمشورة ذي الرأي الناصح ، ومطالعة ذي العقل الراجح ؛ فإنَّ الله تعالىٰ أمر بالمشورة نبيَّه صلى الله عليه وسلم مع ما تكفَّل به من إرشاده ، ووعده من تأييده ، فقال تعالىٰ : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾[1] .

واخُتلف في معنىٰ أمره بالمشاورة ؛ فقال قتادة : (أمره بمشاورتهم ؛ تألُّفاً لهم ، وتطييباً لأنفسهم) .

وقال الضحاك : (أمره بمشاورتهم ؛ لما علم فيها من الفضل) .

وقال الحسن البصريُّ : (أمره بمشاورتهم ؛ ليَستنَّ به المسلمون ، ويتَّبعَه فيها المؤمنون وإن كان عن مشاورتهم غنيّاً)[2] .

رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « المشاورةُ : حِصنٌ منَ النَّدامةِ ، وأمانٌ منَ المَلامةِ »[3] .

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام : (نعمَ المُؤازرةُ المُشاورةُ ، وبئسَ الاستعدادُ الاستبدادُ)[4] .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (الرجالُ ثلاثةٌ : رجلٌ تردُ عليه الأمورُ

---

(١) اختلف في اشتقاق المشورة ؛ فقيل : من (شرت العسل) إذا جنيته ؛ فكأن المستشير يجني الرأي من المشير ، وقيل : من (شرت الدابة) إذا أجريتها مقبلة ومدبرة لتختبرها ، والمكان الذي يعرض فيه الدواب يُسمىٰ مشواراً كأنه بالعرض يُعلم خيره وشره ؛ فكذلك يُعلم بالمشاورة خير الأمور وشرها .

(٢) أورد الأقوال الطبريّ في « تفسيره » (٣/ ٤/ ١٩٢ـ ١٩٣) وجعل الأخير قول سفيان بن عيينة رحمه الله تعالىٰ .

(٣) أورده في « محاضرات الأدباء » (١/ ٥٢) .

(٤) أورده في « نهاية الأرب » (٦/ ٦٩) ؛ وفي هامش (أ) : (وقد ورد مسنداً أيضاً) ، وأورده مرفوعاً في « محاضرات الأدباء » (١/ ٥٢) .

فيُصدِرُها برأيه ، ورجلٌ يُشاوِرُ فيما أشكلَ عليه ، وينزلُ حيثُ يأمره أهلُ الرأي ، ورجلٌ حائرٌ بائرٌ ، لا يأتمرُ رُشداً ، ولا يطيع مُرشِداً)(١) .

وقال عمر بن عبد العزيز : (إن المشورة والمناظرة بابا رحمة ، ومفتاحا بركة ، لا يضلُّ معهما رأيٌ ، ولا يُفقَدُ معهما حزمٌ)(٢) .

وقال سيف بن ذي يزن : (مَن أُعجِبَ برأيه .. لم يشاوِرْ ، ومَنِ استبدَّ برأيه .. كان منَ الصواب بعيداً)(٣) .

وقال عبد الحميد : (المُشاوِرُ في رأيه ناظرٌ من ورائه) .

وقيل في منثور الحكم : (المشورةُ راحةٌ لك ، وتعبٌ علىٰ غيرك)(٤) .

وقال بعض الحكماء : (الاستشارةُ عينُ الهداية ، وقد خاطر مَن استغنىٰ برأيه)(٥) .

وقال بعض الأدباء : (ما خاب مَن استخار ، ولا ندم مَن استشار)(٦) .

وقال بعض البلغاء : (من حقِّ العاقل : أن يضيف إلىٰ رأيه آراءَ العقلاء ، ويجمعَ إلىٰ عقله عقولَ الحكماء ؛ فالرأي الفذُّ ربَّما زلَّ ، والعقل الفردُ ربَّما ضلَّ)(٧) .

وقال بشار بن برد(٨) : [من الطويل]

إذا بلغَ الرأيُ المَشُورةَ فاستعِنْ ... برأيِ نَصيحٍ أو مَشُورةِ حازِمِ

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (١٧٤٣٢) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٧١٣١) بنحوه ، وحائر بائر : فاسدٌ رأيه ، وهالك لم يتجه برأيه إلىٰ شيء .

(٢) أورده في « العقد الفريد » (١/١٩٣) من قول المهديّ .

(٣) أورده في « جمهرة الأمثال » (١/١٣٥) ، و« بهجة المجالس » (١/٤٥٧) من قول قتيبة بن مسلم .

(٤) أورده في « التذكرة الحمدونية » (٣/٣٠٦) ، و« التمثيل والمحاضرة » (ص ٤١٨) من قول ابن المعتزّ .

(٥) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤١٧) ، و« المستطرف » (١/٩٤) .

(٦) رواه الشهاب في « مسنده » (٧٧٤) ، والطبرانيّ في « المعجم الأوسط » (٦٦٢٣) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٧) أورده في « لباب الآداب » (ص ٦٠) ، و« الكشكول » (٢/١٥٣) .

(٨) البيتان في « ديوانه » (٤/١٩٣) ، وعليك غضاضة ؛ أي : ذلاً ومنقصة ، والخوافي : إما العيون الذين =

ولا تجعَلِ الشُّورىٰ عليكَ غَضاضةً   فــإنَّ الخَــوافــيْ قــوّةٌ للقَــوادِمِ

فإذا عزم على المشاورة.. ارتاد لها من أهلها مَن قد استكملت فيه خمس خصال :

إحداهنَّ : عقلٌ كاملٌ مع تجربةٍ سالفة ؛ فإنَّ بكثرة التجارب تصحُّ الرَّوِيّةُ .

وقد روىٰ أبو الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « استرشِدُوا العاقلَ.. ترشُدُوا ، ولا تعصُوهُ فتندَمُوا »[1] .

وقال عبد الله بن الحسن لابنه محمد : (احذَرْ مشورةَ الجاهلِ وإن كان ناصحاً كما تحذر عداوةَ العاقل إذا كان عدوّاً ؛ فإنَّه يوشكُ أن يورِّطَك بمشورته ، فيسبق إليك مكرُ العاقل ، وتوريطُ الجاهل)[2] .

وقيل لرجلٍ من عَبْس : (ما أكثرَ صوابَكم !! قال : نحن ألفُ رجل ، وفينا حازمٌ ، ونحن نطيعُه ، فكأنّا ألفُ حازمٍ)[3] .

وكان يقال : (إياكَ ومشاورةَ رجلين : شابٌّ مُعجَبٍ بنفسه ، قليلِ التجارب في غيره ، أو كبيرٍ قد أخذ الدهرُ من عقله كما أخذ من جسمه)[4] .

وقيل في منثور الحكم : (كلُّ شيءٍ يحتاجُ إلى العقل ، والعقلُ يحتاجُ إلى التجارب)[5] .

= يتقدمون الجيش ؛ ليتجسسوا مكامن الأعداء ، وهم قوة للعسكر القوادم ، وإما الريش الصغير لجناح الطائر هو قوة لمقادمه ؛ فكذلك المشورة قوة للمستشير .

(١) رواه الخطيب البغدادي في « المتفق والمفترق » (١/ ٤٦٦) ، والشهاب في « مسنده » (٧٢٢) .

(٢) أورده في « البيان والتبيين » (١/ ٣٣٢) ، و« لباب الآداب » (ص ١٥) .

(٣) أورده في « عيون الأخبار » (١/ ٣٢) ، ورواه في « شعب الإيمان » (٨٠٣٩) .

(٤) أورده في « عيون الأخبار » (١/ ١٥) ، و« التذكرة الحمدونية » (١/ ٣٠٨) ممّا كتبه أبرويز إلى ابنه شيرويه .

(٥) أورده في « البصائر والذخائر » (٤/ ٩٧) ، و« المجالسة وجواهر العلم » (٢/ ٥٩٩) .

ولذلك قيل : (الأيّامُ تهتكُ لك عن الأستار الكامنة) .

وقال بعض الحكماء : (التجاربُ ليست لها غايةٌ ، والعاقلُ منها في زيادة)[1] .

وقال بعض البلغاء : (مَن استعان بذوي العقول . . فاز بدَرْك المأمول)[2] .

وقال أبو الأسود الدؤلي[3] : [من الطويل]

وما كلُّ ذي لُبٍّ بمُؤتِيكَ نُصْحَهُ ولا كلُّ مؤتٍ نُصْحَهُ بلَبيبِ

ولٰكنْ إذا ما استجمَعا عندَ صاحبٍ فحقّ له من طاعةٍ بنَصيبِ

والخصلة الثانية : أن يكون ذا دِينٍ وتُقىً ؛ فإنَّ ذلك عمادُ كلِّ صلاح ، وبابُ كلِّ نجاح ، ومَن غلب عليه الدِّين . . فهو مأمونُ السريرة ، موفَّقُ العزيمة .

روىٰ عكرمة ، عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَن أرادَ أمراً فشاوَرَ فيه امرأً مسلماً . . وفَّقه الله لأرشَدِ أمورِهِ »[4] .

والخصلة الثالثة : أن يكون ناصحاً ودوداً ؛ فإنَّ النصح والمودّة يُصدِّقان الفكرةَ ، ويُمحِّضان الرأيَ .

وقد قال بعض الحكماء : (لا تشاوِرْ إلا الحازمَ غير الحَسود ، واللبيبَ غير الحَقود ، وإياك ومشاورةَ النساء ؛ فإنَّ رأيهنَّ إلى الأَفْن ، وعزمَهنَّ إلى الوَهْن)[5] .

---

(١) أورده في « العقد الفريد » (٢/٢٤٦) ، و« بهجة المجالس » (٢/١٨٧) .

(٢) أورده في « لباب الآداب » (ص ٦٩) .

(٣) البيتان في « ديوانه » (ص ٤٥) .

(٤) رواه الطبراني في « المعجم الأوسط » (٨٣٢٩) .

(٥) أورد بعضه في « نثر الدرّ » (٤/٢١١) ، و« المحاسن والمساوىء » (ص ٣٧٠) ، والأَفْن : ضعف الرأي ، والوهن : الضعف .

وقال بعض الأدباء : (مشاورةُ المُشفِق الحازم ظفَرٌ ، ومشاورةُ غيرِ الحازم خطَرٌ)[1] .

وقال بعض الشعراء[2] : [من المنسرح]

صَـفٌ ضميـراً لِمَـن تُعـاشِـرُهُ ... واسكُـنْ إلـىٰ نـاصـحٍ تُشـاوِرُهُ

وارضَ مِـنَ المـرءِ فـي مَـودّتِـهِ ... بمـا يُـؤدِّي إليـكَ ظـاهِـرُهُ

مَن يكشِفِ الناسَ لا يجِدْ أحداً ... تصـحُّ منهُـمْ لـهُ سَـرائـرُهُ

أوشَـكَ ألاّ يـدومَ وَصْـلُ أخٍ ... فـي كـلِّ زَلاّتِـهِ تُنـافِـرُهُ

والخصلة الرابعة : أن يكون سليمَ الفكر من همٍّ قاطع ، وغمٍّ شاغل ؛ فإنَّ مَن عارضت فكرَه شوائبُ الهموم . . لم يسلمْ له رأيٌ ، ولم يستقمْ له خاطرٌ .

وقد قيل في منثور الحكم : (بتَرداد الفكر ينجابُ لك العمىٰ) .

وكان كسرىٰ إذا دهمه أمرٌ . . بعث إلىٰ مَرازِبته فاستشارهم ، فإن قصَّروا في الرأي . . ضرب قَهارِمتَه ، وقال : (أبطأتم بأرزاقهم ، فأخطؤوا في آرائهم)[3] .

وقال صالح بن عبد القدوس[4] : [من البسيط]

ولا مُشِيـرَ كـذي نُصْـحٍ ومقـدرةٍ ... في مُشكِلِ الأمرِ فاختَرْ ذاكَ مُنتصَحا

---

(١) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤١٨) ، و« التذكرة الحمدونية » (٣/٣٠٦) من قول ابن المعتزّ .

(٢) أورد الأبيات سوى الأول في « العقد الفريد » (٢/٣١٢) لمحمد بن حازم الباهلي ، وهي في « ديوانه » (ص٦٠ ـ البقاعي) .

(٣) أورده في « بهجة المجالس » (١/٣٣٨) ، و« عيون الأخبار » (١/٣٢) ، والمرازبة ـ جمع مَرْزُبان ـ : وهو المقدَّم على القوم دون الملك ، والقهارمة ـ جمع قَهْرَمان ـ : وهو الخازن والوكيل ، الحافظ لما تحت يده .

(٤) البيت في « ديوانه » (ص ١٣٨) .

والخصلة الخامسة : ألاّ يكون له في الأمر المستشار غرضٌ يتابعه ، ولا هوىً يساعده ؛ فإنَّ الأغراض جاذبةٌ ، والهوىٰ صادٌّ ، والرأي إذا عارضه الهوىٰ ، وجاذبته الأغراضُ . . فسد .

وقد قال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب : [من الطويل]

وقد تُحكِمُ الأيّامُ مَن كان جاهلاً ويُردِي الهَوىٰ ذا الرأيِ وَهْوَ لَبيبُ
ويُحمَدُ في الأمرِ الفتىٰ وَهْوَ مُخطِئٌ ويُعذَلُ في الإحسانِ وَهْوَ مُصِيبُ

فإذا استكملت هـٰذه الخصالُ الخمس في رجلٍ . . كان أهلاً للمَشورة ، ومعدِناً للرأي ، **فلا تعدِلْ عن استشارته** ؛ اعتماداً علىٰ ما تتوهَّمه من فضل رأيك ، وثقةً بما تستشعره من صحّة رَوِيّتك ؛ **فإنَّ رأيَ غير ذي الحاجة أسلمُ** ، وهو من الصواب أقربُ ؛ **لخُلوص الفكر** ، **وخُلوّ الخاطر** ، مع عدم الهوىٰ ، وارتفاع الشهوة .

وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **رأسُ العقلِ بعدَ الإيمانِ باللهِ تعالىٰ** : التَّوَدُّدُ إلى الناس ، وما استغنىٰ مستبدٌّ برأيه ، **وما هلكَ أحدٌ عن مَشورةٍ** ، وإذا أراد الله تعالىٰ بعبدٍ هَلَكةً . . كان أوّلَ ما يُهلِكُه رأيُه »[(١)] .

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام : (**الاستشارةُ عينُ الهداية** ، وقد خاطرَ مَن استغنىٰ برأيه)[(٢)] .

وقال لقمان لابنه : (**شاوِرْ مَن جرَّبَ الأمور** ؛ **فإنَّه يعطيك** من رأيه ما قام عليه بالغَلاء ، وأنت تأخذه بالمجَّان)[(٣)] .

وقال بعض الحكماء : (**نصفُ رأيك مع أخيك** ، فشاوِرْه ؛ ليكملَ لك الرأيُ)[(٤)] .

---

(١) روىٰ صدره البيهقي في « شعب الإيمان » (٧٧٠٤) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦١/ ٢٠٠) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه ، وأورده كاملاً القاليّ في « ذيل الأمالي » (٣/ ٢١٢) .
(٢) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤١٧) ، و« المستطرف » (١/ ٩٤) .
(٣) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٣٥) ، و« ربيع الأبرار » (٤/ ٥٢) .
(٤) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤١٨) ، و« محاضرات الأدباء » (١/ ٥٢) .

وقال بعض الأدباء : (مَن استغنىٰ برأيه . . ضلَّ ، ومَن اكتفىٰ بعقله . . زلَّ)[1] .

وقال بعض البلغاء : (لَلْخطأُ مع الاسترشاد أحمدُ من الصواب مع الاستبداد)[2] .

وقال بعض الشعراء[3] : [من الطويل]

خَليليَّ ليسَ الرأيُ في صدرِ واحدٍ أَشِيرا عليَّ بالذي تَرَيانِ

ولا ينبغي أن يصوِّرَ في نفسه : أنه إن شاور في أمره . . ظهر للناس ضعفُ رأيه ، وفسادُ رَوِيّته ، حتّى افتقر إلىٰ رأي غيره ؛ فإنَّ هـٰذه معاذيرُ النَّوكىٰ ، وليس يُراد الرأيُ للمباهاة به ، وإنَّما يُرادُ للانتفاع بنتائجه ، والتحرُّزِ من الخطأ عند زَلَله ، وكيف يكون عاراً ما أدّىٰ إلى الصواب ، وصدَّ عن الخطأ ؟!

وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لَقِّحُوا عُقُولَكُمْ بالمُذاكَرةِ ، واستعِينُوا علىٰ أُمورِكُمْ بالمُشاوَرةِ »[4] .

وقال بعض الحكماء : (من كمال عقلك استظهارُك علىٰ عقلك) .

وقال بعض البلغاء : (إذا أشكلت عليك الأمورُ ، وتغيَّر لك الجمهورُ . . فارجِعْ إلىٰ رأي العقلاء ، وافزَعْ إلى استشارة العلماء ، ولا تأنَفْ من الاسترشاد ، ولا تستنكِفْ من الاستمداد ، فلأَنْ تسألَ وتسلمَ . . خيرٌ لك من أن تستبدَّ وتندمَ)[5] .

وينبغي أن تكثر من استشارة ذوي الألباب ، لا سيَّما في الأمر الجليل ، فقلَّما

---

(١) أورده في « الإعجاز والإيجاز » (ص ٤١) ، و« التذكرة الحمدونية » (٣/ ٢٩٩) من قول سيدنا علي رضي الله عنه .

(٢) أورده في « نهاية الأرب » (٦/ ٦٩) .

(٣) البيت لعطارد بن قُرّان في « ديوان اللصوص » (٢/ ٢٢) ، و« معجم الشعراء » (ص ٢٠١) .

(٤) أورده في « محاضرات الأدباء » (١/ ١٥٠) .

(٥) أورده في « لباب الآداب » (ص ٦٩) ، و« نهاية الأرب » (٦/ ٧٠) .

يضلُّ عن الجماعة رأيٌ ، أو يذهبُ عنهم صوابٌ ؛ لأنَّ إرسالَ الخواطر الثاقبة ، وإجالة الأفكار الصادقة . . لا يعزُب عنها ممكن ، ولا يخفىٰ عليها جائز .

وقد قيل في منثور الحكم : (مَن أكثرَ المشورةَ . . لم يعدَمْ عند الصواب مادحاً ، وعند الخطأ عاذراً ، وإن كان الخطأُ من الجماعة بعيداً)[1] .

فإذا استشار الجماعةَ . . فقد اختلف أهلُ الرأي في اجتماعهم عليه ، أو إفراد كلِّ واحدٍ منهم به :

فمذهبُ الفرس : أنَّ الأَولى اجتماعُهم على الارتياء ، وإجالةِ الفكر[2] ؛ ليذكرَ كلُّ واحدٍ منهم ما قدحه خاطرُه ، ونُتِجَه فكرُه ، حتّىٰ إن كان فيه قدحٌ . . عُورِض ، أو توجَّهَ عليه ردٌّ . . نُوقِض ؛ كالجدَل الذي تكون فيه المناظرةُ ، وتقع فيه المنازعةُ والمشاجرةُ ؛ فإنَّه لا يبقىٰ فيه مع اجتماع القرائح عليه خَلَلٌ إلا ظهر ، ولا زَلَلٌ إلا بان .

وذهب غيرهم من أصناف الأمم إلىٰ : أنَّ الأَولى استسرارُ كلِّ واحدٍ بالمشورة ؛ ليُجيلَ كلُّ واحدٍ منهم فكرَه في الرأي ؛ طمعاً في الحُظوة بالصواب ؛ فإنَّ القرائحَ إذا انفردت . . استكدَّها الفكرُ ، واستفرغَها الاجتهادُ ، وإذا اجتمعت . . فوَّضت ، فكان الأوّلُ من بدائهها متبوعاً .

ولكلِّ واحدٍ من المذهبين وجهٌ محتملٌ ، ووجهُ الثاني أظهرُ .

والذي أراه في الأَولىٰ : غيرُ هٰذين المذهبين على الإطلاق ؛ ولٰكن يُنظر في الشُّورىٰ : فإن كانت في حال واحدةٍ : هل هي صوابٌ أم خطأٌ ؟ . . كان اجتماعُهم عليها أَولىٰ ؛ لأنَّ ما تردَّد بين أمرين . . فالمرادُ منه : الاعتراضُ علىٰ

---

(١) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤١٨) ، و« زهر الآداب » (٢/ ٨٢٤) من قول ابن المعتزّ .
(٢) الارتياء : هو النظر والبحث .

فساده ، أو ظهورُ الحجّة في صلاحه ، وهـٰذا مع الاجتماع أبلغُ ، وعند المناظرة أوضحُ .

وإن كانت الشُّورىٰ في خَطْبٍ قد استبهم صوابُه ، واستَعجَمَ جوابُه ، من أمورٍ خافية ، وأحوالٍ غامضة ، لم يحصُرْها عدد ، ولم يجمعها تقسيم ، ولا عُرِف لها جوابٌ ، فيكشفَ عن خطئه وصوابه . . فالأَولىٰ في مثله : انفرادُ كلِّ واحدٍ بفكره ، وخلوُّه بخاطره ؛ ليجتهدَ في الجواب ، ثم يقع الكشف عنه : أخطأٌ هو أم صواب ؟ فيكونَ الاجتهادُ في الجواب منفرداً ، والكشفُ عن الصواب مجتمعاً ؛ لأنَّ الانفرادَ في الاجتهاد أصحُّ ، والاجتماعَ على المناظرة أبلغُ ، فهـٰكذا هـٰذا .

❁ ❁ ❁

وينبغي أن يسلمَ أهلُ الشُّورىٰ من حسدٍ أو تنافُسٍ يمنعُهم من تسليم الصواب لصاحبه ، ثم يعرضَ المستشيرُ ذلك علىٰ نفسه مع مشاركتهم في الارتياء والاجتهاد ، فإذا تصفَّح أقاويلَ جميعهم . . كشف عن أصولها وأسبابها ، وبحث عن نتائجها وعواقبها ؛ حتّىٰ لا يكونَ في الأمر مقلِّداً ، ولا في الرأي مفوِّضاً ؛ فإنَّه يستفيد بذلك مع ارتياضه بالاجتهاد ثلاثَ خصال :

إحداهن : معرفةُ عقله ، وصحّةُ رَوِيّته .

والثانية : معرفةُ عقلِ صاحبه ، وصواب رأيه .

والثالثة : وضوحُ ما استعجَم من الرأي ، وانفتاح ما انغلق من الصواب[1] .

❁ ❁ ❁

فإذا تقرَّر له الرأيُ . . أمضاه ، ولم يأخذْهم بعواقب الإكداء فيه ؛ فإنَّما على الناصح الاجتهادُ ، وليس عليه ضمانُ النُّجْح ، لا سيَّما والمقاديرُ غالبةٌ .

ومتىٰ عُرِف منه تعقُّبُ المشير . . وُكِل إلىٰ رأيه ، وأُسلِم إلىٰ نفسه ، فصار فرداً لا يُعانُ برأي ، ولا يُمَدُّ بمشورة .

---

(١) فظهر أن العمل بالحق والصواب لا بكثرة الآراء ، والاستشارة لإظهار ذلك .

وقد قالت الفرس في حِكَمِها : (**أضعفُ الحِيلة خيرٌ من أقوى الشدّة ، وأقلُّ التأنِّي خيرٌ** من أكثر العَجَلة ، **والدولةُ رسولُ القضاء المُبرَم** ، وإذا استبدَّ المَلِك برأيه . . عمِيت عليه المَراشدُ)[1] .

وإذا ظفر برأي من خاملٍ لا يراه للرأي أهلاً ، ولا للمشورة مستوجِباً . . اغتنمه عفواً ؛ فإنَّ الرأيَ كالضالَّة **تؤخذ أين وُجِدت** ، ولا يهون لمَهانة صاحبه ، فيُطرَحَ ؛ **فإنَّ الدُّرَّةَ لا يضعُها مَهانةُ غائصِها** ، والضالّة لا تُترَك لذِلّة واجدها ، **وليس يُرادُ الرأيُ لمكان المُشير به** ، فيُراعىٰ قدرُه ، وإنَّما يُرادُ لانتفاع المستشير به .

وأنشد أبو العيناء عن الأصمعيِّ[2] : [من البسيط]

النُّصْحُ أرخَصُ ما باعَ الرِّجالُ فلا ... تَردُدْ علىٰ ناصحٍ نُصْحاً ولا تَلُمِ
إنَّ النَّصائحَ لا تخفىٰ مَناهِجُها ... على الرِّجالِ ذوي الألباب والفَهَمِ

ثم لا وجهَ لمَن تقرَّر له رأيٌ : أن يَنِيَ في إمضائه ؛ فإنَّ الزمان غادرٌ ، والفُرَصَ منتهَزةٌ ، والثقة عجزٌ[3] .

قيل لملكٍ زال عنه ملكُه : (**ما الذي سلبَك ملكَك ؟** قال : **تأخيرُ عملِ اليوم إلىٰ غدٍ**)[4] .

وقد قال الشاعر[5] : [من الطويل]

إذا كنتَ ذا رأيٍ فكُنْ ذا عزيمةٍ ... ولا تَكُ بالتَّردادِ للرّأي مُفسِدا
فإنِّي رأيتُ الرَّيثَ في العَزْمِ هُجْنةً ... وإنفاذَ ذي الرأي العزيمةَ أرشَدا

---

(١) أورده في « سراج الملوك » (٢/ ٧٣٥) .
(٢) أورد البيتين في « البصائر والذخائر » (٤/ ٣٥) ، و« المستطرف » (١/ ٢٥٥) .
(٣) أن يني : أن يفتر ويضعف ، والفرص منتهزة : مختلسة ومغتنمة .
(٤) أورده في « محاضرات الأدباء » (١/ ٣٧٦) ، و« سراج الملوك » (١/ ٢٢٨) .
(٥) الريث : مصدر من (راث الرجل) إذا أبطأ ، والهُجنة : العيب .

وينبغي لمَن أُنزل منزلةَ المُستشار ، وأُحِلَّ مَحلَّ الناصح الوادِّ ، حتّىٰ صار مأمولَ النُّجْح ، مرجوَّ الصواب . . أن يؤدِّيَ حقَّ هـٰذه النعمة بإخلاص السريرة ، ويكافِئَ على الاستسلام ببذل النُّصح ؛ فقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنَّ من حقِّ المسلمِ على المسلمِ إذا استنصَحَهُ أنْ ينصَحَهُ »[1] .

وربَّما أبطرته المشاورةُ ، فأُعجِب برأيه ، فاحذره في المشورة ؛ فليس للمُعجَب رأيٌ صحيح ، ولا رَوِيّةٌ سليمة .

وربَّما شحَّ بالرأي ؛ لعداوةٍ أو حسد ، فورَّىٰ أو مكر ، فاحذر العدوَّ ، ولا تثِقْ بحسود .

ولا عذرَ لمَن استشاره عدوٌّ أو ضدٌّ أن يكتمَ رأياً وقد استرْشِد ، ولا أن يخونَ وقد اؤتُمِن .

روىٰ محمد بن المنكدر ، عن عائشة رضي الله عنها أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « المُستشِيرُ مُعانٌ ، والمُستشارُ مُؤتَمَنٌ »[2] .

وقال سليمان بن يزيد : [من الكامل]

وأجِبْ أخاكَ إذا استشارَكَ ناصحاً وعلىٰ أخيكَ نصيحةً لا تَرِدُدِ

ولا ينبغي أن يشيرَ قبل أن يُستشارَ إلا فيما مسَّ ، ولا أن يتبرَّعَ بالرأي إلا فيما لزم ؛ فإنَّه لا ينفكُّ من أن يكونَ رأيُه متَّهماً أو مُطَّرحاً ، وفي أيِّ هـٰذين وقع . . كان وصمةً ؛ فإنَّما يكون الرأيُ مقبولاً إذا كان عن رغبةٍ وطلب ، أو كان لباعثٍ وسبب .

روىٰ أبو بلال العِجْليُّ ، عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « قال لقمان لابنه : يا بنيَّ ؛ إذا استُشهِدْتَ . .

---

(١) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٩٢٢) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (٤/ ١٨٠) عن سيدنا أبي أيوب الأنصاريّ رضي الله عنه .

(٢) رواه في « تاريخ دمشق » (٥٨/ ٤١٠) عن عبيد بن صخر بن لُوْذان الأنصاري رحمه الله تعالىٰ .

فاشهَدْ ، وإذا استُعِنْتَ . . فأَعِنْ ، وإذا استُشِرْتَ . . فلا تعجَلْ حتّىٰ تنظُرَ »[1] .

وقال ابن بَيْهسٍ الكِلابيُّ[2] : [من الطويل]

مِنَ النّاسِ مَن إنْ يَستَشِرْكَ فتجتهِدْ ... لَهُ الرّأيَ يستغشِشْكَ ما لم تُتابِعْهْ

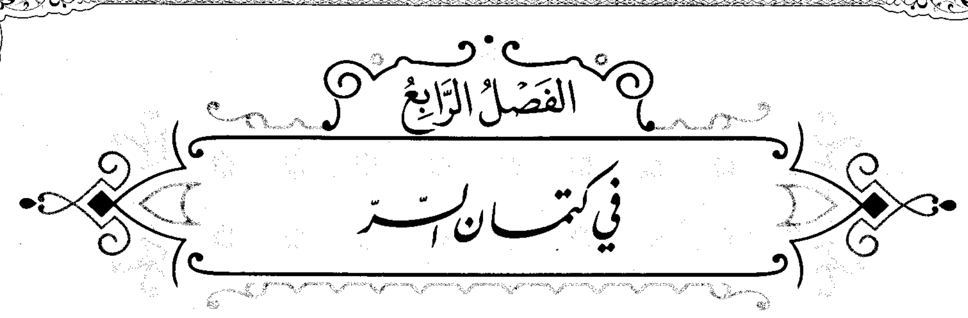
علىٰ رأيِهِ إنْ كان مَوقِعُ رأيِهِ ... صَواباً إذا ما الرأيُ أعيَتْ مَواقِعُهْ

فلا تمنَحَنَّ الرّأيَ مَن ليسَ أهلَهُ ... فلا أنتَ محمودٌ ولا الرّأيُ نافِعُهْ

---

(١) أورده في « التذكرة الحمدونية » (٣/ ٣١٤) .

(٢) أورد البيتين الأول والثالث في « التذكرة الحمدونية » (٣/ ٣١٧) لبعض أعراب بني أسد ، و« المستطرف » (١/ ٢٥٥) ، والبيت الأخير في « ديوان الشافعي » (ص ٩١) .



الفَصْلُ الرَّابعُ

في كتمان السرّ

واعلم : أنَّ كتمان السرِّ من أقوىٰ أسباب النجاح ، وأدوم أحوال الصلاح .

ورُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **استعِينُوا على الحاجاتِ بالكِتْمانِ ؛ فإنَّ كلَّ ذي نعمةٍ محسودٌ** »[١] .

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام : (**سِرُّكَ أسيرُكَ ؛ فإذا تكلَّمتَ به . . صِرتَ أسيرَهُ**)[٢] .

وقال بعض الحكماء لابنه : (**يا بنيَّ ؛ كن جواداً بالمال في موضع الحقِّ ، ضَنيناً بالأسرار عن جميع الخَلق ؛ فإنَّ أحمدَ جودِ المرءِ الإنفاقُ في وجه البرِّ ، والبخلُ بمكتوم السرِّ**)[٣] .

وقال بعض الأدباء : (**مَن كتم سرَّه . . كان الخيارُ إليه ، ومَن أفشاه . . كان الخيارُ عليه**)[٤] .

وقال بعض البلغاء : (**ما أسرَّك ما كتمتَ سرَّك !!**)[٥] .

وقال بعض الفصحاء : (**ما لم تُغيِّبه الأضالعُ . . فهو منكشفٌ ضائعٌ**)[٦] .

---

(١) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٦٢٢٨) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (٢٠/ ٩٤) عن سيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه ، والمعنى : استعينوا علىٰ إنجاح حوائجكم بالكتمان ؛ اكتفاءً بإعانة الله ، فإن كل ذي نعمة محسود ، فاكتموا النعمة عن الحاسد إشفاقاً عليه وعليكم ، واستعينوا بالله على الظفر بها ، ولا منافاة مع الأمر بالتحدث بالنعمة ؛ لأنه فيما بعد الحصول ، ولا أثر للحسد حينئذ .

(٢) أورده في « لباب الآداب » (ص ٢٣٩) ، و« المستطرف » (٢/ ٢٧) .

(٣) أورده في « التذكرة الحمدونية » (٣/ ٣٣٤) ، و« سراج الملوك » (٢/ ٤٢١) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت » (٤٠٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٣/ ٢٠٦) من قول عتبة بن أبي سفيان .

(٥) أورده في « لباب الآداب » (ص ٢٣٩) .

(٦) أورده في « لباب الآداب » (ص ٢٣٩) .

وقال بعض الشعراء وهو أنس بن أَسِيد[1] : [من المتقارب]

أَلَـــم تــرَ أنَّ وُشــاةَ الــرِّجــا لِ لا يــدَعُــونَ أديمــاً صَحيحــا
فــلا تُفْــشِ سِــرَّكَ إلاّ إليــكَ فــإنَّ لكــلِّ نَصيــحٍ نَصيحــا

وكم من إظهار سرٍّ أراق دمَ صاحبه ، ومنع من نيل مطالبه ، ولو كتمه . . كان من سَطواته آمناً ، وفي عواقبه سالماً ، ولنجاح حوائجه راجياً .

وقال أنوشروان : (مَن حصَّنَ سرَّه . . فله بتحصينه خَصلتان : الظَّفَرُ بحاجته ، والسلامةُ من السَّطَوات)[2] .

وإظهارُ الرجل سرَّ غيره أقبحُ من إظهار سرِّ نفسِه ؛ لأنَّه يبوء بإحدىٰ وَصمتين : إمّا الخيانةُ إن كان مؤتمَناً ، أو النَّميمةُ إن كان مستودَعاً ، فأمّا الضَّررُ . . فربَّما استوَيا فيه ، أو تفاضلا ، وكلاهما مذموم ، وهو فيهما مَلومٌ .

وفي الاسترسال بإبداء السرِّ دلائلُ علىٰ ثلاثة أحوالٍ مذمومة :

أحدها : ضيقُ الصدر ، وقلّةُ الصبر ، حتّىٰ لم يتَّسعْ لسرٍّ ، ولم يقدر علىٰ صبر .

وقد قال الشاعر[3] : [من الطويل]

إذا المــرءُ أفشــىٰ سِــرَّهُ بلســانِــهِ ولامَ عليــهِ غيــرَهُ فَهْــوَ أحمَــقُ
إذا ضاقَ صَدْرُ المرءِ عن سِرِّ نفسِهِ فصَدْرُ الذي يُستودَعُ السِّرَّ أضيَقُ

والثاني : الغفلة عن تحرُّز العقلاء ، والسهو عن يقظة الأذكياء ؛ وقد قال بعض الحكماء : (انفرِدْ بسرِّك ، ولا تُودِعْه حازماً فيزلَّ ، ولا جاهلاً فيخونَ)[4] .

---

(١) روى البيتين ابن أبي الدنيا في « الصمت » (٤٠٧) لسيدنا علي رضي الله عنه ، وهما في « ديوانه » (ص ٩٦) .

(٢) أورده في « لباب الآداب » (ص ٢٣٩) ، و« المستطرف » (٢/ ٢٨) .

(٣) البيتان للإمام الشافعي في « ديوانه » (ص ٩٨) ، ورواهما في « تاريخ دمشق » (٦/ ١١٥) لأبي جعفر أحمد بن يوسف الكاتب ، وأورد البيت الثاني في « المحاسن والمساوىء » (ص ٣٧٨) للعتبيّ .

(٤) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٢٠) ، و« سراج الملوك » (٢/ ٤١٩) من قول ابن المعتزّ .

والثالث : ما ارتكبه من الغرَر ، واستعمله من الخطَر .

وقال بعض الحكماء : (**سِرُّكَ من دمِكَ ؛ فإذا تكلَّمتَ به . . فقد أرَقْتَه**)[1] .

واعلم : أنَّ من الأسرار ما لا يُستغنىٰ فيه عن مطالعة صديقٍ مساهم ، واستشارة ناصحٍ مسالم ، **فليخترِ العاقلُ لسرِّه أميناً** إن لم يجدْ إلىٰ كَتمه سبيلاً ، **وليتحرَّ في اختيار مَن يأتمنه عليه** ويستودعه إياه ؛ فليس كلُّ مَن كان على الأموال أميناً كان على الأسرار مأموناً ، **والعفّةُ عن الأموال أيسرُ من العفّة عن إذاعة الأسرار** ؛ لأنَّ الإنسان قد يُذيع سرَّ نفسه بمبادرة لسانه ، وسَقَط كلامه ، ويشحُّ على اليسير من ماله ؛ حفاظاً له ، وضَنّاً به ، ولا يرىٰ ما أذاع من سرِّه كبيراً في جنب ما حفظه من يسير ماله ، مع عِظَم الضَّرر الداخل عليه .

فمن أجل ذلك : **كان أمناءُ الأسرار أشدَّ تعذُّراً** ، وأقلَّ وجوداً من أمناء الأموال ، **وكان حفظُ الأموال أيسرَ** من كتم **الأسرار** ؛ لأنَّ أَحرازَ الأموال منيعةٌ ، **وأحرازَ الأسرار بارزةٌ** ، يذيعها لسانٌ ناطقٌ ، ويشيعُها كلامٌ سابقٌ .

وقال عمر بن عبد العزيز : (**القلوبُ أوعيةُ السرائر ، والشِّفاهُ أقفالُها ، والألسُنُ** مفاتيحُها ، **فليحفَظْ كلُّ امرىءٍ مفتاحَ سرِّه**)[2] .

ومن صفات أمين السرِّ : **أن يكون ذا عقلٍ صادٍّ** ، ودِينٍ حاجز ، ونُصحٍ مبذول ، ووُدٍّ موفور ، **وكتوماً بالطبع** ؛ فإنَّ هـٰذه أمورٌ تمنع من الإذاعة ، وتوجب حفظَ الأمانة ، فمَن كانت فيه . . فهو عنقاءُ مُغرِبٌ[3] .

وقيل في منثور الحكم : (**قلوبُ العقلاء حصونُ الأسرار**)[4] .

---

(١) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٨٨٨) من قول أكثم بن صيفيّ ، و« عيون الأخبار » (١/ ٣٨) .

(٢) أورده في « لباب الآداب » (ص ٢٤٠) ، و« المستطرف » (٢/ ٢٨) .

(٣) في المثل : (أعزُّ من عنقاءَ مُغربٍ) ، يضرب في الشيء يُسمع به ولا يُرىٰ ، وأغربَ في الطيران : أبعدَ .

(٤) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٢٠) ، والعسكري في « الأوائل » (ص ٢٦٦) من قول ابن المعتزّ .

وليحذَرْ صاحبُ السرِّ أن يودعَ سرَّه مَن يتطلَّعُ إليه ، ويؤثرُ الوقوفَ عليه ؛ فإنَّ طالبَ الوديعة خائنٌ .

وقد قيل في منثور الحكم : (لا تُنكِحْ خاطبَ سِرِّك)[1] .

وقال صالح بن عبد القدّوس[2] : [من الرمل]

لا تُــذِعْ ســرّاً إلــىٰ طــالِبِــهِ   منــكَ إنَّ الطــالــبَ السِّــرِّ مُـذِيـعُ

وليحذَرْ كثرةَ المستودَعين لسرِّه ؛ فإنَّ كثرتَهم سببٌ للإذاعة ، وطريقٌ إلى الإشاعة ؛ لأمرين :

أحدهما : أنَّ اجتماعَ هـٰذه الشروط في العدد الكثير مُعوِزٌ ، ولا بدَّ إذا كثُروا من أن يكون فيهم مَن أخلَّ ببعضها .

والثاني : أنَّ كلَّ واحدٍ منهم يجدُ سبيلاً إلىٰ نفي الإذاعة عن نفسه ، وإحالةِ ذلك علىٰ غيره ، فلا يضافُ إليه ذنبٌ ، ولا يتوجَّهُ إليه عَتبٌ[3] .

وقد قال بعض الحكماء : (كلَّما كثر خُزّانُ الأسرار . . ازدادت ضَياعاً)[4] .

وقال بعض الشعراء[5] : [من المتقارب]

وسِــرُّكَ مــا كــان عنــدَ امــرِئٍ   وسِــرُّ الثَّــلاثــةِ غيــرُ الخَفِــي

وقال آخر[6] : [من الوافر]

فــلا تنطِــقْ بسِــرِّكَ كــلُّ ســرٍّ   إذا مــا جــاوزَ الاثنَيــن فــاشِ

---

(١) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٢٠) ، و« زهر الآداب » (٢/ ٧٧١) من قول ابن المعتزّ .

(٢) البيت في « ديوانه » (ص ١١٩) .

(٣) عَتْبٌ ؛ أي : لومٌ وتوبيخ .

(٤) أورده في « التذكرة الحمدونية » (٣/ ١٥٠) ، و« التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٢٠) من قول ابن المعتزّ .

(٥) أورد البيت في « الشعر والشعراء » (١/ ٥٠٢) ، والمرزوقي في « شرح ديوان الحماسة » (٢/ ١٢١١) للصَّلَتان العبديّ ، وأورده الجاحظ في « الحيوان » (٣/ ٤٧٧) للصلتان السعديّ .

(٦) البيت في « ديوان قيس بن الخطيم » (ص ٢٣٥) ، ونسبه أبو عبيد في « غريب الحديث » (٢/ ٢٦٥) ، وابن عبد البر في « بهجة المجالس » (١/ ٤٦١) لسابق البربريّ .

ثم لو سلم من إذاعتهم . . لم يسلم من إدلالهم واستطالتهم ؛ فإنَّ لمَن ظفر بسرٍّ من فرط الإدلال ، وكثرة الاستطالة . . ما إن لم يحجره عنه عقلٌ[1] ، ولم يكفّه عنه فضلٌ . . كان أشدَّ من ذلِّ الرِّقِّ ، وخضوع التعبُّد .

ولذلك قال بعض الحكماء : (مَن أفشىٰ سرَّه . . كثر عليه المتأمِّرون)[2] .

فإذا اختار ـ وأرجو أن يُوفَّق للاختيار ـ واضُطرَّ إلى استيداع سرِّه ، وليته كُفي الاضطرار . . وجب على المستودَع له أداءُ الأمانة فيه بالتحفُّظ والتناسي[3] ، حتّىٰ لا يخطرُ له ببال ، ولا يدورُ له في خَلَد ، ثم يرىٰ ذلك حُرمةً يرعاها ، ولا يُدِلُّ إدلالَ اللِّئام .

حُكي : أنَّ رجلاً أسرَّ إلىٰ صديقٍ لهُ حديثاً ، ثم قال له : (أفهِمْتَ ؟ قال : بل جهِلْتُ ، قال : أحفِظْتَ ؟ قال : بل نسيتُ)[4] .

وقيل لرجلٍ : (كيف كتمانُك للسرِّ ؟ قال : أجحدُ المُخبِرَ ، وأحلف للمُستخبِر)[5] .

وقال بعض الشعراء[6] : [من البسيط]

ولو قدَرْتُ علىٰ نِسيانِ ما اشتمَلَتْ ... مِنِّي الضُّلُوعُ على الأسرارِ والخَبَرِ
لكنتُ أوَّلَ مَن ينسىٰ سرائرَهُ ... إذْ كنتُ من نَشْرِها يوماً علىٰ خَطَرِ

وحُكي : أنَّ عبد الله بن طاهر تذاكر الناسُ في مجلسه حفظَ السرِّ ، فقال عبد الله : [من الطويل]

ومُستودِعي سِرّاً تضمَّنْتُ سَتْرَه ... فأودَعْتُهُ مِن مُستقَرِّ الحَشا قَبْرا

---

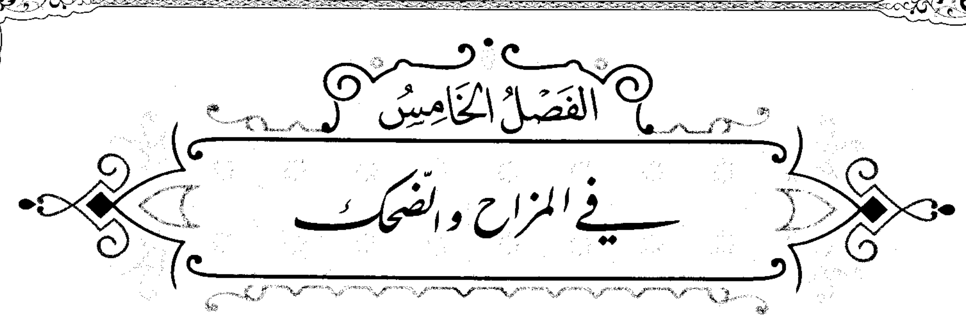
(١) في (ب ، د) : (لم يحجزه عنه عقل) .
(٢) أورده في « سراج الملوك » (٢/ ٤٢٠) ، و« محاضرات الأدباء » (١/ ٢٥٥) .
(٣) في (ج) : (فإذا استودع سرَّه عند الذي اختاره وائتمنه . . وجب . . .) .
(٤) أورده في « سراج الملوك » (٢/ ٤١٥) ، و« المستطرف » (٢/ ٢٩) .
(٥) رواه في « الموشىٰ » (ص ٤٨) ، والقاليّ في « الأمالي » (٢/ ١٧٧) .
(٦) أورد البيتين في « عيون الأخبار » (١/ ٣٩) ، و« لباب الآداب » (ص ٢٤١) .

فقال ابنه عبيد الله وهو صبيٌّ : [من الطويل]

وما السِّرُّ في قلبي كثاوٍ بحُفْرةٍ ... لأنِّي أرى المدفونَ ينتظرُ النَّشْرا
ولـكنَّنــي أُخفِيــهِ حتّــىٰ كــأنَّنــي ... منَ الدَّهرِ يوماً ما أحطْتُ بهِ خُبْرا[1]

---

(١) أورد الخبر في « صبح الأعشىٰ » (١/١٠٧) ، وتُسمىٰ هـٰذه مناضلة ومساجلة في اصطلاح الشعراء ؛ وهي أن يستقي ساقيان ، فيخرج كل واحدٍ منهما من الماء مثل ما يخرج الآخر ، فأيهما نكل . . فقد غُلب ، ثم صارت المساجلة لقصد المفاخرة .



الفَصْلُ الخَامِسُ
في المزاح والضحك

اعلم : أنَّ المُزاح إزاحةٌ عن الحقوق ، ومَخرَجٌ إلى القطيعة والعقوق ، **يصِمُ المازحَ ، ويؤذي المُمازَحَ** .

فوصمةُ المازح : أنَّه يُذهب عنه الهيبةَ والبهاء ، ويُجرِّىء عليه الغوغاء والسفهاء ، **وأمّا أذية المُمازَح** . . فلأنَّه معقوقٌ بقولٍ كريهٍ ، وفعلٍ مُمِضٍّ ؛ إن أمسك عنه . . أحزن قلبَه ، وإن قابل عليه . . جانبَ أدبَه ، **فحقّ على العاقل أن يتّقيه** ، وينزِّهَ نفسَه عن وصمة مَساويه .

فقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « **المُزاحُ استدراجٌ منَ الشَّيطانِ** ، واختداعٌ منَ الهَوىٰ »[1] .

وقال عمر بن عبد العزيز : (**اتَّقُوا المُزاحَ ؛ فإنَّه حَمْقةٌ تُورِثُ ضغينةً**)[2] .

وقال بعض الحكماء : (**إنَّما المُزاحُ سِبابٌ إلا أنَّ صاحبَه يضحكُ**)[3] .

وقيل : (**إنَّما سُمِّي المُزاح مُزاحاً ؛ لأنَّه يُزيحُ عن الحقِّ**)[4] .

وقال إبراهيم النَّخَعيُّ : (**المُزاحُ من سُخْفٍ أو بَطَرٍ**)[5] .

وقيل في منثور الحكم : (**المُزاحُ يأكل الهيبةَ كما تأكلُ النارُ الحطَبَ**)[6] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت » (٤٠١) من قول الحسن بن حيّ .

(٢) أورده في « نهاية الأرب » (٤/ ٨٨) .

(٣) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٤٩) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت » (٣٩٨) من قول سيدنا عمر رضي الله عنه ، وأورده العسكري في « جمهرة الأمثال » (٢/ ١٩٠) .

(٥) أورده في « بهجة المجالس » (١/ ٥٧٠) لإبراهيم ، وفي « محاضرات الأدباء » (١/ ٥٨٣) لعمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالىٰ ، ومن سخف : قلة عقل ، أو بطر : كبر يستهزىء بصاحبه .

(٦) رواه في « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » (١/ ٦٣٣) ، وأورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٤٩) من قول عبد الله بن المعتزّ .

وقال بعض الأدباء : (مَن كثر مُزاحُه .. زالت هيبتُه ، ومَن كثر خلافُه .. طابت غَيبتُه)[١] .

وقال بعض البلغاء : (مَن قلَّ عقلُه .. كثر هَزْلُه) .

وذكر خالد بن صفوان المُزاح ، فقال : (يصكُّ أحدُكم صاحبَه بأشدَّ من الجَنْدَل ، ويُنشِقُه أحرَفَ من الخَرْدَل ، ويُفرِغ عليه أحرَّ من المِرْجَل ، ثم يقول : إنَّما كنت أمازِحُك)[٢] .

وقال بعض الحكماء : (خيرُ المُزاح لا يُنالُ ، وشرُّه لا يُقالُ)[٣] .

فنظمه السابوري في قصيدته الجامعة للآداب ، وزاد فقال : [من الرجز]

شَــرُّ مُــزاحِ المــرءِ لا يُقــالُ ... وخيــرُهُ يــا صــاحِ لا يُنــالُ
وقــد يقــالُ كثــرةُ المُــزاحِ ... مـنَ الفتىٰ تـدعُـو إلـى التَّـلاحِـي
إنَّ المُــزاحَ بــدؤُهُ حَــلاوَةْ ... لٰكنَّمــا آخــرُهُ عَــداوَةْ
يحقِـدُ منـه الـرَّجـلُ الشَّـريـفُ ... ويجتــري بسُخْفِـهِ السَّخيــفُ

وقال أبو نواس[٤] : [من مجزوء الرمل]

خَـــلِّ جَنْبَيــكَ لــرامِ ... وامــضِ عنــهُ بسَــلامِ
مُــتْ بــداءِ الصَّمــتِ خيــرٌ ... لــكَ مــن داءِ الكَــلامِ
إنَّمــا السّالــمُ مَــن أَلْـ ... ـجَــمَ فــاهُ بلِجــامِ
ربَّمــا استُفتِــحَ بــالمَـزْ ... حِ مَغــاليــقُ الحِمــامِ
والمَنــايــا آكــلاتٌ ... شــاربــاتٌ لــلأنــامِ

---

(١) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٤٦٤٠) ، والخطيب في « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » (١/ ٦٣٢) من قول سيدنا عمر رضي الله عنه بنحوه .
(٢) أورده في « البصائر والذخائر » (٥/ ٣١) ، و« بهجة المجالس » (١/ ٥٧٠) .
(٣) أورده في « نهاية الأرب » (٤/ ٨٨) ، و« ربيع الأبرار » (٥/ ١٦٩) .
(٤) الأبيات في « ديوانه » (ص ٦٢٠) .

واعلم : أنه قلَّما يعرىٰ من المُزاح مَن كان سهلاً ؛ **فالعاقل يتوخّىٰ بمزحه إحدىٰ حالتين ، لا ثالثةَ لهما** :

إحداهما : إيناسُ المصاحِبين ، والتودُّد إلى المخالِطين ، وهٰذا يكون بما أُنِس من جميل القول ، وبُسِط من مستحسَن الفعل ؛ كما قال سعيد بن العاص لابنه : (**اقتصِدْ في مُزاحك ؛ فإنَّ الإفراطَ فيه يُذهِب البهاء ، ويُجرِّىء عليك السفهاءَ، وإنَّ التقصيرَ فيه يقصي عنك المؤانِسين، ويُوحش منك المصاحِبين**)[1] .

* * *

والحالة الثانية : أن ينفي بالمُزاح ما طرأ عليه من سأَمٍ ، أو حدث به من هَمٍّ ؛ فقد قيل : (**لا بدَّ للمصدور أن ينفُثَ**)[2] .

وأُنشدتُ لأبي الفتح البُستيِّ[3] : [من الطويل]

أَفِدْ طَبْعَكَ المكدُودَ بالجِدِّ راحةً ... يجِمَّ وعلِّلْهُ بشيءٍ مِنَ المَزْحِ
ولٰكنْ إذا أعطيتَهُ المَزْحَ فلْيَكُنْ ... بمقدارِ ما تُعطِي الطعامَ منَ المِلْحِ

وقد كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يمزحُ علىٰ هٰذا الوجه .

ورُوي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **إنِّي لأمزَحُ ، ولا أقولُ إلاّ حَقّاً** »[4] .

فمن مُزاحه عليه السلام : ما رُوي أنَّ عجوزاً من الأنصار أتته ، فقالت : يا رسولَ الله ؛ ادعُ اللهَ لي بالمغفرة ، فقال لها : « **أما علمتِ أنَّ الجنّةَ لا يدخلُها العُجُزُ ؟** » فصرخَت ، فتبسَّم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وقال لها : « **أَوَ**

---

(١) أورده في « محاضرات الأدباء » (١/ ٥٨٤) ، و« نهاية الأرب » (٤/ ٩٠) .
(٢) رواه ابن سعد في « الطبقات الكبير » (٧/ ٢٤٦) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٦٥٧٩) من قول عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود رضي الله عنهم ، والمصدور : مَنْ يشتكي صدره ، والنفث : هو النفخ ، والمصدور يخرج نفساً من فيه يستريح به ، وهٰذا مثلٌ يضرب ، والمراد به : أن المصاب يبث الشكوىٰ .
(٣) البيتان في « ديوانه » (ص ١٠٩) .
(٤) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٢٦٥) ، والترمذي (١٩٩٠) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

ما قرأتِ قولَ الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا عُرُبًا أَتْرَابًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ ؟ »[1] .

وأتته أخرىٰ في حاجةٍ لزوجها ، فقال لها : « ومَن زوجُكِ ؟ » فقالت : فلانٌ ، فقال لها : « الذي في عَينِه بياضٌ ؟ » فقالت : لا ، قال : « بلىٰ » فانصرفَت عَجْلىٰ إلىٰ زوجها ، وجعلت تتأمَّلُ عينَه ، فقال لها : ما شأنُكِ ؟ فقالت : أخبرني رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أنَّ في عينكَ بياضاً ، فقال لها : أَمَا ترَيْنَ بياضَ عينيَّ أكثرَ من سوادهما ؟[2] .

وأتىٰ رجلٌ عليَّ بن أبي طالب عليه السلام ، فقال : إنِّي احتلَمْتُ علىٰ أمِّي ، فقال : (أقيمُوه في الشَّمس ، واضربُوا ظلَّه الحَدَّ)[3] .

وسُئل الشَّعْبيُّ عن أكل لحم الشيطان ، فقال : (نحن نرضىٰ منه بالكَفاف)[4] .

وقيل له : (ما اسمُ امرأة إبليسَ ؟ فقال : ذاك نكاحٌ ما شهِدْناه)[5] .

وقال رجل لغلام : (بكم تعملُ معي ؟ قال : بطعامي ، فقال له : أحسِنْ قليلاً ، فقال : فأصوم الاثنين والخميس)[6] .

وحُكي عن صالح بن حسّان ـ وكان محدِّثاً ـ : أنه قال يوماً لأصحابه مازحاً : أفقهُ الناسِ وضّاحُ اليمنِ في قوله : [من الطويل]

إذا قلتُ هاتي نَوِّليني تبرَّمَتْ ... وقالت مَعاذَ اللهِ من فعلِ ما حَرُمْ

---

(١) رواه الترمذي في « الشمائل المحمدية » (٢٣٠) عن الحسن مرسلاً ، والبيهقي في « البعث والنشور » (٣٧٩) عن السيدة عائشة رضي الله عنها .

(٢) أورده الخَركوشيُّ في « شرف المصطفىٰ » (٥/ ١٢٨) .

(٣) أورده في « محاضرات الأدباء » (١/ ٥٨٦) .

(٤) أورده في « عيون الأخبار » (١/ ٣١٦) ، و« التذكرة الحمدونية » (٩/ ٣٧٦) .

(٥) أورده في « عيون الأخبار » (١/ ٣١٦) ، و« العقد الفريد » (٦/ ١٥٢) .

(٦) أورده في « محاضرات الأدباء » (٢/ ٢٠٧) ، و« نثر الدرّ » (٣/ ٢٨٣) .

فما نَوَّلَتْ حتّىٰ تضرَّعْتُ عندَها وأنبأتُها ما رخَّصَ اللهُ في اللَّمَمْ[1]

فأمّا الخروجُ إلىٰ حدِّ الخلاعة . . فهُجْنةٌ ومَذَمّةٌ ؛ كالذي حُكي عن أبي معاوية الضَّرير ـ وكان محدِّثاً ـ أنَّه خرج يوماً إلىٰ أصحابه وهو يقول : [من مجزوء الوافر]

فــإذا المِعْــدةُ جــاشَــتْ فــارْمِهــا بــالمَنجَنيــقِ
بثــلاثٍ مِــن نَبيــذٍ ليــسَ بــالحُلْــوِ الــرَّقِيــقِ[2]

أما ترىٰ كيف طرَّقَ بخلاعته التُّهَمةَ علىٰ نفسه بهٰذا المزحِ فيما لعلَّه بريء منه ، وبعيد عنه ؟!

وقد كان أبو هريرة رضي الله عنه مسترسِلاً في مُزاحه ، فحكى ابن قتيبة في « المعارف » : (أنَّ مروان ربَّما كان يستخلفُه على المدينة ، فيركب حماراً قد شدَّ عليه برذَعةً ، فيسير فيلقى الرجل ، فيقول : الطريقَ ، قد جاء الأميرُ .

وربَّما أتى الصبيانَ وهم يلعبون لعبةَ الغرابِ ، فلا يشعرون حتّىٰ يُلقيَ نفسَه بينهم ، ويضربَ برجليه ، فيفزعُ الصبيانُ ويفرُّون)[3] .

وهٰذا خروج عن القدر المستسمَح به ، ويوشك أن يكون لهٰذا الفعل منه تأويل سائغ[4] .

وقد كان صهيب بن سنان مَزّاحاً ، فقال له النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « أتأكلُ تَمْراً وبكَ رَمَدٌ ؟ » فقال : يا رسولَ اللهِ ؛ أنا أمضغُ على الناحية الأخرىٰ[5] .

وإنَّما استجاز صهيبٌ أن يُعرِّضَ لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالمزح

---

(١) أورده في « المعارف » (ص ٤٨٦) ، و« ثمار القلوب » (١/ ٢٠٧) ، والبيتان في « ديوان وضّاح اليمن » (ص ٨٧) .

(٢) أورده في « المعارف » (ص ٥١٠) ، ورواه في « أخبار القضاة » (٣/ ١٧٣) .

(٣) المعارف (ص ٢٧٨) .

(٤) كدفع العجب وخطرات النفس ، ولتهذيب نفسه .

(٥) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٤١١) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (٨/ ٣٥) .

في جوابه ؛ لأنَّ استخباره صلى الله عليه وسلم قد كان يتضمَّن المزحَ ، فأجابه عن استخباره بما وافقه من المزح ؛ مساعدةً لغرضه ، وتقرُّباً من قلبه ، وإلا . . فليس لأحدٍ أن يجعل جوابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم مزحاً ؛ لأنَّ المزحَ هزلٌ ، ومَن جعل جوابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم المبيِّنِ عن الله تعالىٰ أحكامَه ، والمؤدِّي إلىٰ خلقه أوامرَه هزلاً ومزحاً . . فقد عصى اللهَ ورسولَه ، وصهيب كان أطوعَ لله تعالىٰ ولرسوله صلى الله عليه وسلم من أن يكون بهٰذه المنزلة منه ؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا سابقُ العَرَبِ ، وصهيبٌ سابقُ الرُّومِ ، وسلمانُ سابقُ فارسَ ، وبلالٌ سابقُ الحَبَشِ »[1] .

ومن مستملح المزح ، ومُستسمَح الدُّعابة : ما حكى الزبير بن بكار ، عن الكَثيريِّ : أنَّ القُشَيريَّ وقف عليه شيخٌ من الأعراب ، فقال : (يا أعرابيُّ ؛ ممَّن أنت ؟ قال : من بني عُقَيل ، فقال : من أيِّ عُقَيل ؟ قال : من بني خفاجة ، فقال القُشَيريُّ : [من مشطور الرجز]

رأيتُ شيخاً من بني خَفاجَةْ

فقال الأعرابيُّ : ما شأنُه ؟ فقال :

له إذا جَنَّ الظَّلامُ حاجَةْ

فقال الأعرابيُّ : ما هي ؟ قال :

كحاجةِ الدِّيكِ إلى الدَّجاجَةْ

فاستعبر الأعرابيُّ ضاحكاً ، وقال : قاتلَكَ اللهُ ، ما أعرفَكَ بسرائر القوم !!) .

فانظر كيف بلغ هٰذا المزحُ غايتَه ، ولسانُه نَزِهٌ ، وعِرضُه مصونٌ ، وهٰذا غايةُ

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣/ ٢٨٥) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (٨/ ٢٩) ، ولم يكن سيدنا صهيب رومياً ، وإنما نُسب إليهم ؛ لأنهم سبوه وباعوه ، وقيل : لأنه كان أحمر اللون ، رضي الله عنه .

ما يتسامح به الفضلاء من الخلاعة وإن كان مستكرَهَ الفَحوىٰ ، والنزاهةُ عن مثله أَولىٰ .

وليحذرْ أن يسترسلَ في ممازحة عدوٍّ ؛ فيجعلَ له طريقاً إلىٰ إعلان المساوىء وهو مُجِدٌّ ، ويفسحَ له في التشفِّي مزحاً وهو مُحِقٌّ .

وقد قال بعض الحكماء : (إذا مازحتَ عدوَّك . . ظهرت عيوبُك) .

* * *

وأمّا الضَّحِكُ : فإنَّ اعتياده شاغلٌ عن النظر في الأمور المُهِمّة ، مذهلٌ عن الفكر في النوائب المُلِمّة ، وليس لمَن أكثر منه هيبةٌ ووقارٌ ، ولا لمَن وُسِم به خطرٌ ومقدارٌ .

روىٰ أبو إدريسَ الخَوْلانيُّ ، عن أبي ذَرٍّ الغِفاريِّ قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « إيّاكَ وكثرةَ الضَّحِكِ ؛ فإنَّه يُميتُ القَلْبَ ، ويذهَبُ بنُورِ الوَجْهِ »[1] .

وقد حُكي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالىٰ : ﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾ : (أنَّ الصغيرةَ الضَّحِكُ)[2] .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (مَن كثر ضحكُه . . قلَّت هيبتُه)[3] .

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام : (إذا ضحك العالم ضحكةً . . مَجَّ من العلم مَجّةً)[4] .

وقيل في منثور الحكم : (ضَحِكُ المؤمنِ غفلةٌ من قلبه)[5] .

---

(١) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٣٦١) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (٢/١٥٧) .

(٢) رواه الطبري في « تفسيره » (٩/١٥/٣١٥) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٧٠٢٤) .

(٣) رواه الشهاب في « مسنده » (٣٧٤) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٤٦٤٠) .

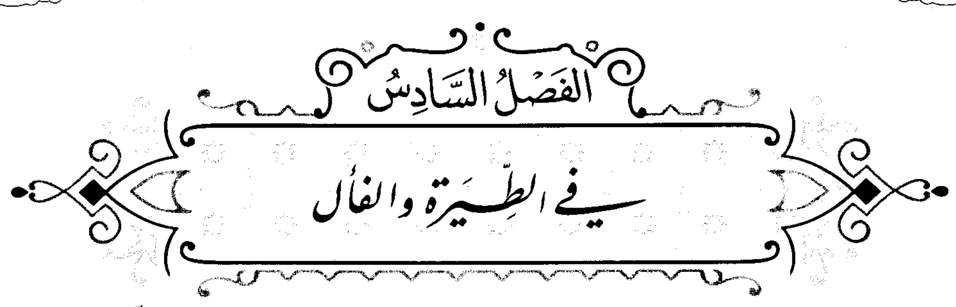
(٤) رواه الدارميّ في « مسنده » (٦٠٢) بنحوه ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٩٤٠) ، ومج من العلم : يقال : مج الشراب من فيه إذا رماه .

(٥) رواه الإمام أحمد في « الزهد » (١٥٩٣) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٧٢٠٩) من قول الحسن البصريّ رحمه الله تعالىٰ .

والقول في **الضَّحِك** كالقول في **المُزاح** ؛ إن تجافاه الإنسان.. نفَّر عنه ، وأوحشَ منه ، وإن ألفه.. كانت حاله ما وصفناه ، **فليكن عند الإيناس بدل الضحك تبسُّماً وبِشراً** .

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (**التَّبسُّمُ دُعابةٌ**) .

وهٰذا **أبلغُ في الإيناس من الضحك** الذي قد يكون استهزاءً أو تعجّباً ، وليس يُنكَر منه المرّةُ النادرة لطارىء استغفل النفسَ عن دفعه ؛ هٰذا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وهو أملكُ الخلق لنفسه **قد تبسَّم حتّىٰ بدَت نواجذُه** ، وإنَّما كان ذلك منه على الوجه الذي ذكرناه .



الفَصلُ السَّادِسُ

في الطِّيَرة والفأل

اعلم : أنه ليس شيءٌ أضرَّ بالرأي ، ولا أفسدَ للتدبير من اعتقاد الطِّيَرة ، ومَن ظنَّ أنَّ خُوارَ بقرةٍ أو نعيبَ غرابٍ يردُّ قضاءً ، أو يدفع مقدوراً . . **فقد جهل** .

وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **لا عَدْوىٰ ، ولا هامةَ ، ولا طِيَرَةَ ، ولا صَفرَ** »(١) .

فالعدوىٰ : ما يظنُّه الناس من تعدِّي العِلَل والأمراض ، فأخبر أنَّه **لا يُعدِي** ، فقيل : يا رسولَ الله ؛ إنّا نرى النُّقْبَةَ من الجَرَب في مِشفَر البعير ، فيُعدِي إلىٰ جميعه ، فقال صلى الله عليه وسلم : « **فما أعدى الأوَّلَ ؟** »(٢) .

وأمّا **الهامةُ** : فهو ما كانت العرب في الجاهلية تعتقده من **أنَّ القتيلَ إذا طُلَّ دمُه ، فلم يُدرَك بثأره . . صاحت هامتُه في القبر** : اسقُوني .

قال الزِّبْرِقان بن بدر(٣) : [من البسيط]

يا عمرُو إلاّ تَدَعْ شَتْمي ومَنقَصَتي أضرِبْكَ حيثُ تقولُ الهامةُ اسقُوني

وقال إبراهيم بن هَرْمة(٤) : [من الطويل]

وكيفَ وقد صارُوا عِظاماً وأقبُراً يصيحُ صَداها بالعَشِيِّ وهَامُها

---

(١) رواه البخاري (٥٧٥٧) ، ومسلم (٢٢٢٠/١٠٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، **والطيرة** : هي التشاؤم بالشيء ، وهي من اعتقاد أهل الجاهلية ؛ كان إذا أراد الواحد منهم حاجة أو سفراً ، فإن رأى الطير طار يميناً . . تيمَّن به ، وإن طار شمالاً . . تشاءم به ورجع ، فنهى الشرع عن ذلك .

(٢) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٦١١٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٧/ ٢٩٤) .

(٣) أورد البيت في « المفضَّليّات » (ص ١٦٠) ، و« الحماسة البصرية » (١/ ٢١٨) لذي الإصبع العَدْوانيّ .

(٤) أورد البيت الثاني في « الحماسة البصرية » (٢/ ٧١٨) لمرّة بن مالك العُذْريّ .

تفـانَـوا ولـم يبقَـوا وكـلُّ قبيلـةٍ سـريـعٌ إلـىٰ وِرْدِ الفَنـاءِ كِـرامُهـا

وأمّا **الصَّفَر** : فهو كالحيّة تكون في الجوف ، تصيب الماشيةَ والناس ، وهو أعدىٰ عندهم من **الجَرَب** ، وفيه يقول الشاعر[١] : [من البسيط]

لا يُمسِكُ الساقَ من أَيْنٍ ولا وَصَبٍ ولا يعَضُّ علىٰ شُرْسُوفِهِ الصَّفَرُ

وروىٰ أبو هريرة رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : « **إذا ظَنَنْتُمْ . . فلا تُحَقِّقُوا ، وإذا حسَدْتُمْ . . فلا تَبْغُوا ، وإذا تطيَّرْتُمْ . . فامضُوا ، وعلى الله فتوكَّلُوا** »[٢] .

وقال الشاعر[٣] : [من الخفيف]

طِيْـرةُ النـاسِ لا تـرُدُّ قَضـاءً فـاعـذِرِ الـدَّهـرَ لا تَشُبْـهُ بلَـوْمِ
أيُّ يـومٍ تخصُّـهُ بسُعُـودٍ والمنـايـا ينـزِلْـنَ فـي كـلِّ يَـومِ
ليـس يـومٌ إلا وفيـه سُعُـودٌ ونُحُـوسٌ تجـري لقـومٍ وقَـومِ

وقد كانت الفرس أكثرَ الناس طيَرةً ، وكانت العرب إذا أرادت سفراً . . نفَّرت أوَّلَ طائر تلقاه ؛ **فإن طار يَمْنةً** . . سارت وتيمَّنت ، **وإن طار شأمةً** . . رجعت وتشاءمت ، فنهى النبيُّ صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، وقال : « **أَقِرُّوا الطَّيرَ علىٰ وُكُناتِها** »[٤] .

وحكىٰ عكرمةُ قال : كنّا جلوساً عند ابن عباسٍ رضي الله عنهما ، **فمرَّ طائرٌ**

---

(١) البيت لأعشىٰ باهلة في « ديوانه » (ص ٢٦٨) ، وانظر « المكاثرة » (ص ١٥) . والأين : الإعياء ، والوصب : الوجع والمرض ، والشرسوف : طرف الضلع مما يلي البطن .

(٢) رواه الخطيب البغدادي في « المتفق والمفترق » (٨٩٨) ، وإذا تطيرتم . . فامضوا ؛ أي : إذا خرجتم لنحو سفرٍ أو عزمتم علىٰ فعل شيءٍ فتشاءمتم به لرؤية أو سماع ما فيه كراهة . . فلا ترجعوا .

(٣) أورد الأبيات في « تفسير القرطبي » (١٣/ ٢١٤) .

(٤) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٦١٢٦) ، وأبو داوود (٢٨٣٥) عن أم كُرْز رضي الله عنها ، ووكنات الطير : أعشاشها .

يصيحُ ، فقال رجلٌ من القوم : خيرٌ ، فقال ابن عباس : (لا خيرٌ ، ولا شرٌّ)[1] .

وقال لبيد[2] : [من الطويل]

لعَمْرُكَ ما تدري الضَّوارِبُ بالحَصىٰ ولا زاجِراتُ الطَّيرِ ما اللهُ صانِعُ

* * *

واعلم : أنَّه قلَّما يخلو من الطِّيَرة أحد ، لا سيَّما مَن عارضته المقاديرُ في إرادته ، وصدَّه القضاءُ عن طِلْبته ، فهو يرجو واليأسُ عليه أغلبُ ، ويأمُلُ والخوفُ إليه أقربُ ، فإذا عاقه القضاء ، وخانه الرجاء . . جعل الطِّيَرةَ عُذرَ خيبته ، وغفل عن قضاء الله تعالىٰ ومشيئته ؛ فهو إذا تطيَّرَ من بعدُ . . أحجمَ عن الإقدام ، ويئس من الظَّفَر ، وظنَّ أنَّ القياس فيه مُطَّردٌ ، وأنَّ العِبْرةَ فيه مستمرّةٌ ، ثم يصير ذلك له عادةً ، فلا ينجح له سعيٌ ، ولا يثمرُ له قصدٌ .

وأمّا مَن ساعدته المقادير ، ووافقه القضاء . . فهو قليلُ الطِّيَرة ؛ لإقدامه ثقةً بإقباله ، وتعويلاً علىٰ سعادته ، فلا يصدُّه خوف ، ولا يكفُّه خَوَر ، فلا يؤوبُ إلا ظافراً ، ولا يعودُ إلا مُنجِحاً ؛ لأنَّ الغُنْمَ بالإقدام ، والخيبةَ مع الإحجام ، فصارت الطِّيَرة من سمات الإدبار ، واطِّراحُها من أمارات الإقبال .

* * *

فينبغي لمَن مُنِي بها وبُلِي : أن يصرفَ عن نفسه وساوسَ النَّوكىٰ ، ودواعيَ الخيبة ، وذرائع الحرمان ، ولا يجعلَ للشيطان سلطاناً في نقض عزائمه ، ومعارضة خالقه ، ويعلمَ أنَّ قضاءَ الله تعالىٰ غالبٌ ، وأنَّ رزقَ العبد له طالبٌ ، وأنَّ الحركة سببٌ ، فلا يثنيه عنها ما لا يضرُّ مخلوقاً ، ولا يدفع مقدوراً ، وليمضِ في عزائمه واثقاً بالله تعالىٰ إن أُعطِي ، وراضياً به إن مُنِع .

فقد روىٰ أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « في الإنسانِ ثلاثةٌ : الطِّيَرةُ ، والظنُّ ، والحسَدُ ؛ فمَخرَجُه من الطِّيَرة : ألاّ

---

(١) أورده في « عيون الأخبار » (١/١٤٦) ، و« المجالسة وجواهر العلم » (٩٣٧) .
(٢) البيت في « ديوانه » (ص ١٧٢) .

يرجعَ ، ومَخرَجُه من الظنِّ : ألاّ يحققَ ، ومَخرَجُه منَ الحَسَدِ : ألاّ يبغِيَ »[1] .

ورُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **كفّارُة الطِّيَرةِ : التَّوكُّلُ علىٰ الله تعالىٰ** » .

وقيل في منثور الحكم : (**الخِيَرةُ في ترك الطِّيَرة**)[2] .

وليقل إن عارضه في الطِّيَرة ريبٌ ، أو خامره فيها وهمٌ : ما رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **مَن تطيَّرَ . . فليقُلْ : اللَّهُمَّ ؛ لا يأتي بالخَيراتِ إلاّ أنتَ** ، ولا يدفعُ السَّيِّئاتِ إلاّ أنتَ ، **ولا حولَ ولا قوّةَ إلاّ بالله** »[3] .

وقد رُوي أنَّ رجلاً جاء إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسولَ الله ؛ صلى الله عليك **إنّا نزلنا داراً فكثر فيها عددُنا** ، وكثرت فيها أموالُنا ، **ثم تحوَّلنا عنها إلىٰ أخرىٰ** ، فقلَّت فيها أموالُنا ، وقلَّ فيها عددُنا ، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « **ذَرُوها ؛ فهي ذَمِيمةٌ** »[4] .

وليس هٰذا القولُ منه صلى الله عليه وسلم علىٰ وجه الطِّيَرةِ ؛ **ولٰكن علىٰ طريق التبرُّك بما فارق** ، وتركِ ما استوحش منه إلىٰ ما أَنِس به .

فأمّا الفأل : ففيه تقويةٌ للعزم ، وباعثٌ على الجِدّ ، ومعونةٌ على الظَّفَر ؛ **فقد تفاءل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في غزواته وحروبه** ، وروىٰ أبو هريرة رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم سمعَ كلمةً فأعجبته ، فقال : « **أخَذْنا فألَكَ مِن فِيكَ** »[5] .

---

(١) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (١١٣٠) .

(٢) أورده في « نثر الدرّ » (١/ ٢٩٤) من قول سيدنا علي رضي الله عنه .

(٣) رواه أبو داوود (٣٩١٩) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٦٩٢٠) عن سيدنا عروة بن عامر رضي الله عنه .

(٤) رواه أبو داوود (٣٩٢٤) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه ، ولم يكن ذلك علىٰ وجه الطيرة ، وإنما كانوا في دارهم على استثقال واستيحاش ، فأمرهم بالانتقال عنها ؛ ليزول عنهم ما يجدون من الكراهة ، لأنه سبب في ذلك .

(٥) رواه أبو داوود (٣٩١٧) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (١١٢٦) .

فينبغي لمَن تفاءل : أن يتأوَّلَ الفألَ بأحسن تأويلاته ، ولا يجعلَ لسوء الظنِّ سبيلاً علىٰ نفسه ؛ فقد قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « إنَّ البلاءَ مُوَكَّلٌ بالمَنطِقِ »[1] .

حُكي : أنَّ يوسفَ عليه السلام شكا إلى الله تعالىٰ طولَ الحبس ، فأوحى الله تعالىٰ إليه : « يا يوسفُ ؛ أنتَ حبستَ نفسَكَ حيثُ قلت : ﴿ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ﴾ ، ولو قلتَ : العافيةُ أحبُّ إليَّ . . لعُوفيتَ »[2] .

وحُكي : أنَّ المؤمَّلَ بن أُمَيل الشاعرَ لمّا قال : [من البسيط]

شَفَّ المؤمَّلَ يومَ الحِيرةِ النَّظَرُ ليتَ المؤمَّلَ لم يُخلَقْ له بَصَرُ

فعمي . . فأتاه آتٍ في منامه ، فقال : (هٰذا ما طلبتَ)[3] .

وحُكي : أنَّ الوليد بن يزيد بن عبد الملك تفاءل يوماً في المصحف ، فخرج قولُه تعالىٰ : ﴿ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ ، فمزَّق المصحفَ ، وأنشأ يقول : [من الوافر]

أَتُوعِدُ كلَّ جبّارٍ عَنيدٍ فهٰأنا ذاكَ جبّارٌ عَنيدُ
إذا ما جئتَ ربَّكَ يومَ حَشْرٍ فقلْ يا ربِّ مزَّقني الوَليدُ

فلم يلبَثْ إلا إيّاماً حتّىٰ قُتِل شرَّ قِتْلة ، وصُلِب رأسُه علىٰ قصره ، ثم علىٰ سُور بلده[4] .

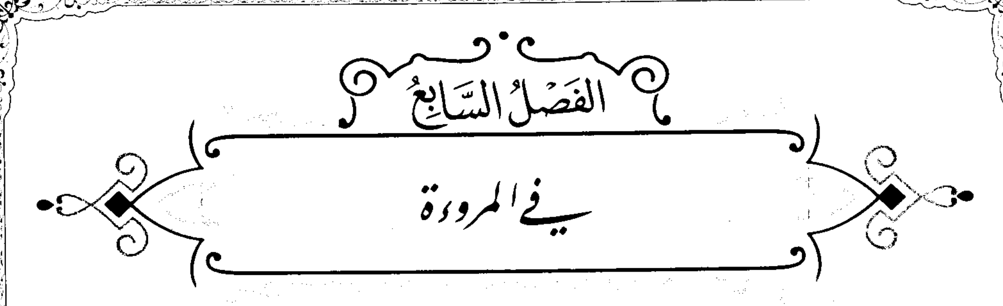
نعوذ بالله من البغي ومصارعه ، ومن الشيطان ومكائده ، وهو حسبُنا ، وعليه توكَّلنا .

---

(١) رواه الشهاب في « مسنده » (٢٢٧ ، ٢٢٨) عن حذيفة وعليّ رضي الله عنهما ، ومن عيَّر أخاه بشيء . . وقع فيه ، قال الشاعر : (من الكامل)

احفظ لسانك لا تقول فتبتلىٰ إن البلاء موكلٌ بالمنطقِ

(٢) أورده في « عيون الأخبار » (١/ ٧٩) ، و« المحاسن والمساوىء » (ص ٣٩) .
(٣) أورده في « معجم الشعراء » (ص ٣٥٢) ، و« الأغاني » (٢٦/ ٨٩٧٣) .
(٤) أورده في « الأغاني » (٧/ ٢٤٨٩) ، والبيتان في « ديوانه » (ص ٣٥) .



الفصل السابع

في المروءة

اعلم : أنَّ من شواهد الفضل ودلائل الكرم المروءة التي هي حِلية النفوس ، وزينة الهِمَم ، والمروءة هي مراعاةُ الأحوال أن تكون علىٰ أفضلها ؛ حتّىٰ لا يظهرَ منها قبيح عن قصد ، ولا يتوجَّهَ إليها ذمٌّ باستحقاق .

رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَن عامَلَ النّاسَ فلم يظلِمْهُم ، وحدَّثَهُم فلم يَكذِبْهُم ، ووَعَدَهُم فلم يُخلِفْهُم . . فهو ممَّن كملَتْ مروءتُه ، وظهَرَتْ عدالتُه ، ووجبَتْ أخوّتُه »[1] .

وقال بعض البلغاء : (من شرائط المروءة : أن تتعفَّفَ عن الحرام ، وتتظلَّفَ عن الآثام[2] ، وتُنصِفَ في الحكم ، وتكفَّ عن الظلم ، ولا تطمعَ فيما لا يُستحَقُّ ، ولا تستطيلَ علىٰ مَن لا يُسترَقُّ ، ولا تُعينَ قويّاً علىٰ ضعيف ، ولا تؤثرَ دَنيّاً علىٰ شريف ، ولا تُسِرَّ ما يُعقِبُ الوزرَ والإثم ، ولا تفعلَ ما يُقبِّحُ الذكرَ والاسم) .

وسئل بعض الحكماء عن الفرق بين العقل والمروءة فقال : (العقلُ يأمرك بالأنفع ، والمروءةُ تأمرك بالأجمل)[3] .

ولن تجدَ الأخلاقَ علىٰ ما وصفنا من حدِّ المروءة منطبعةً ، ولا عن المُراعاة مستغنيةً ، وإنَّما المُراعاةُ هي المروءةُ ، لا ما انطبعت عليه النفسُ من فضائل الأخلاق ؛ لأنَّ غرورَ الهوىٰ ونازِعَ الشهوةِ يصرفان النفسَ ـ إن تُركت فوضىٰ ـ عن الأفضل من خلائقها ، والأجمل من طرائقها ، ولو سلمَتْ منهما ـ وبعيدٌ أن

---

(١) رواه الشهاب في « مسنده » (٥٤٣) ، وأبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (٢/ ٢٧١) عن سيدنا علي رضي الله عنه .

(٢) تتظلَّف : تمتنع .

(٣) أورده في « نثر الدّر » (١/ ٢٨٥) من كلام سيدنا علي رضي الله عنه .

تسلمَ ـ . . لما استكملت شرفَ الأخلاق طبعاً ، ولا استغنَت عن تهذيبها تكلُّفاً وتصنُّعاً .

قال الشاعر[1] : [من الرجز]

مَنْ لَكَ بالمَحْضِ وليسَ مَحْضُ ... يَخبُثُ بعضٌ ويَطيبُ بعضُ

ثم لو استُكمِل الفضلُ طبعاً ـ وفي المُعوزِ أن يكون مُستكمَلاً ـ . . لكان في المُستحسَن من عادات دهره ، والموضوع من اصطلاح عصره من حقوق المروءة وشروطها . . ما لا يُتوصَّل إليه إلا بالمُعاناة ، ولا يُوقَف عليه إلا بالتفقُّد والمراعاة .

فثبت أنَّ مراعاة النفس علىٰ أفضل أحوالها هي المروءةُ ، وإذا كانت كذلك . . فليس ينقادُ لها مع ثِقَل كُلَفها إلاّ مَن تسهَّلت عليه المَشاقُّ ؛ رغبةً في الحمد ، وهانت عليه المَلاذُّ ؛ حذراً من الذَّمِّ ؛ ولذلك قيل : (سيّدُ القومِ أشقاهم)[2] .

وقال أبو تمّام الطائيُّ[3] : [من الكامل]

والحمدُ شَهْدٌ لا تَرىٰ مُشتارَهُ ... يَجنيهِ إلا مِن نَقيعِ الحَنظَلِ

غُلٌّ لحامِلِهِ ويحسَبُهُ الذي ... لم يُوهِ عاتقَه خفيفَ المَحمَلِ

وقد لحظ المتنبي ذلك في قوله[4] : [من البسيط]

لولا المَشقّةُ سادَ الناسُ كلُّهُمُ ... الجُودُ يُفقِرُ والإقدامُ قَتّالُ

وقوله[5] : [من الخفيف]

وإذا كانتِ النُّفوسُ كِباراً ... تعِبَتْ في مُرادِها الأجسامُ

---

(١) البيت لأبي العتاهية من أرجوزته ذات الأمثال في « ديوانه » (ص ٤٤٩) .

(٢) أورده في « المعمَّرون والوصايا » (ص ١٣٠) لرياح بن ربيعة ، و« جمهرة الأمثال » (١/ ٤٢٥) ، ومعناه : أكثرهم تحملاً للمشقة ، وأكثرهم شدة ومحنة .

(٣) البيتان في « ديوانه » (٣/ ٤٢) ، والشَّهْد : العسل في شمعه ، واشتاره : اجتناه من خلاياه ، والغُل ـ بالضم ـ : الطوق الذي يُجعل في عنق المحبوس والمجنون ، ولم يُوهِ : لم يُضْعفه ويُنْحِلْه .

(٤) البيت في « ديوانه » (٣/ ٢٨٧) .

(٥) البيت في « ديوانه » (٣/ ٣٤٥) .

والداعي إلى استسهال ذلك شيئان ؛ هما : علوُّ الهمّة ، وشرفُ النفس .

أمّا علوُّ الهمّة : فلأنّه باعث على التقدُّم ، وداعٍ إلى التخصُّص ؛ أنفةً من خمول الضَّعَة ، واستكباراً لمَهانة النقص ؛ ولذلكَ قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « إنَّ الله تعالىٰ يحبُّ مَعاليَ الأمورِ وأشرافَها ، ويكرَهُ سَفْسافَها »[1] .

ورُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : (لا تصغرُنَّ هممكم ؛ فإنِّي لم أَرَ أقعدَ عن المَكرُمات من صِغَر الهِمَم)[2] .

وقال بعض الحكماء : (الهمّةُ رائد الجَدِّ) .

وقال بعض البلغاء : (علوُّ الهِمَم بَذْرُ النِّعَم) .

وقال بعض العلماء : (إذا طلب رجلان أمراً . . ظفر به أعظمُهما مروءةً)[3] .

وقال بعض الأدباء : (مَن ترك التماسَ المعالي بسوء الرجاء . . لم ينَلْ جسيمَها)[4] .

وأمّا شرف النفس : فإنَّ به يكون قَبولُ التأديب ، واستقرارُ التقويم والتهذيب ؛ لأنَّ النفس ربَّما جمحت عن الأفضل وهي به عارفةٌ ، ونفرت من التأديب وهي له مستحسِنةٌ ؛ لأنَّها عليه غيرُ مطبوعة ، وله غيرُ ملائمة ، فتصير منه أنفرَ ، ولضدِّه الملائم آثرَ ؛ ولذلك قيل : (ما أكثرَ من يعرف الحقَّ ولا يطيعُه ! !) .

وإذا شرُفت النفسُ . . كانت للآداب طالبةً ، وفي الفضائل راغبةً ، فإذا مازجَها . . صادف طبعاً ملائماً ، فنما واستقرَّ .

---

(1) رواه الشهاب في « مسنده » (١٠٧٦) عن سيدنا الحسين بن علي رضي الله عنهما ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٧٦٤٧) عن طلحة بن كريز الخزاعيّ رحمه الله تعالىٰ ، وسفساف الأمور : رديئها وحقيرها .

(2) أورده في « التذكرة الحمدونية » (٢/ ٢٨) ، و« محاضرات الأدباء » (٢/ ١٥٣) .

(3) رواه في « تاريخ دمشق » (٢٣/ ٣٢٦) من قول صالح بن جناح اللَّخميّ .

(4) أورده في « التذكرة الحمدونية » (١/ ٢٧٥) من قول موسى بن جعفر .

فأمّا مَن مُني بعلوّ الهمّة ، وسُلب شرفَ النفس . . فقد صار عُرْضةً لأمرٍ أعوزَتْه آلتُه[1] ، وأفسدَتْه جهالتُه ، فصار كضريرٍ يروم الكِتْبَةَ ، وأخرسَ يريد الخُطبةَ ، فلا يزيده الاجتهادُ إلا عجزاً ، والطلبُ إلا عَوَزاً ؛ ولذلك قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « ما هَلَكَ امرُؤٌ عَرَفَ قَدْرَهُ »[2] .

وقيل لبعض الحكماء : مَن أسوأُ الناسِ حالاً ؟ قال : (مَن بعُدت همّتُه ، واتّسعَت أمنيتُه ، وقصّرت آلتُه ، وقلّت مَقدِرتُه)[3] .

وقال أُفْنُونٌ التَّغلبيُّ[4] : [من الطويل]

ولا خيرَ فيما يكذِبُ المرءُ نفسَهُ … وتَقْوالِهِ للشَّيءِ يا ليتَ ذا لِيا
لعَمْرُكَ ما يدري امرؤٌ كيفَ يتَّقي … إذا هُوَ لم يجعَلْ له اللهُ واقِيا

وقال بعض الحكماء : (تجنَّبوا المُنىٰ ؛ فإنَّها تُذهِب بهجةَ ما خُوِّلتُم ، وتستصغرون نعمةَ الله تعالىٰ عندكم)[5] .

وقيل في منثور الحكم : (المُنىٰ من بضائع النَّوكىٰ)[6] .

فإن صادف بهمّته حظّاً نال به أملاً . . كان فيما نال كالمغتصِب ، وفيما وصل إليه كالمتغلِّب ؛ إذ ليس في الحظوظ تقديرٌ لحقٍّ ، ولا تمييزٌ لمستحِقٍّ ، وإنَّما هي كالسحاب الذي يمسك عن منابت الأشجار إلىٰ مغايص البحار ، وينزل حيثُ صادف من خبيث وطيّب ؛ فإن صادف أرضاً طيّبةً . . نفع ، وإن صادف أرضاً خبيثةً . . ضرَّ ، كذلك الحظُّ ؛ إن صادف نفساً شريفةً . . نفع ، وكان نِعمةً عامّةً ، وإن صادف نفساً دَنيّةً . . ضرَّ ، وكان نِقمةً طامّةً .

---

(١) من مُني : من ابتلي ، وأعوزته آلته : صعبت عليه وأشكلت .
(٢) أورده في « الأوائل » (ص ٤٩) ، ورواه أبو نعيم في « معرفة الصحابة » (١/ ٣٤٣) من قول أكثم بن صيفيّ .
(٣) أورده في « التذكرة الحمدونية » (١/ ٢٤٧) ، ورواه في « الجليس الصالح » (٢/ ٣٦٩) .
(٤) أورد البيتين في « لباب الآداب » (ص ٣٦٠) ، و« العقد الفريد » (٣/ ٢٤٧) .
(٥) أورده في « التذكرة الحمدونية » (١/ ٣٨٥) .
(٦) أورده في « التذكرة الحمدونية » (٣/ ٣٣٠) ، و« الإعجاز والإيجاز » (ص ٣٧) من قول سيدنا علي رضي الله عنه .

حُكي : أنَّ موسى بن عمران عليه السلام دعا علىٰ قوم بالعذاب ، فأوحى الله سبحانه وتعالىٰ إليه : (قد ملَّكتُ سِفْلَتَها علىٰ عِلْيَتِها ، فقال : يا ربِّ ؛ كنتُ أحبُّ لهم عذاباً عاجلاً ، فأوحى الله تعالىٰ إليه : أوَليس هٰذا كلَّ العذاب العاجل الأليم ؟!) .

فأمّا شرفُ النفس إذا تجرَّد من علوِّ الهمّة . . فإنَّ الفضلَ به عاطلٌ ، والقدرَ به خاملٌ ، وهو كالقوّة في الجَلْد الكَسِل ، أو الجبان الفَشِل ، يضيع قوّتَه بكسله ، وجَلَدَه بفشله .

وقد قيل في منثور الحكم : (مَن دام كسلُه . . خاب أمَلُه)[1] .

وقال بعض الحكماء : (نكح العجزُ التوانيَ ، فخرج بينهما الندامةُ ، ونكح الشؤمُ الكسلَ ، فخرج بينهما الحِرمانُ)[2] .

وقال بعض الشعراء[3] : [من الطويل]

إذا أنتَ لم تعرِفْ لنفسِكَ حقَّها ... هَواناً بها كانت على الناسِ أهوَنَا
فنفسَكَ أكرِمْها وإنْ ضاقَ مَسكَنٌ ... عليكَ لها فاطلُبْ لنفسِكَ مَسكَنَا
وإيّاكَ والسُّكْنىٰ بدارِ مَذَلّةٍ ... يُعَدُّ مسيئاً فيه مَن كان مُحسِنَا

وشرفُ النفس مع صغر الهمّة أَولىٰ من علوّ الهمّة مع دناءة النفس ؛ لأنَّ مَن علَتْ همّتُه مع دناءة نفسه . . كان متعدِّياً إلىٰ طلب ما لا يستحقُّه ، ومتخطِّياً إلى التماس ما لا يستوجبه .

ومَن شرُفَت نفسُه مع صغر همّته . . فهو تاركٌ لما يستحقُّه ، ومقصِّرٌ عمّا يجبُ له ، وفضلُ ما بين الأمرين ظاهرٌ وإن كان لكلِّ واحدٍ منهما من الذمّ نصيبٌ .

---

(١) أورده في « لباب الآداب » (ص ٦٨) ، و« المستطرف » (١/ ٩١) .
(٢) رواه في « روضة العقلاء » (٢/ ٧٩٥) من قول الشَّمَرْدَل ، وأورده في « نثر الدرّ » (٢/ ٨٧) من قول سيدنا عمرو بن العاص رضي الله عنه .
(٣) أورد البيتين الأخيرين ابن النجار في « ذيل تاريخ بغداد » (١٦/ ٢٠٦) .

وقيل لحكيم : (**ما أصعبُ شيءٍ على الإنسان ؟** قال : **أن يعرفَ نفسَه ، ويكتمَ الأسرارَ**) .

فإذا اجتمع الأمران ، واقترن بشرف النفس علوُّ الهمّة . . **كان الفضلُ بهما ظاهراً** ، والأدبُ بهما وافراً ، ومشاقُّ الحمد بينهما مستسهَلةً ، وشروطُ المروءة منهما متهيِّئةً .

وقد قال الحُضَين بن المنذر الرَّقاشيُّ[1] : [من الكامل]

إنَّ المروءةَ ليس يُدرِكُها امرُؤٌ ... ورِثَ المَكارِمَ عن أبٍ فأضاعَها
أمَرَتْهُ نفسٌ بالدَّناءةِ والخَنا ... ونهَتْهُ عن سُبُلِ العُلا فأطاعَها
فإذا أصابَ منَ المَكارِمِ خَلّةً ... يبني الكريمُ بها المَكارِمَ باعَها

واعلم : أنَّ حقوقَ المروءة أكثرُ من أن تُحصىٰ ، وأخفىٰ من أن تظهرَ[2] ؛ **لأنَّ منها** ما يقوىٰ في الوهم حِسّاً ، **ومنها** ما يقتضيه شاهدُ الحال حَدْساً ، **ومنها** ما يظهر بالفعل ، ويخفىٰ بالتغافل ؛ **فلذلك أعوزَ استيفاءُ شروطها** ، إلا جُملاً يتنبَّه الفاضلُ عليها بفِطنته ، ويستدِلُّ العاقل عليها بفِطرته ، **وإن كان جميعُ ما تضمَّنه كتابنا هـٰذا هو من حقوق المروءة وشروطها** .

وإنَّما نذكر في هـٰذا الفصل الأشهرَ من قواعدها وأصولها ، والأظهرَ من شروطها وحقوقها محصوراً في تقسيمٍ جامعٍ .

وهي تنقسم قسمين : **أحدهما** : شروط المروءة في نفسه ، **والثاني** : شروطها في غيره .

فأمّا شروطُها في نفسه بعد التزام ما أوجبه الشرع من أحكامه . . **فتكون بثلاثة أمور** ؛ وهي : العفّةُ ، والنَّزاهةُ ، والصِّيانةُ .

---

(١) أورد الأبيات في « التذكرة الحمدونية » (٢/ ٦٩) ، و« روضة العقلاء » (٢/ ٨٣١) .

(٢) لا يتعلق بها الإحصاء لكثرتها ، ولا الإظهار لدقتها .

فأمّا العفّة.. فنوعان: أحدهما: العفّةُ عن المحارم، والثاني: العفّةُ عن المآثم.

فأمّا العفّةُ عن المحارم.. فنوعان: أحدهما: ضبطُ الفرج عن الحرام، والثاني: كفُّ اللسان عن الأعراض.

فأما ضبط الفرج عن الحرام: فلأنّه مع وعيد الشرع وزاجر العقل مَعَرّةٌ فاضحة، وهُتْكةٌ داحضة[1].

ولذلك قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «مَن وُقِيَ شَرَّ ذَبْذَبِهِ ولَقْلَقِهِ وقَبْقَبِهِ.. فقد وُقِيَ» يريد بـ(ذبذبه): الفَرْجَ، وبـ(لقلقه): اللسانَ، وبـ(قبقبه): البطنَ[2].

ورُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال: «أَحَبُّ العَفافِ إلى اللهِ تعالىٰ عَفافُ الفَرْجِ والبَطْنِ».

وحُكي: أنَّ معاويةَ سأل عَمراً عن المروءة، فقال: (تقوى الله تعالىٰ، وصلةُ الرَّحِم).

وسأل المغيرةَ، فقال: (هي العفّةُ عمّا حرَّم اللهُ تعالىٰ، والحِرفةُ فيما أحلَّ اللهُ عز وجل).

وسأل يزيدَ، فقال: (هي الصبرُ على البَلْوىٰ، والشكرُ على النُّعْمىٰ، والعفوُ عند القدرة)، فقال معاويةُ: (أنتَ منّي حقّاً).

وقال أنوشروان لابنه هرمز: (الكاملُ المروءةِ: مَن حصَّن دِينَه، ووصلَ رحِمَه، وأكرمَ إخوانَه)[3].

---

(١) معرة فاضحة: إثم ظاهر وجناح مكشوف، وهُتكة داحضة: باطلة، والهُتكة: خرقٌ في الستر، وههنا كناية عن العضوين المخصوصين.

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٥٠٢٦) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه، وفسّر القبقب فيه بالفم.

(٣) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٠٦/٧) بنحوه من قول إبراهيم بن محمد الإمام.

وقال بعض الحكماء : (مَن أحبَّ المكارمَ . اجتنبَ المحارمَ)[1] .

وقيل : (عارُ الفضيحة يكدِّر لذّتَها)[2] .

وأنشدني بعض أهل الأدب للحسين بن عليّ عليهما السلام[3] : [من مشطور الرجز]

المـوتُ خيـرٌ مِـن رُكُـوبِ العـارِ
والعـارُ خيـرٌ مِـن دُخُـولِ النّـارِ
واللهُ مِـن هٰـذا وهٰـذا جـارِي

والداعي إلىٰ ذلك شيئان[4] : أحدهما : إرسال الطَّرْف ، والثاني : اتّباعُ الشهوة .

وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال لعليِّ بن أبي طالب عليه السلام : « يا عليُّ ؛ لا تُتبِع النَّظرةَ النَّظرةَ ؛ فإنَّ الأُولىٰ لك ، والثّانيةَ عليكَ »[5] .

وفي قوله صلى الله عليه وسلم : (لا تُتبِعِ النَّظرةَ النَّظرةَ) تأويلان :

أحدهما : لا تتبع نظرَ عينيك نظرَ قلبك .

والثاني : لا تتبع النظرةَ الأُولى التي وقعت سهواً بالنظرة الثانية التي تُوقِعُها عمداً .

وقال عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام : (إيّاكُم والنَّظرةَ بعدَ النَّظرةِ ؛ فإنَّها تزرعُ في القلب الشهوةَ ، وكفىٰ بها لصاحبها فتنةً)[6] .

---

(١) أورده في « البيان والتبيين » (٢/ ٧٥) ، و« التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٣١) .
(٢) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٥٥) .
(٣) أورد الأبيات في « البيان والتبيين » (٣/ ٢٧٨) ، و« نثر الدرّ » (١/ ٣٣٧) ، وجاري : مُجيري .
(٤) الداعي إلى الوقوع في الحرام من جهة الفرج شيئان .
(٥) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٥٥٧٠) ، وأبو داوود (٢١٤٩) ، والترمذي (٢٧٧٧) .
(٦) رواه عبد الرزاق في « مصنَّفه » (٧٤٥٣) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٧/ ٤٢٩) .

وقال عليّ بن أبي طالب عليه السلام : (**العيونُ مصائدُ الشيطانِ**)[١] .

وقال بعض الحكماء : (**مَن أرسل طَرْفَه . . استدعىٰ حَتْفَه**)[٢] .

وقال بعض الشعراء[٣] : [من الطويل]

وكنتَ متىٰ أرسلْتَ طَرْفَكَ رائداً ... لقلبِكَ يوماً أتعبَتْكَ المَناظِرُ

رأيتَ الذي لا كلُّه أنتَ قادرٌ ... عليه ولا عن بعضِه أنتَ صابِرُ

فأمّا الشهوةُ : فهي خادعةُ العقول ، وغارّةُ الألباب ، ومحسِّنةُ القبائح ، ومسوِّلةُ الفضائح ، وليس عطَبٌ إلا وهي له سببٌ ، وعليه ألْبٌ ؛ ولذلك قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « **أربعٌ مَن كُنَّ فيه . . وجَبَتْ له الجَنّةُ ، وحُفِظَ مِنَ الشَّياطينِ** : مَن ملَكَ نفسَهُ حينَ يرغَبُ ، وحينَ يرهَبُ ، وحينَ يشتهي ، وحينَ يغضَبُ »[٤] .

وقهرُها عن هٰذه الأحوال يكون بثلاثة أمور :

ـ **أحدها** : **غضُّ الطَّرْف عن إثارتها ، وكفُّه عن مساعدتها** ؛ فإنَّه الرائد المحرِّك ، والقائد المهلِك .

روىٰ سعد بن سنان[٥] ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **تقبَّلُوا لي بسِتٍّ . . أتقبَّلْ لكم بالجنّةِ** » قالوا : وما هي يا رسولَ اللهِ ؟ قال : « **إذا حدَّثَ أحدُكم . . فلا يكذِبْ ، وإذا وعَدَ . . فلا**

---

(١) أورده في « نثر الدرّ » (١/ ٣١٧) بنحوه .

(٢) رواه في « الطيوريّات » (١٠٧٨) من قول ذي النون ، وأورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٣١٠) .

(٣) أورده في « عيون الأخبار » (٤/ ٢٢) ، ورواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٣٢٨٤) لامرأة اسمها الصَّيقل كما في « الإنصاف في مسائل الخلاف » (ص ٦٤٥) .

(٤) أورده الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص ٣٦٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، ورواه في « حلية الأولياء » (٢/ ١٤٤) من قول الحسن البصريّ رحمه الله تعالىٰ .

(٥) في النسخ كلها : (سعيد بن سنان) ، ولعل الصواب ما أثبت ، والله أعلم .

يُخلِفْ ، وإذا اؤتُمِنَ . . فلا يَخُنْ ، **غُضُّوا أبصارَكُم ، واحفَظُوا فُرُوجَكُم ، وكُفُّوا أيديَكُم** »[1] .

ـ والثاني : ترغيبُها في الحلال عِوَضاً ، وإقناعُها بالمباح بدَلاً ؛ فإنَّ الله تعالىٰ ما حرَّم شيئاً إلا وأغنىٰ عنه بمباحٍ من جنسه ؛ لما علمه من نوازع الشهوة ، وتركيب الفطرة ؛ ليكون ذلك عوناً علىٰ طاعته ، وحاجزاً عن مخالفته .

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (**ما أمرَ اللهُ تعالىٰ بشيءٍ إلا وأعانَ عليه ، ولا نهىٰ عن شيءٍ إلا وأغنىٰ عنه**)[2] .

ـ والثالث : إشعارُ النفس بتقوى الله تعالىٰ في أوامره ، واتِّقاؤه في زواجره ، وإلزامُها ما ألزم من طاعته ، وتحذيرُها ما حذَّر من معصيته ، **وإعلامُها** : أنَّه لا يخفىٰ عليه ضميرٌ ، ولا يعزُبُ عنه قِطْمِيرٌ ، وأنَّه يجازي المحسنَ ، ويكافىء المسيءَ ، بذلك نزلت كتبه ، وبلَّغت رسله .

روى ابن مسعود رضي الله عنه : (أنَّ آخرَ ما نزلَ من القرآن : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾)[3] .

وآخرُ ما نزل من التوراة : (إذا لم تستَحْيِ . . فاصنَعْ ما شئتَ)[4] .

وآخرُ ما نزل من الإنجيل : (شرُّ الناس مَن لا يبالي أن يراه الناس مُسيئاً)[5] .

وآخرُ ما نزل من الزَّبُور : (مَن يزرَعْ خيراً . . يحصُدْ غِبْطةً)[6] .

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣٥٩) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٤٠٤٦) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٩/ ٣٦٧) ، وتقبَّلُوا : تكفَّلُوا .

(٢) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٨) دون نسبة .

(٣) رواه الطبري في « تفسيره » (٣/ ٣/ ١٤٨) ، والبخاري (٤٥٤٤) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

(٤) رواه الطبراني في « المعجم الأوسط » (٤٧٩٩) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٣/ ١٢٠) عن سيدنا أبي مسعود البدريّ رضي الله عنه .

(٥) رواه الإمام أحمد في « الزهد » (٢٧٥) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٦٦٠٢) من قول لقمان الحكيم .

(٦) رواه الأزرقي في « أخبار مكة » (١/ ٥٥) ، وابن هشام في « السيرة النبوية » (١/ ١٩٦) ، وغبطة : حال كونه مسرة ، وحسن حال .

فإذا أشعرها ما وصفت . . انقادت إلى الكفِّ ، وأذعنت بالاتّقاء ، فسلم دينُه ، وظهرت مروءتُه ، فهٰذا شرط .

وأمّا كفُّ اللسان عن الأعراض : فلأنه مَلاذُّ السفهاء ، وانتقامُ الغَوغاء ، وهو مستسهَل الكُلَف ، إن لم يقهر نفسَه عنه برادعٍ كافٍّ ، وزاجرٍ صادٍّ . . تلبَّط بمَعارِّه ، وتخبَّط بمَضارِّه ، وظنَّ أنَّه لتجافي الناس عنه حِمىً يُتَّقىٰ ، ورتبةٌ تُرتقىٰ ، فهلك وأهلك ؛ ولذلك قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « ألا إنَّ دِماءَكُم وأموالَكُم وأعراضَكُم حَرامٌ عليكُمْ »[1] فجمع بين الدَّم والعِرض ؛ لما فيه من إيغار الصدور ، وإبداء الشُّرور ، وإظهار البَذاء ، واكتساب الأعداء ، ولا يبقىٰ مع هٰذه الأمور وزنٌ لمرموق ، ولا مروءةٌ لملحوظ ، ثم هو بها موتورٌ وموزور ، ولأجلها مهجورٌ ومزجور .

وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « شَرُّ الناسِ : مَن أكرَمَهُ النّاسُ ؛ اتِّقاءَ لسانِهِ »[2] .

وقال بعض الحكماء : (إنَّما يهلك الناسُ بفُضول الكلام ، وفُضول المال)[3] .

وما قدح في الأعراض من الكلام . . فنوعان :

أحدهما : ما قدح في عِرض صاحبه ، ولم يتجاوزه إلىٰ غيره ؛ وذلك شيئان : الكذبُ ، وفُحشُ القول .

والثاني : ما تجاوزه إلىٰ غيره ؛ وذلك أربعة أشياء : الغِيبةُ ، والنَّميمةُ ، والسِّعايةُ ، والسَّبُّ بقذفٍ أو شتمٍ .

---

(١) رواه البخاري (٦٧) ، ومسلم (١٦٧٩) عن سيدنا أبي بكرة رضي الله عنه .
(٢) رواه البخاري (٦٠٣٢) ، ومسلم (٢٥٩١) عن السيدة عائشة رضي الله عنها .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت » (١٠٣) ، و« البيان والتبيين » (١/ ١٩٢) من قول إبراهيم النَّخَعيّ رحمه الله تعالىٰ .

وربَّما كان السبُّ أنكاها للقلوب ، وأبلغَها أثراً في النفوس ؛ ولذلك زجر الله تعالىٰ عنه بالحدِّ تغليظاً ، وبالتفسيق تشديداً وتصعيباً[(١)] .

وقد يكون ذلك لأحد شيئين : إمّا انتقامٌ يصدر عن سفَه ، أو بَذاءٌ يحدث عن لؤم .

وقد روىٰ أبو سلمة ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « **المؤمنُ غِرٌّ كريمٌ ، والفاجرُ خَبٌّ لئيمٌ** »[(٢)] .

وقال ابن المقفَّع : (**الاستطالةُ لسانُ الجهالة**)[(٣)] .

وكفُّ النفس عن هٰذه الحال بما يصدُّها من الزواجر أسلمُ ، وهو بذوي المروءة أجملُ ، فهٰذا شرطٌ[(٤)] .

* * *

وأما العفة عن المآثم . . فنوعان : أحدهما : الكفُّ عن المجاهرة بالظلم ، **والثاني** : زجرُ النفس عن الاستسرار بخيانة .

فأمّا المجاهرةُ بظلم : فعُتوٌّ مهلِكٌ ، وطُغيانٌ متلِفٌ ، وهو يؤول إن استمرَّ إلىٰ فتنةٍ أو جَلاءٍ .

ـ **أمّا الفتنةُ** في الأغلب . . فتحيط بصاحبها ، وتنعكس على البادىء بها ، فلا تنكشف إلا وهو بها مصروعٌ ؛ كما قال الله تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ .

---

(١) ولذلك شرع حد القذف وعقوبته .

(٢) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٤١٨) ، وأبو داوود (٤٧٩٠) ، والترمذي (١٩٦٤) ، غِرٌّ : يغره كل أحد ، ولا يعرف الشر وليس بذي مكر ؛ فهو ينخدع لسلامة صدره وحسن ظنه ، وخب ـ بفتح الخاء وقد تكسر ـ : هو الذي يسعىٰ بين الناس بالفساد .

(٣) أورده في « الصناعتين » (ص ٢٧٨) ، و« البديع » (ص ١٥) دون نسبة ، **والاستطالة** : المغالبة في القول الفاحش .

(٤) فهٰذا الكف شرط من شروط المروءة في نفسه .

ورُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « الفِتنةُ نائمةٌ ؛ فمَن أيقَظَها . . صار طعاماً لها »(١) .

وقال جعفر بن محمد عليهما السلام : (الفتنةُ حصادُ الظالمين)(٢) .

وقال بعض الحكماء : (صاحبُ الفتنة أقربُ شيءٍ أجلاً ، وأسوأُ شيءٍ عملاً)(٣) .

وقال بعض الشعراء(٤) : [من الطويل]

وكنتَ كعَنْزِ السُّوْءِ قامَتْ لحَتْفِها إلىٰ مُدْيةٍ تحتَ الثَّرىٰ تَستثيرُها

ـ وأمّا الجَلاء : فقد يكون مع قوّة الظالم ، وتطاول مدّته ، فيصير ظلمُه مع المَكِنة جَلاءً وفَناءً ؛ كالنار إذا وقعت في يابس الشجر ، فلا تُبقي منه بتمكُّنها شيئاً ، حتىٰ إذا أفنَتْ ما وجدت . . خمدَت ؛ كذلك حالُ الظالم : مُهلِكٌ ثم هالكٌ .

والباعثُ علىٰ ذلك شيئان : الجرأةُ ، والقسوةُ ؛ ولذلك قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « اطلُبُوا الفَضْلَ والمَعرُوفَ عندَ الرُّحَماءِ مِن أمّتي . . تَعيشُوا في أكنافِهِمْ »(٥) .

والصادُّ عن ذلك : أن يرىٰ آثارَ الله تعالىٰ في الظالمين ؛ فإنَّ له فيهم عِبَراً ، ويتصوَّرَ عواقبَ ظلمهم ؛ فإنَّ فيه مُزدجَراً .

وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « مَن أصبحَ ولم يَنْوِ ظُلْمَ أحدٍ . . غُفِرَ له ما اجترَمَ »(٦) .

---

(١) أورده في « محاضرات الأدباء » (٣/ ٣٤٣) .
(٢) أورده في « البصائر والذخائر » (١/ ٢٣) .
(٣) رواه الطبري في « تاريخه » (٥/ ٥٧٨) من قول هانىء بن أبي حيّة الوادعيّ .
(٤) البيت للفرزدق في « ديوانه » (١/ ٢٢٠) .
(٥) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٥٦٨) ، والطبراني في « المعجم الأوسط » (٤٧١٤) عن سيدنا أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه .
(٦) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٣/ ٢٧٣) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٤/ ٩٤) عن سيدنا أنس رضي الله عنه .

وروىٰ جعفر بن محمد ، عن أبيه ، عن جدِّه عليهم السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **يا عليُّ ؛ اتَّقِ دَعْوةَ المظلومِ ؛ فإنَّما يسألُ اللهَ تعالىٰ حقَّه ، وإنَّ اللهَ تعالىٰ لا يمنَعُ ذا حَقٍّ حَقَّهُ** »[١] .

وقيل في منثور الحكم : (**ويلٌ للظالم من يوم المَظالم**) .

وقال بعض البلغاء : (**مَن جار حكمُه . . أهلكَه ظلمُه**) .

وقال بعض الشعراء[٢] : [من الطويل]

وما مِن يَدٍ إلاّ يَدُ اللهِ فوقَها ... ولا ظالِمٍ إلاّ سيُبلىٰ بظالِمِ

وأمّا الاستسرارُ بالخيانة . . فنَطَفٌ وضَعَةٌ[٣] ؛ لأنَّه بذلِّ الخيانة مَهينٌ ، ولقلّة الثقة به مستكينٌ .

وقد قيل في منثور الحكم : (**مَن يخُنْ . . يهُنْ**)[٤] .

وقال خالد الرَّبْعيُّ : (قرأتُ في بعض الكتب السالفة : **أنَّ ممّا تُعجَّل عقوبتُه ولا تؤخَّرُ** : الأمانةَ تُخانُ ، والإحسانَ يُكفَرُ ، والرَّحِمَ تُقطَعُ ، والبغيَ على الناس)[٥] .

ولو لم يكنْ من ذمِّ الخيانة إلا ما يجده الخائنُ في نفسه من المَذلّة . . **لكفاه** زاجراً ، ولو تصوَّر عُقبىٰ أمانته ، وجَدوىٰ ثقته . . **لعلم أنَّ ذلك من أربح بضائع جاهه** ، وأقوىٰ شفعاء تقدُّمه ، مع ما يجده في نفسه من العزِّ ، ويُقابَل عليه من الإعظام .

---

(١) رواه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٦٣٤) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٧٠٦١) .

(٢) أورد البيت في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٥٣) ، و« بهجة المجالس » (١/ ٣٦٧) .

(٣) **النَّطَفُ** : التلطُّخ بالعيب ، **والضعة** : الدناءة .

(٤) أورده في « نهاية الأرب » (٦/ ١١٨) .

(٥) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٠٢) في زيادات نعيم بن حماد ، والخرائطي في « مكارم الأخلاق » (١٦٨) .

وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « أدِّ الأمانةَ إلىٰ مَنِ ائتمَنَكَ ، ولا تخُنْ مَن خانَكَ »[1] .

وروىٰ سعيد بن جبير قال : لمّا نزلت هـٰذه الآية : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ ﴾ يعنون : أنَّ أموال العرب حلالٌ لهم ؛ لأنَّهم من غير أهل الكتاب . . قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « كذَبَ أعداءُ اللهِ ، ما مِن شيءٍ كانَ في الجاهليّةِ إلا وهو تحتَ قدَميَّ ، إلا الأمانةَ ؛ فإنَّها مُؤدّاةٌ إلى البَرِّ والفاجرِ »[2] .

ولا يجعلْ ما يتظاهرُ به من الأمانة زُوراً ، ولا ما يُبديه من العفّة غُروراً ، فينهتكَ الزُّورُ ، وينكشفَ الغُرورُ ، فيكونَ مع هتكه التدليسَ أقبحَ ، وبمعرّة الرياء أفضحَ .

وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « لا تزالُ أمّتي بخيرٍ ما لم ترَ الأمانةَ مَغنَماً ، والصَّدقةَ مَغرَماً ، وصلةَ الرَّحِمِ مَنّاً »[3] .

وقال بعض الحكماء : (مَنِ التمسَ أربعاً بأربعٍ . . التمسَ ما لا يكون ؛ مَنِ التمسَ الجزاءَ بالرِّياء . . التمسَ ما لا يكون ، ومَنِ التمسَ مودّةَ الناس بالغِلظة . . التمسَ ما لا يكون ، ومَنِ التمسَ وفاءَ إخوانِه بغير وفائه . . التمسَ ما لا يكون ، ومَنِ التمسَ العلمَ براحة الجسد . . التمسَ ما لا يكون) .

والداعي إلى الخيانة شيئان : المَهانةُ ، وقلّةُ الأمانة ، فإذا حسمهما عن نفسه بما وصفتُ . . ظهرت مروءته ، فهـٰذا شرطٌ قد استوفينا فيه أقسام العفّة[4] .

---

(١) رواه أبو داوود (٣٥٣٥) ، والترمذي (١٢٦٤) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وبيَّن سبحانه وتعالىٰ في الآيات شروعَ خيانتهم في المال بعد بيان خيانتهم في الدين .

(٢) رواه الطبري في « تفسيره » (٣/٣/٤٠٧) .

(٣) رواه الترمذي (٢٢١٠) عن سيدنا علي رضي الله عنه .

(٤) فهـٰذا الحسم شرط من شروط المروءة قد استوفينا فيه أقسام العفة ، من ضبط الفرج عن الحرام ، وكف اللسان عن الأعراض ، والكف عن المجاهرة بالظلم ، وزجر النفس عن الإسرار بخيانة .

وأمّا النَّزاهةُ . . فنوعان : أحدهما : النَّزاهة عن المطامع الدَّنيّة ، والثاني : النَّزاهة عن مواقف الرِّيبة .

فأمّا المطامع الدَّنيّة : فلأنَّ الطمع ذلٌّ ، والدَّناءة لؤمٌ ، وهما أدفعُ شيء للمروءة ، وقد كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه : « اللَّهُمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ من طَمَعٍ يَهدي إلىٰ طَبَعٍ »(١) .

وقال بعض الشعراء(٢) : [من البسيط]

لا تضرَعَنَّ لمخلوقٍ علىٰ طَمَعٍ ... فإنَّ ذاكَ مُضِرٌّ منكَ بالدِّينِ
واسترزِقِ اللهَ ممّا في خزائِنِهِ ... فإنَّما هو بينَ الكافِ والنُّونِ

والباعثُ علىٰ ذلك شيئان : الشَّرَهُ ، وقلّةُ الأنَفة ، فلا يقتنعُ بما أُوتي وإن كان كثيراً ؛ لأجل شرَهه ، ولا يستنكفُ ممّا مُنِع وإن كان حقيراً ؛ لقلّة أنَفته .

وهٰذه حالُ مَن لا يرىٰ لنفسه قدراً ، ويرى المالَ أعظمَ خطراً ، فيرىٰ بذلَ أهونِ الأمرين لأجلِّهما غُنْماً ، وليس فيمَن كان المالُ عنده أجلَّ ، ونفسُه عليه أقلَّ إصغاءٌ لتأنيب ، ولا قبولٌ لتأديب .

رُوي أنَّ رجلاً قال لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم : أَوصِني ، قال : « عليكَ باليأسِ ممّا في أيدي النّاسِ ، وإيّاكَ والطَّمَعَ ؛ فإنَّه فَقْرٌ حاضرٌ ، وإذا صلَّيتَ صلاةً . . فصَلِّ صلاةَ مُودِّعٍ ، وإيّاكَ وما تعتذِرُ منه »(٣) .

وقال بعض الحكماء : (عزُّ النَّزاهة أشرفُ من سرور الفائدة)(٤) .

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (١/ ٥٣٢) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (٢٠/ ٩٣) عن سيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه ، ويهدي إلىٰ طبَع ؛ أي : يؤدي إلىٰ شينٍ وعيب .

(٢) البيتان منسوبان لسيدنا علي في « ديوانه » (ص٢٤٨) ، ولعبد الله بن المبارك في « ديوانه » (ص٩١) ، ولمحمود الوراق في « ديوانه » (ص٢٨١) ، وفي غير (أ) : (فإنَّ ذلك نقصٌ منك في الدينِ) .

(٣) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣٢٦) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (١٠١) عن سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .

(٤) رواه في « الجليس الصالح » (١/ ٢٠٥) ، وأبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (١/ ٢٣٧) من قول أبي حفص الكرمانيّ رحمه الله تعالىٰ .

وقال بعض الشعراء[1] : [من الطويل]

ومَن كانتِ الدُّنيا مُناهُ وهَمَّهُ سَبَتْهُ المُنىٰ واستعبَدَتْهُ المَطامِعُ

وحسمُ هٰذه المطامع شيئان : اليأسُ ، والقناعةُ .

وقد روىٰ عبد الله بن مسعود رضي الله تعالىٰ عنه ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « **إنَّ رُوحَ القُدُسِ نَفَثَ في رُوْعِي : أنَّ نَفْساً لا تموتُ حتّىٰ تستوفيَ رِزْقَها ، فاتَّقُوا اللهَ وأَجمِلُوا في الطَّلَبِ ، ولا يَحمِلَنَّكُمْ إبطاءُ الرِّزقِ علىٰ أنْ تطلُبُوهُ بمعاصي اللهِ تعالىٰ ؛ فإنَّ اللهَ لا يُدرَكُ ما عندَه إلاّ بطاعتِهِ** »[2] ، **فهٰذا شرط**[3] .

وأمّا مواقفُ الرِّيبة : فهي الترَدُّدُ بين منزلتَي حمدٍ وذمّ ، والوقوفُ بين حالَتي سلامةٍ وسُقْم ، **فتتوجَّهُ إليه لائمةُ المتوهِّمين** ، وتنالُه ذِلّةُ المُريبين ، وكفىٰ بصاحبها موقفاً ؛ إن صحَّ . . افتُضِح ، وإن لم يصحَّ . . أُوهِنَ .

وقد قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « **دَعْ ما يَرِيبُكَ إلىٰ ما لا يَرِيبُكَ** »[4] .

وسُئل محمد بن عليّ عليه السلام عن المروءة ، فقال : (**ألاّ تعمل في السرِّ عملاً تستحِي منه في العلانية**)[5] .

---

(١) البيت لأبي العتاهية في « ديوانه » (ص٢١٧) ، والمعنىٰ : من كانت الدنيا والمال غاية ما يتمناه . . كان أسير أمانيه وعبد مطامعه .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٤٧٣) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٩٨٩١) ، وروح القدس : هو سيدنا جبريل عليه السلام ؛ سمي بذلك لتقديسه وتطهيره ، وخُص بذلك مع مشاركة الملائكة له ؛ لأنه رئيسهم ، ونفث في رُوعي : أوحىٰ وألقىٰ في خَلَدي وبالي .

(٣) فهٰذا الحسم بالنزاهة عن المطامع الدنية شرطٌ أيضاً للمروءة .

(٤) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٧٢٢) ، والترمذيّ (٢٥١٨) عن سيدنا الحسن بن عليّ رضي الله عنهما .

(٥) أورده في « التذكرة الحمدونية » (٢/٢٣٢) ، ورواه في « تاريخ دمشق » (٢٤/٣٣٧) من قول الأحنف بن قيس رحمه الله تعالىٰ ، وأورده في « نثر الدرّ » (٤/١٧٦) من قول محمد بن عمران التَّيميّ رحمه الله تعالىٰ .

وقال حسان بن أبي سِنان : (ما وجدْتُ شيئاً هو أهونُ من الورَع) قيل له : وكيف ؟ قال : (إذا ارتبتُ بشيءٍ . . تركتُه)[1] .

والداعي إلىٰ هـٰذه الحال شيئان : الاسترسالُ ، وحسنُ الظنِّ .

والمانعُ منها شيئان : الحياءُ ، والحذرُ .

وربَّما انتفَت الرِّيبة بحسن الثقة ، وارتفعت التُّهَمةُ بطول الخبرة ؛ كالذي حُكي عن عيسى ابن مريم عليه السلام : أنَّه رآه بعضُ الحواريِّينَ وقد خرج من منزلِ ذاتِ فُجور ، فقال له : يا رُوحَ الله ؛ ما تصنعُ هـٰهنا ؟ فقال : (الطبيبُ إنَّما يُداوي المَرضىٰ)[2] .

لـٰكن لا ينبغي أن يجعل ذلك طريقاً إلى الاسترسال ، وليكنِ الحذرُ عليه أغلبَ ، وإلى الخوف من تصديق التُّهَم أقربَ ، فما كلُّ رِيبةٍ ينفيها حسنُ الظنِّ .

هـٰذا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ـ وهو أبعدُ خلق الله من الرِّيَب ، وأصوَنُهم من التُّهَم ـ وقف مع زوجته صفيّةَ ذاتَ ليلةٍ علىٰ باب مسجده يحادثها وكان مُعتكِفاً ، فمرَّ به رجلان من الأنصار ، فلمّا رأياه . . أسرعا ، فقال لهما : « علىٰ رِسْلِكُما ؛ إنَّها صَفيّةُ بنتُ حُيَيٍّ » فقالا : أوَيخالجنا فيكَ شكٌّ يا رسولَ الله ؟! فقال : « مَهْ ؛ إنَّ الشَّيطانَ يجري مِن أحدِكُمْ مَجرىٰ لَحْمِهِ ودَمِهِ ، فخَشِيتُ أنْ يَقذِفَ في قُلُوبِكُما سُوءاً »[3] .

فكيف بمَن تخالجت فيه الشُّكوكُ ، وتقابلت فيه الظُّنونُ ، هل يعرىٰ في مواقف الرِّيَب من قادح محقِّق ، ولائم مصدِّق ؟ وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه

---

(١) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٣/ ٢٣) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٣/ ٢١٦) .

(٢) أورده في « عيون الأخبار » (٢/ ٣٧٠) ، و« البيان والتبيين » (٣/ ١٤٠) .

(٣) رواه البخاري (٢٠٣٨) ، ومسلم (٢١٧٥) ، ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم نسبهما أنهما يظنان به سوءاً ؛ لما تقرر عنده من صدق إيمانهما ، ولـٰكن خشي عليهما من وسوسة الشيطان ؛ لأنهما غير معصومين ، فبادر إلىٰ إعلامهما حسماً للمادة وتعليماً لمن بعده إذا وقع له مثل ذلك .

وسلم أنَّه قال : « إذا لم يُشق المرءُ إلاّ بما عمِلَ . . فقد سُعِدَ »[1] .

وإذا استعمل الحزمَ ، وغلَّب الحذرَ ، وترك مواقفَ الرِّيَب ، ومَظانَّ التُّهَم ، ولم يقف موقفَ اعتذارٍ ، ولا عذرَ لمختارٍ . . لم يختلج في نزاهته شكٌّ ، ولم يقدح في عِرضه إفكٌ .

وقد قال الشاعر[2] : [من الوافر]

أصُـونُـكَ أنْ أدُلَّ عليـكَ ظَنّـاً ... لأنَّ الظَّـنَّ مِفتـاحُ اليَقِيـنِ

وقال سهل بن هارون : (مُؤنةُ التوقُّف أيسرُ من تكلُّف التعسُّف) .

وقال بعض الحكماء : (مَن حسَّنَ ظنَّه بمَن لا يخافُ اللهَ تعالىٰ . . فهو مخدوعٌ)[3] .

وأنشد بعض أهل الأدب لأبي بكر الصُّوليِّ[4] : [من مخلع البسيط]

أحسنـتُ ظنِّـي بـأهـلِ دَهْـرِي ... فحُسْـنُ ظنِّـي بِهِـمْ دَهـانِـي

لا آمَـنُ النـاسَ بعـدَ هـٰذا ... مـا الخَـوفُ إلاّ مـنَ الأمـانِ

فهـٰذا شرطٌ قد استوفينا فيه نوعَي النزاهة[5] .

وأمّا الصِّيانةُ وهي الثالث من شروط المروءة . . فنوعان : أحدهما : صيانة النفس بالتماس كفايتها ، وتقدير مادّتها .

والثاني : صيانتها عن تحمُّلِ المِنَن ، والاسترسال في الاستعانة .

فأمّا التماسُ الكفاية ، وتقدير المادّة . . فلأنَّ المحتاجَ إلى الناس كَلٌّ مُهتضَمٌ ،

---

(١) إذا لم يُشقَّ ـ بالبناء للمفعول ـ : إذا لم يوقع في المشقة إلا بعمله .

(٢) أورد البيت في « بهجة المجالس » (١/ ٤١٩) ، و« عيون الأخبار » (١/ ٣٥) لسعيد بن حميد الكاتب .

(٣) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٩/ ٢٧٢) من قول أبي سليمان الداراني رحمه الله تعالىٰ بنحوه .

(٤) أورد البيتين ابن النجار في « ذيل تاريخ بغداد » (٢٠/ ١١١) ، ودهاني : أصابني بداهية عظيمة .

(٥) فهـٰذا شرط من شروط المروءة في نفسه ، قد استوفينا فيه نوعي النزاهة عن المطامع الدنية ، والنزاهة عن مواقف الريبة .

وذليلٌ مُستثقَلٌ[١] ، وهو لما فُطِر عليه محتاجٌ إلىٰ ما يستمدُّه ؛ ليقيم أَوَدَ نفسه[٢] ، ويدفع ضرورةَ وقته ؛ ولذلك قالت العرب في أمثالها : (كلبٌ جوّالٌ خيرٌ من أسدٍ رابض)[٣] .

وما يستمدُّه نوعان : لازم ، وندب .

فأمّا اللازمُ : فما قام بالكفاية ، وأفضىٰ إلىٰ سَدّ الخَلّة ، وعليه في طلبه ثلاثة شروط[٤] :

ـ أحدها : استطابتُه من الوجوه المباحة ، وتوقِّي الوجوه المحظورة ؛ فإنَّ الموادَّ المحرَّمة مستخبَثةُ الأصول ، ممحوقة الفروع ، إن صرفها في برٍّ . . لم يؤجَر ، وإن صرفها في بذخٍ . . لم يُشكَر ، ثم هو لأوزارها محتقِبٌ ، وعليها معاقَبٌ .

وقد قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « لا يُعجِبْكَ رجلٌ اكتسَبَ مالاً من غيرِ حِلِّهِ ؛ فإن أنفَقَهُ . . لم يُقبَلْ منه ، وإن أمسَكَهُ . . فهو زاده إلى النارِ »[٥] .

وقال بعض الحكماء : (شرُّ الأموالِ : ما لزمك إثمُ مَكسَبه ، وحُرِمتَ أجرَ إنفاقه)[٦] .

ونظر بعض الخوارج إلىٰ رجلٍ من أصحاب السلطان يتصدَّق علىٰ مسكين ، فقال : (انظُرْ إليهم ، حسناتُهم من سيِّئاتهم !!)[٧] .

---

(١) كَلٌّ : ثقيلٌ عاجزٌ لا خير منه ، مهتضم : منكسر القلب من الحزن ، مُغتصَب حقه عند الناس .

(٢) الأود : الاعوجاج والميل إلىٰ جانب ، والمحتاج مائل إلىٰ ما يحتاجه .

(٣) أورده في « جمهرة الأمثال » (٢/ ١٢٣) ، و« المحاسن والأضداد » (ص١٠٩) .

(٤) أي : وعلى المستمِد في طلب اللازم ثلاثة شروط .

(٥) رواه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٥) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٥١٣٨) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

(٦) أورده في « البصائر والذخائر » (٧/ ٢٤) ، و« محاضرات الأدباء » (٢/ ٣٢٤) من قول جعفر بن يحيىٰ .

(٧) أورده في « نثر الدرّ » (٥/ ٢٢٢) .

وقال علي بن الجَهْم[1] : [من الخفيف]

سَرَّ مَن عاشَ مالُهُ فإذا حا ... سَبَهُ اللهُ سَرَّهُ الإعدامُ

ـ والثاني : طلبه من أحسن جهاته التي لا يلحقه فيها غَضٌّ ، ولا يتدنَّس له بها عِرضٌ ؛ فإنَّ المال يُراد لصيانة الأعراض ، لا لابتذالها ، ولعزِّ النفوس ، لا لإذلالها .

فقد قال عبد الرحمٰن بن عوف رضي الله عنه : (يا حبّذا المالُ ؛ أصونُ به عِرضي ، وأُرضي به ربِّي)[2] .

وقال أبو بشر الضرير[3] : [من الطويل]

كفىٰ حَزَناً أنِّي أروحُ وأغتدي ... وما ليَ من مالٍ أصونُ به عِرْضي

وأكثرُ ما ألقىٰ صديقي بمرحَباً ... وذلك لا يكفي الصَّديقَ ولا يُرضي

وسئل ابن عائشة عن قول النبيِّ صلى الله عليه وسلم : « اطلُبُوا الحَوائجَ مِن حِسانِ الوُجُوهِ » ، فقال : معناه : من أحسنِ الوجوهِ التي تحِلُّ[4] .

ـ والثالث : أن يتأنّىٰ في تقدير مادّته ، وتدبير كفايته بما لا يلحقه خلَلٌ ،

---

(1) أورد البيت في « البصائر والذخائر » (٩/١٠٧) ، و« التمثيل والمحاضرة » (ص٩٢) لأحمد بن أبي فنن ، وورد في « ديوان علي بن الجهم » (ص١٩٧) هٰكذا : (من المنسرح)

يسُرُّ مَن عاشَ مالُهُ فإذا ... حاسَبَهُ اللهُ سَرَّهُ العَدَمُ

والإعدام : القلة والافتقار .

(2) رواه ابن أبي الدنيا في « إصلاح المال » (٩٧) ، وأورده في « التذكرة الحمدونية » (٨/٩٨) .

(3) روى البيتين ابن أبي الدنيا في « إصلاح المال » (١٠٥) ، وأوردهما في « ديوان المعاني » (٢/٢٤٧) .

(4) الحديث رواه الإمام أحمد في « فضائل الصحابة » (١٢٤٦) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٣٢٦٣) عن السيدة عائشة رضي الله عنها .

وفي هامش (د) : (الحديث الذي ذكره الشيخ في « الجامع الصغير » : « اطلبوا الخير عند حِسان الوجوه » ، قال الشارح المناويّ [في « التيسير » (١/١٦٣)] : « زاد في رواية : والمعروفَ » ، وقال الشارح بعد قوله : « حِسان الوجوه » : « الطَّلْقة المستبشرة وجوهُهم ؛ فإن الوجه الجميل مظِنّة الفعل الجميل ، وبين الخَلْق والخُلُق تناسب قريب » ، فهٰذا ينافي قولَ ابن عائشة هنا ، فليراجع) ، وانظر « قضاء الحوائج » لابن أبي الدنيا (٥٦) .

ولا يناله زلَلٌ ؛ **فإنَّ يسيرَ المال مع حسن التقدير** ، وإصابة التدبير . . **أجدىٰ نفعاً** ، وأحسنُ موقعاً من كثيره مع سوء التدبير ، وفساد التقدير ؛ كالبذر في الأرض ؛ **إذا رُوعي يسيرُه** . . زكا ، **وإن أُهمل كثيرُه** . . اضمحلَّ .

وقد قال محمد بن علي عليه السلام : (**الكمالُ في ثلاثة : العفّةُ في الدِّين** ، والصبرُ على النوائب ، وحسنُ التقدير في المعيشة)[1] .

وقيل لبعض الحكماء : (فلان غنيٌّ ، فقال : **لا أعرفُ ذلك ما لم أعرفْ تدبيرَه في ماله**)[2] .

فإذا استكمل هٰذه الشروطَ فيما يستمدُّه من قدر كفايته . . **فقد أدّىٰ حقَّ المروءة في نفسه** .

وسئل الأحنف بن قيس عن المروءة ، فقال : (**العِفّة والحِرفة**)[3] .

وقال بعض الحكماء لابنه : (**يا بنيَّ ؛ لا تكنْ علىٰ أحدٍ كَلاًّ** ؛ فإنَّك تزدادُ بذلك ذُلاًّ ، واضرب في الأرض عَوْداً وبَدْءاً ، **ولا تأسفَنَّ لمالٍ كان فذهب** ، ولا تعجزَنَّ عن الطلَب لوَصَب ولا نَصَب) ، **فهٰذا حال اللازم** .

وقد كان ذوو الهِمَم العليّة ، والنفوسِ الأبيّة **يرَون ما وصل إلى الإنسان كسباً** أفضلَ ممّا وصل إليه إرثاً ؛ لأنَّه في الإرث في جَدوىٰ غيره ، وبالكسب مُجدٍ علىٰ غيره ، **وفرقُ ما بينهما في الفضل ظاهرٌ**[4] .

وقال كشاجم[5] : [من الكامل]

لا أستلِذُّ العَيشَ لم أدأَبْ لَهُ   طَلَباً وسَعياً في الهَواجرِ والغَلَسْ

---

(١) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (١٩٧٠ ، ٢/٣٠٧٩) ، و« تاريخ دمشق » (٣٣٧/٥٤) ، ومحمد هو ابن الحنفيّة ، وفي هامش (أ) : (نسخة : الفقه في الدين) بدل (العفة في الدين) .

(٢) أورده في « نثر الدرّ » (٥٤/٧) من قول ديوجانس .

(٣) رواه في « الطيوريّات » (٨٠٣) ، و« المجالسة وجواهر العلم » (٨٢٤) .

(٤) لأن الظفر بعد الطلب أعز من المنساق بلا تعب .

(٥) الأبيات في « ديوانه » (ص٢٢٧) ، ولم أدأب : لم أتعب ، **والهواجر** ـ جمع هاجرة ـ : وهو وقت نصف النهار ، **والغَلَس** : ظلمة آخر الليل ، وتخصيص هـٰذين الوقتين بالذكر لشدة التعب فيهما ؛ لكونهما وقتي استراحة .

وأرىٰ حَراماً أنْ يُواتِيَني الغِنىٰ حتّىٰ يُحاوِلَ بالعَناءِ ويُلتَمَسْ
فاصرِفْ نَوالَكَ عن أخيكَ مُوفَّراً فاللَّيْثُ ليس يُسيغُ إلاّ ما افترَسْ

وأمّا النَّدبُ : فهو ما فضل عن الكفاية ، وزاد علىٰ قدر الحاجة ؛ فإنَّ الأمر فيه معتبَرٌ بحال طالبه :

فإن كان ممَّن تقاعد عن منازل الرُّؤساء ، وتقاصر عن مُطاوَلَة النُّظراء ، وانقبض عن مُنافسة الأَكْفاء .. فحسبُه ما كفاه ، فليس في الزيادة إلاّ شَرَهٌ ، ولا في الفُضول إلاّ نَهَمٌ ، وكلاهما مذمومٌ ؛ ولذلك قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « خيرُ الرِّزْقِ ما يكفي ، وخيرُ الذِّكْرِ الخَفيُّ »[1] .

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام : (الدنيا كَلٌّ على العاقل) .

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله تعالىٰ عنه : (المُستغني بالدنيا عن الدنيا كالمطفىء النارِ بالتِّبْن)[2] .

وقال بعض الحكماء : (استُرْ ماءَ وجهك بالقناعة ، وتسَلَّ عن الدنيا ؛ لتجافيها عن الكرام) .

وإن كان ممَّن قد مُني بعلوّ الهِمَم ، وتحرَّكت فيه أريَحيَّةُ الكَرَم[3] ، وآثر أن يكون مُرأَّساً ومقدَّماً ، وأن يُرىٰ في النفوس مُفخَّماً ومُعظَّماً .. فالكفايةُ لا تُقِلُّه حتىٰ يكونَ مالُه فاضلاً[4] ، ونائلُه فائضاً .

(١) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٨٠٩) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٥١٨) عن سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .
(٢) أورده في « عيون الأخبار » (٢/ ٣٣٠) ، ورواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٥٤٨) من قول بكر بن عبد الله المُزَنيّ رحمه الله تعالىٰ .
(٣) أريحيَّة الكرم : عبارة عن خصلة السرور والنشاط عند العطية والإحسان .
(٤) لا تقلُّه : لا توصله إلىٰ مقاصده .

قيل لبعض العرب : (ما المروءةُ فيكم ؟ قال : طعامٌ مأكولٌ ، ونائلٌ مبذولٌ ، وبِشرٌ مقبولٌ)[1] .

قال الأحنف بن قيس[2] : [من المتقارب]

فلــو مُـدَّ سَـرْوِي بمـالٍ كثيـرٍ لَجُـدْتُ وكنْـتُ لـه بـاذِلا
فـإنَّ المـروءةَ لا تُستطـاعُ إذا لـم يكـنْ مـالُهـا فـاضِـلا

وقال أُحَيْحةُ بن الجُلاَح[3] : [من البسيط]

رُزِقـتُ لبّـاً ولـم أُرزَقْ مـروءتَـهُ ومـا المـروءةُ إلاّ كثـرةُ المـالِ
إذا أردتُ مُسـامـاةً تقـاعـدَ بـي عمّـا يُنـوِّهُ بـاسمـي رِقّـةُ الحـالِ

وأمّا صيانتُها عن تحمُّل المِنَن ، والاسترسالِ في الاستعانة . . فلأنَّ المِنّةَ استرقاقُ الأحرار[4] ، تُحدِث ذِلّةً في الممنون عليه ، وسَطوةً في المانِّ به ، والاسترسالُ في الاستعانة تثقيلٌ ، ومَن ثقّل على الناس . . هان ، ولا قدر عندهم لمُهان .

قال رجلٌ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : **خدَمَك بَنُوك !!** قال : **(أغناني الله عنهم)**[5] .

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام لابنه الحسن في وصيته له : **(يا بنيَّ ؛ إنِ استطعتَ ألاّ يكونَ بينك وبين الله تعالىٰ ذو نعمة . . فافعلْ ، ولا تكنْ عبدَ غيرِك**

---

(١) أورده في « الموشّىٰ » (ص١٩٦) ، و« بهجة المجالس » (١/٦٤٨) من قول جعفر بن محمد رحمهما الله تعالىٰ .

(٢) أورد البيتين في « البيان والتبيين » (٢/٢٩٢) ، و« بهجة المجالس » (١/٦٤٧) .

(٣) البيتان ليسا في « ديوانه » المطبوع ، وهما منسوبان للخليل في « ديوانه » (ص١٨) .

(٤) **وأما صيانتها** ؛ أي : النفس عن تحمل المنن والاسترسال في الاستعانة من الناس ، وهـٰذا هو النوع الثاني من الصيانة .

(٥) أورده في « عيون الأخبار » (٣/٩٣) ، و« محاضرات الأدباء » (١/٦٦٩) .

وقد جعلك اللهُ حُرّاً ؛ فإنَّ اليسيرَ من الله تعالىٰ أكرمُ وأعظمُ من الكثير من غيره وإنْ كان كلٌّ منه)[1] .

وقال زياد لبعض الدَّهاقين : (ما المروءةُ فيكم ؟ فقال : اجتنابُ الرِّيَب ؛ فإنَّه لا ينبُلُ مُريبٌ ، وإصلاحُ الرجل مالَه ؛ فإنَّه من مروءته ، وقيامُه بحوائجه وحوائج أهله ؛ فإنَّه لا ينبُلُ مَنِ احتاج إلىٰ أهله ، ولا مَنِ احتاج أهلُه إلىٰ غيره)[2] .

وأنشد ثعلب[3] : [من الكامل]

مَن عَفَّ خَفَّ على الصَّديق لقاؤه ... وأخُو الحَوائجِ وَجهُهُ مَملُولُ
وأخُوكَ مَن وفَّرتَ ما في كيسِهِ ... فإذا عَبِثْتَ بهِ فأنتَ ثَقيلُ

ولَئن كان الناس لُحمةً لا يستغنون عن التعاون ، ولا يستقلُّون عن المساعدة والتظافرِ . . فإنَّما ذلك تعاونُ ائتلافٍ ، يتكافؤون فيه ولا يتفاضلون ، وربَّما كان المستعينُ فيه مفضلاً[4] ، والمعينُ مستفضَلاً ؛ كاستعانة السلطان بجنده ، والمُزَارِعِ بأَكَرته[5] ، فليس من هٰذا بدٌّ ، ولا بأحدٍ عنه غَناءٌ ، وإنَّما الذي يتصوَّن عنه الكرامُ تعاونُ التفضُّل ، فينقبضون عن أن يستعينوا ؛ لئلاّ يكون عليهم يدٌ ، ويسارعون إلىٰ أن يُعينوا ؛ لأنْ يكون لهم يدٌ .

ومن أقدمَ من غير اضطرار على الاستعانة بجاهٍ أو بمالٍ . . فقد أوهىٰ مروءتَه ، واستبذل صيانتَه .

ومَن دعاه الاضطرارُ ؛ لنائبٍ ألمَّ ، أو حادثٍ هجم إلى الاستعانة بمَن يتنفَّس به من خِناق كَرْبه ، ويتخلَّص به من وَثاق نوائبه . . فلا لومَ علىٰ مضطرٍّ .

فإن أغناه الاستعانةُ بالجاه عن الاستعانة بالمال . . فلا عذرَ له في التعرُّض

---

(١) أورده في « شرح نهج البلاغة » (١٦/ ٩٣) .

(٢) أورده المبرّد في « الكامل » (١/ ١٠٣) ، و« التذكرة الحمدونية » (٢/ ٢٣) ، وفيه : (عمرو بن العاصي) بدل (زياد) ، والدِّهْقان : زعيم فلاحي العجم .

(٣) أورد البيتين في « الصداقة والصديق » (ص١٧٣) ، و« المستطرف » (٢/ ٣٠٣) ، والعفاف : الكف والتحرز عما لا يحل ولا يجمل ، والملال : السآمة .

(٤) وربما كان المستعين فيه ؛ أي : في تعاون الائتلاف ، مفضلاً : اسم فاعل من الإفضال .

(٥) والمزارع : صاحب المزرعة والأرض ، وبأكرته ـ جمع أكار ـ : وهم حراث الأرض .

للمال ، ويعدل إلىٰ وُلاة الأمور ؛ فإنَّ الحوائجَ عندهم أنجحُ ، وهي عليهم أسهلُ ، وهم لذلك مندوبون ، فهم لا يجدون لها مَسّاً ، وليصبرْعلىٰ إبطائهم ؛ فإنَّ تراكُمَ الأمور عليهم يشغلُهم إلا عن المُلحِّ الصَّبور ؛ ولذلك قيل : (قدِّم لِحاجتِك بعضَ لَجاجتِك) .

وقد تقدَّم من قول الحكماء : (ريحُ السُّلطان علىٰ قوم نسيمٌ ، وعلىٰ قوم سَمُومٌ)[1] .

وقال عبد الله بن المعتزّ : (مَن صحِبَ السُّلطانَ . . فليصبِرْ علىٰ قسوته ؛ كصبر الغوّاص علىٰ مُلوحة بحره)[2] .

وقال أبو سدرة سُحَيم بن الأعرف[3] : [من الوافر]

نعُدُّ قَرابةً ونعُدُّ صِهْراً ... ويسعَدُ بالقَرابةِ مَن رَعاها
وما زُرْناكَ من عَدَمٍ ولٰكِنْ ... يَهَشُّ إلى الإمارةِ مَن رَجاها
وأيّاً ما فعَلْتَ فإنَّ نفسي ... تعُدُّ صلاحَ نفسِكَ من غِناها

فإن تعذَّر عليه صلاحُ حاله إلا بمالٍ يستعين به علىٰ نوائبه . . كان له مع الضرورة فُسحةٌ فيه ، لٰكن إن وجدَه قَرضاً مردوداً . . لم يأخذه صِلةً وَجُوداً ؛ فإنَّ القَرضَ مستسمَحٌ به في المروءات .

هٰذا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مع ما أعلى الله تعالىٰ من قدره ، وفضَّله علىٰ خلقه . . قد اقترض ، ثم قضىٰ فأحسن .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مَن أعياهُ رِزقُ اللهِ تعالىٰ حَلالاً . . فلْيستَدِنْ على الله وعلىٰ رسوله »[4] .

---

(١) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص١٣٣) ، و« بهجة المجالس » (١/ ٣٥١) من قول ابن المعتزّ .

(٢) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص١٣٢) ، و« زهر الآداب » (٢/ ٦٧٤) .

(٣) أورد الأبيات في « الشعر والشعراء » (٢/ ٦٤٢) ، و« خزانة الأدب » (٢/ ١١٩) ، وفي النسخ : (أبو سيارة) ، ويهش : يرتاح ويُسَرُّ .

(٤) أورده الديلمي في « الفردوس » (٤٢٥٤) عن عبد الله المزنيّ رحمه الله تعالىٰ ، وأعياه : أعجزه ولم يهتدِ لوجهه .

وقال صلى الله عليه وسلم : « المُستدِينُ تاجرُ الله في أرضِهِ »[1] .

وقال البحتريّ[2] : [من الكامل]

إلاّ يكُنْ كُثْرٌ فقُلٌّ عَطيّةٍ يبلُغْ بها باغي الرِّضا بعضَ الرِّضا

أو لا تكُنْ هِبَةٌ فقَرْضٌ يُسِّرَتْ أسبابُهُ وكواهبٍ مَن أقرَضا

ولئن كان الدَّين رِقّاً . . فهو أسهلُ من رِقّ الإفضال .

وقد رُوي عن علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال : (مَن أراد البقاءَ ولا بقاءَ . . فليباكِرِ الغَداءَ ، وليُخفِّفِ الرِّداءَ ، قيل : وما خفّةُ الرِّداء من البقاء ؟ قال : قِلّةُ الدَّين)[3] .

فإن أعوزه ذلك إلا استسماحاً . . فهو الرِّقُّ المُذِلُّ ؛ ولذلك قيل : (لا مروءةَ لمُقِلٍّ) .

وقال بعض الحكماء : (مَن قبِلَ صِلتَك . . فقد باعكَ مروءتَه ، وأذلَّ لقدرِك عزَّه وجلالتَه)[4] .

والذي يتماسك به الباقي من مروءة الراغبين ، واليسيرُ التافه من صيانة السائلين ـ وإن لم يبقَ لذي رغبة مروءةٌ ، ولا لسائل تصوُّنٌ ـ . . أربعةُ أمور ، هي جهد المضطرّ :

أحدها : أن يتجافىٰ ضرَعَ السائلين ، وأُبّهةَ المستقلّين ، فيذلَّ بالضَّرَع ، ويُحرَمَ بالأُبّهة ، وليكن من التجمُّل علىٰ ما يقتضيه حالُ مثله من ذوي الحاجات .

---

(١) أورده في « البصائر والذخائر » (٧/ ١٣٢) ، و« بهجة المجالس » (١/ ٢١٥) من قول جعفر بن محمد رحمهما الله تعالىٰ .

(٢) البيتان في « ديوانه » (٢/ ١٢٠٢) .

(٣) أورده في « عيون الأخبار » (٣/ ٢٧١) ، و« شرح نهج البلاغة » (١٩/ ١٢٤) .

(٤) أورده في « المحاسن والأضداد » (ص٤٣) ، و« المحاسن والمساوىء » (ص١٨٣) .

وقد قيل لبعض الحكماء : (متىٰ يفحشُ زوالُ النِّعَم ؟ قال : إذا زال معها التجمُّلُ)[1] .

وأنشد بعض أهل الأدب لعلي بن الجَهْم[2] : [من الطويل]

هـي النَّفسُ مـا حمَّلْتَهـا تتحمَّـلُ ... وللـدَّهـر أيّـامٌ تجُـورُ وتَعـدِلُ

وعـاقبـةُ الصَّبـرِ الجميـلِ جميلـةٌ ... وأحسنُ أخلاقِ الرِّجالِ التَّفضُّلُ

ولا عارَ إنْ زالَتْ عنِ الحُرِّ نِعمةٌ ... ولٰكـنَّ عـاراً أنْ يـزُولَ التَّجمُّـلُ

* * *

والثاني : أن يقتصر بالسؤال علىٰ ما دعته إليه الضرورة ، وقادته إليه الحاجة ، ولا يجعل ذلك ذريعةً إلى الاغتنام ، فيُحرَمَ باغتنامه ، ولا يُعذَرَ في ضرورته ، وقد قال بعض الحكماء : (مَن ألِفَ المسألةَ . . ألِفَه المنعُ)[3] .

* * *

والثالث : أن يعذِرَ في المنع ، ويشكُرَ على الإجابة ؛ فإنَّه إن مُنِع . . فعمّا لا يملك ، وإن أُجِيبَ . . فإلىٰ ما لا يستحِقُّ .

وقد قال النَّمْر بن تَوْلَبٍ[4] : [من الكامل]

لا تغضَبَنَّ على امرِئٍ في مالِهِ ... وعلىٰ كَرائمِ صُلْبِ مَالِكَ فاغضَبِ

* * *

والرابع : أن يعتمدَ علىٰ سؤال مَن كان للمسألة أهلاً ، وكان النُّجحُ عنده مأمولاً ؛ فإنَّ ذوي المَكِنةِ كثيرٌ ، والمُعينَ منهم قليلٌ[5] ؛ ولذلك قال النبيُّ

---

(١) أورده في « سراج الملوك » (٢/ ٧٦٦) .

(٢) الأبيات في « ديوانه » (ص١٧٢) ، وفي غير (أ) : (وأحسن حالات الرجال التفضل) .

(٣) أورده في « نثر الدرّ » (٤/ ٢١٤) .

(٤) البيت في « ديوانه » (ص٤٨) .

(٥) ذوي المكنة : أرباب الغنىٰ واليسار .

صلى الله عليه وسلم : « **الخيرُ كثيرٌ ، وقليلٌ فاعلُهُ** »[1] .

والمرجوُّ للإجابة مَن تكاملت فيه خصالُها ؛ وهي ثلاثٌ :

إحداهن : كرَمُ الطبع ؛ فإنَّ الكريم مساعد ، واللئيم معاند ، وقد قيل : (**المخذولُ** : مَن كانت له إلى اللئامِ حاجةٌ)[2] .

والثانية : سلامةُ الصدر ؛ فإنَّ العدوَّ ألْبٌ علىٰ نكبتك[3] ، وحربٌ في نائبتك ، وقد قيل : (**مَن أوغرْتَ صدرَه . . استدعيتَ شرَّه**) .

فإن رقَّ لك بكرم طبعه ، ورحمك بحسن ظفره . . **فأعظِمْ بها محنةً أن يصير عدوُّك لك راحماً !!**

وقد قال الشاعر[4] : [من المتقارب]

وحَسْبُكَ مِن حادثٍ بامرِئٍ ... ترىٰ حاسِدِيهِ لهُ راحِمِينا

والثالثة : ظهورُ المَكِنة ؛ فإنَّ مَن سأل ما لا يمكن . . فقد أحالَ[5] ، وكان كمستنهِض المسجون ، ومستسعِف المديون ، وكان بالرَّدِّ خَليقاً ، وبالحرمان حَقيقاً .

وقد قال علي بن أبي طالب عليه السلام : (**مَن لا يعرفْ « لا » حتّىٰ يُقالَ له : « لا » . . فهو أحمقُ**) .

ووصّىٰ عبد الله بن الأهتم ابنَه فقال : (**يا بنيَّ ؛ لا تطلبِ الحوائجَ إلىٰ غير**

---

(١) رواه أبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (١/ ٢٤٥) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٨/ ١٧٣) عن سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما .

(٢) أورده في « لباب الآداب » (ص٤٢٩) .

(٣) ألب علىٰ نكبتك : يُسرُّ لها ويتهالك علىٰ إيقاعها .

(٤) أورد البيت في « عيون الأخبار » (٢/ ٩) للعتبيّ .

(٥) فقد أحال : أتىٰ بالمحال .

أهلِها ، ولا تطلبْها في غير حينِها ، ولا تطلبْ ما لستَ له مستحِقّاً ؛ **فإنَّك إن فعلتَ ذلك . . كنتَ حَقيقاً بالحِرمان**)[1] .

وقال الشاعر[2] : [من المتقارب]

ولا تسـألَـنَّ امـرأً حـاجـةً ... يُحـاوِلُ مِـن ربِّهـا مِثْلَهـا

فيتـرُكُ مـا كنـتَ حمَّلتَـهُ ... ويَبـدا بحـاجتِـهِ قبلَهـا

وهـٰذا ما يختص بشروط المروءة في نفسه .

* * *

فأمّا شروطُ المروءة في غيره . . فثلاثة : المؤازرة ، والمياسرة ، والإفضال .

* * *

فأمّا المؤازرة . . فنوعان : **أحدهما** : الإسعاد بالجاه ، **والثاني** : الإسعاف في النوائب .

* * *

فأمّا الإسعاد بالجاه : فقد يكون من الأعلىٰ قدراً ، والأنفذ أمراً ، **وهو أرخصُ المكارم ثمناً** ، وألطفُ الصنائع مَوقعاً ، وربَّما كان أعظمَ من المال نفعاً ، **وهو الظلُّ الذي يلجأ إليه المضطرُّون** ، والحِمى الذي يأوي إليه الخائفون ؛ **فإن وطّأَه** . . اتَّسعَ بكثرة الأنصار والشِّيَع ، **وإن قبضَه** . . انقطعَ بنفور الغاشية والتَّبَع ؛ **فهو بالبذل ينمي ويزيد** ، وبالكفِّ ينقص ويبيد .

فلا عذرَ لمَن مُنح جاهاً أن يبخلَ به ، فيكونَ أسوأَ حالاً من البخيل بماله الذي قد يُعِدُّه لنوائبه ، ويستبقيه للذّته ، ويستكثرُه لذُرّيّته ، **وبضدِّ ذلك مَن بخل**

---

(١) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (١٠٦١) ، و« تاريخ دمشق » (١٦/ ١١٥) من قول خالد بن صفوان رحمه الله تعالىٰ .

(٢) أورد البيتين في « بهجة المجالس » (١/ ٣٢٣) ، وقال خالد بن صفوان رحمه الله تعالىٰ : (**لا تسأل الحوائج ثلاثة** : لا تسأل كذوباً ؛ فيقرب بعيداً ويبعد قريباً ، **ولا أحمق** ؛ فإنه يريد أن ينفعك فيضرك ، **ولا رجلاً له إلىٰ صاحبك حاجة** ؛ فإنه يصير حاجتك بطانةً لحاجته) .

بجاهه ؛ لأنَّه قد أضاعه بالشحِّ ، وبذَّره بالبخل ، وحزم نفسَه غنيمةَ مَكِنته[1] ، وفرصةَ قدرته ، فلم يُعقِبه إلاّ ندماً علىٰ فائت ، وأسفاً علىٰ ضائع ، ومقتاً يستحكم في النفوس ، وذمّاً قد ينتشر في الناس .

وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **الخَلْقُ كلُّهم عِيالُ الله تعالىٰ ، وأحبُّ خَلْقِ الله تعالىٰ إليه أحسَنُهُم صَنيعاً إلىٰ عيالِهِ** »[2] .

وقال بعض الحكماء : (**اصنعِ الخيرَ عند إمكانه . . يبقَ لك حمدُه عند زوال أيّامه ، وأحسِنْ والدَّولةُ لك . . يُحسَنْ إليك والدَّولةُ عليك ، واجعلْ زمانَ رخائك عُدّةً لزمان بلائك**)[3] .

وقال بعض البلغاء : (**مِن علامة الإقبال اصطناعُ الرِّجال**)[4] .

وقال بعض الأدباء : (**بَذْلُ الجاهِ أحدُ الحِباءَينِ**)[5] .

وقال ابن الأعرابيّ : (العرب تقول : **مَن أمَّل شيئاً . . هابه ، ومَن جهل شيئاً . . عابه**)[6] .

وبذلُ الجاه قد يكون من كرَم النفس ، وشكرِ النِّعمة ، وضدُّه من ضدِّه ، وليس بذلُ الجاه التماسَ الجزاء بذلاً مشكوراً ، **وإنَّما هو بائعُ جاهِه ، ومعاوِضٌ علىٰ نِعَم الله تعالىٰ وآلائه ، فكان بالذمِّ أحقَّ** .

وأنشد بعض الأدباء لعليّ بن عباس الروميّ[7] : [من المنسرح]

لا يبــذُلُ العُــرْفَ حيــنَ يبــذلُــهُ كمشتــري الحَمْــدِ أو كمُعتـاضِـهْ

---

(١) وهي استرقاق الأحرار .
(٢) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٧٠٤٧) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٣/ ٢٧٧) .
(٣) أورد بعضه في « محاضرات الأدباء » (١/ ٣٦٣) .
(٤) أورده في « لباب الآداب » (ص٦٨) ، و« نهاية الأرب » (٦/ ١٠٣) .
(٥) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص٤٢٤) ، و« زهر الآداب » (٢/ ٩٨٤) من قول أبي بكر الخوارزمي ، والحباءان : مثنى العطية التي لا عوض لها ، ولا امتنان فيها .
(٦) أورده في « البيان والتبيين » (٣/ ٢٥٦) ، ورواه القاليّ في « الأمالي » (٢/ ٩٦) عن الأصمعيّ رحمه الله تعالىٰ ؛ وفيه : (ومَن قصَّر عن شيء . . عابه) .
(٧) البيتان في « ديوانه » (٤/ ١٣٧٤) .

بـل يفعَـلُ العُـرْفَ حيـنَ يفعَلُـهُ لجَـوهـرِ العُـرْفِ لا لأعـراضِـهْ

وعلىٰ مَن أُسعِد بجاهه ثلاثةُ حقوق ، يستكثر بها الشكرَ ، ويستمدُّ بها المزيدَ :

أحدها : أن يستسهلَ المعونةَ مسروراً بها ، ولا يستثقلَها كارهاً لها ، فيكونَ بنِعَم الله تعالىٰ متبرِّماً ، ولإحسانه متسخِّطاً .

وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **مَن عظُمَتْ نِعْمَةُ اللهِ تعالىٰ عليهِ . . عظُمَتْ مَؤونةُ الناسِ عليهِ ، فمَن لم يحتمِلْ تلك المَؤونةَ . . عرَّض تلك النِّعمةَ للزَّوالِ** »[1] .

والثاني : مجانبةُ الاستطالة ، وتركُ الامتنان ؛ فإنَّهما من لؤم الطبع ، وضيق الصدر ، وفيهما هدمُ الصَّنيع ، وإحباطُ الشكر .

وقد قيل للحكيم اليونانيِّ : (مَن أضيقُ الناس طريقاً ، وأقلُّهم صديقاً ؟ قال : **مَن عاشر الناسَ بعُبوس وجهه** ، واستطال عليهم بنفسه)[2] .

والثالث : ألاّ يقرِنَ بمشكور سعيه تقريعاً بذنب ، ولا توبيخاً علىٰ هَفْوة ، فلا يفي مَضَضُ التوبيخ بإدراك النُّجْح ، ويصيرُ الشُّكرُ وَجْداً ، والحمدُ عَيباً ؛ ولذلك قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « **أَقِيلُوا ذَوِي الهَيْئاتِ عَثَراتِهِمْ** »[3] .

وقال النابغة الجَعْديُّ[4] : [من الطويل]

أَلَـمْ تعلَمـا أنَّ المَـلامـةَ نَفْعُهـا قليـلٌ إذا مـا الشَّـيءُ ولّـىٰ فـأدبَـرا

(١) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٧٢٥٨) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٣٨٩/٥) عن سيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه .

(٢) أورده في « نهاية الأرب » (١٣٥/٦) .

(٣) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٩٤) ، وأبو داوود (٤٣٧٥) عن السيدة عائشة رضي الله عنها .

(٤) البيت في « ديوانه » (ص٥٥) .

وأمّا **الإسعاف في النوائب** : فإنَّ الأيامَ غادرةٌ ، والنوازلَ غائرةٌ ، والحوادثَ عارضةٌ ، والنوائبَ راكضةٌ ، فلا يعذره فيها إلاّ عليم ، ولا يستنقذه منها إلا سليم .

وقال عدي بن زيد[1] : [من الطويل]

كفىٰ زاجراً للمرءِ أيّامُ دَهْرِهِ ... ترُوحُ لهُ بالواعظاتِ وتَغتدِي

فإذا وجد الكريمُ مصاباً بحوادث دهره .. حثَّه الكرمُ وشكرُ النِّعَم على الإسعاف فيها بما استطاع سبيلاً إليه ، ووجد قدرةً عليه .

رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **خيرٌ مِنَ الخيرِ مُعطِيهِ ، وشرٌّ مِنَ الشَّرِّ فاعِلُهُ** »[2] .

وقيل لبعض الحكماء : (**هل شيءٌ خيرٌ من الذهب والفضة ؟ قال : مُعطِيهما**)[3] .

والإسعاف في النوائب نوعان : واجب ، وتبرُّع .

فأمّا الواجب : فما اختصَّ بثلاثة أصناف ؛ وهم : الأهل ، والإخوان ، والجيران .

ـ **أمّا الأهل** : فلمُماسّة الرَّحِم ، وتعاطف النسب .

وقد قيل : (**لم يسُدْ مَنِ احتاج أهلُه إلىٰ غيره**)[4] .

وقال حسان بن ثابت رضي الله تعالىٰ عنه[5] : [من الطويل]

وإنَّ امرأً نالَ الغِنىٰ ثمَّ لم يُنِلْ ... قريباً ولا ذا حاجةٍ لَزَهيدُ

---

(١) البيت في « ديوانه » (ص١٠٤) .

(٢) أورده في « العقد الفريد » (٣/ ٣٠٨) ، و« نهاية الأرب » (٥/ ١٦٥) من قول أكثم بن صيفيّ رحمه الله تعالىٰ .

(٣) أورده في « محاضرات الأدباء » (٢/ ٥٧٩) .

(٤) أورده المبرّد في « الكامل » (١/ ١٠٣) ، و« التذكرة الحمدونية » (٢/ ٢٣) .

(٥) البيتان في « ديوانه » (١/ ٤١٤) ، وروى البيهقي في « شعب الإيمان » (٨١٢٧) البيتين ضمن قصة جاعلاً الأولَ لعبد الرحمـٰن بن حسان ، والثانيَ لسعيد بن عبد الرحمـٰن رحمهما الله تعالىٰ .

وإنَّ امرأً عادى الرِّجالَ على الغِنىٰ ولـم يسـأَلِ اللهَ الغِنـىٰ لَحَسُـودُ

❀ ❀ ❀

ـ **وأمّا الإخوان** : فلمُستحكِم الوُدّ ، ومتأكِّد العهد .

سُئل الأحنف بن قيس عن المروءة ، فقال : (**صدقُ اللسان ، ومواساةُ الإخوان ، وذكرُ الله تعالىٰ في كلِّ مكان**) .

وقال بعض حكماء الفرس : (**صفةُ الصَّديق** : أن يبذلَ لك مالَه عند الحاجة ، ونفسَه عند النكبة ، ويحفظك عند الغَيبة) .

ورأىٰ بعض الحكماء رجلين يصطحبان ولا يفترقان ، فسأل عنهما ، فقيل : (هما صديقان ، قال : **فما بالُ أحدهما فقيرٌ ، والآخر غنيٌّ ؟!**)[1] .

❀ ❀ ❀

وأمّا الجار : فلدنوِّ داره ، واتصال مَزاره .

وقد قال علي بن أبي طالب عليه السلام : (**ليس حسنُ الجوار كفَّ الأذىٰ ؛** ولٰكنَّه الصبرُ على الأذىٰ)[2] .

وقال بعض الحكماء : (**مَن أجار جارَه . . أعانه اللهُ وأجارَه**) .

وقال بعض البلغاء : (**مَن أحسنَ إلىٰ جاره . . فقد دلَّ علىٰ حسن** نِجاره)[3] .

وقال بعض الشعراء : [من الطويل]

وللجارِ حَقٌّ فاحترِس مِنْ أذائِهِ ومـا خيـرُ جـارٍ لا يـزالُ مـؤاذِيـا

فيجب في حقوق المروءة وشروط الكرم في هٰؤلاء الثلاثة تحمُّلُ أثقالهم ،

---

(١) أورده في « محاضرات الأدباء » (٣/ ٢٣) ، و« نثر الدرّ » (٧/ ٥٨) من قول ديوجانس .

(٢) أورده في « شرح نهج البلاغة » (٢٠/ ٢٩٥) ، وفي « التذكرة الحمدونية » (٢/ ١٥٧) ، و« لباب الآداب » (ص٢٦٢) من قول الحسن البصري رحمه الله تعالىٰ .

(٣) أورد نحوه في « نهاية الأرب » (٣/ ٣٦٤) ؛ وفيه : (من تعدّىٰ علىٰ جاره . . دلَّ علىٰ لؤم نجاره) ، **والنِّجار** : الأصل والحسب .

وإسعافُهم في نوائبهم ، ولا فُسحةَ لذي مروءةٍ مع ظهور المَكِنة أن يكِلَهم إلىٰ غيره ، ويُلجئَهم إلىٰ سواه ، وليكنْ سائلَ كرم نفسه عنهم ؛ فإنَّهم عِيالُ كرمه ، وأَضيافُ مروءته ، فكما أنه لا يحسُنُ أن يُلَجِىءَ عيالَه وأضيافَه إلى الطلب والرَّغبة . . فهكذا مَن عاله كرمُه ، وأضافته مروءتُه .

وقد قال بعض الشعراء[1] : [من البسيط]

حقٌّ على السيِّدِ المَرجُوِّ نائلُهُ والمُستجارِ بهِ في العُرْبِ والعَجَمِ
ألاّ يُنِيلَ الأقاصي صَوْبَ راحتِهِ حتّىٰ يخصَّ بهِ الأدنىٰ مِنَ الخَدَمِ
إنَّ الفُراتَ إذا جاشَتْ غَواربُهُ رَوَّى السَّواحلَ ثمَّ امتدَّ في الأمَمِ

وأمّا التبرُّع : فمَن عدا هؤلاءِ الثلاثةَ من البُعَداء الذين لا يُدلون بنسب ، ولا يتعلَّقون بسبب .

فإن تبرَّع بفضل الكرم ، وفائض المروءة ، فنهض في حوادثهم ، وتكفَّل بنوائبهم . . فقد زاد علىٰ شروط المروءة ، وتجاوزها إلىٰ شروط الرِّياسة .

قيل لبعض الحكماء : (أيُّ شيءٍ من أفعال الناس يشبه أفعالَ الإلٰه ؟ قال : الإحسانُ إلى الناس)[2] .

وإن كفَّ تشاغُلاً بمَن لزم . . فلا لومَ ، ما لم يُلجأْ إليه مضطرٌّ ؛ لأن القيام بالكلِّ مُعوِزٌ ، والتكفُّلَ بالجميع متعذِّرٌ ، فهٰذا حكم المؤازرة .

وأمّا المياسرة . . فنوعان : أحدهما : العفو عن الهفوات ، والثاني : المسامحة في الحقوق .

---

(١) حقٌّ : خبر مقدم ، وألا ينيل : مبتدأ ، والاستجارة : طلب الأمان والحفظ والحماية ، وصوب راحته : كناية عن الجود والعطية .

(٢) أورده في « محاضرات الأدباء » (٢/ ٥٧٨) ، و« نثر الدرّ » (٤/ ١٦٠) .

فأما العفو عن الهفوات : فلأنَّه لا مُبرّأَ من سهوٍ أو زَلَل ، ولا سليمَ من نقصٍ أو خَلَل ، ومَن رام سليماً من هَفْوة ، والتمس بريئاً من نَبْوةٍ . . فقد تعدَّىٰ على الدهر بشَطَطه ، وخادع نفسَه بغَلَطه ، وكان من وجود بُغيته بعيداً ، فصار باقتراحه فرداً وحيداً .

وقد قالت الحكماء : (**لا صديقَ لمَن أراد صديقاً لا عيبَ فيه**)[١] .

وقيل لأنوشروان : (**هل مِن أحدٍ لا عيبَ فيه ؟ قال : مَن لا موتَ له**)[٢] .

وإذا كان الدهرُ لا يُوجِدُه ما طلب ، ولا يُنيلُه ما أحبَّ ، وكان الوحيدُ في الناس مرفوضاً قصيّاً ، والمنقطعُ عنهم بهيماً وحشيّاً . . **لزمه مساعدةُ زمانه في القضاء** ، ومياسرةُ إخوانه في الصَّفح والإغضاء .

رُوي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **إنَّ اللهَ تعالىٰ أمَرَني بمُداراةِ الناسِ** ؛ كما أمَرَني بإقامةِ الفرائضِ »[٣] .

وقال بعض الأدباء : (**ثلاثُ خصالٍ لا تجتمع إلا في كريم** : حسنُ المَحضَر ، واحتمالُ الزَّلّة ، وقلّةُ المَلال)[٤] .

وقال ابن الروميّ[٥] : [من الطويل]

فعُذرُكَ مبسوطٌ لذَنْبٍ مُقدَّمٍ ... ووُدُّكَ مقبولٌ بأهلٍ ومَرحَبِ
ولو بَلَّغَتْني عنكَ أُذْني أقَمْتُها ... لديَّ مُقامَ الكاشحِ المُتكَذِّبِ
فلستُ بتقليبِ اللِّسانِ مُصارِماً ... خليلاً إذا ما القلبُ لم يتقلَّبِ

---

(١) رواه في « تاريخ دمشق » (١٨/ ١٠٥) من قول رجاء بن حيوة رحمه الله تعالىٰ ، وأورده في « التذكرة الحمدونية » (٤/ ٣٦٣) من قول جعفر بن محمد رحمه الله تعالىٰ .

(٢) أورده في « البصائر والذخائر » (٤/ ١٧٠) لبزرجمهر ، و« التذكرة الحمدونية » (٢/ ٢٤٤) لسقراط .

(٣) أورده الديلمي في « الفردوس » (٦٥٩) عن السيدة عائشة رضي الله عنها ، وابن عساكر في « معجم الشيوخ » (١/ ١٦٤) عن سيدنا أنس رضي الله عنه .

(٤) رواه في « روضة العقلاء » (٥٦٢) من قول سيدنا زيد بن ثابت رضي الله عنه ، وأورده في « سراج الملوك » (٢/ ٧٦٤) .

(٥) الأبيات في « ديوانه » (١/ ٢١٢) ، فعذرك مبسوط : مقبول ، من (بسط العذر) إذا قبله ، والكاشح : الذي يضمر العداوة ويكذب ويفتري ؛ والمعنىٰ : أتهم أذني بالصمم ولا أتهمك بالشتم ، وهـٰذا أبلغ ما قيل في الصفح والإغضاء .

وإذا كان **الإغضاءُ حتماً** ، والصَّفحُ لازماً . . **ترتَّبَ بحسَبِ الهفوة** ، وتنزَّلَ بقدر الذنب .

والهفوات نوعان : صغائر ، وكبائر .

فالصغائر مغفورة ، والنفوس بها معذورة ؛ **لأنَّ الناس مع أطوارهم المختلفة** ، وأخلاقهم المتفاضلة . . **لا يَسلَمون منها** ، فكان الوَجْدُ فيها مُطَّرَحاً ، والعتبُ فيها مستقبَحاً .

وقد قال بعض العلماء : (**مَن هجر أخاه من غير ذنب . . كان كمَن زرع زرعاً** ، ثمَّ حصده قبلَ أوانه) .

وقال أبو العتاهية[1] : [من المتقارب]

وشرُّ الأخِلاَّءِ مَن لم يَزَلْ ... يُعاتِبُ طَوْراً وطَوْراً يَذُمّْ

يُرِيكَ النَّصيحةَ عندَ اللِّقاءْ ... ويَبرِيكَ في السِّرِّ بَرْيَ القَلَمْ

وأمّا الكبائر . . فنوعان :

أحدهما : أن يهفوَ بها خاطئاً ، ويزِلَّ بها ساهياً ، **فالحَرَجُ فيها مرفوع** ، والعَتبُ عنها موضوع ؛ **لأنَّ هفوةَ الخاطىء هَدَرٌ** ، ولومَه هَذَرٌ .

وقال بعض الحكماء : (**لا تقطع أخاك إلا بعد عجز الحيلة عن استصلاحه**)[2] .

وقال الأحنف بن قيس : (**حقُّ الصديق أن تحتمل له ثلاثاً** : ظلمَ الغضَب ، وظلمَ الدالّة ، وظلمَ الهَفوة)[3] .

---

(١) البيتان في « ديوانه » (ص٢٣٧ـ دار صادر) .

(٢) أورده في « الصداقة والصديق » (ص١٨٣) ، و« التذكرة الحمدونية » (٤/ ٣٦٤) .

(٣) أورده في « الصداقة والصديق » (ص٥٤) ، ورواه في « تاريخ دمشق » (٢٤/ ٣٤٢) ، وانظر « التذكرة الحمدونية » (٤/ ٣٥٤) ، وظلم الدالة : ظلم الغنج والدلال .

وحكى ابن أبي عون : أنَّ غلاماً هاشمياً عَرْبَدَ علىٰ قومٍ ، فأراد عمُّه أن يسيءَ به ، فقال : (يا عمِّ ؛ إنِّي قد أسأتُ وليس معي عقلي ، فلا تُسِيءْ بي ومعكَ عقلُك)[1] .

وقال أبو فراس[2] : [من الخفيف]

لَمْ أُؤَاخِذْكَ إِذْ جنَيْتَ لأنِّي ... واثقٌ منكَ بالإخاءِ الصَّحيحِ
فجميلُ العدوِّ غيرُ جميلٍ ... وقبيحُ الصَّديقِ غيرُ قَبيحِ

فإن تشبَّه خطؤه بالعمد ، وسهوُه بالقصد . . تثبَّتَ ، ولم يلُمْ بالتوهُّم فيكونَ مَلُوماً ، ولا يذمُّ بالظنِّ فيصيرَ مذموماً ؛ ولذلك قيل : (التثبُّتُ نصفُ العفو)[3] .

وقال بعض الحكماء : (لا يفسدْكَ الظنُّ علىٰ صديقٍ أصلحَك اليقينُ له)[4] .

وقال بعض شعراء هذيل[5] : [من الوافر]

فبعضُ الأمرِ تصلِحُهُ ببعضٍ ... فإنَّ الغَثَّ يحمِلُهُ السَّمِينُ
ولا تعجَلْ بظَنِّكَ قبلَ خُبْرٍ ... فعندَ الخُبْرِ تنقطعُ الظُّنُونُ
ترىٰ بينَ الرِّجالِ العينُ فضلاً ... وفيما أضمَرُوا الفضلُ المُبينُ
كلَونِ الماءِ مُشتبِهاً وليسَتْ ... تُخبِّرُ عن مذاقتِهِ العُيُونُ

❀ ❀ ❀

والثاني : أن يعتمدَ ما اجترم من كبائره ، ويقصدَ ما اجترح من سيئاته ، فلا يخلو حاله فيما أتاه من أحوال أربعة :

---

(١) أورده في « الأجوبة المسكتة » (٥٦٨) ، وعربد : أظهر سوء الخلق ، ولم يتلطف بنديمه .
(٢) البيتان في « ديوانه » (ص٦١) .
(٣) أورده في « البيان والتبيين » (٢/ ٤٣) ، و« العقد الفريد » (٢/ ١٥٦) بين قتيبة بن مسلم وأبي مِجْلَز لاحق بن حُمَيد .
(٤) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص٤٦٤) ، و« زهر الآداب » (٢/ ٨٣٣) من قول ابن المعتزّ .
(٥) الأبيات لأبي العِيال الهُذَليّ في « شرح أشعار الهذليّين » (١/ ٤٣٥) . والغث : المهزول وهو مقابل السمين ، والخُبْر : العلم بالكنه ، فلا تجعل لومك بظنك الباطل قبل اختباره ؛ لأن بالاختبار يحصل اليقين ، وتنقطع الظنون الفاسدة .

ـ **فالحال الأولىٰ** : أن يكون موتوراً قد قابل علىٰ تِرَته ، وكافأ علىٰ مَساءته ؛ **فاللائمة علىٰ من وَتَره عائدةٌ** ، وإلى البادىء بها راجعةٌ ؛ **لأن المكافىءَ أعذَرُ** وإن كان الصَّفحُ أجملَ .

ولذلك قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « **إيّاكُم والمُشارّةَ ؛ فإنَّها تُميتُ** الغُرّةَ ، وتُحيِي العُرّةَ »[1] .

وقال بعض الحكماء : (**مَن فعل ما شاء . . لقيَ ما لم يشأ**)[2] .

وقال بعض الأدباء : (**مَن نالتْه إساءتُك . . همّتُه مَساءتُك**)[3] .

وقال بعض البلغاء : (**مَن أُولِع بقُبح المعاملة** . . أُوجِع بقُبح المقابلة) .

وقال صالح بن عبد القدّوس[4] : [من البسيط]

إذا وَتَـرْتَ امـرأً فـاحـذَرْ عـداوتَـهُ مَن يزرَعِ الشَّوكَ لا يحصُدْ به عِنَبا
إنَّ العــدوَّ وإنْ أبــدىٰ مُســالـمــةً إذا رأىٰ منـكَ يـومـاً فُـرصـةً وَثَـبـا

والإغضاءُ عن هـٰذا الذنب أوجَبُ وإن لم تكنِ المكافأةُ ذنباً ؛ **لأنه قد رأىٰ عُقبىٰ إساءته** ، فإن واصل الشرَّ . . واصلته المكافأة .

وقد قيل : (**باعتزالكَ الشرَّ يعتزلُك** ، وبحسن النَّصَفة يكثر الواصلون) .

وقال بعض الحكماء : (**مَن كنتَ سبباً لبلائه** . . **وجب عليكَ التلطُّفُ له في علاجه من دائه**)[5] .

---

(١) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٧٨٧٠) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤/ ٥٥) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، والمشارَّة : مفاعلة من الشر ؛ أي : لا تفعلوا بهم شراً يحوجهم إلىٰ أن يفعلوا بكم مثله ، والغرّة : الحسَن والعمل الصالح ، والعرّة : المساوىء والمثالب .

(٢) أورده في « الكشكول » (١/ ٢٦٢) ، و« لباب الآداب » (ص٦٨) ، وفيه : (من فعل ما شاء . . لقي ما ساء) .

(٣) أورده في « محاضرات الأدباء » (١/ ٥٠٦) من قول سيدنا معاوية رضي الله عنه .

(٤) البيتان في « ديوانه » (ص١٣٦) .

(٥) أورده في « التذكرة الحمدونية » (٢/ ١٨٣) .

وقال أوس بن حَجَر[1] : [من الطويل]

إذا أنتَ لم تُعرِضْ عنِ الجَهلِ والخَنا أَصَبْتَ حَليماً أو أصابَكَ جاهِلُ

* * *

ـ **والحال الثانية** : أن يكون عدوّاً قد استحكمت شَحناؤه ، واستوعرت سَرّاؤه ، واستخشنت ضَرّاؤه ؛ **فهو يتربَّص بدوائر السُّوء انتهازَ فُرَصِه** ، ويتجرَّع بمهانة العجز مرارةَ غُصَصِه ؛ **فإذا ظفر بنائبة** . . ساعدَها ، **وإن شاهد نعمةً** . . عانَدها ؛ **فالبعدُ منه حذراً أسلَمُ** ، والكفُّ عنه متاركةً أغنَمُ ؛ **فإنه لا يُسلَم من عواقب شرِّه** ، ولا يُفلَت من غوائل مكره .

وقد قالت الحكماء : (**لا تَعرَّضَنَّ لعدوِّك في دَولته** ؛ فإذا زالت . . كُفِيتَ شرَّه)[2] .

وقال لقمان لابنه : (يا بنيَّ ؛ كذب مَن قال : **إن الشرَّ بالشرِّ يُطفأ** ؛ **فإن كان صادقاً** . . فليُوقِدْ نارين ، ولينظرْ هل تُطفىءُ إحداهما الأخرىٰ ؟ **وإنَّما يُطفىءُ الخيرُ الشرَّ** ؛ كما يُطفىءُ الماءُ النارَ)[3] .

وقال جعفر بن محمد عليه السلام : (**كفاكَ من الله تعالىٰ نصراً أن ترىٰ عدوَّكَ يعصي اللهَ تعالىٰ فيكَ**)[4] .

وقال بعض الحكماء : (**بالسِّيرة العادلة يُقهَرُ المُعادي**)[5] .

---

(١) البيت في « ديوان أوس بن حجر » (ص٩٩) ، وفي « ديوان زهير بن أبي سلمىٰ » (ص٢١٩) ، وفي « ديوان كعب بن زهير » (ص١٨٤) ، وفي (ب ، ج) : (وقال زهير) .

(٢) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص٤٦٦) .

(٣) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص٣٥) .

(٤) أورده في « الصداقة والصديق » (ص٢٥٦) ، ورواه في « المجالسة وجواهر العلم » (١٤١٠) من قول محمد بن علي بن الحسين رحمهم الله تعالىٰ ، ومعصية عدوك فيك بحسدك وتربص الدوائر عليك .

(٥) أورده في « ربيع الأبرار » (٣/٥٩٧) ، و« شرح نهج البلاغة » (١٩/٤٨) من قول سيدنا علي رضي الله عنه .

وقال البحتريّ[1] : [من الطويل]

وأُقسِمُ لا أجزِيكَ بالشَّرِّ مثلَهُ كفىٰ بالذي جازيتَنِي لكَ جازِيا

ـ والحال الثالثة : أن يكون لئيم الطبع ، خبيث الأصل ، قد أغراه لؤمُ الطبع علىٰ سوء الاعتقاد ، وبعثه خُبثُ الأصل علىٰ إتيان الفساد ؛ فهو لا يستقبح الشرَّ ، ولا يكفُّ عن المكروه ، فهٰذه الحالُ أطَمُّ[2] ؛ لأنَّ الإضرارَ بها أعَمُّ ، ولا سلامةَ من مثله إلاّ بالبعد والانقباض ، ولا خلاصَ منه إلاّ بالصَّفْح والإعراض ؛ فإنَّه كالسَّبُع الضاري في سَوارِح النَّعَم ، وكالنار المتأجِّجة في يابس الحطَب ، لا يقربُها إلاّ تالفٌ ، ولا يدنو منها إلاّ هالكٌ .

روىٰ مكحول ، عن أبي أمامة رضي الله عنه ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الناسُ كشَجَرةٍ ذاتِ جَنىً ، ويُوشِكُ أنْ يعُودُوا كشَجَرةٍ ذاتِ شَوْكٍ ؛ إنْ ناقَدْتَهم . . ناقَدُوكَ ، وإنْ هَرَبْتَ منهُم . . طلَبُوكَ ، وإن تركتَهُم . . لم يترُكُوكَ » قيل : يا رسولَ اللهِ ؛ فكيفَ المَخرَجُ ؟ قال : « أقرِضْهُم مِن عِرْضِكَ ليومِ فاقتِكَ »[3] .

وقال عبد الله بن العباس رضي الله عنهما : (العاقلُ الكريمُ صديقُ كلِّ أحدٍ إلا مَن ضرَّه ، والجاهلُ اللئيمُ عدوٌّ لكلِّ أحدٍ إلا مَن نفعه)[4] .

وقيل : (شرُّ ما في الكريم : أن يمنعَك خيرَه ، وخيرُ ما في اللئيم : أن يكفَّ عنكَ شرَّه)[5] .

---

(١) لم نجده في « ديوانه » المطبوع ، وهو في « ديوان صريع الغواني » (ص٢٨٤) ، والمعنىٰ : أنا لا أفعل الشر أصلاً ؛ لا مثل ما فعلت ، ولا أعظم منه ، ويكفيك أنك شرير حاذق بالشر .

(٢) أطمُّ : أشد طامة وداهية ؛ من (طم) إذا كثر وعلا وغلب .

(٣) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (٨/ ١٢٦) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٤/ ١٧) ، وناقَدَ وناقشَ بمعنىً ، والمناقدة : التدقيق والاستقصاء في المحاسبة ، وأقرضهم من عرضك ؛ أي : إذا نال أحدٌ من عرضك . . فلا تُجازِه ؛ ولٰكن اجعله قرضاً في ذمّته تأخذه منه يوم القيامة .

(٤) أورده في « جمهرة الأمثال » (٢/ ٣١٦) ، و« الصداقة والصديق » (ص٢٤٢) .

(٥) أورده في « التذكرة الحمدونية » (٢/ ٢١٧) ، و« التمثيل والمحاضرة » (ص١٧٤) .

وقال بعض البلغاء : (**أعداؤك داؤك ، وفي البعد منهم شفاؤك**) .

وقال بعض الأدباء : (**شرفُ الكريمِ تغافُلُه عن اللئيم**) .

ووصّىٰ بعض الحكماء ابنَه فقال : (**يا بنيَّ ؛ إذا سلم الناسُ منكَ . . فلا عليكَ ألاّ تسلمَ منهم ؛ فإنَّه قلَّما اجتمعت هاتان النعمتان**) .

وقال عبد المسيح بن عمرو ابن بُقَيلة[1] : [من البسيط]

الخيرُ والشَّرُّ مقرُونانِ في قَرَنٍ فالخيرُ مُتَّبَعٌ والشَّرُّ محذُورُ

❁ ❁ ❁

ـ **والحال الرابعة** : أن يكون صديقاً قد استحدث نَبْوة وتغيُّراً ، وأخاً قد استجدَّ جَفوةً وتنكُّراً ، فأبدىٰ صفحةَ عُقوقه ، واطَّرح لازمَ حُقوقه ، وعدل عن برِّ الإخاء إلىٰ جفوة الأعداء .

فهٰذا قد يَعرِض في المودّات المستقيمة ؛ كما تَعرِض الأمراض في الأجسام السليمة ؛ فإن عُولِجت . . أقلَعت ، وإن أُهمِلت . . أسقمَت ثم أتلَفت .

ولذلك قالت الحكماء : (**داو المودة بكثرة التعاهد**)[2] .

وقال كشاجم[3] : [من الوافر]

أَقِلْ ذا الوُدِّ عَثْرتَهُ وقِفْهُ علىٰ سَنَنِ الطَّريقِ المُستقِيمَةْ

ولا تُسرِعْ بمَعتبَةٍ إليهِ فقد يهفُو ونِيّتُهُ سَلِيمَةْ

ومَن الناس مَن يرىٰ أنَّ متاركةَ الإخوان إذا تغيَّروا أصلَحُ ، واطِّراحَهم إذا فسَدوا أَولىٰ ؛ كأعضاء الجسد إذا فسدت . . كان قطعُها أسلَمَ ، فإن شحَّ بها . .

---

(١) أورد البيت في « الحماسة البصرية » (٢/ ٩٢٥) ، و« تاريخ دمشق » (٣٧/ ٣٦٣) ، وفي (أ ، ج ، هـ) : (ابن نفيلة) .

(٢) أورده في « التذكرة الحمدونية » (٤/ ٣٥٩) من قول جعفر بن محمد رحمهما الله تعالىٰ .

(٣) البيتان في « ديوانه » (ص٣٦٢) ، وفيه وفي (ب) : (ولا تسرع بمعتبة عليه) ، وأَقِلْ : أمرٌ من الإقالة ؛ أي : اعفُ عنه واقبل عذره ، وقفه : أمرٌ من (وقف) أي : دله على الطريق السوية الصحيحة ، والمعتبة : العتاب واللوم .

سرَتْ إلىٰ نفسه ، وكالثوب إذا أخلقَ . . كان اطِّراحُه بالجديد أجملَ من لُبْسه .

وقد قال بعض الحكماء : (رغبتُك فيمَن يزهدُ فيك ذُلُّ نفس ، وزهدُك فيمَن يرغبُ فيك صُغْرُ همّة)[1] .

وقال بُزُرْجُمِهْرَ : (مَن تغيَّر عليك في مودّته . . فدَعْه حيثُ كان قبل معرفته) .

وقال نصر بن أحمد الخُبْزارُزّيُّ[2] : [من الكامل]

صِلْ مَن دَنا وَتَناسَ مَن بَعُدا ... لا تُكرِهَنَّ على الهَوىٰ أَحَدا
قد أكثرَتْ حَوّاء إذ ولَدَتْ ... فإذا جَفا ولدٌ فخُذ وَلَدا

وهٰذا مذهبُ مَن قلَّ وفاؤه ، وضعف إخاؤه ، وساءت طرائقه ، وضاقت خلائقه ، ولم يكن فيه فضلُ الاحتمال ، ولا صبرٌ على الإدلال ، فقابلَ على الجَفوة ، وعاقبَ على الهَفوة ، واطَّرحَ سالفَ الحُقوق ، وقابلَ على العُقوق بالعُقوق ، فلا بالفضل أخذ ، ولا إلى العفو أخلد .

وقد علم أنَّ نفسَه قد تطغىٰ عليه فترديه ، وأنَّ جسمَه قد يسقم عليه فيؤلمه ويؤذيه ، وهما أخصُّ به وأحنىٰ عليه من صديقٍ قد تميَّز بذاته ، وانفصل بأدواته ، أفيريدُ من غيره لنفسه ما لا يجدُه من نفسه لنفسه ؟ هٰذا عينُ المُحال ، ومحضُ الجهل .

مع أنَّ مَن لم يحتمل . . بقي فرداً ، وانقلب الصديق فصار عدوّاً ، وعداوةُ مَن كان صديقاً أعظمُ من عداوة مَن لم يزَل عدوّاً .

ولذلك قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « أَحبِبْ حَبيبَكَ هَوْناً ما »[3] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « أوصاني ربِّي بسَبْعٍ : الإخلاصِ في السرِّ

---

(١) أورده في « التذكرة الحمدونية » (١/ ٣٧٩) ، و« شرح نهج البلاغة » (٢٠/ ١٠١) من قول سيدنا علي رضي الله عنه ، وفي « الصداقة والصديق » (ص٢٠١) من قول الخليل رحمه الله تعالىٰ .

(٢) البيتان ليسا في « ديوانه » .

(٣) رواه الترمذي (١٩٩٧) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

والعَلانية ، وأن أعفوَ عمَّن ظلَمَني ، وأُعطِيَ مَن حَرَمني ، وأصِلَ مَن قطَعَني ، وأن يكونَ صمتي فِكْراً ، ونُطْقي ذِكْراً ، ونظري عِبرةً »[1] .

وقال لقمان لابنه : (يا بنيَّ ؛ **لا تتركْ صديقَك الأوّلَ** ، فلا يطمئنَّ إليك الثاني ، يا بنيَّ ؛ **اتخذ ألفَ صديقٍ** ، والألفُ قليلٌ ، **ولا تتخذ عدوّاً واحداً** ؛ فالواحد كثيرٌ)[2] .

وقيل للمُهلَّب بن أبي صُفْرة : (**ما تقولُ في العفو والعقوبة ؟** قال : **هما بمنزلة الجُود والبخل** ، فتمسَّكْ بأيِّهما شئتَ) .

وأنشد ثعلب[3] : [من الطويل]

إذا أنتَ لم تستقبِلِ الأمرَ لم تَجِدْ … بكفَّيكَ في إدبارِهِ متعلَّقا

إذا أنتَ لم تترُكْ أخاكَ وزَلّةً … إذا زَلَّها أوشَكْتُما أنْ تفرَّقا

وإذا كان الأمر علىٰ ما وصفتُ . . **فمِن حقوق الصَّفح** : الكشفُ عن سبب الهَفوة ؛ **ليعرفَ الداءَ فيُعالجَه** ، فإن لم يعرفِ الداءَ . . لم يقف على الدواء ، وكان كما قال المتنبي[4] : [من الوافر]

فإنَّ الجُرحَ ينفِرُ بعدَ حِينٍ … إذا كان البِناءُ علىٰ فَسادِ

وإذا كان ذلك كذلك . . فلا يخلو حالُ ذلك السبب من أن يكون لمَلَل أو زَلَل :

فإن كان لمَلَل . . فمَودّاتُ المَلول ظلُّ الغَمام ، وحُلمُ النِّيام .

---

(١) رواه في « عيون الأخبار » (٢/ ٣٦١) مرفوعاً ، وابن أبي الدنيا في « إصلاح المال » (٣٢٦) من قول سيدنا داوود عليه السلام .

(٢) رواه أبو حاتم الرازيّ في « الزهد » (٧٠) من قول لقمان عليه السلام ، وأورده في « عيون الأخبار » (٣/ ١) من قول سيدنا سليمان عليه السلام .

(٣) أورد البيتين في « الحماسة البصرية » (٢/ ٨٦٠) ، و« الزهرة » (١/ ١٩٥) ، والمعنىٰ : إذا لم تتخذ إخواناً قبل احتياجك إليهم . . لا تجدهم عند افتقارك إليهم ، وإذا لم تبقِ أخاك مع زلةٍ زلها . . قربتْ أخوتكما إلى التفرق والتباين .

(٤) البيت في « ديوانه » (١/ ٣٦٣) .

وقد قيل في منثور الحكم : (**لا تأمنَنَّ مَلولاً وإن تحلّىٰ بالصِّلة**) .

وعلاجُه : أن يُترَك علىٰ مَلَله ، فسيمَلُّ الجفاء كما ملَّ الإخاءَ .

وإن كان لزَلَل . . لُوحظت أسبابُه :

فإن كان لها مدخلٌ في التأويل ، وشبهةٌ تؤول إلى الجميل . . **حملَه علىٰ أجمل تأويله** ، وصرفَه إلىٰ أحسن جهتيه ؛ كالذي حُكي عن خالد بن صفوان : أنه مرَّ به صديقان له ، **فعرَّج عليه أحدُهما** ، **وطواه الآخر** ، فقيل له في ذلك ، فقال : (**نعم ؛ عرَّج علينا هـٰذا بفضله ، وطوانا ذاك بثقته**)[1] .

وأنشد بعض أهل الأدب لمحمد بن داوود الأصفهاني[2] : [من الطويل]

وتـزعُـمُ للـواشِيـنَ أنِّـيَ فـاسـدٌ ... عليكَ وأنِّي لستُ فيما عَهِدْتَني

ومـا فسـدَتْ لـي يعلَـمُ اللهُ نِيّـةٌ ... عليـكَ ولـٰكـنْ خُنْتَني فـاتَّهَمْتَنـي

غـدَرْتَ بعهـدي عـامـداً وأخَفْتَني ... فخِفْـتَ ولـو آمنْتَنـي لأمِنْتَنـي

فإن لم يكن لزَلَله في التأويل مدخلٌ . . نظر حاله بعد زَلَله :

فإن ظهر ندمُه ، وبان خجلُه . . **فالندم توبة** ، والخجل إنابة ، **ولا ذنبَ لتائب** ، ولا لومَ علىٰ مُنيب ، **ولا يُكلَّف عُذراً عمّا سلف** ، **فيلجأَ إلىٰ ذلِّ التحريف** ، أو خجل التعنيف .

ولذلك قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « **إيّاكُم والمَعاذِرَ ؛ فإنَّ أكثرَها مَفاجِرُ** »[3] .

---

(١) أورده في « الصداقة والصديق » (ص٥٨) ، و« البصائر والذخائر » (٩/١٥٨) .

(٢) الأبيات في « ديوانه » (ص٦٧) ؛ وفيه : (ولـٰكنّما استفسدتني فاتهمتني) ، **وخنتني فاتهمتني** : اتهامك لي من خيانتك ، لا من فساد نيتي والله شاهد علىٰ ذلك ، ولو آمنتني . . لوجدتني أميناً .

(٣) رواه الإمام أحمد في « الزهد » (١٣٤٦) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت » (٥٠٩) من قول مطرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير رحمه الله تعالىٰ .

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام : (كفىٰ بما يُعتذَرُ منه تُهَمَةً) .

وقال سَلْمُ بن قُتيبة لرجلٍ اعتذر إليه : (لا يدعُوَنَّك أمرٌ قد تخلَّصتَ منه إلى الدخول في أمرٍ لعلَّك لا تخلُصُ منه)(١) .

وقال بعض الحكماء : (شفيعُ المذنبِ إقرارُه ، وتوبتُه اعتذارُه)(٢) .

وقال بعض البلغاء : (مَن لم يقبل التوبةَ . . عظُمَت خطيئتُه ، ومَن لم يُحسِن إلى التائب . . قبحَت إساءتُه) .

وقال بعض الحكماء : (الكريمُ أوسعُ ما يكون مغفرةً إذا ضاقت بالمذنب المعذِرةُ)(٣) .

وقال بعض الشعراء(٤) : [من البسيط]

العُذرُ يلحَقُهُ التَّحريفُ والكَذِبُ ... وليسَ في غيرِ ما يُرضِيكَ لي أَرَبُ
وقد أسأتُ فبالنُّعْمى التي سلَفَتْ ... إلاّ منَنْـتَ بعفـوٍ مـا لـهُ سَبَـبُ

وإن عجَّل العذرَ قبل توبته ، وقدَّم التنصُّلَ قبل إنابته . . فالعذرُ توبةٌ ، والتنصُّلُ إنابةٌ ، فلا يكشفْ عن باطن عذره ، ولا يعنِّفْ بظاهر غدره ، فيكونَ لئيمَ الظَّفَر ، سيِّىءَ المكافأة .

وقد قيل : (مَن غلبته الحِدّةُ . . فلا تغترَّ بمودّته) .

وقال بعض الحكماء : (شافعُ المذنبِ خضوعُه إلىٰ عُذره) .

---

(١) أورده في « البيان والتبيين » (٢/ ٩١) ، و« عيون الأخبار » (٣/ ١٠١) ، وفي النسخ : (مسلم بن قتيبة) .

(٢) أورده في « نهاية الأرب » (٣/ ٢٥٨) ، و« التذكرة الحمدونية » (٤/ ١٠٥) من قول جعفر بن محمد رحمهما الله تعالىٰ .

(٣) أورده في « التذكرة الحمدونية » (٤/ ١٠٥) من قول سيدنا الحسن بن علي رضي الله عنهما ، و« العقد الفريد » (٤/ ٢٣١) من قول إبراهيم بن العباس الصولي رحمه الله تعالىٰ .

(٤) أورد البيتين في « الزهرة » (١/ ٢١١) ، وفي « العمدة » (٢/ ٨٧٧) لمحمد بن عليّ الأصبهانيّ رحمه الله تعالىٰ .

وقال بعض الشعراء[1] : [من البسيط]

اقبَلْ معاذِيرَ مَن يأتِيكَ مُعتذِراً إنْ بَـرَّ عنـدَكَ فيمـا قـال أو فَجَـرا
فقد أطاعَكَ مَن يُرضِيكَ ظاهرُهُ وقـد أجلَّـكَ مَـن يعصِيـكَ مُستَتِـرا

وإن ترك نفسَه في زَلَله ، ولم يتداركْه بعذره وتنصُّله ، ولا محاه بتوبته وإنابته . . راعيتَ حالَه في المتاركة ، فستجده لا ينفك فيها من **أمورٍ ثلاثة** :

- **إمّا أن يكون قد كفَّ عن سيِّءِ عمله ، وأقلع عن سالف زَلَله ؛ فالكفُّ إحدى التوبتين** ، والإقلاعُ أحدُ العذرين ، **فكن أنتَ المعتذِرَ عنه بصفحك** ، والمتنصِّلَ له بفضلك ؛ فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (**المحسنُ على المسيءِ أميرٌ**)[2] .

- **والثاني** : أن يكون قد وقف علىٰ ما أسلف من زَلَله غيرَ تارك ولا متجاوِز ، **فوقوفُ المرض** أحدُ البُرْأَين ، **وكفُّه عن الزيادة** إحدى الحُسنَيين ، وقد استبقىٰ بالوقوف عن التجاوز أحدَ شَطْرَيه ، فعوِّلْ به علىٰ صلاح شطره الآخر ، **وإياكَ وإرجاءَه** ؛ فإنَّ الإرجاءَ يُفسِدُ شطرَ صلاحه ، والتلافيَ يُصلِحُ شطرَ فساده ؛ **فإنَّ مَن سقِمَ من جسمه ما لم يُعالجْه** . . سرى السَّقَم إلىٰ صحّته ، **وإن عالجه** . . سرَتِ الصحّةُ إلىٰ سَقَمه .

- **والثالث** : أن يتجاوزَ مع الأوقات ، فيزيدَ فيه علىٰ مرور الأيام ، **فهـٰذا هو الدَّاءُ العُضالُ** ؛ فإن أمكن استدراكُه ، **وتأتّى استصلاحُه باستنزاله** عنه إن علا ، **وبإرغابه** إن دنا ، **وبعتابه** إن ساوىٰ ، وإلاّ . . **فآخرُ الداء العَياء الكيُّ**[3] ، ومَن بلغت به الأعذارُ إلىٰ غايتها . . فلا لائمةَ عليه ، والمقيمُ علىٰ شِقاقه باغٍ مصروعٌ .

---

(١) البيتان في « ديوان الشافعي » (ص٦١) ، و« ديوان البحتريّ » (٢/ ١١٠٥) .

(٢) أورده في « البصائر والذخائر » (١/ ١١٤) عنه مرفوعاً .

(٣) وإلا ؛ أي : وإن لم ينفع شيء منها ، وأعجز الراقي كما أعيا الطبيب . . فآخر الداء العياء ؛ وهو الداء الذي لا برء منه .

وقد قيل : (مَن سلَّ سيفَ البغي . . أغمدَه في رأسه)[1] .

فهٰذا شرط[2] .

أمّا المسامحةُ في الحقوق : فلأنَّ الاستيفاءَ موحِشٌ ، والاستقصاءَ منفِّرٌ ، ومَن أراد كلَّ حقِّه من النفوس المستصعَبة بشحٍّ أو طمَعٍ . . **لم يصِلْ إليه إلا بالمنافرة والمشاقّة** ، ولم يقدِرْ عليه إلا بالمخاشنة والمشاحّة ، وقد استقرَّ في الطِّباع مَقْتُ مَن شاقَّها ونافرها ، وبُغضُ مَن شاحّها ونازعها ؛ كما استقرَّ فيها حبُّ مَن سامحها وياسرَها ، **فكان أليقُ الأمور بالمروءة استلطافَ النفوس بالمياسرة والمسامحة** ، وتألُّفَها بالمقاربة والمساهلة .

وقد قال بعض الحكماء : (**مَن عاشر إخوانَه بالمسامحة** . . دامت له مودّاتُهم) .

وقال بعض الأدباء : (**إذا أخذتَ عفوَ القلوب** . . زكا رَيْعُك ، وإن **استقصَيتَ** . . أكْدَيتَ)[3] .

والمسامحة نوعان : في عقود ، وحقوق .

فأمّا العقود : فهو أن يكون فيها سهلَ المناجزة ، قليلَ المحاجزة ، مأمونَ الغَيبة ، بعيداً من المكر والخديعة .

رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « **أَجمِلُوا في طَلَبِ الدُّنيا** ؛ فإنَّ كلاًّ مُيَسَّرٌ لِما كُتِبَ لهُ مِنها »[4] .

---

(١) رواه في « حلية الأولياء » (٣/ ١٩٥) من قول جعفر الصادق رحمه الله تعالىٰ ، وأورده في « التذكرة الحمدونية » (١/ ٢٧٣) ، و« الإعجاز والإيجاز » (ص٤١) من وصية سيدنا علي رضي الله عنه .

(٢) **فهٰذا** العفو عن الهفوات **شرطٌ** من شروط المروءة ؛ كما أن المذكور من نوعي المياسرة أصلٌ من أصولها .

(٣) أورده في « البصائر والذخائر » (٦/ ٢٣٣) ، و« نثر الدرّ » (٤/ ١٧٠) من قول علي بن عبيدة رحمه الله تعالىٰ ، **وزكا ريعك** : نما زرعك وكثر ربحك .

(٤) رواه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٣) ، وابن ماجه (٢١٤٢) عن سيدنا أبي حميد الساعدي رضي الله عنه .

وقال صلى الله عليه وسلم : « ألا أَدُلُّكُم علىٰ شيءٍ يُحِبُّهُ اللهُ تعالىٰ ورسولُهُ ؟ » قالوا : بلىٰ يا رسولَ الله ، قال : « التَّغابُنُ للضَّعيفِ »[1] .

وحكى ابن أبي عَون : أنَّ عمرو بن عُبَيد اشترىٰ للحسن البصريِّ إزاراً بستة دراهمَ ونصفٍ ، فأعطى التاجرَ سبعةً ، فقال له : (ثمنُه ستةُ دراهمَ ونصفٌ ؟ فقال : إني اشتريتُه لرجلٍ لا يُقاسِمُ أخاه درهماً)[2] .

ومن الناس مَن يرىٰ أنَّ المساهلة في العقود عجزٌ ، وأنَّ الاستقصاءَ فيها حزمٌ ، حتّىٰ إنَّه ليماكس في التافه الحقير وإن جاد بالجزيل الكثير ؛ كالذي حُكي عن عبد الله بن جعفر وقد ماكس في درهم ، وهو يجود بما يجود به ، فقيل له في ذلك ، فقال : (ذاك مالي أجودُ به ، وهـٰذا عقلي بخِلْتُ به)[3] .

وهـٰذا إنَّما ينساغ من أهل المروءة في دفع ما يخادعهم به الأدنياء ، ويغابنهم به الأشحّاء ، وهـٰكذا كانت حالُ عبد الله بن جعفر ، فأمّا مماكسةُ الاستنزال والاستسماح . . فكلاّ ؛ لأنَّه مُنافٍ للكرم ، ومُباينٌ للمروءة .

وأمّا الحقوق : فتتنوَّع المسامحة فيها نوعين : أحدهما : في الأحوال ، والثاني : في الأموال .

ـ فأمّا المسامحة في الأحوال : فهو اطِّراحُ المنازعة في الرُّتَب ، وتركُ المنافسة في التقدُّم ؛ فإنَّ مُشاحّةَ النفوس فيها أعظمُ ، والعنادَ عليها أكثرُ .

فإن سامح فيها ولم ينافس . . كان مع أخذه بأفضل الأخلاق ، واستعمالِه لأحسن الآداب أوقعَ في النفوس من إفضاله برغائب الأموال ، ثم هو أزيدُ في رتبته ، وأبلغُ في تقدُّمه .

وإن شاحَّ فيها ونازع . . كان مع ارتكابه لأخشن الأخلاق ، واستعمالِه لأهجن

---

(١) أورده في « بهجة المجالس » (١/ ٣٠٢) ، و« محاضرات الأدباء » (٢/ ٤١٩) .
(٢) الأجوبة المسكتة (٨٤٢) .
(٣) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٣/٢٤٣٥) ، و« تاريخ دمشق » (٢٧/ ٢٩٤) .

الآداب أنكىٰ في النفوس من حدِّ السيف ، وطعن السِّنان ، ثم هو أخفضُ للرتبة ، وأمنعُ من التقدُّم .

حُكي : أنَّ فتىً من بني هاشم تخطّىٰ رقابَ الناس عند ابن أبي دُواد[1] ، فقال له : (يا بنيَّ ؛ إنَّ الأدبَ ميراثُ الأشراف ، ولستُ أرىٰ عندك من سَلَفك إرثاً)[2] .

ـ وأمّا المسامحةُ في الأموال . . فتتنوَّع ثلاثة أنواع : مسامحةَ إسقاطٍ لعُدْم ، ومسامحةَ تخفيفٍ لعجز ، ومسامحةَ إنظارٍ لعُسرة[3] .

وهي مع اختلاف أسبابها تفضُّلٌ مأثور ، وتألُّفٌ مشكور ، وإذا كان الكريمُ قد يجود بما تحويه يده ، وينفذ فيه تصرُّفه . . كان أَولىٰ أن يجودَ بما خرج عن يده ، وطاب نفساً بفراقه .

وقد تصل المسامحة في الحقوق إلىٰ مَن لا يقبل البرَّ ، ويأبى الصِّلةَ ، فيكون أحسنَ موقعاً ، وأزكىٰ محلاً ، وربَّما كانت المشاحّةُ فيها آلَمَ من ردِّ السائل ، ومنع المجتدي ؛ لأنَّ السائلَ كما اجترأ علىٰ سؤالك . . فسيجترىءُ إن رددتَه علىٰ سؤال غيرك ، وليس كلُّ مَن صار أسيرَ حقِّك ، ورهينَ دَينِك يجدُ بدّاً من مسامحتك ومياسرتك ، ثم لك مع ذلك حسنُ الثناء ، وجزيلُ الأجر .

وقال محمود الورّاق[4] : [من السريع]

المـرءُ بعـدَ المـوتِ أُحـدُوثـةٌ ... يَفنـىٰ وتَبقـىٰ منـهُ آثـارُهُ

فـأحسَـنُ الحـالاتِ حـالُ امـرِىءٍ ... تطيـبُ بعـدَ المـوتِ أخبـارُهُ

فهٰذه حالُ المياسرة .

---

(١) في (ج ، هـ) : (عند ابن أبي داوود) .

(٢) أورده في « البصائر والذخائر » (٥/ ٧٦) ، و« نثر الدرّ » (٥/ ١٧٥) .

(٣) لعُدْم : لفقرٍ تبيَّن عجزه عن الأداء كُلّاً أو بعضاً ، ولعجز : لعجز المديون عن أداء جميع الدين ، ولعسرةٍ : لعسرة معيشة المديون .

(٤) البيتان في « ديوانه » (ص ١٢٩) ، والأُحدوثة : الخبر العجيب ، والكلام الغريب الذي يتحدثه الناس .

وأمّا الإفضالُ . . فنوعان : إفضالُ اصطناع ، وإفضالُ استكفاف ودفاع .

فأمّا إفضالُ الاصطناع . . فنوعان : أحدهما : ما أسداه جُوداً في شَكُور ، والثاني : ما تألَّف به نَبوةَ نَفُور ، وكلاهما من شروط المروءة ؛ لما فيهما من ظهور الاصطناع ، وتكاثر الأشياع والأتباع .

ومَن قلَّت صنائعه في الشاكرين ، وأعرض عن تألُّف النافرين . . كان فرداً مهجوراً ، وتابعاً محقوراً ، ولا مروءةَ لمتروك مُطَّرح ، ولا قدرَ لمحقور مُهتضَم .

وقال عمر بن عبد العزيز : (ما طاوعَني الناسُ علىٰ شيءٍ أردته من الحقِّ حتّىٰ بسطتُ لهم طَرَفاً من الدنيا)[1] .

وقال بعض الحكماء : (أقلُّ ما يجب للمنعِم بحقِّ نعمته : ألاّ يُتوصَّلَ بها إلىٰ معصيته)[2] .

وأُنشدتُ لبعض الأعراب[3] : [من مشطور الرجز]

مَـن جمـعَ المـالَ ولـم يجُـدْ بِـهِ
وتـركَ المـالَ لعـامِ جَـدْبِـهِ
هـانَ علـى النـاسِ هَـوانَ كَلبِـهِ

وقال إسحاق بن إبراهيم المَوصليُّ[4] : [من الكامل]

يَبقـى الثَّنـاءُ وتـذهـبُ الأمـوالُ ... ولكـلِّ دهـرٍ دولـةٌ ورجـالُ
ما نالَ مَحمَدةَ الرِّجال وشُكرَهم ... إلاّ الجـوادُ بمـالِـهِ المِفْضـالُ
لا تَرضَ من رجلٍ حَلاوةَ قولِهِ ... حتّـىٰ يصـدِّقَ مـا يقـولُ فِعـالُ

---

(١) أورده في « البصائر والذخائر » (١/ ٢٩) ، و« نثر الدرّ » (٢/ ١١٨) .

(٢) أورده في « الإعجاز والإيجاز » (ص ٨٢) من قول الخليفة المهديّ ، و« تاريخ دمشق » (١٩/ ١٩١) من قول زياد بن عُبيد .

(٣) أورد الأبيات الجاحظ في « الحيوان » (١/ ٢٥٤) لابن الذِّئبة ، و« عيون الأخبار » (١/ ٢٤٣) .

(٤) الأبيات في « ديوانه » (ص ١٧٢) .

فإن ضاقت به الحالُ عن الاصطناع بماله . . فقد عَدِم من آلة المكارم عِمادَها ، وفقد من شروط المروءة سِنادَها ، فليُواسِ بنفسه مواساةَ المُساعف ، وليُسعِدْ بها إسعادَ المتألِّف ؛ كما قال المتنبي[1] : [من البسيط]

. . . . فلْيُسعِدِ النُّطقُ إنْ لم تُسعِدِ الحالُ

وإن كان لا يراها ـ وإن أجهدَها ـ إلاّ تبَعاً للمُفضِلين ، قليلةً بين المُكثِرين ؛ فإنَّ الناس لا يساوُون بين المعطي والمانع ، ولا يقنعهم القولُ دون الفعل ، ولا يغنيهم الكلامُ عن المال ، ويرونه كالصَّدىٰ ؛ إن ردَّ صوتاً . . لم يُجدِ نفعاً ؛ كما قال الشاعر : [من السريع]

يجـودُ بـالـوَعْـدِ ولٰكنَّـهُ يـدهُـنُ مـن قـارورةٍ فـارغَـةْ

فكلُّ ما خرج عندهم عن المال كان فارغاً ، وكلُّ ما عدا الإفضالَ به كان هيِّناً ، وقد قدَّمنا من القول في شروط الإفضال ما أقنع .

وأمّا إفضالُ الاستكفاف : فلأنَّ ذا الفضل لا يعدَم حاسدَ نعمة ، ومعاندَ فضيلة ، يغريه الجهل بإظهار عناده ، ويبعثه اللؤم على البذاء بسفهه .

فإن غفل عن الاستكفاف للسفهاء ، وأعرض عن الاستدفاع لأهل البَذاء . . صار عِرضُه هدفاً للمثالب ، وحالُه عُرضةً للنوائب ، وإذا استكفَّ السفيهَ ، واستدفع البَذيَّ . . صان عِرضَه ، وحمىٰ نعمته .

وقد رُوي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما وَقىٰ بهِ المرءُ عِرضَه . . فهو صَدَقةٌ »[2] .

وقالت عائشة رضي الله عنها : (ذُبُّوا بأموالِكُم عن أحسابِكم)[3] .

---

(١) البيت في « ديوانه » (٣/٢٧٦) ؛ وصدره : (لا خيل عندك تهديها ولا مالُ . . .) .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (٢/٥٠) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٣٢٢٠) عن سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما .

(٣) رواه أبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (٢/١٨٣) .

وامتدح رجلٌ الزُّهْريَّ ، فأعطاه قميصَه ، فقال له رجل : (**أتعطي علىٰ كلام الشيطان ؟!** فقال : **مَنِ ابتغى الخيرَ . . اتَّقى الشرَّ**)[1] .

ولذلك قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « **مَن أرادَ برَّ الوالدَينِ . . فليُعْطِ الشُّعراءَ** »[2] .

وهٰذا صحيح ؛ **لأنَّ الشعرَ سائرٌ** ، يسير به ما ضُمِّن من مدح أو هجاء ؛ ولأجل ذلك قيل : (**لا تؤاخِ شاعراً** ؛ فإنه يمدحُك بثمَن ، ويهجوك مَجّاناً)[3] .

ولاستكفاف السفهاء بالإفضال شرطان :

أحدهما : أن يخفيَه حتّىٰ لا تنتشرَ فيه مطامع السفهاء ، فيتوصَّلوا إلى اجتذابه بسَبِّه ، وإلىٰ ماله بثَلْبه .

والثاني : أن يتطلَّبَ له في المجاملة وجهاً يجعلُه في الإفضال عليه سبباً[4] ؛ لئلاّ يرىٰ أنَّه على السَّفَه قد أُعطي ، ولأجل البَذاء قد حُبي ، فيغريه ذلك بزيادة السَّفَه ، واستدامةِ البَذاء .

واعلم : أنك ما حييتَ **ملحوظُ المحاسن** ، **محفوظُ المَساوي** ، ثم من بعد ذلك **حديثٌ منتشر** ، لا يراقبك صديق ، ولا يحامي عنك شفيق ، **فكن أحسنَ حديثٍ ينتشر** . . يكن سعيُك في الناس مشكوراً ، وأجرك عند الله مذخوراً .

فقد روىٰ زياد بن الجَرّاح ، عن عمرو بن ميمون الأَوْديِّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **اغتنِمْ خمساً قبلَ خَمْسٍ** : شبابَكَ قبلَ هَرَمِكَ ، وصحّتَكَ

---

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٥/ ٣٨١) ، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (٣/ ٣٧١) .

(٢) أورده الديلمي في « الفردوس » (٥٨٦١) عن سيدنا عوف بن مالك رضي الله عنه ، و« محاضرات الأدباء » (١/ ١٦٤) .

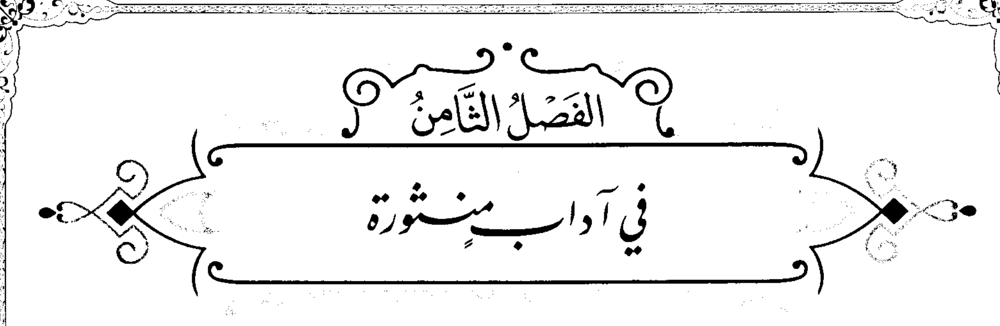
(٣) أورده في « بهجة المجالس » (١/ ٧٠٧) ، و« محاضرات الأدباء » (١/ ١٦٦) .

(٤) **في المجاملة وجهاً** : من قرابةِ نسبٍ أو دارٍ أو رفاقةِ سفر أو مدافعةٍ عنه أو عن ذويه وخليله ونحو ذلك .

قبلَ سَقَمِك ، وغِناكَ قبلَ فَقْرِكَ ، وفَراغَكَ قبلَ شُغْلِكَ ، وحياتَكَ قبلَ مَوتِكَ »[1] .

فهٰذا ما اقتضاه هٰذا الفصلُ من شروط المروءة وإن كان كلُّ كتابنا هٰذا من شروطها ، وما اتصل بحقوقها .

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢) ، والنسائيّ في « السنن الكبرىٰ » (١١٨٣٢) .



الفَصْلُ الثَّامِنُ

في آداب منثورة

اعلم : أنَّ الآداب مع اختلافها بتنقُّل الأحوال ، وتغيُّر العادات . . لا يمكن استيعابُها ، ولا يُقدَر علىٰ حصرها ، وإنَّما يذكر كلُّ إنسانٍ ما بلغه الوُسْعُ من آداب زمانه ، واستحسن بالعُرْف من عادات دَهْره ، ولو أمكن ذاك . . لكان الأولُ قد أغنى الثانيَ عنها ، والمتقدِّمُ قد كفى المتأخِّرَ تكلُّفَها .

وإنَّما حظُّ الأخير : أن يُعانيَ حفظَ الشارد ، وجمعَ المتفرِّق .

ثم يعرِضَ ما تقدَّم علىٰ حكم زمانه ، وعادات وقته ، فيثبت ما كان موافقاً ، وينفي ما كان مخالفاً .

ثم يستمدَّ خاطرَه في استنباط زيادة ، أو استخراج فائدة ؛ فإن أُسعِف بشيء . . فاز بدَرْكه ، وحظي بفضيلته .

ثم يعبِّرَ عن ذلك كلِّه بما كان مألوفاً من كلام الوقت ، وعُرْف أهله ؛ فإنَّ لأهل كلِّ وقتٍ في الكلام عادةً تؤلَف ، وعبارةً تُعرَف ؛ ليكونَ أوقعَ في النفوس ، وأسبقَ إلى الأفهام .

ثم يرتِّبَ ذلك علىٰ أوائله ومقدِّماته ، ويبنيه علىٰ أصوله وقواعده حسبَ ما يقتضيه الجنسُ ؛ فإنَّ لكل نوع من العلوم طريقةً ، هي أوضحُ مسلكاً ، وأسهلُ مأخذاً .

فهٰذه خمسة شروط ، هي حظُّ الأخير فيما يعانيه ، وكذلك القولُ في كلِّ تصنيف مستحدَث ، ولولا ذلك . . لكان تعاطي ما تقدَّم به الأوّلُ عَناءً ضائعاً ، وتكلُّفاً مستهجَناً .

وأرجو أن يُمِدَّنا الله بالتوفيق لتأدية هٰذه الشروط ، وتُنهِضَنا المعونةُ بتوفية هٰذه الحقوق ؛ حتّىٰ نسلمَ من ذمِّ التكلُّف ، ونبرأَ من عيب التقصير وإن كان اليسيرُ مغفوراً ، والخاطىءُ معذوراً ، فقد قيل : (من صنَّف كتاباً . . فقد

استهدَف ، فإن أحسن . . فقد استعطَف ، وإن أساء . . فقد استقذَف)[1] .

وقد مضت أبوابٌ تضمَّنت فصولاً ، رأيتُ إتباعَها بما لم أحبَّ الإخلالَ به :

فمِن ذلك حالُ الإنسان في مأكله ومشربه ؛ **فإنَّ الداعيَ إلىٰ ذلك شيئان** : حاجةٌ ماسّة ، وشهوةٌ باعثة .

فأمّا الحاجةُ : فتدعو إلىٰ ما سدَّ الجَوعةَ ، وسكَّن الظمأَ ، **وهـٰذا مندوبٌ إليه عقلاً وشرعاً** ؛ لما فيه من حفظ النفس ، وحراسة الحواسّ ؛ **ولذلك ورد الشرعُ بالنهي عن الوِصال بين صوم اليومين** ؛ لأنَّه يُضعِف الجسدَ ، ويُميتُ النفسَ ، ويُعجِزُ عن العبادة ، **وكلُّ ذلك يمنع منه الشرعُ** ، ويدفع عنه العقلُ .

وليس لمَن منع نفسَه قدرَ الحاجة حظٌّ من برٍّ ، ولا نصيبٌ من زُهد ؛ لأنَّ ما حرَمها من فعل الطاعات بالعجز والضعف أكثرُ ثواباً ، وأعظمُ أجراً ؛ إذ ليس في ترك المباح ثوابٌ يقابل فعلَ الطاعات ، وإتيانَ القرب ، **ومَن أخسر نفسَه ربحاً موفوراً** ، أو حرمها أجراً مذخوراً . . **كان زهدُه في الخير أقوىٰ من رغبته** ، ولم يبقَ عليه من هـٰذا التكلُّف إلا الشهرة بريائه وسمعته .

وأمّا الشهوةُ : فتتنوَّع نوعين : **أحدهما** : شهوة في الإكثار والزيادة ، **والثاني** : شهوة في تناول الألوان المُلِذّة .

ـ **فأمّا النوع الأوّل** : وهو شهوة الزيادة علىٰ قدر الحاجة ، والإكثار علىٰ مقدار الكفاية . . **فهو ممنوعٌ منه في العقل والشرع** ؛ كما كان قدرُ الكفاية مندوباً إليه بالعقل والشرع ؛ لأنَّ تناول ما زاد على الكفاية نَهَمٌ مُعِرٌّ ، وشَرَهٌ مُضِرٌّ .

وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **إيّاكُمْ والبِطْنَةَ ؛ فإنَّها** مَفسَدةٌ للدِّينِ ، مُورِثةٌ للسَّقَمِ ، مَكسَلةٌ عنِ العِبادةِ »[2] .

---

(١) رواه في « الطيوريات » (٥٠١) من قول العتّابيّ ، وأورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ١٦٠) من قول الجاحظ ، وفقد استهدف : اتخذ نفسه هدفاً يرميه الخاطىء والمصيب .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « إصلاح المال » (٣٥٠) من قول سيدنا عمر رضي الله عنه .

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام : (**إذا كنتَ بَطِناً . . فعُدَّكَ زَمِناً**)[1] .

وقال بعض العلماء : (**أقلِلْ طعامَك . . تجِدِ الصحّةَ**) .

وقال بعض البلغاء : (**أقلِلْ طعاماً . . تحمَدْ مَناماً**)[2] .

وقال بعض البلغاء : (**لا يسكنُ العلمُ مَعِدةً مُلِئتْ طعاماً**)[3] .

وقال بعض الأدباء : (**الرُّغْبُ شؤمٌ ، والنَّهَمُ لؤمٌ**)[4] .

وقال بعض الحكماء : (**أكبرُ الدَّواء تقديرُ الغِذاء**) .

وقال بعض الشعراء[5] : [من الوافر]

فكَمْ مِن أَكْلةٍ منعَتْ أخاها ... بلَذّةِ ساعةٍ أَكَلاتِ دَهْرِ
وكَمْ مِن طالبٍ يَسعىٰ لأمرٍ ... وفيهِ هَلاكُهُ لو كانَ يدري

وقال آخرُ[6] : [من المنسرح]

كَمْ دخلَتْ أكْلةٌ حَشا شَرِهٍ ... فأَخْرجَتْ روحَهُ مِنَ الجسدِ
لا بارَكَ اللهُ في الطَّعامِ إذا ... كانَ هلاكُ النُّفوسِ في المِعَدِ

ورُبَّ أكلةٍ هاضتِ الآكل ، وحرمتْهُ مآكل !![7] .

روىٰ أبو يزيدَ المدَنيُّ ، عن عبد الرحمـٰن بن المرقَّع قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **إنَّ الله لم يخلُقْ وِعاءً مُلِيءَ شرّاً مِن بَطْنٍ ؛ فإنْ كان لا بُدَّ**

---

(1) أورده في « الإمتاع والمؤانسة » (ص ٤٢٦) ، و« ربيع الأبرار » (٥/ ٤٠٣) دون نسبة ، **والبطنة** : امتلاء البطن من الطعام والمبالغة في الأكل .

(2) أورده في « الإمتاع والمؤانسة » (ص ٤٨٨) ، و« البصائر والذخائر » (١/ ٢١٤) ، و« عيون الأخبار » (٣/ ٢١٩) .

(3) رواه الدارقطني في « المؤتلف والمختلف » (٢/ ١٠٠٠) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٧/ ٤٣١) من قول ذي النون المصريّ رحمه الله تعالىٰ .

(4) رواه الطبراني في « الدعاء » (١٣٩٦) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه بنحوه ، فمن أكثر أكله . . كثر شربه ، وثقل نومه ، ومن ثقل نومه . . مُحيت بركة عمره .

(5) البيتان لإبراهيم بن هَرْمَةَ في « ديوانه » (ص ١٢٨) ؛ وفيه : (ورُبَّتَ أكلةٍ منعت أخاها) .

(6) أورد البيتين في « ربيع الأبرار » (٥/ ٤٢٩) ، و« نهاية الأرب » (٩/ ٢٩٥) عن أبي بكر العلاف .

(7) هذا مثل ، وهو شبيه للمثل القائل : (رب أكلةٍ تمنع أكلات) . انظر « كتاب الأمثال » لابن سلاّم (ص٢٢٨) ، و« مجمع الأمثال » (٢/ ٥٤) .

فاعلاً . . فاجعَلُوا ثُلُثاً للطَّعامِ ، وثُلُثاً للشَّرابِ ، وثُلُثاً للرِّيحِ »[1] .

ـ **وأمّا النوع الثاني** : وهو شهوةُ الأشياء المُلِذّة ، ومنازعةُ النفس إلىٰ طلب الأنواع الشهيّة . . **فمذاهبُ الناس في تمكين النفس فيها مختلفةٌ** :

فمنهم : مَن يرىٰ أنَّ صرفَ النفس عنها أولىٰ ، وقهرَها عن اتّباع شهواتها أحرىٰ ؛ **ليذلَّ له قِيادُها** ، ويهونَ عليه عِنادُها ؛ **لأنَّ تمكينَها وما تهوىٰ بَطَرٌ يُطغي** ، وأَشَرٌ يُردي ؛ **لأنَّ شهواتِها غيرُ متناهية** .

فإذا أعطاها المرادَ من شهوات وقتها . . تعدَّتْها إلىٰ شهواتٍ قد استحدثَتها ، فيصير الإنسانُ أسيرَ شهواتٍ لا تنقضي ، وعبدَ هوىً لا ينتهي ، **ومَن كان بهٰذه الحال . . لم يُرجَ له صلاحٌ** ، ولم يُوجَد فيه فضلٌ .

وأُنشدتُ لأبي الفتح البُسْتيِّ[2] : [من البسيط]

يا خادمَ الجِسمِ كَمْ تَشقىٰ بخِدمتِهِ ... لِتطلُبَ الرِّبحَ ممّا فيهِ خُسْرانُ
أَقبِلْ على النَّفسِ واستكمِلْ فضائلَها ... فأنتَ بالنَّفسِ لا بالجِسْمِ إنسانُ

وللحذر من هٰذه الحال ما حُكِي : أنَّ أبا حازم كان يمرُّ على الفاكهة ، فيشتهيها ، فيقول : (**موعدُكِ الجنّةُ**)[3] .

وقال آخرون : تمكينُ النفس من لذّاتها أَولىٰ ، وإعطاؤها ما اشتهَت من المباحات أَحرىٰ ؛ **لما فيه من ارتياح النفس** بنَيل شهواتها ، **ونشاطِها** بإدراك لذّاتها ، فتنحسر عنها ذِلّةُ المقهور ، وبَلادةُ المجبور ، **فلا تقصُرُ** عن دَرْك ، ولا تقصِّرُ في نهضة ، ولا تكِلُّ عن استعانة .

وقال آخرون: بل توسُّطُ الأمرين أَولىٰ ؛ **لأنَّ في إعطائها كلَّ شهواتها سَلاطةً**، والنفسُ السَّليطةُ معاندةٌ، **وفي منعها من جميع شهواتها بَلادةٌ**، والنفسُ البليدةُ عاجزةٌ، **وفي منعها** عن البعض كفٌّ لها عن السَّلاطة ، **وفي تمكينها من البعض** حسمٌ لها عن

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الجوع » (٢) ، وأبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٤/ ١٨٤٨) .
(٢) البيتان في « ديوانه » (ص ٣٥٤) .
(٣) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٩٦٥) ، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (٣/ ٢٤٦) .

البَلادة ، وهـٰذا لَعَمري أشبهُ المذاهب بالسَّداد ؛ **لأنَّ التوسُّطَ في الأمور أحمدُ** .

وإذ قد مضى الكلامُ في المأكول والمشروب . . **فينبغي أن يُتبَعَ بذكر الملبوس** .

اعلم : أنَّ الحاجةَ وإن كانت إلى المأكول والمشروب أَدعىٰ . . **فهي إلى** الملبوس ماسّةٌ ، وبها إليه فاقةٌ ؛ **لما في اللباس من حفظ الجسد** ، ودفع الأذىٰ ، وسَتر العورة ، وحصول الزينة .

قال الله تعالىٰ : ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ﴾ .

فمعنىٰ قوله : ﴿ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا ﴾ أي : خلقنا لكم ما تلبَسون من الثياب ﴿ يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ ﴾ أي : يسترُ عوراتِكم ، **وسُمِّيت العورةُ سَوءةً** ؛ لأنَّه يسوء صاحبَها انكشافُها من جسده .

ـ وقوله : ﴿ وَرِيشٗا ﴾ **فيه أربعة تأويلات** :

أحدها : أنه المال ، وهو قول مجاهد .

والثاني : أنه اللِّباس والعيش والنَّعيم ، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما .

والثالث : أنه المَعاش ، وهو قول مَعبَد الجُهَنيّ .

والرابع : أنه الجَمال ، وهو قول عبد الرحمـٰن بن زيد .

ـ **وقوله** : ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ﴾ **فيه ستة تأويلات** :

أحدها : أن لباسَ التقوىٰ هو الإيمان ، وهو قول قتادة والسدّيّ .

والثاني : أنه العملُ الصالح ، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما .

والثالث : أنه السَّمتُ الحسَن ، وهو قول عثمان بن عفان رضي الله عنه .

والرابع : هو خشية الله تعالىٰ ، وهو قول عروة بن الزبير .

والخامس : هو الحياء ، وهـٰذا قول مَعبَد الجُهَنيّ .

والسادس : هو ستر العورة ، وهـٰذا قول عبد الرحمـٰن بن زيد .

❁ ❁ ❁

ـ وقوله تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : أن ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ راجعٌ إلىٰ جميع ما تقدَّم من قوله تعالىٰ : ﴿ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾[1] ، ثم قال : ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ أي : ذلك الذي ذكرتُه خيرٌ كلُّه .

والثاني : أن ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ راجعٌ إلىٰ ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ ، **ومعنى الكلام** : أنَّ لباسَ التقوىٰ خيرٌ من الرِّياش واللِّباس ، وهـٰذا قول قتادة والسدّيّ[2] .

فلمّا وصف الله تعالىٰ حال اللباس ، وأخرجه مُخرجَ الامتنان . . **عُلِم أنه معونةٌ منه** ؛ لشدّة الحاجة إليه .

❁ ❁ ❁

وإذا كان كذلك . . ففي اللباس ثلاثة أشياء : أحدها : دفع الأذىٰ ، **والثاني** : ستر العورة ، **والثالث** : الجمال والزينة .

فأمّا دفعُ الأذىٰ به : فواجبٌ بالعقل ؛ **لأن العقل يوجب دفعَ المَضارِّ** ، واجتلابَ المنافع .

وقد قال الله تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ **فأخبر بحالها ، ولم يأمر بها** ؛ اكتفاءً بما يقتضيه العقلُ ، واستغناءً بما يبعث عليه الطبعُ .

---

(١) وهـٰذا علىٰ قراءة ﴿ وَلِبَاسَ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ بالنصب ، وهي قراءة الإمام نافع والكسائي وابن عامر رحمهم الله تعالىٰ .

(٢) انظر تفسير الآية ، وتفصيل الأقوال فيها في « تفسير الطبريّ » (٥/٨/١٨٦) وما بعدها .

ويعني بـ(**الظلال**) : الشجر ، وبـ(**الأكنان**) : جمع كِنّ ؛ وهو الموضع الذي يُستكَنُّ فيه .

ويعني بقوله : ﴿ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ ﴾ : ثيابَ القطن والكتّان والصوف ، وبقوله : ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ الدروعَ التي تقي البأسَ ؛ وهو الحرب .

فإن قيل : فكيف قال : ﴿ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ ﴾ ولم يذكر البرد ، وقال : ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ ولم يذكر السهل ؟

فعن ذلك جوابان :

أحدهما : أن القوم كانوا **أصحابَ جبال وخيام** ، فذكر لهم الجبال ، وكانوا **أصحابَ حرٍّ** دون برد ، فذكر **لهم نعمته عليهم** فيما هو مختصٌّ بهم ، وهـٰذا قول عطاء .

والجواب الثاني : أنه اكتفاءٌ **بذكر أحدهما** عن ذكر الآخر ؛ إذ كان معلوماً أنَّ السَّرابيل التي **تقي الحرَّ تقي أيضاً البردَ** ، ومَن اتخذ من الجبال أكناناً . . اتخذ من السهل ، وهـٰذا قول الجمهور(١) .

وأمّا سترُ العورة : فقد اختلف الناس فيه : **هل وجب بالعقل أو بالشرع ؟**

فقالت طائفة : وجب سترها بالعقل ؛ لما في ظهورها من القبح ، **وما كان قبيحاً . . فالعقلُ مانعٌ منه** ، ألا ترىٰ أن آدمَ وحوّاءَ عليهما السلام **لمّا أكلا من الشجرة** التي نُهِيا عنها . . بدَتْ لهما سَوءاتُهما ، وطَفِقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ؛ **تنبُّهاً بعقولهما في ستر** ما رأياه مستقبَحاً من سوءاتهما ؛ **لأنَّهما لم يكونا**

---

(١) انظر تفسير الآية ، وتفصيل الأقوال فيها في « تفسير الطبري » (٨/ ١٤/ ١٨٩) وما بعدها ، وقال الفخر الرازي رحمه الله تعالىٰ في « تفسيره » (٢٠/ ٩٤) : (ثبت في العلوم العقلية : أن العلم بأحد الضدين يستلزم العلم بالضد الآخر ؛ فإن الإنسان متىٰ خطر بباله الحر . . خطر بباله البرد أيضاً ، وكذا القول في النور والظلمة ، والسواد والبياض ، فلما كان الشعور بأحدهما مستتبعاً للشعور بالآخر . . كان ذكر أحدهما مغنياً عن ذكر الآخر) .

قد كُلِّفا سترَ ما لم يبدُ لهما ، ولا كُلِّفاه بعد أن بدَت لهما وقبل سترهما[١] .

وقالت طائفة أخرىٰ : بل سترُ العورة واجبٌ بالشرع ؛ لأنَّه بعضُ الجسد الذي لا يوجب العقلُ سترَ باقيه ، وإنَّما اختصَّت العورة بحكمٍ شرعي ، فوجب أن يكون ما يلزم من سترها حكماً شرعيّاً .

وقد كانت قريش وأكثرُ العرب مع ما كانوا عليه من وُفور العقل ، وصحّة الألباب . . يطوفون بالبيت عُراةً ، ويحرِّمون علىٰ أنفسهم اللحمَ والوَدَكَ ، ويرَون ذلك أبلغَ في القُرْبة ، وإنَّما القُرَبُ : ما استُحسِنت في العقل ، حتىٰ أنزل الله تعالىٰ : ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ .

يعني بقوله : ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ ﴾ : الثيابَ التي تستر عوراتِكم ، ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾ : ما حرَّمتُموه علىٰ أنفسكم من اللَّحم والوَدَك .

* * *

وفي قوله تعالىٰ : ﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ﴾ تأويلان :

أحدهما : لا تسرفوا في التحريم ، وهٰذا قول السدّيّ .

والثاني : لا تأكلوا حراماً ؛ فإنَّه إسرافٌ ، وهٰذا قول ابن زيد[٢] .

فأوجب بهٰذه الآية سترَ العورة بعد أن لم يكنِ العقلُ موجباً له ، فدلَّ ذلك علىٰ أنَّ سترَها وجب بالشرع دون العقل .

* * *

وأمّا الجمال به والزينة : فهو مستحسَنٌ بالعُرف والعادة من غير أن يوجبه عقلٌ أو شرعٌ ، وفي هٰذا النوع قد يقع التجاوز والتقصير .

---

(١) لأنهما لم يكلفا ما داما في الجنة ، ومن هنا نعلم : أن المراد بالمعصية هو المعنى اللغوي لا المعنى الشرعي فتنبه .

(٢) انظر تفسير الآية ، وتفصيل الأقوال فيها في « تفسير الطبري » (٥/٨/٢٠٣) وما بعدها .

والتوسُّط المطلوب فيه معتبرٌ من وجهين : أحدهما : في صفة الملبوس وكيفيّته ، والثاني : في جنسه وقيمته .

فأمّا صفته : فمعتبرةٌ بالعُرف من وجهين :

أحدهما : عُرف البلاد ؛ فإنَّ لأهل المشرق زِيّاً مألوفاً ، ولأهل المغرب زِيّاً مألوفاً ، وكذلك لما بينهما من البلاد المختلفة عاداتٌ في اللباس مختلفة .

والثاني : عُرف الأجناس ؛ فإنَّ للأجناد زِيّاً مألوفاً ، وللتجّار زِيّاً مألوفاً ، وكذلك لمَن سواهما من الأجناس المختلفة عاداتٌ في اللباس مختلفة .

وإنَّما اختلفت عادات الناس في اللباس من هـٰذين الوجهين ؛ ليكون اختلافهم فيها سِمَةً يتميَّزون بها ، وعلامةً لا يَخفَون معها ، فإن عدل أحدٌ في لباسه عن عُرف بلده وجنسه . . كان ذلك منه خُرْقاً وحُمْقاً ؛ ولذلك قيل : (العُرْيُ القادحُ خيرٌ من الزِّيِّ الفاضح)[1] .

وأمّا جنسُ الملبوس وقيمته . . فمعتبرٌ من وجهين :

أحدهما : بالمَكِنة من اليسار والإعسار ؛ فإنَّ للموسر في الزِّيِّ قدراً ، وللمعسر دونه .

والثاني : بالمنزلة والحال ؛ فإنَّ لذي المنزلة الرفيعة في الزِّيِّ قدراً ، وللمنخفض عنه دونه ؛ ليتفاضلوا فيه علىٰ حسب تفاضل أحوالهم ، فيصيروا به متميِّزين .

فإن عدل الموسِرُ إلىٰ زِيِّ المعسِر . . كان شُحّاً وبخلاً ، وإن عدل الرفيعُ إلىٰ زِيِّ الدَّنيِّ . . كان مَهانةً وذُلّاً ، وإن عدل المعسِرُ إلىٰ زِيِّ الموسِر . . كان تبذيراً وسَرَفاً ، وإن عدل الدَّنيُّ إلىٰ زِيِّ الرفيع . . كان جهلاً وتخلُّفاً .

---

(١) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٢٨٢) ، و« الإمتاع والمؤانسة » (ص ٣٦٣) .

ولزومُ العُرف المعهود ، واعتبارُ الحدِّ المقصود . . أدلُّ على العقل ، وأمنعُ من الذمِّ ؛ ولذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (إيّاكُمْ ولِبْستَينِ : لِبْسةً مشهورةً ، ولِبْسةً محقورةً)[1] .

وقال بعض الحكماء : (البَسْ من الثياب ما لا يزدريكَ فيه العظماءُ ، ولا يعيبه عليك العلماء)[2] .

وقال بعض الشعراء[3] : [من الكامل]

إنَّ العُيونَ رمَتْكَ إذْ فاجأْتَها ... وعليكَ مِن شَهْرِ الثِّيابِ لِباسُ
أمّا الطَّعامُ فكُلْ لنفسِكَ ما تَشا ... واجعَلْ لِباسَكَ ما اشتهاهُ الناسُ

واعلم : أنَّ من المروءة أن يكونَ الإنسانُ معتدلَ الحال في مراعاة لباسه ، من غير إكثار ولا اطِّراح ؛ فإنَّ اطِّراحَ مراعاتها ، وتركَ تفقُّدها . . مَهانةٌ وذُلٌّ ، وكثرةَ مراعاتها ، وصرفَ الهمّة إلى العناية بها . . دَناءةٌ ونقصٌ .

وربَّما توهَّم بعضُ مَن خلا من فضلٍ ، وعَرِي عن تمييزٍ . . أنَّ ذلك هو المروءة الكاملة ، والسيرةُ الفاضلة ؛ لما يرىٰ من تمييزه بذلك عن الأكثرين ، وخروجه عن جملة العوامِّ المسترذَلين ، وخفي عنه أنه إذا عدا طورَه ، وتجاوز قدرَه . . كان أقبحَ لذكره ، وأبعثَ علىٰ ذَمِّه ، وكان كما قال المتنبي[4] : [من البسيط]

لا يُعجِبَنَّ مَضِيماً حُسنُ بِزّتِهِ ... وهل يَروقُ دَفيناً جَودةُ الكَفَنِ

وحكى المبرِّدُ : أنَّ رجلاً من قريش كان إذا اتَّسعَ . . لبس أرثَّ ثيابه ، وإذا

---

(١) أورده في « محاضرات الأدباء » (٤/ ٧) ، و« نثر الدرّ » (٢/ ٥٩) .

(٢) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (١٢/ ٢٦٢) ، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (١/ ٣٠٢) من قول سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

(٣) أورد البيتين في « بهجة المجالس » (٢/ ٥٨) ، و« ربيع الأبرار » (٥/ ٢١) ؛ وفيه : (أما الطعام . . فكلْ لنفسك ما اشتهتْ) .

(٤) البيت في « ديوانه » (٤/ ٢١٣) ، وقد شبه المظلوم الذي لا يدفع الظلم عن نفسه بالميت ، وجعل ثوبه كالكفن .

أضاق . . لبس أحسنَها ، فقيل له في ذلك ، فقال : (**إذا اتَّسعتُ . . تزيَّنتُ بالجود ، وإذا أضَقْتُ . . فبالهيئة**)[1] .

وقد أتى ابنُ الروميِّ بأبلغَ من هـٰذا المعنىٰ في شعره ، فقال[2] : [من الطويل]

وما الحَلْـيُ إلاّ زِينـةٌ لنَقيصـةٍ ... يُتمِّمُ مِن حُسنٍ إذا الحُسنُ قَصَّرا

فـأمّـا إذا كـان الجَمـالُ مُـوفَّـراً ... كحُسنِكِ لم يَحتَجْ إلىٰ أن يُزَوَّرا

ولذلك قالت الحكماء : (**ليست العِزّة في حُسن البِزّة**)[3] .

وقال بعض الشعراء[4] : [من الكامل]

وترىٰ سَفيهَ القومِ يدنَسُ عِرضُهُ ... سَفَهـاً ويمسَـحُ نَعْلَـهُ وشِـراكَهـا

وإذا اشتدَّ كَلَفُه بمراعاة لباسه . . قطعه ذلك عن مراعاة نفسه ، وصار الملبوسُ عنده أنفسَ ، وهو علىٰ مراعاته أحرصَ .

وقد قيل في منثور الحكم : (**البَسْ من الثِّياب ما يخدُمُك ولا يستخدمُك**)[5] .

وقال خالد بن صفوان لإياس بن معاوية : (**أراكَ لا تُبالي ما لبستَ** ؟ قال : **ألبَسُ ثوباً أَقِي به نفسي . . أحبُّ إليَّ من لُبْس ثوبٍ أقِيه بنفسي**)[6] .

وكما أنَّه لا يكون شديدَ الكَلَف بها . . فكذلك لا يكون شديدَ الاطِّراح لها ؛ فقد حكى ابن عائشةَ : أنَّ رجلاً جاء إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فنظر إليه رَثَّ الهيئة ، فقال : « **ما مالُكَ** ؟ » قال : مِن كلِّ المالِ قد آتاني اللهُ ، قال : « **فإنَّ اللهَ تعالىٰ يحبُّ إذا أنعَمَ على امرىءٍ نِعمةً . . أن ينظرَ إلىٰ أثرِها عليهِ** »[7] .

---

(١) أورده في « محاضرات الأدباء » (٤/ ٧) ؛ وفيه : (إذا اتسعت . . تزينت بالهيبة) .

(٢) البيتان في « ديوانه » (٣/ ١٠٠٧) .

(٣) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٢٨٤) .

(٤) البيت لأبي الأسود الدُّؤَليّ في « ديوانه » (ص ١٧٣) .

(٥) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٢٨٢) ، و« محاضرات الأدباء » (٤/ ٩) .

(٦) رواه الحافظ المزّيّ في « تهذيب الكمال » (٣/ ٤٣٤) .

(٧) رواه الترمذي (٢٠٠٦)، والنسائي (٨/ ١٨١) عن سيدنا عوف بن مالك بن نضلة الجُشَميّ رضي الله عنه .

وقد قيل : (**المروءةُ الظاهرةُ في الثياب الطاهرة**)[1] .

❁ ❁ ❁

وهكذا القولُ في غِلمانه وحَشَمه ؛ إن اشتدَّ كَلَفُه بهم . . صار عليهم قَيِّماً ، ولهم خادماً ، وإن اطَّرحهم . . قلَّ رشادُهم ، وظهر فسادُهم ، وصاروا سبَباً لمَقته ، وطريقاً إلىٰ ذَمِّه[2] ، **ولـٰكنْ يكفُّهم عن سيِّءِ الأخلاق ، ويأخذُهم بأحسن الآداب** ؛ كما قال فيهم الشاعر[3] : [من الكامل]

سَهْـلُ الفِنـاءِ إذا مَـرَرْتَ ببـابِـهِ ... طَلْـقُ اليَـدَيـنِ مـؤدَّبُ الخُـدّامِ

وليكنْ في تفقُّد أحوالهم علىٰ ما يحفظ تجمُّلَه ، ويصونُ تبذُّلَه .

وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **ادَّهِنُوا . . يَذهَبِ البؤسُ عنكُمْ ، والبَسُوا . . تظهَرْ نِعمةُ اللهِ عليكُمْ ، وأحسِنُوا إلىٰ مَماليكِكُم ؛ فإنَّه أكبَتُ لعدوِّكُم** »[4] .

وليتوسَّطْ فيهم ما بين حالتي اللِّين والخُشونة ؛ فإنَّه إن لان . . هان عليهم ، وإن خشُنَ . . مقَتُوه ، وكان علىٰ خطَرٍ منهم .

حُكي : أنَّ المُوبَذَ سمع ضَحِكَ الخدَم في مجلس أنوشروان ، فقال له : (**أما تمنعُ هؤلاءِ الغلمانَ** ؟! فقال أنوشروان : **إنَّما يهابُنا أعداؤُنا**)[5] .

---

(١) رواه ابن شبّة في « تاريخ المدينة » (٢/ ٧٧٢) من قول سيدنا عمر رضي الله عنه ، وأورده في « البيان والتبيين » (٢/ ١٧٦) من قول سيدنا طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه .

(٢) لأن العبد إذا شبع . . فسق ، وإذا جاع . . سرق .

(٣) أورد البيت في « معجم الشعراء » (ص ٤٠٣) ، والتبريزي في « شرح ديوان الحماسة » (٢/ ٣٠٢) لمحمد بن بشير الخارجيّ ، وانظر « الحماسة البصرية » (٢/ ٧١٤) .

(٤) رواه الطبراني في « المعجم الأوسط » (٨٢٦٣) عن السيدة عائشة رضي الله عنها ، **وأكبت لعدوكم** : أشد قهراً وأكثر إذلالاً ؛ لأن في الرِّقِّية أثر الكفر ، فلهم ميل طبيعي إلى الأعداء ، والإحسان يحسمه .

(٥) أورده في « لباب الآداب » (ص ٣٨) ، و« محاضرات الأدباء » (١/ ٤٣٣) ، **والمُوبَذ** : فقيه الفرس وحاكم المجوس .

وقال أبو تمام الطائي[١] : [من الكامل]

حَشَمُ الصَّديقِ عُيُونُهُمْ بَحّاثةٌ لصديقِهِ عن صِدْقِهِ ونفاقِهِ
فلْيُنظَرَنَّ المرءُ مِنْ غِلْمانِهِ فهُمُ خلائفُهُ علىٰ أخلاقِهِ

واعلم : أنَّ للنفس حالتين : حالةَ استراحة ، إن حرمتها إياه . . كلَّتْ ، وحالةَ تصرُّفٍ ، إن أرحتَها فيه . . اختلَّتْ ، فالأَولىٰ بالإنسان تقديرُ حالتيه : حالةِ نومه ودَعَته ، وحالةِ تصرُّفه ويقظته ؛ فإنَّ لهما قدراً محدوداً ، وزماناً مخصوصاً ، يضرُّ بالنفس مجاوزةُ حدِّهما ، وتغيُّرُ زمانهما .

وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « نَوْمةُ الصُّبْحةِ : مَعجَزةٌ مَنفَخةٌ ، مَكسَلةٌ مَورَمةٌ ، مَفشَلةٌ مَنساةٌ للحاجةِ »[٢] .

وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : (النوم ثلاثة : نومةُ خُرْقٍ وهي الصُّبْحةُ ، ونومةُ خُلُقٍ وهي القائلةُ ، ونومةُ حُمْقٍ وهي العَشيُّ)[٣] .

بل قد روىٰ محمد بن يزداد ، عن ميمون بن مهران ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نومُ الضُّحىٰ خُرْقٌ ، والقَيلُولةُ خُلُقٌ ، ونومُ العَشِيِّ حُمْقٌ » .

وقيل في منثور الحكم : (مَن لزِمَ الرُّقاد . . عدِمَ المُراد)[٤] .

فإذا أعطى النفسَ حقَّها من النوم والدَّعَة ، واستوفىٰ حقَّه منها بالتصرُّف

---

(١) البيتان في « ديوانه » (٤/ ٤٧٩) .

(٢) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٢٠٤٧) من قول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، وأورده في « التذكرة الحمدونية » (٢/ ٢٤٥) بنحوه ، والصبحة : من طلوع الفجر إلى الزوال ، ومعجزة : سبب عجز عن القيام بمصالحه ، ومنفخة : سبب انتفاخ من الريح ، ومورمة : سبب لورم الجلد وذهاب بهاء الوجه ، ومفشلة : سبب كسل وضعف ، ومنساة للحاجة : سبب لنسيانها أو تأخرها .

(٣) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (١٢٤٢) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٧٢١٢) من قول سيدنا خَوّات بن جُبير رضي الله عنه .

(٤) أورده في « المستطرف » (١/ ٩١) .

واليقظة.. خلص بالاستراحة من عجزها وكَلالها ، وسلم بالرياضة من بَلادتها وفسادها .

حُكي : أنَّ عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز دخل علىٰ أبيه ، فوجده نائماً ، فقال له : (يا أبتِ ؛ أتنامُ والناسُ بالباب ؟! فقال : يا بنيَّ ؛ نفسي مَطيّتي ، وأكرهُ أن أُتعِبَها ، فتقومَ بي)[١] .

وينبغي أن يقسمَ حالَ تصرُّفه ويقظته على المهمِّ من حاجاته ؛ فإنَّ حاجة الإنسان لازمةٌ ، والزمانَ يقصُرُ عن استيعاب المهمِّ ، فكيف به إن تجاوز إلىٰ ما ليس بمهمٍّ ؟! هل يكون إلاّ : [من المتقارب]

كتاركةٍ بَيْضَها بالعَراءِ ... ومُلبِسةٍ بَيْضَ أُخرىٰ جَناحا[٢]

ثم عليه أن يتصفَّحَ في ليله ما صدر من أفعال نهاره ؛ فإنَّ الليلَ أحضرُ للخاطر ، وأجمعُ للفكر ؛ فإن كان محموداً.. أمضاه ، وأتبعه بما شاكله وضاهاه ، وإن كان مذموماً.. استدركه إن أمكن ، وانتهىٰ عن مثله في المستقبل ، فإنَّه إذا فعل ذلك.. وجد أفعاله لا تنفك من أربعة أحوال :

إمّا أن يكون قد أصاب فيها الغرضَ المقصود بها ، أو يكون قد أخطأ فيها فوضعها في غير مواضعها ، أو يكون قد قصر فيها فنقصت عن حدودها ، أو يكون قد زاد فيها حتّىٰ تجاوزت محدودَها[٣] .

وهٰذا التصفُّح إنما هو استظهارٌ بعد تقديم الفكر قبل الفعل ؛ ليعلمَ به[٤] مواقعَ الإصابة ، وينتهز به استدراكَ الخطأ[٥] .

---

(١) رواه الإمام أحمد في « الزهد » (١٧٠٠) ، وأورده في « بهجة المجالس » (١/١١٦) .

(٢) البيت لإبراهيم بن هرمة في « ديوانه » (ص ٨٧) .

(٣) فإن أمكن الاستئناف في هٰذه الصور الثلاثة.. استدرك فيها ؛ وإلا.. فينتهي عن مثلها في المستقبل .

(٤) هنا تنتهي النسخة (ب) .

(٥) يعلم به مواقع الإصابة من الفكر المتقدم ، وينتهز به استدراك الخطأ ، فيرجع عن قريب ؛ وذلك لأن الأفعال : إما أن تقع علىٰ وفق التصور بلا زيادة ولا نقصان ؛ وذلك الحذق التام والتجربة الكاملة ، أو يصيب في بعضٍ ويخطىء في بعض ، فثمرة الاستظهار تعديل ذلك والتمهر في الفكر المتقدم .

وقد قيل : (مَن كثُرَ اعتبارُه . . قلَّ عِثارُه)[1] .

وكما يتصفَّح أفعال نفسه . . فكذا يجب أن يتصفَّح أفعال غيره ، فربَّما كان استدراكُ الصوابِ معها أسهلَ ؛ لسلامة النفس من شُبَه الهوىٰ ، وخلوِّ الخاطر من حسن الظن ، فإن ظفر بصواب وجده من غيره ، أو أعجبه جميلٌ من فعله . . زيَّن نفسَه بالعمل به ؛ فإنَّ السعيدَ مَن تصفَّح أفعالَ غيره فاقتدىٰ بأحسنها ، وانتهىٰ عن سيِّئها .

وقد روىٰ زيد بن خالد الجُهَنيُّ رضي الله عنه ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « السَّعيدُ مَن وُعِظَ بغيرِهِ »[2] .

وقال الشاعر[3] : [من البسيط]

إنَّ السعيـدَ لـه مِـن غيـرِهِ عِظـةٌ ... وفـي التَّجـاربِ تحكيـمٌ ومُعتبَـرُ

وأنشدني بعض أهل العلم لطاهر بن الحسين[4] : [من المتقارب]

إذا أعجبَتْـكَ خِصـالُ امـرىءٍ ... فكُنْـهُ يكُـنْ منـكَ مـا يُعجِبُـكْ

فليسَ على المَجدِ والمَكرُماتِ ... إذا جِئتَهـا حـاجـبٌ يحجُبُـكْ

فأمّا ما يرومه من أعماله ، ويؤثر الإقدام عليه من مطالبه . . فيجب أن يقدِّم الفكرَ فيه قبل دخوله ؛ فإن كان الرجاءُ فيه أغلبَ من الإياس منه ، وحُمِدت العاقبةُ فيه . . سلكه من أسهل مطالبه ، وألطف جهاته ، وبقدر شرفه يكون الإقدام[5] .

وإن كان الإياسُ أغلبَ عليه من الرجاء مع شدة التغرير[6] ، ودناءة الأمر

---

(١) أورده في « لباب الآداب » (ص ٦٨) ، و« المستطرف » (١/ ٩١) .

(٢) رواه الشهاب في « مسنده » (٧٦) ، وعبد الرزاق في « مصنفه » (٢٠٠٧٦) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ؛ وتمامه : « والشقي مَنْ وُعظ به غيره » وهـٰذا مما لم يُسبق إليه صلى الله عليه وسلم .

(٣) البيت للحارث بن حِلِّزة في « ديوانه » (ص ٦٧) .

(٤) أورد البيتين في « ديوان المعاني » (١/ ١٠٧) ، و« المنتحل » (ص ١٠٥) دون نسبة ، وفي « بهجة المجالس » (١/ ٧٩٦) لداوود بن جهور .

(٥) فالأمور العظام تستلزم إقداماً بليغاً ، والملال بعد الشروع عجزٌ وجهالة ، ومن قرع باباً . . ولج ، والجد يفتح كل باب مغلق .

(٦) التغرير : تعريض النفس للهلكة .

المطلوب . . فليحذَرْ أن يكون له متعرِّضاً ؛ فقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا هممْتَ بأمرٍ . . ففكِّرْ في عاقبتِهِ ؛ فإنْ كان رُشْداً . . فأمضِهِ ، وإنْ كان غَيّاً . . فانتهِ عنه »[1] .

وقالت الحكماء : (طلبُ ما لا يُدرَكُ عجزٌ) .

وقال بعض الشعراء[2] : [من الطويل]

فإيّاكَ والأمرَ الذي إنْ توسَّعَتْ ... مَـوارِدُهُ ضـاقَـتْ عليـكَ المَصـادِرُ
فمـا حَسَـنٌ أن يعـذرَ المـرءُ نفسَـهُ ... وليس له مِن سائرِ الناسِ عاذِرُ

وليعلَمْ أنَّ لكل حين من أيام عمره خُلُقاً ، وفي كل وقت من أوقات دهره عملاً ؛ فإن تخلَّق في كِبَره بأخلاق الصِّغَر ، وتعاطىٰ أفعالَ الفكاهة والبَطَر . . استصغره مَن هو أصغرُ ، وحقَره مَن هو أقلُّ وأحقرُ ، وكان كالمثل المضروب بقول الشاعر[3] : [من المنسرح]

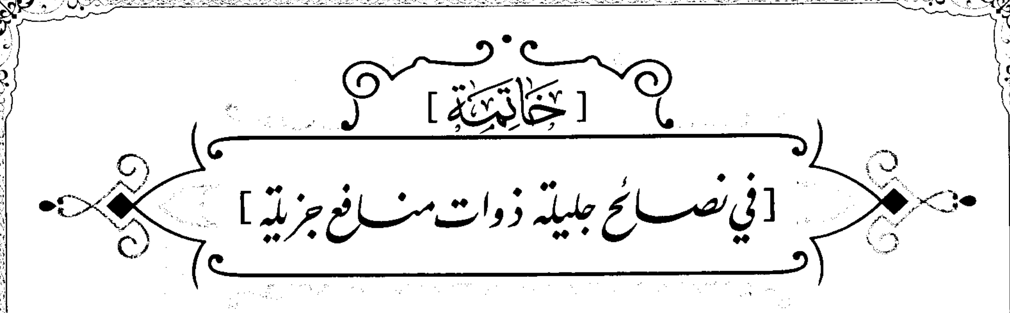
وكـــلُّ بـــازٍ يمَسُّـــهُ هَـــرَمٌ ... تَخـرا علـىٰ رأسِـهِ العَصـافِيـرُ

---

(١) رواه هنّاد في « الزهد » (٥٣١) ، وأبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (١/٣٥٩) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٢) البيتان لمضرِّس بن رِبْعيّ الأسديّ في « ديوان بني أسد » (٢/٢٦٨) .

(٣) أورده في « يتيمة الدهر » (٣/١٧) لابن سكّرة الهاشميّ .



[خاتمة]

[في نصائح جليلة ذوات منافع جزيلة]

فكنْ أيُّها العاقلُ مقبلاً علىٰ شأنك ، راضياً عن زمانك ، سِلْماً لأهل دهرك ، جارياً علىٰ عادة عصرك ، منقاداً لمَن قدَّمه الناس عليك ، متحنِّناً علىٰ مَن قدَّمكَ الناس عليه ، ولا تُبايِنْهم بالعزلة عنهم فيمقتوك ، ولا تُجاهِرْهم بالمخالفة لهم فيعادُوك ، فلا عيشَ لممقوت ، ولا راحةَ لمُعادىً .

وأنشد بعض أهل الأدب : [من المتقارب]

إذا أجمعَ الناسُ في واحدٍ وخالفَهم في الرِّضا واحِدُ
فقد دَلَّ إجماعُهم دونَهُ علىٰ عَقْلِهِ أنَّه فاسِدُ

واجعل نُصحَ نفسك غنيمةَ عقلِك ، ولا تُداهِنْها بإخفاء عَيبك ، وإظهار عُذرِك ، فيصيرَ عدوُّك أحظىٰ بك في زجر نفسه بإنكارك ومجاهرتك من نفسك التي هي أخصُّ بك ؛ لإغرائك لها بأعذارك ومساترتك ، فحسبُك سوءاً برجلٍ ينفع عدوَّه ، ويضرُّ نفسَه .

وقد قال بعض الحكماء : (أصلحْ نفسَك لنفسك . . يكُنِ الناسُ تبعاً لك)[1] .

وقال بعض البلغاء : (مَن أصلحَ نفسَه . . أرغمَ أنفَ أعاديه ، ومَن أعملَ جِدَّه . . بلغ كُنْهَ أمانيه)[2] .

وقال بعض الأدباء : (مَن عرف مَعابَه . . فلا يلُمْ مَن عابَه) .

---

(١) أورده في « سراج الملوك » (٢/ ٤٧٢) من قول الخليل بن أحمد رحمه الله تعالىٰ .

(٢) أورده في « سراج الملوك » (٢/ ٤٧٢) ، وأرغم أنف أعاديه : أذلَّهم بتقدمه وسده باب ذكر مساويه ، وكنه أمانيه : غاية ما يتمناه .

وأنشدني أبو ثابت النحويُّ لبعض الشعراء[1] : [من الطويل]

ومصروفةٍ عَيناهُ عن عَيبِ نفسِهِ ولو بانَ عيبٌ مِن أخيهِ لأبصَرا

ولو كان ذا الإنسانُ يُنصِفُ نفسَهُ لأمسَكَ عن عيبِ الصَّديقِ وقصَّرا

فهذِّبْ أيُّها الإنسانُ نفسَك بإنكار عيوبك ، وانفعها كنفعك لعدوِّك ؛ فإنَّ مَن لم يكن له من نفسه واعظٌ . . لم تنفعْه المواعظُ[2] .

أعاننا الله وإياك على القول بالعمل ، وعلى النُّصح بالقبول ، وهو حسبُنا ونعمَ الوكيلُ ، ولا حولَ ولا قوّةَ إلا بالله العليّ العظيم .

تمّ الكتاب بحمد الله ومنّه

وصلّى الله على سيّدنا محمّدٍ النّبيّ الأمي وآله وسلّم

فُرِغ منه مقابلةً في سنة ثلاثٍ وخمس مئة

فرحم الله امرأً نظر فيه فترحّم على من صحّحه

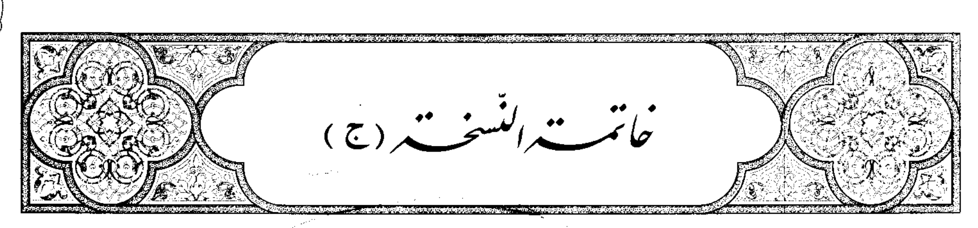
والسّلام

---

(١) ومصروفةٍ : الواو واو (رُبَّ) ومصروفة : بالجر لفظاً وهي مبتدأ ، والخبر محذوف تقديره : (لقيته) وتنكير (عيب) للتحقير ؛ كما أن تعريف الأول بالإضافة للتعظيم .

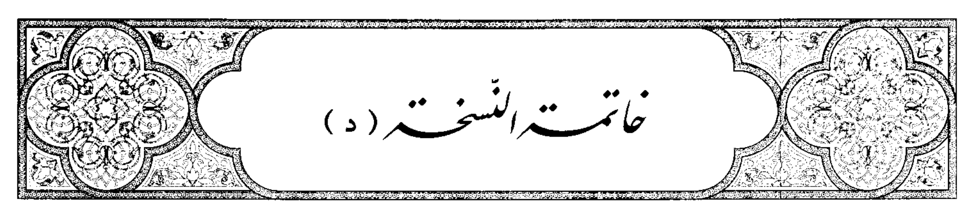
(٢) وقالوا : (إن أبواب الحصون لا تفتح إلا من بطونها) ، وقال أبو نواس : (من السريع)

لا ترجع الأنفس عن غيها ما لم يكن منها لها زاجرُ

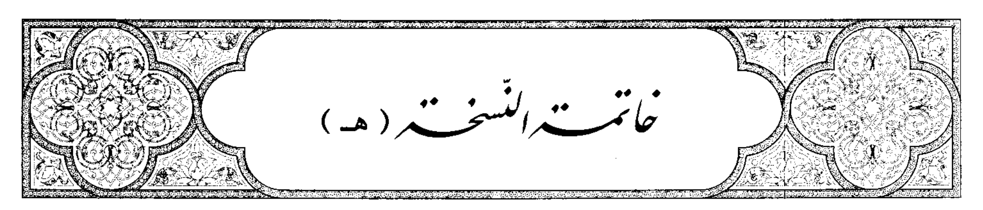


فرغ من هٰذا الكتاب المسمىٰ « أدب الدين والدنيا » في يوم السبت المبارك ، عاشر شهر رمضان المعظَّم قدره ، الذي من شهور عام أحد وثمان مئة ، أحسن الله عاقبتها بخير ، آمين !!

وصلى الله علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله ربِّ العالمين .



تم الكتاب بعون الملك الكريم الوهاب ، بعد عصر يوم الخميس ، منتصف شهر الله الحرام رجب ، إحدىٰ شهور سنة مئة وألف من بعد الهجرة النبوية ، علىٰ مهاجرها أفضل الصلاة وأزكى السلام ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم .



وهٰذا آخر ما تيسَّر إيراده في هٰذا التأليف ، والحمد لله على الكمال والتمام ، والصلاة والسلام علىٰ أفضل الرسل الكرام ، محمد سيد الأنام ، وعلىٰ آله وأصحابه الذين شيَّدوا لنا أركان الدين وقواعد الإسلام .

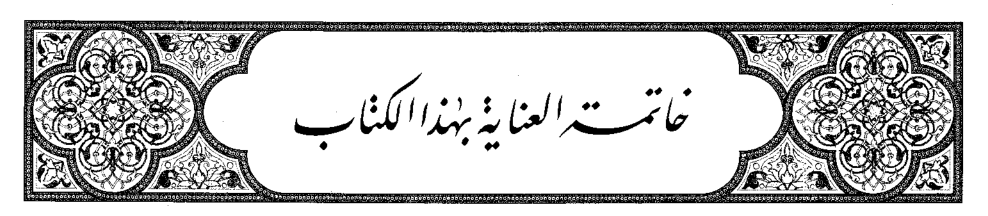
وقد تم بفضله تعالىٰ نقل هٰذا الشرح من السواد إلى البياض في دار الخلافة العلية ، صانها الله تعالىٰ عن الآفات والبلية ، علىٰ يد مؤلفه : أويس وفا بن محمد الأرزنجاني الحنفي ، يوم الأحد : الحادي والعشرين من رجب ، لسنة سبع وعشرين وثلاث مئة وألف ، من هجرة مَنْ له العزة والشرف .

اللهم ؛ اجعله لنا ذخراً نافعاً ، وخيراً باقياً ، بحرمة الأنبياء والمرسلين ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، آمين .

يقول مؤلفه : قد طُبع هٰذا الكتاب في المرة الأولىٰ في زمن السلطان الأعظم : **محمد رشاد خان المعظم** ، لا زالت لواؤه منشورة ، وبلاده معمورة ، وعساكره منصورة ، وأعداؤه مقهورة ؛ ما سجد ساجد ، ووفد وافد .

وقد قابلت المتن بنسخٍ خمسٍ من مطبوع وغير مطبوع سوىٰ ما صححتُ من الأصول والمآخذ من كتب التفاسير والأحاديث والأخلاق والدواوين .

وقد تم طبعه يوم الأحد ، التاسع من ذي الحجة ، لسنة ثمان وعشرين وثلاث مئة وألف .



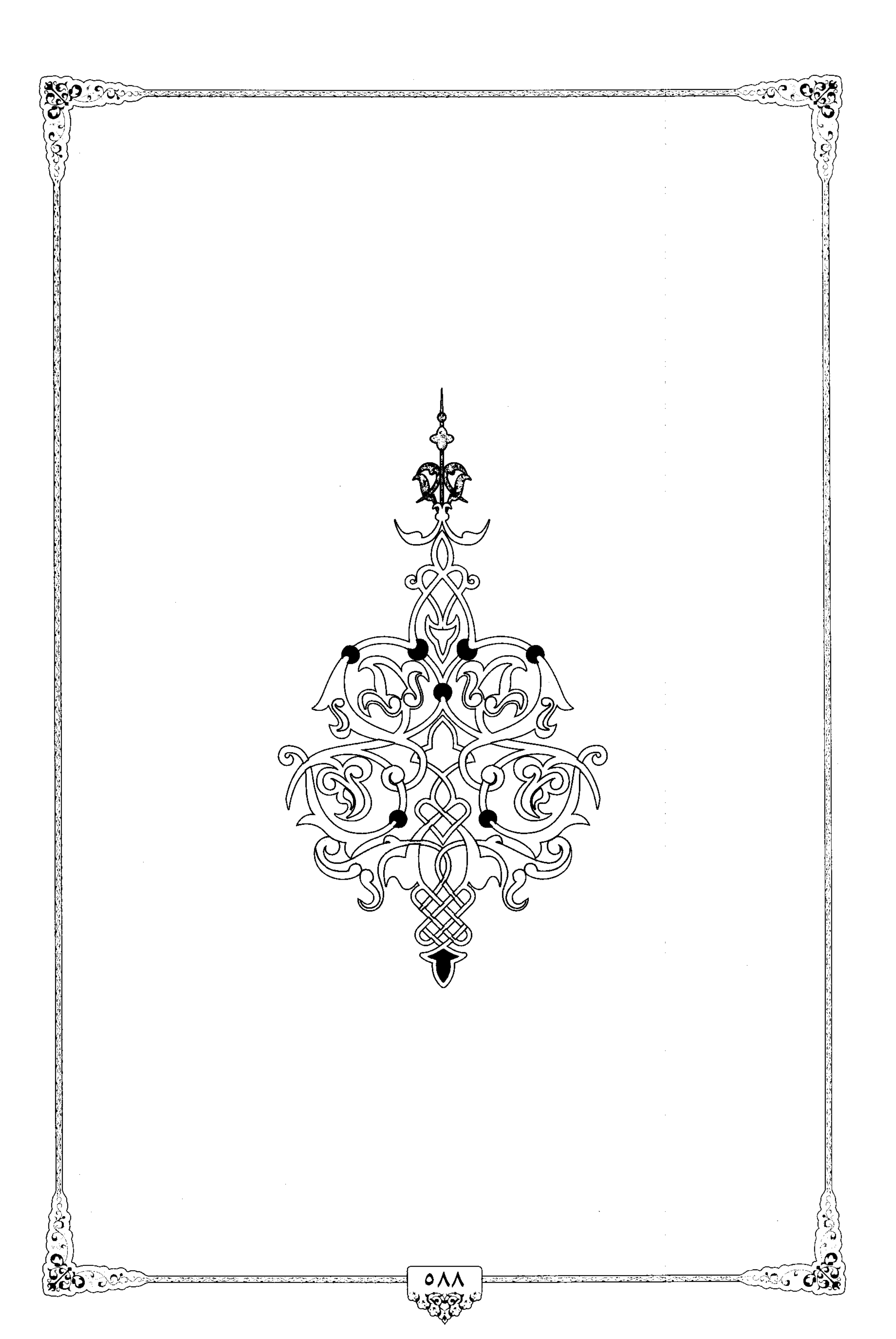
خاتمة العناية بهذا الكتاب

تم بفضل الله تعالىٰ وعونه وتوفيقه الفراغ من خدمة هٰذا الكتاب الفريد ، وتصحيحه ومراجعته **بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي** يوم الأربعاء ، العشرين من شهر شوال ، **سنة ثلاث وثلاثين وأربع مئة وألف** من هجرة سيد المرسلين ، وحبيب رب العالمين ، صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم .

الموافق للخامس من شهر سبتمبر (أيلول) ، **سنة اثنتي عشرة وألفين** للميلاد بدمشق الشام ، **صانها الله وحماها من غدر الغادرين علىٰ مرِّ الأيام** ، وكذا سائر بلاد الإسلام ، بحق ذي الجلال والإكرام .

والحمد لله رب العالمين

وصلى الله على سيدنا محمدٍ وآله وصحبه وسلم





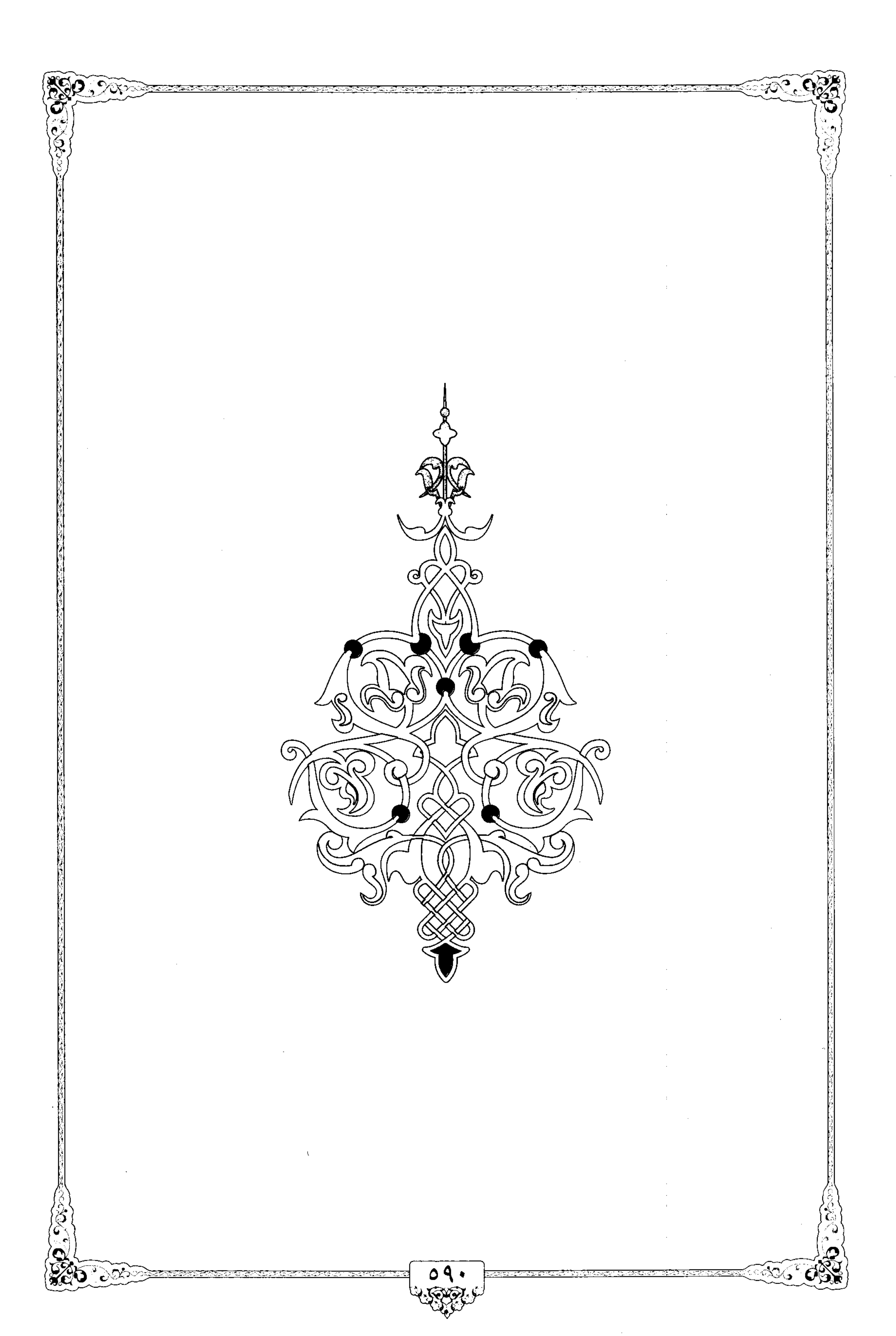


نفائس مستجادات

مِمَّا أُلحِقَ وكُتِبَ في المخطوطات (*)

(*) ارتأى القائمون على المركز العلمي لدار المنهاج : أن يزاد هـٰذا الفصل الجديد لكون بعض المخطوطات تحتوي علىٰ فوائد ونفائس وضنائن مكتوبة في طرة المخطوطة وخاتمتها ، وهي من الأهمية بمكان .

ولذا فقد اعتمدنا : أن يكتب ما وجد من ذلك في هـٰذا الموضع ، لعموم النفع والانتفاع بذلك ، والله الموفق .



[زهد قومه به]

مَن عاش في قومه أبدَوا سآمتَهُ — وعـافَـهُ منهُـمُ أهـلٌ وجيـرانُ
يحنُـو وِداداً وتبـدو منهُـمُ إحَـنٌ — وليس يألُوهُمُ نُصْحاً وإن خانُوا
يهـوىٰ لإيثارهـم مَـوتـاً يعـاجِلُـهُ — والمُـرتجـىٰ بعـدَه عفـوٌ وغُفـرانُ
إنْ بـانَ مِـن بينهـم سُـرُّوا بغيبتِـهِ — وليـس يَهنَـؤُهُ عيـشٌ إذا بـانُـوا

دَعْهـا سمـاويّـةً تمشـي علىٰ قَـدَرٍ — لا تفسـدَنْهـا بـرأي منـكَ مُنتقِـدِ

لا تغتــرِرْ بـالحفـظِ والسـلامـةِ — فـإنَّمـا الحيـاةُ كـالمُـدامـةِ
فـي دنِّهـا فيهـا صفـاءٌ وقـذىٰ — وهكـذا فـي الـدهـرِ نفـعٌ وأذىٰ

[أبكي على المتزوج]

تزوَّجتُ لم أَعلَمْ وأخطأتُ لم أُصِبْ — فيـا ليتني قـد مِـتُّ قبـلَ التـزوُّجِ
فواللهِ ما أبكي علىٰ ساكنِ الثرىٰ — ولٰكنَّنـي أبكـي علـى المتـزوِّجِ

[التواضع]

تواضعْ تَكُنْ كالنجمِ يبدُو لناظرٍ — علىٰ صَفَحـاتِ المـاءِ وَهْـوَ رفيـعُ
ولا تَـكُ كـالـدخّـانِ يعلُـو بنفسِـهِ — إلـىٰ طبقـاتِ الجـوِّ وَهْـوَ وضيـعُ

[وصف المحبوب]

سَلُوا فاترَ الأجفانِ عن كَبدي الحَرّىٰ — وعن دَرِّ أجفاني سَلُوا العِقْدَ والنَّحْرا

حبيبٌ إذا ما رُمْتُ عنهُ تصبُّراً ... يقولُ الهوىٰ لن تستطيعَ مَعِي صَبْرا
مِنَ السُّمر بالألحاظِ إنْ صالَ وانثنىٰ ... فلا تذكُرُوا مِن بعدهِ البِيضَ والسُّمرا
بخيلٌ غدا بالوَصْل ما جاءَ سائلٌ ... لـه الـدمـعَ إلا ردَّ سـائلَـه نَهْـرا
يُـذكِّـرُنـي عهـدَ النَّجـاشـيِّ خـالُـهُ ... وأجفانُهُ الوَسْنىٰ تُذكِّرُني كِسرىٰ

[وضع الأمور في نصابها]

العُمْـرُ مـا حصَّلـتَ فيـه فضيلـةً ... أو لا فعيشُـكَ فـي الحيـاةِ فَنـاءُ
والعِلـمُ مـا تعمـلْ بـهِ وتقُـلْ بـهِ ... أو لا فـدَرْسُـكَ للعلـومِ عَنـاءُ
والمـالُ مـا أنفقتَـهُ وبـذلتَـهُ ... أو لا ففقـرُكَ والغِنـاءُ سَـواءُ
والزهدُ تركُكَ للدُّنىٰ عن قدرةٍ ... أو لا فـإنَّ الـزهـدَ منـكَ عَيـاءُ

[مناجاة]

يـا مَـن إليـهِ يـدُ الآمـالِ بـاسطـةٌ ... ومَـن لـديـهِ عَميـمُ الجُـودِ مبذُولُ
يا واحداً تاهَتِ الألبابُ وانحسَرَتْ ... عن وصفِهِ فجوادُ العَقْلِ معقُولُ
يا ربِّ عفوَكَ قد حطَّتْ ركائبُنا ... والعفـوُ عنـدكَ مـرجـوٌّ ومـأمـولُ
وكـلُّ ضيـفٍ لـه حـقٌّ وجـائـزةٌ ... فكيف ضيفُ كريمٍ وَهْوَ مسؤولُ

[يا نفس البدار البدار]

ويحـكِ يـا نفـسُ البِـدارَ البِـدارْ ... مـا هـٰـذهِ الـدنيـا لحـيٍّ بـدارْ
كـم كـدَّرتْ صَفْـواً وكـم ألبَسَـتْ ... مَـن كـان فيهـا ثـوبَ ذُلٍّ وعـارْ
أيطمئـنُّ المـرءُ فـي منـزلٍ ... يـرىٰ كُـؤوسَ المـوتِ فيـه تُـدارْ
قـد بَعُـدَ الـرَّبـعُ وقـلَّ البِنـا ... إلـىٰ متـىٰ يـا نفـسُ ذا الاعتـذارْ
مـا بعـدَ مـوتِ المصطفـىٰ خـالـدٌ ... وليـس فـي الـدنيـا لحـيٍّ قـرارْ

[تمني لمِّ الشمل]

عسى اللهُ يُدني نازحَ الدارِ بينَنا فنُمسي وقد قرَّتْ بذاكَ عُيونُ
وليس عزيزٌ ما طلبتُ على الذي مقالتُهُ للشيءِ كُنْ فيكونُ

[الوصل عذب والهجر صعب]

علَّمُوني الوِصالَ والوصلُ عذبٌ ورَمَوني بالهَجْرِ والهَجْرُ صعبُ
زَعَمُوا حينَ عُوتِبوا أنَّ ذنبي فَرْطُ حُبِّي لهم وما ذاكَ ذَنْبُ
فوَحَقِّ الخُضوعِ عندَ التَّداني ما جزا مَن يحبُّ إلاّ يحبُّ

[وعود مَنْ لا يفي]

دَعْ ذِكْرَهنَّ فما لهنَّ وَفاءُ رِيحُ الصَّبا وعُهُودُهُنَّ سواءُ
يكسِرْنَ قلبكَ ثمَّ لا يجبُرْنَهُ وقلوبُهنَّ عنِ الدواءِ خلاءُ

[الدهر غيبة وحضور]

حضَرْنا ثمَّ غِبْنا ثم يحضرُ بعدَنا أناسٌ كذا الدهرُ غَيبة وحضورُ
فاذكُرُونا يا حاضرينَ بخيرٍ واعلموا بأنَّ النائباتِ تدورُ[(١)]

[من آداب المجالس]

إذا غابَ الفتىٰ مِن عند قومٍ وغابَ وعادَ في ذاك المَقامِ
فليس له عليهِمْ مِن قيامٍ وليس لهم عليه مِن سَلامِ

---

(١) كذا في المخطوط ، ويلاحظ أن في البيتين خللاً عروضياً ، وفي «منتخب من معجم شيوخ ابن السمعاني» (٢/ ٨٦٣) : أنشد عن أبي محمد التكريتي قوله :

قد حضرنا هٰذا المكان وغبنا وكذا الدهر غيبة وحضور
فاذكرونا يا حاضرين بخير واعلموا أن الليالي تدور

[زيارة طيف الخيال]

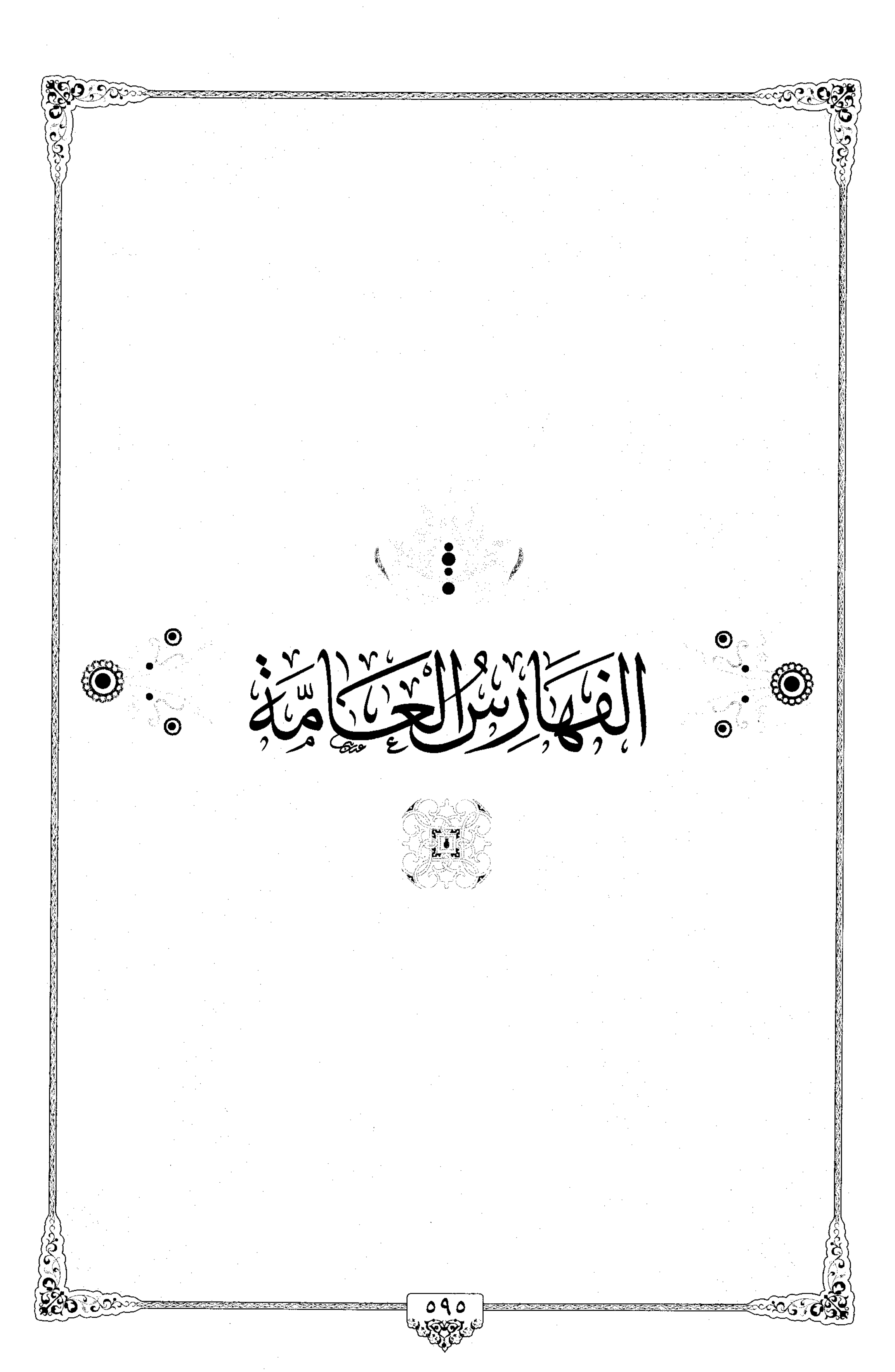
قالت لطيفِ خَيالٍ زارَها ومضىٰ   بـالله صِفْـهُ ولا تنقُـصْ ولا تَـزِدِ
فقـال خلَّفتُـهُ لـو مـات مِـن ظمـأٍ   وتمنَعِيـهِ زُلالَ المـاءِ لـم يَـرِدِ
قالتْ صدقْتَ وفاءُ العهدِ شِيمتُهُ   يا بَرْدَ ذاكَ الذي قالت علىٰ كَبِدي

[جنابكم حرمٌ]

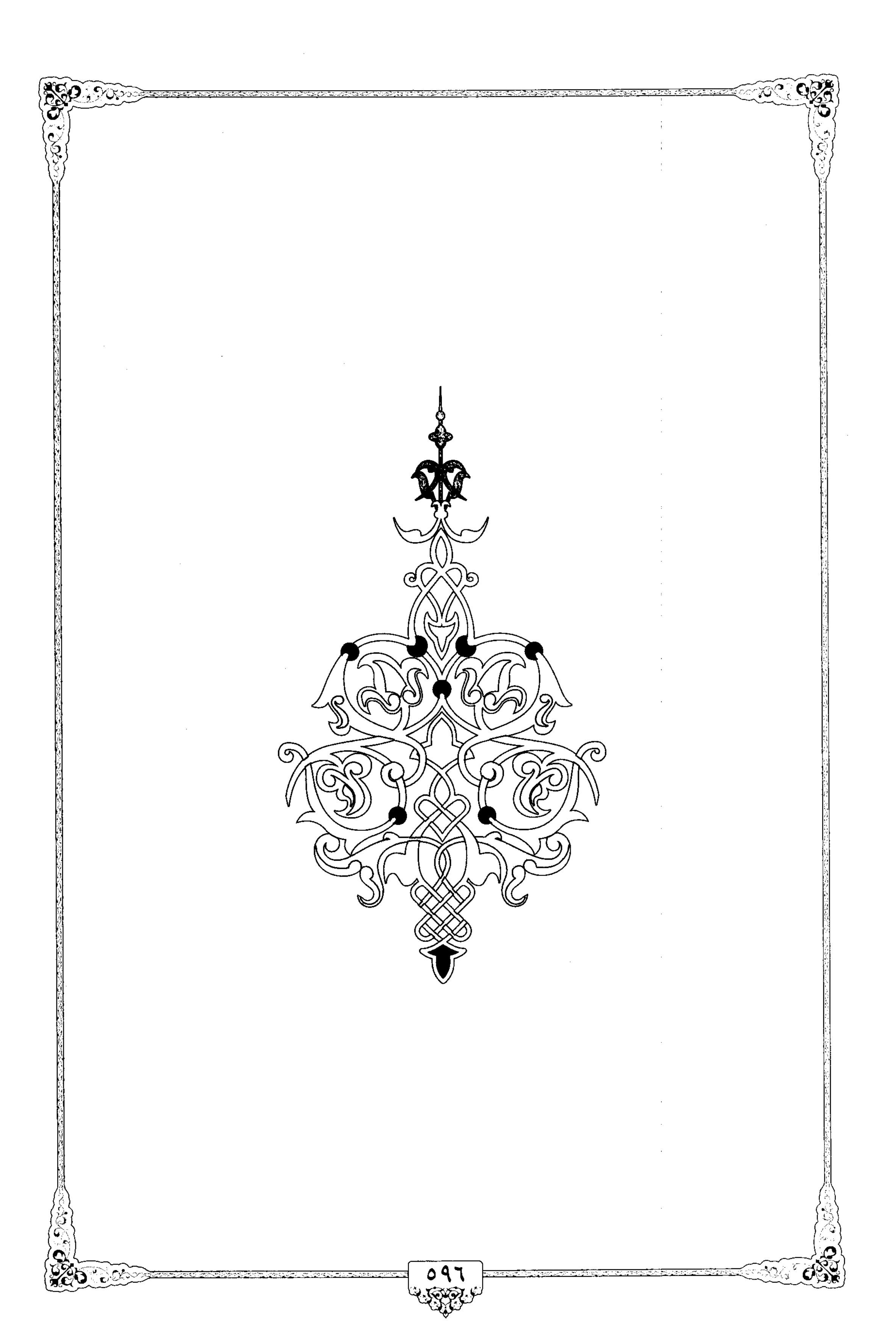
جـاءتْ سليمـانَ الـزمـانِ حَمـامـةٌ   والموتُ يخفِقُ في جناحَي طائرِ
مَـن عـرَّف الـورقـاءَ أنَّ جنـابَكُـمْ   حَـرَمٌ وأنَّـكَ مَلجـأٌ للحـائـرِ

[صفقة تبت يدا شاريها]

الدَّهرُ ساوَمَني عُمري فقلتُ له   لا بعتُ عمريَ بالدنيا وما فيها
ثـمَّ اشتـراه تَفـاريقـاً بـلا ثَمَـنٍ   تبَّتْ يدا صفقةٍ قد خاب شاريها



الفهارس العامة

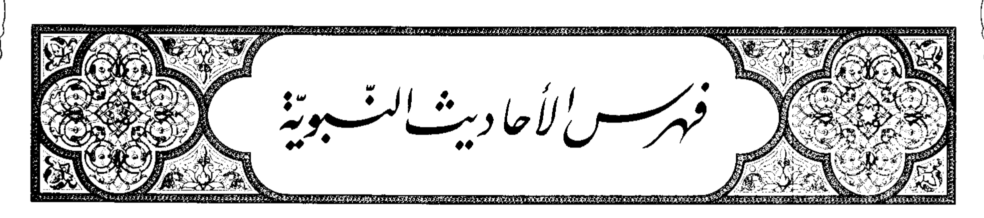


فهرس الآيات القرآنية

اسم السورة والآية	رقم الآية	الصفحة
سورة الأنبياء		
﴿ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴾	٨	٣٣٥
سورة الحج		
﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ﴾	٤٦	٤٤
﴿ يَعْقِلُونَ بِهَآ ﴾	٤٦	٤٥
﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾	٧٨	١٤٨
سورة المؤمنون		
﴿ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴾	٩٩	٢٠٤
﴿ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾	١٠٠	٢٠٤
﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾	٧١	٣٣٦
سورة النور		
﴿ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾	٣٣	٣٥٠
سورة الفرقان		
﴿ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴾	٧٢	٤٥٧
سورة العنكبوت		
﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ﴾	٨	٢٤٤
﴿ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾	٤٣	٧١
سورة الروم		
﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾	٧	٣٣٦
﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا ... ﴾	٢١	٢٤٩
سورة لقمان		
﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾	١٧	٤٦٧

اسم السورة والآية	رقم الآية	الصفحة
سورة فاطر		
﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾	٢٨	١٣٠
﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾	٤٣	٥٢٥
سورة يس		
﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾	٧٠	٤٢
سورة ص		
﴿ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى ﴾	٣٢	٣٤٩
﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾	٣٩	١٨٩
سورة الزمر		
﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾	٩	٧١
﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾	١٠	٤٦٣
سورة فصلت		
﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾	١٠	٣٣٦
﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾	٣٤	٤٣١
سورة الشورى		
﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾	٤٠	٤١٥
سورة الجاثية		
﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾	٢٣	٥٩
سورة الأحقاف		
﴿ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾	٤	١٠٦
سورة الحجرات		
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾	٤	٢٧٦
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ ... ﴾	١١	٤٢٧

اسم السورة والآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ﴾	١٢	٤٢٦
سورة النجم		
﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴾	٤٨	٣٣٧
سورة الواقعة		
﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴾	٣٥	٥٠٤
﴿ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴾	٣٦	٥٠٤
﴿ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾	٣٧	٥٠٤
﴿ لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾	٣٨	٥٠٤
سورة الحديد		
﴿ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ... ﴾	١٤	٥٩
﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾	٢٣	٤٧٨
سورة المجادلة		
﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾	١١	١٤٨
﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ... ﴾	٢٢	٢٤٠
سورة الحشر		
﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾	٩	٢٩٥
سورة الجمعة		
﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾	٥	١٣٢
سورة الملك		
﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾	١٠	٤١
سورة القلم		
﴿ نٓ ۚ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾	١	١٠٨



فهرس الأحاديث النبوية

طرف الحديث	اسم الراوي	الصفحة
كيَّة ثم مات الآخر	أبو أمامة	٣٥٦
حرف اللام		
لا تزال أمتي بخير ما لم تر الأمانة مغنماً والصدقة مغرماً	علي بن أبي طالب	٥٢٨
لا تزال هذه الأمة تحت يد الله تعالى وفي كنفه ما لم يمال قراؤها	الحسن البصري	١٤٢
لا تزول قدما ابن آدم من بين يدي الله تعالى حتى يسأل	-	١٨٥
لا تسبوها فإنها عمرت بلاد الله تعالى	أبو هريرة	٢١٩
لا تصلوا على النبي	-	٤٥٨
لا تعلموا العلم لتماروا به السفهاء ، ولا تعلموا العلم	جابر بن عبد الله	٨٨
لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخواناً	أنس بن مالك	٢٣٩
لا تكونوا عيابين ، ولا تكونوا لعانين	مكحول	٣٨٣
لا تمنعوا العلم أهله ، فإن في ذلك فساد دينكم والتباس	-	١٣٦
لا تمنعوا العلم أهله فتظلموا ، ولا تضعوه في غير أهله فتأثموا	-	١٣٨
لا تنفع الصنيعة إلا عند ذي حسب ودين	عائشة	٣٢٩
لا عدوى ولا هامة ولا طيرة ولا صفر	أبو هريرة	٥٠٩
لا يجادل إلا منافق أو مرتاب	-	٨٨
لا يشكر الله من لا يشكر الناس	أبو هريرة	٣٣٤
لا يعجبك رجل اكتسب مالاً من غير حله ، فإن أنفقه لم يقبل	عبد الله بن عباس	٥٣٣
لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقاً رضي خلقاً	أبو هريرة	٢٥٤
لا يمنعنكم من معروف صغيره	-	٣٢٩
لا ينبغي لذي الوجهين أن يكون وجيهاً عند الله	أبو هريرة	٣٨٨
لسان العاقل من وراء قلبه ، فإذا أراد الكلام رجع إلى قلبه	الحسن البصري	٤٤٥
لعن الله الشحيح ولعن الظالم	أبو الدرداء	٢٩٧
لقحوا عقولكم بالمذاكرة ، واستعينوا على أموركم بالمشاورة	-	٤٨٩

فهرس الآثار والأقوال والأخبار

طرف الأثر أو القول أو الخبر	صاحبه أو راويه	الصفحة
أفضل الجهاد جهاد الهوى	الحسن البصري	٦٢
أفضل الذخائر أخ وفي	-	٢٦١
أفضل الزهد إخفاء الزهد	عبد الله بن المبارك	١٧٣
أفضل العدة الصبر على الشدة	عبد الله بن عباس	٤٦٢
أفضل الناس من عصى هواه وأفضل منه من رفض دنياه	-	٦٠
أفضل الناس من لم تفسد الشهوة دينه ولم تزل الشبهة يقينه	-	١٦١
اقبل نصح الشيب وإن عجل	ابن المعتز	٢٠١
اقتصد في مزاحك فإن الإفراط فيه يذهب البهاء ويجرئ عليك السفهاء	سعيد بن العاص	٥٠٣
اقدعوا هذه النفوس عن شهواتها فإنها طلاعة تنزع إلى شر غاية	عمر بن الخطاب	٥٩
أقرب الأشياء صرعة الظلوم وأنفذ السهام دعوة المظلوم	-	٢٢٧
أقرب ما يكون العبد من غضب الله تعالى إذا غضب	أبو الدرداء	٤١١
أقل ما يجب للمنعم بحق نعمته ألا يتوصل بها إلى معصيته	المهدي	٥٦٤
أقلل طعامك تجد الصحة	-	٥٧٠
أقلل طعامك تحمد مناماً	-	٥٧٠
أقيموه في الشمس واضربوا ظله الحد	علي بن أبي طالب	٥٠٤
أكبر الدواء تقدير الغذاء	-	٥٧٠
أكرم الشيم أرعاها للذمم	-	٤٠٧
أكرموا سفهاءكم فإنهم يكفونكم العار والشنار	عمرو بن العاص	٤١٠
أكمل الراحة ما كانت عن كد التعب وأعز العلم ما كان عن ذل الطلب	-	١٠٣
ألا أخبركم بأدوأ الداء ؟ قالوا : بلى قال : الخلق الدني واللسان البذي	الأحنف بن قيس	٣٨٦
ألا تتزوج ؟ فقال : إنما نحب التكثر في دار البقاء	عيسى ابن مريم	١٨٦
ألا توصي ؟ قال : بماذا أوصي ؟ والله ما لنا شيء وما لنا عند أحد شيء	-	١٨٦
أما البيت فحسن وأما الساكن فرديء	-	٢٦٩

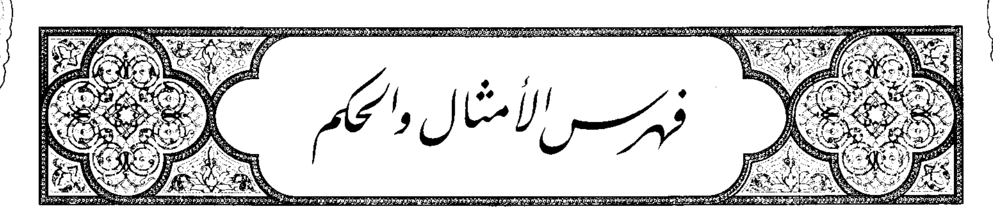
طرف الأثر أو القول أو الخبر	صاحبه أو راويه	الصفحة
إن الحجاج قال لأعرابي أخطيب أنا ؟ قال : نعم لولا أنك تكثر الرد	ابن القرية	٤٥٧
أن الخضر قال لموسى عليهما السلام : يا موسى ؛ اعزف عن الدنيا وانبذها وراءك	الخضر	١٧٩
إن الخط الحسن ليزيد الحق وضوحاً	-	١١٢
إن الدنيا ربما أقبلت على الجاهل بالاتفاق وأدبرت	-	٥٧
إن الدنيا غرت أقواماً فعملوا فيها بغير الحق ففاجأهم الموت	أبو حازم	٢٠٢
إن الدنيا لا تصفو لشارب ولا تفي لصاحب	-	١٧٨
إن الرجل إذا أكره المرأة وهي مذعورة ثم أذكرت أنجبت	-	٢٥٩
إن الرجل ليدخل على السلطان ومعه دينه فيخرج وما معه دينه	عبد الله بن مسعود	٤٥٥
أن الرشيد حبس رجلاً ثم سأل عنه بعد زمان فقال للموكل به : قل له كل يوم	-	٤٧١
أن الرشيد سأله عن أنساب بعض العرب فقال على الخبير سقطت يا أمير المؤمنين	الأصمعي	٤٦٠
إن العاقل من عقله في إرشاد ومن رأيه في إمداد فقوله سديد	-	٥٣
إن العدل ميزان الله تعالى الذي وضعه للخلق ونصبه للحق فلا تخالفه في ميزانه	-	٢٢٦
أن القشيري وقف عليه شيخ من الأعراب فقال يا أعرابي ممن أنت ؟	الزبير بن بكار	٥٠٦
إن الله تعالى إذا أحب عبداً حببه إلى خلقه فاعرف منزلتك من الله	عمر بن الخطاب	٢٢٤
أن الله تعالى أوحى إلى عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام : عظ نفسك	مالك بن دينار	٦٦
أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه الصلاة والسلام إن في بلدك ساعياً	-	٤٣٠
إن الله تعالى رضي الآباء للأبناء فحذرهم فتنتهم ولم يوصهم بهم	محمد بن علي	٢٤٣
إن الله تعالى سمى عيسى عليه السلام سيداً لحلمه	قتادة وسعيد بن جبير	٤٠٤
إن الله تعالى لا يرضى عن خلقه إلا بتأدية حقه وحقه شكر النعمة ونصح الأمة	-	٢٢٨
إن الله جعل مكارم الأخلاق ومحاسنها وصلاً بينه وبينكم	علي بن أبي طالب	٣٦٧
إن الله عز وجل قد أعطاك ما تحب من الظفر فأعط الله ما يحب من العفو	رجاء بن حيوة	٤١٥
﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ أن العدل استواء السريرة والعلانية في العمل لله تعالى	سفيان بن عيينة	١٧١
إن الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما	عمر بن عبد العزيز	٢٠٠

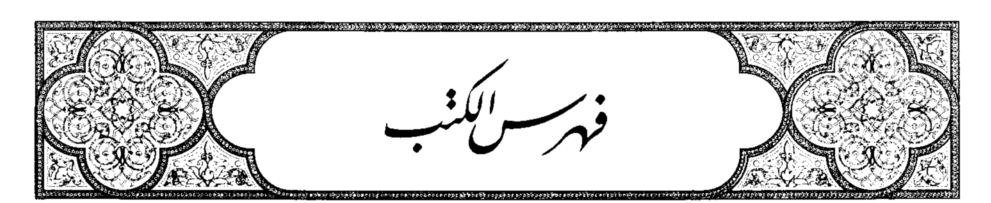
طرف الأثر أو القول أو الخبر	صاحبه أو راويه	الصفحة
أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مر بصبيان يلعبون وفيهم عبد الله بن الزبير	عمر بن الخطاب	٤٧
أن عمرو بن عبيد اشترى للحسن البصري إزاراً بستة دراهم ونصف	ابن أبي عون	٥٦٢
إن عوفينا من شر ما أعطينا لم يضرنا فقد ما زوي عنا	أبو حازم	١٨٩
أن غلاماً هاشمياً عربد على قوم فأراد عمه أن يسيء به	ابن أبي عون	٥٥١
إن في المعاريض ما يكفي أن يعف الرجل عن الكذب	عمر بن الخطاب	٤٢٥
أن قوماً أرادوا سفراً فحادوا عن الطريق	-	١٧٤
إن كان شيء فوق الحياة فالصحة	بزرجمهر	٣٤٥
إن كلمة منك تسفك دماً وإن أخرى منك تحقن دماً	أبرويز	٤١٤
إن كنت تجزع على ما فات من يدك ؛ فاجزع على ما لم يصل إليك	علي بن أبي طالب	٤٦٥
إن كنت كما قلت ، فغفر الله لي وإن لم أكن كما قلت ؛ فغفر الله لك	الشعبي	٤٠٣
إن للباقي بالماضي معتبراً وللآخر بالأول مزدجراً والسعيد لا يركن إلى الخدع	-	١٩٣
إنا لله فيما مضى ما أعظم فيه الخطر !! وإنا لله فيما بقي ما أقل منه الحذر !!	ابن السماك	١٦٤
إن لهذه القلوب تنافراً كتنافر الوحش فتألفوها بالاقتصاد في التعليم	-	١٠٦
أن مطرف بن عبد الله بن الشخير نظر إلى المهلب بن أبي صفرة وعليه حلة يسحبها	-	٣٧٦
أن معاوية سأل عمر عن المروءة فقال : تقوى الله وصلة الرحم	عمر بن الخطاب	٥٢٠
إن من الشريعة أن تجل أهل الشريعة	-	٧٨
إن من تكلم فأحسن قدر أن يسكت فيحسن	سليمان بن عبد الملك	٤٤٨
إن من خير الاختيار صحبة الأخيار ومن شر الاختيار صحبة الأشرار	-	٢٧٢
إن من خير الاختيار صحبة الأخيار ومن شر الاختيار مودة الأشرار	-	١٧٤
إن من قنع كان غنياً وإن كان مقتراً	-	٣٦٠
أن موسى بن عمران عليه السلام دعا على قوم بالعذاب	-	٥١٨
إن هذه الآداب نوافر تند عن عقل الأذهان فاجعلوا الكتب عليها حماةً	-	١٠٥
أن هشام بن عبد الملك لما ثقل بكى عليه ولده فقال لهم جاد لكم هشام	-	٣٥٤

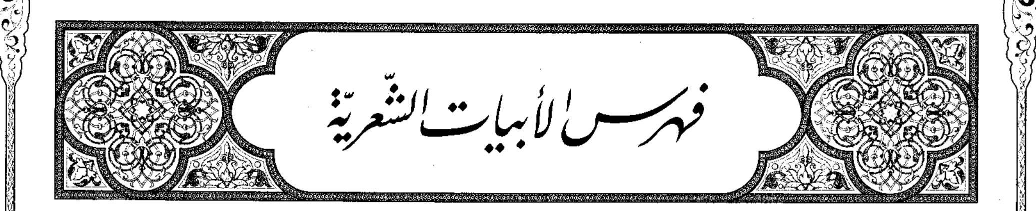
طرف الأثر أو القول أو الخبر	صاحبه أو راويه	الصفحة
شرف الكريم تغافله عن اللئيم	-	٥٥٥
شرف النفس أن تحمل المكاره كما تحمل المكارم	-	٤٠٣
الشرف في السرف فقيل له : لا خير في السرف فقال : لا سرف في الخير	الحسن بن سهل	٣٠٨
الشره من غرائز اللؤم	-	٢٩٩
الشغل مجهدة والفراغ مفسدة	بزرجمهر	٩٤
شفيع المذنب إقراره وتوبته اعتذاره	جعفر بن محمد	٥٥٩
شكر الإله بطول الثناء	-	٣٣٢
الشكر قيد النعم	-	٣٣١
صاحب الفتنة أقرب شيء أجلاً وأسوأ شيء عملاً	هانئ الوداعي	٥٢٦
الصاحب مناسب	علي بن أبي طالب	٢٦٨
الصادق مصان جليل والكاذب مهان ذليل	-	٤١٨
الصبر صبران فاللئام أصبر أجساماً والكرام أصبر نفوساً	ابن المقفع	٤٦٢
الصبر مطية لا تكبو والقناعة سيف لا ينبو	علي بن أبي طالب	٤٦١
الصبر مناضل الحدثان والجزع من أعوان الزمان	علي بن أبي طالب	٤٦٨
صحبة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار	-	٢٧٢
الصدق منجيك وإن خفته والكذب مرديك وإن أمنته	-	٤٢٢
الصدق والوفاء توءمان والصبر والحلم توءمان	الجاحظ	٤٢٢
الصدق يزين كل أحد إلا السعاة ؛ فإن الساعي أذم وآثم ما يكون إذا صدق	-	٤٣٠
صديق الرجل قصده وسرفه عدوه	-	٣٠٠
الصديق إنسان هو أنت إلا أنه غيرك	الكندي	٢٦٥
صديق كل امرىء عقله وعدوه جهله	-	٤٢
صديق مساعد عضد وساعد	-	٢٦٢
الصغيرة الضحك ، في قوله تعالى : ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً ...﴾	ابن عباس	٥٠٧

طرف الأثر أو القول أو الخبر	صاحبه أو راويه	الصفحة
لست بالخب ولا يخدعني الخب	عمر بن الخطاب	٥٤
لعن الله المجوس ينكحون أمهاتهم والله	-	٥٧
لقاء الإخوان جلاء الأحزان	عمر بن الخطاب	٢٦١
لقد ردت الرسل على لوط وقالوا : إن ركنك لشديد	وهب	٢٤٢
لكل ثوب لابس ولكل علم قابس	-	١٣٩
لكل ساقطة لاقطة	أكثم بن صيفي	٣٤٢
للخطأ مع الاسترشاد أحمد من الصواب مع الاستبداد	-	٤٨٩
للقلوب شهوة وإقبال وفترة وإدبار فأتوها من قبل شهوتها	ابن مسعود	١١٦
لله در التقوى ما تركت لذي غيظ شفاء	عائشة	٤٠٣
لم تجوع وأنت على خزائن الأرض ؟ فقال : أخاف أن أشبع فأنسى الجائع	يوسف عليه السلام	١٥١
لم تحب الدراهم وهي تدنيك من الدنيا ؟ فقال : هي وإن أدنتني منها	أبو الزناد	٣٥٠
لم لا يجتمع العلم والمال ؟ فقال : لعز الكمال	-	٧٣
لم يسد من احتاج أهله إلى غيره	-	٥٤٦
لم يقل هشام بن عبد الملك غير هذا البيت	ابن المعتز	٦٠
لم يمش ماش شر من واش	-	٤٢٩
لم ينتفع بعلمه من ترك العمل به	-	١٣٣
لما حضر بشر بن منصور الموت فرح فقيل له : أتفرح بالموت ؟!	بشر بن منصور	١٩٦
لما عرف أهل النقص حالهم عند ذوي الكمال استعانوا بالكبر ليعظم صغيراً	ابن المعتز	٣٧٧
لما مات الإسكندر قال أرسطاطاليس : لقد حركتنا بسكونك	أرسطاطاليس	٢٠٥
لن يدرك العلم من لا يطيل درسه ويكد نفسه	-	١٠٣
لنا من كل ميت عظة بحاله وعبرة بماله	-	٢٠٥
الله المستعان على ألسنة تصف وقلوب تعرف وأعمال تخالف	ابن السماك	٢٠٠
اللهم ؛ ارزقني حمداً ومجداً فإنه لا حمد إلا بفعال ولا مجد إلا بمال	قيس بن سعد	٣٥٠

طرف الأثر أو القول أو الخبر	صاحبه أو راويه	الصفحة
من التمس أربعاً بأربع .. التمس ما لا يكون : من التمس الجزاء بالرياء	–	٥٢٨
من الجهل صحبة ذوي الجهل ومن المحال مجادلة ذوي المحال	–	٢٧٠
من الدنيا على الدنيا دليل	–	١٨٠
من العلم ألا تتكلم فيما لا تعلم بكلام من يعلم فحسبك خجلاً من عقلك	–	١٢٨
من العلم ألا تحقر شيئاً من العلم ومن العلم تفضيل جميع العلم	بزرجمهر	١٣٠
من الغنى دهيتم	عيسى ابن مريم	١٨٦
من ألف المسألة ألفه المنع	–	٥٤١
من الفراغ تكون الصبوة	–	١٠٠
من أمات شهوته .. أحيا مروءته	–	٦٢
من أمضى يومه في غير حق قضاه أو فرض أداه أو مجد أثله	–	١٠٠
من أمل البقاء وقد رأى مصارعنا .. فهو مغرور	–	٢٠٥
من آمن بالآخرة .. لم يحرص على الدنيا ومن أيقن بالمجازاة .. لم يؤثر على الحسنى	–	١٩١
من أنكر حسن الصنيعة .. استوجب قبح القطيعة	–	٣٣٤
من أوغرت صدره .. استدعيت شره	–	٥٤١
من أوكد أسباب الحلم رحمة الجهال	–	٤٠٢
من أولع بقبح المعاملة .. أوجع بقبح المقابلة	–	٥٥٢
من باع الحرص بالقناعة .. ظفر بالغنى والثروة	أكثم بن صيفي	٣٦٠
من بذل ماله .. أدرك آماله	–	٣٠٥
من برئ من ثلاث .. نال ثلاثاً : من برئ من الشره نال العز	–	٣٨٥
من بسطه الإدلال .. قبضه الإذلال	–	٢٥١
من بلغ أشده .. لاقى من العيش أشده	–	٩٤
من بلغ غاية ما يحب .. فليتوقع غاية ما يكره	–	٤٧٣
من تاه في ولايته .. ذل في عزله	–	٣٨٩


فهرس الأمثال والحكم


فهرس الكتب


فهرس الأبيات الشعرية

الصدر	القافية	البحر	القائل	الصفحة
الزاي المفتوحة				
وكيف	عاجزا	الطويل	-	٢٨٩
ظلمت	غرائزا	الطويل	-	٢٨٩
إذا لم	متجاوزا	الطويل	-	٢٨٩
السين المضمومة				
فلا غرو	الشمس	الطويل	أبوالفتح البستي	٤٧٥
فلا تحتقر	يجانس	الطويل	-	٢٦٣
إن العيون	لباس	الكامل	-	٥٧٧
أما الطعام	الناس	الكامل	-	٥٧٧
السين المكسورة				
أبي له	تشمس	الطويل	-	٤٣٦
فحاصل	حدسها	الطويل	علي بن محمد	١٧٨
ألم تر	خمسها	الطويل	علي بن محمد	١٧٧
إذا كملت	سدسها	الطويل	علي بن محمد	١٧٧
وتأخذ	مسها	الطويل	علي بن محمد	١٧٧
وكذاك	عرسه	المديد	سليمان الأعمى	١٨٧
رب مغروس	مغترسه	المديد	سليمان الأعمى	١٨٧
لا تأمن	الحرس	البسيط	أبوالعتاهية	١٩٥
ما بال	الدنس	البسيط	أبوالعتاهية	١٩٥
واعلم بأن	مترس	البسيط	أبوالعتاهية	١٩٥
إذا تمنيت	المفاليس	البسيط	-	٣٩١
من يفعل	الناس	البسيط	الحطيئة	٣٢٤
ترجو	اليبس	البسيط	أبوالعتاهية	١٩٥
واستقبل	الأمس	الكامل	-	١٥١

الصدر	القافية	البحر	القائل	الصفحة
المرء	رمسه	الكامل	أبوفراس	٤٧٢
فليفعلن	الشمس	الكامل	-	١٥١
فمؤجل	نفسه	الكامل	أبوفراس	٤٧٢
أقبل	يمسي	الكامل	-	١٥١
العالم	جنسه	الرجز	ابن دريد	١٢٠
كن ابن	كيسه	الرجز	ابن دريد	١٢٠
وليس	لنفسه	الرجز	ابن دريد	١٢٠
السين الساكنة				
فاصرف	افترس	الكامل	كشاجم	٥٣٦
لا أستلذ	الغلس	الكامل	كشاجم	٥٣٥
وأرى حراما	يلتمس	الكامل	كشاجم	٥٣٦
الشين المضمومة				
أظلت	رشاشها	الطويل	بشار بن برد	٣١٩
فلا غيمها	عطاشها	الطويل	بشار بن برد	٣١٩
الشين المكسورة				
فلا تنطق	فاش	الوافر	قيس بن الخطيم	٤٩٨
الصاد المكسورة				
يا نفس	مخصوص	البسيط	المهدي	٧٤
لا شيء	منقوص	البسيط	المهدي	٧٤
أيضمن	الخلاص	الوافر	عبدالله بن المبارك	١٦٢
أطاع	المعاصي	الوافر	عبدالله بن المبارك	١٦٢
ما كدت	الفحص	الكامل	محمود الوراق	٢٨٨
الضاد المضمومة				
من لك	بعض	الرجز	أبوالعتاهية	٥١٥

الميم المفتوحة

الصدر	القافية	البحر	القائل	الصفحة	الصدر	القافية	البحر	القائل	الصفحة
ومنزلة	السفيه	الوافر	الشافعي	٧٨	ابن ذي	أبيه	الخفيف	أبوالعتاهية	٢٠٦
ولكنا	شي	الوافر	سيدنا علي	١٩٧	ما بقاء	بنيه	الخفيف	أبوالعتاهية	٢٠٦
تهين	عليه	الوافر	أبوالعتاهية	١٩١	إنما أنت	فيها	الخفيف	أبوالعتاهية	١٩٩
إذا غلب	الفقيه	الوافر	الشافعي	٧٨	ليس فيما	مستحليها	الخفيف	أبوالعتاهية	١٩٩
فهذا زاهد	فيه	الوافر	الشافعي	٧٨	قنع النفس	يكفيها	الخفيف	أبوالعتاهية	١٩٩
أرى الدنيا	لديه	الوافر	أبوالعتاهية	١٩١	تموت	بقي	المتقارب	الصلتان العبدي	٨٧
ما إن	إليه	ج الكامل	-	٤٢٤	على أن	التقي	المتقارب	محمود الوراق	١٦٨
حسب	عليه	ج الكامل	-	٤٢٤	نروح	تنقضي	المتقارب	الصلتان العبدي	٨٧
رجل	أبيه	الرمل	-	٩٩	أخاف	المسي	المتقارب	محمود الوراق	١٦٧
معه	أخيه	الرمل	-	٩٩	فذلك	المعتدي	المتقارب	محمود الوراق	١٦٧
من لم يكن	فيه	السريع	لنكك	٥٣					

فهرس الأعلام

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف الظاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

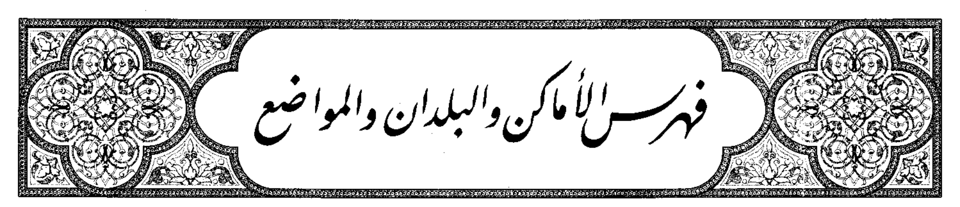
حرف الميم

حرف النون

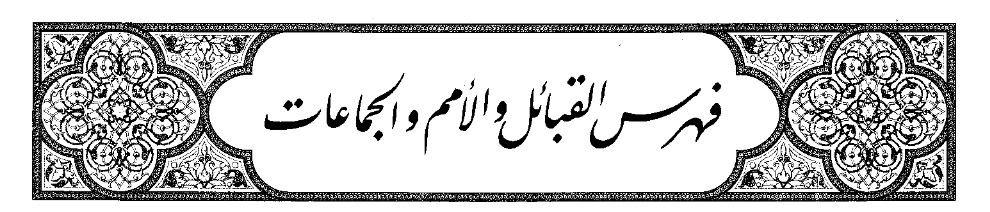
حرف الهاء

حرف الواو

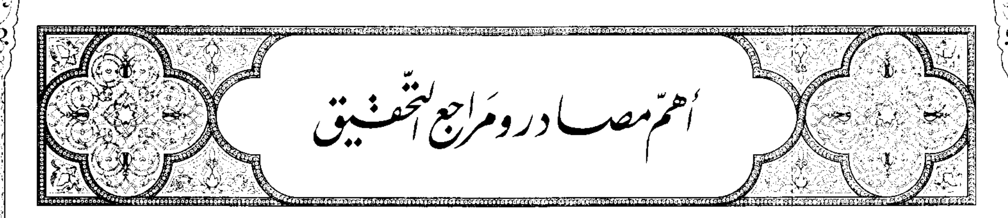
حرف الياء



فهرس الأماكن والبلدان والمواضع



فهرس القبائل والأمم والجماعات



أهمّ مصادر ومراجع التحقيق

- أبو العتاهية أشعاره وأخباره ، **للشاعر المبدع المولد إسماعيل بن القاسم بن سويد** ، المعروف بـ أبي العتاهية (ت ٢١١ هـ) ، تحقيق الدكتور شكري فيصل ، ط١ ، (١٩٦٤ م) ، دار الملاح ، سورية .
- الأحاديث الطوال ، **للإمام الحافظ سليمان بن أحمد الطبراني** (ت ٣٦٠ هـ) ، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ، ط٢ ، (١٩٩٨ م) ، المكتب الإسلامي ، لبنان .
- الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان ، المسمى « المسند الصحيح على التقاسيم والأنواع من غير وجود قطع في سندها ولا ثبوت جرح في ناقليها » ، **للإمام الحافظ علي بن بَلْبان بن عبد الله الفارسي** ، المعروف بـ ابن بلبان (ت ٧٣٩ هـ) ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، ط٣ ، (١٩٩٧ م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .
- أخبار القضاة وتواريخهم ، المسمىٰ « طبقات القضاة » ، **للقاضي المؤرخ محمد بن خلف بن حيَّان الضبي** ، المعروف بـ وكيع (ت ٣٠٦ هـ) ، عني به عبد العزيز مصطفى المَرَاغي ، ط١ ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة عن نشرة لدىٰ عالم الكتب ، لبنان .
- الأدب المفرد ، **لإمام الدنيا الحافظ محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري** (ت ٢٥٦ هـ) ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ط٤ ، (١٩٩٧ م) ، نسخة مصورة لدىٰ دار البشائر الإسلامية عن طبعة المكتبة السلفية ، لبنان .
- الأذكياء ، **للإمام الحافظ المؤرخ عبد الرحمٰن بن علي بن محمد البغدادي** ، المعروف بـ ابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) ، تحقيق محمد عبد الكريم النمري ، ط١ ، (٢٠٠١ م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .
- أسد الغابة في معرفة الصحابة ، **للعلامة علي بن محمد الشيباني** ، المعروف بـ ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ) ، تحقيق محمد إبراهيم البنا ومحمد أحمد عاشور ومحمود عبد الوهاب فايد ، ط١ ، (١٩٧٠ م) ، دار الشعب ، مصر .
- إصلاح المال ، **للإمام الحافظ عبد الله بن محمد القرشي** ، المعروف بـ ابن أبي الدنيا (ت ٢٨١ هـ)، تحقيق مصطفىٰ مفلح القضاة ، ط١ ، (١٩٩٠ م) ، دار الوفاء ، مصر .

- الإعجاز والإيجاز ، لإمام اللغة والأدب عبد الملك بن محمد بن إسماعيل ، المعروف بـ أبي منصور الثعالبي (ت ٤٢٩ هـ) ، عني به إبراهيم صالح ، ط٢ ، (٢٠٠٤ م) ، دار البشائر ، سورية .

- الأغاني ، لإمام الأدب علي بن الحسين ، المعروف بـ أبي الفرج الأصبهاني (ت ٣٥٦ هـ) ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، ط١ ، (١٩٦٩ م) ، دار الشعب ، مصر .

- اقتضاء العلم العمل ، للإمام الحافظ أحمد بن علي بن ثابت ، المعروف بـ الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ هـ) ، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني ، ط٥ ، (١٩٨٤ م) ، المكتب الإسلامي ، لبنان .

- الإمتاع والمؤانسة ، لفيلسوف الأدباء علي بن محمد بن العباس ، المعروف بـ أبي حيان التوحيدي (ت نحو ٤٠٠ هـ) ، تحقيق الدكتور مرسل فالح العجمي ، ط١ ، (٢٠٠٥ م) ، دار سعد الدين ، سورية .

- أمثال الحديث ، للإمام الحافظ الحسن بن عبد الرحمٰن بن خلاد الرامهرمزي (ت ٣٦٠ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد العلي عبد الحميد الأعظمي ، ط١ ، (١٩٨٣ م) ، الدار السلفية ، الهند .

- الأمثال ، للإمام المحدث الفقيه الأديب القاسم بن سلاَّم الهروي ، المعروف بـ أبي عُبيد (ت ٢٢٤ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد المجيد قطامش ، ط١ ، (١٩٨٠ م) ، دار المأمون للتراث ، سورية .

- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، للإمام الحافظ عبد الله بن محمد القرشي ، المعروف بـ ابن أبي الدنيا (ت ٢٨١ هـ) ، صلاح بن عايض الشلاحي ، ط١ ، (٢٠٠٤ م) ، دار ابن حزم ، لبنان .

- الأموال ، للإمام المحدث الفقيه الأديب القاسم بن سلاَّم الهروي ، المعروف بـ أبي عُبيد (ت ٢٢٤ هـ) ، تحقيق سيد بن رجب ، ط١ ، (٢٠٠٧ م) ، دار الهدي النبوي ودار الفضيلة ، مصر والسعودية .

- الأوائل ، للعلامة الأديب الحسن بن عبد الله بن سهل ، المعروف بـ أبي هلال العسكري (ت بعد ٣٩٥ هـ) ، ط١ ، (١٩٨٧ م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

- الإيضاح في علوم البلاغة ، **للعلامة** محمد بن عبد الرحمـٰن **الخطيب القزويني** (ت٧٣٩هـ)، تحقيق الدكتور عبد القادر حسين ، ط١ ، (١٩٩٦ م) ، مكتبة الآداب ، مصر .
- الباخرزي حياته وشعره وديوانه ، **للشاعر الرئيس** علي بن الحسن **الباخرزي** (ت ٤٦٧ هـ) ، تحقيق الدكتور محمد ألتونجي ، (١٩٩٤ م) ، دار صادر ، لبنان .
- البحر الزخار ، المسمىٰ « مسند البزار » ، **للإمام الحافظ** أحمد بن عمرو **البزار** (ت ٢٩٢ هـ) ، تحقيق الدكتور محفوظ الرحمـٰن زين الله ، ط١ ، (١٩٨٨ م) ، مكتبة العلوم والحكم ، السعودية .
- البديع ، **للشاعر الخليفة** عبد الله بن محمد **المعتز بالله العباسي** (ت ٢٩٦ هـ) ، عني به إغناطيوس كراتشقوفسكي ، ط٢ ، (١٩٧٩ م) ، مكتبة المثنى ، العراق .
- البصائر والذخائر ، **لفيلسوف الأدباء** علي بن محمد بن العباس ، المعروف بـ **أبي حيان** التوحيدي (ت نحو ٤٠٠ هـ) ، تحقيق أحمد أمين والسيد أحمد صقر ، ط١ ، (١٩٥٣ م) ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، مصر .
- بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث ، **للإمام الحافظ** نور الدين علي بن أبي بكر **الهيثمي** (ت ٨٠٧ هـ) ، تحقيق الدكتور حسين أحمد صالح الباكري ، ط١ ، (١٩٩٢ م) ، مركز خدمة السنة النبوية بالتعاون مع مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، السعودية .
- بلاغات النساء وطرائف كلامهن وملح نوادرهن وأخبار ذوات الرأي منهن ، **للإمام المؤرخ البليغ** أحمد بن طيفور **الخراساني** (ت ٢٨٠ هـ) ، ط٢ ، (١٣٧٨ هـ) ، طبعة مصورة عن نشرة دار النهضة الحديثة لدى المكتبة الحيدرية ، العراق .
- بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس ، **للإمام الحافظ** يوسف بن عبد الله النمري ، المعروف بـ **ابن عبد البر** (ت ٤٦٣ هـ) ، تحقيق محمد مرسي الخولي ، ط٢ ، (١٩٨١ م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .
- تاريخ إربل ، **للمؤرخ المحدث الأديب** المبارك بن أحمد بن المبارك بن موهوب اللخمي المعروف بـ **ابن المستوفي الإربلي** (ت ٦٣٧ هـ) ، تحقيق سامي بن السيد خماس الصقار ، ط١ ، (١٩٨٠ م) ، دار الرشيد ، العراق .
- تاريخ أصبهان ، المسمىٰ « ذكر أخبار أصبهان » ، **للإمام الحافظ المؤرخ الثقة** أحمد بن عبد الله بن أحمد ، المعروف بـ **أبي نعيم الأصبهاني** (ت ٤٣٠ هـ) ، تحقيق سيد كسروي حسن ، ط١ ، (١٩٩٠م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، **للإمام الحافظ** محمد بن أحمد بن عثمان **الذهبي** (ت ٧٤٨ هـ) ، تحقيق الدكتور عمر بن عبد السلام تدمري ، ط١ ، (١٩٨٧ م) ، دار الكتاب العربي ، لبنان .

- تاريخ الطبري ، المسمىٰ « تاريخ الأمم والملوك » ، **للإمام العلامة** محمد بن جرير **الطبري** (ت ٣١٠ هـ) ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط٢ ، (١٩٦٧ م) ، طبعة مصورة بدون ناشر ، لبنان .

- تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس ، **للحافظ المؤرخ الأديب** عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي المعروف بـ **ابن الفرضي** (ت ٤٠٣ هـ) ، تحقيق عزت العطار الحسيني ، ط٢ ، (١٩٨٨ م) ، مكتبة الخانجي ، مصر .

- التاريخ الكبير ، **لإمام الدنيا الحافظ** محمد بن إسماعيل بن إبراهيم **البخاري** (ت ٢٥٦ هـ)، عني به مصطفىٰ عبد القادر عطا ، ط٢ ، (٢٠٠٨ م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

- تاريخ المدينة المنورة ، للعلامة المحدث المورخ عمر بن شبة النميري البصري (ت ٢٦٢ هـ) ، تحقيق فهيم محمد شلتوت ، ط٢ ، (١٣٤٨ هـ) ، طبعة مصورة لدىٰ دار الفكر ، إيران .

- تاريخ بغداد ، **للإمام الحافظ** أحمد بن علي بن ثابت ، المعروف بـ **الخطيب البغدادي** (ت ٤٦٣ هـ) ، تحقيق مصطفىٰ عبد القادر عطا ، ط١ ، (١٩٩٧ م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

- تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها ، **للإمام الحافظ** علي بن الحسن بن هبة الله ، المعروف بـ **ابن عساكر** (ت ٥٧١ هـ) ، تحقيق محب الدين عمر بن غرامة العَمْروي ، ط١ ، (١٩٩٥ م) ، دار الفكر ، لبنان .

- التذكرة الحمدونية ، **للإمام الأديب الإخباري** محمد بن الحسن بن محمد بن علي بن **حمدون** (ت ٥٦٢ هـ) ، تحقيق إحسان عباس وبكر عباس ، ط١ ، (١٩٩٦ م) ، دار صادر ، لبنان .

- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، **للإمام القاضي عياض** بن موسى **اليحصبي** (ت ٥٤٤ هـ) ، عني به محمد سالم هاشم ، ط١ ، (١٩٩٨ م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

- التعازي والمراثي ، للإمام البليغ محمد بن يزيد ، المعروف بـ المبرِّد (ت ٢٨٦ هـ) ، تحقيق محمد الديباجي ، ط٢ ، (١٩٩٢ م) ، دار صادر ، لبنان .

- تفسير الطبري ، المسمىٰ « جامع البيان عن تأويل آي القرآن » ، للإمام العلامة محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ) ، عني به مكتب التحقيق والإعداد العلمي في دار الأعلام ، ط١ ، (٢٠٠٢ م) ، دار ابن حزم ودار الأعلام ، لبنان والأردن .

- تفسير القرطبي ، المسمى « الجامع لأحكام القرآن » ، للإمام المفسر محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي (ت ٦٧١ هـ) ، تصحيح أحمد عبد العليم البردوني ، ط٢ ، (١٩٨٥ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

- التفسير الكبير ، المسمى « البحر المحيط » ، للإمام النحوي محمد بن يوسف بن علي الأندلسي ، المعروف بـ أبي حيان (ت ٧٤٥ هـ) ، وبهامشه « تفسير النهر الماد من البحر » للمؤلف و« الدر اللقيط من البحر المحيط » لابن مكتوم ت (٧٤٩هـ) ، ط٢ ، (١٩٩٠ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

- التمثيل والمحاضرة ، لإمام اللغة والأدب عبد الملك بن محمد بن إسماعيل ، المعروف بـ أبي منصور الثعالبي (ت ٤٢٩ هـ) ، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ، ط٢ ، (١٩٨٣ م) ، الدار العربية للكتاب ، مصر .

- تهذيب الكمال في أسماء الرجال ، للإمام الحافظ يوسف بن عبد الرحمـٰن المِزِّي (ت ٧٤٢ هـ) ، تحقيق الدكتور بشار عواد معروف ، ط١ ، (١٩٨٠ م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

- التوابين ، للإمام الفقيه عبد الله بن أحمد بن محمد الجماعيلي الحنبلي ، المعروف بـ ابن قدامة المقدسي (ت ٦٢٠ هـ) ، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ، ط٢ ، (١٩٦٩ م) ، مكتبة دار البيان ، سورية .

- التيسير بشرح الجامع الصغير ، للإمام العلامة محمد عبد الرؤوف بن علي المناوي (ت ١٠٣١ هـ) ، ط١ ، (١٢٨٦ هـ) ، طبعة مصورة عن نشرة بولاق لدىٰ مكتبة الإمام الشافعي ، السعودية .

- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ، ويليه « التذييل المرغوب من ثمار القلوب » ، لإمام اللغة والأدب عبد الملك بن محمد بن إسماعيل ، المعروف بـ أبي منصور الثعالبي (ت ٤٢٩ هـ) ، تحقيق إبراهيم صالح ، ط١ ، (١٩٩٤ م) ، دار البشائر ، سورية .

ـ جامع بيان العلم وفضله ، للإمام الحافظ يوسف بن عبد الله النمري ، المعروف بـ ابن عبد البر (ت ٤٦٣ هـ) ، تحقيق أبو الأشبال الزهيري ، ط١ ، (١٩٩٤ م) ، دار ابن الجوزي ، السعودية .

ـ الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ، للإمام الحافظ أحمد بن علي بن ثابت ، المعروف بـ الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ هـ) ، تحقيق الدكتور محمد عجاج الخطيب ، ط١ ، (١٩٩١ م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

ـ الجامع لشعب الإيمان ، للإمام الحافظ أحمد بن الحسين البيهقي (ت ٤٥٨ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد ، ط٢ ، (٢٠٠٤ م) ، مكتبة الرشد ، السعودية .

ـ الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي ، للأديب الفقيه المعافى بن زكريا الجريري (ت ٣٩٠ هـ) ، تحقيق الدكتور إحسان عباس (ت ١٤٢٤ هـ) ، ط١ ، (١٩٩٣ م) ، عالم الكتب ، لبنان .

ـ الحاوي الكبير ، للإمام الفقيه الأصولي المفسر علي بن محمد بن حبيب الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) ، تحقيق الدكتور محمود مطرجي ، ط١ ، (٢٠٠٣ م) ، دار الفكر ، لبنان .

ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، للإمام الحافظ المؤرخ الثقة أحمد بن عبد الله بن أحمد ، المعروف بـ أبي نعيم الأصبهاني (ت ٤٣٠ هـ) ، ط٥ ، (١٩٨٧ م) ، طبعة مصورة عن نشرة مطبعة السعادة والخانجي سنة (١٣٥٧ هـ) لدىٰ دار الريان للتراث ودار الكتاب العربي ، مصر ولبنان .

ـ الحماسة البصرية ، للعلامة الأخباري الأديب علي بن أبي الفرج بن الحسن البصري (ت ٦٥٦ هـ) ، تحقيق الدكتور عادل سليمان جمال ، ط١ ، (١٩٩٩ م) ، مكتبة الخانجي ، مصر .

ـ الحماسة المغربية (مختصر كتاب صفوة الأدب ونخبة ديوان العرب) ، للشاعر الأديب أحمد بن عبد السلام الجراوي (ت ٦٠٩ هـ) ، تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية ، ط٢ ، (٢٠٠٥ م) ، دار الفكر ، سورية .

ـ الحور العين ، للعلامة الأمير نشوان بن سعيد بن نشوان الحميري (ت ٥٧٣ هـ) ، تحقيق كمال مصطفىٰ ، ط١ ، (١٩٤٨ م) ، مكتبة الخانجي ، مصر .

- حياة الحيوان الكبرىٰ ، **للإمام العلامة الفقيه الأديب** محمد بن موسى بن عيسى **الدميري** (ت ٨٠٨ هـ) ، تحقيق إبراهيم صالح ، ط١ ، (٢٠٠٥ م) ، دار البشائر ، سورية .

- الحيوان ، **لكبير أئمة الأدب** عمرو بن بحر **الجاحظ** (ت ٢٥٥ هـ) ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، ط١ ، (١٩٩٦ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار الجيل ، لبنان .

- خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء الشام) ، **للعلامة المؤرخ الأديب** محمد بن محمد بن حامد ، المعروف بـ **عماد الدين الكاتب** (ت ٥٩٧ هـ) ، تحقيق الدكتور شكري فيصل ، ط١ ، (١٩٥٥ م) ، المجمع العلمي العربي ، سورية .

- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، **لعلامة الأدب والتاريخ** عبد القادر بن عمر **البغدادي** (ت ١٠٩٣ هـ) ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط٢ ، (١٩٧٩ م) ، مكتبة الخانجي ، مصر .

- الخصائص ، **لإمام العربية** عثمان بن كِنِّي الموصلي ، المعروف بـ **ابن كِنِّي** (ت ٣٩٢ هـ) ، تحقيق محمد علي النجار ، ط٣ ، (١٩٨٦ م) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر .

- دمية القصر وعصرة أهل العصر ، المسمىٰ « ذيل يتيمة الدهر للثعالبي » ، **للأديب الشاعر** علي بن الحسن بن علي بن أبي الطيب **الباخَرْزي** (ت ٤٦٧ هـ) ، تحقيق الدكتور سامي مكي العاني ، ط٢ ، (١٩٨٥ م) ، دار العروبة ، الكويت .

- الديباج ، **لإمام اللغة والنحو** مَعْمَر بن المثنى التيمي ، المعروف بـ **أبي عبيدة** (ت ٢٠٩ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد الله بن سليمان الجربوع والدكتور عبد الرحمـٰن بن سليمان العيثمين ، ط١ ، (١٩٩١ م) ، مكتبة الخانجي ، مصر .

- ديوان ابن الجهم ، **للشاعر الأديب** علي بن **الجَهْم** بن بدر السامي (ت ٢٤٩ هـ) ، تحقيق خليل مردم بك ، ط٣ ، (١٩٩٦ م) ، دار صادر ، لبنان .

- ديوان ابن المُعَذَّل ، **للشاعر العباسي** عبد الصمد بن **مُعَذَّل** بن غيلان العبدي (ت نحو ٢٤٠ هـ) ، تحقيق الدكتور زهير غازي زاهد ، ط١ ، (١٩٩٨ م) ، دار صادر ، لبنان .

- ديوان ابن نباتة السعدي ، **لشاعر الوقت** عبد العزيز بن عمر بن أحمد التميمي ، المعروف بـ **ابن نباتة السعدي** (ت ٤٠٥ هـ) ، تحقيق عبد الأمير مهدي حبيب الطائي ، ط١ ، (١٩٧٧ م) ، وزارة الإعلام ، العراق .

- ديوان أبي الأسود الدؤلي برواية أبي سعيد الحسن السكري ، **للتابعي الجليل** واضع علم النحو ظالم بن عمرو بن سفيان الكناني ، المعروف بـ **أبي الأسود الدؤلي** (ت ٢٩٠ هـ) ، تحقيق محمد حسن آل ياسين ، ط١ ، (١٩٩٨ م) ، دار ومكتبة الهلال ، لبنان .

- ديوان أبي العتاهية ، **للشاعر المكثر** إسماعيل بن القاسم بن سُوَيد ، المعروف بـ **أبي العتاهية** (ت ٢١١ هـ) ، بعناية كريم البستاني ، ط١ ، (١٩٩٨ م) ، دار صادر ، لبنان .

- ديوان أبي الفتح البستي ، **لشاعر عصره** علي بن محمد بن الحسين بن يوسف **البستي** (ت ٤٠٠ هـ) ، تحقيق درية الخطيب ولطفي الصقال ، ط١ ، (١٩٨٩ م) ، مجمع اللغة العربية بدمشق ، سورية .

- ديوان أبي بكر بن دريد الأزدي ، **للإمام اللغوي** محمد بن الحسن الأزدي ، المعروف بـ **ابن دريد** (ت ٣٢١ هـ) ، تحقيق السيد محمد بدر الدين العلوي ، ط١ ، (١٩٤٦ م) ، لجنة التأليف والنشر ، مصر .

- ديوان أبي حكيمة ، **للشاعر الحرِّيف** راشد بن إسحاق بن راشد الكاتب المعروف بـ **أبي حكيمة** (ت ٢٤٠هـ) ، تحقيق الدكتور محمد حسين الأعرجي ، ط٣ ، (٢٠٠٧م) ، منشورات الجمل ، ألمانيا .

- ديوان أبي فراس الحمداني برواية ابن خالَويه (ت ٣٧٠هـ) ، **للشاعر الأمير** الحارث بن سعيد بن حَمَدَان العَدَوي ، المعروف بـ **أبي فراس الحمداني** (ت ٣٥٧ هـ) ، عني بجمعه ونشره الدكتور سامي الدهان ، ط١ ، (٢٠٠٤ م) ، وزارة الثقافة ، سورية .

- ديوان أبي نُوَاس ، **لشاعر العراق في عصره** الحسن بن هانىء بن عبد الأول ، المعروف بـ **أبي نُوَاس** (ت ١٩٨ هـ وقيل غير ذلك) ، تحقيق وشرح أحمد عبد المجيد الغزالي ، ط١ ، (١٩٥٣ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار الكتاب العربي ، لبنان .

- ديوان الأفوه الأودي ، **للشاعر الجاهلي اليماني** صلاءة بن عمرو بن مالك **الأودي** (ت نحو ٥٠ ق هـ) ، تحقيق الدكتور محمد التونجي ، ط١ ، (١٩٩٨ م) ، دار صادر ، لبنان .

- ديوان الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، المسمىٰ « أنوار العقول لوصي الرسول صلى الله عليه وسلم ، **لأمير المؤمنين** وأحد المبشرين بالجنة سيدنا **علي بن أبي طالب** بن عبد المطلب الهاشمي القرشي (ت ٤٠ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد المجيد همو ، ط١ ، (٢٠١٠ م) ، دار صادر ، لبنان .

- ديوان البحتري ، للشاعر الكبير الوليد بن عبيد بن يحيى الطائي ، المعروف بـ أبي عبادة البُحْتُري (ت ٢٨٤ هـ) ، تحقيق حسن كامل الصيرفي ، ط٢ ، (١٩٧٢ م) ، دار المعارف ، مصر .

- ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السِّكِّيت ، للشاعر المخضرم الصحابي جرول بن أوس بن مالك العبسي رضي الله عنه ، المعروف بـ الحطيئة (ت ٢٤٦ هـ) ، تحقيق الدكتور نعمان محمد أمين طه ، ط١ ، (١٩٧٨ م) ، مكتبة الخانجي ، مصر .

- ديوان الخالديين أبي بكر محمد وأبي عثمان سعيد ابني هاشم الخالدي ، جمعه وحققه الدكتور سامي الدهان ، بدون تحقيق ، ط١ ، (١٩٩٢ م) ، طبعة مصورة عن نشرة مجمع اللغة العربية بدمشق لدىٰ دار صادر ، لبنان .

- ديوان الشافعي وحكمه وكلماته السائرة ، لإمام الدنيا محمد بن إدريس الشافعي (ت ٢٠٤ هـ) ، جمع وضبط يوسف علي بديوي ، ط١ ، (٢٠٠٠ م) ، مكتبة دار الفجر ، سورية .

- ديوان الصنوبري ، لشاعر الطبيعة المحسن أحمد بن محمد الضبي الصنوبري (ت ٣٣٤ هـ) ، تحقيق الدكتور إحسان عباس (ت ١٤٢٤ هـ) ، ط١ ، (١٩٩٨ م) ، دار صادر ، لبنان .

- ديوان الطفيل الغنوي بشرح الأصمعي ، للشاعر طفيل بن عوف بن ضُبَيْس الغنوي (ت ٦١٠م) ، تحقيق فلاح أوغلي ، ط١ ، (١٩٩٧ م) ، دار صادر ، لبنان .

- ديوان العباس بن الأحنف ، لشاعر الغزل الرقيق العباس بن الأحنف بن الأسود اليمامي (ت ١٩٢ هـ) ، عني به كرم البستاني ، ط١ ، (١٩٧٨ م) ، دار صادر ، لبنان .

- ديوان الفرزدق ، للشاعر النبيل همَّام بن غالب بن صعصعة ، المعروف بـ الفرزدق (ت ١١٠ هـ) ، عني به مجيد طراد ، ط٣ ، (١٩٩٩ م) ، دار الكتاب العربي ، لبنان .

- ديوان القاضي الجرجاني ، للقاضي الأديب الرحلة علي بن عبد العزيز بن الحسن الجرجاني (ت ٣٩٢ هـ) ، تحقيق سميح إبراهيم صالح ، ط١ ، (٢٠٠٣ م) ، دار البشائر ، سورية .

- ديوان الكميت بن زيد الأسدي ، للشاعر الأموي الكميت بن زيد بن الأخنس (ت ٢٢٦ هـ) ، تحقيق الدكتور محمد نبيل طُريفي ، ط١ ، (٢٠٠٠ م) ، دار صادر ، لبنان .

- ديوان المتلمس الضبعي ، للشاعر الجاهلي جرير بن عبد العزىٰ (عبد المسيح) ، المعروف بـ المتلمس الضبعي (ت نحو ٥٠ ق هـ) ، تحقيق حسن كامل الصيرفي ، ط٢ ، (١٩٩٧ م) ، معهد المخطوطات العربية ، مصر .

- ديوان المعاني ، للعلامة الأديب الحسن بن عبد الله بن سهل ، المعروف بـ أبي هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ) ، بدون تحقيق ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدىٰ عالم الكتب ، لبنان .

- ديوان المغيرة بن حبناء التميمي (ضمن شعراء أمويون) ، جمع وتحقيق الدكتور نوري حمودي القيسي ، ط١ ، (١٩٨٢ م) ، المجمع العلمي العراقي ، العراق .

- ديوان النابغة الجعدي ، للشاعر المفلق الصحابي قيس بن عبد الله بن عُدَس ، المعروف بـ النابغة الجعدي رضي الله عنه (ت نحو ٥٠ هـ) ، جمعه الدكتور واضح الصمد ، ط١ ، (١٩٩٨ م) ، دار صادر ، لبنان .

- ديوان الوليد بن يزيد ، للشاعر الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك الأموي (ت ١٢٦ هـ) ، جمعه وحققه الدكتور واضح الصمد ، ط١ ، (١٩٩٨ م) ، دار صادر ، لبنان .

- ديوان أوس بن حجر ، للشاعر الجاهلي الحكيم أوس بن حجر بن مالك التميمي (ت نحو ٢ ق هـ) ، تحقيق محمد يوسف نجم ، ط٣ ، (١٩٧٩ م) ، دار صادر ، لبنان .

- ديوان حسان بن ثابت ، للصحابي الجليل حسان بن ثابت رضي الله عنه (ت ٤٠ هـ) ، تحقيق الدكتور وليد عرفات ، ط١ ، (١٩٧٤ م) ، دار صادر ، لبنان .

- ديوان ذي الرمة ، للشاعر الفحل غيلان بن عقبة بن نهيس بن مسعود العدوي ، المعروف بـ ذي الرمة (ت ١١٧ هـ) ، شرح الإمام الأديب أحمد بن حاتم الباهلي صاحب الأصمعي (ت ٢٣١ هـ) ، تحقيق عبد القدوس أبو صالح ، ط٤ ، (٢٠٠٧ م) ، دار الرشيد ومؤسسة الإيمان ، سورية ولبنان .

- ديوان زهير بن جناب ، للشاعر الجاهلي زهير بن جناب بن هبل الكلبي (ت نحو ٦٠ ق هـ) ، صنعة الدكتور محمد شفيق البيطار ، ط١ ، (١٩٩٩ م) ، دار صادر ، لبنان .

- ديوان سراقة البارقي ، للشاعر العراقي الظريف سراقة بن مرداس بن أسماء البارقي (ت ٧٩ هـ) ، تحقيق الدكتور حسين نصار ، ط١ ، (٢٠٠١ م) ، مكتبة الثقافة الدينية ، مصر .

- ديوان صالح بن عبد القدوس ، للشاعر المتكلم الحكيم صالح بن عبد القدوس البصري (ت نحو ١٦٧ هـ) ، جمع وتحقيق عبد الله الخطيب ، ط١ ، (١٩٦٨ م) ، دار منشورات البصري ، العراق .

- ديوان صفي الدين الحِلِّي ، للشاعر الأديب عبد العزيز بن سرايا بن نصر الطائي السنبسي ، المعروف بـ صفي الدين الحلي (ت ٧٥٠ هـ) ، بعناية كرم البستاني ، ط١ ، (١٩٩٠ م) ، دار صادر ، لبنان .

- ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات برواية الحسن السكري عن ابن حبيب ، لشاعر قريش الأموي عبيد الله بن قيس بن شُريح ، المعروف بـ ابن قيس الرُّقَيَّات (ت نحو ٧٥ هـ) ، تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم ، ط١ ، بدون تاريخ ، دار صادر ، لبنان .

- ديوان عبيد بن الأبرص ، للشاعر الجاهلي الداهية عَبيد بن الأبرص الأسدي (ت نحو ٢٥ ق هـ) ، تحقيق الدكتور محمد علي دقة ، ط١ ، (٢٠٠٣ م) ، دار صادر ، لبنان .

- ديوان عمر بن أبي ربيعة ، للشاعر الرقيق عمر بن عبد الله أبي ربيعة (ت ٩٣ هـ) ، عني به الدكتور فايز محمد ، ط٣ ، (١٩٩٨ م) ، دار الكتاب العربي ، لبنان .

- ديوان قيس بن الخطيم ، للشاعر الجاهلي قيس بن الخطيم بن عدي الأوسي (ت نحو ٢ ق هـ) ، تحقيق الدكتور ناصر الدين الأسد ، ط١ ، (١٩٦٧ م) ، دار صادر ، لبنان .

- ديوان كشاجم ، للشاعر الأديب المنشىء محمود بن الحسين بن السندي بن شاهك الرملي ، المعروف بـ كشاجم (ت ٣٦٠ هـ) ، تحقيق الدكتور النبوي عبد الواحد شعلان ، ط١ ، (١٩٩٧ م) ، مكتبة الخانجي ، مصر .

- ديوان لبيد بن ربيعة العامري ، للشاعر الفارس الصحابي لبيد بن ربيعة بن مالك العامري رضي الله عنه (ت ٤١ هـ) ، تحقيق وشرح الدكتور إحسان عباس ، ط١ ، (١٩٦٢ م) ، وزارة الإرشاد والأنباء ، الكويت .

- ديوان مجنون ليلىٰ ، لشاعر الغزل قيس بن الملوح بن مزاحم العامري ، المعروف بـ مجنون ليلىٰ (ت ٦٨ هـ) ، جمع وتحقيق عبد الستار أحمد فراج ، ط١ ، بدون تاريخ ، دار مصر للطباعة ، مصر .

- ديوان مسكين الدارمي ، للشاعر الأموي ربيعة بن عامر بن أنيف الدرامي (ت ٨٩ هـ) ، تحقيق كارين صادر ، ط١ ، (٢٠٠٠ م) ، دار صادر ، لبنان .

- ديوان وضاح اليمن ، **لشاعر الغزل الرقيق** عبد الرحمـٰن بن إسماعيل بن عبد كلال **الخولاني** (ت ٩٥ هـ) ، وبذيله كتاب مأساة الشاعر وضاح لمحمد بهجت الأثري وأحمد حسن الزيات ، جمعه الدكتور محمد خير البقاعي ، ط١ ، (١٩٩٦ م) ، دار صادر ، لبنان .

- ذيل تاريخ بغداد ، **للحافظ المؤرخ** محمد بن محمود بن الحسن بن هبة الله البغدادي ، المعروف بـ **ابن النجار** (ت ٦٤٣ هـ) ، تحقيق مصطفىٰ عبد القادر عطا ، ط١ ، (١٩٩٧ م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

- ربيع الأبرار ونصوص الأخيار ، **للإمام البارع شيخ العرب والعجم** محمود بن عمر **الزمخشري** (ت ٥٣٨ هـ) ، تحقيق الدكتور سليم النعيمي ، ط١ ، (١٩٩٠) ، طبعة مصورة لدىٰ دار الذخائر ، إيران .

- الرسالة ، **لإمام الدنيا** محمد بن إدريس **الشافعي** (ت ٢٠٤ هـ) ، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر ، ط١ ، (١٩٣٩ م) ، طبعة مصورة بدون ناشر ، لبنان .

- روح البيان في تفسير القرآن ، **للإمام المفسر الأصولي** إسماعيل **حقي** بن مصطفى الإسلامبولي الحنفي (ت ١١٢٧ هـ) ، بعناية أحمد عزو عناية ، ط١ ، (٢٠٠١ م) ، دار إحياء التراث **العربي** ، لبنان .

- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، **للعلامة المفتي** الشريف محمود **الآلوسي** (ت ١٢٧٠ هـ) ، عني به الشريف محمود الآلوسي ، ط٤ ، (١٩٨٥ م) ، دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

- الروض البسام بترتيب وتخريج فوائد تمام ، **للأستاذ** جاسم بن سليمان الفهيد **الدوسري** ، ط١ ، (١٩٨٧ م) ، دار البشائر الإسلامية ، لبنان .

- روضة العقلاء ، **للإمام الحافظ** محمد بن **حِبَّان البُسْتي** (ت ٣٥٤ هـ) ، تحقيق عبد العليم محمد الدرويش ، ط١ ، (٢٠٠٩ م) ، الهيئة العامة السورية للكتاب ، سورية .

- روضة المحبين ونزهة المشتاقين ، **للإمام الحافظ** محمد بن أبي بكر الزرعي ، المعروف بـ **ابن قيم الجوزية** (ت ٧٥١ هـ) ، تحقيق بشير محمد عيون ، ط١ ، (٢٠٠٠ م) ، مكتبة دار البيان ، سورية .

- الزهد الكبير ، **للإمام الحافظ** أحمد بن الحسين **البيهقي** (ت ٤٥٨ هـ) ، تحقيق الشيخ عامر أحمد حيدر ، ط٣ ، (١٩٩٦ م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، لبنان .

- الزهد ، للإمام الحافظ أبي داوود سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٢٧٥ هـ) ، تحقيق ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس ، ط٢ ، (٢٠١٠ م) ، مؤسسة أبي عبيدة ، مصر .
- الزهد ، للإمام الحافظ أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت ٢٤١ هـ) ، عني به محمد عبد السلام شاهين ، ط١ ، (١٩٩٩ م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .
- الزهد ، للإمام الحافظ هَنَّاد بن السَّرِي بن مصعب الدارمي الكوفي (ت ٢٤٣ هـ) ، تحقيق عبد الرحمـٰن بن عبد الجبار الفريوائي ، ط١ ، (١٤٠٦ هـ) ، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي ، الكويت .
- زهر الآداب وثمرة الألباب ، للأديب النقَّاد إبراهيم بن علي الحُصْري القيرواني (ت٤٥٤هـ) ، تحقيق علي محمد البجاوي ، ط٢ ، (١٩٦٩ م) ، دار إحياء الكتب العربية ، مصر .
- سراج الملوك ، للعلامة الفقيه محمد بن الوليد ، المعروف بـ أبي بكر الطرطوشي (ت ٥٢٠ هـ) ، تحقيق محمد فتحي أبو بكر ، ط٢ ، (٢٠٠٦ م) ، الدار المصرية اللبنانية ، مصر .
- سمط اللآلي ، لعالم البيان الوزير عبد الله بن عبد العزيز بن محمد الأونبي ، المعروف بـ أبي عبيد البكري (ت ٤٨٧ هـ) ، تحقيق الأستاذ عبد العزيز الميمني (ت ١٣٩٨ هـ) ، ط١ ، (٢٠٠٩ م) ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، سلسلة الذخائر ، مصر .
- سنن ابن ماجه ، للإمام الحافظ محمد بن يزيد القزويني ، المعروف بـ ابن ماجه (ت ٢٧٥ هـ) ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ط١ ، (١٩٥٤ م) ، دار إحياء الكتب العربية لصاحبها عيسى البابي الحلبي ، مصر .
- سنن أبي داوود ، للإمام الحافظ أبي داوود سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٢٧٥ هـ) ، وبهامشه « معالم السنن » للخطابي ، تحقيق عزت عبيد الدعاس وعادل السيد ، ط١ ، (١٩٩٧ م) ، دار ابن حزم ، لبنان .
- سنن الترمذي ، المسمى « الجامع الصحيح » ، للإمام الحافظ محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (ت ٢٧٩ هـ) ، تحقيق أحمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة ، ط١ ، (١٩٣٨ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار إحياء التراث العربي ، لبنان .
- سنن الدارقطني ، للإمام الحافظ الحجة علي بن عمر بن أحمد بن مهدي الدارقطني (ت ٣٨٥ هـ) ، وبذيله التعليق المغني على الدارقطني ، عني به عبد الله هاشم يماني ، ط١ ، (١٩٦٦ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار المعرفة ، لبنان .

- السنن الكبرىٰ ، **للإمام الحافظ أحمد بن الحسين البيهقي** (ت ٤٥٨ هـ) ، بعناية السيد هاشم الندوي ، وبذيله « الجوهر النقي » لابن التركماني ، ط١ ، (١٣٥٦ هـ) ، طبعة مصورة عن دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدَّكَّن لدىٰ دار المعرفة ، لبنان .

- السنن الكبرىٰ ، **للإمام الحافظ أحمد بن شعيب النسائي** (ت ٣٠٣ هـ) ، تحقيق حسن عبد المنعم شلبي ، ط١ ، (٢٠٠١ هـ) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

- سنن سعيد بن منصور ، **للإمام الحافظ سعيد بن منصور** (ت ٢٢٧ هـ) ، تحقيق الدكتور سعد بن عبد الله آل حميد ، ط٢ ، (٢٠٠٠ م) ، دار الصميعي ، السعودية .

- سيرة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، **للإمام الحافظ المؤرخ عبد الرحمـٰن بن علي بن محمد البغدادي ، المعروف بـ ابن الجوزي** (ت ٥٩٧ هـ) ، تحقيق أحمد شوحان رحمه الله (ت ١٤٢٧ هـ) ، ط١ ، (١٩٩٠ م) ، مكتبة التراث ، سورية .

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، **للإمام الفقيه عبد الحي بن أحمد ، المعروف بـ ابن العماد** (ت ١٠٨٩م) ، تحقيق محمود الأرناؤوط ، ط١ ، (١٩٨٦ م) ، دار ابن كثير ، سورية .

- شرح أشعار الهذليين : **للعلامة الأديب الراوية الحسن بن الحسين بن عبيد الله السكري** (ت ٢٧٥ هـ) ، تحقيق عبد الستار أحمد الفراج ، ط١ ، (١٩٦٥ م) ، طبعة مصورة عن نشرة دار العروبة لدىٰ مكتبة دار التراث ، مصر .

- شرح ديوان أبي تمام ، **لإمام اللغة والأدب يحيى بن علي بن محمد الشيباني ، المعروف بـ الخطيب التبريزي** (ت ٥٠٢ هـ) ، تحقيق محمد عبده عزام ، ط٥ ، (١٩٨٧ م) ، دار المعارف ، مصر .

- شرح ديوان الحماسة ، **لإمام اللغة والأدب يحيى بن علي بن محمد الشيباني ، المعروف بـ الخطيب التبريزي** (ت ٥٠٢ هـ) ، تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط١ ، (١٩٣٨ م) ، المكتبة التجارية ، مصر .

- شرح ديوان المتنبي ، المسمى « التبيان في شرح الديوان » ، **للإمام الأديب عبد الله بن الحسين ، المعروف بـ أبي البقاء العُكْبَري** (ت ٦١٦ هـ) ، عني به مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي ، طالأخيرة ، (١٩٧١ م) ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر .

- شرح ديوان صريع الغواني مسلم بن الوليد الأنصاري (ت ٢٠٨ هـ) ، برواية وشرح **الأديب النابغة** وليد بن عيسى بن حارث الأندلسي ، المعروف بـ **الطبيخي** (ت ٣٥٢ هـ) ، تحقيق الدكتور سامي الدهان ، ط٣ ، (١٩٨٥) ، دار المعارف ، مصر .

- شرف المصطفىٰ صلى الله عليه وسلم برواية الإمام القدوة عبد الكريم بن هوازن القشيري ، **للإمام الحافظ** عبد الملك بن محمد **الخركوشي** (ت ٤٠٦ هـ) ، تحقيق الشريف نبيل هاشم الغمري ، ط١ ، (٢٠٠٣ م) ، دار البشائر الإسلامية ، لبنان .

- شعر إبراهيم بن هرمة القرشي ، **لشاعر الغزل** إبراهيم بن علي بن سلمة **بن هرمة الكناني** (ت ١٧٦ هـ) ، تحقيق محمد نفاع وحسين عطوان ، ط١ ، (١٩٦٩ م) ، مجمع اللغة العربية بدمشق ، سورية .

- شعر الخوارج ، جمع وتقديم الدكتور **إحسان عباس** (ت ١٤٢٤ هـ) ، ط٢ ، (١٩٧٤ م) ، دار الثقافة ، لبنان .

- شعر دعبل ، **لشاعر الهجاء دِعْبِل** بن علي بن رزين **الخزاعي** (ت ٢٤٦ هـ) ، جمع وتحقيق عبد الكريم الأشتر ، ط٢ ، (١٩٨٣ م) ، مجمع اللغة العربية ، سورية .

- شعر منصور النمري ، **للشاعر** منصور بن سلمة بن الزبرقان **النمري** (ت ١٩٠ هـ) ، تحقيق الطيب العشاش ، ط١ ، (١٩٨١ م) ، مجمع اللغة العربية بدمشق ، سورية .

- الشمائل المحمدية ، **للإمام الحافظ** محمد بن عيسى بن سورة **الترمذي** (ت ٢٧٩ هـ) ، تحقيق عبد الكريم الحلياني ، ط١ ، (٢٠١٠ م) ، دار الإمام أحمد ، مصر .

- شمائل النبي صلى الله عليه وسلم ، **للإمام الحافظ** محمد بن عيسى بن سورة **الترمذي** (ت ٢٧٩ هـ) ، تحقيق محمد وائل الحنبلي ، ط٢ ، (٢٠٠٩ م) ، دار البيروتي ، سورية .

- الصاحبي ، **للإمام اللغوي الأديب** أحمد بن فارس بن زكريا بن حبيب الرازي ، المعروف بـ **ابن فارس** (ت ٣٩٥ هـ) ، تحقيق السيد أحمد صقر ، ط١ ، (١٩٧٧ م) ، دار إحياء الكتب العربية ، مصر .

- الصاهل والشاحج ، **للشاعر الفيلسوف** أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي ، المعروف بـ **أبي العلاء المعري** (ت ٤٤٩ هـ) ، تحقيق الدكتورة عائشة عبد الرحمٰن بنت الشاطىء ، ط٢ ، (١٩٨٤ م) ، دار المعارف ، مصر .

- صبح الأعشىٰ في صناعة الإنشا ، **للأديب المؤرخ البحَّاثة** أحمد بن علي بن أحمد **القَلْقَشَندي** (ت ٨٢١ هـ) ، ط١ ، (١٩٦٣ م) ، طبعة مصورة لدى المؤسسة المصرية العامة ، مصر .

- الصبر والثواب عليه ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي ، المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق محمد خير رمضان يوسف ، ط١ ، (١٩٩٧ م) ، دار ابن حزم ، لبنان .

- صحيح البخاري ، المسمى « الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسننه وأيامه » (الطبعة السلطانية العثمانية) ، **لإمام الدنيا الحافظ** محمد بن إسماعيل بن إبراهيم **البخاري** (ت ٢٥٦ هـ) ، عني به الدكتور محمد زهير بن ناصر الناصر ، ط١ ، (١٤٢٢ هـ) ، دار طوق النجاة ، لبنان .

- صحيح مسلم ، المسمى « الجامع الصحيح » ، **للإمام الحافظ** مسلم بن الحجاج **القشيري النيسابوري** (ت ٢٦١ هـ) ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ط١ ، (١٩٥٤ م) ، دار إحياء الكتب العربية لصاحبها عيسى البابي الحلبي ، مصر .

- الصداقة والصديق ، **لفيلسوف الأدباء** علي بن محمد بن العباس ، المعروف بـ **أبي حيان التوحيدي** (ت ٤١٤ هـ) ، تحقيق الدكتور إبراهيم الكيلاني ، ط٤ ، (٢٠٠٨) ، دار الفكر ، سورية .

- الصلة وهو ذيل علىٰ « تاريخ علماء الأندلس » لابن الفرضي ، **للمؤرخ البحَّاثة** خلف بن عبد الملك ، المعروف بـ **ابن بَشْكُوَال** (ت ٥٧٨ هـ) ، عني به إدارة إحياء التراث ، ط١ ، (١٩٦٦ م) ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، مصر .

- طبقات الشافعية الكبرىٰ ، **للإمام القاضي** عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي ، المعروف بـ **تاج الدين السبكي** (ت ٧٧١ هـ) ، تحقيق محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح الحلو ، ط١ ، (١٣٩٦ هـ) ، طبعة مصورة لدىٰ دار إحياء الكتب العربية ، مصر .

- الطرائف الأدبية ، ويضم قصائد من : ديوان الأفوه الأودي ، وديوان الشنفرىٰ ، وديوان إبراهيم الصولي ، **لإمام اللغة والبلاغة** عبد القاهر بن عبد الرحمـٰن **الجرجاني** (ت ٤٧١ هـ أو سنة ٤٧٤ هـ) ، تحقيق عبد العزيز الميمني ، ط١ ، (١٩٣٧ م) ، المكتبة الأزهرية للتراث ، مصر .

- الطيوريات ، وهي مما انتخبه الإمام الحافظ أحمد بن محمد السِّلفي من كتب الإمام الثقة المبارك بن عبد الجبار ، المعروف بـ ابن الطُّيوري (ت ٥٠٠ هـ) ، تحقيق دسمان معالي وعباس الحسن ، ط١ ، (٢٠٠٤ م) ، دار أضواء السلف ، السعودية .

- العزلة ، للإمام الحافظ حَمْد بن محمد بن إبراهيم البستي الخطابي (ت ٣٨٨ هـ) ، تحقيق محمد منير الدمشقي ، ط١ ، (١٣٥٢ هـ) ، إدارة الطباعة المنيرية ، مصر .

- العقد الفريد ، للعلامة الأديب أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (ت ٣٢٨ هـ) ، تحقيق أحمد الأمين وأحمد الزين وإبراهيم الإبياري ، ط٢ ، (١٩٤٠ م) ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، مصر .

- العقل وفضله ، للإمام الحافظ عبد الله بن محمد القرشي ، المعروف بـ ابن أبي الدنيا (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق لطفي محمد الصغير ، ط١ ، (١٤٠٩ هـ) ، دار الراية ، السعودية .

- عيون الأخبار ، لإمام الأدب واللغة القاضي عبد الله بن مسلم ، المعروف بـ ابن قتيبة الدِّينَوَري (ت ٢٧٦ هـ) ، تحقيق ثلة من أهل العلم ، ط١ ، (١٩٣٠ م) ، دار الكتب المصرية ، مصر .

- غريب الحديث ، للإمام الحافظ الأديب إبراهيم بن إسحاق بن بشير الحربي (ت ٢٨٥ هـ) ، الدكتور سليمان بن إبراهيم بن محمد العايد ، ط١ ، (١٩٨٥ م) ، جامعة أم القرى ، السعودية .

- غريب الحديث ، للإمام المحدث الفقيه الأديب القاسم بن سلاَّم الهروي ، المعروف بـ أبي عُبيد (ت ٢٢٤ هـ) ، بعناية الدكتور محمد عبد المعيد خان ، ط١ ، (١٩٦٤ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار الكتاب العربي ، لبنان .

- الفائق في غريب الحديث ، للإمام البارع شيخ العرب والعجم محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) ، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، ط١ ، (١٩٩٣ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار الفكر ، لبنان .

- فتاوى الإمام النووي ، المسمى « المسائل المنثورة » ، ترتيب تلميذه الإمام العلامة علاء الدين ابن العطار (ت ٦٧٦ هـ) ، تحقيق الشيخ محمد الحجار ، ط٦ ، (١٩٩٦ م) ، دار البشائر الإسلامية ، لبنان .

- فتح المغيث بشرح ألفية الحديث للعراقي ، للإمام الحافظ الناقد محمد بن عبد الرحمٰن السخاوي (ت ٩٠٢ هـ) ، تحقيق علي حسين علي ، ط٢ ، (٢٠٠٣ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار عالم الكتب ، السعودية .

- الفرج بعد الشدة ، للإمام القاضي الأديب المحسن بن علي التنوخي (ت ٣٨٤ هـ) ، تحقيق عبود الشالجي ، ط١ ، (١٩٧٥ م) ، دار صادر ، لبنان .

- الفردوس بمأثور الخطاب ، للإمام الحافظ شيرويه بن شهردار الديلمي (ت ٥٠٩ هـ) ، تحقيق السعيد بن بسيوني زغلول ، ط١ ، (١٩٨٦ م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

- فضائل الصحابة ، للإمام الحافظ أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت ٢٤١ هـ) ، تحقيق وصي الله بن محمد عباس ، ط٤ ، (١٤٣٠ هـ) ، دار ابن الجوزي ، السعودية .

- فيض القدير شرح الجامع الصغير ، للإمام العلامة محمد عبد الرؤوف بن علي المناوي (ت ١٠٣١ هـ) ، ط١ ، (١٣٥٧ هـ) ، طبعة مصورة لدىٰ دار المعرفة ، لبنان .

- قواطع الأدلة في الأصول ، للإمام المحدث المفسر منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني (ت ٤٩٨ هـ) ، تحقيق محمد حسن محمد إسماعيل ، ط١ ، (١٩٩٧ م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

- الكامل في التاريخ ، للإمام المؤرخ علي بن محمد بن محمد ، المعروف بـ ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ) ، حققه الدكتور عمر عبد السلام تدمري ، ط٢ ، (١٩٩٩ م) ، دار الكتاب العربي ، لبنان .

- الكامل في ضعفاء الرجال ، للإمام الحافظ عبد الله بن عدي الجرجاني (ت ٣٦٥ هـ) ، الطبعة الأولىٰ بتحقيق الدكتور سهيل زكار والثالثة يحيىٰ مختار غزاوي ، ط٣ ، (١٩٨٨ م) ، دار الفكر ، لبنان .

- الكامل ، لإمام العربية محمد بن يزيد بن عبد الأكبر المُبَرِّد (ت ٢٨٥ هـ) ، تحقيق الدكتور محمد أحمد الدالي ، ط١ ، (١٩٩٧ م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

- الكتاب ، لإمام النحو الكبير عمرو بن عثمان بن قنبر ، المعروف بـ سيبويه (ت ١٨٠ هـ) ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ، ط٣ ، (١٩٨٨ م) ، مكتبة الخانجي ، مصر .

- الكشكول ، **للعلامة الاثني عشري الأديب** محمد بن حسين بن عبد الصمد الحارثي ، المعروف بـ **بهاء الدين العاملي** (ت ١٠٣١ هـ) ، تحقيق الطاهر أحمد الزاوي ، ط١ ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة ، لبنان .

- كلام الليالي والأيام لابن آدم ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي ، المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق محمد خير رمضان يوسف ، ط١ ، (١٩٩٧ م) ، دار ابن حزم ، لبنان .

- الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية) ، **للعلامة القاضي** أبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني **الكفوي** (ت ١٠٩٤ هـ) ، تحقيق الدكتور عدنان درويش ومحمد المصري ، ط٢ ، (١٩٩٢ م) ، دار الكتاب الإسلامي ، مصر .

- كليلة ودمنة ، للفيلسوف الهندي الحكيم بيدبا ، تعريب **إمام الكتاب** عبد الله **بن المقفع** (ت ١٤٢ هـ) ، عني به محمد خير الدرع ، ط١ ، (١٩٦٣ م) ، المكتبة الأموية ، سورية .

- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ، **للإمام الحافظ** علي بن حسام الدين ، المعروف بـ **البرهان فوري** (ت ٩٧٥ هـ) ، عني به بكري حيَّاني وصفوة السقا ، ط١ ، (١٩٩٣ م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

- لباب الآداب ، **للأمير الشجاع الأديب المؤرخ** أسامة بن مرشد بن علي ، المعروف بـ **ابن منقذ** (ت ٥٨٤ هـ) ، تحقيق الدكتور أحمد شاكر ، ط١ ، (١٩٣٥م) ، المطبعة الرحمانية ، مصر .

- لسان الميزان ، **للإمام الحافظ الحجة** أحمد بن علي بن محمد الكناني ، المعروف بـ **ابن حجر العسقلاني** (ت ٨٥٢ هـ) ، تحقيق العلامة عبد الفتاح أبو غدة (ت ١٤١٧ هـ) ، ط١ ، (٢٠٠٢ م) ، دار البشائر الإسلامية ، لبنان .

- مجالس ثعلب ، **لإمام الكوفيين العلامة** أحمد بن يحيى بن يسار الشيباني ، المعروف بـ **ثعلب** (ت ٢٩١ هـ) ، شرح وتحقيق عبد السلام هارون ، ط٥ ، (٢٠٠٦ م) ، دار المعارف ، مصر .

- المجالسة وجواهر العلم ، **للعلامة الفقيه المحدث** أحمد بن مروان بن محمد **الدِّينوري** (ت ٣٣٣ هـ) ، ط١ ، (٢٠٠٢ م) ، دار ابن حزم ، لبنان .

- مجمع الأمثال ، **للعلامة الأديب البحّاثة** أحمد بن محمد بن أحمد **الميداني** (ت ٥١٨ هـ)، تحقيق الدكتور جان عبد الله توما ، ط١ ، (٢٠٠٢ م) ، دار صادر ، لبنان .
- المحاسن والأضداد ، **لكبير أئمة الأدب** عمرو بن بحر **الجاحظ** (ت ٢٥٥ هـ) ، ط٢ ، (١٩٩٤ م) ، مكتبة الخانجي ، مصر .
- المحاسن والمساوىء ، **للإمام** إبراهيم بن محمد **البيهقي** (ت ق ٥ هـ) ، ط١ ، (١٩٨٤ م) ، دار بيروت ، لبنان .
- محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء ، **للعلامة الأديب الحكيم** الحسين بن محمد بن المفضل الأصفهاني ، المعروف بـ **الراغب** (ت ٥٠٢ هـ) ، تحقيق الدكتور رياض عبد الحميد مراد ، ط٢ ، (٢٠٠٦ م) ، دار صادر ، لبنان .
- المحب والمحبوب والمشموم والمشروب ، **للشاعر الأديب** السري بن أحمد بن الكندي ، المعروف بـ **السري الرفاء** (ت ٣٦٢ هـ) ، تحقيق مصباح غلاونجي ، بدون تاريخ ، مجمع اللغة العربية بدمشق ، سورية .
- مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر ، **للإمام الحافظ** محمد بن مُكَرَّم ، المعروف بـ **ابن منظور** (ت ٧١١ هـ)، عني به مجموعة من المحققين ، ط١ ، (١٩٨٤ م)، دار الفكر ، سورية.
- المدخل إلى السنن الكبرىٰ ، **للإمام الحافظ** أحمد بن الحسين **البيهقي** (ت ٤٥٨ هـ) ، تحقيق الدكتور محمد ضياء الرحمـٰن الأعظمي ، ط٢ ، (١٤٢٠ هـ) ، دار أضواء السلف ، السعودية .
- مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان ، **للإمام العلامة المحدث** عبد الله بن أسعد بن علي **اليافعي** (ت ٧٦٨ هـ) ، ط١ ، (١٣٣٧ هـ) ، طبعة مصورة عن نشرة دائرة المعارف بحيدر آباد الدَّكّن لدىٰ دار الكتاب الإسلامي ، مصر .
- مروج الذهب ومعادن الجوهر ، **للمؤرخ البحّاثة** علي بن الحسين بن علي **المسعودي** (ت ٣٤٦ هـ) ، تصحيح شارك بلا ، ط١ ، (١٤٢٢ هـ) ، انتشارات الشريف الرضي ، إيران .
- المستدرك على الصحيحين ، **للإمام الحافظ** محمد بن عبد الله بن حمدويه النيسابوري ، المعروف بـ **الحاكم** (ت ٤٠٥ هـ) ، وبذيله : « تلخيص المستدرك » للحافظ الذهبي (ت ٧٤٨ هـ) ، ط١ ، (١٣٣٥ هـ) ، نسخة مصورة لدىٰ دار المعرفة عن طبعة دائرة المعارف النظامية في الهند بحيدر آباد الدَّكّن ، لبنان .

ـ المستطرف من كل فن مستظرف ، للأديب الخطيب محمد بن أحمد بن منصور الأبشيهي (ت ٨٥٠ هـ) ، عني به إبراهيم صالح ، ط١ ، (١٩٩٩ م) ، دار صادر ، لبنان .

ـ مسند أبي يعلى الموصلي ، للإمام الحافظ أحمد بن علي بن المثنى ، المعروف بـ أبي يعلى الموصلي (ت ٣٠٧ هـ) ، تحقيق حسين سليم أسد الداراني ، ط٢ ، (١٩٨٩ م) ، دار المأمون للتراث ودار الثقافة العربية ، سورية .

ـ مسند الإمام أحمد ابن حنبل ، للإمام الحافظ أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت ٢٤١ هـ) ، تحقيق مجموعة من العلماء بإشراف شعيب الأرناؤوط ، ط١ ، (١٩٩٥ هـ) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

ـ مسند الدارمي ، المسمىٰ « سنن الدارمي » ، للإمام الحافظ عبد الله بن عبد الرحمٰن الدارمي (ت ٢٥٥ هـ) ، تحقيق حسين سليم أسد الداراني ، ط١ ، (٢٠٠٠ م) ، دار المغني ، السعودية .

ـ مسند الشهاب ، المسمىٰ « شهاب الأخبار في الحكم والأمثال والآداب » ، للإمام القاضي محمد بن سلامة القُضاعي (ت ٤٥٤ هـ) ، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ، ط١ ، (١٩٨٥ م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

ـ مسند أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، للإمام الحافظ البحر محمد بن محمد بن سليمان بن الحارث الباغندي (ت ٣١٢ هـ) ، تحقيق العلامة محمد عوامة ، ط٤ ، (٢٠٠٩) ، دار اليسر ودار المنهاج ، السعودية .

ـ مصارع العشاق ، للحافظ الأديب جعفر بن أحمد ، المعروف بـ السَّرَّاج القارىء (ت ٥٠٠ هـ) ، ط١ ، بدون تاريخ ، دار صادر ، لبنان .

ـ المصنف ، للإمام الحافظ عبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت ٢١١ هـ) ، تحقيق حبيب الرحمٰن الأعظمي ، ومعه : « الجامع » للإمام معمر الأزدي (ت ١٥٣ هـ) ، ط٢ ، (١٩٨٣ م) ، المجلس العلمي بالتعاون مع المكتب الإسلامي ، لبنان .

ـ المصنف ، للإمام الحافظ عبد الله بن محمد بن أبي شيبة (ت ٢٣٥ هـ) ، تحقيق الشيخ محمد عوَّامة ، ط٢ ، (٢٠٠٦ م) ، دار المنهاج ، السعودية .

ـ المصون في الأدب ، للإمام الحافظ الفقيه أبي أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد بن إسماعيل العسكري (ت ٣٨٢ هـ) ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، ط٢ ، (١٩٨٢ م) ، مكتبة الخانجي ، مصر .

ـ المعارف ، لإمام الأدب واللغة القاضي عبد الله بن مسلم ، المعروف بـ ابن قتيبة الدِّينَوَري (ت ٢٧٦ هـ) ، تحقيق ثروت عكاشة ، ط١ ، (١٩٦٠ م) ، طبعة مصورة عن نشرة دار الكتب بمصر لدىٰ دار الشريف الرضي ، إيران .

ـ معجم الأدباء ، المسمىٰ « إرشاد الأريب إلىٰ معرفة الأديب » ، للعلامة المؤرخ الأديب ياقوت بن عبد الله الرومي الحَمَوي (ت ٦٢٦ هـ) ، قدم له الدكتور عمر فاروق الطباع ، ط١ ، (١٩٩٩ م) ، مؤسسة المعارف ، لبنان .

ـ المعجم الأوسط ، للإمام الحافظ سليمان بن أحمد الطبراني (ت ٣٦٠ هـ) ، تحقيق الدكتور محمود الطحان ، ط١ ، (١٩٨٥ م) ، مكتبة المعارف ، السعودية .

ـ معجم الشعراء ، للعلامة الإخباري الأديب محمد بن عمران بن موسى المَرْزُباني (ت ٣٨٤ هـ) ، تحقيق الدكتور فاروق اسْلِّيم ، ط١ ، (٢٠٠٥ م) ، دار صادر ، لبنان .

ـ المعجم الصغير ، للإمام الحافظ سليمان بن أحمد الطبراني (ت ٣٦٠ هـ) ، ومعه « غنية الألمعي » للعظيم آبادي ، ط١ ، (١٩٨٣ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار الكتب العلمية ، لبنان .

ـ المعجم الكبير ، للإمام الحافظ سليمان بن أحمد الطبراني (ت ٣٦٠ هـ) ، ومعه « الأحاديث الطوال » ، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ، ط٢ ، بدون تاريخ ، دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

ـ معرفة الصحابة ، للإمام الحافظ المؤرخ الثقة أحمد بن عبد الله بن أحمد ، المعروف بـ أبي نعيم الأصبهاني (ت ٤٣٠ هـ) ، تحقيق عادل يوسف العزازي ، ط١ ، (١٩٩٨ م) ، دار الوطن ، السعودية .

ـ المعرفة والتاريخ رواية عبد الله بن جعفر بن درستويه ، للإمام الحافظ الحجة يعقوب بن سفيان بن جُوَّان البسوي (ت ٢٧٧ هـ) ، تحقيق الدكتور أكرم ضياء العمري ، ط١ ، (١٤١٠ هـ) ، مكتبة الدار ، السعودية .

ـ المعمرون والوصايا ، للعلامة اللغوي سهل بن بن محمد عثمان ، المعروف بـ أبي حاتم السجستاني (ت ٢٥٠ هـ) ، تحقيق عبد المنعم عامر ، ط١ ، (١٩٦١ م) ، دار إحياء الكتب العربية لصاحبها عيسى البابي الحلبي ، مصر .

- مفتاح العلوم ، **لعلامة العربية والأدب** يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي **السَّكَّاكي** (ت ٦٢٦ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد الحميد هنداوي ، ط١ ، (٢٠٠٠ م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

- المفضليات ، **للإمام الراوية الأديب** المفضَّل بن محمد بن يعلى **الضبي** (ت نحو ١٧٦ هـ) ، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ، ط٨ ، (١٩٩٣ م) ، دار المعارف ، مصر .

- مقاتل الطالبيين ، **للإمام الأدب واللغة** علي بن الحسين بن محمد الأموي ، المعروف بـ **أبي الفرج الأصبهاني** (ت ٣٥٦ هـ) ، تحقيق أحمد صقر ، ط١ ، بدون تاريخ ، دار المعرفة ، لبنان .

- المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة ، **للإمام الحافظ الناقد** محمد بن عبد الرحمـٰن **السخاوي** (ت ٩٠٢ هـ) ، عني به عبد الله محمد الصديق الغُماري وعبد الوهاب عبد اللطيف ، ط٢ ، (١٩٩١ م) ، مكتبة الخانجي ، مصر .

- من غاب عنه المطرب ، **لإمام اللغة والأدب** عبد الملك بن محمد بن إسماعيل النيسابوري ، المعروف بـ **أبي منصور الثعالبي** (ت ٤٢٩ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد الواحد شعلان ، ط١ ، (١٩٨٤ م) ، مكتبة الخانجي ، مصر .

- مناقب الشافعي ، **للإمام الحافظ** أحمد بن الحسين **البيهقي** (ت ٤٥٨ هـ) ، تحقيق أحمد صقر ، ط١ ، (١٩٧١ م) ، مكتبة دار التراث ، مصر .

- المنتخب من كتاب الزهد والرقائق ، ويليه « طرق حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم في ترائي الهلال ، **للإمام الحافظ** أحمد بن علي بن ثابت ، المعروف بـ **الخطيب البغدادي** (ت ٤٦٣ هـ) ، تحقيق الدكتور عامر حسن صبري ، ط١ ، (٢٠٠٠ م) ، دار البشائر الإسلامية ، لبنان .

- المنصف للسارق والمسروق منه في إظهار سرقات أبي الطيب المتنبي ، **للشاعر المجيد** الحسن بن علي بن وكيع **الضبي التنيسي** (ت ٣٩٣ هـ) ، تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم ، ط١ ، (١٩٩٢ م) ، دار صادر ، لبنان .

- المنهيات ، **للإمام الولي** محمد بن علي ، المعروف بـ **الحكيم الترمذي** (ت ٣١٨ هـ) ، تحقيق محمد السعيد بن بسيوني زغلول ، ط١ ، (١٩٨٥ م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

- الموشىٰ أو الظرف والظرفاء ، **للإمام الأديب** محمد بن أحمد بن إسحاق بن يحيى **الوشاء** (ت ٣٢٥ هـ) ، تحقيق كمال مصطفىٰ ، ط٣ ، (١٩٩٣ م) ، مكتبة الخانجي ، مصر .

- موضح أوهام الجمع والتفريق ، **للإمام الحافظ** أحمد بن علي بن ثابت ، المعروف بـ **الخطيب البغدادي** (ت ٤٦٣ هـ) ، ط١ ، (١٩٥٩ م) ، دائرة المعارف العثمانية ، الهند .

- نثر الدر ، **للوزير الأديب المؤرخ** منصور بن الحسين **الآبي** (ت ٤٢١ هـ) ، تحقيق محمد علي قرنة وآخرون ، ط١ ، (١٩٨٤ م) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر .

- نشر طي التعريف في فضل حملة العلم الشريف والرد علىٰ ماقتهم السخيف ، للإمام **العلامة الفقيه** محمد بن عبد الرحمـٰن بن عمر **الحُبَيْشي** (ت ٧٨٢ هـ) ، عني به قصي محمد نورس الحلاق ، ط٢ ، (٢٠٠٥ م) ، دار المنهاج ، السعودية .

- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، **للحافظ المؤرخ الأديب** أحمد بن محمد بن يحيى ، المعروف بـ **المَقَّري** (ت ١٠٤١ هـ) ، تحقيق الدكتور إحسان عباس (ت ١٤٢٤ هـ) ، ط١ ، (١٩٨٨ م) ، دار صادر ، لبنان .

- النكت والعيون (تفسير الماوردي) ، **للإمام الفقيه الأصولي المفسر** علي بن محمد بن حبيب **الماوردي** (ت ٤٥٠ هـ) ، تحقيق عبد المقصود بن عبد الرحيم ، ط٢ ، (٢٠٠٧) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

- نهاية الأرب في فنون الأدب ، **للعالم البحاثة** أحمد بن عبد الوهاب بن محمد **النويري** (ت ٧٣٣ هـ) ، بعناية مجموعة من الباحثين ، ط١ ، (١٩٢٣ م) ، دار الكتب المصرية ، مصر .

- النهاية في غريب الحديث والأثر ، **للإمام الحافظ اللغوي** المبارك بن محمد بن محمد ، المعروف بـ **ابن الأثير** (ت ٦٠٦ هـ) ، تحقيق محمود الطناحي والطاهر الزاوي ، ط١ ، (١٩٦٣ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

- نوادر الأصول في معرفة أحاديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، المسمىٰ « سلوة العارفين وبستان الموحدين » ، **للإمام الولي** محمد بن علي ، المعروف بـ **الحكيم الترمذي** (ت ٣١٨ هـ) ، ويليه : « مرقاة الوصول حواشي نوادر الأصول » لابن إسماعيل الإمام ، ط١ ، (١٢٩٣ هـ) ، طبعة مصورة عن نسخة الأستانة لدىٰ دار صادر ، لبنان .

- الوافي بالوفيات ، للعلامة المؤرخ الأديب صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت ٧٦٤ هـ) ، تحقيق مجموعة من المحققين ، ط٢ ، (١٩٩١ م) ، دار فرانز شتاينر ، ألمانيا .
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، للإمام المؤرخ أحمد بن محمد ابن خلكان (ت ٦٨١ هـ) ، تحقيق الدكتور إحسان عباس (ت ١٤٢٤ هـ) ، ط١ ، (١٩٦٨ م) ، دار صادر ، لبنان .
- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، لإمام اللغة والأدب عبد الملك بن محمد بن إسماعيل ، المعروف بـ أبي منصور الثعالبي (ت ٤٢٩ هـ) ، تحقيق الدكتور مفيد محمد قميحة ، ط١ ، (١٩٨٣ م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

مُحتوى الكتاب